نجيب محفوظ

الأعمال الكاملة

٧



دار الشروق

الغلاف والتصميم
للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

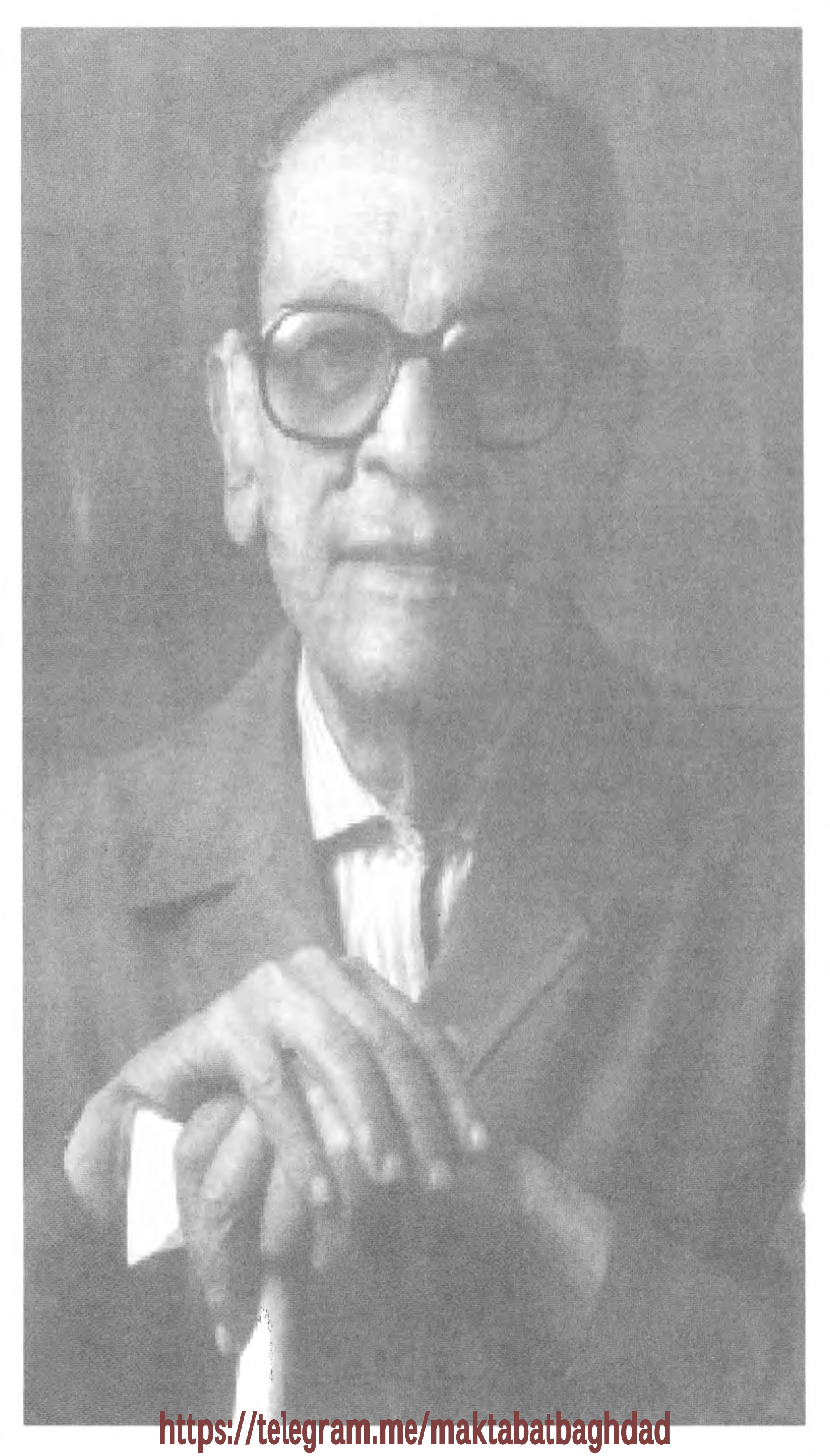
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٧

دار الشروق



الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٧

حكايات حارتنا

٧

قلب الليل

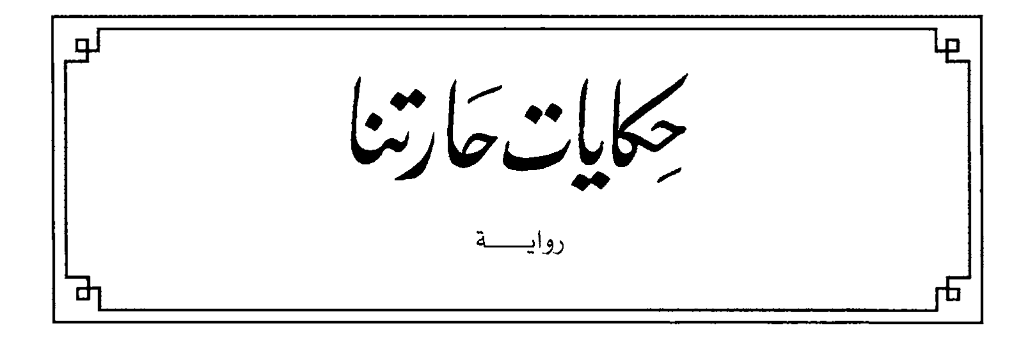
١١٧

حضرة المحترم

١٩٨

الحرافيش

٣٠٧



الحكاية رقم «١»

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبو والتكية. ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكية. أوراقها الخضر هى ينابيع الخضرة الوحيدة فى حارتنا. وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة. وها هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدق بها الحديقة، بوابتها مغلقة عابسة، دائما مغلقة، والنوافذ مغلقة فالمبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة، تمتد أيدينا إلى سوره كما تمتد إلى القصر.

وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسلة وعباءة فضفاضة وطاقية مزركشة فنهتف كلنا.

- «يا درويش. . إن شا الله تعيش».

ولكنه يمضى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء، ثم لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى.

- من هؤلاء الرجال يا أبى؟

- إنهم رجال الله . . .

ثم بنبرة ذات معنى:

- ملعون من يكدر صفوهم!

ولكن قلبى مولع بالتوت وحده.

وينهكنى اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثم أغفو. أستيقظ فأجدنى وحيدا فى الساحة، حتى الشمس توارت وراء السور العتيق، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل. على أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدلهم الظلام. وأنهض متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورنى بأننى غير وحيد، وأننى أهيم فى مجال جاذبية لطيف، وأن ثمة نظرة رحيبة تستقر على قلبى، فأنظر ناحية التكية. هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل. درويش ولكنه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل. طاعن فى الكبر،

مديد فى الطول، وجهه بحيرة من نور مشع. عباءته خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال. ومن شدة حملقتى فيه أثمل بنوره فيملأ منظره الكون. وخاطر طيب يقول لى إنه صاحب المكان وولى الأمر، وأنه ودود بخلاف الآخرين. أقترب من السور ثم أقول بابتهال:

ـ إنى أحب التوت . . .

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعنى، أكرر بصوت أعمق:

ـ إنى أحب التوت . . .

يخيل إلى أنه يشملنى بنظرة، وصوته الرخيم يقول:

ـ «بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد».

ويخيل إلىّ أنه رمى إلىّ بثمرة فأنحنى نحو الأرض لألتقطها فلا أعثر على شىء ثم أستقيم فأجد مكانه خاليا، والظلمة تغشى الباب الداخلى.

وأقص القصة على أبى فيرمقنى بارتياب فأؤكدها له فيقول:

ـ تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته!

فأحلف له على صدقى بكل مقدس فيسألنى:

ـ ترى ما معنى الرطانة التى حفظتها؟

ـ سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية.

فيصمت أبى مليا ثم يقول:

ـ لا تخبر بذلك أحدا.

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية.

وأهرع إلى الساحة فأتخلف وحدى بعد ذهاب الصبيان. أنتظر ظهور الشيخ فلا يظهر. أهتف بصوتى الرفيع:

ـ «بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد».

فلا يجيب. أعانى بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتى.

وأتذكر الحادثة فى زمن متأخر، أتساءل عن حقيقتها، هل رأيت الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهابا للأهمية ثم صدقت نفسى؟، هل توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال فى بيتنا عن الشيخ الكبير؟ . . هكذا أفكر، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى؟ . . ولماذا يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته؟ . . هكذا خلقت أسطورة وهكذا بددتها. غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت فى أعماق نفسى كذكرى مفعمة بالعذوبة. كما أننى ما زلت مولعا بالتوت.

الحكاية رقم «٢»

شمس الضحى تسطع والسماء صافية. من موقفى فوق السطح أرى المآذن والقباب، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور السطح مربوط به حبل الغسيل. أرمق السطح الملاصق فيتحلب ريقى. تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشىء من الحلوى. وأعبر السور. أمضى نحو المنور، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما. تجلس على كنبة تتشمس، تمشط شعرها، عارية تماما.. منظر غريب وباهر، وهى فى ضخامة بقرة. وأهتف:

- يا تيــزة!

ترتعب، تنظر إلى فوق، لا تلبث أن تضحك، تصيح بى:

- يا عكروت... انزل...

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل:

- أدخــل؟

وتسمح فأدخل، أقترب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسمة وتقول:

- وقعت يا بطل...

وتستلقى على بطنها وتقول:

- دلك لى ظهرى.

أشمر عن ساعدى، أدلك ظهرها بحماس ورضا، أشم رائحة جسد بشرى معبق بالصابون والقرنفل، وهى تتمتم:

- تسلم يداك!

ثم بمــزاح:

- أنت عفريت من الجنة!

ثم وهى تضحك:

- الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح.

ويزداد حماسى فى العمل فتقول:

- ارفع يدك لفوق يا شيطان، هل ستخبر أمك؟

- كــلا.

فتضحك وتقول :

ـ وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال، حقيقة أنك شيطان، هل تعلمت التدليك فى الكتاب؟ . . ماذا تدرس فى الكتاب؟

ـ الفاتحة وألف باء .

ـ ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة، ماذا ستأكل اليوم؟

ـ باميـــة .

ـ عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح، تنثال الملح من فيها بلا حساب، وكذلك النكات المكشوفة، فتحاول أمى أن تبعدنى ولكنى أرجع، وتشير لها إشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتمادى هى فى الدعابة .

وتسألها أمى معاتبة :

ـ متى تصلين وتصومين؟

فتجـــيب :

ـ فى آخر شهر قبل يوم القيامة .

فى الخمسين، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء . وعمل ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس وهى تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية، أرملة، فى كل بيت لها صديقة حميمة، لم تشتبك فى مشاجرة واحدة فى حارتنا الحافلة بالمشاحنات .

* * *

وتتنهد أمى ذات يوم وتقول :

ـ مسكينة يا أم زكى، ربنا يرعاك ويشفيك . . .

تتوعك صحتها، وتأخذ فى التدهور، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة ثقبت، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية، وتخيب فى شفائها كافة الوصفات . وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال «الأسياد» وألا شفاء لها إلا بالزار . ويجىء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء، ويعبق بالبخور، وتتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن الغموض والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد جديد، تجلس على عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان، منقوعة القدمين فى وعاء من ماء الورد تستقر فى قعره حبات من البن الأخضر .

وتدق الدفوف وتهزج الحناجر النحاسية بالأناشيد المرعشة، فتفوح فى الجو أنفاس العفاريت، ويدعو كل عفريت صاحبته المختارة من بين المدعوات للرقص، فتموج القاعة بالحركات، وتتوهج بالتأوهات، وتذوب الأجساد فى الأرواح. وها هى أم زكى تتلوى بعنف كأنما رُدت إلى جنون الشباب، وعن فيها المزين بالأسنان المذهبة يصدر صفير حاد، ثم تركض دائرة حول العرش، ويتحول ركضها إلى اندفاع رهيب، وتدور وتدور حتى تترنح من الإعياء وتتهاوى مغشيا عليها.

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلا:

ـ ليشهدنا خاتم الرسل الكرام.

* * *

وها هى الأيام تمر.

وصحة صديقتى لا تتحسن.

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل فى جزع:

ـ ماذا جرى لى؟.. ماذا جرى لى يارب؟!.. أين أنت يا أم زكى؟!

ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العينى. وتودع عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها. وتلمحنى واقفا فتلوح لى بيدها وتقول:

ـ ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار.

فأرفع عينى إلى السماء وأتمتم: «يارب.. رجع لنا تيزة أم زكى».

ولكن كأن الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق.

الحكاية رقم «٣»

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر.

أبى ينظر إلىّ باهتمام. يبتسم لى برقة وهو يحتسى قهوته. وهو يهم بالذهاب يداعب شعرى ويربت على منكبى بحنان ثم يمضى.

وأمى تقوم بعملها اليومى بعصبية، تغضى عن عبثى وتقول لى مشجعة:

ـ العب يا حبيبى..

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد.

وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمامى جارتنا الشامية أم برهوم. وأعدو إلى المطبخ لأخبر أمى ولكنى لم أجدها. وأنادى عليها بلا جدوى فتقول لى أم برهوم:

- نينتك ذهبت فى مشوار، وأنا معك حتى ترجع...

فأقول محتجا:

- ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة.

- وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك؟

وأصبر متضايقا.

ويدق الباب فتومئ لى بالانتظار وتذهب. تغيب دقيقة وإذا بعم حسن الحلاق ومساعده يدخلان باسمين فقلت لهما من فورى:

- أبى خــــرج.

فقال العجوز:

- نحن ضيوف! سنريك لعبة فريدة.

وجلس على كنبة وهو يبسمل ثم قال وهو يخرج من حقيبته أدوات بيضاء لامعة:

- يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات.

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى!

ويجىء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا:

- هكذا أفضل.

وإذا بيديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنها ألصقت بالغراء والمسامير، فصرخت غاضبا:

- ابعد عنى.

واستغثت بأم برهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب...

ولم أفهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة، ها أنا أعانى هجمة وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا. وها هو الألم الحاد القاسى ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى إلى أطراف جسمى وصميم قلبى. وها هو صراخى يدك الجدران ويجتاح أرجاء حارتنا.

* * *

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن. أغوص فى الماء بين اليقظة والنوم. تمر بى أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان.

وعند نقطة من الزمن تلوح لى أمى بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

وقبل أن أفتح فمى محتجا أو متهما تضع بين يدى هدايا الشيكولاته والملبس .

وأعيش أياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة . . ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات .

وأنتقل من مكان إلى مكان مفرّجا بين فخذى مبعدا بيدى الجلباب عن جسدى .

الحكاية رقم «٤»

وأنا ماض نحو القبو ينفتح باب بيت القيروانى تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . بيضاوات ملونات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحة نقية . الدوكار ينتظرهن فأتسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولى فتضحك وسطاهن وهى أشدهن امتلاء وأغلظهن شفة وتقول :

ـ ما له يسد الطريق !

لا أتحرك فتخاطبنى مداعبة :

ـ أفق يا أنت !

وأقول متأثرا بدفقة حياة مبهمة :

ـ بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد .

فيغرقن فى الضحك وتقول الكبرى :

ـ إنه درويش .

فتقول الوسطى :

ـ إنه مجنون !

وألقى بنفسى فى ظلمة القبو فأمضى مهرولا حتى أخرج إلى نور الساحة أمام التكية . فى رأسى حماس وفى قلبى نذير نشوة البراعم قبل أن تتفتح .

صورهن الباهرة مستكنة فى متحف الأعماق .

بذور حب لم يتح لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها .

الحكاية رقم «٥»

اليوم ســـعيد .

سأذهب فى صحبة أمى إلى زيارة حرم المأمور .

هطلت الأمطار فى الصباح الباكر ولكن الجو رق وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتخدد جوانبه ولكننى سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكناء ، فى نقرة ذقنها وشم ، ونبرتها ريفية غريبة ، وضحكتها عالية ، وقطتها غزيرة الشعر نقية البياض ودائما تسبح بذكر الله .

وتعانق أمى مرحبة وأنا أنتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبث بشعر رأسى ، ترفعنى بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليا ، تضمنى إلى صدرها فأغوص فى أعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها إلى جوارحى دفء مؤثر .

أسير وراءهما وأنا أسوى ما تشعث من شعرى وملابسى ولما أفق من نفحة الدفء .

وتقـــول لأمـى :

ـ بت أومن بأن القبو مسكون بالعفاريت . .

فتبسمل أمى فتقول الأخرى :

ـ إنهم يخرجون عقب منتصف الليل .

فتقول لها أمى محذرة :

ـ إياك وأن تنظرى من النافذة .

وألاعب أنا القطة حتى تتوارى تحت الكنبة . أنظر إلى رأس ثور مثبت فى الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول إليه . المضيفة تقدم لى قطعة هريسة فأتناولها . أمنى النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة .

ويطول الحديث ويتشعب .

وتشعل المرأة المصباح الغازى المدلى من السقف .

تدور حول المصباح فراشة .

أتساءل متى تجىء لحظة الوداع الواعدة بالدفء؟

الحكاية رقم «٦»

على حصيرة واحدة نقعد صبيانا وبنات فى الكتاب. نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبى وقدم بنت. وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية.

تسترق عيناى النظر إلى درويشة وهى تقرأ أو تأكل.

فى الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثم أسير إلى بيتى حاملا لوحى وصورتها.

وفى موسم القرافة أضيق بالمكوث فى الحوش فأمرق إلى الخارج فنتلاقى ـ أنا ودرويشة ـ بين القبور المكشوفة بلا تدبير.

وأشطر فطيرتى فأعطيها النصف، نأكل ونتبادل النظر.

ـ أين تلعبين؟

ـ فى الزقاق.

هل تلعب فى الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلل إليه فى النهار. يمنعنى إحساس خفى ولكنه غير برىء. ونتواعد بالنظر وبلا كلام. ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب.

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام.

ـ نجلس؟

ولكنها لا تجيب.

أجلس على العتبة وأشدها من يدها فتجلس. أتزحزح حتى نتلاصق. يغمرنى شعور بسرور غريب ذى أسرار. أمد يدى إلى ذقنها فأدير وجهها إلىّ. أميل نحوها فأقبلها. أحيط خاصرتها بذراعى. أصمت وأهيم وأذوب فى دفقة إحساس مبهمة فأعرف السكر قبل الخمر.

وننسى الوقت والخوف.

وننسى الأهل والحارة.

حتى الأشباح لا تفرقنا.

الحكاية رقم «٧»

فى ليالى الصيف نسهر فوق السطح، نفرش الحصيرة والشلت، نستضىء بأنوار النجوم أو القمر، تلعب من حولنا القطط، يؤنسنا نقيق الدجاج. وتنضم إلينا فى بعض الأحيان أسرة جارنا الحاج بشير. وهى أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن فى العاشرة. يحلو لهن فى أوقات السرور أن يغنين معا أغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفى بالبشرة البيضاء والأعين الملونة. أهيم بالأم وبناتها وألح فى طلب السماع، ويستخفنى الطرب فأشارك فى الغناء وأحرز فى ذلك نجاحا وإعجابا حتى تقول جارتنا:

ـ ما أحلى صوتك يا ولد!

وأجد فى مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتى الصوتية كما يجد فيه قلبى الصغير نشوته فى حضرة البهاء الأنثوى. ويصبح الغناء هوايتى، وسماع أسطوانات المهدية قرة عينى، أما أغنيات الجبل فينشدها قلبى وحنجرتى معا.

وتقول جارتنا لأمى ذات يوم:

ـ الولد له صوت جميل.

فتقول أمى بسرور:

ـ حقا؟

ـ لا يجوز إهماله!

ـ فليغنِّ كيف شاء فهو أفضل من العفرتة.

ـ ألا تودين أن يكون ابنك مطربا؟

فتؤخذ أمى ولا تجيب فتواصل الجارة:

ـ ما له سى أنور وسى عبد اللطيف؟

ـ إنى أحلم أن أراه يوما موظفا مثل أبيه وإخوته...

ـ المغنى يربح أكثر من مصلحة حكومية.

وأصغى باهتمام وأنا جالس على حجْر الجارة مزهوا بالدفء والمجد.

* * *

ولا تدوم أيام السعادة والفن طويلا فذات يوم أرى أمى تهز رأسها بأسف وتتمتم:

ـ ياللخسارة!

فأسألها عما يؤسفها فتقول:

ـ جيراننا الطيبون راحلون إلى بر الشام.

ينقبض قلبى بالرغم من أننى لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل:

ـ أهو بعيد؟

فتجيب بحزن:

ـ أبعد مما نستطيع أن نبلغه.

أود من صميم قلبى أن أغير الواقع، أن أرجع الزمن إلى أمس، ولكن كيف؟

وأودعهم للمرة الأخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبّل يد الحاج بشير. وأتبع الحانطور نظرى حتى يخفيه منعطف النحاسين. وأبكى طويلا وأعانى مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية...

الحكاية رقم «٨»

مواسم القرافة تُعد من أسعد أيامى البهيجة.

نشرع فى الاستعداد لها مع العشى بإعداد الفطير والتمر. وفى الصباح الباكر أمضى بين أبى وأمى حاملا الخوص والريحان، تتقدمنا الخادمة بسلة الرحمة.

يسرنى تدفق تيارات الخلق، وطوابير الكارو، وأعرف باب الحوش كصديق قديم. ويجذبنى القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشامخين، وسره المنطوى، وبإجلال والدى له، كما تجذبنى شجيرة الصبار. وتحت قبة السماء تنطلق منى وثبات فرح. ودفقات استطلاع لا يكدرها شىء، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة.

وتتغير الصورة بدخول همام فى إطارها.

تجىء أختى وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن. همام فى الرابعة أو يزيد عنها قليلا، أجد فيه رفيقا ذا حيوية وجاذبية، يُخرجنى بمؤانسته من وحدتى. جميل خفيف الروح، يلاعبنى بلا ملل ويصدق أكاذيبى وأوهامى.

وأجده ذات يوم راقدا وصامتا، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا يستجيب، وأخبر بأنه مريض...

ويطبق على الجو اهتمام وحذر، ويتفشى فيه ضيق وكدر، وأتلقى أحاسيس مبهمة وغير سارة، ويزيد من تعاستى قلق أمى وجزع أختى ثم حضور زوجها . . .

وأسأل عما يحدث فأبعَد عن المكان ويُقال لى :

ـ لا شأن لك بهذا . . العب بعيدا . .

ولكنى أشعر بأن حدثا غير عادى يحدث . .

إنه خطير حتى إن أمى تبكى . وأختى تصرخ . وألمح من بعيد صديقى مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يُترك له متنفس . وأخيرا يتردد اسم الموت من قريب . وأفهم أنه فراق يطول فأبكى مع الباكين، ويتألم قلبى أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من أيامى البهيجة، ويتغير وقع منظره . أود أن أطلع على خفاياه، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا يعزّينى أن يُقال إن همام يمرح فى الجنة ويسقى أزهارها . ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كر الأيام . إنه الحزن والحب الضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب .

الحكاية رقم «٩»

خبر يتردد فى البيت والحارة .

تقول إحدى الجارات لأمى :

ـ أما سمعت بالخبر العجيب؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول :

ـ توحيدة بنت أم على بنت عم رجب!

ـ ما لها كفى الله الشر؟

ـ توظفت فى الحكومة!

ـ توظفت فى الحكومة؟

ـ إى والله . . موظفة . . تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . إنها من أسرة طيبة . . وأمها طيبة . . وأبوها رجل صحيح!

ـ كلام . . أى رجل يرضى عن ذلك؟

ـ اللهم استرنا يارب فى الدنيا والآخرة . .

ـ يمكن لأن البنت غير جميلة؟

ـ كانت ستجد ابن الحلال على أى حال . .

وأسمع الألسن تلوك سيرتها فى الحارة، تعلق وتسخر وتنتقد، وكلما لاح أبوها عم رجب أسمع من يقول :

ـ اللهم احفظنا . .

ـ يا خسارة الرجال!

توحيدة أول موظفة من حارتنا. ويقال إنها زاملت أختى الكبرى فى الكتاب. ويحفزنى ما سمعته عنها إلى التفرج عليها حين عودتها من العمل. أقف عند مدخل الحارة حتى أراها وهى تغادر سوارس، أرنو إليها وهى تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات فى حارتنا. وتلقى على نظرة خاطفة أو لا ترانى على الإطلاق ثم تمضى داخل الحارة. وأتمتم مرددا كالببغاء :

ـ يا خسارة الرجال!

الحكاية رقم «١٠»

أم عبده أشهر امرأة فى حارتنا.

فى قوة بغل وجرأة فتوة، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع أمام عنفها.

ولها بنتان جميلتان، دولت وإحسان.

فى أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد، من التاجر والعامل والبائع والصعلوك، كل أسرة لها عمل وأجر، هى الوسيطة والشفيعة والخاطبة والدلالة والماشطة، وعند الخصومة فهى القوة التى تبطش بالخصم.

وتزور أمى أحيانا فتحكى لها عن أحوالها. وقد يقتضى الأمر تمثيل ما وقع فى آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب والسب والقذف حتى يتوهم السامع أن التمثيل مشاجرة حقيقة . .

وهى تجاملنا فى المواسم فتجيئنا بالكارو لتمضى بنا إلى زيارة المغاورى وأبى السعود طبيب الجراح.

وأنا الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة. أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد فى الفناء، ويتوق للقرب من دولت وإحسان.

دولت فتاة طيبة، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن. يحبها شاب متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا بمصاهرة أم عبده.

إحسان صورة مصغرة من أمها فى أخلاقها ولكنها باهرة الجمال. مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة، تتحدى أمها نفسها فتنشب بينهما المعارك المثيرة. ويطلب يدها فتيان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة فريدة كما حدث لأختها دولت. وإنى صديقها رغم فارق السن. غرائزى الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج فى عينى بأشواق مبهمة. يبهرنى حجمها المترامى وأعضاؤها الثرية المتراقصة. وتدعونى أحيانا لأساعدها وهى تغسل فى الفناء. أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وأمضى كالمترنح من ثقلها. أجلس قبالتها لأتسلم منها الملابس بعد عصرها لأكومها فى الطشت. فى أثناء ذلك تتلصص عيانى وهى ترامق تطلعاتى باسمة.

وتقول لى ذات مرة:

- خذ منديلى واذهب به إلى الشيخ لبيب.

وأذهب إلى الشيخ لبيب فى مجلسه قبيل القبو. يتربع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيته البيضاء، مكحول العينين مزجج الحاجبين. أعطيه المنديل ومليما وقطعة سكر، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول:

- عما قريب يمتلئ الكرار ويغنى العصفور..

وأرجع إليها وأنا أردد ما سمعته لأحفظه، ويسعدنى دائما أن أؤدى لها خدمة من الخدمات.

ويطلب يدها صاحب محل فراشة، غنى فى الخمسين ذو زوجة وأولاد، فتتزوج منه. تعاشره عامين ثم تختفى من بيته ومن الحارة جميعا مخلفة وراءها ضجة وعارا وإصابة فى كبرياء أم عبده.

* * *

وفى ذات ليلة من ليالى الزمن الجارى الذى لا يتوقف أجدنى وجها لوجه مع إحسان. ترقص وتغنى:

عومى على الميّه   يا بت يا شاميّه

وترانى فيشع من عينيها نور العرفان. أقف ذاهلا ولكنها تتلقانى ببساطة وبابتسامة مشجعة. تقبل نحوى فتأخذنى من يدى إلى حجرتها ثم تغلق الباب وتغرق فى الضحك. وتقول لى بعد أن جلسنا:

- الدنيا واسعة ولكنها فى النهاية كالحُق.

وأتفرس فى وجهها فتسألنى عن أمها قائلة:

ـ كيف حال أم عبده؟

ـ عـــال .

ـ ودولت أختى؟

ـ بكريّها فى المدرسة .

ـ ووالدتك وأخوتك؟

ـ بخيـــر .

فتقول بمودة :

ـ زرنى كثيرا .

وأسألها بعد تردد :

ـ كيف جئت إلى هنا؟

فتضحك وتقول ساخرة :

ـ من نفس الطريق التى جئت منها أنت!

الحكاية رقم «١١»

نقف فى فناء المدرسة الابتدائية جماعات ننتظر نتيجة القبول . أنهينا مرحلة الكتَّاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن ننتظر إعلان النتيجة .

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضى فى تلاوة الأسماء من كشف بيده ثم يقول :

ـ ليبق منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم .

لم أسمع اسمى . تشيع فى نفسى فرحة شاملة . أعتقد أن سقوطى هو نهاية علاقتى بالتعليم وعصىّ المدرسين ، وأننى سأستقبل من الآن فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألنى أبى عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

ـ سقطت ورجعت إلى البيت .

ـ اخْص . . تصورتك أفضل مما أنت . .

فأقول بسرور :

ـ لا يهـــم!

ـ لا يهـــم؟

ـ إنى أكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ وأكره الدروس . . فالحمد الله على أننى تخلصت من ذلك كله .

فيقطب أبى متسائلا :

ـ أتظن أنك ستمكث فى البيت؟

ـ نعم ، هذا أفضل .

ـ لتلعب مع الأوباش فى الحارة ، أليس كذلك؟

فنظرت إليه بقلق فقال بحزم :

ـ سترجع إلى الكتاب عاما آخر ، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك . . وأهم بالاحتجاج فيقول :

ـ استعد لعمر طويل من التعلم ، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى تصير رجلا محترما . .

ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات!

الحكاية رقم «١٢»

ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تتفجر بحناجرها الهتافات . . .

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم برج جدران حارتنا ويصم الآذان ، إنهم يصرخون ، وبقبضات أيديهم يهددون ، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن فى الجنون . . .

وأحملق فيما يجرى من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدنيا . . .

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة السحرية ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام . . .

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صور سعد زغلول تلصق بالجدران ، إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .

وأقول لنفسى إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسل شديد البهجة غير أننى أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يومون بالطوب، يتحصنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة. تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أُنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول:

ـ إنه الموت.

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شىء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزير رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب.

يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت.

ويتردد الهدير ولكن ـ هذه المرة ـ من بعيد.. ثم يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف.

وأعرف بعض الشىء معانى الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت.

تزورنا أم عبده فى غاية من الانفعال، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علوة صبى الفران، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية وألقت الفرسان عن متنها...

وأقول لنفسى إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق.

الحكاية رقم «١٣»

مهذب ذكى العينين قصير القامة فى مطلع الشباب، قيل لى:

ـ ابن عمك صبرى.

أعرف أباه ـ عمى ـ معرفة سطحية فهو لا يبرح الريف إلا نادرا، أما صبرى فإنه يرى القاهرة لأول مرة. وأعرف أيضا من أحاديث الليل أن عمى أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدارسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثورى فى موطنه إلى مراكز الأمن.

أسأله وأنا أرمقه بشغف:

ـ أنت من شبان المظاهرات ويحيا سعد؟

فيبتسم ولا يجيب . . إنه يبدو أعمق من سنه .

ويقول له أبى :

ـ هذا بيتك ، وأنت الآن آمن ، ولكن كن على حذر .

وأقول لأبى :

ـ ولكنك يا بابا أضربت مع الموظفين؟

ـ فينهرنى :

ـ لا تتدخل فيما لا يعنيك .

ويمارس صبرى حياة تلميذ مجتهد ذى طاقة كبيرة فى العمل .

غير أن القلق يلوح فى عينيه الذكيتين ذات مساء فأسأله عما يقلقه فيسأل بحذر :

ـ ماذا دعاك إلى السؤال؟

ـ لست كعادتك .

فيدعونى إلى المشى فى الحارة . نتسكع فى الحارة وفى ميدان بيت القاضى حتى يهبط الليل . ويهمس فى أذنى :

ـ تستطيع ولا شك أن تحمل ورقة إلى هذا أو ذاك من الناس؟

ـ ولكن لماذا أفعل ذلك؟

ـ لا تفعله إذا كان يضايقك؟

وأوافق ليعهد إلىّ بمهمة أيّا تكن .

وأمضى لأوزع أوراقا على أصحاب الحوانيت والمارة . يتناولونها بدهشة ، يلقون عليها نظرة سريعة ، يبتسمون ثم يواصلون العمل أو المشى .

وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألنى :

ـ مبسوط؟

أعرب له عن سرورى الذى لا حد له فيقول محذرا :

ـ إياك أن تخبر عمى أو امرأة عمى .

ولا أعلم أننى كنت أوزع منشورات سياسية إلا بعد مرور فترة غير قصيرة .

الحكاية رقم «١٤»

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزلية. من عجب أنهم يهزلون فى الفترات القصيرة التى تفصل بين المصادمات الدامية. ها هى مظاهرة ضخمة تسوق فى مقدمتها حمارا مدثرا بقماش أبيض نقش عليه بالأحمر:

«السلطان فؤاد»

ابن بلد يمتطى الحمار واضعا على رأسه قبعة بريطانية، والهدير يصطخب:

يا فؤاد يا وش القملة   من قالك تعمل دى العملة

وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد.

وأحمل لأبى خبرا من الحارة أثار خيالى فأقول له:

- يقولون إن اسم سعد يُرى منقوشا على البيض بعد خروجه من الدجاج.

فيضحك أبى، ويضحك ضيف يجالسه. ويقول الضيف عن سعد:

- كان أعداؤه يتجنبون النظر فى عينيه وهم يجادلونه تفاديا للشعاع الحاد الذى ينطلق منهما.

ويطرب أبى للكلام ويتمتم:

- إنه هدية السماء إلينا.

فيقول الضيف متحمسا:

- انتهت سنون النحس وبدأت أيام السعد.

ويتنهد أبى قائلا:

- يا أسفى على الرجل الشيخ المريض فى منفاه.

فأذهل وأسأل:

- سعد مريض، كيف هذا يا بابا؟

ولا يعيرنى التفاتا فأصر قائلا:

- سعد لا يمكن أن يمرض.

ثم بيقين أشد:

- لم يبق إلا أن تقول إنه سيموت مثل همام ابن أختى.

الحكاية رقم «١٥»

ويزور أبى جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة. لا حديث هذه الأيام إلا عن الثورة. حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة، ولعبنا فى الحارة مظاهرات وهتافات. وتصبح دوريات الإنجليز منظرا مألوفا لدينا، نمعن فى الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجب.

يدور الحديث بين الزوار عن الثورة.

- من يصدق هذا كله أو بعضه؟!

- إنه الله الرحمن الرحيم.

- يخلق الحى من الميت.

- الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يَقتلون ويُقتلون.

- الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الإمبراطورية.

- انقطعت المواصلات تماما، أصبحت مصر دويلات مستقلة!

- والمذابح؟

- مذبحة الأزهر.

- مذبحة أسيوط.

- العزيزية والبدرشين.

- الحسينية.

- لا أنا ولا أنت، ليحيى سعد!

- إى والله ليحيى الساحر العظيم.

- ولكن الأموات يفوقون الحصر.

- أحياء عند ربهم.

وينبرى رجل ليقص سيرة سعد كما يعرفها، ومواقفه مع الإنجليز والخديو قبل الثورة.

وألمح أبى تغرورق عيناه بالدموع.

أراقبه بذهول محتقنا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على خدى.

الحكاية رقم «١٦»

سلومة أول شهيد من أبناء حارتنا. حقيقة أن علوة صبى الفران أول من قتل فى حارتنا ولكنه فى الأصل من أبناء كفر الزغارى. وعم طلبة ـ أبو سلومة ـ بياع يسرح بعربة غزل البنات، وكان سلومة يعاونه، وينام على مقدم العربة إذا أنهكه التعب.

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضى فينضم إليها سلومة بتلقائية دون أن ينتبه إليه أبوه. وتنقض على المظاهرة قوة إنجليزية فى خان جعفر وتطلق عليها النار. يصاب سلومة برصاصة فى رأسه ويسقط قتيلا.

وينتشر الخبر فى الحارة فيجتاحها حزن، ويهزها الفخار والإكبار. ويقبل الناس على عم طلبة يعزونه وينثرون بين يديه لآلئ الكلمات. ورغم حزن الرجل وتهالكه فإنه يمارس إحساسا جديدا لم يعرفه من قبل، يرى نفسه لأول مرة محوطة بأهل الحارة من كافة الطبقات، يفوز بإكبار من لم يبالوا من قبل برد تحياته، وتنهال عليه نفحات الموسرين من التجار والمعلمين.

وتكون جنازة سلومة أعظم جنازة تشهدها حارتنا، تصغر إلى جانبها أى جنازة سابقة من جنازات الفتوات والأعيان ورجال الدين. سعى وراء النعش المكلل بالعلم جميع الذكور، وحيّاه النساء من النوافذ والأسطح، وانضم إلى المشيعين مئات من الحوارى المجاورة، فبلغت الحسين فى صخامة مظاهرة وجلالها.

وتصير الجنازة حديث الناس، ويمسى سلومة اسما ورمزا، ويحظى الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة، وينوه المعلقون بعجائب الحياة المغيرة للقيم فى لحظة من اللحظات الساحرة.

الحكاية رقم «١٧»

استيقظت ذات صباح فأجد فى بيتنا امرأة وفتاة.

وتقول أمى:

ـ تعال سلم على عمتك وبنت عمتك سعاد.

أسلم بحياء من يراهما لأول مرة. المرأة تشبه أبى حقا، الفتاة غاية من الجمال.

وتسألنى عمتى :

ـ فى أى سنة دراسية يا حبيبى؟

ـ الثانية الابتدائية .

وأفتن بالفتاة فتملؤنى بسحر لطيف وأحلام عذبة .

وأعرف أن عمتى جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهزها وأن زفافها وشيك . وتشغل أيامهما المعدودة بالقاهرة بالتردد مع أبى على محال الأثاث والنجارين والمنجدين .

وفى أوقات الراحة تتبدى سعاد فى ثوب أنيق وزينة جذابة ، تتألق بألوان العرائس وتعبق بشذاهن .

وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض .

وتقول لى وهى تنظر إلى الحارة من خصاص النافذة :

ـ حارتكم مسلية جدا .

ـ تعالى أفرجك على أزقتها والقبو والتكية .

تتجاهل دعوتى . تتسلل نظراتى إلى عنقها وأسفل ساقيها ، أتوق إلى تلاق غامض وإشباع مبهم ومغامرة مجهولة ، أريد أن ألمس خدها المتورد ، لا أريد أن أصدق أنها سترحل بعد أيام ، وأن قلبى لن يجد من يؤنسه .

وأستجمع شجاعتى وأقول :

ـ أتعـــرفين؟

وينقطع الصوت والتفكير فتتساءل هى بنبرة محرضة على مواصلة الحديث :

ـ أتعـــرفين؟

ألوذ بالصمت فتسألنى :

ـ لماذا تنظر إلىّ هكذا؟

ـ أنـــا؟ !

ـ نعم ، رأيتك ، لا تنكر .

وتضحك ضحكة قصيرة ثم تقول :

ـ أنت ولد شقى .

وينقبض قلبى من الشعور بالذنب .

* * *

وأرى أمي وعمتى ذات يوم وهما يتناوبان النظر فى صورة فوتوغرافية لسعاد . وتقول عمتى :

ـ أصر العريس على رؤية الصورة .

ـ وأبوها وافق؟

ـ يعـــنى .

ويترامى إلينا صوت أبى من حجرته :

ـ تصرف غير لائق!

فتقول أمى :

ـ الزمان غير الزمان!

وتقول عمتى :

ـ ما هى إلا صورة، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أبى بنبرة لا تخلو من احتجاج :

ـ على خيرة الله .

أتابع الحديث بحزن خفى . تطالعنى من ثناياه نذر الفراق الأبدى ووجه الكآبة فى الأفق .

وتمر أيام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن إيقافها .

وتجىء لحظة الوداع .

وأرنو إلى خد سعاد المورد كرغيف خارج لتوه من الفرن .

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل .

وتضحك أمى من لوعتى دون أن تفطن إلى عمق أشجانى .

الحكاية رقم «١٨»

الفرحة ترقص فى القلوب، والنشوة تشتعل فى النفوس، يوم عودة سعد .

أبى يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقة، زر طربوشه مفقود، عقدة رباط عنقه غائصة فى ثنية الياقة . جاكتته تنضح بالعرق والتراب، صوته مبحوح كأنه سعل دهرا، ولكن عينيه تتألقان بنور ظافر . يستلقى على الكنبة ويقول :

ـ هتفت حتى ضاع صوتى، نسيت نفسى تماما .

ثم بارتياح عميق :

ـ تجمعت الدنيا كلها فى ميدان السيدة، سبحانك يا ربى ما أكثر عبادك!

ويجتاح الحارة إحساس غامر بالنصر، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق الأبواب. وتطبق المظاهرات على حينا لا تريد أن تنتهى. سعد.. سعد.. يحيا سعد. وتلهب حرارة الهتافات خيالى، وآسف على أن المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التى لا مخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة.

وأسأل أمى:

- سيرحل الإنجليز؟

فتجيبنى بيقين:

- إلى غير رجعة.

وفى الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالا خاصا. تضاء الكلوبات فى هامات الدكاكين، ترتفع الأعلام، تدوى الزغاريد وتتطوع العالمة ألماظية بإحياء الليلة. تقيم سدتها فى الوسط أمام الوكالة يحف بها تختها، ترص الكراسى أمامها، وعلى أنغام العود والقانون والناى والرق يرقص الرجال، وتغنى هى:

ليالى الأنس عادت بالليالى

وتغنى أيضا:

يا بلح «زغلول» يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها:

ياواد يا ألنبى كان جرى لك إيه يابن المره

جه الاستقلال غصبا عنك وعن انجلتره

وتكتظ البوظة بالسكارى وتشتعل الغرز بنيران المجامر، وحتى المجاذيب والمتشردون واللصوص يسهرون ويفرحون. ويشارك عم طلبة أبو الشهيد فى الحفل، والشيخ لبيب يحضره.

وأسهر أنا فى النافذة، وقوى مجهولة تشحن قلبى الصغير بحيوية سحرية.

الحكاية رقم «١٩»

أبى ينظر إلىّ نظرة غامضة ويسألنى:

- ماذا فعلت؟

فأجيبه بسرور وزهو:

ـ اشتركت فى المظاهرة الكبرى .

ـ كان يمكن أن تدوسك الأقدام .

ـ كان الصغار كثيرين .

ويدارى أبى ابتسامة ويسألنى بنبرة ممتحن :

ـ الآن سعد زغلول . . هو رئيس الوزراء فلم تضربون؟

ـ أضربنا لتأييده فى موقفه ضد الملك .

ـ من قال لك ذلك؟

ـ رئيس الطلبة ، قال إن سعد زغلول قدم استقالته احتجاجا على موقف الملك من الدستور ، وأننا ذاهبون لتأييد الزعيم .

ـ هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك؟

وأتوقف عن الاسترسال مرتبكا فيضحك أبى ولكنى أبادره :

ـ نحن مع سعد وضد الملك!

ـ عظيم ، وماذا كان هتافكم فى عابدين؟

ـ سعد أو الثورة .

ـ ما معنى ذلك؟

وأتفكر قليلا ثم أقول :

ـ معناه واضح ، سعد أو الثورة .

وهو يبتسم :

ـ عظيم ، ومن الذى انتصر؟

ـ سعد ، وهتفنا : عاش الملك ويحيا سعد .

ثم أقول بحماس :

ـ الاشتراك فى المظاهرة أمتع من أى شىء فى الدنيا .

فيبتسم أبى ويقول :

ـ بشرط ألا يشترك فيها الإنجليز!

الحكاية رقم «٢٠»

يحيى مذكور أمهر لاعب كرة فى مدرستنا، وصديقى المفضل فى المدرسة الابتدائية.
أجده يوما يقرأ كتابا فى الفسحة فأسأله:
- ما هـــذا؟
- ابن جونسون.. الحلقة الأولى من مسلسلة بوليسية جديدة.
ويعيرنى الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل. وأواظب على قراءة السلسلة، ثم أنتقل من سلسلة إلى أخرى، ومن كتاب إلى آخر، ثم أدمن القراءة.
وأصير مع الزمن بطلا من أبطال القراءة، أما صديقى فيهجرها سريعا ثم يتربع على عرش الكرة.

الحكاية رقم «٢١»

إبراهيم توفيق مقترن فى ذاكرتى بالتهريج والتحدى، خفيف الروح نصف مجنون. بطل هواة لعب الكرة «الزلط» فى فناء المدرسة. ننتقى عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة فى حجم الجوزة لتقوم مقام الكرة، نخوض بها مباراة يومية فى فسحة بعد الغداء. والمباراة «الزلطية» ممنوعة رسميا ولكن يغضى عنها عادة، وتمارس بعنف فى أثناء تناول الضباط طعامهم، ويكف عنها فورا عند مرور الناظر، أما عواقبها الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء.
وفى الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشة حتى يصير مثل طاقية، ويرتدى جاكتته بالمقلوب، ويحاكى مشية شارلى شابلن ذهابا وإيابا على إيقاع تصفيقنا، ثم يختم لعبه بإنشاد مونولوج:

يا عـــديم الخـــال يا قليل المال
رفـعتك محـال في زمن الأندال

ويوما يتباهى بالمقالب التى يدبرها لزوج أمه فيقول له أحدنا:
- أتحداك أن تأكل قرن فلفل حامى!

والتحدى يستفزه لمصارعة المحال فيهتف :

ـ آكل عشـــرة !

ويتراهن فريقان . نبتاع من بياع الفول عشرة قرون فلفل حامية ، وتحلقناه فى حماس .

يتناول إبراهيم القرن الأول ويأكله مبديا ثباتا واستهانة .

ويتناول الثانى محافظا على ثباته واستهانته .

ويتناول الثالث فلا يتغير من مظهره شىء إلا أنه ازدرد ريقه بصورة ملموسة .

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة .

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوة إرادته ويسعل بشىء من العنف .

وعقب تناول السادس يبدو كأنه يقاوم عدوا مجهولا اندس فى أعماقه ، وتفيض عيناه بالدمع .

وهو يأكل السابع يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة .

ويصيح بعض ضعاف القلوب :

ـ أوقفوا الرهان .

ولكنه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنما لا يستطيع النطق .

ويلتقى ماء عينيه بماء أنفه فى مجرى على ذقنه وعنقه ويتنابه سعال متقطع .

ويستحيل وجهه قرمزيا وتنتفخ شفتاه ولكنه يلتهم القرون حتى آخرها وسط التهليل والتصفيق ، ويربح .

ولكنه لعله لا يشعر للنصر بلذة ، إنه صامت محتقن زائغ البصر ، وعلى هذه الحال ندخل حصة الدين . والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الإهمال والشقاوة ، يقول له :

ـ إبراهيم توفيق ، سمع ﴿ **تبارك الذى** ﴾ .

ويلبث إبراهيم صامتا مغمورا بهمومه الخفية فيصيح به الشيخ :

ـ قف يا ولد وسمّع .

ولكن إبراهيم لا يتحرك على حين تصدر من الأركان همهمة يظنها الشيخ لعبة متفقا عليها فيصيح :

ـ الأدب يا أولاد الكلاب ، قم يا مجرم . . قم لا بارك الله فيك ولا فيمن أنجبك .

ويقترب الشيخ منه فى مجلسه فى آخر الحجرة فيهوله منظر وجهه فيتوقف متسائلا :

ـ ماذا بك ؟ . . لماذا تبكى ؟

عند ذاك يتكلم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجب ويقول :

ـ أعوذ بالله . . يا أولاد الأبالسة . . كلكم مجرم وابن مجرم .

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعف فى حجرة الطبيب . . ولكن إبراهيم لا يكف أبدا عن التهريج والتحدى .

الحكاية رقم «٢٢»

هاشم زايد يجلس إلى جانبى على قمطر واحد .

طويل القامة مفتول العضلات ولكنه وديع خجول وطيب وحسن السلوك . أمه أرملة غنية تملك بيوت زقاق برمته وشريكة أكبر عطار فى الحارة ، لذلك نخصه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد . تتهادى إليه نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلا أن يضحك فيراه المدرس دون الفاعل الحقيقى فينال جزاءه صفعة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ المؤدب .

ويفشل هاشم فى المدرسة فيتركها ، وتموت أمه فيصير من أكبر أعيان الحارة فى لحظة واحدة . وتفرق بيننا السبل . أراه أحيانا متسقلا الكارتة أو جالسا فى ملابسه البلدية وسط هالة من المريدين . إنه يتحول إلى شخصية غريبة فأتجنب حتى مصافحته . إنه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته فى العدوان وفرض إرادته على العباد . كيف يتحول الصبى الخجول الطيب إلى وحش شرس ؟ . . إنى أتفكر وأتخيل دون جدوى .

لا يمر يوم فى حياته بلا معركة ، اللكمة عنده أسرع من الكلمة ، والنبوت مفضل على اللكمة ، ويحل بالمكان فيتجنبه الناس كأنه وباء .

لو امتد زمن الفتوات إلى زمانه لفرض نفسه فتوة ، وهو يزعج القسم كما يزعج الحارة ، ويبيت أياما بسجن النقطة ولكنه يرشو المخبرين وشيخ الحارة .

تحف به دائما بطانة ولكن لا صديق له ، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يعرف عنه أى ولع بالنساء . وعلاقته بذكرى أمه مثيرة محيرة ، يتذكرها أحيانا بحزن عميق ويتنزل على روحها الرحمات ، وأحيانا ينتقدها بمرارة وسخرية ، يقول :

ـ كانت بخيلة شحيحة ، تهمل نفسها لحد القذارة ، وتعامل الخدم بقسوة جنونية .

ويغالى مرة فى الحملة عليها ثم ـ فجأة ـ يجهش فى البكاء ، ينسى نفسه تماما ويجهش فى البكاء ، ثم ينتبه لضعفه فيضحك ، ولكنه يصب غضبه على جميع من يشهد دموعه ، ويبدو أنه يضمر لهم أو أنه سيضمر لهم السوء .

ويختفى هاشم زايد من الحارة ومن البيت .

وتطول غيبته حتى يذوب رويدا رويدا فى ظلمة النسيان.
وتسمع من يقول إنه هاجر، وتسمع من يهمس بأنه قتل وأخفيت جثته.

الحكاية رقم «٢٣»

ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف. استيقظ مجذوبا من عالم الغيب بقبضة مبهمة. يلفنى تيار من الطنين. أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب الشر. أصوات بكاء تتسلل إلىّ من الصالة. تغرز أفاكر السوء أسنانها فى لحمى، ويتخايل لعينى شبح الموت.

أثب من الفراش مندفعا نحو الباب المغلق. أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول.

أرى أبى جالسا، أمى مستندة إلى الكونصول، الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون.

وترانى أمى فتقبل علىّ وهى تقول:

ـ أفزعناك.. لا تنزعج يا بنى.

أتساءل بريق جاف:

ـ مــاذا؟

فتهمس فى أذنى بنبرة مختنقة:

ـ سعد زغلول.. البقية فى حياتك!

فأهتف من أعماقى:

ـ ســـعد!

وأتراجع إلى حجرتى.

وتتجسد الكآبة فى كل منظر.

الحكاية رقم «٢٤»

القطة الأم مستقلية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم مغمضات الأعين فى حضنها. أنا وحيد فى الحجرة أتابع المنظر باهتمام. وفجأة تتردد أنفاس على كثب منى

فألتفت فأرى سنية. هى بكرية جارنا ساعى البريد، دقيقة القسمات خفيفة الروح، مليئة بالحيوية والمرح، تكبرنى ببضعة أعوام. تنظر إلى القطة بشغف وتهمس:

ـ ما أجملهـــا!

أوافق بإيماءة من رأسى فتقول:

ـ أحب القطط، وأنت؟

أجيب وشعورى بتوحدنا يغمرنى:

ـ وأنــا..

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحس مس صدرها لكتفى تواصل الحديث فلا أتابعها. إنى أضطرم فيلتهم اللهيب حيائى، أستدير فأضمها إلى صدرى، وتبدأ علاقة وطيدة، مفعمة من ناحيتى بالسرور والندم.

أزداد بها معرفة، جميلة جسورة بقدر ما هى حريصة. رغم سكراتها المنغومة فبيننا حدود لا يمكن تخطيها. ألبى إشاراتها، أهرع إلى ظلها، أما هى فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة. تجذبنى إلى حديقة الورد ثم تضرم فيها نيران الجحيم. لا نعرف السكينة ولا الأمان، نقطف الثمار فى رعدة من الرقباء، نجرى فى حومة الحب خطافين نشالين مجانين، نراوح بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين، وتنقلب الحياة أغنية مجنونة تتفجر بالعذوبة والعذاب.

وتتزوج سنية عقب عامين من حبنا.

ونلتقى بعد أعوام وأعوام من زواجها.

أجدها مفرطة فى البدانة، غافية النظرة، رزينة، جليلة، راسخة الاستقرار والوقار. نتصافح ونتبادل حديثا روتينيا عن الأحوال والناس. لا بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضى. سيدة مصونة ورمز حى للأمومة، ومثال للتدين والورع.

وأتخطى الحاضر راجعا إلى عهد صباها النضير، وهى فراشة متعددة الألوان، تفاحة طازجة، وردة فواحة، ينبوع متدفق.

تلك الأيام السعيدة.

الحكاية رقم «٢٥»

فتحية، الأخت الصغرى لسنية، تماثلنى فى العمر.

مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق.

نظراتنا تتسلل فى استحياء فيستحوذ على أمل خلاب. أمد يدى فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف، وبرقة تقول لى:

- لا أحب العبث.

وأضيق بجديتها فأقول:

- إنك لا تعرفين الحب.

فتقول بأسى:

- أنت الذى لا تعرفه.

وتقول معاتبة:

- أثبت لى أنك تعرفه مثلما أعرفه.

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق، ويصرفنى اليأس فأتعزى بالزهد، أمضى مصمما على النسيان، ولكن ترجعنى الأشواق أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقع فأجد نفسى مرة أخرى حيال قلب محب وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين.

وطريقى شاقة وطويلة، وفتاتى محبوبة كثيرة الخطاب. يقول لها أبوها:

- معنى الرفض أن تنتظرى عشرة أعوام.

ثم يقول بحزم:

- القلوب تتغير بعد عشرة أعوام.

ويصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف إليه كسيرة القلب. وتنجب أطفالا، وترعى بيتا يعد مثالا للحياة الزوجية الموفقة.

وتغيب عن عينى وخيالى دهرا طويلا.

وألتقى بها فى مأتم وهى فى الستين من عمرها، أرملة منذ عشرة أعوام، فنتصافح وتطالعنى بنظرة صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة. يتحرك فى أعماقى شىء غامض. تجتاحنى موجة من التذكر والأسى، وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورائى.

وأعلم بأنها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز. وأجدنى أحادثها رغم كل شىء بجرأة مستمدة من ضآلة ما يتبقى من العمر، وأعزم على زيارتها. وأتخيل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبنى، ثم أبتهل فى خشوع إلى أشجان الوداع.

الحكاية رقم «٢٦»

ست نجية امرأة وحيدة.

عهدى بها وحيدة دائما، فى بيتها وحيدة، مقطوعة من شجرة، يرد اسمها بلا لقب، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية.

صورتها لا تنسى، قصيرة جدا، مطبوعة بطابع كساح يتجلى فى تقوس ساقيها وبروز ذقنها، ولها أنف كبير مثل أذن حمار، دميمة ولكنها غير منفرة لخفة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس.

تجىء معها فى زيارتها لنا بالمرح والضحك، فلا نهاية لنوادرها وقفشاتها، وأتصورها دائما أسعد الناس.

بيتها مزرعة قطط وكلاب، تولد وتنشأ فى عزها مكرمة مدلَّلة، لكل اسمه وخدماته الغذائية والصحية والرياضية. هى مولعة بهن وهن مولعات بها، وفى رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحى الخصومة الغريزية بين الكلاب والقطط فهن يعشن فى إخاء ومودة.

تسألها أمى:

- لم نرك من مدة يا ست نجية؟

فتقول:

- كانت نرجس متوعكة المزاج.

أو تقول:

- كانت بركة تلد.

ودائما تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها، وتحكى عن علاقتهما الخاصة باعتزاز وتنوه بنوادره.

تقول بجدية:

- أمس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهى قبيل الفجر.. أو تقول:

- وجدت بلاص العسل فارغا فقلت له بالهنا والشفا..

بالصدق والجدية تتكلم، لعلها لا تتخلى عن المزاح إلا حين الحديث عن أخيها الخفى.

وتزعم أيضا أن الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصة وأنها تفهمها، ولكى تثبت صحة كلامها تمضى فى محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق فى الضحك.

ولها خبرة راسخة فى قراءة الفنجان والورق وتفسير الأحلام، وتتهم أحيانا بممارسة السحر والشبشبة حتى أن أم عبده لعنتها جهرا فى الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان، ولكن طيبتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس.

لا يكاد يطرق بابها أحد، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها، حتى الخدم لا يطيقون خدمتها، فهى وحيدة فى بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخى.

تقول لها أمى وهى بصدد الحديث عن وحدتها:

ـ على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل.

فتجيبها جادة وهى تبتسم:

ـ ستنبح الكلاب حول جثتى وتموء القطط، ويحضر أخى ليغمض عينى، ثم يفعل الله ما يشاء.

الحكاية رقم «٢٧»

تقول ضيفة لأمى:

ـ نظلة، الله يسامحها.

فتسأل أمى عن الأخبار فتقول الضيفة:

ـ ما زالت بالجدع حتى أوقعته فتزوجها، رعاها وجعلها من أسعد نسوان الحارة، وها هى الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض.

وتسأل أمى عن حاله فتواصل المرأة:

ـ طريح الفراش، وحيد، يبصق دما ويسعل حتى تنخلع ضلوعه، يتمنى الموت، ولما أزوره يقول لى: «انظرى يا امرأة خالى ما فعلته نظلة» فأشجعه وأواسيه وقلبى يتقطع.

وأتخيل أن المريض والدم والمرأة الفاجرة.

ويمضى زمن ثم تزور الضيفة أمى وتقول:

ـ شوفى العجائب، لم يكد يمر شهر على وفاة المرحوم حسن حتى أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوجها.

فتهتف أمى :

ـ نظـــلة؟!

ـ ومن غيرها يفعل ذلك؟، إلهى ينتقم منك يا نظلة يا بنت أمونة .

وأتخيل أنا الميت والعاشق والفاجرة .

ويمضى زمن . ها أنا أذاكر دروسى فى حجرتى فيترامى إلىّ صوت أمى وهى ترحب بضيفة قائلة :

ـ أهلا بك يا ست نظلة .

وأتساءل باهتمام ترى أهى الفاجرة؟

وأتسلل إلى الصالة محتميا بظلمتها وأرسل الطرف إلى حجرة الاستقبال، فأرى امرأة ـ بين الأربعين والخمسين ـ بضة الجسم حسنة التكوين أنيقة الملبس . أعترف بأنها امرأة مثيرة . . وأنها تستحق أن تُعشق . وأعرف عنها معلومات جديدة، منها أن زوجها الثانى ـ خليل ـ توفى أيضا بعد أن أنجبت منه ولدا، وأنها تركت شقتها قبيل القبو لتقيم فى شقة صغيرة فى بيت قريب منّا، وأدرك أيضا أن أمى لا ترحب فى أعماقها بزيارتها لنا . وأقول :

ـ إنهـــا شـريرة!

ولكن أمى تقول بحذر :

ـ الله وحده هو المطلع على الأفئدة .

ـ تعطفين عليها رغم أنك لا ترحبين بها .

ـ سمعت الكثير ولكنى أرى امرأة ضعيفة وأمًا لولد لا رجل لها ولا مال .

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة . وتخيم علىّ ذكريات المرحومين حسن وخليل ولكنى لا أبالى . وأشعر بأننى مقبل على مغامرة أخطر من جميع ما مر بى من مغامرات . ولكن القصة لم تبدأ .

ذات صباح تهز حارتنا صرخة مدوية .

ينتشر خبر بأن جارة ألقت على وجه نظلة ماء نار متهمة إياها بمحاولة خطف زوجها .

تفقد نظلة سحرها إلى الأبد .

تضطر إلى العمل فى حمام الحارة .

يشتد بى الحزن فترة من الزمن وأردد ما سبق أن قالته أمى :

ـ الله وحده هو المطلع على الأفئدة .

الحكاية رقم «٢٨»

يزورنا كثيرا.

أحبه لأنه يكاد أن يكون صورة متقنة لأبى. من أحاديثه المكررة فى إلحاح أبدى أن يخاطب أبى قائلا:

- أيرضيك حالى هذا يا خالى؟

فيقول له أبى:

- يا محسن، اعتمد على الله وعلى نفسك.

- يؤلمنى أننى غنى بما أملك من مال فى الأوقاف ولكنى عاجز عن صرف مليم واحد منه.

- هذا حال كثير من المستحقين.

ويضطر إلى أن يعمل كاتبا بثلاثة جنيهات شهريا فى وكالة الأخشاب بحارتنا. وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة العاطلة من الجمال والمال. ويتقدم به العمر دون أن ينجب فيمضى حياته متحسرا. وتضرع زوجته إلى الله ألا يحل عقدة الوقف، وتقول لأمى:

- لولا الفقر لفجر، لولا الفقر لطردنى.

لا حديث له إلا الوقف، الوقف يا خالى، الوقف يا امرأة خالى، وأسمعه يردد بحرارة:

- يارب، نفسى فى لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائق وأنثى، أنثى حقيقية لا تمثال خشبى فى هيئة امرأة، يارب نفسى فى ولد أو حتى فى بنت!

وتتقدم به السن أكثر، وتدمع عيناه أحيانا وهو يرثى نفسه حتى ينال منى التأثر.

وتندفع الأحداث فتغير من إيقاع الزمن ورؤيته وتنحل عقدة الوقف!

ويرقص ابن عمتى من الفرح فأسأله:

- ما مقدار البدل الذى سيصرف لك؟

فيقـول بزهـــو:

- أربعون ألفا من الجنيهات.

يدور رأسى . أتفرس فى وجهه بعجب . إنه يدنو من السبعين ، أبيض الرأس ، ضعيف البصر ، هزيل الجسد ، ليس فى فيه سنة ولا ضرس . أسأله :

ـ ماذا ستصنع بثروتك؟

فيقول متهللا :

ـ قلبى يحدثنى بأننى سأمرح فى نعمته عز وجل .

ثم يستطرد :

ـ سأشترى بيت عيوشة الحكيمة ، وأركّب طاقم أسنان ، وأتزوج .

ـ تتزوج؟

ـ وسأنجب أيضا ، سوف ترى .

ويجدد نفسه بتصميم كما يجدد الحياة من حوله . أبقى على سوسن ، ولكنه يتزوج من توحيدة بنت بياع الطرشى وهى بنت جميلة دون العشرين .

ويخبرنى ذات يوم قائلا :

ـ ولى العهد يتكون بإذن الرحمن .

ويفرط فى الطعام بنهم لا يناسب سنه ، ثم يلزم الفراش عقب ستة أشهر من الزواج .

وأعوده فيقول لى بصوت خافت :

ـ لست نادما ، أبدا ، الحمد لله رب العالمين .

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة .

الحكاية رقم «٢٩»

على البنّان صاحب محل البن فى حارتنا صديق . يموت أبوه فيحل مكانه وهو فى طور المراهقة .

وذات يوم يسألنى وأنا أجالسه فى المحل :

ـ هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرانة؟

فأجيبه ورائحة البن الصارمة تسيطر على حواسى :

ـ أعرفها طبعا ، حارتنا كلها تعرفها .

ـ ما رأيك فيها؟

ـ بنت فائقة الجمال وهى تشارك أمها فى العمل .

ـ ماذا تعرف عن أخلاقها؟

فأضحك قائلا :

ـ ما أكثر ما يقال!

ـ ولكننى متأكد من الكثير .

ويحكم العمامة فوق رأسه . ويقول :

ـ أعرف أنها سقطت أول ما سقطت مع حمدان صبى الفران .

أهز رأسى موافقا فيمضى هو قائلا بنبرة اعترافية ثقيلة :

ـ ضبطت أيضا مع الحنفى صبى محل الطرشى تحت القبو .

ـ إنك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من الضرورى .

ـ وقيل كلام أيضا عن علاقتها بخفير الدرك!

فأسأله ضاحكا :

ـ هل تنوى كتابة سيرة لها؟

ـ وأيضا مع حسنين السقاء!

فأغرق فى الضحك وأقول :

ـ إنه لسلوك يستحق التأمل .

ـ ولعل ما خفى كان أعظم .

ـ من يدرى فلعلها ليست الوحيدة فى حارتنا!

فيتنهد قائلا :

ـ ولكنها الوحيدة التى أحبها!

فأخرج دفعة واحدة من جو المرح وأسأله :

ـ أتريد أن تنضم إلى طابور العشاق؟

فينظر إلىّ طويلا ثم يقول :

ـ كلا ، لقد قررت أن أتزوجها!

ـ لا أصدق .

فيقول بجد وتجهم :

ـ إنه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه ، ولا يهمنى ما يقال!

وينفذ على البنّان قراره .

الحكاية رقم «٣٠»

يشبّ بطْريق الحموى فيجد نفسه متزوجا .

كان أبوه مقاول بناء أميا فأراد أن يفرح بآخر العنقود فى حياته فاختار له بنتا وزوجه منها وهو تلميذ فى الرابعة عشرة من عمره .

يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .

وينجح «بطريق» فى حياته المدرسية ويتفوق فيكمل تعليمه العالى ثم يبعث إلى إنجلترا عامين . وعقب عودته يتعذر عليه التوافق مع ماضيه ، زوجته خاصة ، يتنافران فى كل شىء ، يضيق بجهلها وخرافاتها ، يتهاوى فى الغربة والفشل ، ويقول لخاصته :

ـ لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا .

ويتخذ قرارا حاسما وقاسيا ، من خلال معاناة طويلة ، فيطلقها .

ويلهج كل لسان فى الحارة بلعنه ومروقه ، ولكنه يلقى المدّ المعادى ببرود ، بل ويتحداه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية ، يزعم أنها فرنسية ، ويصر أهل حارتنا على أنها رومية من بين السورين !

ويذهبان ويجيئان معا وهى تشع سفورا ونورا ، ترمقهما الأعين بازدراء واستنكار ، ويترحم المترحمون على المعلم الحموى .

وتتطاير تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها بالرجال ، وما يقال عن إدمانها الخمر ، وعن صحة عقيدتها الدينية ، هل يعتبر إسلامها حقيقيا؟ ، هل تنشئ أبناءها نشأة إسلامية سوية؟

يعانى بطْريق الحموى ذلك كله ويتصدى له بما يستطيع من قوة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهب عليه بلا رحمة . ها هى زوجته تضيق بالحارة وأهلها ، وعاداته الأصيلة تتعرض لمؤاخذتها وسخريتها ، وهو كلما تهاون فى حق طولب بالمزيد من الاستسلام ، حتى يسلم فى النهاية بأنه غارق فى التعاسة حتى أذنيه .

ويقال له :

ـ طلقها وأمرك لله .

ولكنه يجيب بإصرار :

ـ محال أن أسلم بالهزيمة .

أما هى فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنه يرفضه بإباء .

وإذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن .

وتمضى الأعوام وبطْريق الحموى أعزب لا يفكر فى الزواج .

يقترح عليه إخوته أن يرد زوجته الأولى فيقول ساخطا :

ـ هذا سخف !

ـ هل تعتزم استرداد الثانية؟

ـ إنه الجنون نفسه .

ثم يقول برزانة وتأمل :

ـ لابد من الزواج ، وعاجلا أيضا ، لم تضع التجربة هباء ، فإنى على الأقل الآن أعرف ما أريد .

الحكاية رقم «٣١»

من قصص الحب المؤثرة فى حارتنا قصة سيدة كريم .

ينشأ حب عفيف مستور فى خفاء بينها وبين إدريس القاضى ابن الجيران ، رغم التكتم والحياء تفضحهما النظرات وأحوال العاشقين . ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرس اللغة العربية وعم حسنين القاضى بياع الحلوى . أدب ابنك ، ابنى مؤدب ، كلمة من هنا وكلمة من هنا ، فيوشك الكلام أن يتحول إلى فعل لولا تدخل أهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحد الأعين فيعانى العاشقان فى صمت وقهر . وعندما ينتهى إدريس من المرحلة الثانوية يقنع أباه بأن يخطب له سيدة ، فيمضى الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبا يد ابنته ، ولكن الشيخ يقول له بجفاء :

ـ ابنك تلميذ وبنتى لا يمكن أن تنتظره .

ثم يقول الشيخ لبعض خلصائه :

ـ كيف يطمع فى مصاهرتى ذلك البياع الحقير؟!

ويتقدم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيدة .

ولكن سيدة ترفضه! . . ليس الرفض بالأمر الهين ولا المألوف ، إنه فى الواقع ثورة

غير متوقعة أذهلت الشيخ والجيران، وزلزلت الأسرة بالغضب والعنف والتأديب، ولكن سيدة تصر على الرفض، وتصارح أباها بأنها تمارس حقها الدينى!

وكالعادة المرذولة فى حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتختلق الأوهام، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقى درسه فى الفصل.

وتتحمل سيدة مسئولية موت أبيها أمام الأسرة والناس. تصبح ملعونة شؤما متهمة متجنبة كالمرض المعدى.

وتتزحزح الأعوام فلا يتقدم لها خاطب.

وينجح إدريس فى دراسته العالية فيتقدم إلى عم حبيبته طالبا يدها!.. ولكن لا يلقى إلا الرفض والتجهم، حتى الأم لا توافق.

وتمر الأعوام، ثقيلة عند المعاناة، خفيفة لدى العد والإحصاء، سيدة شبه سجينة لا يطلبها أحد، وإدريس موظف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج. ولا يشك أحد من المقربين إليها أو المقربين إليه فى صمود الحب وإصراره وتحديه المتواصل لكافة العراقيل.

ويندب إدريس للعمل فى بعض البلاد العربية وتنقطع أخباره أعواما، على حين تجاوز سيدة ربيع الشباب ويغيض رونق صباها وتتلبسها صورة تعاسة مجسدة.

ويرجع إدريس من غربته رجلا فى منتصف الحلقة الخامسة. لم يعد أحد يذكر قصته، ولم تعد القصة تثير أى اهتمام عند من يتذكرونها.

وتعرف حقيقة غير مألوفة فى حارتنا وهى أن إدريس ما يزال أعزب، لم يدخل دنيا ولا يمارس أبوة.

ويمضى إدريس إلى أم سيدة يطلب يد ابنتها!

ويدهش كل من يعلم بالخبر معلقا عليه بأن سيدة لم تعد عروسا تسر الحبيب.

ويتم الزواج متوجا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء.

الحكاية رقم «٣٢»

سنان شلبى يعمل فى مطحن الغلال فيما يلى السبيل القديم. تلوح منه نظرة نحو النافذة فى البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجها أسر فؤاده وسيطر على أقداره. يأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوة لم يكن يتصور وجودها بحال. وقال لنفسه: «لقد جننت يا سنان وما كان كان».

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكن أم سعد هي التي تتصدى للمعاملة والتسوق، وهي امرأة معروفة في الحارة. والعلاقة بين أم سعد والجميلة غامضة، عرضة لشتى الاحتمالات، فالأسرة لا تزور ولا تزار، فمن يكون سعد؟، أين هو؟، والمرأة أهي أم الجميلة؟، قريبتها؟، خادمتها؟، ثم تنتشر أقوال تسيء ولا تسر.

يقول سنان شلبي:

ـ أريدها، إني مجنون بها، بالحلال أو بالحرام أريدها، ولو دفعت حياتي الغالية ثمنا لها.

ويوثق سنان علاقته بأم سعد في ترددها الدوري على المطحن. ويلمح لها عن رغباته الخالية ولكنها تتجاهله وتشجعه في آن فينفحها بالهدايا الصغيرة التي يطيقها من اللبان والحنتيت والسكر، وعند ذاك تقول له:

ـ الجوهرة غالية وأنت رجل على قد حالك!

فيقبض الفقر قلبه ولكن الجنون يبسطه فيقول:

ـ ربنا يقدرنا.

ويدرك لتوه أن الجميلة تحترف الحب ولكن ذلك لا يثنيه عن سعيه فإن جنون العشق يتسلط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختيارا أو مجالا للتردد.

وتقول له أم سعد:

ـ الأمر ليس يسيرا، يوجد حراس لا تراهم، وغاية ما أستطيعه أن أدلك على الطريق.

وتمد له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنها تردها بإباء ولا تقبل بأقل من عشرة قروش أو عشر أجر سنان في شهر كامل!.. وتقول له:

ـ أتعرف المعلم حلمبوحة؟.. قل له إنك حاضر من طرفي، إنه راعيها وولي أمرها وهو الذي جاء بها إلى حارتنا من المجهول.

فيقول سنان بضيق:

ـ ظننتك ستوصلينني بغير وسيط.

ـ لا أملك إلا أن أدلك على الطريق.

ويذهب سنان إلى حلمبوحة في دكانه الصغير الذي يبيع فيه الدخان والمنزول. يجده كما يعهده عجوزا أعمش جاف الخلق فيحييه ويقول له همسا:

ـ إني قادم من طرف أم سعد.

فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم:

ـ جنيه مصرى !

فيقول سنان بارتياع :

ـ إنه مبلغ جسيم يا معلم .

فيعرض عنه قائلا :

ـ وفر نقودك واذهب لحالك .

لا شيء يمكن أن يثنى سنان عن مطمحه . إنه يبيع خاتمه الفضى الموروث عن أبيه بجنيه ويهبه لحلمبوحة مسلما أمره للمقادر . يتفحص الرجل الجنيه، يدسه فى جيبه، ثم يقول لسنان :

ـ لم يبق إلا هريدى الحملاوى، تعرفه؟

يغوص قلب سنان فى صدره ويسأله :

ـ ما شـــأنه؟

ـ إنه خطيب البنت، ولا يرضى بأقل من جنيهين .

فيتأوه سنان قائلا :

ـ إنها ثروة، ثم إنها سلسلة بلا نهاية .

ـ هريدى ختام السلسلة .

ـ ولكن من أين لى بالجنيهين؟

ـ خذ نقودك واذهب .

ويرد إليه الجنيه بحدة . يتناول سنان الجنيه بقلب طافح باليأس ثم يمضى بلا هدف . وتقوده قدماه إلى البوظة فيسكر حتى يقول لنفسه :

ـ سأبلغ مناى ولو طرت إليه فوق سحابة .

ويذهب من توه إلى أم عليش بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح أم على الداية فتقول له مستاءة :

ـ إنى لا أتعامل مع الزبائن فى حجرتى .

فيرمى بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلى عنها إلا وهى جثة هامدة .

* * *

إنه يعى تماما ضـرورة أن يهـرب فى الحال قبل أن تُكشف الجريمة . لا يشك أن كثيرين رأوه وهو يتخبط فى الحارة ثم وهو يتسلل إلى بيت أم على الداية . إنه يعى تماما ضرورة الهرب ولكنه لا يفكر إلا فى الحب .

ويذهب إلى المعلم حلمبوحة فينقده الجنيه ثم يمضى إلى هريدى الحملاوى بالجنيهين فيصحبه الحملاوى إلى بيت أم سعد.

* * *

يقول الرواة إن سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت. وفى نشوة الخمر ارتمى على قدميها فى هيام، وما يدرى إلا وهو يبكى من الوجد. واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال:

- لقد قتلت..

ولم تفهم المحبوبة كلمة، ولم يقدم هو على الفعل.

وانطرح الزمن خارج وعيه حتى هلّ أول شعاع للضياء.

وارتفعت من الطريق جلبة، ودقت الأرض أقدام ثقيلة، فتلقى سنان أول إشارة خفية، واستسلم بأريحيه للمقادر...

الحكاية رقم «٣٣»

مرت فترة بحارتنا يمكن أن تسمى بعصر زينب.

الأب بياع فاكهة، والأم بياعة بيض، وزينب آخر عنقود مثقل بالذكور. وهى جميلة، فلتة رائعة من الجمال، وفى جمالها تتلخص حكايتها.

فى طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدى، فى صباها تألقت تباشير الفتنة، فى الشباب استوت آية من البهاء والأبهة.

ويقول زيدان الأب لزوجه:

- البنت يجب أن تحجب فى البيت.

فتوافق الأم كارهة إذ إنها تفضل بطبيعة الحال لو كان فى الإمكان أن تسعى زينب لرزقها.

ويتكالب الخطاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلاب، وتقول الأم:

- من العدل أن يكون حظها فى قوة جمالها.

لذلك ترفض يد ابن أختها سواق الكارو، فتتمزق أواصر الأخوة، وتنشب معركة بين الأختين تتفرج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجب ولاعن.

ويتقدم لها فى وقت واحد تقريبا حسن «صبى طرابيشى» وخليل «صبى جزار» فيجران إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين.

وإذا بفراج الدرى المدرس يطلب يدها، أفندى محترم وموظف حكومة ويعتبر بالقياس إلى بيئة زينب حلما من الأحلام. وتقول الأم:

ـ هذا من نرحب به..

ولكن على بياع القلل يعترض سبيل المدرس ذات يوم ويهمس فى أذنه:

ـ إن تكن تحب الحياة حقا فابعد عن زينب.

ويستعين المدرس بقريب قوى من أهل التحرش والتحدى فيعتدى الرجل على بياع القلل، ولكن بياع القلل يضطغنها فى نفسه ويتربص لفراج أفندى ثم يفقأ عينه!

عند ذاك يجفل المحترمون من أبناء حارتنا إيثارا للسلامة ولا يبقى إلا الحرافيش.

وتهتف الأم المغيظة:

ـ يا ميلة البخت..

وتحتدم المنافسات، وتتعدد الاعتداءات، وتتساقط التهديدات، ويلتزم آل زيدان الحياد التام خوفا من العدوان، ورغم بلواهم وكربهم تلفحهم أنفاس الحاسدين وألسنتهم، حتى يقول زيدان لبعض أصدقائه:

ـ لقد حلت بنا نقمة اسمها الجمال!

وتتكرر الخناقات وتكثر الإصابات، وتمضى زينب وأسرتها لعنة مجسدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفية فى الانتقام.

عم زيدان لا يجد فرصة ليتنفس فى هدوء، ويخاف أن يغدر غادر بزينب نفسها.

ويطلع صباح فلا نقف لآل زيدان على أثر. ويتفشى الوجوم والكدر. وأمنى بخيبة لا يدرى بها أحد. وبحزن أتساءل:

ـ ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء فى حارتنا؟

الحكاية رقم «٣٤»

هنية بنت علوانة الدلالة من بطلات الحب فى حارتنا.

أتساءل كثيرا عن سر حبها لحمام صبى الخياط البلدى. إنه فتى سيىء الصورة والسمعة، شرس الطباع، تعكس عيناه نظرة تحد وعدوان، يرتدى جلبابه على اللحم ويمضى حافى القدمين. ثم إن هنية بنت متعلمة، مكثت فى الكتاب ثلاث سنوات، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم، وأمها ميسورة الحال، ووقت الغداء تفوح رائحة القلى من مطبخهم.

وهنية ترفض يد حامد المراكيبى بياع المراكيب عندما يتقدم لخطبتها. وتبكى الأم بحرارة وهى تحكى مأساتها لأمى:

ـ تصورى، حامد المراكيبى الرجل الكامل صاحب القرش.

فتتساءل أمى:

ـ كيف وبنتك عاقلة وحافظة كلام ربنا؟

ـ قالوا لى إنه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت الأضرحة ونذرت النذور.

ولكن هنية تصر على رفض يد حامد. وتغضب أمها وتلطمها على وجهها وتصيح بها:

ـ تفضلين عليه المجرم؟، بُعدك، ولكن مكتوب عليك الشقا.

ويتراجع حامد المراكيبى ويتلاشى، ويبدأ حمام جادا فى التفكير فى أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه. غير أنه يُتهم فى هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيقبض عليه ويزج فى السجن عامين.

تبتهج علوانة الدلالة بالحل الذى جادت به السماء وتقول لهنية:

ـ أرأيت؟، سبحان الله الذى لا يعلو على برهانه برهان.

ولكن هنية تصر على رفض حامد المراكيبى وتغرق فى حزن عميق حتى يشفق عليها الغاضبون. ويقول كثيرون إنه لا حيلة لها فى الحزن، وإن حمام لا يقتلع من قلبها بلا أثر. ولكنها تصر على الرفض حتى يمر العامان ويرجع حمام إلى الحارة. وتدب الحياة من جديد فى هنية ويجن جنون أمها. ويلقى حمام صعوبة فى العودة إلى عمله الأول أو الالتحاق بأى عمل آخر. ثم يُرى سارحا بلحمة رأس وطبلية ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس المال، ولا يعلم إلا فيما بعد أن هنية هى التى أمدته بأسورة ذهبية.

وتثور علوانة ثورة عنيفة وتستعدى على ابنتها القريب والجار، غير أن هنية تعقد قرانها بحمام فى القسم وتحت حماية الشرطة.

وأشهد بأنها زيجة موفقة، فهنية تشاركه فى العمل وتديره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتت حتى ينجح أو بالأحرى تنجح هى فى فتح دكان له، أما الذكريات القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها أحد.

الحكاية رقم «٣٥»

فى موسم القرافة نزور أحيانا حوشا غير بعيد من حوشنا. أرى رجلا يقيم فى حجرة المواسم إقامة دائمة كما يستدل من وجود الفراش والكنبة والصوان. أسأل أمى عن هويته فتقول:

- ابن عمة أبيك رضوان أفندى.

- لماذا يقيم فى الحوش؟

تتجاهل وقتها سؤالى، وألاحظ خلو الحجرة من الرجل فى عام تال، وأعلم أنه انتقل من الحجرة إلى القبر، ثم أسمع قصته فيما بعد لمناسبة لا أذكرها.

أسرة رضوان أفندى تتكون منه ومن حرمه ومن صبى وصبية. الأم تشغف بالصبى على حين يشغف الأب بالصبية. يناهز الأخوان البلوغ فيمارس الأخ قوته فى معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتى تضيق به وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه، أو على قول أمى:

- سكن الشيطان بينهما!

يتطور النزاع إلى خصام أغبر، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر، حتى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنى كل للآخر الهلاك والفناء جهرا وبلا تحفظ.

وفى ختام المرحلة الثانوية يمرض الشاب بالسل، ثم يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستة أشهر. موت قاس مطوى على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الأم وتلاشت آمالها فى الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم، ويقول رضوان لأبى:

- إنها عملية نشل، والخجل يمنعنى من مواجهة أمه.

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض أخته بنفس المرض.

وذات ليلة يجيئنا رضوان أفندى وهو يجرى حافيا من أقصى الحارة، مشعث الشعر دامى العينين فتهب الأسرة نحوه متسائلة وهى على يقين مما تتساءل عنه. يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفأ فيهما نور الحياة:

- انتهى كل شىء!

يصفى الرجل بعد ذلك تجارته، يهجر بيته إلى حوش القرافة ويقيم هناك على مقربة من قبر الفقيدين. وتصر حياته على الامتداد حتى يوافيه الأجل.

أما الأم فهى تواظب على زيارتنا، وأراها وأتصل بها وأنا صغير وهى عجوز. يبدو أنها لا تذكر الماضى، وتحب التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت. أتذكر جلستها وراء الأوراق المفندة وتكومى أمامها فى تشوف، وهى تشير إلى صورة وتقول:

- فى سكتك واحدة ليست من دمك.

وتبتسم كثيرا فأقول لأمى:

- تيزة وليدة خفيفة وتحب الضحك.

فتتمتم أمى:

- ربنا معها ومع كل جريح.

الحكاية رقم «٣٦»

فى إحدى ليالى الأرق أرى من نافذتى هذا المنظر.

أرى شبح رجل يترنح، يتلاطم مع الجدران، يتعثر فيقع ثم يقوم بمشقة، تندلق من فيه السائب أغنية «أنا أبله كنت هبلة» ثم يندفع فاقد التوازن كأنه ثور يتوثب للنطح، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح كالقتيل.

يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم - لعله فران - ليطرحه على لوح عجين ثم يتعاون مع آخرين على رفعه ويمضون به.

يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنح ويتعثر ويقوم ويقع وإذا بالسكران الأول يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر:

- إخص، حقيقة إنك مرة، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك عليك الناس؟.. سفخص.

فى زمن متأخر، وفى ظروف غاية فى الجدية، يعاودنى ذلك المنظر حاملا إلىّ معانى جديدة لم تخطر لى على بال من قبل حين رؤيته.

الحكاية رقم «٣٧»

عم ينسون الصرماتى كهل لا تشوب سمعته شائبة. يموت ابنه رمضان عقب مرض لم يمهله طويلا. يحزن الكهل كالمتوقع ولكنه يقدم على فعل غريب يجعل منه أحدوثة

الحارة قبل أن تجف دموعه. ما ندرى إلا وهو يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفى، يعقد زواجه عليها ولما يمر على الوفاة شهر واحد! . . هل جن الرجل؟

وعلى فرض جنونه ألا يسعه أن ينتظر عاما أو بعض عام؟

وكيف توافق دليلة وفارق السن بينهما أكثر من أربعين عاما؟

ولكن الخبر حقيقة لا شك فيها، وها هى دليلة تنتقل إلى بيت عم ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية أسرته.

وتتلوى الألسنة هامسة، كان شيء بين المرحوم رمضان ودليلة، يسره الزواج الوشيك، والثقة بغد لم يأت، وتدخل الموت فقلب الميزان، وتبدد الأمان، فسقطت دليلة فى مأزق بلا حماية ولا أمل.

وتقف أمها على السر، تفضى به إلى أم رمضان، وترمى به هذه على زوجها المحزون، مصيبة جديدة، مصيبة بكل معنى الكلمة، ولكن لا يمكن تجاهلها بحال، البنت فى مأزق، الجانى هو الابن الذى يسأل له الرحمة، ويفكر ويفكر ثم يعزم ثم يقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا.

تصبح دليلة زوجته، وتلد فى بيته وليدها.

وثمة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء.

وآخرون فى غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون.

أما غواة السخرية فيشيرون إليه ثم يتهامسون:

ـ هذا هو أبو حفيده.

الحكاية رقم «٣٨»

وأنا ألعب فى الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب.

أكثر من صوت يتساءل:

ـ خير إن شاء الله.

فيبشرنا أحدهم قائلا:

ـ قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل.

يتناهى الخبر إلى فتحية قيسون وهى تغسل ملابس فى طست أمام مسكنها. تنتتر واثبة كالملدوغة، تفك عقدة جلبابها، تربط منديلها حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة،

تتناول ملاءتها من فوق حجر فتتلفع بها بسرعة مجنونة محركة طرفيها كجناحى طائر كاسر، تلوح بقبضتها مهددة، ترجع رأسها إلى الوراء متوثبة ثم تندفع فى طريقها على يقين من هدفها وهى تصيح :

ـ والنبى ومن نبى النبى لأسود حظه وأطين عيشته وأشوه وجهه حتى أن أمه نفسها لن تعرفه .

وتمضى مخلفة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة فى الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة .

الحكاية رقم «٣٩»

صبرى الجوانى يثير دائما عاصفة من التساؤلات .

من بيئة كادحة، يعمل فى دكان خردوات، ثم يُندب للجولان بشتى الخردوات فى الأحياء المجاورة . يتغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير، تتحسن صحته ويكتسى بحلة النعمة الزاهية . ينتقل إلى مسكن جديد، يُرى وهو راجع حاملا ورقة لحمة وفاكهة الموسم، يجلس مساء فى المقهى يدخن البورى ويحتسى الزنجبيل، ويقضى بعض السهرات فى غرزة المواويلى .

ويتزوج من بنت ناس، ويرتدى البدلة بدلا من الجلباب، وتنطق ملامحه بالرضى والثقة والأمان . وفى ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر ويرقص ويغنى ويبدى من فنون الانبساط ما لا يتصوره عقل .

وعقب الزفة يغادر الفرح ليرجع إلى بيته ولكنه لا يرجع إلى بيته .

يختفى فلا يقف له على أثر أو خبر .

الحكاية رقم «٤٠»

يجلس وراء نافذة مصفحة بالقضبان، يحملق فى لا شىء، تتحجر فى عينيه نظرة لا معنى لها، رأسه صغير أصلع، يغمغم بين آن وآن :

ـ أين أنت يا حبيبتى!

نرمقه من بعيد بحب استطلاع، نتجنب إثارته كما نبه علينا، نتهامس:

- انظر إلى عينيه!

- مــــاذا يعنى؟

- إنه مجنـــــون.

كان يُرى قديما هائما صامتا، يتابع امرأة محجبة باهتمام، يعترض طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة.

ويقال إنه رأى فى حلم بنتا جميلة شغف بها أيما شغف، وأن الحلم يتكرر، وأنه يمضى باحثا عنها.

ويفقد الصبر فيأخذ فى التهجم على النساء ويهم بجذب النقاب، ويتعرض بذلك للزجر والضرب والعنف. ويؤمن أهله بأنه ممسوس فيطوفون به على الأضرحة والشيخ لبيب ولكنه لا يبشر بشفاء.

ويقولون لأبيه:

- المستشفى لأمثاله وسلم للمقادر.

ولكنه يحبسه فى الحجرة ويصفح النافذة بالقضبان.

ويقبع نهاره وراء النافذة، يحملق فى لا شىء، ويتقدم فى السن، ويغمغم من آن لآن:

- أين أنت يا حبيبتى؟

الحكاية رقم «٤١»

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناى. لا أتصور أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض منه. مئذنة، يتحسس طريقه بنبوت رهيب، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا.

وهو الشحاذ الوحيد فى حارتنا فمنذ احترف التسول لم يتجرأ شحاذ آخر على ترديد «لله يا محسنين».

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو، معتمدا على نبوته، يصمت طويلا، ينفجر بصوت كالرعد «يا أكرم من سئل»، يجيئه الطعام فى أوقاته، تتراكم الملاليم فى جيبه، يتبادل التحيات مع السابلة.

وبسبب من حـدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه مثار للابتسام، ولكن بلا حنق أو حقد، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه أنه لا يستثمر قوته فى العدوان.

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى.

ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة ـ شحاذ ضرير أيضا ـ من القبو راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر.

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبى مدخل القبو كأنهما حارسان. ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتى زلومة، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز.

ويهتف زلومة فى غبطة:

ـ يا حسين يا حبيب النبى يا سيد الشهداء.. مدد.

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة:

ـ مـــن؟

فيجيبه زلومة ببراءة:

ـ سائل على وجه الكريم!

ـ وماذا جاء بك إلى هنا يا بن الزانية؟

فيسأل زلومة بحدة:

ـ أملكت أرض الله؟

ـ ألا تـــرانى؟

ـ إنى أرى بنور القلب.

فيتمتم إبراهيم القرد:

ـ عظيـــم.

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه، يقبض على منكبه، لا أدرى ماذا يفعل به ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث.

ويتجمهر أناس كثيرون، يخلصون بينهما بعناء شديد، يبدر من البعض كلمات غاضبة:

ـ افتراء وظلم.

ـ أنت وحش.

ـ أنت لا تخاف الله!

ويصيح إبراهيم القرد :

ـ عليكم اللعنات .

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة . كأنما هرست له دملا . يجن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء ، ينشر الفزع فى دائرة آخذة فى الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسى والسلع وتنقلب السلال والمقاطف .

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضرير ، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه .

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود ، عزلا من السلاح بأمر من الضابط ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا فى الهواء كاللعب ، إنه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان فى الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق أننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن . ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر :

ـ يا قرد . . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك فى الحال .

ولكن القرد يتمادى فى التحدى منتشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال المطافئ .

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوته التى لا مفر منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع ، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميما وتحيات حارة . . فيواصل حياته السابقة متعملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة .

الحكاية رقم «٤٢»

البرجاوى منهمك فى عمله بدكان الطعمية.

يمر به الكفراوى فيطلب منه شربة ماء. تتملك البرجاوى نزوة مزاح فيشير إلى حوض الماء الذى منه تسقى الحمير والبغال ويقول:

ـ إليك الحوض فاشرب.

ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوى ويصيح به:

ـ أنت جبان وقليل الأدب.

فيغضب البرجاوى بدوره ويصيح به:

ـ ملعون أبوك وأجدادك!

وتتبادل قذائف من السباب ويتجمع مشاهدون من أعمار متفاوتة. ويسعى إمام الجامع لفض الموقف ولكن أحدا لا يلقى إليه أذنا فينسحب مستاء.

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوى طوبة يقذف بها الدكان فتحطم المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف، ويفقد البرجاوى أعصابه فيقبض على يد طاسة الطعمية ثم ينقض على الكفراوى فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركه إلا جثة هامدة.

ويهرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوى وأهل البرجاوى فيخوضون معركة دامية يستعمل فيها الطوب والعصى والسكاكين، فيُقتل من يُقتل وينتهى مصير الباقى إلى السجون.

وأعيش عمرا فلا أرى فى دارى البرجاوى والكفراوى إلا نساء وبنات يسعين فى السواد، يحزننى ذلك بطبيعة الحال وأعلق عليه بما يناسبه.

غير أن كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضبات الهادرة والملاحم الدموية، ويتشرفون جهرا بالسجون والمشانق.

الحكاية رقم «٤٣»

حواش العداد من أصحاب المزاج فى حارتنا.

فى ليلة عيد يقرر أن يحيى سهرة كبرى فى بيته. يلبى دعوته كثيرون من الصحاب

والمعلمين والمطربين والعوالم والراقصات. وتلعب الأوتار وتتهادى الأنغام فى جو من العربدة يهيج أشواق المحرومين ويثير استهجان أهل التقوى والورع.

ويتواصل الطرب والعربدة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم عميق.

وعند ضحى اليوم التالى، والحارة ثملة بأفراح العيد، تصدر عن بيت حواش العداد ضجة غريبة وصيحات فزع كأن صاعقة انقضت عليه.

ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون، ثم تنتشر أخبار لم يُسمع بمثلها من قبل.

يقول الرواة إن الداعى والمدعوين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين فى عالم خراب شامل لا يتصور ولا يوصف. إنهم يتذكرون كيف أن النوم سرقهم من بين أحضان المسرات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا أعينهم على عالم لا يرى إلا فى أعقاب زلزال مدمر. فالأثاث النفيس قد تحطم إربا، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتتت أكواما ونثارا، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تهتكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفا، والقوارير والكئوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسرت وانتشر كسارها، كذلك المصابيح والتحف وحتى السجاد والأبسطة والملابس. ماذا حدث، لماذا حدث، كيف حدث؟!

وتحضر الشرطة فتعاين وتسجل وتستجوب ولكن التحقيق لا يسفر عن شىء. ويقال هنا وهناك إن خلافا دب بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبق على شىء، وأن رجالا من ذوى الجاه توسطوا عند المأمور فغطى على الحادث بالحفظ، ولكن لم يُسمع أن أحدا من المدعوين جرح جرحا عميقا أو أصيب بعاهة.

ويُقال أيضا إن أعداء لحواش العداد دسوا لهم منوما حتى ناموا ثم دمروا كل شىء بتصميم شامل ودقة وحشية بالغة، ولكن ألم يكن من المنطق أكثر أن يوجهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم؟!

وعلى ذلك فلم يكن يصدق أحد هذا القول.

ويُذاع كلام أيضا عن أن ما حاق ببيت حواش إنما جاء نتيجة لغضب من الله استحقه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأن الداعى والمدعوين هم الذين خربوا دارهم وهم ذاهلون فى غيبوبة ثم تداعوا نياما شبه أموات.

وهذا تفسير يلقى عادة أذنا مصغية فى حارتنا، ومثله ما قيل عن دور العفاريت فى الأمر نتيجة لنذر نذره حواش ولم يوفه.

وتمر أيام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حواش العداد حتى يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

الحكاية رقم «٤٤»

هذه حكاية تُروى عن عهد قديم لم أشهده.

كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدى. صعد الشيخ إلى شرفة المئذنة ليؤذن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية، مد بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلا يطبق يده على فيها ليمنعها من الاستغاثة، ثم يجذبها إلى الداخل تحت المصباح الغازى المضىء ثم ينهال عليها ضربا بشىء فى يده حتى تهاوت ساقطة. عرف المرأة كما عرف الرجل، أما المرأة فهى ست سكينة أرملة صاحب مقلى، وأما الرجل فهو المعلم محمد الزمر صاحب وكالة الخشب. تسمر الشيخ أمل المهدى فى مكانه متدثرا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتى أغلق المعلم النافذة. وراح يتمتم:

ـ لقد قضى على المرأة.

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤدى الأذان.

جريمة قتل، ماذا أوجد المعلم فى هذه الساعة ببيت الست؟.. توجد أكثر من جريمة، ارحمنا يارب السماوات والأرض!

وهبط السلم الحلزونى بمشقة ثم جلس على الأرض راكنا إلى المنبر ظهره. وجاء أوائل المصلين فهالهم منظره وسأله بعضهم:

ـ لم لَم نسمع صوتك يا شيخ أمل؟

فأَجاب لاهثا:

ـ بى مرض والله أعلم.

وكان المعلم محمد الزمر هو من تبرع ببناء الزاوية، وهو الذى اختار الشيخ إماما لها ورتب له أجره، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه:

ـ يا له من امتحان عسير من رب العالمين!

ورقد الشيخ فى بيته ثلاثة أيام ولم يفتح فمه.

وانتشرت أنباء الجريمة فى الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست سكينة وجدت قتيلة فى حجرة نومها وهى بجلباب النوم. وبدأ التحقيق، واستدعى فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدى.

سأله المحقق :

ـ ألم تسمع صرخة أو صوتا ملفتا للسمع وأنت تؤذن؟

فأجــــاب :

ـ كنت مريضا فلم أؤذن تلك الليلة .

ـ أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئا عن علاقتها بأحد؟

ـ كانت سيدة فاضلة ولا علم لى بشىء .

وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه : «إنى لمن الهالكين» .

وجعل يبكى بشدة من الحزن والعجز .

واكتشف فى أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحلى فحامت الشبهات حول صبى كواء كان يتردد على البيت وفتش مسكنه فعثر على الحلى وبذلك وجهت إلى الشاب تهمة القتل .

وبدا ذلك كله منطقيا إلا عند الشيخ أمل ، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنونى ، مضى يحترق فى صميم أعماقه وينهار عصبا بعد عصب . كان ورعا تقيا ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه .

ومن شدة القلق والحزن تهدم ودب الضعف فى أعصابه .

والتقى ذات يوم بالمعلم محمد الزمر أمام السبيل القديم فشد على يده كالعادة ، وعند ذاك انتفض كأنما مس ثعبانا ، وحدق فيه بقوة غريبة حتى تساءل المعلم :

ـ مالك يا شيخ أمل؟

فوجد نفسه يقول :

ـ لقد رآك الله !

فدهش الرجل وسأله :

ـ ماذا تعنى؟ . . أنت مريض؟

فهتف بـه :

ـ اعترف بجريمتك يا قاتل !

ثم هرول إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج . لبث فى سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس .

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره فى شرفة المئذنة . ولكن أى ظهور كان؟ . . تطلعت إليه الأبصار بذهول وراحوا يقولون :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ـ الرجل الطيب عار تماما .

ـ يا شيخ أمل وحد الله !

ومضى يدور فى الشرفة متبخترا ويغنى بصوت متحشرج :

أما أنت مش قد الهوى بـــس تعشـــق ليــه؟

الحكاية رقم «٤٥»

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف . متزوج ، أب لعشرة ، فى الأربعين من عمره . يتميز بقوة شديدة وملامح خشنة وفقر مدقع . يتواصل عمله من الضحى حتى منتصف الليل ، لا يعرف الراحة كما لا يعرف الشبع . يحتقن بالحسرات إذا رأى الناعمين فى المقهى أو تطايرت إلى أنفه رائحة التقلية . وهو يغبط حمار الطاحونة فى السرجة كما يغبط العطار أو صاحب وكالة الخشب .

ويقول ذات يوم لسيدنا إمام الجامع :

ـ الله يخلق الرزق ولكنه ينسى أبنائى .

فيغضب الإمام ويصيح به :

ـ لقد بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطا على بطنه حجرا ليسكن به جوعه ، اذهب عليك اللعنة .

* * *

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشق الظلماء فيتهادى إليه صوت هامس ناعم يقول :

ـ يا عم عاشور !

يتوقف متلفتا أمام نافذة مغلقة فى دور أرضى ببيت الست فضيلة الأرملة المستحقة فى وقف الشنانيرى ، ويتساءل :

ـ مـن ينـــادى؟

فيجيبه الصوت :

ـ أريد منك خدمة فادخل .

المكان مظلم ، حتى شبح التمساح المحنط فوق الباب لا يُرى . يمرق من الباب ويمضى

نحو المنظرة مهتديا بضوء يلوح فى شراعه بابها . يرى السيدة فضيلة متربعة على كنبة تركية فيقف بين يديها ناشرا فى المكان رائحة عرقه الفطة النافذة .

ـ أريد زيتا وكسبة . .

تقولها ببلاهة ، بلاهة تفضح مكرا ساذجا ، وتنضح بشرتها باعتراف قرمزى ، ويلمح فى جفنيها المسبلين معجزة الرضى والاستسلام ، ولكنه ليس الاستسلام الذى تبادر إلى خياله ، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبرة ، ويغادرها بعد أن يوقن بأنها تريده فى الحلال !

* * *

ويلبث دهرا لا يصدق ، يتوهم أنه يتعامل مع حلم من الأحلام ، ولكنه يتزوج من الأرملة الغنية ، ويجرى ذكره فى الحارة نادرة من النوادر ومثالا من الأمثلة . لا يبالى طبعا أن يترك لها العصمة فى يدها ، ويترك عمله بالسرجة كما شرطت عليه ، ثم يطالع الناس فى زى جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم . وبمشيئة ست فضيلة لا يطلق زوجته القديمة ، وترتب لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من أعماق قلوبهم . هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة ، فيشبع ويسعد .

* * *

وست فضيلة سيدة جميلة وكاملة ، تحبه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد .

وهى لا تفرط فى شىء منه . ناعمة مهذبة وفية ولكنها لا تفرط فى قيراط منه . ومنذ اللحظة الأولى يشعر عاشور بأنها حريصة على ملكيته ملكية كاملة ، ظاهره وباطنه ، أصله وظله . حتى فكره وأحلامه ، فهو يعيش بين يديها ، فى الحديقة أو المنظرة ، وحتى الساعة التى يقضيها فى المقهى يرى شبحها وراء خصاص النافذة يطل عليه ، ولكنه ينعم رغم كل شىء بالحب والراحة والشبع .

* * *

وعندما يعتاد عاشور الطيبات ، عندما تطوى العادة معجزات الهناء ، يتسلل إلى روحه التثاؤب . يتوق إلى ساعة يخلو فيها إلى نفسه ، يهيم على وجهه ، يمازح صديقا ، يرتكب حماقة بريئة ، ولكنه يشعر دواما بأنه مراقب ، خاضع ، مطارد . الحق أنه لا ينقصه شىء ولكنه سجين . ثمة أغلال من حرير تحز عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة ، ويتدفق فى روحه التثاؤب .

ويجد الزمن طويلا ، ويجد الزمن ثقيلا ، ويجد الزمن عدوا .

ويقول لها ذات يوم :

ـ افتحى لى دكانا .

فتقول له :

ـ لديك ما تشتهيه النفس، ماذا ينقصك؟

فيقول متشكيا:

ـ كل رجل يعمل حتى الشحاذون.

ويوقن بأنها تخاف أن يستغنى عنها بالعمل أو يستقل عنها بالنجاح، وهو لا يريد من العمل إلا أن يهييء له قدرا من الحرية بعيدا عن نظرتها المستقرة.

* * *

ويرتد عاشور الدنف إلى التجهم والاحتجاج.

ويردد لسانه ألفاظ التذمر والظلم ونوادرهما.

ويغلى غضبه ويفور فيقرر أن يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء البيت السعيد.

ويتمادى فى غضبه فيلطمها على خدها الأسيل، فتطرده من الجنة فيذهب متحديا.

* * *

ويتعرض فى تشرده لمتاعب كثيرة، يلتقط رزقه بعناء، يتورط فى أعمال مريبة، يجلد مرة فى القسم.

وتحن الست إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها، ولكنه يرفض، يصر على الرفض، يمضى فى سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر.

يستحق عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد فى حارتنا.

الحكاية رقم «٤٦»

كنت أعود سعد الجبلى فى مرضه الأخير عندما ترامت إلى الحجرة من الحاكى أغنية:

ما هو أنت اللى جايبه لروحك بإيدك يا قلبى

فتنهد سعد وابتسم وتمتم:

ـ إى والله، بإيدك يا قلبى.

وتبادلنا نظرة نطقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرات والآلام.

سعد الجبلى كاتب حسابات بدكان الرهونات بحارتنا. طموح بعيد الأحلام فيبيع أرضا يمتلكها ويستقيل من عمله ثم يتاجر فى الروائح العطرية. يربح أرباحا كثيرة، يصير من أثرياء الحارة، ولكنه لا يتمتع فى الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية.

كل ليلة يدعو إلى بيته نخبة من الصحاب، يقدم الطعام والشراب، يلعب بأوتار العود، يغنى من له صوت مقبول، تمتد السهرة حتى منتصف الليل.

ثم يخيب تقديره فى صفقة كبيرة، لا يجد لديه من المدخر ما يسد به العجز، يشهر إفلاسه.

يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء وأخوات على باب الله.

تمر به أيام قاسية شديدة، تؤذى صحته وكبرياءه معا، ولكنه يبدو دائما رجلا قويا راسخ الأركان. يرجع إلى عمله الأصلى فى دكان الرهونات، يعطى دروسا خصوصية فى الحساب، يعيش عيشة التقشف.

وإيمانه قوى عميق.

أجل يشرب كثيرا، لا يلتزم بالفرائض، ولكنه مؤمن حقا، يعتقد بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه لا مفر من المكتوب.

ولا يقعده عن العمل إلا المرض فيلزم الفراش.

وأفكر بحال أسرته فيملؤنى الأسى.

وأشير إلى من يلعب فى الحجرة من الصغار وأقول:

ـ ربنا يشفيك من أجل هؤلاء!

فيقول باستسلام:

ـ أما الصحة فقد انتهت.

ثم يستطرد بثقة:

ـ أما الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول:

ـ الخوف كفر بالله، أعوذ بالله من الخوف.

ثم بنبرة ساخرة:

ـ أحسبت أن حياتى أطعمتهم حتى تخاف أن يجيعهم موتى؟

أتمعن إيمانه منبهرا من قوته.

غير أن سعد الجبلى لا ينسى الدعابة حتى وهو فى أعماق المحنة، فما أن يردد الحاكى:

ما هو انت اللى جايبه لروحك بإيدك يا قلبى

حتى يتمتم باسما:

ـ إى والله، بإيدك يا قلبى.

الحكاية رقم «٤٧»

وشلبى الألايلى له حكاية تستحق الرثاء.

لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن مميز فى حديثه هو الإعجاب بأبيه. والفخر بالآباء شعار مألوف فى حارتنا ولكن المغالاة فيه لا تخلو من دلالة ولا يسلم على المدى من تهكم. وأبوه كان كاتبا فى دكان الخردوات، وكان طويلا عريضا، والرجال يقيمون بالطول والعرض فى حارتنا.

يقول لى شلبى وهو يتنهد:

- طالما رأيت أبى بعينى طفل أو من خلال عينى أمى أيضا!

فأقول له:

- هذا حال كثيرين منا.

- ولكن الطفل يكبر ثم يعمل عادة فى حرفة أبيه فيتسنى له أن يراه على حقيقته أما أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعليمى فظل أبى فى خيالى أسطورة.

- أى أسطورة يا شلبى؟

- أسطورة الجلال والثراء!

ثم يواصل بعد صمت قصير:

- ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب.

- عالم غريب؟

- لم يترك مليما واحدا، كانت صدمة، وقلت إنه الكرم قد أهلك ثروته.

ويمضى فى قصته أو فى اعترافه فيقول إنه توظف، وطمح ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال، وأراد أن يزكى نفسه عنده فأخبره أنه ابن الألايلى.

- ودهمنى الرفض، تحريت عن السبب بإلحاح شديد حتى عثرت عليه فى ذكريات أبى!

- هكـــذا؟

- تصور حالى إن استطعت.

ويجرى لاهثا وراء مزيد من التحريات ينبش بها قبر الراحل فتتكشف له حقائق مريرة

خافية، أخطرها بلا شك اتهامه فى شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عاما. وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتبا عنده لصداقة قديمة بينهما.

شلبى الألايلى يجتر همومه وحده، حتى أمه لا تدرى شيئا، وهو يفشى أسراره الدفينة لا ليجد شريكا يبثه همه، ولكن لتوهمه أن سيرة أبيه أصبحت نادرة على كل لسان.

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارا قاسية مناقضة فى حياته، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقية بل مثالية فى عمله وحارته. وها هو يتحرر بالفضيحة من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين. ويعدل عن طموحه إلى الزواج الممتاز، ويثابر على التنويه بمآثر أبيه.

ويقول لى مرة بصراحة صلبة:

- أهم شىء فى هذه الدنيا أن تعرف الحقيقة.

ويغمغم بثقة وأسى معا:

- الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة.

الحكاية رقم «٤٨»

الأب موظف حكومى صغير وذاك أمر - على أى حال - نادر فى حارتنا. لذلك ينشأ الابن - صقر الموازينى - محسودا بين أقرانه. ولكنه يقول لى ذات يوم:

- لو كان أبى صعلوكا ما عرفت الهم أو الغم.

ويتوظف صقر مثل أبيه. وبعد عام من توظيفه يتوفى أبوه موظفا صغيرا فقيرا، لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمة وأختين فى سن الزواج وكلبة، كما يورثه أيضا تقاليد راسخة تتعلق بالكرامة وتطلعات جامحة نحو الحياة الجميلة.

وأكثرية النساء فى حارتنا يرتزقن، أما فى أسرة الموازينى وأمثالها فمقضى عليهن بالانتظار، واجترار الأحلام، ومقضى على صقر وحده أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء وكلبة.

وتمضى الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ، ولا فرجة له إلا المقهى حتى منتصف الليل.

ويجد راحته فى الشكوى فيقول:

- لن تتزوج أختاى أبدا، فنحن لا نرضى بالصعاليك وأولاد الناس لا يرضون بنا، ومن ثم فلن يتاح لى الزواج أبدا.

أسرة تعانى الأشواق والحرمان، حتى الأم والعمة لم تجاوزا الخمسين.

وصقر شاب مستقيم رغم حيويته، ذو استعداد شديد للحياة الزوجية ويحن لها حنينا:

- بيت صغير وزوجة وأبناء، تلك هى الجنة!

ويتنهد وتذوب نظرته حسرة وأحلاما.

* * *

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر فى صفحة وجهه الشحوب والشرود. وبمضى الأيام يتفجر الحرمان سخطا على الأهل والنفس والناس، ثم ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة.

والنساء مجبرات على البقاء فى البيت - إلا لضرورة - منعا للقيل والقال، تحبسهن التقاليد، يجمعهن الحرمان، يعذبهن الفراغ، يتسلين بالنقار.

أسرة فى صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس، ونضال خفى مع حارسها الذى لا يقل عنها يأسا وعذابا.

حتى الكلبة تضطرب فى جنبات البيت مختنقة، ممنوعة من الانطلاق خوفا عليها من القذارة، تلاعب الضيف بعنف، تنقض على ساقه تتمسح بها، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى.

* * *

ويتقدم العمر، صقر يغط فى عزوبته، وهن يذبلن ويغصن فى الماء، ويتسربل الجو بالقتامة. والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما يستوجب من ازدراء، لا علة واضحة لذلك، ربما لأنه يصبح مثالا للإذعان، والانحناء حيال المصير المحتوم، ومرآة للاصطلاحات والأساليب النسوية المقتبسة من البيت.

ويوما أرى كلبته فى الطريق وقد تدلت بطنها وانتفخت فأرمقها بابتسام وإعجاب:

الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة.

أما صقر فبات يمقت أسرته، ويقول عنها:

- أسرة لا تعرف الموت، كما لا تعرف الحياة.

الحكاية رقم «٤٩»

أمنية كل صغير فى حارتنا أن يطوف به فى منامه زائر الليل .

إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيئة تستقر فى القلوب البريئة . فى ليالى المواسم والأعياد يقولون لنا :

ـ استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم فربما أسعدك الحظ بمجىء زائر الليل ليحقق لك أمانيك .

وتتابعت تمنياتى خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهالات يزفرها القلب بين يدى زائر الليل .

ـ يا زائر الليل أغلق الكتّاب وخُذ سيدنا .

ـ يا زائر الليل افتح لى باب التكية واملأ حجرى بالتوت .

ـ يا زائر الليل جدد مبانى حارتنا القديمة .

ـ يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت .

* * *

وفى صباى شهدت موكبا فخما يشق حارتنا يتوسطه رجل بالغ الروعة . اكتظت الحارة بالرجال وسدت النوافذ بالنساء ، جلجلت الزغاريد والهتافات ، صدحت المزامير والطبول .

زار الدكاكين دكانا دكانا ، والوكالة والسرجة والفرن والحمام والكتّاب والمدرسة والسبيل الأثرى والقبو والزاوية والساحات ، حتى البوظة والغرزة والقرافة طاف بها .

بهرنى منظره فانبعثت فى قلبى فرحة لا حدود لها . وانتفض وجدانى عن عقيدة راسخة «إن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل» وأنه جاء أخيرا استجابة لابتهالاتى فى هدأة الليل .

وهتفت بصوتى الرفيع الذى لم يناهز البلوغ :

ـ ليحيا زائر الليل !

وحدث ما لم أتوقعه أبدا ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم كأنما اندلق فى أفواههم عصير الليمون المالح . وقرص إمام الزاوية أذنى وصاح بى :

ـ يا لك من ولد قليل الأدب !

وأمر صاحب الوكالة أحد خفرائه قائلا :

ـ أبعد هذا الولد الشقى .

ودفعتنى الأيدى إلى بيتى وأنا من القهر والمهانة فى نهاية .

وجلست واجما محزونا دامع العينين حتى قال لى أبى :

ـ إنك أحمق، أنسيت أن زائر الليل لا يجىء إلا فى المنام؟!

الحكاية رقم «٥٠»

فى زمن مضى لم أدرك منه إلا ذيله كانت الفتونة هى القوة الجوهرية فى حارتنا. هى السلطة، هى النظام، هى الدفاع، هى الهجوم، هى الكرامة، هى الذل، هى السعادة، وهى العذاب.

جعلص الدنانيرى فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيرا فى حياة حارتنا. يجلس فى المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخم. وأنظر إليه بانبهار فيشدنى أبى من يدى قائلا :

ـ سر فى حالك يا مجنون.

وأسأل أبى :

ـ أهو أقوى من عنترة؟

فيقول باسما :

ـ عنترة حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان. .

وهو عملاق مترامى الأطراف طولا وعرضا، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه فى حجم عجيزة ست أم زكى، يتمايل فوق صهوة حصانه كالمحمل، ولكنه سريع الانقضاض كالريح، ويلعب بالنبوت فى رشاقة الحواة، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه.

لا يسمع صوته إلا مزمجرا أو هادرا أو صارخا، ودائما قاذفا سيلا من الشتائم. يخاطب أحباءه بيا ابن كذا وكذا، يسب الدين وهو ذاهب للصلاة أو راجع منها. لا يُرى باسما أو هاشا حتى وهو يتلقى الإتاوات ويصغى إلى الملق، يستوى فى ذلك عنده صاحب الوكالة وحمودة القواد، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضرط أو يكشف عن عورته!

يعجز مرة أحد التجار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعا ولكنه لا يقبل فيضطر الرجل إلى البقاء فى بيته مع الحريم حتى يجيئه الفرج .

ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عاريا . يتوسل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهم متوثب ينتظر تنفيذ أمره . ويضطر الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعة فقطعة وهو يبكى . يتوقف عندما لم يبق إلا السروال فيزمجر الدنانيرى فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجرى نحو مسكنه مشيعا بقهقهات العصابة .

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن إجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوجها ، وهو كثير الزواج والطلاق ، ولا يجرؤ أحد على الزواج من إحدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن .

ويمرض يوما فيلازم الفراش أسبوعا ، ويخبره أحد قراء الغيب بأن ما أصابه إنما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه ، فلما برأ من مرضه يأمر بألا يحتفل أحد بعيد الفطر المبارك ، حتى زيارة المقابر حرمت علينا ، وتمر أيام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامتة ويغشانا ما يشبه الحداد .

أيامه أيام رعب وجبن وذل ونفاق ، أيام الأشباح والأنات المكتومة ، أيام الشياطين والأساطير المخزية ، أيام التعاسة واليأس والطرق المسدودة .

ولكنه يرعب أيضا الحارات المجاورة ، ويسحق فتوات الحسينية والعطوف والدراسة ، فتمضى زفة العريس من حارتنا بلا حراسة ، ويتجنب الناس وقع خطانا اتقاء لتجهم المقادر .

* * *

ويقدر لهذا الجبل الشامخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة .

يدعى إلى فرح فى الدرب الأحمر ، وعند مدخل البيت يتقدم منه غلام ويقول له :

ـ يا عــــم .

فينظر إليه من عل باستغراب ويسأله :

ـ ماذا تريد يا ولد؟

وبسرعة البرق .

أجل بسرعة البرق يخرج من جلبابه سكينا فيطعنه فى أعلى الكرش ثم يشد السكين وكأنه يتعلق بها حتى المثانة !

بسرعة البرق وقع ذلك .

ويتجمد جعلص الدنانيرى كأنما دهمه نوم ، وتنحط معدته خارج جسمه ، ثم يتهاوى كعمارة بكل ما يتضمن من قوة وإقدام ووحشية وثقة فى النفس والدنيا .

ويتبين أن الغلام ابن أحد ضحاياه من كفر الزغارى دربته أمه وأعدته لتلك اللحظة .

* * *

ويجتاح الخبر حارتنا كالنار المستطيرة . نذهل ونفزع ونبكى ونصرخ .

ونتمعن الخبر ونتبادل النظر فيتسلل إلى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان وفرح .

ويستقر بنا الحال فنؤمن بأن علينا أن نحزن رغم أننا فرحون ، وأن علينا أن نغضب رغم أننا راضون ، وأن علينا أن ننتقم رغم أننا شاكرون .

ويضر بنا موته كما أضرت بنا حياته وتكفهر الحياة بلعنات الشياطين .

الحكاية رقم «٥١»

ألعب أمام البيت مبتهجا بشمس الشتاء .

فى الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران .

وهو ذو نظرة حالمة وصوت عذب وملامح آسرة ، ويعجبنى صوته وهو يغنى :

عجايب والله عجايب   ما يصحش يا منصفين

تهجرنى وتعشق غيرى   وعواذلى مهنيين

وفجأة يصمت عبده وتعرب ملامحه عن حزن بلا سبب ظاهر ، ويخيل إلىّ أنه يرمقنى باهتمام .

ـ مالك يا عبده؟

ولكنه لا يرد أو بالأحرى لم يسمع . وكأنما يشرع فى الضحك ولكنه لا يضحك . وتند عنه صرخة ثم يسقط على وجهه . يتصلب عوده وترتعد أطرافه ويطفح الزبد من شدقيه .

ويحمله أهل الخير إلى داخل بيته .

وأقص على أمى ما رأيت فهتفت بحرارة :

ـ الله معه ومع أمه المسكينة .

وأسمع همسا أنه ممسوس وأنه لا يوجد له دواء عند أهل الأرض.

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله.

ويوما يرجع جعلص الدنانيرى من القرافة فى موكبه فتقف له الحارة على الصفين ويركبها الهول، إلا عبده فإنه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة ويقول:

- إنى ألعنك وطظ فيك!

وأقول لنفسى جزعا: لقد هلك عبده.

ولكن الجبار يبتسم، بل ويتأبط ذراعه، ويمضيان معا فى سلام.

لم يرحم الجبار أحدا فى حارتنا إلا عبده.

وتعلمنى الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدس طائفتين: الفتوات والبلهاء.

وتحوم أحلام صباى حول الطائفتين.

أحلم حينا بالفتونة وجلالها.

وأحلم حينا بالبلاهة وبركاتها!

الحكاية رقم «٥٢»

يقف زيان صبى مبيض النحاس بين يدى فتوة حارتنا السناوى مبتهلا فيقول له الفتوة:

- إن كنت صادقا فدعنى أجربك.

فيقول زيان بحماس:

- تحت أمرك يا سيد المعلمين.

فيقول السناوى بهدوء:

- اقتل أم على الداية.

ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله.

ويغوص زيان فى هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه:

- إنها لمصيبة لم تجر لى فى خاطر!

* * *

قبيل ذلك اللقاء كان زيان فردا مغمورا من أهل حارتنا، ومن الشبان الكادحين فى سبيل لقمة العيش.

وكان يطوى قلبه على حب مضطرم لأم على الداية بالرغم من أنها تكبره بعشرين عاما.

ويفكر فى حاله فتراءى له طريقه مسدودا، ورزقه محدودا، وأنه لن يروق فى عينى أم على إن لم يقلب حاله رأسا على عقب بضربة سحرية. لذلك حلم بالانضمام إلى عصابة السناوى ليثب فوق حاجز الحظ وثبة موفقة.

ويتشفع لدى الفتوة بصديق لأبيه هو ميمون الأعور فيزكيه الرجل عند السناوى ويقدمه إليه، غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة أمره فى ختامها أمره المرعب:

- اقتل أم على الداية!

* * *

ويهيم زيان على وجهه فى الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده إلى مخرج. ويتسلل إلى ميمون الأعور ليلا فى الغرزة فيقبل يده ويقول له:

- يا معلم، إنى خجلان، ولكننى لا أستطيع قتل أم على الداية.

ويظن ميمون أن عجزه راجع إلى قلة الحيلة فيقول له:

- ليس أسهل من ذلك فهى تدعى عادة إلى البيوت فى أواخر الليل.

فيقول يائسا:

- أمنيتى أن أتزوج منها ذات يوم.

فيقول ميمون باستهانة.

- اقتلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنسوان فى حارتنا أكثر من الذباب!

- ولماذا أم على بالذات؟

- هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه، وهو يريد أن يجربك، بل لعله علم برغبتك فى المرأة.

فيقول متنهدا:

- الحق أننى لا أستطيع القتل!

فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول:

- أحسبت الانضمام للعصابة لهوا؟!

- أعرف الآن أننى لا أستحق هذا الشرف.

- فات الوقت!

- فات الوقت؟

- لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة فى الحارة.

ويمضى زيان وهو يعد نفسه فى الضائعين .

ويفضى بهمه إلى أمه فتنصحه بالهرب وتحثه عليه ، وقبيل الفجر يغادر زيان بيته حاملا بقجة ملابسه وخمسين قرشا ، هاجرا بيته وحارته وعمله ، مستقبلا العناء والمجهول .

وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من عمر حارتنا .

الحكاية رقم «٥٣»

ومن فتوات حارتنا حموده الحلوانى . ويحكى أنه الوحيد بينهم الذى عمّر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذى اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر .

وقد تاب وحج ولزم المسجد فى آخر أيامه .

ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر ، فقال للإمام :

ـ كثيرون يسيئون الظن بالفتوات ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون !

فابتسم الإمام وقال متهكما :

ـ إنك على رأس أولاد الحلال .

فقال حمودة بإيمان :

ـ حصتى من الخير لا يستهان بها .

ـ عظيم ، أعطنى مثلا يا معلم حمودة؟

ـ أتذكر رجل الفل الذى اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات؟ . . أنا الذى دبرت مصرعه !

ـ ولكنها جريمة يا معلم .

ـ أبدا ، وأنا الذى قتلت سمعة الدنش الذى قتل ابن زوجته .

ـ ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة !

ـ طظ فى المحكمة ، كان قلبى دليلى وهو أصدق الحاكمين !

ثم بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه فى أواخر عمره :

ـ ومن حسناتى أننى قتلت فهيمة الألاتية القوادة المعروفة !

فقال الإمام بإزدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان :

ـ قيل وقتها إنّك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها!

ـ لا تصدق كثيرا مما يُقال!

فضحك الإمام وقال:

ـ زدنى علما بحسناتك!

ـ وقتلت أيضا يمنى الخيشى.

ـ وماذا كان ذنبه؟

ـ العجرفة، كان يسير فى الحارة كأنه خالقها.

ـ تعنى أن نفسه سولت له أن يقلد فتوته!

ـ إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لى بفضل.

ـ لا تغضب وزدنى علما بحسناتك!

فضحك حمودة عن فم لم يبق فيه ناب واحد ولا ضرس ثم قال:

ـ حوادث القتل الباقية لا تعد من الحسنات وقد تاب الله علىّ والحمد لله.

فقال الإمام بعد تردد:

ـ ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش العبد؟!

فضحك حمودة واستغفر الله، فقال الإمام بإلحاح:

ـ حدثنى بخبره يا معلم حمودة.

فقال الرجل الذى لم يبد قط أن ذكريات جرائمه تؤرقه:

ـ كنت جالسا فى داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخن البورى، لم يكن بينى وبينه شيء على الإطلاق، فدخن البورى وشرب قهوته ثم قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى «غدا سأكون عندك فى مثل هذا الوقت بالدقيقة والثانية كما اتفقنا فلا تنس»، وما أدرى إلا والغضب يجتاحنى فقررت فى الحال قتله، ولم يطلع عليه الصبح!

ـ أذلك كل ما كان؟

ـ بلا زيادة ولا نقصان!

ـ ولكن ما الذى أغضبك؟

ـ لا أدرى، حتى اليوم لا أدرى.

ـ ولكن لابد من سبب!

ـ ربما أحنقتنى ثقته البالغة فى نفسه وفى غده، كان يتكلم بثقة وطمأنينة!

ـ ولكن لابد من سبب غير ذلك؟

ـ قل إنه قتل بلا سبب!

فتعجب الإمام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم يبق منه إلا هيكل عظمى.

الحكاية رقم «٥٤»

ومما يُحكى أنه كان بحارتنا شاب صعلوك يدعى عباس الجحش. لم يكن يوفق أبدا فى إتقان حرفة ولا يمكث فى دكان أكثر من أيام ثم يُطرد شر طردة. وذات يوم رأى عباس عنباية المتولى بنت بياع الدندورمة فأترع قلبه برحيق الحب المسكر. ولم يجد سبيلا مشروعا إليها فتفتق عقله عن حيلة، أن يتآمر مع صحبه من الصعاليك على أن يمثلوا مع الفتاة دور المتحرشين وعلى أن يمثل هو دور ابن البلد الشهم. وخرجت عنباية لتتسوق فى ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعربدة، فوثب عباس الجحش من مجلسه على سلم السبيل، فانقض عليهم كالوحش، صرعهم واحدا فى إثر واحد حتى طرحهم أرضا، ثم تقدم من البنت وهو يلهث قائلا:

ـ مصحوبة بالسلامة.

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة. وجعلت من مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال.

وصادف ذلك وقتا خلت فيه الحارة من فتوة. ولم تكن الفتونة قد زالت بعد ـ فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا أن يكون لها فتوة؟

ورأى أحدهم عباس وهو يحوم حول بيت بياع الدندورمة فهتف به:

ـ أهلا بالجحش فتوة حارتنا!

واهتز عباس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام، وتحت سطوة المخدرات قال لنفسه:

ـ فلنجرب هذه اللعبة!

وجمع أصحابه، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد أن فرش طريقه بالدعاية المناسبة. وكانت الحارة فى حاجة ملحة إلى فتوة لتحفظ ذاتها وكرامتها بين الحوارى المتصارعة، فاستقبلت عباس الجحش وصحابه بزفة وبايعته فتوة لها. وتحول الصعاليك إلى عصابة، وانهالت عليهم الإتاوات، فتحسنت أحوالهم، وازدهتهم الخيلاء فخطروا فى الأرض كالجمال، ورويدا رويدا صدقوا أوهامهم.

وطلب عباس الجحش يد عنباية المتولى فقال له أبوها بوجه طافح بالبشر :

ـ بشرى لنا يا معلم!

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتم إلا بعد الزفة .

وتنبه عباس متأخرا إلى أن زفة الفتوة يجب أن تطوف بالحى كله، وأنها الاختبار الرهيب للفتوة، تجابهه فيها تحديات الأعداء، فيرجع منها إلى شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضى إلى القرافة .

لابد مما ليس منه، وماذا يمنع الحظ من أن يخدمه مرة أخرى؟

وسكر وسكر أصحابه .

ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل، وسار فيها رجال الحارة .

وعند باب زويلة .

عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف ورجاله .

رآه عباس فطارت الخمر من رأسه .

ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب الجحش حتى ركبتيه .

وهتف أهل حارتنا فى حماس وبراءة فاضطر عباس إلى أن يلعب بنبوته كذلك .

لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية .

وتقدم خطوات فى سكون ثقيل فتقدم فتوة العطوف فى غاية من الحذر .

واندفع عباس نحو خصمه حتى ذهل أصحابه .

وفجـــأة .

وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفى ثم انطلق فى ظلماتها مثل رصاصة لائذا بالفرار!

ووجم الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .

ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .

ولم يُر عباس بعد ذلك فى حينا كله . وظل قرانه معقودا حتى سقط بمضى المدة .

الحكاية رقم «٥٥»

الويل لنا عندما يشتد النزاع بين الحارات، عندما تتصارع التحديات بين الفتوات.

نتوقع فى الليل أن تجتاحنا هجمة غادرة، نتعرض فى تجوالنا فى الحى لتحرشات مباغتة، تنقلب أفراحنا إلى معارك دامية، يسود وجه الحياة ويكفهر.

ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوفا بالمخاطر أما التسلل عن طريق القرافة فيتهدده الشياطين وقطاع الطرق، فننحصر فى حارتنا كالفئران فى المصيدة.

ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية.

* * *

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرقى، يقولون:

ـ لا بأس من هدمه لنتسلل منه إلى صحراء الجبل، ومنها إلى أطراف الأحياء البعيدة التى نتعامل معها ونحن فى مأمن من الأخطار المحدقة بنا.

والسور عتيق يكون الجناح الشرقى للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من سفح المقطم. وتطيب الفكرة لنا فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا بتنفيذ الفكرة. ويتساءل أناس.

ـ ألا يمكن أن يهتدى العدو إليها فيباغتنا منها؟

فيجيب أصحاب الفكرة:

ـ الوصول إليها عسير، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم فضلا عن أنه من اليسير حراستها!

ويشرع العاملون فى العمل، ويتهيأ لنا ممر إلى الصحراء نطلق عليه «ممر السبيل» حيث إنه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثرى مباشرة. هكذا نخلق ممرا سريا للعالم الخارجى متجنبين طريقى الميدان والقرافة اللذين يحدان حارتنا من طرفيها.

ويتحدث مدرس الجغرافيا ذات مساء فى المقهى فيقول:

ـ نحن نتوهم أننا حققنا الأمان لأنفسنا وأنه لم يعد ثمة ما نخافه!

فيتعجب السامعون لقوله فيقول:

ـ كأن معاركنا مع الحارات المجاورة هى جملة ما يهدد سلامتنا!

فيزداد تعجب الناس من قوله وادعائه أما هو فيمضى قائلا:

ـ هنالك خطر هائل لا يفطن له أحد ولكنه كفيل بالقضاء على حارتنا كلها بضربة واحدة.

ولما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب:

ـ الممر الذى شق فى السور الشرقى.

ـ ممر السبيل؟

ـ لو ينهمر من السماء سيل فيكتسح السفح وينقض على الممر فيغرق الحارة!

وتتجمع فى أعينهم أمارات الذهول والسخرية ويقولون:

ـ إنها لا تمطر فى العام إلا مطرة واحدة وهى مطرة خفيفة كالدعابة.

ولكنه يستطرد غير مبال باعتراضهم:

ـ الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة فى الوسط.

ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين:

ـ يريد منا أن نستهين بخطر داهم عاجل لاتقاء خطر وهمى لا يقع إلا فى خياله.

* * *

وتمضى أعوام والحارة منهمكة فى صراعها اليومى. المدرس يكرر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلا هازئا حتى أطلق عليه «الأستاذ مسيلمة».

* * *

وتربد السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسود وتهبط فوق المآذن.

وتهب عاصفة تدك العلالى فوق الأسطح وتلعب بأشجار التوت فى التكية.

وينهل المطر كأنه أنهار تتدفق من عل.

ويتواصل انهلاله ثلاثة أيام كاملة.

حدث كونى لم نعرفه من قبل غضبة فلكية كاسرة. وينصب من الجبل طوفان فيندفع نحو الممر بسرعة قطار صاخب، ويزمجر فى هدير شامل تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجعجع.

وتختفى أرض الحارة تحت طبقات من المياه المركزة المحصورة، وتأخذ المياه فى الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفلية وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزانا ومن الساحة بحيرة ومن الممر الضيق بين التكية والسور نهرا زاخرا، ثم تجتاح المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث فى أخاديد لا حصر لها تغطيها الأكفان والخرق البالية.

وتنهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافى وثقوبا فيهجر الحارة أهلها مذعورين

وينتشـــرون فى الصحـــراء لاجئـين مشـردين والخـراب يحـيط بهم وارثا الأرض ومـا عليها .

محنة لا تنسى .

وذكرى مبللة بالدموع .

الحكاية رقم «٥٦»

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرر ـ كما فعل زيان فى زمن أسبق ـ محاولـــة الانضمام إلى عصابة «الدقمة» فتوة حارتنا ، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له :

ـ احذر أن تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحة أو هذا الجلباب المزيت ، كن مثل الماء الصافى النقى ثم جرب حظك .

وقال له أيضا :

ـ فتوتنا يحب الجمال والنقاء ، وهو طراز وحده فى سلسلة فتواتنا فافهم ذلك جيدا .

واقتنع عبدون بأن الطريق إلى الدقمة ممهد ميسور ، فذهب إلى الحمام ليغير جلده فى المغطس ، وأعد جلبابا ومركوبا جديدين . وفيما هو منهمك فى تجديد نفسه سأله صاحب له :

ـ ماذا هناك يا عبدون؟ . . هل تفكر فى الزواج؟

فباح له بسره ، وكان الآخر صاحبا أمينا فقال له :

ـ ليست النظافة وحدها هى ما تهم الدقمة ، إنه أيضا يحب الحكايات .

ـ الحـــكايات؟

ـ عنترة وأبو زيد وغيرهما ، فإن لم تعرف السير تعذر عليك أن تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة .

ـ ولكن تحصيل ذلك يطول !

ـ عنـــدك الـــراوى فى المقهى فلا تضيع وقتا إن كنت صادق الإرادة حقا !

ثم قال له وهو يمضى عنه :

ـ تغير الزمن يا عبدون ، فى بادئ الأمر كان الدقمة يرحب بأى رجل يروم الانضمام إليه ، أما اليوم فهو يستوى على عرش القوة دون منازع .

وتفكر عبدون فى الأمر مليا . وكان عبدون رجلا عاقلا . قال لنفسه إنه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهوادة والصبر والإتقان، وألا يتكالب على هدفه تكالبا يفسده عليه . لبث فى الوكالة يعمل بهمة، وتزوج، وواظب على السهر فى المقهى يتلقى الحكايات على أنغام الرباب . لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة، فالعمل فى الوكالة شاق، وأعباء الأسرة لا يستهان بها، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيل حلمه العذب يوم يمثل بين يدى الدقمة فى نقاء الماء وثراء الرباب .

وذاع سره، وعرف كل من هب ودب أن عبدون الحلوة يعد نفسه للفتونة .

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح، فقال له أحدهم :

ـ النظافة مهمة، والحكاية مهمة، ولكن الشجاعة عند الدقمة أهم من الاثنين!

ـ الشجاعة؟

ـ أجل، واحذر فى الوقت نفسه أن تستثير غيرته فيحنق عليك بدلا من أن يرضى!

ـ وكيف أوفق بين هذا وذاك؟

ـ تلك هى مشكلتك وعليك أن تحلها بالفطنة يا عبدون يا ابن الحلوة!

وقال له آخر :

ـ والقوة مهمة أيضا، عليك أن تثبت قوتك، عليك أن تثبت أنك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنك قادر أيضا على تحمل الضربات مهما اشتدت . . وعليك أن تثبت له أيضا أن قوتك لا توزن بحال بقوته .

ـ ولكن كيف يتأتى لى ذلك كله؟

ـ تلك هى مشكلتك يا عبدون!

ساورته الحيرة ولكنه أراد أن يطمئن نفسه فقال :

ـ أهل الخبرة يقولون إنه يحب الجمال والنقاء والخير، أشهد أن معاملته للبَّان تقطع بميله الأصيل للخير!

فتساءل الآخر فى حذر :

ـ وماذا عن معاملته للسقاء؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال بإصرار :

ـ أخبرنى أبى ذات مرة أنه يحب الفقراء .

ـ بوسعى أن أعد لك عشرة على الأقل من أفقر فقراء حارتنا قد نكل بهم وشردهم .

خرج عبدون من الأحاديث معتما مهموما حائرا، حتى العدول عن الطريق خطر له، ولكن الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص . وتشعبت أهداف الحياة بين

الوكالة والزوجة والرباب وتجارب القوة والشجاعة ومغامراتهما . ومضى - رغم صلابته - ينوء بالعبء ، وتنزلق قدمه ، وتتراخى قبضته ، تبدد وقته وتشتت عقله وارتكب حماقات متلاحقة ، وتمادى فى طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته ، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة ، وطلق - عقب مشاحنات كثيرة - زوجته .

لم يكترث لذلك كثيرا وظن أن الوقت أزف للقاء الدقمة الذى لم يبق له غيره .

وتفحصه الفتوة مليا ثم سأله :

- ماذا تريد؟

فأجاب عبدون :

- أن أصير من خدامك .

- أترى نفسك أهلا لذلك؟

فأحنى رأسه ليخفى زهوه بمنظره الأنيق وقال :

- عندى ما يريد معلمى وزيادة !

فقال الدقمة بجفاء :

- لست فى حاجة إليك .

فذهل عبدون وقال بضراعة :

- فى سبيلك فقدت أسباب حياتى جميعا .

فقال الدقمة بلا اكتراث :

- أعرف ذلك .

- وتطردنى رغم ذلك؟

فقال الرجل بنفاد صبر :

- بل أطردك بسبب ذلك !

وبات عبدون الحلوة نادرة تُروى .

الحكاية رقم «٥٧»

زغرب البلاقيطى من فتوات حارتنا المعدودين . وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تُذكر .

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبوت لعيِّب. ولولا إيمانه - وهذا حقيقة - بأن هيبة الفتونة لا ترسخ إلا بالنصر ما خاض معركة قط. ويصادفه التوفيق فى معاركه فيضرب فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثم يمتد ظله فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة. ونحبه جميعا ونتغنى بانتصاراته وننعم بأبوته اللطيفة. وهو يجلس كثيرا فى المقهى ليتابع الحكايات، ويقرب إليه أهل النكتة والمنشدين والزجالين، أحييه على صغر سنى فيرد التحية بذوق يبعث فى أعماقى النشوة والأمل. وسلوكه معنا فريد غير مسبوق بشبيه. يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة، حتى هو نفسه يعمل تاجر جملة للمخدرات، ولا يطالب بإتاوة إلا للضرورة القصوى.

ولكن الفتونة هى الفتونة على أى حال.

فكلمة زغرب البلاقيطى هى الأولى والأخيرة فى أى أمر من الأمور. والتحكم مرّ ولو كان طول العمر نتيجته. إنه يحذر الرجال من العربدة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيد حرية الغلمان فى لعبهم.

ويغالى فى التدخل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز لبطولة أبى زيد، ويبطل الزواج الذى يراه غير متكافئ، والطلاق الذى لا يعجبه وإن رضى به الطرفان، ولم يكن أحد يتجرأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده فى المقهى لنفوره منهما.

وفى كلمة كبلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه. وزاد من حرج الموقف تكاثُر المتعلمين فى حارتنا يوما بعد يوم، وشدة حساسيتهم، وحدة ألسنتهم.

- اللعنة.. لم يبق إلا أن نتنفس بأمره.

- إنه مستبد ولكنه عادل.

- مستبد يعنى أنه غير عادل.

يسمع ما لم يكن يسمع بحارتنا. لأول مرة نعاصر حملة على الفتونة فى ذاتها وبصرف النظر عن مزاياها. لأول مرة يُقال إنه نظام بال وأنه آن للشرطى أن يحمى العباد. لأول مرة يُلعن الفتوة الطيب كما كان يُلعن الفتوة الشرير.

ويترامى التهامس إلى زغرب البلاقيطى فيغضب ويصيح:

- أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا!

ويتجهم وينذر بالعنف.

* * *

وتتوجه قلوب نحو هجّار الأقرع.

عمـلاق ورع وفيه شيء لله . إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقيا بالعواقب جانبا .

وهو يقبع فى الليالى فى الساحة أمام التكية يردد الأناشيد ويحدث نفسه . يتسلل إليه فى الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون :

ـ أتريد يا هجّار أن ترضى ربك؟

فيعتقد هجّار أنه يسمع هاتفا من الغيب فيقول :

ـ لبيـك!

فيهمس الرجل :

ـ لقد أعطيت القوة والبأس فحطم الأغلال .

* * *

وينطلق هجّار فى الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدسة .

وتوقع الطيبون أن ينهار سجن الأغلال .

ويلوح هجّـار المارد بنبوته . وفـجـأة يضـرب إمام الزاوية . ويثنى بامـرأة مـاضيـة فى الطريق . وينهال بنبوته على تجار وعمال وتلاميذ!

وهاجت الحارة وماجت ، وتصايح الناس :

ـ جن الأقرع .

ـ اقبضوا عليه .

ـ حاصروه واضربوه .

ورمى بالطوب من كل موقع حتى سقط مضرجا بدمه .

* * *

لم نفقه لما حدث معنى . وظن كثيرون أن الرجل لم يفهم الرسالة أو أنه أساء فهمها ، أو أن فى الأمر سرا ما زال خافيا .

ولكن التذمر من زغرب البلاقيطى يتزايد ، ويجهر كثيرون بما يضمرون ، ويعتدى الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة ، وتسرى فى الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل .

وتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنها تقضى فى النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد .

وتُستعاد حادثة هجّار الأقرع فى ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزا للحياة الجديدة .

الحكاية رقم «٥٨»

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك. في الحارة عصابات متخاصمة، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر. ويغلي الحقد الأسود، وتمجّ القلوب كراهية وتتكاثر حوادث الاغتيال، وينذر الغد بكارثة.

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض.

ثمة تجمعات من السحب القاتمة تنتشر في الأفق، غريبة في غير زمانها، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس. وتتطاول نحو كبد السماء وتنداح فتخفي إحداها الشمس وتواري الضوء المنير.

وتمضي التجمعات في التكاثر والتقارب. وتتصل وتتلاصق فتتحول إلى تكتلات شاسعة، في بطء ولكن في ثبات وإصرار حتى تشكل في النهاية سقفا غليظا من السواد العميق.

وتشخص الأعين نحو السماء متسائلة، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحو السماء.

وتدب في السقف الأسود حركة متوترة فيبدو متموجا متصارعا متلاطما كأنه محيط من الظلمات مشتبكا في نضال ضار.

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة، لا يدرون عم تتمخض، ويتوقعون مزيدا من الإثارة المقلقة.

ويمضي الجو يتشرب بلون رمادي غامق، يزداد قتامة وتجهما، ويمضي بحر السواد يقطر نتفا سودا، تنتشر في الجو ثم تزحف هابطة في هدوء مخيف.

ويهجر الناس الحارة إلى الميدان، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة، ينشدون في الانطلاق والتجمع البشري ما يفتقدون من أمان.

وتنفذ إلى حواس الشم رائحة ترابية مثيرة للأعصاب، ويأخذ الكون في الاختفاء، وتتخايل الأشباح، ثم يغرق كل شيء في ظلام دامس.

وترتفع الأصوات المتهدجة:

- يا ألطاف الله.

- ارحمنا يارب العالمين.

وتشملنا ساعة من التوقع المتوتر لأى خطر داهم لم يجر لنا فى خيال من قبل .
وتتلاحم الأيدى فى الظلام لا تدرى يد فى أى يد توضع .

الحكاية رقم «٥٩»

غنام أبو رابية له قصة طريفة .

من ناحيـة الأصل يعد من فقراء حارتنا . تفوق فى المدرسة وعين بوزارة الداخلية ، وترقى فى درجاتها حتى شغل منصب المشرف المالى على الأموال السرية .

يتميز على صعاليك أسرته بالمسكن النظيف ، والزوجة الجميلة ، والغـذاء الطـيب ، وله فى مظهـره هيبة ، وفى مجلسه قطب يقصده ذوو الحاجات .

* * *

ويختفى ذات يوم غنام أبو رابية فلا تراه عين .

يتردد السؤال عنه فى البيت والمقهى ، بين المعارف والأقارب والحساد . لا يظفر أحد بجواب حاسم ، ثمة غموض يكتنف الموضوع ويثير الحيرة والريب . ليس الرجل مريضا ولا على سفر ولا صلة له بالسياسة مدها وجزرها ، ولا خصوم له على الإطلاق ، فلم يبق إلا أن تحوم الظنون حول أمور غاية فى الحساسية . وأن تختلف فيها الآراء تبعا للنوايا والعواطف الشخصية ، فنسمع حينا أنه هرب ، ونسمع حينا آخر أنه قُتل .

ويظهـر غنـام أبو رابيـة ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة . ويتزاحم المهنئون فى داره . ويفسر الرجل سر غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسئول فى الداخليـة ، تطور إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسئول ، فقبض عليه ، ولكنه أصر على موقفه حتى أفرج عنه .

ويصدق الناس ذلك ويعدونه بطولة . ويُحال غنام أبو رابية على المعاش قبل ميعاده القانونى بعشرة أعوام فيعتبر شهيدا ، والناس ذوو استعداد فطرى لسوء الظن بالداخلية .

* * *

ومـع الأيـام تنـاقل الناس حـكاية جديدة عن غياب غنام أبو رابية ، لا أدرى كـيف نشأت ، ولا من كـان أول ناشر لها ، ولا مدى ما تنطوى عليه من صدق ، ولكنها رغم ذلك كله تنتشـر وترسخ وتنضم إلى تاريخ حارتنا .

يقال والله أعلم إن غنام أبو رابية استغل مركزه كمشرف مالى على الأموال السرية

فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات، وقيل أكثر من ذلك. وإنه ضبط وحقق معه واعترف. كان الموقف غاية فى الدقة والحرج، فالرجل محيط بأسماء من توزع عليهم الأموال السرية فى جميع المواقع، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة، فما العمل؟.. طالبوه برد المبلغ فى نظير العفو الشامل عنه ولكنه رفض. ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنه لم يبال. لم يعثروا للمبلغ على أثر، وتجنبوا تقديمه للنيابة حتى لا يبوح هناك بأسراره، وكرروا المحاولة للاتفاق معه دون جدوى. أدرك منذ بادئ الأمر أنه فى الموقع الأقوى وتلقى كافة التهديدات بسخرية. وقال لهم:

- ألوف وألوف وألوف تنفق كل يوم على أوغاد بلا خُلق فما الجريمة فى أن أنال قروشا لنفسى وتراب حذائى أشرف من أكبر رأس فيهم؟.. إنى أرفض رد مليم واحد وأطالب بتقديمى للنيابة العمومية.

ولم يكن فى وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد، ولا أن يتحملوا مسئولية القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك، فاتفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألا يُسأل عما اختلس مع إحالته على المعاش فى الوقت نفسه.

وقد اشترى الرجل خرابة وشيد فيها عمارة واعتبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا.

الحكاية رقم «٦٠»

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين فى نقش الأوانى النحاسية. يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار، ويُرى هائما على وجهه فى الساحة أمام التكية، لا يعرف أحدا ولا يعرف نفسه. وسمعت أمه بالخبر فمضت إليه ولكنه لم يعرفها، نادته باسمه فبدا وكأنه يسمعه لأول مرة، إنه غريب تماما، وكأنما ولد لساعته.

واتجهت الظنون إلى المخدرات ولكن ذهوله طال، تجاوز اليوم، ويوما بعد اليوم، ثم استقر كحال جديدة ثابتة، أصبح رمانة وعاء خاليا من الذكريات والعلاقات البشرية، أصبح جثة غير هامدة. وقيل - كالعادة فى حارتنا - إنه ممسوس، وعولج بوصفات شتى من الطب الشعبى المناسب، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار، ولكنه لم يبرأ فسُلّم الأمر فيه إلى الرحمن.

* * *

وذات صباح تقرأ أمه فى عينيه نظرة جديدة، نظرة متألقة تعكس شخصية غائبة كأنما هى ترجع فجأة من سفر طويل. يخفق قلب الأم بالأمل وتهتف:

- رمـانة!

فينظر رمانة إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع:

- تأخرت عن الدكان.

ويمضى مسرعا إلى الدكان وأمه تجهش فى البكاء.

ويقبل على معلمه قائلا:

- غلبنى النوم فمعذرة يا معلم.

ويرمقه الرجل فى صمت وارتياب، ولكنه يتركه يزاول عمله وهو يحدس بفراسة صادقة ما طرأ على الشاب. وينظر رمانة فيما حوله باهتمام، ولما لا يجد ما يبحث عنه يسأل:

- أين بيومى؟

بيومى صديقه وقرين طفولته، توقع أن يراه كالعادة قبالته، ولكنه لا يُوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله عنه اهتماما.

* * *

ويعلم رمانة رويدا أنه غاب عن الوجود أشهرا كاملة. يتلقى هذه الحقيقة بنعومة وأناة، ومع ذلك لا يدرى كيف يهضمها. ويعود للسؤال عن صديقه بيومى فيقال له:

- البقية فى حياتك!

فيصـرخ:

- بيومى مات!

- بل شـنق!

- شـنق؟!

- اتهم بقتل زينب بياعة الحلى الزجاجية!

ويتمتم بذهول:

- بيومى قتل زينب!

* * *

قليلون جدا الذين عرفوا أن رمانة فقد صديقه الوحيد وحبيبته الوحيدة، وأولئك قالوا أيضا:

- وهو يعلم الآن أنه فجع فى الحب والصداقة أيضا!

وقـــالوا :

ـ لقد ذهبا مخلفين له الخيانة والخواء .

* * *

وعانى رمانة تغيرا جديدا فى الشخصية . لم يرتد إلى الغيبوبة لكن تسلل إلى صميم روحه الخمول وخيم عليه الصمت . عاش محتجا رافضا كارها ، يذبل ويهزل ، حتى مرض مرضا أقعده عن العمل ، واسود الأفق فى عينيه .

وأرادت أمه أن تعزيه فقالت :

ـ لست فريدا فى مصابك فمصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى !

فغادر المسكن من فوره قاصدا قسم الجمالية . مثل بين يدى المأمور وقال بهدوء :

ـ أنا قاتل زينب بياعة الحلى الزجاجية .

الحكاية رقم «٦١»

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسول وخفة اليد . تسلل ليلة إلى بيت ست ماشاالله عندما ثبت له غيابها فى فرح . ولسبب ما رجعت ماشاالله مبكرة على غير توقع ، فما يدرى إلا وهى مقبلة نحو حجرة النوم فانذعر واندس تحت الفراش وهو يرتعد .

أشعلت المرأة المصباح ، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقيها وهى تذهب وتجىء ، وسمعها وهى تترنم بحنان :

لك علىّ لما تيجى تبقى ليلة أبهة

تُرى متى يتاح له الهرب بأمان؟ !

وغابت ست ماشاالله دقائق ثم رجعت بأربع أقدام ! . . ثمة طرف جلباب مقلم ومركوب أخضر ، فانقبض صدر ابن عيشة وأيقن أن حبسه سيطول !

قالت المرأة :

ـ آنست ونورت .

فقال صوت غليظ :

ـ لا يتصور أحد إلا أننا فى الفرح .

وتناهى إلى اذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات وهمسات مرحة .

قالت المرأة :

ـ لن يتخيل مهما تخيل أنى أفلت من زحمة الفرح .

فقال الصوت الغليظ :

ـ سيقتلنا يوما إن لم نقتله!

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحت الفراش، وبدأ تأثير المنزول ينمل حواسه ويزحف نحو جهازه التنفسى، وينتشر فى روحه منذرا بعواقبه المألوفة .

وسبح ابن عيشة فى بحر لا شاطىء له ثم مضى يطير فى الفضاء بتؤدة وهيمان . حتى بلغ ذروة عالية نظر منها إلى حجرة ست ماشاالله فرآها بشىء من الوضوح على ضوء المصباح، رأى العاشقين، وحتى الرجل المختفى تحت الفراش رآه، تبدت المرأة عارية متموجة فى سحابة من دخان رمادى على حين مضى الرجل ـ كقرد ـ يثب بين غصون شجرة فارعة . وترامى اللعب بلا نهاية غير أن عاصفة اجتاحت المكان المتوارى فتطاير الدخان وتلاطمت الأوراق . وأكثر من صوت نادى بالدم، وتتابعت أصوات الارتطام والدق، وتبودلت ضربات غاية فى العنف والقسوة، وأقبلت قوات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحب أثر .

وقرر ابن عيشة أن يواصل طيرانه فى الفضاء مبتعدا ما أمكن عن كوابيس الأرض . . ولكنه ارتطم بشىء أو لعل شيئا ارتطم به .

وبمشقة استطاع أن يتملص من قبضة وأمكنه أن يحرك عنقه . . وأن يرى الضوء .

وجُر جرّا من تحت الفراش .

وقف مترنحا فى الحجرة ينظر فى الوجوه المحدقة به بذهول .

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة :

ـ هذا ابن عيشة . . نشال يا فندم .

فقال الضابط :

ـ أخيرا تعلّم كيف يقتل .

وقبض عليه .

ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ست ماشاالله وعشيقها، ثم قُبض على القاتل فى أثناء التحقيق .

وكان ابن عيشة يحكى قصته مرة كل ساعة . وقد أصابه لطف فى آخر أيامه، وكان يُقال إن الدروشة هبطت عليه تحت فراش ست ماشاالله .

الحكاية رقم «٦٢»

كان الحاج على الخلفاوى من أغنياء حارتنا. عُرف بالطيبة والصلاح أكثر مما عُرف بالثراء، يعطف على المظلومين، ويعين الفقراء، ويبر ذوى القربى، ومع الأيام إزداد ورعا وتقوى ورحمة، ولكنه خص آل مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممن يظلهم عطفه. وكان آل مهران قوما فقراء، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورطوا فى الجنح والجرائم واشتهروا بالعنف والبلطجة.

ولما شعر الحاج على بدنو الأجل استدعى إليه أكبر أبنائه وقال له:

ـ لقد رأيت حلما.

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاج:

ـ آن لى أن أزيح عن صدرى جبل الهم الأكبر.

فسأله ابنه:

ـ ما الحلم؟.. وما الهم الأكبر؟

فاستغفر الحاج ربه وقال:

ـ بخلاف الظاهر يا بنى كانت حياتى مريرة!

ـ لمَ يا أطيب الناس؟

فقال الحاج وهو يتنفس بمشقة:

ـ أريد أن أحدثك عن آل مهران.

ـ إنهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقون، بل الحق أنهم لا يستحقون إلا العقاب.

فأسبل الحاج جفنيه وقال:

ـ إنهم يستحقون كل ما نملك!

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكا لمهران الأب فى شبابه الأول، وأن الوفاة حضرت الرجل وهما فى سفر فسرق ماله.

ـ المال الذى استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهران بفقده إلى ما هم فيه.

قال الابن باضطراب:

ـ إنك لا تعنى ما تقول يا أبى.

ـ إنها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وغمرهما صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج :

ـ كانت الحياة مريرة ، أريد أن أجنبك اللعنة ، أريد أن يُرد المال لأصحابه .

فتساءل الابن محتجا :

ـ هل نعترف بأننا لصوص؟ !

فقال الأب بضراعة :

ـ هذه هى مشكلتك يا بنى .

ـ بل هى مشكلتك أنت يا أبى .

ـ إنى أتردى فى حضرة الموت .

فتساءل الابن بجفاء .

ـ ولم لَم تفكر فى التكفير من قبل؟ !

وأغَمض الحاج عينيه كأنما تلقى لطمة ، وغمغم :

ـ اللهم مد فى عمرى حتى أهيئ نفسى للقياك .

ولكنه مات قبل ذلك ، بل إن رواة القصة يتهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجل بنهايته .

هكذا تُروى الحكايات ، وبدقة فى التفاصيل لا تتاح إلا لمن شهدها .

ولكن هكذا تُروى الحكايات فى حارتنا .

الحكاية رقم «٦٣»

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة فى ضفاف الصبا . فى أحد الأعياد مزق شلضم جلباب قرمة الجديد فاشتبكا فى خناقة حامية فضرب قرمة شلضم بمقدم قبقابه فقطع حاجبه ، وسجل فى وجهه أثرا باقيا .

منذ ذلك التاريخ القديم عششت عاصفة صفراء ضاربة للسواد فى أعماقهما ، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط فى المناسبات ، ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفاثة للحنق ، ويظل منظر أحدهما قوة غادرة ومتحدية للآخر .

فى الكتّاب يتبادلان الغمز واللمز ، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرض عليه سيدنا الشيخ عند أية فرصة سانحة .

ومات أبو شلضم وأقيم سرادق العزاء كالعادة، ووقف قرمة فوق سطح غير بعيد وراح يغنى:

حــــود مــــن هنــــا وتعـــــال عنـــدنـــا

ولما خطب شلضم بنت الفسخانى حاول قرمة خطفها منه، بالحيلة وبتسوىء سمعته عند أهلها، وفى خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به أثرا باقيا كالذى تركه بوجهه من قبل.

وتزوج كل منهما وأنجب، وتفرقت بهما سبل العمل، وتقدم بهما العمر شوطا، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل، حتى إنهما تبادلا السباب مرة فى أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الإمام:

ـ لعنة الله على الشيطان وصحبه.

وصارا فى حارتنا نكتة، تستثير الضحك من بعيد، وتنذر بشر متجدد.

وتحسنت أحوال قرمة، ظهرت عليه النعمة، فتح دكانا للدخان بأنواعه، لمع الذهب فى أصابعه وأسنانه، وادعى أمام الخلق أنه ربح ورقة نصيب فاستثمر ربحها، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال معلمه، وأنه لص لا أكثر ولا أقل.

وتوهم شلضم أنه قادر على أن يشق سبيله مثله فامتدت يده إلى مال معلمه ولكنه ضبط وحكم عليه بالسجن بضع سنين، وغادره مفلسا ضائعا يرى غريمه فى عداد الأعيان فجن جنونه، ولم يجد بابا مفتوحا إلا باب البلطجة فولجه بعنف ورغبة متصاعدة فى الانتقام، وجعل هدفه الأول المعلم قرمة، حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده. لم يعد قرمة صعلوكا كما كان من قبل، إنه يملك الآن مالا وبنين وأسرة وجاها ويريد أن يحافظ عليها جميعا، وأن يتمسك بالحياة من خلال تمسكه بها، ولو تجشم فى سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراءه حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه.

واستجاب شلضم لسياسة خصمه ليبتز ماله وليتمادى فى ذلك بلا نهاية وبلا حياء، واستحر الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلا الموت.

ودبر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجل ممن يؤجرون للقتل. وتوجس شلضم خيفة فقرر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله.

وتربص له بليل ثم قتله.

ولكنه لم ينعم بالحياة بعده إلا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفى بقية مستحقاته من أرملة قرمة.

هكذا قُتل الرجلان فى ليلة واحدة.

* * *

ويقول أبى بعد أن يحكى هذه الحكاية :

ـ الكراهية من الشيطان يا بنى ولكن الإنسان مثير للدهشة .

الحكاية رقم «٦٤»

عُرف الخفير سلامة بالضمير الحى . . كان من القلة النادرة التى تقدس القانون فى حارتنا التى لم تتعود بعد على احترام القانون لحداثة تحررها من الفتونة وتقاليدها المتحدية الاستفزازية ، ولاستقامته أثار دهشة أهل الحارة واستحق عن جدارة احترام المأمور والضابط . وتزوج سلامة أرملة تكبره فى السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه فى محنة لم تخطر له على بال . وأكد الشاب ـ ويدعى برهومة ـ المحنة بسطوه ليلا على أحد الحوانيت . وضبطه متلبسا الخفير الساهر اليقظ سلامة . وأعاد الخفير المسروقات وغطى على الخبر مكتفيا بضرب ابن زوجته ضربا مبرحا . وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنه خسر جوهره الذى ميزه بين الناس ، وشعر بالخزى وخامره حزن عميق . وتمادى برهومة فى فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب وقال له مرة :

ـ لا تضربنى . . إنى أحذرك .

فانقض عليه ليؤدبه ولكنه تراجع إلى ركن وصاح به :

ـ سأعترف ، سأذهب إلى القسم وأعترف بكل شىء ، وأعترف أيضا بتسترك علىّ ! . . إن ضربتنى مرة أخرى فسأعترف !

وذهل سلامة ، وسأله وهو يكتم فيضان غضبه :

ـ أنت تهددنى بعد كل ما فعلت من أجلك ؟

ـ لا تضربنى وإلا اعترفت .

فصاح به :

ـ إذن أقلع عن فسادك .

فهتف وهو يفر من وجهه :

ـ أنا حر !

وقال سلامة لنفسه محسورا :

ـ إنى أفقد كل يوم شيئا ثمينا لا يعوض .

ولاحظ كثيرون أن الخفير سلامة قد تغير، وأن شائبة قد شابت استقامة قامته، وهو من ناحيته شعر أن الناس يتغيرون أيضا، ينظرون إليه باستهانة ما، يجاملونه ولكن نظراتهم لا تخلو من سخرية، لقد أوشكوا يوما مع إعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون.

* * *

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف.

وتأثر المأمور، أمر بالقبض على برهومة، وقال لسلامة:

ـ قدم استقالتك كيلا ترفت، إنى أعطيك هذه الفرصة إكراما لتاريخك.

* * *

ولم يُهمل سلامة بلا عمل طويلا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيرا عنده.

وعُدَّ سلوكه مثالا طيبا عند أناس، كما اعتبر نوعا من البله عند أناس آخرين.

الحكاية رقم «٦٥»

الشيخ لبيب وجه عتيق فى حارتنا. تراءى لعينى معْلَمًا من معالم الحارة مثل التكية والقبو والسبيل. كان يَتّخذ مجلسه قبيل مدخل القبو، على فروة يجلس، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدرة. ذو جلباب أبيض وطاقية خضراء، مكحول العينين ضعيف البصر، يطوق عنقه بمسبحة طويلة تستقر شرّابتها فى حجره.

تتقاطر النسوان على مجلسه، يجلسن القرفصاء صامتات، يرمين بمناديلهن وينتظرن كلمة تخرج من فمه. يغمغم ويتثاءب ثم يتمطى، ينطق بكلمة مفردة مثل «تفرج» أو بمثل من الأمثال مثل «يا رايحين ربنا يكفيكم شر الجايين» فتفهم المرأة ما تفهم، فيتهلل وجهها فرحا أو يغمق كآبة، ثم تدس المقسوم تحت طرف الفروة وتمضى.

عاش الرجل دهرا رزقه يجرى، وكراماته تُروى، واسمه يتردد على شفاه ذوى القلوب الكسيرة وما أكثرهم فى حارتنا.

* * *

ويطعن الشيخ لبيب فى السن وتتغير الأحوال.

يندر تردد الزائرات عليه حتى ينقطع أو يكاد. ويتكاثر التلاميذ ممن لا يرعون له حرمة، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة. ويهتف الشيخ:

ـ ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله ، وصحته أيضا . ويتوعد الناس والزمان بعقاب الآخرة ، ويتحسر على أيام الطيبين الذاهبين .

وأخيرا يسلم للزمن ، يتسول ، يمضى هاتفا مادا يده (كل من عليها فان) .

الحكاية رقم «٦٦»

وراء قضبان نافذة بدروم يلوح وجه صبى صغير . إذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

ـ يا عـــم . .

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

ـ أريد أن أخرج .

ـ وماذا يمنعك؟

ـ باب الحجرة مغلق .

ـ ألا يوجد أحد معك؟

ـ كـــلا .

ـ أين أمك؟

ـ أغلقت الباب وذهبت .

ـ وأبــوك .

ـ سافر من زمان .

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم إليه مشجعا ويذهب ، ويلوح وجه الصبى الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق إلى الناس والطريق .

الحكاية رقم «٦٧»

عبده السكرى ابن أحد حملة القماقم والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخر العنقود فأدخله عم السكرى الكتاب فأحرز التفوق من أول يوم .

ونصحه سيدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردد الرجل مليا بين إرساله إلى معلم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل، ثم قرر فى النهاية إلحاقه بالمدرسة. كان قرارا صعبا، يعنى أن يعيش عبده عالة عليه دهرا طويلا بدلا من أن يعينه بيوميته، ولكن تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر. وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عم السكرى بزهو:

- أصبح لى ابن من موظفى الحكومة!

- ولكن عبده أصر على دخول المرحلة الثانوية. كان يمضى إلى المدرسة ببدلته القديمة المتهرئة وحذائه المرقع وطربوشه المزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلم فى السياسة أيضا. واستحق بعد ذلك أن يقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجان، وأن يُختار بعد ذلك عضوا بالبعثة بإنجلترا. من يومها أطلق على عم السكرى «أبو المهندس»، وذاع صيته فى الحارة، وضرب بذكاء ابنه المثل. كان حلم عم السكرى فى شبابه أن ينضم إلى عصابة فتوة أو ينتصر فى خناقة ولكن الزمن يتغير ويأتى بالأعاجيب.

* * *

ويشغل عبده وظيفة مرموقة فى الوزارة، وبفضله قام أول مصباح غازى فى حارتنا.

الحكاية رقم «٦٨»

من حكايات حارتنا التى لا تنسى حكاية عبدون اللّاله.

الأب كان عاملا فى البوظة والأم بياعة باذنجان مخلل. أما عبدون فيعمل صبيا فى الفرن.

يجىء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل الشبان. يحب سلمى بنت ونس الكناس فيتزوج منها ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة.

نشيط ذوهمة عالية، يعمل من طلعة الصبح حتى أول الليل، لا يرتاح ولا يهمد، لا يتذمر ولا يشكو، المعلم يقدره والزبائن يحبونه. يصلى العشاء فى الزاوية، يحضر الدرس، يؤاخى الإمام ويسترشد بآرائه فيما يعن له من مشكلات. نزهته الوحيدة سماع الشاعر فى المقهى ثم يرجع إلى بيته متسوقا بطيخة أو خيارا أو سمكا مقليا.

وهو حليم يتحمل نزوات المعلم، وسخافات بعض الزبائن، وسخريات الأصدقاء بأدب وابتسام.

ما أعجبه فى حارتنا، كأنه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصى والفتن من أهلها .

* * *

وذات يوم يظهــر فى الحــارة بجلباب أبيض كـالحليب وطاقيـة مزركشة ومركوب أحمر . وكلما التقى بصاحب عانقه أو بذى مقام قبل يده، وقد أضرب عن العمل، ولم ينطق فى ذلك اليوم إلا بجملة واحدة قال :

ـ اقتربت الساعة .

ويختفى ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه صامتا . ويتعجب الناس ويتجمهرون عند القبو . كيف صعد عبدون إلى سطح القبو؟ . ماذا يفعل فى مرتع الثعابين ووكر العفاريت؟

ينادونه فلا يرد .

ثم يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم بعنف بأرض الحارة . .

وأقول لنفسى كلما تذكرت مصرع عبدون الّلاله :

ـ أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرا من أن أعرف لماذا عبدون انتحر .

الحكاية رقم «٦٩»

نادرا ما يخرج إلى الحارة، وإذ يخرج لحاجة يمضى مهرولا، فى عينيه حذر وتوجس، فى أذنيه صمم يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به، لا يخترق القبو، لا يزور المقابر . يعيش وحيدا فى بدروم، لم يتزوج، لم يذعن لنزوة، يقرض النقود بالربا يدعى أبو المكارم .

ويلعنه الناس ولكنهم يقصدونه عند الضرورة .

وبلغ السبعين من العمر، يتجمع لديه مال وفير، ثم يكف عن العمل .

يتغير حـاله، تظهر عليه أعراض غريبة، يُرى من نافذة البدروم وهو متربع على الأرض مستقبلا الجدار بوجهه، تمضى الساعات وهو لا يتحرك .

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتا حتى يسأله الشيخ :

ـ لماذا جاء أبو المكارم؟ فيقول بلا مقدمات :

ـ حلمت حلما . .

فيسأله عنه فيقول :

ـ جاءنى شخص فى المنام وأمرنى بأن أحرق مالى عن آخره!

فيبتسم الإمام ويقول :

ـ ربنا يجعله خيرا .

ـ ولكنه يتكرر ليلة بعد أخرى!

ـ ما شكل ذلك الزائر؟

ـ لا أدرى ، جفناى ينطبقان فى حضرته .

فيسأله الإمام باهتمام :

ـ مـن نـوره؟

ـ أظن ذلك . .

ـ هل أعلن عن هويته؟

ـ كـــلا .

فيصمت الإمام مليا ثم يقول :

ـ أتستطيع أن تتصدق بمالك على الفقراء؟

فيرمقه بريبة ثم يذهب .

وذات يوم من أيام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة ينتبه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم . يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفا عاريا تماما والنار تشتعل فى ماله .

* * *

ويهيم بعد ذلك على وجهه عاريا ، يلتقط الطعام من أكوام القمامة ، ثم يقبع فى ظلمة القبو . ويعثر عليه يوما ميتا تحت القبو فيدفن فى قبور الصدقة .

ويرى أحد الأعيان حلما ، يزوره سيدنا الخضر ويبلغه أن أبو المكارم ولى من أولياء الله وأنه ـ العين ـ مكلف بإقامة ضريح فوق قبره .

ويقيم الرجل الضريح ، بمرور الزمن تتلاشى ذكريات أبو المكارم وتبقى له الولاية .

وأسـأل أبى :

ـ وكيف عرف الوجيه أن سيدنا الخضر هو الذى زاره فى المنام؟ . فيجيبنى :

ـ لعله صارحه بذلك .

فأسـأل :

- لو كان أبو المكارم وليا حقا ألم يكن الأفضل أن يتصدق بماله على الفقراء؟

- فى تلك الحال كنا نعده محسنا لا وليا!

ثم يستطرد بعد صمت:

- العبرة بالحلم، لقد منّ الله عليه بحلم، فهل تملك أنت حلما مثله؟

الحكاية رقم «٧٠»

سحب الخريف تتراكم فتقطر قتامة على حارتنا، ها هم الباعة يترنمون بحلاوة الجوافة والبطاطا.

ويشير رجل نحو القبو ويهتف:

- يا ألطاف الله!

ينظرون فيرون رجلا خارجا من ظلمات القبو، عاريا كما ولدته أمه، يتأوه ويترنح، تخذله ساقاه فيقع على الأرض، ثم ينهض متشبثا بالجدران، يتلفت حواليه ويبكى.

يهرع إليه أهل الخير، يغطونه، يضمدون جرحا غائرا فى رأسه، يسألونه:

- ماذا حدث لك؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه:

- من أنت، ما اسمك؟

يواصل أنينه بلا جواب فيسألونه:

- من أين أتيت؟

لا جواب ولا أمل فى جواب:

- أى مكان تقصد؟

وبالتخمين وحده يعرف على نحو ما ما وقع له، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق.

ويندمل الجرح ولكن العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش فى الحارة لا يبرحها، آنسا إلى ما يلقى من ستر ورحمة، تطعمه الصدقات، ينام تحت القبو شتاء، وعند سور التكية صيفا، كلامه هذيان أو أصوات مبهمة، يضحك ويبكى لغير ما سبب، ويظل مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف.

ولما كانت دواعى الإهمال والاحتقار هى نفس دواعى الإجلال والتعظيم فى حارتنا فإن عبد الله - هكذا سمى باعتباره اسم من لا اسم له .

- يحتل مع الأيام مكانة سامية وتتحلق حوله هالة مبهمة من القداسة . يحيونه ، يلاطفونه ، يتوددون إليه ، يحيطونه بأسرار ، يؤولون أصواته المبهمة ، يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفية .

وأسمع ذات يوم رجلا يدافع عن «ولاية» عبد الله فيقول :

- أى فرد منا لا تتيسر له الحياة إلا بفضل معرفته للأصل الذى جاء منه والهدف الذى يسعى إليه ، أما عبد الله فقد تيسرت له الحياة وحظى ببركاتها مع جهله بكل ذلك ، ومن ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقديس !

الحكاية رقم «٧١»

رجل غريب فى المقهى .

الغريب فى حارتنا يسترعى النظر ، فمن أين جاء الرجل ؟

جاء من ناحية القبو وهو ما يعنى أنه جاء من ناحية القرافة غير مبارك الخطوات .

ويمضى الغريب إلى الزاوية فيسلم على الإمام وهو يقول :

- لا خاب من استرشد .

فيقول له الإمام :

- نهديك بما نعلم والهداية من الله .

- إنما أريد معلومات عن يوسف المر ؟

- لماذا يا أخى ؟

- كلفنى بذلك أناس طيبون وأنت سيد العارفين .

فأدرك الإمام أن الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريد يوسف أن يتزوج منها فقال :

- ولكنه متزوج !

- الدين يسر والحمد لله . .

- عائلة المر قديمة فى الحارة وحرفتهم العطارة .

ـ وعمـــره؟

ـ فى الثلاثين، يعمل فى دكان أبيه، له ثلاثة أبناء.

ـ يغيب أحيانا عن الحارة أسبوعا أو أكثر؟

فيبتسم الإمام ويقول:

ـ يبدو أنك تعرف عنه الكثير، ولكنه يغيب فى رحلات تجارية.

ثم يتساءل الإمام:

ـ من الذى كلفك بالتحرى؟

فيقول معتذرا:

ـ لست فى حل من ذكره.

فيتضابق الإمام ويسأل بجفاء:

ـ وحضرتك من تكون؟

ـ أدعى عبد الآخر المقاول.

ـ أى مقاولات؟

ـ كلا، إنه لقبى، أما عملى فطحان غلال.

ويودعه ثم ينصرف.

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسره، تحتدم مليا تخف وتتلاشى.

وذات مساء يرى الغريب قادما من ناحية الميدان.

يشق الحارة بلا توقف حتى يختفى فى القبو، ثم يميل إلى الممر الضيق بين السور العتيق وبين سور التكية ويمضى نحو القرافة.

ويعلم يوسف المر بخبره فينطلق فى أثره حتى يغوص فى ظلمة القبو.

وتمضى ساعة فيقلق الأب، ويذهب فى أثر ابنه حاملا فانوسا لينير له الطريق مصحوبا ببعض عماله.

فى القبو تترامى إليهم تراتيل الأوردة الأعجمية آتية من التكية، وفى الساحة، وعلى ضوء الفانوس، يعثرون على يوسف المر مطروحا على الأرض وقد فارق الحياة.

ومع أن الطبيب الشرعى قرر فيما بعد أن الرجل مات بالسكتة إلا أن قراره لم يحترم لحظة واحدة فى حارتنا.

يهزون رءوسهم ويتمتمون:

ـ الرجل الغريب!

ولكن من الغريب؟، ولم قتل يوسف المر؟

هنا تتبادل النظرات وتتناجى الهمسات وتنداح فى الجو موجة من الأسرار الخارقة.

الحكاية رقم «٧٢»

وعكلة الصرماتى حكايته حكاية.

كان أبوه صاحب سيرك، كان قويا وخلاقا. يشتهر عكلة منذ صباه بالرشاقة الخلابة فى الملعب.

يتوفى الأب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع. ينضم إلى عصابة فتوة فيثبت صلابته وينال حظا من الثروة. وهو ذو رائحة خفيفة تجذب أشواق النساء فيستوى على عرش الهوى فتنه للقلوب، ويوغر صدور الرجال حتى يقول له الفتوة:

ـ تأدب وإلا شوهت وجهك. وكأن قلبه لا يعرف الحب الحقيقى، يهيم بالمرأة حينا ثم ينبذها، وتفوق غزواته كل خيال، ويؤمن أناس بأنه يؤاخى الشياطين ويستعمل السحر.

وفجـأة يتــزوج.

يتزوج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها، ويستقر فى بيت الزوجية استقرارا يبشر بالدوام.

ويزهد فى الفتونة كما زهد فى السرك من قبل ويفتح دكان حلوى، ويربح ثروة لا بأس بها.

وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الرابحة فيصفيها ويفتح مطعم لحمة رأس وكبدة فينجح ويحقق ثروة أكبر من الأولى.

ويجتاحة حب المال، يحل من نفسه محل النساء والسيرك والفتونة فيتاجر فى المخدرات والأراضى، ويبتاع بيتا ودوكارا ويتحلى بالذهب.

ويقرر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة الكبيرة. يبنى قصرا ويعيش عيشة الأكابر، ويشترى عزبة، ثم لا يُرى فى حارتنا إلا عند عقد الصفقات.

ويعشق الترحل، وما إن يجربه حتى يخلب لبه، فهو يوما بالإسكندرية ويوما فى أسوان، ويزور البلاد العربية، بل ويغامر برحلات فى أوروبا.

عندما تعجبه بقعة من الأرض يفتتن بها ويصرح بأنه لن يبرحها حتى نهاية العمر، ثم يعتادها ويروم غيرها، ويعذبه عشق الأماكن كما عذبه عشق النساء والمال وغيرها من قبل، وبين كل رحلة وأخرى يرجع إلى حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات.

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات فيتساءل:

- ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضا؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة إلا لضرورة.

ويتساءل عكلة:

- ترى أين جبال الواق؟

ثم يتساءل مرة أخرى:

- وأين سور الدنيا؟ . وإذا أطل الإنسان منه فماذا يجد؟

* * *

وتترامى عنه أخبار وأخبار.

يُقال إنه أدمن الشراب، يُقال إنه يدمن المقامرة، يُقال إنه يرتكب حماقات لا عد لها ولا حصر.

ويطول غيابه فى الخارج حتى يُظن أنه لن يرجع.

واعتبره الأهل مفقودا.

وتمضى السنون.

وذات صباح يعثر على جثة كهل فى الساحة أمام التكية شبه عار.

ويتعرف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماتى. ينظرون إلى جثته ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبدى والسر المنطوى.

كانت حياته أسطورة، وموته لطمة.

الحكاية رقم «٧٣»

مصطفى الدهشورى ابن سقاء ولكنه من القلة الراسخة فى العلم فى حارتنا، وهو أحد المدرسين بمدرستنا وصديق لأبى.

يسأل أبى وهو يجالسه ذات مساء فى بيتنا:

ـ ما معنـى الحيــاة؟

يبـتـسم أبى، ولما يجـده جـادا فى سـؤاله ومـصـرا عليـه يحـدثه بما يعلـم عن الأصل والهدف، والحياة والموت، والبعث والحساب، فيقول الدهشورى:

إذن فأنت واثق من كل شىء، من الحياة والموت ومـا بعد الموت، أعندك فكرة عـما يحدث فى القبر؟

فيحدثه أبى عن التلقين وحساب الملكين ومستقر الروح وشفاعة النجاة فى الآخرة، وعند ذلك يقول الدهشورى:

ـ إليك قصة الجسد البشرى ساعة بساعة من الوفاة حتى يستحيل هيكلا عظيما..

ويردد حديثا مرعبا ومقززا كأنه كابوس طويل، فيهتف أبى محتجا:

ـ كفى، ماذا تريد؟

ـ أريد أن أصور لك حقيقة لا شك فيها.

فيسأله أبى ساخرا:

ـ ألا تؤمن بالله؟

فيبتسم قائلا:

ـ بلى، لا حيلة فى ذلك.

ثم يواصل حديثه:

ـ ولكنه لا يتصل بى وأنا عاجز عن الاتصال به، بيننا صمت قاتل وأرى فى الحالة شرا لا تفسير له، وأرى فى الطبيعة عجزا ونقصا، ولا أفهم لذلك معنى، فلم أشك فى أنه ـ سبحانه ـ قرر أن يتركنا لأنفسنا، بلا اتصال وبلا عناية..

ويصـارحه أبى بأنه يجدف تجديفا خطيرا، ولكن الدهشورى يستمر قائلا:

ـ وإذن فالإيمان بالله يقتضى الإيمان بتجاهله لعالمنا، كما يقتضى منّا الاعتماد الكلى على النفس وحدها.

وسأله أبى غاضبا:

ـ أتتخيل حال الناس لو آمنوا بفكرتك؟

ـ لن يكـونوا أسـوأ ممـا هـم بحال من الأحوال وثمة أمل بأن يكونوا أحسن.

ثم يشرح فكرته قائلا:

ـ لا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ إنها أمانة ملقاة علينا، ولا مفر من حملها بكل جدية وإلا هلكنا، وإذا أمكن أن يُوجد أحيانا أمثال الخيّام وأبى نواس فإنما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادين الكادحين الذين يقومون

بحمل الأمانة عنهم، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض؟، وإذن فلا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو إن وجدوا أنفسهم فى عالم بلا إله، لا مفر من الجدية، ومن الإبداع، ومن الأخلاق، ومن القانون، ومن العقاب، وقد يستعينون أيضا بالعقاقير الطبية لمقاومة الضعف فى السلوك والتفكير كما يستعينون بها فى مقاومة الأمراض، وسيفعلون ذلك بإصرار، ولن تهن عزيمتهم بسبب أنهم بجدون أنفسهم فى سفينة بلا مرشد فى بحر بلا شطئان فى زمن بلا بداية ولا نهاية، ولن تختفى البطولة ولا النبل ولا الاستشهاد.

ويتريث قليلا متسامحا مع غضب أبى وسخريته ثم يستطرد:

ـ وذات يوم سيحقق الإنسان نوعا من الكمال فى نفسه ومجتمعه، وعند ذاك، وعند ذاك فقط، ستسمح له شخصيته الجديدة بإدراك معنى الألوهية وتتجلى له حقيقتها الأبدية..

ويتواصل النقاش حتى ينال منهما التعب، ثم يتساءل مصطفى الدهشورى باهتمام:

ـ كيف يمكن أن أنشر أفكارى فى حارتنا؟

فيقول له أبى بحدة:

ـ أهل حارتنا غارقون فى هموم الحياة اليومية، يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة.

ـ ولكنها مشكلات لا تحل الحل الأمثل إلا بأفكارى؟

ـ أهل حارتنا لا يفهمون إلا لغة واحدة هى اللغة المشتقة من همومهم، الحاوية لعذاباتهم، المقدسة بأوراد الكائن المرجو عند الشدة الذى تريد أن تنزعه من قلوبهم.

ورغم حرص مصطفى الدهشورى تنسب إليه أفكار خارقة تسىء إلى سمعته بين الناس فيثير لغطا يُفصل بسببه من وظيفته وتتجهمه الحياة فى حارتنا.

الحكاية رقم «٧٤»

الأعور يتأهل لموعد غرامى فى الساحة أمام التكية. يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة، ولكنه يسترسل فى الشرب حتى يفقد ذاته تماما.

يغادر الخمارة عقب منتصف الليل فيذوب فى الظلام، ويذوب فى الحب، ولا يدرى

أين يتجه، يرتطم فى الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه حيث إن جنونه غير مؤذ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه، ويقول له:

- أرشدنى إلى طريق التكية.

فيتحرك نؤنؤ المجنون وهو يقول له:

- لا تترك ذراعى.. لماذا تريد التكية فى هذه الساعة من الليل؟

- أتريد الحق؟. إنى ذاهب للقاء حبيبتى.

- عظيم.. وأنا ذاهب أيضا للقاء حبيبتى.

- فى الساحة مثلى؟

- بل فى التكية نفسها.

- ولكن الأسوار عالية:

- لا مستحيل فى الليل.

ويكاد الأعور أن يسقط من شدة الترنح فيقول متشكيا:

- نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد؟

- لم يمض على سيرنا إلا أسبوع واحد.

فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول:

- الزمن لا يُرى فى الظلام.

- والمحبوبة هل ترى فى الظلام؟

فيضحك السكران ويقول:

- إنى لا أعتمد على عينى للتعرف على المحبوبة.

- إذن فأنت مجنون!

- ولكن أين التكية؟

- نحن لم نسر بشهادتك إلا أسبوعا واحدا.

- ولكنى أقطع الحارة نهارا فى ربع ساعة.

- فى الليل تطول المسافة، ألا ترى أننا لا نتوقف عن السير؟

ويدوخ الأعور، وتعجز ساقاه عن حمله، فيسقط على وجهه، ويروح فى سبات عميق لا يستيقظ منه إلا مع أول شعاع للشمس. ينظر فيما حوله بذهول فيجد نفسه أمام الخمارة لم يبتعد عنها خطوة واحدة.

* * *

ويقـول راوى هذه الحكاية ـ صبى الخمارة ـ إنه كـان يقف عند البـاب، يسـمع حـوار السكران والمجنون، ويراهما وهما يدوران حول نفسيهما متوهمين أنهما يتقدمان.

ومن يومهـا والمثل يضرب بهـذه الحكاية فى حـارتنا فيقـال لمن يسترشـد بمن لا يرشـد: «أنت سكران وهو مجنون فكيف تصلان إلى التكية؟».

الحكاية رقم «٧٥»

يدخل عمر المرجانى البوظة فى غاية من الأبهة والأناقة.

جلبابه الأبيض يشع نورا، عمامته المقلوظة تتوج رأسه، مركوبه الأحمر يتألق، تحت إبطه خيزرانة رشيقة.

يحيى الحاضرين ببشر ويقول:

ـ لتمتلئ قلوبكم بالهنا والأفراح.

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة فى أعماقه ويبتسم.

وعقـب القرعـة الثانيـة تعانقـه فرحـة شـاملة فيهتـز طـربا ويقول لمن حوله:

ـ صدقونى إن الحزن فى هذه الدنيا ليس إلا وهما عابرا.

ويفرغ القرعة الثالثة فى جوفه ويقول:

ـ ملعـون من يـلعن الدنيـا، لقـمـة حلوة ومـرة حلوة، وإيمان حلـو، مـاذا تريدون بعـد ذلك؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول:

ـ أنا سعيد يا جدعان..

ويرقص بخفة وبهجة..

وإذا بصوت خشن لم يحدد مصدره يهتف به:

ـ نريد الهدوء.

ولكنه يواصل الرقص، ويأخذ فى الغناء أيضا:

شوفوا العجب حبيت فلاحة

فيعود الصوت الخشن قائلا:

ـ احترم نفسك واجلس..

ولكنه يستمر فى معانقة الفرحة..

ويرتفع نبوت فى الهواء ثم يهوى على رأسه . .

عند ذاك يتوقف عن الرقص ، يسكت عن الغناء ، تتصلب سحنته نافضة عنها لآلئ السعادة . . ثم يتهاوى على الأرض . .

الحكاية رقم «٧٦»

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إن الحكومة ستهدم التكية ضمن مشروع للمرافق العامة . فى لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين والوكالات والغرز والبوظة والخرابات فى حارتنا .

ـ حارتنا ميمونة ببركة التكية .

ـ الخضرة والأزهار لا تُرى إلا فى التكية .

ـ والأغنيات الإلهية أين تُسمع إلا فى التكية؟

ـ وما المكان الذى لم يضمر أذى لإنسان إلا التكية؟

وبالبحث والتحرى تكشف حقيقة غريبة وهى أن صاحب المشروع هو المهندس عبده السكرى ابن حارتنا !

ويقول عبده :

ـ التكية تعترض مجرى الحارة كالسد وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال .

فيقولون له :

ـ وهل علمت أننا متضايقون من ذلك؟ . وألا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال؟

ـ لا تنسوا أن القرافة ستنقل عما قريب إلى صحراء الخفير وسيحل محلها عمران شامل .

ـ طول عمرنا نسمع أن القرافة ستنقل وها هى باقية لا تتحرك ، فكيف هان عليك أن تقترح إزالة التكية المباركة؟

واشتد النقاش ، وحمى الانفعال ، وكُتبت العرائض ، وحل بحارتنا توتر وحزن لم تعرفهما من قبل .

ويرتفع صوت معتدل يقول :

ـ لا وجه للعجلة ، فلننتظر حتى يتقرر بصفة نهائية نقل القرافة ويُشرع فى ذلك بالفعل ، عند ذاك يحق لنا أن نناقش مسألة هدم التكية .

وغلب هذا الرأى فتراجعت الوزارة وتأجل المشروع .

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا .

وأما القلة المعتدلة فهى تقول :

ـ فلتبق التكية ما بقيت القرافة .

الحكاية رقم «٧٧»

أنور جلال جالس على سلم السبيل الأثرى وهو يضحك عاليا . أنظر إليه فيخطر لى أنه سكران أو مسطول فأمضى نحوه وأجلس إلى جانبه ثم أسأله :

ـ ماذا يضحكك؟

فيجيبنى وهو لا يكف عن الضحك :

ـ تذكرت أننى طالب بين طلبة متنافسين ، فى مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة ، فى حارة وسط حارات متعادية ، وأنى كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة ، فى كرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لى عليها ، والمجموعة ضائعة فى سديم هائل ، والسديم تائه فى كون لا نهائى ، وإن الحياة التى أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ، وأن علىّ أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهتم بالأحزان والأفراح ، لذلك لا أتمالك نفسى من الضحك .

فأضحك معه طويلا حتى يحدجنى بنظرة ساخرة ويسألنى :

ـ هل تضمن أن تشرق الشمس غدا؟

فأقول بثقة :

ـ أستطيع أن أراهن على ذلك .

فيقول وهو يضحك :

ـ طوبى للحمقى فهم السعداء .

الحكاية رقم «٧٨»

عرفت الشيخ عمر فكرى فى بيتنا وهو فى زيارة لأبى. هو كاتب محام متقاعد، فتح عقب تقاعده مكتبا للأعمال لمعاونة أهل حارتنا فى شئون الحياة بعد أن توثقت أسباب الاتصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة. ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة، ويقدم خدمات متنوعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجارية وشئون الزواج والطلاق.

سمعته وهو يقول لأبى بكل ثقة واعتزاز:

- من خبرتى الطويلة أستطيع أن أقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين الحياة!

تحركت فى أعماقى رغبة قديمة كامنة فسألته:

- أتستطيع أن تقدم لى خدمة؟

فنظر إلىّ باسما وسألنى:

- ماذا تريد يا بنى؟

- أريد رؤية شيخ التكية الأكبر!

فضحك الشيخ عمر عاليا وشاركه أبى ثم قال:

- إن الخدمات التى أقدمها جدية وتتعلق بجوهر الحياة العملية!

- ولكنك قلت إنك تقدم شتى الخدمات فى أى ميدان من ميادين الحياة.

- ولكن التكية خارج أسوار الحياة؟

- هى ليست كذلك فى الواقع.

وقال لى أبى:

- أسمعْه بعض ما تحفظ من أشعارها.

فرددتُ بسرور:

- بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد.

فقال الشيخ عمر فكرى مخاطبا أبى:

- ما أكثر الذين يرددون هذه الأشعار بلا فهم «ثم ناظرا نحوى» أتفهم معنى كلمة واحدة مما رددت؟

فهززت رأسى نفيا فقال :

ـ إنهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكن حارتنا مجنونة بهم .

فقلت له :

ـ إنك قادر على كل شىء .

فتمتم أبى .

ـ أستغفر الله العظيم .

وسألنى الشيخ :

ـ وما أهمية رؤية شيخ الدراويش لك؟

ـ لأتأكد من تجربة مرت بى فى طفولتى .

وقص عليه أبى قصتى القديمة فضحك الشيخ عمر وقال :

ـ أعترف لكما بأننى رغبت ذات يوم فى رؤية الشيخ الأكبر .

ـ حقـــا؟!

ـ قلت لنفسى إن الحـارة كلهـا تردد ذكره رغم أنه لا يكـاد يزعم أحـد أنه رآه وولعت بفكرة رؤيتـه ولع الأطفـال ، مـاذا يحـول بينى وبين ذلك؟ ، ومضـيت إلى التكيـة ، طلبت مقابلة أى مسئول بها ولكنهم لاقونى من وراء السور بتجهم وقلق ، ولم يبدوا أى استعداد للتفاهم ، وتكلمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة ، حتى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب ، ورجعت معترفا بحماقتى ، يائسا من تحقيق فكرتى بالاتصال المباشر ، مقتنعا فى الوقت نفسه بأن اقتحام التكية بالطريق المشروع متعذر أو مستحيل ، وأن اقتحامها بالتسلل خرق للقانون لا شك فيه لا يتوقع من رجل يقوم عمله فى الحياة على احترام القانون .

ـ هكذا عدلت عن رغبتك؟

ـ لم أعدل عنها كما ظننت ، ولكننى جربت وسيلة ثانية طفت بالطاعنـين فى السـن من أهـل حارتنـا ممن عُرفـوا بالتقـوى فادعى بعضهم أنهم رأوه ، ولكن لم يتفق اثنان منهم على وصف محدد له ، اختلفوا لحد التناقض ، وهذا يعنى فى نظرى أن أحدا منهم لم يره .

فقلت بحماس :

ـ ولكنى رأيتـه .

ـ إنكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون .

ـ وما وجه الاستحالة فى رؤيته ، ألا يخطر له أحيانا أن يتمشى فى الحديقة مثلا؟

- ومن أين تعلم أن الذى تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشا من الدراويش؟
- وهكذا نفضت يدك من المسألة؟
- أبدا، كنت مجنونا أكثر مما تتصور، ذهبت إلى ديوان الأوقاف متحديا، حصلت على معلومات لا بأس بها عن أوقاف التكية وعن فرقتهم الصوفية، عن الدرويش المخصص لتسلم الريع، ولكن لم أعثر على كلمة واحدة تخص الشيخ الأكبر فضلا عن كراماته التى تؤمن بها حارتنا.

فغصصت بالخيبة ورمقته بحنق ثم قلت:

- توجد وسائل أخرى ولا شك؟

فقال باسما:

- يوجد العقل، هو الذى خلصنى من رغبتى المحمومة، قال لى إننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر!

فسأله أبى:

- هل يصلح هذا دليلا على عدم وجوده؟
- إنه لا يقول ذلك، إنه يقرر حقيقة نعرفها جميعا وهى أننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر.

فقلت:

- ولكن توجد وسيلة ولا شك للتثبت من وجوده ومن رؤيته؟
- لن يتأتى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد، وإنى كما تعلم لا أحيد عن القانون أبدا.

فضحك أبى وقال:

- اعترف أنه توجد خدمة واحدة على الأقل لا تستطيع أن تؤديها يا شيخ عمر.

فجاراه فى ضحكه قائلا:

- ليكن، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر؟، ألم تكن رغبة مضحكة؟!

فسألته بحرارة:

- لِمَ يغلقون فى وجوهنا الأبواب؟
- التكية شيدت فى الأصل فى خلاء لأنهم قوم ينشدون العزلة والبعد عن الدنيا والناس، ولكن بمرور الزمن امتد العمران إليهم وأحاط بهم الأحياء والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة.

وابتسم ابتسامة فاترة وقال:

ـ لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة ، وهى وإن تكن غير مجدية فى تحقيق رغبتك إلا أنها قاطعة فى أنه لا يمكن تحقيق الرغبة إلا بوسيلة غير مشروعة خارقة للقانون .

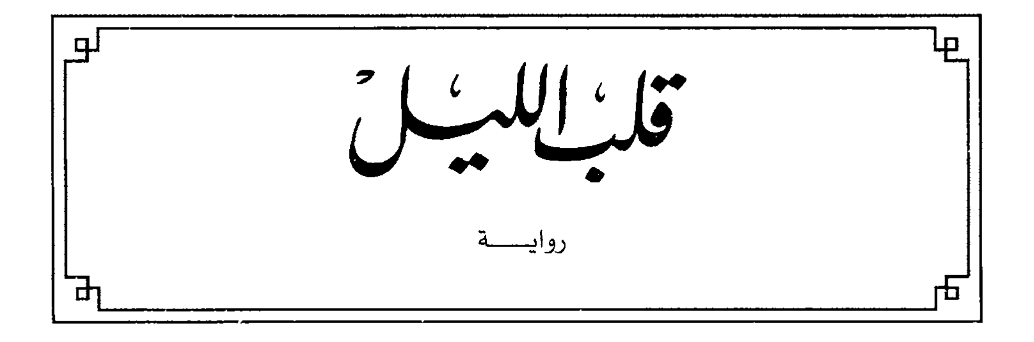
* * *

تلك ذكرى لا تنسى .

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون ، ولكننى فى الوقت نفسه لا أستطيع تصور تكية بلا شيخ أكبر .

وبمضى الأيام لم أعد أرى التكية إلا فى موسم زيارة المقابر ، فألقى عليها نظرة باسمة ، وأستقبل ذكرى أو أكثر ، وأحاول أن أتذكر صورة الشيخ أو من توهمت ذات مرة أنه الشيخ ، ثم أمضى نحو الممر الضيق الموصل إلى القرافة .





قلب الليل

رواية

١

قلت وأنا أتفحصه باهتمام ومودة :

ـ إنى أتذكرك جيدا .

انحنى قليلا فوق مكتبى وأحد بصره الغائم . وضح لى من القرب ضعف بصره، نظرته المتسولة، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور، وقال بصوت خشن عالى النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر حجم الحجرة الغارقة فى الهدوء :

ـ حقّا؟! . . لم تعد ذاكرتى أهلا للثقة، ثم إن بصرى ضعيف . .

ـ ولكن أيام خان جعفر لا يمكن أن تنسى . .

ـ مرحبا، إذن فأنت من أهل ذلك الحى!

قدمت نفسى داعيا إياه إلى الجلوس وأنا أقول :

ـ لم نكن من جيل واحد، ولكن ثمة أشياء لا تنسى .

فجلس وهو يقول :

ـ ولكنى أعتقد أننى تغيرت تغيرا كليا وأن الزمن وضع على وجهى قناعا قبيحا من صنعه هو لا من صنع والدى!

وقدم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلا :

ـ الراوى، جعفر الراوى، جعفر إبراهيم سيد الراوى . .

لم تخف علىّ أسباب اعتزازه بالاسم . وأكد ذلك التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية . قال :

ـ إنك تعود بى إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان جعفر والحسين المقدسة، أيام الهناء والتجربة . .

ـ وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة . .

فضحك عاليا. اهتز جسده الطويل النحيل حتى أشفقت على بدلته الرثة أن تتمزق، ورفع لى وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبد، وقال:

ـ نحن أهل، ومن حقى أن أستبشر خيرا لقضيتى العادلة!

فسألته مؤجلا الخصام:

ـ تشرب قهوة؟

فقال بلا أدنى تردد وبجراءة:

ـ لنبدأ بسندوتش فول ثم تجىء القهوة بعد ذلك..

وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتى ساورنى الأسى، واستقرت رائحته فى أنفى خليطا من العرق والتبغ والتراب. ولما أكل وشرب اعتدل فى جلسته وقال:

ـ أشكرك، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك، لا شك فى أنك اطلعت على طلبى بحكم وظيفتك، فما رأيك؟

فقلت بأسف:

ـ لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشىء من ذلك..

ـ ولكن الحق واضح مثل الشمس.

ـ الوقف واضح أيضا..

ـ كان القانون ضمن ثقافتى، ولكنى أعتقد أن كل شىء يتغير..

ـ إلا الوقف فإنه حتى اليوم لم يتغير.

فهدر صوته الخشن صائحا:

ـ لن يضيع حقى أبدا، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف.

ولما وجد منى هدوءاً باسما تراجع إلى الهدوء وقال:

ـ دعنى أقابل المدير العام.

فقلت بلطف:

ـ المسألة واضحة جدّا، فوقف الراوى أكبر وقف خيرى فى الوزارة، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الإمام الحسين بالإضافة إلى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة. والوقف الخيرى لا يمكن أن يئول إلى شخص بحال من الأحوال. قاطعنى بحدة:

ـ ولكننى حفيد الراوى، ووريثه الوحيد، وإنى فى مسيس الحاجة إلى مليم على حين أن الإمام الحسين غنى بجنات النعيم.

ـ ولكنه الوقف!

ـ سأقيم دعوى.

ـ لا فائدة من ذلك.

ـ سأستشير محاميا شرعيا، ولكن تلزمنى استشارة مجانية؛ لأن النقود كائنات مجهولة فى عالمى..

ـ لى أكثر من صديق بين المحامين الشرعيين، وممكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم، ولكن لا تضيع وقتك جريا وراء أمل لا يمكن أن يتحقق.

ـ إنك تعاملنى كطفل!

ـ معاذ الله، ولكننى أذكرك بحقيقة لا جدال فيها.

ـ ولكننى حفيد الراوى، وإثبات ذلك يسير علىّ.

ـ المهم أن تركة الراوى أصبحت وقفا خيريا..

ـ وهل من العدل أن أترك أنا للتسول؟

ـ المتفق عليه فى الإدارة وهو المتبع فى مثل ظرفك أن تقدم طلبا بالتماس صرف إعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك..

جعل يردد: إعانة شهرية؟! يا لهم من مجانين ظالمين!

و واصل قائلا:

ـ صاحب الوقف يلتمس إحسانا! هذا جنون.. وما مقدار الإعانة؟

صمت لحظات مترددا، ثم قلت:

ـ قد تصل إلى خمسة جنيهات.. وقد تزيد..

قهقه ساخرا كاشفا عن أسنان مثرمة سوداء، ثم قال:

ـ صدقنى، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجن، فلتكن معركة، لن أكف عن القتال حتى أنال حقى الكامل من تركة جدى اللعين!

فلم أتمالك من الابتسام وقلت:

ـ ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير.

فضرب حافة مكتبى بقبضته المعروقة، وقال:

ـ لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد..

ـ ولماذا نسيك؟

قبض على ذقنه دون أن يجيب. شعرت بأن الزوبعة ستنقشع عاجلا أو آجلا، وأن

التماس الإعانة سيكتب . ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات والأمراء والملوك! ويقينى أنه لا يجحد أحد ذريته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟!

ومد بصره الضعيف إلى لا شىء وراح يقول :

ـ وقف خيرى ، حرمان من الميراث ، هكذا فعله دائما مزيج من الخير والشر ، ها هو ذا يمارس سلطته ميتا كما مارسها حيا ، وهأنذا أكافح فى موته كما كافحت فى حياته . . وحتى الموت . .

٢

توثقت العلاقة بينى وبين جعفر الراوى . كان فى وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة ، وكان يشجعنى على المغامرة شعورى بأنها عابرة سريعة الزوال ، فشخصيته المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام ، وإرضاؤها يسير هين . ثمة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتنى إليه . هناك على سبيل المثال الذكريات القديمة وافتتانى ببيت الراوى وحكاياته ، وما تردد يوما عن مغامرة جعفر وجنونه . وهناك أيضا ميلى إليه على رغم فظاعة منظره ورثائى له فى خاتمته التعيسة . وكان ذا قامة مديدة ، ولولا البؤس ـ وربما الأمراض ـ لنضحت شيخوخته بروعة وجلال .

سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع فى شارع محمد على :

ـ كيف تعيش يا جعفر؟

ـ أتخبط فى الشوارع نهارا وحتى منتصف الليل . .

ـ وأين تسكن؟

ـ أبيت فى الخرابة . .

ـ الخرابة؟!

ـ هى ملكى بوضع اليد ، وهى ما تبقى من بيت جدى القديم!

وكنت قد انقطعت عن الحى العتيق منذ عهد بعيد فلم أعرف أن البيت تحول إلى خرابة .

ـ أليس لك أهل؟

ـ لعلهم يملئون الأرض . .

ابتسمت. فقال جادا:

ـ لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون..

ـ أتعنى ما تقول؟

ـ على رغم ذلك فإنى وحيد..

ـ يا لها من طريقة فى الحديث!

ـ اسمع، رد إلىّ الوقف أعدك بأن ترانى محاطا بالأبناء والأحفاد، وإلا فستجدنى دائما وحيدا طريدا..

ـ أراك تحب الألغاز..

فضحك قائلا:

ـ إنى أحب اللقمة الحلوة والوقف، كما أحب لعن الواقفين..

ـ أليس لك مورد رزق من أى نوع فى شيخوختك؟

ـ لى أصدقاء قدماء، أعترض أحدهم فيمد يده بالسلام ويدس فى يدى ما يجود به، إننى أتمرغ فى التراب، ولكننى هابط فى الأصل من السماء.

قلت بأسى:

ـ حياة غير لائقة، اكتب الالتماس فورا..

ـ هى الحياة الإنسانية الأصيلة، جربها بشجاعة إن استطعت، اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك، هذه الدنيا ملك للإنسان، لكل إنسان، عليك أن تتخلى عن عاداتك السخيفة، هذا كل ما هنالك.

ـ ومع ذلك فإنك تتمنى أن تسترد تركة جدك؟

فقهقه قائلا:

ـ لا تحاسبنى على التناقض، إنى حزمة من المتناقضات، ولا تنس أننى عجوز، ولا تنس أننى أخوض معركة مع جدى منذ قديم.

ـ أود أن أعرف لماذ حرمك ميراثك؟

ـ هذه هى المعركة، لا تتعجل، لست بسيطا كما يتراءى لك، كثيرون ينخدعون فىّ، حتى الصبية يجرون ورائى وأنا أتخبط فى الشوارع، ماذا يظنون؟ إنى أحب الكلام، ولما كنت وحيدا فإنى أكلم نفسى، ماذا يظنون؟ لقد تقدم بى العمر ولما تكف الأسئلة عن مطاردتى، صدقنى فإننى شخص غير عادى، حتى فى الجبل كنت غير عادى، ولا فى القصر ولا فى الخرابة، وعلى رغم التصعلك والتسول فإننى أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحديا، إذ إن الحياة لا تحترم إلا من يستهين بها..

جعلت أتأمله باسما وهو يتحدى الوجود ببدلته المتهتكة وجلده المدبوغ، ثم تمتمت :

ـ عفارم عليك !

ـ وليس الإنسان وحده من تعاملت معه فلى صلات عريقة مع الجماد والجن والعفاريت فضلا عن عناصر الحضارة الجوهرية .

ثم غيّر نغمته فجأة وسألنى :

ـ هل وقع اختيارك على محامى ثقة لنذهب إليه؟

فقلت متوسلا :

ـ انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر .

ـ ألست جعفر إبراهيم حفيد سيد الراوى؟

ـ بلى . . ولكن لا توجد قضية على الإطلاق . .

فصاح :

ـ إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون . .

ـ هذا أقرب إلى الإمكان من كسب القضية، اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

فقال ضاحكا :

ـ إنكم فى الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم تمدون أيديكم إلينا بالإحسان . .

ـ اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

وغشانا الصمت دقائق ثم قال وكأنما يحادث نفسه :

ـ خمسة جنيهات !

ـ يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح . .

ـ كلا . . إن المبلغ يكفى للغذاء والسجاير والكساء . . أما المأوى فكيف أستأجر مسكنا وأنا أملك قصرا؟ ! لن أهجر الخرابة . .

ـ اكتب الالتماس فى أقرب فرصة وأرسله إلى الوزارة . .

ـ لا داعى للعجلة، دعنى أفكر، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميا، ولا يبعد أن أواصل الحياة بلا التماس ولا محام . . لا داعى للعجلة . .

ـ على أى حال فقد عرفت سبيلك . .

فقال بحدة :

ـ لا سبيل للتفاهم بيننا . . . فأنت ممن يخافون الحياة وأنا ممن يزدورنها، وجميع ما ترتعد منه لمجرد تصوره قد عانيته . . جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت إليه فوق قدمى . .

ـ عظيم جدًا يا جعفر . .

ـ هل يعجبك كلامى؟

ـ جدًا . .

ـ أتود أن تسمع المزيد منه؟

ـ ثق بذلك كل الثقة . .

ـ لقد قدمت لى عشاء فاخرا، وستقدم لى مساعدات مهمة فى الأيام القادمة، فضلا عن أننا أبناء حى واحد. بنا إلى مقهى ودود بالباب الأخضر . .

وسرنا جنبا إلى جنب نحو الحى العتيق حتى اخترقنا القبو الأثرى إلى الباب الأخضر، وجلسنا ندخن البورى ونشرب القهوة على حين جرى الحديث فى سكون الليل الطويل . .

٣

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل، تعود فى تلك الساعة أفواج من الشحاذين إلى أركانهم، ينطلق المجاذيب فى جنباتها، يفوح البخور من زواياها. لا غريب يطرقها ليلا إلا رواد مقهى ودود القلائل، وجمعيهم من مدخنى البورى، قال جعفر:

ـ دعنى أحدثك عن عهد الأسطورة . .

ـ لعلك تقصد الطفولة .

ـ إنى أعنى ما أقول فلا تقاطعنى، لا توجد طفولة، ولكن يوجد حلم وأسطورة، عهد الحلم والأسطورة، وهو يفرض ذاته فى عذوبة فائقة، وربما زائفة، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة، وهو دوى ضخم فى وجدانى وعندما أحلله لا أجده شيئا، وهذا ما يؤكد طبيعته الأسطورية، حسبك أن تعرف أن قطبيه الأساسيين ـ أبى وأمى ـ لا أكاد أعرف عنهما شيئا ذا بال .

ـ هل غادراك وأنت طفل؟

ـ لا أذكر أبى بتاتا، لا صورة له فى ذاكرتى ولم يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرنى به، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيرى، ولا يوجد سوى موقف واحد يشير إليه إشارة غامضة، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطل على مرجوش، وأنا ممتط قفاه وأنظر من فوق منكبه إلى الجموع، وإلى رأس المحمل المذهب الذى يتبختر

فى مستوى النافذة، موقف يدل على العطف والحنان أليس كذلك؟ والمحمل مَعْلم من معالم الأسطورة، أما الجموع فحقيقة من نوع خاص، بعثت فى نفسى ذات يوم فى مكتبى بميدان باب الخلق فهتفت فى وجه «سعد كبير» وقلت . . .

قاطعته :

ـ نحن الآن فى الأسطورة فلا تجاوز حدودها!

ـ دعنى أتكلم بحرية فإنى أكره القيود!

ـ ولكن الحكاية ستذروها رياح الخواطر فأضل بين شذراتها!

قهقه قائلا :

ـ ألا تسمح لى بأن أعبث بالزمن كما عبث بى؟! حسن، لنعد إلى الأسطورة، إلى الجن الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية، لنعد إلى الأسطورة، قلت لك إننى لا أتذكر أبى، ولكننى لا أنسى يد أمى.

ـ يد أمك؟

ـ صبرا، لقد مات أبى، كيف؟ ولم؟ لا أدرى، ولكنه مات فى ريعان الشباب كما علمت فيما بعد، كنت فى الخامسة وربما دون ذلك، حتى بيت مرجوش لا أتذكره. ثمة حجرة يصعد إليها من الدهليز بسلم ذى درجتين، وفراش مرتفع يرقى إليه بسلم خشبى يغرى باللعب، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى لا تمتد لها يدى، وقطط مدللة، وجندرة، وكرار مظلم تسكنه أنواع شتى من الجن، وفأر أسود، ومبخرة، وقلة مغروسة فى صينية يسبح الليمون فى مائها، وكانون وزكائب فحم، ودجاج وديك مزهو فخور، مات أبى لا أدرى كيف؟ ولا أدرى ماذا كان يعمل؟ ولكن بوسعى أن أحدثك عن الموت نفسه فإنى به خبير، إنى من صنّاعه، حق لى يوما أن أقول إننى واهب الحياة، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته كلمات السماء تفتح أبواب غامضة تتسلل منها الشياطين، بل يجىء إبليس نفسه فى موكبه النارى يحف به القضاة ورجال الشرطة والسجانون، عند ذاك يغيّر جعفر الراوى اسمه ولقبه وجلده . .

قلت برجاء :

ـ ماذا عن وجه أبيك؟

ـ سامحك الله، إنك خانق الإلهام، تود أن تعرف كيف مات أبى كما لو كان أباك أنت، ماذا أعرف عن ذلك؟ أستيقظ فى الظلام فأنتبه إلى أن أمى تحملنى بين ذراعيها وتغادر بيتنا إلى بيت جارتنا، ولا شك فى أن النوم غلبنى، ولما أستيقظ فى الصباح أجدنى فى مكان غريب فأبكى، تجىء الجارة بطعام فأسأل عن أمى.

ـ أمك فى مشوار وستجىء فى الحال . . تناول طعامك .

وأتناول الطعام رغم ضيقى ، وأسمع طوال الوقت صواتا ، ولكن الصوات والزغاريد أصوات مألوفة فى حارتنا ، وأرجع إلى بيتنا فى نفس اليوم ليلا أو فى اليوم التالى فألقى جوا غريبا وكئيبا يفشى سرا أليما لا أعرف كنهه ، ولكن تصيبنى منه وحشة وقلق مبهم ، ها هى ذى أمى ، ما أشد تغيرها ! جلبابها أسود ، وجهها مريض شاحب ، نظرتها خابية وذابلة ، فقد البيت مناخه النقى ومرحه الأصيل .

ـ ما لك يا أمى؟

ـ كل شىء طيب ، العب . .

ـ أين أبى؟

ودارت وجهها عنى وهى تقول :

ـ سافر . . العب . . عندك السطح ولا تكثر من الأسئلة . .

إننى أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة اكتراث ، أمى تهرب منى ، تهرب بعينيها إن لم تهرب بجسمها كله ، وهى تبكى من وراء ظهرى ، أبى لا يعود من السفر ، ثم إننى لست جاهلا كل الجهل ، بلغتنى أشياء عن الله . . الشيطان . . . الجن . . . الجنة والنار . . حتى الموت بلغتنى عنه أشياء منذرة بغير السرور ، متى يعود أبى من سفره؟ ومتى يرجع وجه أمى إلى صفائه المعهود؟ وكم دام انتظارى القلق لأبى؟ ومتى أدركنى اليأس منه؟ وكيف أنسيته وشغلت عنه؟ وكيف واصلت حياتى بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل إلى تذكره وتسجيله ، أما يد أمى فلا يمكن أن تنسى . .

ـ ذكرت مرارا يد أمك؟

ـ تمسك بى أو أمسك بها ونسير معا فى الحوارى والأسواق . .

ـ للتسوق أم للنزهة؟

كنت بدأت آنس إلى روحه المتقدة وراء الأطلال والخرائب ، وبدا هو سعيدا ممتنا للعشاء والبورى وظفره بمستمع يتابع ما يقول باهتمام ، قال :

ـ أحيانا أحاول أن أتذكر صورة أمى فلا أعثر على شىء ذى بال ، ما طولها على سبيل المثال؟ كنت بطبيعة الحال أقصر منها جدّا ودائما أنظر إلى فوق حين أحدثها ، ولكن ذلك لا يدل على شىء ولا يحدد طولها ، ولا فكرة لى عن وزنها كذلك ، ولا لون عينيها ، ولا لونها نفسه ، ثمة صورة عامة غير محددة الخطوط ، وإشارات ونبرات غير مسموعة ، وعواطف جياشة ، وابتسامات وضحكات وزجرات ، أشبه بأطياف الأحلام . غير أننى أستطيع أن أقرر بأنها كانت جميلة ، لولا جمالها لما حدثت

المأساة، كما أننى أذكر قول جارتنا لمناسبة منسية: «ولد يا جعفر يا بن الست الجميلة»، ولكنها لم تبق فى الحياة كثيرا حتى تمكننى من حفظها فى قلبى من الدمار، يدها فقط التى بقيت معى، أحس حتى الساعة مسها وضغطها وشدها وانسيابها، وهى تمضى بى من مكان إلى مكان، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة، وتيارات من النساء والرجال والحمير والعربات، أمام الدكاكين وفى الأضرحة والتكايا، وعند مجالس المجاذيب وقراء الغيب، وباعة الحلوى واللعب، تقودنى فى جلبابى وعلى رأسى طاقية مزركشة تتدلى من مقدمها تعويذة كالحلية، وكانت أحاديثها متنوعة ذات صيغ شعرية تخاطب بهاالكائنات جميعا كلا بلغته الخاصة به، فهى تخاطب الله فى سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء فى أضرحتهم، حتى الجن والطير والجماد والموتى، وأخيرا ذلك الحديث المتقطع بالتنهدات الذى تناجى به الحظ الأسود، كانت الدنيا حية واعية تتلقى الكلام وترده، وتشارك بإرادتها الخفية فى حياتنا اليومية، لا فرق فى ذلك بين ملاك وباب ضريح، بين الهدهد وبوابات القاهرة القديمة، حتى الجن كانت تلين لكلماتها السحرية، وبفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها. .

ولما وجدته جادا لم أتمالك من الضحك، فسألنى دون أن يخرج من جديته:

ـ علام تضحك؟

فقلت بلهجة المعتذر:

ـ إنك تروى حلما، ولكنك الآن تعرف تفسيره وتأويله. .

فقال بكبرياء:

ـ لا تتخيل أنك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت.

ـ هكذا؟

ـ إنى بحر ولا فخر!

ـ ولكنك لا تفرق بين الحقيقة والخرافة.

ـ لا توجد خرافات وحقائق، ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعية الجهاز الذى ندركها به، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ، ولكل جهازه الروحى، وإليك مثالا حيا، فقد أخذتنى أمى ذات يوم لزيارة قبر أبى بين قبور الفقراء المكشوفة فى العراء، ثم راحت تناجيه قائلة: «زوجتك وابنك يحييانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحب الناس وأكرمهم، إنى أشكو إليك وحدتى وهمى فادع لنا ربك يا حبيب». وسرعان ما ألصقت أذنى بجدار القبر فسمعت تنهدة وكلاما أخبرت به أمى فقالت لى: «مبارك أنت حتى يوم الدين».

فسألته بإشفاق :

ـ ماذا قال لك أبوك؟

ـ إنك غير مؤهل لتصديقى فلن أجيبك!

ساورنى شعور بأنه يغطى ماء الدعابة بسطح من الجدية الخشنة أو أنه يريد إحاطة أسطورته بجو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه ، فتمتمت مذعنا :

ـ فوق كل ذى علم عليم .

ـ كانت دنيانا دنيا حية ، تنبض بالرغبات والعواطف والأحلام ، فيها الجد والمزاح ، فيها الفرح والأسى ، ينتظمهم جميعا ـ الإنس والجن والحيوان والجماد ـ لحن التفاهم والتعامل . .

ـ ولكنك تدرك ذلك كله؟

ـ كل الإدراك . بشغف وإصرار . .

ـ ألم يطوقك الخوف؟

ـ أحيانا ، ولكنى سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع والهجوم وصرت سيد الدنيا . كنت ذات مساء ألاعب الليمون فى صينية القلل على حافة النافذة فما أدرى إلا ورأس كائن يتطلع إلىّ من موضع فى مستوى النافذة من الطريق ، عيناه تضيئان فى الظلام وقدماه منغرستان فى الأرض ، فتراجعت مضطربا حتى استلقيت على ظهرى فوق أرض الحجرة ومزقت صرختى سكون الليل ، وقد علمت فيما بعد أن لقاء الإنسى بالجنى لا يجوز أن يتم على ذلك النحو . وقالت لى أمى إنه آن لى أن أحفظ الصمدية ، أما عفاريت بيتنا ـ وهم يقيمون فى الكرار ـ فكانوا يميلون بطبعهم للدعابة ، ولا يصدر عنهم أذى حقيقى ، يخلطون المش بالعسل ، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى ، أو يطفئون المصباح بيد الماشى ليلا ، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام إلى كوابيس . .

ـ هل تستطيع أن تعطينى فكرة عن صورة العفريت؟

ـ كلا ، إنك غير مؤهل للتصديق ، ثم إن الجن تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ما ينساها تماما ، بل إنه ينكرها ، رغم أنه يلقاها كل يوم فى صور جديدة من البشر ، وفى الحال الأخيرة يصدر عنها شر حقيقى وأذى كبير ، ولكنك تصر على أن الجن خرافة ليس إلا ، ومن ناحية أخرى فقد شاء لى القدر أن أرى النور المبارك فى ليلة القدر وأنا جالس على حجر أمى أتطلع إلى السماء! فتحت نافذة وأطل منها نور باهر طمس أضواء النجوم . .

فقلت ضاحكا :

ـ يقال إنه لا يرى ليلة القدر إلا من كُتبت له السعادة من البشر .

فقهقه طويلا ، ثم قال :

ـ يبدو أنك غلبتنى هذه المرة ، ولكن إلى حين فقط ، حقّا إنى أبلغ مثال للبؤس ولكن العبرة بالخواتيم ، والخاتمة ما زالت مجهولة . وقد أجد الجواب فى الجنة ، ولى مع الجنة تاريخ طويل ، كانت أمى تحدثنى عنها حديث الخبير ، فأحببتها حبا لا مزيد عليه ، خلبتنى وسلبت لبى فصارت حلمى الباهر ، جنة السحرحيث يُرى الله بالعين ويسمع بالأذن ويخاطب باللسان ، فى حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم . ولكن لنرجع إلى حديث أمى ، كيف كانت تعيش بعد وفاة أبى؟ خطر لى هذا السؤال فيما بعد ولم يسعفنى الجواب ، كنا نغادر بيتنا كل يوم ، نزور أضرحة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثم نرجع إلى بيتنا لتنهمك هى فى الواجبات المنزلية وآوى أنا إلى جنتى الأرضية بين القطط والدجاج ، وقد تزورنا جارتنا ، وكان لا أهل لى ولا أهل لها ، أكانت تملك مالا؟ حتى اليوم لم أعرف وجه الحقيقة فى ذلك ، وقد ظلت ترتدى السواد عقب وفاة أبى ، وكانت تبكى أحيانا إذا خلت إلى نفسها وأكثر من مرة ضبطتها وهى تبكى ، وأدركت سر العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبى ، وسألتها :

ـ ألست تقولين إن أبى يقيم بين يدى الله؟

فأجابت بالإيجاب ، فسألتها :

ـ إذن فلماذا تبكين؟

فقالت :

ـ إنه لخطأ يا جعفر ، ولكن الدموع تفيض رغم إرادة الإنسان .

لم يقعدنى ذلك عن مغامراتى اليومية فأمضى فى البهجة ، أجمع البيض ، أطارد الفئران ، أتحدى العفاريت ، ولبثت المغامرة السعيدة عاما عقب وفاة أبى ، وأخذت تجذبنى حكايات الرباب فى المقهى تحت النافذة ، تابعتها باهتمام على قدر استيعابى لها ، وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصب لأبطالها ، ومن نفس النافذة شاهدت معارك الفتوات فى الزفاف ، فأعجبت بالفتوات كإعجابى بالجن ، وحلمت طويلا بأن أكون فتوة إن أعجزنى أن أكون عفريتا . .

سألته :

ـ ألم يتحقق لك حلم من أحلام الطفولة؟

ـ لا تسخر منى وانتظر ، أريد أن أحدثك عن الحب فى عهد الأسطورة .

ـ ولكن عهد الأسطورة ليس بعهد الحب . .

ـ ولكن الحب بدأ عندى من سن السادسة، كنت أحب الغوص وسط البنات فى ليالى رمضان، والعلقة الوحيدة الجادة التى أصابتنى من يد أمى كانت بسبب الحب، إذ أغويت بنتا تماثلنى فى السن فأخذتها إلى سحارة وأنزلت الغطاء علينا، ولكن لم يدم لى الحب طويلا فسرعان ما بوغتُّ برفع الغطاء فرفعت وجهى فزعا فرأيت وجه أمى يحملق فىّ وضفيرتها تسقط فوق رأسى، وعلى فكرة كانت ضفيرتها طويلة جدّا وكنت ألعب بها ما وجدت إلى ذلك سبيلا فأحلها وأعقدها وأدوّرها كحبل، لا شك فى أن أمى كانت جميلة، ولولا جمالها ما نشأت المأساة أصلا.

ـ أعطنى فكرة عن حب الطفولة..

وهو يضحك:

ـ إنه يبدو عبثا ضائعا، ولكنى لا أذكر أنه صحب بانفعالات حادة قاربت السكر..

ـ ذاك شذوذ!

ـ لست تربويا على أى حال، وبوسعى أن أوكد لك أن الجنس لم يكن عنصرا طاغيا فى حياتى، ولكنه لعب دورا حاسما فى حينه، أما فى الطفولة فقد أسهم فى نطاقه الضيق فى تأليف الأسطورة، غير أن الأسطورة تعرضت لضربة قاضية لم تكن فى الحسبان، فقد استيقظت ذات صباح وحدى دون أن توقظنى أمى كالعادة. أدركت أننى استيقظت وحدى عندما وجدتها مستغرقة فى النوم، راقدة على وجهها، وسرّنى جدّا أن أوقظها ولو مرة فى حياتى الصغيرة. قربت فمى فى أذنها وناديتها، مرة ومرة وهى لا تستجيب، حرّكتها بلطف مكررا النداء، ارتفع صوتى واشتد تحريكى لها ولا مجيب، وأصررت على إيقاظها، وتماديت فى إصرارى حتى ملأ صوتى الحجرة بلا أدنى نتيجة، ويئست تماما فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت إلى السطح وأنا أقشرها وأقضم حباتها الكهرمانية ثم أتفل حثالتها للدجاج، ورأيت جارتنا فجرّنا الحديث إلى الحال التى تركت عليها أمى، وجعلت تحقق معى ثم أمرتنى أن أفتح لها الباب، وهرولت الجارة إلى أمى وانكبت فوقها وأنا واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت: «يا خبر أسود يا أم جعفر»، ثم أقبلت نحوى فرفعتنى إلى صدرها ومضت بى إلى مسكنها، وانقبض قلبى لذلك التصرف، وتذكرت به تصرفا مشابها يوم اختفى أبى إلى الأبد، ومضيت أصرخ: «أمى.. أريد أمى..»، وقضيت فى بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة، وفى مساء اليوم الثانى طيبت الجارة خاطرى وقالت لى:

ـ لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم.

فقلت يائسا :

ـ أنا فاهم ، أمى ذهبت إلى أبى . .

فدمعت عينا المرأة وتمتمت :

ـ ربنا معك ، هو الأب والأم ، هو كل شىء .

وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك :

ـ يجب عمل شىء ، ولو باللجوء للحكومة . .

فقالت المرأة :

ـ حتى الحجر يلين !

ومضت أيام وأنا أعيش ضائعا ذاهلا حتى أقبلت علىّ الجارة تقول متهللة :

ـ يا حبيبى ، أبشر ، أمر ربنا بالرحمة ، ستذهب إلى جدك !

لم أفهم شيئا .

كنت أسمع الكلمة لأول مرة .

٤

سألته بدهشة :

ـ لأول مرة ؟ !

ـ لأول مرة .

ـ لم يجر له ذكر فى حياة أمك ؟

ـ مطلقا ، علما بأنه كان فى نفس الحى يقيم . .

ـ ولم أخفت أمك عنك أمره ؟

ـ ربما لحنقها عليه ، على أى حال أفهمتنى جارتنا أنه جدى ، أنه أبو أبى ، ولم يكن البيت بعيدا عن مرجوش ، ولا كان غريبا علىّ فطالما سرت تحت سوره العالى ونحن ـ أنا وأمى ـ فى طريقنا إلى الحسين ، وأذكر أننى سألتها مرة عن هوية ذلك السور العالى الذى يقوم أمام قبو بيت القاضى كالجبل فقالت لى بعجلة : «إنه السجن حيث يقضى المجرمون أعمارهم فى الظلام» ، ولم يكن معزولا عما حوله ، ففى الأحياء الشعبية تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شىء ولا من حديقته ، فقط سوره المطل على بيت المال ، وهو سور حجرى يمتد طولا وارتفاعا

كأنه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة. أما بابه فيفتح على عطفة جانبية، ولما اجتزنا بوابته تم أول لقاء بينى وبين حديقته فلم يكن لى عهد قبل ذلك بالحدائق، ولا رأيت من عالم النبات إلا شجرة بلخ بميدان بيت القاضى وشجيرة صبار بالقرافة. اقتحم أذنى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محملة متواثبة بأفرادها الصغيرة الملونة، كما رأيت أسرابا من الحمام تحوم حول برج قائم وراء تكعيبة العنب، يطل على جدول ماء يشق الحديقة بالعرض يقف فيه البستانى مغروسا حتى ثلث ساقه وبيده مقطف، أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتى أثملته، وقد ذهلت حتى أوشكت أن أصرخ من الأعماق، وسرت فى ممشى تتجاذبنى على الصفين ألوان الأزهار والورود فى طريقى إلى السلاملك، وشد جارى على يدى وهمس فى أذنى مشجعا:

ـ هذا هو بيتك الجديد يا جعفر..

كنت فى حيرة شاملة، وكان جدى يجلس على أريكة ذات مسند عال مطعم بالأرابيسك تتوسط السلاملك، والظاهر أن جارى أنهى حديثا قصيرا مع جدى ثم قبّل يده وذهب، فوجدت نفسى وحيداً تحت بصره، لما أفق من سحر العصافير والأزهار والجدول، وفى أعماق قلبى أسى لم تهن نواجذه، إنه يجلس متربعا فى جلباب أبيض فضفاض متلفعا بشملة مزركشة مغطى الرأس بطاقية بيضاء، طويل الوجه نحيله، قمحى اللون ذو نظرة هادئة مستقرة، جبهته عالية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ، أما لحيته فبيضاء مسدلة على الرقبة وتلامس أعلى الصدر، تبادلنا نظرة فلم أقرأ فى عينيه ما يخيف وتبدى لى على قمة عمر طويل وآية فى النبل والوقار ومالكا جديرا بالحديقة الفاتنة.

وقفت غير بعيد وغير قريب فى جلبابى المقلم وطاقيتى المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبا ملونا وأحمل تحت إبطى لفافة تحوى ثيابى القليلة.

أطال إلىّ النظر حتى اجتاحتنى رغبة فى الفرار.

وكأنما قرأ ما فى صدرى فابتسم، وأشار إلىّ بالاقتراب.

قلت بحرارة:

ـ أريد أن أرجع إلى أمى.

مد لى يده فاقتربت مادا يدى، تصافحنا، تملكتنى رعشة بكاء، ولكننى تمالكت نفسى فلم أبك، وسرى إلى جسدى من ملمسه دفء، قال برقة:

ـ أهلا بك.

أجلسنى إلى جانبه وقال:

ـ أنت فى بيتك، هل أعجبتك الحديقة؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب:

ـ تكلم، إنى أحب الكلمات.

فغمغمت:

ـ نعم.

ـ أتعرف من أكون؟

ـ جدى.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أبو أبى..

ـ تصدق ذلك؟

ـ نعم.

ـ هل تتذكر أباك؟

ـ كان يحملنى لأرى المحمل، ولكنى أتذكر أمى.. وأجهشت فى البكاء فربّت ظهرى، ثم سأل:

ـ ماذا تذكر عن أبيك أيضا؟

ـ زرت قبره.

فنحّى وجهه عنى قليلا، ثم سأل:

ـ ما اسمك؟

ـ جعفر.

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم..

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم!

ـ جعفر إبراهيم سيد الراوى، أعد..

ـ جعفر إبراهيم سيد الراوى.

ـ مَن الذى خلقك؟

ـ الله.

ـ ومَن نبيك؟

ـ سيدنا محمد .

ـ هل عرفت الصلاة؟

ـ كلا .

ـ ماذا تحفظ من القرآن؟

ـ قل هو الله أحد .

ـ ألم تحفظ الفاتحة؟

ـ كلا .

ـ ولم بدأت بقل هو الله أحد؟

ـ لفائدتها فى إخضاع الجن .

ـ هل تتعامل مع الجن؟

ـ نعم، كثيرون منهم يقيمون فى كرار بيتنا، وهم يملئون مرجوش ليلا!

ـ هل رأيتهم بعينيك؟

ـ كثيرا .

ـ إنك تكذب على جدك .

ـ رأيتهم وتعاملت معهم . .

أجرى أصبعه على الخطوط المكونة لوجهى برقة وعناية فأنست إليه وتخلى أكثر الارتباك عنى . قال :

ـ لا تكذب يا جعفر فأنا لا أحب الكذب .

ـ ولكنى أقول الصدق .

ـ انظر بعينيك ولا تتخيل ما لا وجود له . .

وسكت فسألته بدورى :

ـ يا جدى . .

فنظر إلىّ مستطلعا فواصلت :

ـ لم لَمْ تزرنا؟

مد بصره إلى الحديقة، ثم قال :

ـ جدك متقدم فى السن كما ترى .

ـ لم لَمْ تدعنا إلى بيتك؟

بعد صمت آخر أجاب :

ـ رفض أبوك ذلك!

فسألته:

ـ هل سأقيم هنا دائما؟

ـ إنه بيتك يا جعفر.

ـ وألعب فى الحديقة؟

ـ وستلعب فى الحديقة، ولكن لن تكون حياتك لعبا خالصا، إنك فى السادسة ويجب أن تبدأ الحياة كذلك..

وبدأت الحياة الجديدة.

* * *

وتوقف ملتفتا نحوى وهو يقول بحدة:

ـ ذلك هو جدى، الراوى، صاحب الوقف، فأى نظام يحرمنى حقى الثابت؟

فقلت برجاء:

ـ لنرجع إلى حياتك الجديدة!

ـ لست تافها كما تتصور، إنى صاحب حق. وذو ثقافة، بوسعى أن أحدثك عن عيوب الديمقراطية، وعيوب الشيوعية...

ـ وستحدثنى عن ذلك فى سياق حكايتك، ولكن ارجع الآن إلى حياتك الجديدة.

فرفع منكبيه فى أسف، وقال:

ـ يا للخسارة! لقد ضعف بصرى، وإنى مهدد بفقده نهائيا ذات يوم، ولم يبق من العمر إلا أيام، وما زالت البشرية تعانى العذاب والقلق، وما زلنا نموت مخلفين وراءنا أملا قد تحقق ونسى، وسبع خيبات تؤرقنا حتى الاحتضار، وأنت تريدنى على أن أروى قصتى بالطريقة التى تعجبك أنت لا التى أرتاح إليها أنا..

فقلت برجاء:

ـ النظام هو ما يلزمنا لنلم بقصتك فى الأيام القلائل الباقية من الحياة..

ـ كانت الحياة الجديدة حلما بديعا، نسيت الماضى كله، نسى القلب الخئون أمى الراحلة التى لم أزر لها قبرا، حلمت بها ذات ليلة ولما استيقظت شعرت بثقل قلبى وبكيت، ولكن القلوب الصغيرة تتعزى بسرعة لا تتأتى إلا لكبار الحكماء، شغلت تماما بجدول الماء وأشجار الحناء والنخيل والليمون والأعناب والضفادع والعصافير والبلابل والحمام واليمام، وازّيّن خيالى بالفراش النحاسى المذهب والسجاجيد الفارسية والصوان الفخم والمرآة الكبيرة المصقولة والستائر الملونة والدواوين الوثيرة

والشرفة المسقوفة باللبلاب والحمام الكبير بأرضيته المعصرانى وخزان مياهه العجيب، كنت أكتشف فى كل ركن شيئا جديدا وثمينا وأثريا باسم جديد ومنظر فتان، على أن ذلك كله بهرنى دون أن يستحوذ على قلبى حقيقة فلم يراع فى إعداد القصر مطالب الأطفال، لذلك لم يؤثر فىّ شيء مثلما أثّر حمار البستانى، وجدت فيه الصديق والملهاة وقضيت على ظهره الوقت الطويل قاطعا الممشى ذهابا وإيابا وأنا أتفادى من الغصون الدانية، ، وأعجبت كثيرا بالطلمبة والبئر والفسقية وتمثال الطاووس الذى يتوسطها فوق عمود مرمرى. وتولت أمرى امرأة كهلة حنون نحاسية اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت بيننا العواطف الطيبة المتبادلة، ومن بهجة عرفت الكثير عن مأساة مولدى فى مناسبات شتى وعلى مدى غير قصير، وتبين لى أن جدى كان يعيش فى البيت وحده محاطا بحاشية من الوصيفات والخدم، جدتى ماتت منذ زمن قصير، كما مات أبى بعيدا عن البيت وكان الابن الوحيد الذى تبقى له على قيد الحياة حتى بلغ سن الرجولة عقب سبعة إخوة ماتوا بين الطفولة والصبا، فكان الأمل الباقى بعد عذاب وكان حلم المستقبل الذى تمخض ـ فى نظر جدى ولا شك ـ عن خيبة أمل أنكى من الموت وإلا ما هان عليه أن يعاقبه حتى القطيعة المطلقة والغربة العدائية والنبذ من البيت والأسرة والتراث وذلك ما يجعل من جدى لغزا فى نظرى، شخصيته توحى بالسماحة والرحمة والعذوبة، ولكنه ينقلب بالغضب شيطانا أو حجرا صلدا، عرفته وهو شبه معتكف فى بيته ، ولكنه كان فى الأصل أزهريا، ورث عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر، على ذلك لم يعمل فى وظيفة عامة دينية أو تعليمية، عمله كان إدارة أملاكه، فراغه كان الدراسة والاطلاع على علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب، بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوف والسياسة والأدب.

* * *

سألته:

ـ ألم يكن له نشاط فى الكتابة؟

ـ كلا، ولكنه كان يدون مذكرات أو يوميات بصفة مستمرة... ولا أدرى عنها شيئا..

ـ وهل كان كذلك أبوه وجده؟

ـ كانا دائما من هيئة كبار العلماء، هو وحده الذى آثر استثمار أملاكه والحياة الحرة..

ـ هل لك فكرة عن الرجل العصامى فى سلسلة أجدادك، أعنى الرجل العادى الفقير الذى منه نشأ الثراء؟

ـ إنها أسرة عريقة فى الثراء والدين ولعلّى أنا أول صعلوك فيها!

فضحكت وقهقه، ثم واصل:

ـ نشأ أبى نشأة دينية التزاما بخط الأسرة حتى فاز بالعالمية، وأراد أبى أن يسافر إلى أوربا للسياحة والدراسة فتردد جدى مليا، ثم وهبه الموافقة فسافر إلى فرنسا، تعلم الفرنسية، استمع إلى محاضرات فى الفلسفة واللاهوت فى دراسة حرة، ثم رجع إلى وطنه دون أن يحصل على شهادة أو يحرر رسالة، وأعلن عن رغبته فى مساعدة جدى فى إدارة الأملاك فسمح له بذلك وكان يرسل بمقالات إلى الصحف بين الحين والحين، ثم أحب أمى فى الوقت الذى كان جدى يدبر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر، وتزوج بها دون مبالاة، ماذا كان عيبها؟ الفقر؟ الحق أننى لم أعرف لها أهلا على الإطلاق، لا خال ولا خالة، لا قريب من قريب أو بعيد، على أى حال انفجر غضب الراوى، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه، وخُيِّل إلى كثيرين أن سلسلة الراوى بمضمونها التاريخى قد انعدمت وانتهت، ولا شك أن أبى لم تكن تهمه سلسلة الراوى فى شىء، كان يريد أن يحقق ذاته بطريقة أخرى، ولا أخفى عنك أننى أعجبت به وأسفت لموته الذى لم أحزن له فى حينه لصغر سنى..

* * *

سألته:

ـ أليس لديك فكرة عن المقالات التى كان ينشرها فى الصحف؟

ـ بحثت عنها فى أرشيف بعض الصحف، وهى تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية، والعلم والفلسفة من ناحية أخرى، واعتبرتها دون تحيز عصرية ومتقدمة، وبصفة عامة يمكن أن يصنف أبى فى الليبراليين، وعلمت أن أبى عمل مترجما فى صحيفة الفجر عقب استقلاله عن أبيه، وأذكر أننى ناقشت جدى فى موقف أبى عندما بلغت سن المناقشة، سألته ذات مرة ونحن فى جلسة مؤانسة:

ـ كيف هان عليك يا جدى أن تطرد أبى لزواجه من امرأة من عامة الشعب؟ إنك رجل مؤمن، صافى الروح، نبيل الخلق فكيف هان ذلك عليك؟

وكان واضحا أنه لم يرحب بالسؤال، ولكنه أجابنى قائلا:

ـ إنك مخطئ فى تصورك، إنى أرى الإنسان نوعين: إنسان إلهى وإنسان دنيوى، الإنسان الإلهى هو من يعايش الله فى كل حين ولو كان قاطع طريق، والدنيوى هو من يعايش الدنيا ولوكان من رجال الدين...

ـ وهل كان أبى سيئا؟

ـ كان دنيويا فحسب . .

ـ كانت أمى طيبة ونبيلة . .

فتمتم :

ـ فليرحمها الله!

ثم واصل بعد هنيهة :

ـ لم أخطئ ولم أندم، ولكننى حزنت طويلا . .

كنت متأكدا من حزنه، لولا حزنه الدفين ما لان قلبه لى، وقال لى :

ـ لقد فتحت لك قلبى وبيتى، سيكون كل شىء لك، ولكن عليك أن تكون إنسانا إلهيا، إنى لا أدعوك للزهد فإن عملى الأول هو إدارة الأملاك . .

ورتب لى منذ أول يوم مدرسا يعلمنى مبادئ الدين واللغة والحساب. لقنت مبادئ دين جديد غير الدين الذى تلقيته على يد أمى، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح، أما هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية، حفظ سور وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة الصلاة والصيام، دين نظرى وعملى، ومدرس جاد يرفع التقارير لجدى أسبوعا بعد أسبوع. ولم يخفِ المدرس رضاه عنى فقال لى :

ـ أنت ولد مبارك، وليتم الله نعمته عليك . .

كنت قوى الحافظة، حسن الفهم، محبا للعمل، ومارست الصلاة بسرور مؤتما بجدى كما مارست الصيام، ولم ينسنى ذلك دينى الأول، فتراكم الجديد فوق القديم، ولم يسكت صوت أمى المتردد فى أعماقى، وقد قال لى المدرس فى أثناء مناقشة :

ـ الضريح مبنى من المبانى والولى جثمان . .

فقلت بإصرار :

ـ بل لكل شىء حياة لا تفنى أبدا.

فابتسم الرجل وقال :

ـ فلنترك خلافاتنا للزمن وللمزيد من العلم.

ويبدو أننى أحرزت تقدما يستحق الارتياح. وكان جدى يدعونى إلى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الدين والدنيا، كان يدعونى لشهودها وقتا قصيرا يناسب استعدادى، وكثيرا ما سمعت القوم وهم ينوهون بأجدادى فى مواقفهم المأثورة حتى امتلأت فخرا بأولئك الرجال الممتازين الذين عُرفوا بالعلم والجود ومكارم الأخلاق، بقدر ما تنغص صفوى لغياب ذكر والدى، والظلام الذى يغشى أصل أمى، وكلما تقدم بى العمر عاودت التفكير فى أمى بمرارة أشد وأعمق، واقتنعت بأن مأساتها ـ ومأساة

والدى بالتبعية ـ حادثة غير معقولة ومناقضة للدين الذى أتعلمه وأمارسه، وأن جدى يتصرف أحيانا تصرف من لا دين له! لقد ذهبت أمى، ولكنها أورثتنى دينها ومأساتها، وسوف يرسبان فى جانب من نفسى طويلا، ربما أطول مما تصورت.

وأغدق جدى على حبه وحنانه وهو يتابع نجاحى وتقدمى، قال لى:

ـ يا جعفر، أراك جديرا بتجديد شباب شجرتنا المباركة!

وقال لى:

ـ سر متأبطا ذراع الحكمة وافعل ما تشاء.

وقال لى أيضًا:

ـ مبارك من يتحلى بوحى الله، وأمام المجتهد وسيلة ليتبوأ العرش!

وفى نشوة من التفاؤل قال:

ـ خطواتك فى النجاح مباركة، وسوف تدخل الأزهر الشريف عما قريب، ألا يسرك ذلك؟

فأجبته بإخلاص:

ـ يسرنى جدًا يا جدى، وأود بعد ذلك أن أسافر إلى أوربا . .

فتجلى الاهتمام فى عينيه وسألنى:

ـ ما الذى جعلك تود ذلك؟

ـ أسوة بما فعل أبى!

فمسح على لحيته البيضاء وتمتم:

ـ عليك أن تتحلى بوحى الله ثم افعل ما تشاء. .

فترددت قليلا، ثم سألته:

ـ أكانت خطيئة أبى الوحيدة أنه تزوج من أمى؟

فتجهم وجهه وقال بحدة:

ـ ما مضى قد مضى.

وأغمض عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده، ثم قال:

ـ لقد شرحت لك، ولكنك لا تريد أن تفهم!

قلت لك إن وجهه تجهم، ولكن ما رأيته كان أفظع من ذلك، لم تكن لحظة عابرة، ولكنه تصور فى صورة جديدة ومخيفة، تحجرت نظرته وشدت عضلاته وتغيّر لونه فخُيِّل إلىّ أنى أرى شخصا لم أره من قبل، عدو منطلق من بركان حاملا غضب الأرض، قل إنه الصاعقة أو الموت نفسه، ولكنها كانت لحظة عابرة خاطفة ثم عاد جدى

إلى مجلسه. عدا ذلك لم أجده قاسيا ولا مخيفا ولا ثقيلا، كانت الإنسانية عبيره والحب إشارته حتى عز عليّ أن أصدق أنه فعل بأبى ما فعل، وكثيرا ما قلت لنفسى: لعله كان يضمر الغفران ويتحين الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت المنية أبى فى عز شبابه، وحتى بعد لحظة تجهمه المخيفة حدست فى قوله: «ما مضى قد مضى» ألما أثارته الذكرى وندما يصر على مطاردته، ولعل عذابه ناشئ عن مثاليته المفرطة، فهو يطالب الإنسان بالسمو والتطهر والكمال، وباعتناق رؤياه فى الوجود، ويحتقر الضعف وما يراه انحلالا وتدهورا فى التكامل البشرى، هكذا اقتنعت بأن الطريق إلى حنانه واضح ومستقيم، ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق، والقوة والتقدم والسمو، وهو ما عناه بقوله «الإنسان الإلهى».

وفى المواسم كان يجتمع الزوار للاستماع والطرب فتغرد الحديقة بالأغانى الصوفية ترددها الحناجر الذهبية الذائعة الصيت، وكان جدى من عشاق الطرب، وله فيه ذوق يستوى فى مكانه من نفسه الغنية بشتى الاهتمامات الدينية والدنيوية، وكنت أتابع الأناشيد ساهرا حتى الفجر وأنتظر تلك السهرات بلهفة المحبين، وقد ضبطنى مرة وأنا أغنى:

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشا حصيرة تحت شجرة ليمون وأردد الغناء مقلدا الشيخ فانتبهت إلى ظله وهو يغطينى وأمسكت عن الغناء فى غاية من الارتباك والحياء، ووقفت أمامه فى أدب، ابتسم، تمتم:

- ما هذا؟ صوتك لا بأس به يا جعفر..

فأحنيت رأسى فى رضا وبركة، سألنى:

- ماذا تغنى أيضا فى خلوتك؟

فأجبت:

- أغنيات من العهد القديم.

- مثل ماذا؟

فترددت قليلا، ثم قلت:

- عصفورى يا أمه عصفورى.

فواصل ابتسامه وقال:

- هأنتذا تحفظ هنا أناشيد مباركة.

ومضى يتفقد الحديقة وقد بدا جليلا مضيئا.

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس إلى بهجة لتحكى لى الحكايات، أو أغنى، أو ألعب فى الحديقة مع الحمار، وأحيانا ألاعب أبناء البستانى والطاهى وسواق الحنطور، وطيلة الوقت أتعطش للانطلاق فى الحارة، وهل يمكن أن أنسى رحلاتى المتواصلة فى حوارى القاهرة تشدنى يد أمى؟ وصارحت جدى برغبتى فى الخروج، فقال لى:

ـ اركب معى الحنطور فى نزهة المساء.

ـ أريد أن ألعب فى الحارة.

ـ أليست الحديقة أجمل من الحارة؟

فقلت بحرارة:

ـ أريد أن ألعب مع الأولاد فى الحارة.

فهز رأسه مستسلما وقال:

ـ بشرط ألا تغيب عن عين بهجة وألا يفوتك ميعاد صلاة.

هكذا خرجت إلى الطريق الذى منه جئت.

وكانت بهجة تجلس على كرسى أمام الباب لترعانى من بعيد، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران، وفى مقدمتهم ابن لسواق سوارس يدعى محمد شكرون، كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه، دعانى أول يوم إلى مسابقة الجرى، وجرى بأسلوب مضحك وبعناد، وبين آونة وأخرى كان يثب وثبة شيطانية يقطع بها مسافة خيالية متحديا ضعفه الطبيعى، وكان لطيفا وصريحا فبعد أن تقرر له الفوز قال لى:

ـ إنك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيا مثلك أن يشترى لنا الملبن الأحمر والسوبيا..

ولما أكل وشرب انبسط وراح يغنى:

من فوق شواشى الجبل باسمع نغم بالليل

عشق البنات البكارى هد منى الحيل

من فوق شواشى الجبل

وإذا به يملك صوتا عذبا يهز النفس هزا، وأدركت لتوى أننى لا أستطيع منافسته، ولكننى رغم ذلك غنيت ما حفظته من غنائه، فتكرر على مسمعى ما سبق أن قاله جدى لى، قال:

ـ صوتك لا بأس به!

فقلت له:

ـ صوتك جميل حقًّا يا شكرون.

فقال فى مباهاة:

ـ ستسمعنى يوما مطربا من المطربين.

سرعان ما اتحدت علاقتنا فى صداقة وطيدة، تميزت وسط العلاقات السطحية الكثيرة عاطفة راسخة وعميقة، وكان الغناء محور اجتماعنا وبخاصة فى ليالى رمضان الساهرة، ومن ناحيتى دعوته لشهود سهرات الطرب الدينى فى بيتنا فسُرَّ لذلك سرورا لا مزيد عليه، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس عن قرب مهاراتهم الغنائية، وخواصهم الصوتية، وقدراتهم فى التطريب والتأثير، وتجلى ذلك فى انفعاله العنيف الذى بلغ حد العشق والوله، ودفعه ذلك لاقتحام وقار المجلس بجرأة فاقت كل تصور، فما كاد المنشد يختم وصلة، حتى قام محمد شكرون من مجلسه إلى جانبى وراح ينشد بصوته الحسن:

أهلا ببدر التم روح الجمال

فجذب الأسماع بحلاوة صوته وحداثة سنه، وعمت شهرته الحاضرين من منشدين ومدعوين، حتى جدى لم يخف إعجابه به، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى طاهر البندقى، صوفى وملحن وأستاذ فى الموسيقى الشرقية ومن أقرب المقربين إلى جدى، فأعجب بشكرون جداً وجاذبه الحديث طويلا، حتى عرف أصله وفصله وآماله، هذا هو سحر الغناء والجن يطربون لنا ونحن نطرب لهم، وقد زعم بعض أهل مرجوش أنهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجن قبيل الفجر..

فقاطعته برجاء:

ـ دعنا من الجن، نحن الآن فى بيت الراوى، ثم إننى مؤمن تماما بأنك لا تصدق شيئا من ذلك..

ـ الذكريات تنهمر كالمطر.

ـ هى دائما كالمطر ومهمتك أن تصنع جدولا صافيا..

فتنهد ثم واصل:

ـ زار الشيخ طاهر البندقى جدى عقب أسبوع من مغامرة شكرون وأطلعه على خاطرة خطرت له وهى أن يعلّم محمد شكرون الموسيقى الشرقية ويدربه على الغناء فوافق جدى على ذلك بسرور، وتعهد بأداء نفقات التعليم والتدريب، وثبت عندى من ذلك حب جدى العميق للغناء والموسيقى، وأنها عاطفة مستقلة بذاتها عنده وليست تابعة لتدينه فحسب، وقد قلت له عندما أخبرنى بما قرره بخصوص صديقى:

ـ إنك تحب الغناء يا جدى!

فابتسم متسائلا:

ـ لم لا؟ إنه صديق الروح الحميم . .

ـ وهل سمعت يا جدى كبار المطربين؟

ـ نعم، فى بيوت الأصدقاء فى المناسبات السعيدة. ولم يكن إنفاقه على شكرون إلا مثلا من إنفاقه على المحتاجين من أهل حينا.

* * *

فقلت تلقائيا:

ـ وتوج ذلك بوقف أملاكه كلها للخير!

فصاح جعفر:

ـ أما ذلك فلا، لا خير فى خير يقوم على الشر!

ـ أعتذر عن المقاطعة . .

ـ اعتذر عن رأيك وهو الأهم.

ـ أعتذر.

نفخ غيظه وواصل حديثه قائلا:

ـ أصبح محمد شكرون تلميذا للشيخ طاهر البندقى، وأتاه الحظ عبر صداقتنا الوطيدة، وكنت أنا البواب الذى فتح له باب النجاح، وقد سررت لذلك سرورا بالغت فيه أمام جدى، ولكنه نظر إلىّ بارتياب وسألنى:

ـ هل يمازج سرورك شىء من الغيرة؟

فنفيت ذلك بشدة، ولكنه قال باستياء:

ـ الغيرة رذيلة لك عليها فى مثل سنك عذر، أما الكذب فلا عذر لك فيه، لا تكذب يا جعفر، كن دائما صادقا، لا تغضب جدك فهو يحب النقاء، وقد وهبك الله عقلا راجحا كما وهب صديقك صوتا عذبا فانعم بما وهبك ولا تنغص صفوك بما تفتقد، ولو كنت ذا استعداد للغناء ما ساءنى أن تصير مطربا، فالمطرب أيضا يستطيع أن يكون إنسانا إلهيا، من رحمة الله أن كل شخص يسعه أن يكون إلهيا حتى الزبال، أما أنت فعليك أن تستعد لدخول الأزهر . .

فقلت بصدق:

ـ أعز آمالى يا جدى أن أوفق فى حياتى الدينية . .

لا أنكر أننى شعرت بشىء من الغيرة، وأزعجنى أن يقتحمنى جدى بقدرة خارقة على قراءة ما فى الصدور، ولكننى على أى حال شعرت بشىء من الغيرة، ها هو ذا شكرون يتفوق بموهبة لا حيلة للاجتهاد فيها، وهأنذا أعانى تناقض العواطف فى رحاب القلب

المعذب . على أن أحلامى حامت حول الدين والحياة الدينية ، وشعرت شعورا مبهما بأن ثمة رسالة ما تنتظرنى فى هذا المجال المقدس فتطلعت إليها أشواقى من الأعماق ، ولم تغب عن خاطرى التركة الكبيرة التى سأرثها ذات يوم ، عزبة المرج والعمارات والأموال السائلة ، ولم يكن العمل يهمنى ، ولكنى حلمت بالرسالة ، والجلوس فوق أريكة جدى أستقبل الرجال ، رجال الدين والدنيا ، نناقش جميع الأمور المهمة ، ونطرب مع المطربين فى أوقات الفراغ .

* * *

قلت مقاطعا :

ـ إنى أتذكر المغنى الأعرج كما أتذكرك فى الجبة والقفطان . .

فسألنى مباهيا :

ـ ألم تر بنفسك أن الله خلقنى فى صورة حسنة؟

ـ كنت حسن الصورة حقّا . .

ـ كنت حسن الصورة ، حسن السريرة ، شريف الآمال ، وقد دخلت الأزهر فى طور المراهقة مدعما بقوة إنسانية منورة ، كأننى أمير سماوى ، لأجد نفسى فى بيئة شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتقشف والأسى ، ولا تتيسر لها الإنسانية الحقة ، إلا فى الجد الصارم والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا هوادة ، عرفت العديد من الأقران ، وصادقت كثيرين ، وقد ذكّرونى بشعبيتهم وخرافاتهم بمرجوش وببيد أمى وبأصلى المأساوى الأصيل ، فأحببتهم رغم كل شىء ، وكنت أدعوهم للعشاء مساء كل جمعة فى بيتى ، وطيلة شهر رمضان كانت نخبة منهم تفطر معى وتتسحر معى وفيما بين الإفطار والسحور كنا نمضى الوقت فى المذاكرة والمناقشة ، وبذلك اكتسبت مكانة فريدة لا تتأتى عادة لطالب ، ولاحظ جدى سرورى بذلك ، فقال لى :

ـ إياك والخيلاء ، املأ قلبك بحب هؤلاء الفقراء الأشراف ، واذكر دائما نعمة الله عليك . .

ولكن تفوقى كان يزكينى دائما عنده ، فشيخ التوحيد أثنى علىّ عند جدى ، كذلك أستاذ الفقه والنحو ، والمنطق ، حتى سُرَّ جدى وقال لى :

ـ ستكون شيخا ممتازا .

ثم مستدركا :

ـ الأهم من ذلك أنك تمضى فى طريق النقاء بخطى ثابتة . . .

وقلت لجدى :

ـ أريد أن أهب حياتى للدين، لا أدرى كيف، ولكننى غير متحمس لأى عمل كالوعظ أو التدريس أو غيرهما . .

ـ لا أهمية لذلك ألبتة، ما يهمنى هو إرادتك النقية، هو إيمانك وحبك للدين، بعد ذلك ستجد أن كل كتاب هو كتاب دين، وكل مكان معبد سواء فى مصر أم فى أوربا، وسييسر الله لك سبيل الحكمة لتكون ممن يجودون بالحكمة، بالكلمة أو بالفعل، وهذه هى الحياة الإلهية . .

استثار ذلك حماسى لأعلى الدرجات، وكنت أتقدم مترع القلب بالإيمان والقداسة، أستضىء بمثل جدى فى الحياة، بحياته الجميلة الغنية التى عاشرتها فى قصره، بأصدقائه ومناقشاته وطربه .

ولكن كانت تمر بى ساعات سوداوية، تتسلل إلىّ من مكامنها فتغير مذاق الحياة، وتغشانى سحب الذكريات السود، فأفكر بحياة النفى التى عاناها أبى، ومأساة أمى ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذلك يثور غضبى على جدى، وأحاسبه فى الخيال حسابا عسيرا، ويتبدى لى شيطانا فى ثوب ملاك، وأقول ما هو إلا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب فى الحياة ويزعم أنه قديس إلهى . .

ولم أجد من أفضى به إليه بهواجسى إلا محمد شكرون .

كان بدأ يشق طريقه بصعوبة فى ميدان مزدحم بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات .

وكان يحب جدى ويحفظ له جميله ويقول عنه :

ـ إنه النبيل ابن النبلاء، لا نظير له فى خلق الله، فاسأله :

ـ وما رأيك فى موقفه من أبوى؟

فيقول لى :

ـ علاقة الأب بابنه علاقة غامضة على الرغم من وضوحها السطحى، أحيانا يتدفق منها الحنان وأحيانا تتجمد بالقسوة، عرجى هذا الذى تراه ما هو إلا عاهة صنعها أبى فى ساعة غضب، أما أخلاق الرجل الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين . .

وطبعا لم أقتنع بتلك النظرية وقلت :

ـ إن أخلاق الرجل ـ أى رجل ـ وحدة لا تتجزأ .

على أن تلك الساعات السوداوية كانت تجىء كأحوال عابرة لا آراء ثابتة، وسرعان ما يعود إلى صفاء النفس والرؤية الواضحة، أما أزمة تلك الفترة الحقيقية فكانت أزمة جنس، أزمة المراهق المتشوف إلى القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القوية، وعاودتنى

كثيرا ذكريات السحارة والبنت التى باتت الآن مجهولة تماما ، وتعجبت كثيرا كيف أن جدى يناقشنى فى كل خاطرة تخطر ، على أنه يتجاهل المعركة الحقيقية الناشبة فى صدرى ، وكان فى بيتنا ثلاث نساء . بالإضافة إلى بهجة العجوز ـ فى الحلقة الخامسة من أعمارهن ، لسن جميلات ولا مغريات ، ولكنهن لا يخلين من رمق يزكيهن عند مراهق مكبوت ، وكنت أرى النساء فى الشارع فى ثيابهن المحتشمة غاية فى الإثارة ، وكان النضال بين ضميرى وغريزتى لا يكف ولا يهدأ ، غير أننى تغلبت على الإغراء بقوة تستحق الإعجاب ، وكأن تشوفى لله فاق كل شىء وهزم الشيطان فى معاقله جميعا .

أجل ، لاحظت بهجة نظراتى نحو زميلاتها فجزعت وتوسلت بمنزلة الأمومة التى احتلتها من نفسى لتصارحنى بمخاوفها :

ـ لا تعرّض نفسك للهوان ، جدك يعتبر جميع ما فى البيت امتدادا لشخصه ، والمساس بأى منها مساس بذاته المصونة ، وقد نعمت حتى الآن برضاه ووجدته بلا شك نعمة تستحق الحمد عليها ، ولكن لجدك جانبا آخر يسكنه الغضب فتجنبه وأنت خير من يفهم ذلك .

فتمتمت بذهول :

ـ أبى !

ـ أجل ، وأنت مؤمن ، وصلواتك عبادة حقيقية ، لم لا تفكر فى الزواج وجدك كفيل بتزويجك من فتاة تحقق أحلامك وزيادة ؟ !

فقلت بدهشة :

ـ لم أفكر بذلك وأعتقد أن الوقت المناسب لم يحن بعد كما أننى أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من الخطيئة !

ـ أنا لا أفهم أفكارك ، ولكن إذا أردت مساعدة فإنى رهن إشارتك .

وقد علم محمد شكرون بذلك الحديث ، وكان على علم بأزمتى ونضالى ، وكان يعجب لها ، وطالما قال لى :

ـ تعال معى إلى بيوت العوالم فثمة فرص فريدة ، وما عليك إلا أن تغير ملابسك الدينية فى بيتى . .

ضحكت طويلا ، ورفضت أى فرصة ممنوحة بكبرياء واعتزاز بالنفس ، وأسعدنى أن أتألم فى ذلك الطريق وأن أنتصر على ألمى ، وكنت أقول لنفسى :

ـ طوبى لى ، إنى أنتصر كل يوم مرة على الأقل على الشيطان ، وإنى جدير حقّا بمستقبلى الطاهر . .

وفكرت فى أمور جديدة لأول مرة ، فسألت بهجة :

ـ متى ماتت جدتى؟

فترحمت عليها قائلة:

ـ منذ حوالى عشرين عاما.

ـ أكان لمأساة أبى دخل فى ذلك؟

ـ الأعمار بيد الله وحده.

ـ ولم لَمْ يتزوج جدى بعدها؟

ـ هذا شأنه.

وتساءلت: ترى هل كان لجدى حياته الجنسية الخاصة؟ وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسى: إنه سيقرأ خواطرى فى عينى كالعادة وسرعان ما تقع مأساة جديدة، وقلت لنفسى أيضا: إن جانبا من نفسى يتعقب جدى بالانتقام وإن حبى له ليس خالصا تماما، وإننى لا أريد أن أنسى تماما مأساة والدى، وآى ذلك أننى ما زلت ألح على بهجة حتى اعترفت لى بأن أمى كانت ابنة دلاّلة تتردد على بيتنا، وسألتها: إن كان عُرف عنها أو عنهما شىء من سوء، فأجابت بالنفى وقالت لى صراحة:

ـ جدك لا يعترف بالناس المجهولين!

فقلت بامتعاض واحتجاج:

ـ ولكن الناس جميعا إلا ما ندر مجهولون..

إلا أنه يحلم بعالم من البشر الإلهيين على حد تعبيره، أفلم يفطن إلى قسوة حلمه؟

وقررت أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كل عام، ومضت الحياة فى جد واجتهاد وطهارة، وكان جدى يتابعنى باهتمام وارتياح مغمغما:

ـ ما شاء الله العظيم!

٥

كنت أسير بصحبة محمد شكرون فى أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحينا جانبا لنوسع للقافلة، رأيت المرأتين، وهما أم وابنة غالبا، صورة واحدة متكررة، ترتدى جلبابا أسود، متمنطقة بزنار، حافية القدمين، و متلفعة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطل من فوق حافته العينان، وباليد مغزل.

* * *

وانقطع عن الكلام مليا حتى سألته :

ـ ماذا حدث يا جعفر؟

فالتفت نحوى قائلا :

ـ إنى أتساءل أيضا عما حدث . .

ـ ماذا تعنى؟

ـ بكل إيجاز لقد نظرت إلى عينى الفتاة فاقتحمنى الجنون الكامل . . ، ولكن لندع مناقشة ذلك إلى حينه ، سأصف لك الآن ما وقع ، لقد شعرت بأننى مت وبأن شخصا جديدا يبعث فى مكانى ، وسوف تصدق أنه شخص جديد بكل معنى الكلمة ، لا علاقة له بالشخص الميت ، شخص جديد ثمل ، يفيض قلبه بالأشواق والقدرة الخارقة على التحدى والالتحام ، وسمعت محمد شكرون يقول لى :

ـ متى تواصل السير؟

وراقبنى بحدة ، ثم تمتم باسما :

ـ إنها راعية غنم!

فقلت وأنا ألهث :

ـ بل إنه القدر . .

ـ فيم تفكر؟

ـ لا بد من معرفة مقرها . .

ـ حسن ، ولكن لا تنس العمامة فوق رأسك!

قوة أخرى غير إرادتى تسلمت زمامى ، سرنا وراء القافلة ، اخترقنا النحاسين فالحسينية ، ثم رأيت العباسية فالوايلية ، لم أشعر بتعب ، لم أرحم عرج صاحبى ، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجرت فى قلبى ينابيع المغامرة بلا حدود ، وتتابعت أقوال محمد شكرون وشكاياته :

ـ سامحك الله . .

ـ ماذا حل بك؟

ـ البنت منتبهة إلى متابعتك لها . .

ـ إنهم غجر وأفظع من الشياطين . .

ـ قل لى بالله ماذا تريد على وجه الدقة؟

أخيرا رأينا القافلة وهى تدخل معسكر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلص من ساحتها الرهيبة لينطوى فى شفق المغيب ، مودعا أكواخها المصفحة وأناسها المتوحشين

وطابع البداوة والنفى الذى يفصل بينهم وبين المدينة، وتوقف محمد شكرون ممسكا بذراعى وهو يقول :

ـ لا خطوة بعد ذلك فليس ثمة مكان لغريب . .

وتأوه مستطردا :

ـ لقد دميت أقدامنا . .

فقلت من عالمى الوجدانى البعيد :

ـ لقد ودعتنى بنظرة حية قبل اختفائها . .

ـ مبارك عليك . .

ثم توسل إلىّ قائلا :

ـ لنستقل سوارس فى عودتنا .

ولم يفارقنى شكرون ليلتها فسهر معى حتى منتصف الليل فى البيت، وجعل يتأملنى طويلا وكأنه لا يصدق، وسألنى :

ـ ماذا دهاك؟

فقلت له بأسى :

ـ ما تراه بعينيك .

ـ لا أفهم . .

ـ ليكن، إنى مجنون بالبنت . .

ـ أيحدث ذلك بهذه السرعة؟

ـ لقد حدث .

ـ ولكنها راعية ومن بيئة شريرة .

ـ إنه القضاء لا مفر .

ومضى يفكر قائلا :

ـ كيف يمكن إغراؤها؟ هل لهن استعداد لذلك؟ كيف نعمل مع تجنب الفضائح؟ وما العمل إذا تحدانا المستحيل؟

فقلت بإصرار لا نهائى :

ـ بأى حال من الأحوال أريدها . .

وجعلت أمضى الأصيل عند مشارف الدراسة، مع صديقى أو مع نفسى، جالسا على حجر، من حولى ترعى الشاة والماعز والجدى، على حجرى كتاب المنطق مفتوحا،

وعيناى تسترقان النظر إليها وهى جالسة لصق أمها وهما تغزلان، وكان المكان شبه خال لا يمر به إلا المتشردون وهم راجعون إلى المقطم، وعندما تميل الشمس نحو المغيب تمضى القافلة فى رحلتها اليومية مخلفة فى قلبى كآبة وفراغا لا يملؤه شىء فأذهب إلى الجامع لأصلى المغرب ثم أحضر درس المنطق.

وقررت أن أخفى كوبا فى جيب قفطانى.

وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأم وقدمت الكوب طالبا حليبا فوثبت مروانة ـ كما سمعت أمها تناديها ـ إلى ماعز وراحت تحلب لى اللبن ثم ردت إلىّ الكوب مغطى بالحباب فتناولته وأنا أقول لها:

ـ عاشت يداك يا مروانة..

فابتسمت لى عيناها على حين نظرت الأم نحوى بارتياب وأنا أشرب اللبن، ثم تمتمت:

ـ هنيئا!

فشكرتها، فقالت لى بلهجة ذات معنى:

ـ أنتم يا شيوخ رجال ربنا.

فقلت بامتنان:

ـ الحمد الله.

سعدت بإنشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتنى غبطة سابغة حتى لحظة الفراق.

ومن موقع المراقبة قال لى محمد شكرون:

ـ لقد تحريت بما فيه الكفاية، وأقول لك إن أولئك الناس مع كل شر إلا الشر الذى يسيل لعابك عليه..

فقلت له باستهانة:

ـ سيخرج من القمم مارد لن تعرفه مهما ادعيت بأنك كنت له صديقا.

ولم يقدِّر ما فى قولى من ثورة، لم يعرف أننى أصبحت ملك الملوك، وأننى أفعل ما أشاء بغير حساب، وأننى سكران بفورة الجنون الأحمر.

وربط كوب اللبن بيننا برباط حريرى قاتل، ومن شدة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب، وقلت لها:

ـ أنت كريمة يا مروانة!

فحبكت الخمار حول رأسها وهى ترمقنى بشيطنة، فقلت وأنا أذوب فى كلامى:

ـ ما أجمل عينيك!

وقلت أيضا وهى تمضى :

ـ ما أجىء هنا إلا من أجلك !

وكفت الأم عن الغزل وقامت . تناولت حصاة من الأرض ورمتها بعيدا صوب الجبل . ورأتنى أنظر إليها متسائلا ، فقالت :

ـ وسيلة حكيمة لصد الزواحف والحشرات . .

فقلت بارتياب :

ـ الله خير حافظًا . .

فقالت بحزم :

ـ ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته . .

* * *

وضحك وقال لى :

ـ صدقنى فيما أقول ، كله ، وبلا تردد ، لا تتأثر بمنظرى الراهن ، إن من يرانى يؤمن بأننى ولدت فى مزبلة ولم أمارس إلا انفعالات القىء ، ولكن ما فكرتك عن الحب؟

فقلت مباغتا بصعوبة السؤال :

ـ الحب هو الحب ، إنى أصدق جميع ما يقال عنه . .

ـ وتؤمن بأنه يصنع المعجزات والعجائب؟

ـ أجل ، لست غرا ، ولكن حدثنى عن حبك يا جعفر ، عن نوعه ، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم . .

ـ كان كذلك ، نداء للدم ، نداء صارخ دافع للحركة ، مغر بالجنون والمهالك ، يقتحم الأبواب والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر . .

فقلت بدهشة :

ـ ولكنك كنت وليا من أولياء الله الصالحين .

ـ لكى تعيش تجربتى تصور أنك فقدت الذاكرة فجأة ، وأنك أصبحت شخصا جديدا .

ـ ولكن الفرد يتغير بالتدريج فيما أتصور .

ـ كلا . . . كلا . . . إنى أتغير من النقيض إلى النقيض . . فجأة . . !

ـ لا شك فى أنه يحدث فى الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك .

ـ الإنسان يخلق المنطق ، ولكنه يتجاوزه فى حياته ، والطبيعة يا عزيزى تستعمل الطفرة كما تستعمل التطور !

ـ هات ما عندك يا جعفر .

فواصل قائلا :

ـ وذات يوم دعانى جدى إلى مجلسه ، سمح لى بالجلوس ثم سألنى :

ـ كيف حال دراستك؟

أدركت لتوى أنه دعانى لأمر آخر إذ إن شيوخى كانوا يبلغونه عن تقدمى الفريد أول فأول ، وعلى ذلك أجبت بأننى عند حسن ظنه ، فقال :

ـ ولكن الطريق طويل وهو ملىء بالمتاعب . .

فقلت بحماس ظاهرى فحسب :

ـ المؤمن لا يخشى الطريق . .

ـ قول حسن ، ولكن الفعل الحسن أهم من القول الحسن .

ـ هذا حق .

وتريث لحظات ، ثم قال :

ـ ثمة أمور تدعو للتأمل ، وقد حلمت حلما ، وعند اليقظة عقدت العزم على شىء . .

ـ وما الحلم يا جدى؟

ـ لا أهمية لذلك ، والأحلام تُنسى بسرعة ، ولكن بقى ما عقدت العزم عليه .

ـ أهو يتعلق بى يا جدى؟

ـ أجل ، وسوف يسعدك . .

ـ حقّا؟!

ـ قررت أن أزوجك من بنت الحلال .

ذهلت ، صمت ، قلت لنفسى : إن الرجل عالم بكل شىء ، كيف غاب عنى أن جولة مسائية غريبة يقوم بها حفيد الراوى لاشك فى أنها تلفت الأنظار إليه وتثير التأويلات ثم يتطوع بإبلاغها إليه المتطوعون ، إنه عالم بكل شىء ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

ـ ماذا بك يا بنى؟

ـ لم يخطر لى ذلك ببال .

ـ فليخطر إذن . .

ـ ولكن . .

ـ إن الشباب يمضى بلا زواج لأسباب قهرية وقد حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجل ما يعتبر نصف الدين؟

ـ دعنى أفكر فى الموضوع بعض الوقت!

ـ سأختار لك عروسا فريدة وسأترك الحكم لك!

رجعت إلى حجرتى هائجا فلم يغمض لى جفن حتى ترامى إلىّ أذان الفجر، شحنت بقوة جبارة وأردت أن أنهال على الجدران فأدكها دكا، انطلق المارد متحديا، صمم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحى كله لا القصر وحده؛ وناجيت أبى وأمى طويلا، وثار غضبى على جدى بلا حساب، إنه لا يريد أن يكفر عن جريرته وما زال غرامه عنيفا بالتسلط والقهر، وفى حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بينى وبين جدى، فى حلم أو فى هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر.

ـ جدى.. إنى أرفض.

ـ ترفض نعمتى؟

ـ أرفض القهر.

ـ ولو كان منى؟

ـ ولو كان!

ـ أنت عاق، تخون الجمال والنقاء، فى سبيل ماذا؟

ـ الحرية!

ـ راعية الغنم.

ـ الدم والتشرد والهواء النقى.

ـ إنه الجنون الذى يخرج به الممسوسون من بيتى العتيق.

ـ النعيم الحق فى الجنون.

ـ إنك ابن والديك.

ـ وإنى أعتز بذلك إلى الأبد.

ـ نصفك يود الانتقام منى.

ـ لا أريد أن أفكر فدعنى أفعل.

ـ والجبة والقفطان؟

ـ سأخلعهما من توى.

ـ إذن كفرت؟

ـ لا أريد الدين مهنة.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ أريد أن أمارس الحب والجنون والقتل!

أعتقد أننى عبّرت بهذا الحوار عن الحال التى كنت أعانيها تعبيرا كاملا، وعندما أفضيت بأسرارى إلى محمد شكرون ذهل تماما ولم يصدق أذنيه، ولما وجد منى الجد كل الجد سألنى:

ـ هل ترفض حقّا ما عرضه جدك عليك من أجل مروانة؟

فأجبت بالإيجاب:

ـ أتترك البيت من أجل راعية الغنم؟

ـ نعم.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ اعتبرنى مجنونا إذا شئت.

ـ ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذا؟

ـ هذا محتمل.

ـ لا تستحق امرأة تضحية بهذه الجسامة.

فهززت منكبى استهانة، فقال:

ـ أنا لا أفهمك.

ـ المسألة لا تتعلق بالفهم، إنها واقع.

ـ وما تفسيره؟ هل ثمة سر؟

ـ إنه جنون باهر وأنا مسحور به.

ـ صبرك، يمكن التوفيق.

ـ إنى أحتقر التوفيق.

ـ يمكن أن تبقى فى رعاية جدك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبك الجنونى..

ـ كلا.. كلا.. إنها أشياء متنافرة جدّا، وقد اخترت..

ـ اخترت ماذا؟

ـ سأهجر البيت والأزهر..

ـ لا ضرورة لذلك.

ـ بل ضرورى جدّا، إنها حياة جديدة..، وإلا طردت من الاثنين..

ـ عين أصابت هذا الشاب!

ـ لا بقاء فى بيت جدى إلا لإنسان إلهى... أما الأزهر فإننى ما وددت مهنته قط.. والإيمان لا يحتاج إلى جميع تلك التعقيدات..

ـ ليتك كنت تهجر ذلك لشىء أفضل..

ـ المغامرة أفضل . . الجنون أفضل . .

فقال بإصرار :

ـ لن أفهمك ما حييت .

فقلت بسخرية :

ـ رغم حماقاتك يا شكرون فإنك لم تعرف الجنون بعد . .

ـ أيعنى هذا أنك هجرت ماضيك كله بسبب الحب؟

ـ بل إننى بسبب الحب عرفت جنون المغامرة!

سلّم محمد شكرون بالأمر الواقع ، شعرت بأنه يؤمن حقّا بأن المأساة لا تخلو من جنون حقيقى ، واضطر إلى أن يعدنى بالمساعدة بجس نبض مروانة وأمها باعتبار أن العاشق يحتاج إلى سنيد كالمغنى ، وبخاصة بعد أن أكدت له تحرياته أن مثل مروانة قد تقتل ، ولكنها لا ترضى بعلاقة غير شرعية ، ثم قال بامتعاض :

ـ وماذا عن مستقبلك؟ فحتى المغامرون الأحرار مضطرون إلى تناول لقمة؟

وأغرب شىء أننى لم أكن أوليت ذلك ما يستحقه من تفكير جاد ، وقد خطر لى للحظة أن أدرس لغة عربية ودينا فى مدرسة أهلية ، ولكنى سرعان ما نبذت الفكرة جانبا لتنافرها مع جو المغامرة المسحور ، وأحللت فكرة أخرى مكانها ، فقلت :

ـ أكوّن جوقة لإنشاد التواشيح النبوية؟!

ـ سيمر زمن طويل قبل أن تحيى ليلة ثم يظل نجاحك بعد ذلك موضع شك وعناء ، والطريق الطبيعى أن تبدأ فردا فى جوقة وهو ما لا يناسبك بحال! فتفكرت مليا ثم قلت :

ـ أفضل أن أعمل فى تختك أنت . .

ـ تختى؟!

ـ لم لا؟ صوتى أجمل من أى سنيد عندك . .

ـ إنك ولى نعمتى ولكن . . .

ـ لا لكن من فضلك ، ثم إنك تحيى حفلات فى الشهر الواحد لا تقل بحال عن ثلثه ، ونجاحك مطرد . .

وصمت محمد شكرون ، فقلت بحماس :

ـ ولن تفتر همتى فى تكوين الجوقة الدينية الخاصة فى الوقت نفسه .

ـ هذا ضرورى واعتمد على صداقتى لسماسرة الحفلات الدينية ، لا أصدق ما نتفق عليه فإنه يبدو خيالا ، وما زلت مصرا على أنه يمكن معالجة الأمر بصورة أخرى .

فقلت بإصرار :

ـ لا رجوع إلى الوراء ولا خطوة واحدة، وسيكون لى رداءان، البدلة لتختك، والجبة والقفطان للجوقة النبوية، أليس ذلك ممتعا؟!

ونظر نحوى فى سكون الليل وسألنى :

ـ لأى درجة تصدقنى؟

ـ لى من العمر ما يجعلنى أصدق أى شىء.

ـ أريد درجة من التصديق أشد حرارة، كثيرون لم يصدقونى، تألمت لذلك وسعدت به، تألمت لأن العمل الفذ يحتاج إلى شهود، وسعدت لأن إقدامى مما يعز تصديقه، أريد ومن حقى أن أريد أن يعترف بى كإنسان غير عادى، إنسان لا يستطيع أى إنسان أن يهجر النعيم الذى كنت فيه بالبساطة التى هجرته بها . .

ـ بدافع الحب وحده؟

ـ الحب لا يكفى؟! الحب هو الجنون خالقا!

ـ أكانت مروانة على ذلك القدر من الجمال؟

ـ ولكن ما الجمال؟ المسألة نداء يصيب مفتاحا كهربائيا . .

ـ ألم ترغب أيضا فى حرمان جدك من وريثه الوحيد؟

ـ مأساة والدى لم تفارقنى، ولكن انطلاقتى كانت ملائكية لا تلوثها رغبة خفية أو ظاهرة فى الانتقام .

ـ ورد فعل للكبت العنيف الذى فرضته على نفسك بصفتك إنسانا إلهيا؟!

ـ أرفض هذا التفسير أيضا، قلت لك إنها كانت انطلاقة ملائكية، مثل أغنية الفجر، قدح الحب الشرارة فكشف ضوءها عن حلم يتجسد ويثوثب لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحديا الجاه والقيود للتمرغ فى تراب الأم الخالدة، كما هجر بوذا قصره ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس . . ويحدث ذلك فجأة، وليس التطور الذى يملأ دماغك إلا الترسيخ العملى للفجاءة المبدعة، وإليك مثالا حيا حدث هذه اللحظة فجأة، لقد قررت الآن ألا أكتب الالتماس . .

ـ ماذا تعنى؟

ـ الالتماس بتقرير إعانة شهرية لى من وقف جدى!

ـ أهى عودة للتفكير فى قضية عقيمة؟

ـ لا قضية ولا التماس!

ـ ولكن . . !

ـ ولا لكن .

ـ فلنؤجل ذلك إلى حينه ، واستمر الآن فى حكايتك من فضلك .

وقهقه كعادته وقال :

ـ وذات مساء زحف محمد شكرون وهو يعرج ـ وأنا أتبعه ـ نحو العربية العجوز فى مجلسها فنحّت مغزلها وقامت متوجسة ، فقال لها :

ـ صاحبى يرغب فى الزواج من كريمتك على سنة الله ورسوله !

ذهلت المرأة ، هرولت مروانة بعيدا ، وعاد محمد شكرون يقول :

ـ ها نحن أولاء تحت أمرك .

وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت :

ـ لنا قوم نرجع إليهم .

وكان لهم قريب من بعيد غير محدد القرابة فكان علينا أن نقابله .

كان يوما عجيبا .

كنا أول غريبين يشقان سبيلهما فى عشش الترجمان نهارا دون أن يتعرضا للموت . حدقت فينا أعين شريرة باستطلاع ساخر وتحد ، وتوقفت الحركة دقيقة ، حركة تدريب القرود وجز الأغنام ووزن المخدرات وجلاء الأدوات المسروقة ودق الطبول .

وتجمع حولنا نفر من الغلمان وراحوا يحيون الشيخ جعفر هاتفين :

شد العمة شد تحت العمة قرد

ومضينا إلى العجوز الجالس أمام كوخه وأم مروانة واقفة بين يديه . .

وتصافحنا وكان طاعنا فى السن حتى الموت ، فقالت أم مروانة نيابة عنه :

ـ إنه يرحب بكما .

فقال العجوز يخاطبها بعد أن لكمها فى ظهرها :

ـ لأنك أنت توافقين عليك اللعنة . .

فقال محمد شكرون :

ـ صاحبى من أصل كريم .

فبصق العجوز قائلا :

ـ طظ !

فقال محمد شكرون محرجا :

ـ وهو يعمل . .

ولكن العجوز قاطعه :

ـ لا يهمنا العمل أيضا!

ـ أخلاقه . .

فقال :

فقاطعه العجوز :

ـ ولا تهمنا الأخلاق!

فقال شكرون وهو يتحلى بمزيد من الصبر :

ـ بكل إيجاز نريد كريمتكم على سنة الله ورسوله . فضحك العجوز عن فم خال تماما وقال :

ـ مع ألف سلامة . . تكلم عن المهر . .

ـ تكلم أنت ، فأنت كبيرنا .

فانتفخ العجوز قائلا :

ـ عشرة جنيهات فى يدى هذه .

وبسط يده ، فتحركت أم مروانة حركة غامضة فقطب العجوز قائلا :

ـ لنقرأ الفاتحة . .

وانطلقت من حولنا الزغاريد .

لم يعلق محمد شكرون بكلمة احتراما لعواطفى . وقررت من ناحيتى أن أواجه جدى بالحقيقة كما يجدر بشاب بلغ رشده وأتم مرحلة لا بأس بها من تعلمه فاتخذت مجلسى على مقربة من أريكته فى السلاملك وكان يسبح فى همس وقطته الرومية تهر إلى يساره ، وأعتقد أنه نشأ جو من التوقع والتحفز شارك كلانا فيه ، أنا بما أضمر من نوايا وهو بفراسته التى يقرأ بها ما فى الصدور ، وجاءنى سؤاله المألوف :

ـ كيف الحال؟

فأجبت وعقلى شارد :

ـ عال والحمد الله .

فقال بهدوء :

ـ ستعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء رمضان!

صممت على تجربة قوتى الجديدة بلا تردد ، فقلت :

ـ معذرة يا جدى لقد وقع اختيارى على زوجة أخرى .

فلم يبد عليه أى تأثر وتساءل :

ـ حقّا؟

ـ هى إرادة الله على كل حال .

ـ إذن هو حق ما ترامى إلىّ؟

فلم أنبس فعاد يتساءل :

ـ راعية غنم؟!

فأجبت ببساطة :

ـ أجل يا جدى .

قال ولعله تنهد :

ـ إنك راشد وأدرى بمصلحة نفسك .

فسألته باهتمام :

ـ هل أطمع فى نيل رضاك؟

فمضى يسبح فى هدوء ، فسألته :

ـ هل يعنى ذلك أنه علىّ أن أغادر البيت؟

فلم يلتفت نحوى : إلى الأبد .

قمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت .

وكان وداع بهجة أليما ودامعا ، وقد اقترحت أن تطلب لى نقودا ، ولكنى صارحتها بأن لى من المدخرات ما يجاوز مائة الجنيه ، وجعلت تبكى وهى تقول :

ـ الأحزان تبدأ فى هذا البيت مع الزواج .

وهمست فى أذنى :

ـ صدقنى . . جدك تعيس الحظ . . إنه لا ينام من الليل إلا ساعة . .

فقلت لها صادقا :

ـ إنى أحبه وأرفضه!

وغادرت البيت الذى عشت فيه أربعة عشر عاما طاهرة .

وذهبت مع عروسى إلى شقة جديدة بالخرنفش اكتراها لى محمد شكرون وساعدنى على تجهيزها ، مكونة من حجرتين وصالة ، وبدت مروانة فى ثوبها الجديد آية من الجمال والإثارة . ولعلى كنت أرى لونها الطبيعى لأول مرة بعد أن خلقها حمام العرس خلقا جديدا ، لا أقول إنى سعدت بذلك ، وأعترف بأن اللون النحاسى الغامق القديم كان أصبح جزءا لا يتجزأ من الصورة التى زلزلت أركان حياتى ، على أن نداءها ظل مستبدا طاغيا وسيطر علىّ سيطرة كاملة حتى اعتبرت نفسى أسيرا فى يد قوة لا تعرف الرحمة

ولا الهوادة، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من اللهب، ومعتزة بنفسها وبقومها تكاد تسبغ قداسة على التراب الذى منه جاءت كوردة برية، حتى حياؤها الأنثوى كان غشاء شفافا لا ضعفا متأصلا أو رخاوة طبيعية، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأننى حيال أنثى قوية لا عمر لها تتدفق منها الفتنة والسحر والتحدى، وأننى أستسلم فى رحابها كاشفا عن ضعفى بقوة وعنف، وأننى أجرى كمطارد أو مجنون فاقد الوعى والحذر، واشتهر أمرى بين صحبى الجدد فأطلقوا علىّ «الرجل السعيد» و«الرجل الضعيف السعيد» وانهالت علىّ التحذيرات والوصفات معا.

ولم ينسنى شهر العسل عملى الجديد فنشطت له بهمة عالية، ووجدتنى هيابا بعض الشىء وأنا أدس نفسى فى بيئة جديدة وأناس جدهم فى الحياة لهو ولعب، وكانوا يستقبلوننى هاتفين:

ـ أهلا بحفيد الراوى!

وهو نداء له مغزاه، تبعنى كظلى فى كل مكان أختلف إليه، تردد فى الخرنفش، فى تخت محمد شكرون، فى الجوقة التى تم الاتفاق على أن تعمل معى حين الحاجة، وأخذت أحفظ وأتدرب بسرعة استعدادا للتخت والجوقة معا، وفى شهر العسل نفسه اشتركت مع التخت فى إحياء حفل زفاف بالدرب الأحمر، ارتديت البدلة لأول مرة والطربوش حتى صاح محمد شكرون:

ـ تبارك الخلاق فيما خلق!

وارتبكت وأنا أخوض أمواج المدعوين والمتفرجين وكنت أحد اثنين فى التخت لا يستعملان إلا حنجرتهما ويجلسان خاليى اليد من أى آلة، وقدم لى محمد شكرون قدح نبيذ قائلا:

ـ إنه ضرورى جدّا وإلا انحبس صوتك.

فى أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول، ورددت الغناء بقوة وانضباط وكنت الصوت الثانى فى التخت ولا جدال وقد نفخت فى السنيدة روحا جديدة هزت التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدم:

يا ما أنت واحشنى وروحى فيك

ولقينا استحسانا كبيرا، وضمن الاستحسان أصابتنى غمزة من سكران فصاح: «يخلق من ظهر العالم فاسد» وضج المكان بالضحك حتى مال محمد شكرون نحوى وهمس:

ـ اضحك مع الضاحكين.

وقد فكرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلا، الناس يتصورون أننى كنت شيخا طيبا،

ثم فسدت فانقلبت سنيدا فى تخت أغنى وأتعاطى النبيذ والمنزول. كلا. . ليس الأمر كذلك، لقد غيّرت مهنتى هذا كل ما هنالك، استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هى الغناء، أما روحى فقد ارتفعت درجات وقلبى لم يفسد ولم يتزعزع إيمانى، وجدى نفسه هو القائل إن الزبال نفسه يستطيع أن يكون إنسانا إلهيا، ولعلّى كنت محمولا بتيار عواطفى الصاخب فى ذلك الحين فلم أدرك أبعاد تجربتى كما أدركتها فيما بعد أو كما أدركها اليوم، ولكننى على رغم ذلك ثرت على قول السكران واعتدتها دعابة عربيدة وظالمة، على أى حال بدأت عملى الجديد بثقة ونجاح، ولكن كان علىّ أن أنتظر وقتا ليس بالقصير؛ لكى أنشد التواشيح النبوية كصاحب جوقة له وزنه، أما سعادتى فقد غطت على النجاح وعلى كل شىء، سعادتى الزوجية، وكنت بها فخورا، أنوه بأسرارها فى كافة المناسبات، وبفضائل الحياة الزوجية ومزاياها الطيبة، حتى ضُرب بى المثل، وفى غمرة السعادة لم أنظر إلى الحياة فى بيتى الصغير بعين ناقدة ولا حتى محايدة، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما يشبه الوجد الدينى.

حقّا كانت توجد لحظات خائنة حتى فى أيام السعادة الخالصة. .

ولكن ما هى اللحظات الخائنة؟

هى اللحظة التى تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة.

فى تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصا قد ضحك علىّ، قد جرعنى مقلبا. .

وأسأل نفسى عما حدث.

أو أنظر إلى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام منها.

ما معنى ذلك؟

كأننى أمقتها فجأة وبلا مقدمات.

ولكنها لم تكن إلا لحظة عابرة، كتقلص عضلة طارئ، ثم يعود التيار إلى مجراه السعيد المبلل بأنفاس العشق المستعر.

وأعجب لطاقتى فى معاشرة الفوضى، فأنا لا أتذمر على حين مروانة لا تحسن تنظيف الشقة، ولا طهى الطعام، وتمضى حافية نصف عارية منتفشة الشعر، تتحدى الخيال وتناقر الهواء، وتسحبنى من يدى لزيارة أمها وقريبها العجوز فى معسكر الشياطين ليضحك المخرف ويقول لى:

ـ ألم يكن الأفضل أن تعمل إماما لجامع؟

أو يبارك بطن زوجتى قائلا للجنين:

ـ شرفنا وكن قاتلا، فقد ضقنا باللصوص والمهربين!

ويسخر من أصلى الكريم قائلا :

ـ مَنْ جدك الراوى؟ أنا جدك الحقيقى ، واهبك هذه المرأة الجميلة التى تمتص قذائف غرائزك الشريرة . .

فأقول له :

ـ جدى من رجال الله . .

فيقهقه قائلا :

ـ نحن رجال الله حقّا ، الله المنتقم الجبار خالق الجحيم والزلازل ، انظر إلى هؤلاء (مشيرا إلى معسكر المتشردين) إنهم رجال الله ، صورة منه فى جبروته وانتقامه . .

والتقيت فى تلك الأيام بجارة أمى فى بين الصورين ، عرفتها ولم تعرفنى ، اعترضت طريقها وقدمت لها نفسى ، ذهلت ودعت لى طويلا ، وتذكرت أننى لم أكن أعرف اسم أمى كما أن بهجة لم تكن تعرفه ، كنت أناديها «أم» فتجيب حتى أعجزها الموت عن الإجابة ، وسألت الجارة عن اسمها فقالت :

ـ ليرحمها الله . . كان اسمها سكينة!

وشعرت بإغراء فى طرح المزيد من الأسئلة عن أصلها وتاريخها ، ولكننى أخمدته ، وربما احتراما للذكرى ، وشددت على يدها ومضيت فى سبيلى ، هكذا عرفت اسم أمى مصادفة . .

وسوف أنجب من الذكور أربعة ، وسوف تمضى الحياة بعد انطفاء شعلتها ، وسوف تجىء أيام الجفاف والجفاء والوحشية . .

طالما سرنى أن يقال هذا الفتى الذى هجر قصر النعيم ينشد الحب والحرية . .

وطالما استعذبت موقف مروانة المحب من الطقاطيق التى أحفظها لتخت محمد شكرون بقدر ما رحمت موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التى أعدها لجوقتى الخاصة . .

وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبيذ والمنزول وشعرت بأن المعركة تستغرقنى من الفجر حتى الفجر .

وتأوهت قائلا :

ـ أى عبودية؟ !

وجاءت أيام الجفاف والجفاء والوحشية .

ها هى ذى مروانة قوية ، متحدية ، سليطة اللسان ، طويلة اليد كأنما خلقت لتقاتل .

وقلت لها مرة :

ـ للرجل احترامه .

فقالت لى :

ـ وللمرأة احترامها .

ثم قالت بوحشية :

ـ لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان . .

فقلت محزونا :

ـ أهذا جزاء من أعد لك البيت والأثاث؟

فصاحت بى :

ـ إنى أكره رائحة البيوت !

وأوغلنا السير فى أيام الجفاف والجفاء والوحشية . وتابعنى محمد شكرون بأسى، وقال :

ـ إنى أخاف الحب الجنونى وأفضل الاعتدال .

فقلت بحزن لم يدرك مداه :

ـ إنى ضحية الشهوة العمياء .

ـ الحياة الزوجية تمر بحالات مرضية حتمية تحتاج إلى حكمة الأطباء .

فقلت بامتعاض :

ـ لقد دخلت منطقة اليأس !

ذلك أننى وجدت أن الشركة تتحول إلى معركة، مضمرة حينا ومعلنة حينا، وأن مروانة إذا تجردت من رمز الإثارة الجنونية فإنما تتمخض عن لا شىء ألبتة، أو تتمخض عن ذئبة .

وهى إذا غضبت حطمت ما بين يديها، مزقت ملابسى، طوحت بكراسة الأغانى والتواشيح من النافذة، التحمت معى فى عراك، وأصيح بها :

ـ إنك أبغض إلىّ من الموت .

فتصيح بى :

ـ إنك أبغض من القيح .

وقد تمتد فترات البغضاء، وقد تتسلل إليها الهدنة بفضل الأولاد غالبا، وعند ذاك قد تشتعل انفعالات الرغبة من جديد، اشتعالات خاطفة، تعيد ذكرى الأحلام من بعيد، أجل من بعيد .

* * *

وسألته باهتمام:

ـ ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجية ؟

ـ ألم أوضح ذلك فى سياق الحكاية؟

ـ كلا فيما أعتقد، ما زلت فى حاجة إلى تحديد أسباب واضحة. .

ـ إن الذى ربطنى بها حال جنونية، فلما زالت وجدتنى مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبررا لبقائها معى، ولا شك فى أن سلوكى العام نم عن مشاعرى الدفينة فأثارها من ناحية أخرى.

فقلت:

ـ تزول حال الجنون ولكن يبقى الأولاد. .

ـ الأولاد أطالوا عمر زواجى، ولكنهم لم يؤمنوه ضد الخواء، مروانة مجرد إثارة، ليست امرأة، لا هى ربة بيت، ولا هى أم، ولا هى سيدة بالمعنى، وصفاتها الجوهرية خليقة بأن تخلق منها رجلا، بل قاطع طريق. .

ـ وهى ألم تحبك؟

ـ لا أظن، ربما فورة جنونية عابرة، أو مغامرة استطلاعية. لم أكن أمثل الرجل الذى يمكن أن تحلم به، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن يموت بمجرد أن تتحول المغامرة إلى روتين. . ، أظن الأمر واضحا؟

ـ أجل، شكرا. .

ـ وكان لى أحلامى الخفية، كنت أحلم بالهروب من الواقع، من البيت، أحلم بالتوحد فحتى أولادى كانوا يختفون من رؤيا الحلم، ولكن إلى أين؟ وكان عملى لا يترك لى مجالا للنظر إلى فوق، فأوساط المنشدين لا قمة لهم يتطلعون إليها، إلى ذلك فالله لم يهبنى القناعة والرضا بالمقسوم.

والأهم من ذلك أننى لم أكن أحلم وحدى، أجل، كانت مروانة تحلم أيضا، وتمسكت بالغضب عقب مشاجرة، وسدت الأبواب فى وجه الصلح، وتحدتنى بنظرة باردة وهى تقول:

ـ يجب أن نعيد النظر فى حياتنا. .

ولمست فى نبرتها تصميما حيا فانقبض صدرى وتمتمت:

ـ حياتنا؟

ـ أقول لك صراحة إنه من الظلم أن نكلف هذا البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك.

فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة بإشفاق وقلت:

ـ كل الأزواج يفعلون ذلك .

فقالت بهدوء مخيف :

ـ ولكنى أريد أن أذهب . .

فسألتها ببلاهة :

ـ إلى أين؟

ـ إلى أهلى!

تماسكت رغم حنقى وتساءلت :

ـ ألا تعجبك الحياة فى هذا البيت؟

فأجابت بقوة :

ـ كلا ، أنت تتوهم أنك صاحب فضل ، هذا هو نقصك!

ـ أظننى ضحيت بالكثير .

ـ إنى أولى الضحايا!

ـ اسمعى . .

ولكنى أمسكت تجنبا للشجار ، فصاحت :

ـ لقد كرهت هذه الحياة حتى الموت!

فنفخت قائلا :

ـ الأولاد . . الأولاد . .

ـ من حقى أن آخذهم معى .

ـ لكى ينشئوا فى عشش الترجمان؟

ـ لكى ينشئوا رجالا!

ـ إنك لمجنونة!

ـ أنت المجنون وأقسم على ذلك ، لا عاقل يعيش من حنجرته كالنساء!

ـ لا أمل يرجى من مناقشتك .

ـ دعنى أذهب .

ـ ولكن عليك أن تتركى لى الأولاد .

ـ ماذا تفعل بهم؟ إنك تستيقظ من نومك قبيل العصر ، ولا ترجع إلى بيتك إلا مع الفجر أو بعده ، وعلى حال لا يعلم بها إلا الله ، فكيف يعيشون؟ هل تعنى حقّا ما تقول؟

فشعرت بالقهر وقلت :

ـ لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم . .

ـ إنى أرفض ذلك . .

ولم ينته الحوار بحسم الموضوع .

فكّرت فى الأولاد طويلا ، أيقنت أنه لا حياة لهم معى ، وأن علىّ أن أتحلى بالصبر من أجلهم مهما كلفنى ذلك ، غير أن مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصة فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليا لا يتردد فيه نفس ، وذهبت من توى إلى عشش الترجمان فبلغتها مع الصباح الباكر .

وجاءتنى أم مروانة بوجه متجهم وقالت لى :

ـ اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرة !

قلت لها :

ـ الأولاد .

قالت بازدراء :

ـ إنهم أولادنا .

وجاء العجوز فى ثلة من الرجال المفترسين وقال :

ـ أنت رجل خائب فارجع إلى بيتك .

وهمهم الرجال بألفاظ مبهمة فلم يغب عنى الخطر المحدق بى . وعاد العجوز يقول :

ـ طلق ، أعطها حقها كاملا ، وإذا كان الشرع يعطيك حقوقا الآن أو مستقبلا فإنى أنصحك بأن تتنازل عنها صونا لحياتك ، ارجع قبل أن تطلع الشمس على وجهك فقد أقدم على شر كبير إذا رأيتك فى ضوء الشمس .

وذهبت من توى لأطلق . .

وأجلت التفكير فى المشكلة لحين بلوغ البكرى السن التى أستحقه فيها ، تأجيل أو هروب إذا شئت ، كنت على يقين من أننى لن أطالب بأولادى بجدية حقة ، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوما يتخرج فى معسكرهم عتاة مجرمى القاهرة ، ومعناه من ناحية أخرى أن أعيدهم إلى حياة لا أمل لأى قدر من الرعاية فيها ، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوى قد كُتب عليهم الضياع حيثما كانوا ، ولن تكتب لهم النجاة إلا إذا كتبت للمجتمع كله وبصورة حاسمة ، هكذا ذهبت مروانة طاوية معها قصة الحب والجنون والخيبة ، وقصة الجفاف والبغض ، لم يبق منها إلا ذكرى الشهوة المذهلة ، والقوة المتحدية ،

والعجرفة الصلبة، وهى مثل العاصفة مخيفة وضارة ومثيرة للإعجاب. وبضياع الأولاد تسلل الأسى إلى أعماق نفسى ليقيم فى حجرة الأحزان ملتحما بذكريات أمى وأبى.

ولم يكن ممكنا أن أواصل الحياة بهوادة كأن لم يقع شىء.

وكان محمد شكرون يتابعنى بحذر وإشفاق، فسألنى ذات يوم:

ـ حتى متى تمضى فى ترديد الأغانى وتعاطى النبيذ والمنزول؟

مع وجود مروانة والأولاد كان ثمة حياة متكاملة أيّا تكون، أما الآن فالسؤال يبدو معقولا، وقلت له وأنا لا أعنى ما أقول:

ـ حتى الموت!

فقال جادا غاية الجد:

ـ آن لك أن ترجع إلى جدك..

قلت:

ـ لقد انتهى الشيخ جعفر الراوى..

ـ يمكن أن يبدأ من جديد، علينا أن نحاول.

ـ إنى أرفض المحاولة.

ـ عن كبرياء؟

ـ بل عن تسليم بالواقع الحى.

ـ أى واقع يا رجل؟

ـ إنه لا يرضينى، ولكنى رفضت المهنة الدينية رفضا لا رجوع فيه، الحياة التى رسمها جدى لى مرفوضة تماما، وهو لن يقبلنى ـ إذا قبلنى ـ إلا بشرط الرجوع إليها..

ـ لعله يمنحك حريتك الشخصية؟

ـ كلا، إنك لا تعرفه كما أعرفه، وإنى أرفض أن أعرض نفسى لتجربة ذليلة.

فقال بإخلاص لا يداخلنى فيه شك:

ـ إنك صديق عزيز ومن واجبى أن أصارحك بأنك تمارس حياة لا تليق بك، فلا أنت مطرب ولا أنت ملحن، ويجب أن تفكر فى مستقبلك بجدية أكثر..

ـ هذا ممكن بعيدا عن جدى!

ـ أراك غير سعيد الآن..

ـ ربما، ولكننى قمت بمغامرة جنونية سأظل فخوراً بها ما حييت، وإنى فخور أيضا بأننى أتكيف مع أى مستوى للحياة دون تذمر أو ضعف، تجدنى طافحا بالبشر والقوة سواء عشت حياة الأعيان أو حياة الصعاليك، وهأنذا أتمسك بالصعلكة

وأرفض محاولة الرجوع إلى حياة القصر، أرفض أن أكون شيخا محترما وزوجا نبيلا وممارسا للطقوس والتقاليد الرفعية؛ لا لأننى أختار ذلك بإرادتى الحرة، ولكن احتراما لرؤيا جدى وطمعا فى تركته . .

ـ وماذا عن مستقبلك؟

ـ سأفكر جديا فى دراسة الموسيقى والتلحين عند الشيخ طاهر البندقى إذ لا يمكن أن تمضى الحياة بلا طموح . .

كانت مروانة رمزا للحياة الماضية، كما كانت العذر الثابت لتقبل حياة عادية بلا طموح، فلما ذهبت وجدت نفسى عاريا.

وكان علىّ أن أعيد النظر فى حياتى.

وفى تلك الفترة القلقة من الحياة عرفت هدى صديق . .

٦

كان محمد شكرون يحيى حفلا فى حديقة لبتون، وفى الاستراحة دعى مع أفراد تخته إلى مقابلة هدى هانم صديق فى بنوارها، وكانت تنتظرنا وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيدة شديدة السمرة بدا من تأدبها أنها وصيفة.

راعنى أول ما راعنى بهاء منظرها، وأناقتها المحتشمة، واعتزازها بنفسها الذى لا يجاوز حدود الأدب، وهالة من الجاذبية الرصينة، أما جمالها الأنثوى فيتركز فى عينيها السوداوين واستدارة وجهها، وكانت على وجه اليقين فى الحلقة الرابعة.

ترك منظرها فى نفسى أجمل الأثر، ووقفت بين الزملاء الكهول مزهوا ببدلة جديدة وبصحة وشباب وقامة فارعة.

دعتنا للجلوس وأمرت لنا بالمرطبات، وقالت موجهة الخطاب لمحمد شكرون:

ـ صوتك عذب وتختك ممتاز، إنى من أسرة تعشق الأصوات الجميلة.

فلهج محمد شكرون بالشكر ونوه بذكرى المغفور له والدها الذى يحتفظ له أهل الفن بأجمل الذكريات. قال:

ـ طالما سمعت أستاذى الشيخ طاهر البندقى يقول عن قصره إنه كان معقل الموسيقى الشرقية.

فابتسمت الهانم فى رضا ، والتقت عينانا أكثر من مرة ، فقال محمد شكرون مشيرا إلىّ فى مباهاة :

ـ زميلى جعفر حفيد سيد الراوى .

فتساءلت باهتمام :

ـ حقّا ؟ !

ـ إنه يهيم معنا حبا فى الفن . .

ـ جميل ، ولكن هل يرضى الراوى الكبير عن ذلك ؟

فأجبت :

ـ ندر أن يرضى جد عن حفيد !

ونظرت السيدة نحو محمد شكرون قائلة :

ـ سوف نتقابل عما قريب .

انصرفنا سعداء ، وفسر لى محمد شكرون قولها قائلا :

ـ هذا يعنى أننا سندعى قريبا لإحياء حفل فى بيتها . .

وقال لى باهتمام :

ـ إنها من آل صديق ، كريمة الرجل العظيم ، أرملة واسعة الثراء والثقافة . .

وصمت قليلا ليزن كلامه ، ثم قال :

ـ أعتقد أنها مالت إليك . .

انبعث فى نفسى طرب ، وسألته :

ـ ألك خبرة بتأويل نظرات النساء ؟

ـ أجل . لمحتها أكثر من مرة فى أثناء الغناء وهى تنظر نحوك حتى قبل أن تعرف نسبك . .

ـ ليصدق حدسك يا صديقى . .

فقال محذرا :

ـ ولكنها سيدة محترمة .

فقلت محتجا :

ـ يا للأسف !

وفكرت فيها مليا ، إنها شيء نفيس بلا شك ، ولا يقلل من قيمتها أنها تكبرنى على الأقل بعشر سنوات ، بل زادها ذلك ملاحة فى نظرى . أما الجنون الذى اجتاحنى ذات يوم فيبدو أنه لا يتكرر .

وقال لى محمد شكرون :

ـ يا لها من فرصة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ امرأة ممتازة كالقشدة . .

ـ هبنى لم أحبها؟

ـ أهذا ممكن؟ ألم تشم رائحتها المسكرة؟

فضحكت عاليا ، وكان محمد شكرون قد أحب راقصة وتزوج منها ووفق فى حياته الزوجية غاية التوفيق .

* * *

وذهبنا إلى بيت آل صديق بالحلمية احتفالا بختان طفل ، ذكرنى السلاملك والحديقة بقصر جدى ، ولكن الحديقة كانت أصغر كما أن سور البيت كان قصيرا لا يحجبه عن العالمين ، وأقيم لنا سرادق مكشوف فى الحديقة التى عبقت بشذا زهر البرتقال مما يدل على أن الوقت كان ربيعا .

وغنى محمد شكرون بانبساط حقيقى ورددنا الغناء بحماس غير عادى ، وارتفع صوتى وأنا أردد :

كان قلبى عليك عليك قلبى

وعقب الوصلة الثانية اندلع النبيذ فى رأسى وتسلطن المنزول فجلست تحت شجرة برتقال فى إعياء . .

وجاءت هدى هانم صديق تتفقد أحوالنا وتجاملنا فقمت لها وأنا أكاد أترنح ، فتمتمت :

ـ أنت فى حال!

فقلت ممتنا :

ـ هذا ما يفعله بى السرور .

وأمرت لى بقدح ليمون بالصودا ، ثم قالت :

ـ تعجبنى روح المغامرة!

فأدركت أنها تشير إلى صعلكتى فى تخت محمد شكرون فقلت :

ـ إنى أقرر مصيرى بإرادتى الحرة .

فابتسمت قائلة :

ـ المغامرة الحقة فى رأس الإنسان!

ـ ماذا تعنين يا سيدتى؟

فتجاهلت السؤال وقالت :

ـ ترامت إلىّ أنباء مثيرة عن خلافك مع جدك .

فقلت باستسلام :

ـ ها هى ذى شهرة ضلالى تذيع بين الصفوة .

فابتسمت ابتسامة جذابة وذهبت .

وشعرت بأن باب حياة جديدة ينفتح لى رويدا .

وعقب السهرة مضى بى محمد شكرون إلى مقهى باب الخلق ، قال لى بجدية :

ـ علينا أن نتدبر أمرنا .

فتساءلت متخابثا :

ـ أى أمر أيها البلبل؟

ـ لا تتغابَ ، عرفت من وصيفتها أنهم عرفوا عنك كل شىء . .

ـ كل شىء؟!

ـ السؤال له مغزاه الكبير .

ـ والجواب له عواقبه الوخيمة!

ـ على رغم كل شىء . .

وحدق فىّ باهتمام ، ثم واصل :

ـ على رغم كل شىء فأنت مدعو إلى لقاء فى حديقة لبتون ، إنى مكلف بإبلاغك . .

فذهلت وتمتمت :

ـ هذا يفوق تصورى!

ـ ولكنه الواقع دون زيادة .

ـ أجل .

ـ علينا أن نتفق على خطة .

ـ ولكنك لم تسألنى عن عواطفى؟

ـ لا أظنها عدائية!

ـ طبعا .

ـ يكفى هذا ، وفى اعتقادى أن الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم .

ـ لا تبالغ .

ـ خبرنى ألا يسعدك أن تتزوج بها؟

ـ أنت تتخيل أنها تفكر فى الزواج؟

ـ إنها ترفض العلاقات غير المشروعة . .

ـ تتزوج بصعلوك؟!

ـ إنى أعرف قصة أمير هجر قصره ليتزوج بصعلوكة.

فضحكت، فسألنى:

ـ ماذا عن قلبك؟

ـ إنى معجب بها، بشخصيتها وجمالها، لا شك فى أن الارتباط بها يسعدنى.

ـ هذا هو الحب، أو هو نوع من الحب، أو هو استعداد طيب للحب.

ـ ليكن.

ـ إذن فعليك أن تبدى احتراما لكرامتها . .

ـ مزيدا من الشرح من فضلك.

ـ لقد بدأت هى خطوات ثابتة، وها هى ذى تدعوك للقاء، فهل تذهب لتنتظر كالبنت أن تفاتحك هى بحبها؟ كلا . . يجب أن تكون أنت البادئ، احتراما لكرامتها كما قلت . .

ـ أترى ذلك؟

ـ المسألة ذوق أولا وأخيرا، لا تنس التضحيات المتوقعة من ناحيتها، حقّا إنها سيدة نفسها، وأغنى الأسرة، ولكن حتما ستتمزق أواصر قربى وعلاقات أسرية بسبب الزواج، لا شك فى ذلك . . وإنها لشجاعة لأنها ستصمد فى وجه ذلك كله . .

ـ لولا أننى مررت بتجربة مشابهة لما صدقت الواقع . .

ـ بلى، ولكنك مررت بنفس التجربة، ولا تنس أنها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوى، والزوج السابق لمروانة وأبو أربعة أبناء بعشش الترجمان، إنه المستحيل عندما يصير ممكنا . .

وفكرت فى الأمر من شتى جوانبه بعد أن وجدت من عقلى وقلبى اقتناعا به، فقلت:

ـ إذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسى مضطرا إلى التخلى عن العمل فى التخت؟

ـ هذا واجب لا شك فيه.

ـ ولكنى كيف أرضى بألا يكون لى عمل إلا زوج الهانم؟!

فقال بثقة:

ـ سيكون لك عمل، لا أدرى الآن ماذا يكون؟ ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج إلى رأس المال والمجهود البشرى. وأنت تملك هذا المجهود؟

ثم وكأنه يشجعنى:

ـ هاك مغامرة جديدة أيها المغامر الأعظم.

فقلت بفتور:

ـ المغامرة الحقة استجابة لنداء مجنون، أما هذه الخطوة فتتحقق فى رحاب الروية وتحسب بالتفكير والمنطق أنتقل بها من حال إلى حال.

ـ إلى حال أفضل!

ليكن، إنى أجرى كالعادة وراء الجديد المثير، معى قدرتى العجيبة على التكيف والاستهانة بالصعاب، ألست أعيش وكأننى نسيت أبنائى الأربعة رغم أن جرح القلب لا يريد أن يندمل؟!

* * *

وذهبت إلى لقاء هدى فى الموعد المضروب بحديقة لبتون.

أقبلت عليها بشجاعة وثبات وثقة بالنفس فذابت الفوارق وتم لقاء بين رجل وامرأة.

جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست «أم حسين» الوصيفة غير قريب، ورغم عظمتها الذاتية اعتراها شىء من الارتياب فقالت:

ـ أرجو ألا أكون أزعجتك بدعوتى؟

فقلت بثقة:

ـ كونى على يقين من أنها جاءت محققة لأحلامى.

فتساءلت برقة أنثوية:

ـ حقًّا؟

ـ كنت أتمناها ولا أدرى كيف أحققها.

ـ حقًّا؟ . . ولكن . . ولكن لماذا؟

ـ هذا حديث يطول، ولكن يحسن بى أن أقنع بالاستماع . .

فقالت بلهفة:

ـ لا أهمية لذلك، لماذا كنت تتمناها؟

فقلت بصوت دافئ:

ـ كما يجدر برجل أحبك من كل قلبه.

فأسبلت جفنيها موردة الخدين والتفت بالصمت فى جو من القبول والرضا والسعادة.

ـ أجل من كل قلبى . .

تذكرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيه ما يستحق الخجل ، كان عقلى وقلبى مقتنعين بها . كنت مرحبا تماما بالارتباط بها وبلا أدنى طمع فى مالها ، ومن ناحية أخرى فإن حبها لى ـ وهو مؤكد ـ يقتضى ذلك الاعتراف من ناحيتى تحية لكرامتها ، فضلا عن ذلك كله فإننى لم أكذب أو لم أكذب بالقدر الذى يجعلنى كذابا .

وناقشنا مستقبلنا بكل صراحة ، قلت :

ـ لن يتصل ما انقطع من علاقة مع جدى . .

وقلت أيضا :

ـ قد لا يحرمنى ميراثى كله . .

ثم قلت بوضوح :

ـ سأكون تعيسا لو عشت بلا عمل . .

فقالت بهدوء باسم :

ـ هذه الهموم لا تخلق عقبة حقيقية فى طريق الحب . . ، أما جدك والميراث فلا يهمنى ، وأما العمل فإنى أعلم أن الرجل لا يعيش بلا عمل . .

ثم وهى تضحك :

ـ ولكن هل تعتبر عملك فى التخت عملا حقيقيا؟

ـ كان حركة فى مغامرة أكبر ، هذا كل ما هنالك . .

ـ أوافقك كل الموافقة .

ولقد فكرت فى حبنا طويلا .

من ناحيتى صادفت سيدة جميلة ، كريمة الأصل ، مثقفة ، عاقلة رصينة ، واعدة بمعاشرة سعيدة ، فملت إليها كما ينبغى لى وأحببت فكرة الارتباط بها .

أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟ إنى ضائع ، طريد ، شبه عاطل ، شبه جاهل ، لا مستقبل لى ، فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟

لكنها كانت هى فى الواقع التى تحب حبا حقيقيا ، حبا بلا مبرر ، فوق التبريرات والأفكار ، ولعل هذا الحب لا يخلو من رغبة فى انتشالى من الضياع وإعادة خلقى من جديد ، فكما توجد فى الحب سادية وماسوشية توجد كذلك أحيانا أمومة ورغبة حميمة فى الإنقاذ .

هذه أفكار عن الحب الذى ربطنى بهدى فانتهى بعقد قراننا بعد أن مزق أواصر أسرتها .

لم أكن وقتذاك أفهمه بهذا الوضوح الذى يتبدى لى به اليوم، أما فى حينه فقد فسرته التفسير الذى يرضى شبابى وغرورى ويعوضنى عن الإهانة التى لحقتنى من جراء هجر مروانة لى.

وودعت محمد شكرون وزملائى من أفراد التخت. كما ودعت أفراد فرقتى الدينية وكانوا متطوعين يعملون مع أكثر من منشد ثانوى تبعا لظروف العمل، ودُعى الجميع إلى حفل زفافى الذى أحياه محمد شكرون، وانبسطنا غاية الانبساط وكأننا نودع عهد النزق ونصفيه.

وقلت لمحمد شكرون:

ـ لن يفرق بيننا شىء.

فاغرورقت عيناه وهو يقول:

ـ معاذ الله يا أعز الناس..

وتم الاحتفال فى بيت الحلمية ـ بيت هدى ـ فلم يشهده من أسرتها أحد، واقتصر على الجارات، وأمل محمد شكرون أن يعلن جدى رضاه على نحو ما، خطاب أو هدية أو باقة ورد، ولكن لم نلق من ناحيته إلا الصمت.

وكان محمد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة وقال له وهو يقبّل يده:

ـ فُرض علىّ أن أنهى إلى فضيلتكم أنباء حسنة عن جعفر.

فتجاهل جدى قوله تماما، فقال محمد شكرون:

ـ إنه يبدأ حياة جديدة مع سليلة الشرف هدى هانم صديق.

ولكنه واصل تجاهله وفتح موضوعا جديدا لا صلة له بى.

غير أن محمد شكرون قال لى:

ـ لقد لمست رغم ذلك تأثره، مثل تقبض يده على المسبحة عندما جاء ذكرك، وعندما ترزق بمولود فاذهب به إليه ليباركه..

ولكننى لم أكن أهتم برضا جدى، ولم أكن أخلو من انفعالات حنق عليه.

استقبلت شهر العسل الثانى فى حياتى، الأيام الهنيئة التى تمضى فى رحاب العاطفة الخالصة والحب المتكامل، ينعم فيها الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن يرجعا إلى الحياة ليتغلغلا فى أعماقها أكثر.

وجدتنى على رغمى أقارن بين مروانة وهدى.

امرأتان مختلفتان جدّا، مروانة عبقرية فى لعبة الجسد، تُرجع الرجل إلى عهد الفطرة، أما هدى فترجع الجسد إلى مستوى القلب، ورغم أننى لم أحترق إلا أذنى

شعرت بطمأنينة ورسوخ ودوام، ورغم مشاعرى الفياضة وحنانى المتدفق فقد افتقدت جحيم مروانة الأبدى.

وفى توقيت رائع قالت لى هدى:

ـ أود ألا تبقى يوما أكثر بلا عمل . .

فقبّلتها امتنانا، فقالت بحذر:

ـ وحتى إدارة أملاكى لا تعتبر عملا مقنعا ولا هى ترضى طموحى . .

فتساءلت برقة:

ـ إذن لك طموح؟

ـ ألا تحب أن تكمل دراستك الأزهرية؟

ـ كلا.

ـ لماذا وجهك جدك تلك الوجهة؟

ـ إنه ذو تفكير خاص وسوف أحدثك يوما عن رأيه فى الإنسان الإلهى.

ـ سأصارحك بما تفكر فيه، يجب أن تدرس فى بيتك.

ـ دراسة نظامية؟

ـ نعم، حتى البكالوريا، ثم تتخصص فى دراسة عليا، مثل الحقوق مثلا، وتعمل محاميا ذات يوم!

ـ يلزمنى عشر سنوات.

ـ لم لا؟ . . التعلم فى ذاته عمل، وأنت فى الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب الدراسة.

ففرحت بالفكرة وقلت:

ـ إنى أحب التعلم، ولن يهمنى مافاتنى من عمر، ثم إننى أريد عملا لا وظيفة بالمعنى التقليدى.

وسرعان ما بدأت بعزم جديد.

خرجت من عصر البطالة المقنعة والبطالة الحقيقية، وغطى التعلم على إحساسى بأننى زوج بلا عمل وبخاصة أننى لم أعترف بإدارة الأملاك كعمل حقيقى فهى لم تكن تعنى أكثر من تحصيل إيجارات والإشراف على إجراء بعض الترميمات والتجديدات أو توكيل بعض المحامين عند الضرورة.

وحققت تقدما مذهلا واستعنت أحيانا ببعض المدرسين.

وفى أوقات الراحة كنا ـ أنا وهدى ـ نختلف إلى المسرح أو صالات الطرب فهى مغرمة بذلك كله .

وكنت أشرب رغم تأففها فتقول لى برجاء :

ـ اشرب ، ولكن لا تسكر . .

أما المنزول فقد أخذت علىّ عهدا بألا أقربه ، وكلما رأتنى جالسا مع محمد شكرون ذكرتنى بالعهد ، ولكننى نبذته بإرادة قوية ، وعبرت الفترة الحرجة بعزم صادق حتى ضحك محمد شكرون وقال لى :

ـ إنك شيطان فى تكيفك مع العربدة ، ملاك فى تكيفك مع الاستقامة . .

فقلت له :

ـ إنى مصمم على أن أكون شيئا .

مارست حياة رائعة ، استعادت من ناحية سعادتى فى أسطورة أمى ، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء الذى نعمت به فى بيت جدى ، ولكن تفشى فيها القلق المنبعث من رغبة حادة فى تحقيق الذات .

أريد أن أكون شيئا ، ولكن ما عسى أن يكون هذا الشىء؟ القانونى الضليع؟ أم المحامى الناجح؟

الحق أنى فتنت بمواد الدراسة المتنوعة ، واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج ، وانجذبت لها بأقوى مما انجذبت إلى علوم الدين ، وكنت أحفظ المقرر وأفيض عنه فيما يهمنى من فروع المعرفة ، فقرأت كثيرا فى التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع ، ومضيت أمتلئ بحب الحقيقة .

* * *

وقهقه عاليا ثم قال لى :

ـ تصور الرحلة من أحلام العفاريت إلى حب الحقيقة ! . . ما رأيك؟

فقلت :

ـ رحلة عظيمة . .

أعجبنى بصفة خاصة المنهج العلمى الذى يتحقق به أكبر قدر من الدقة والموضوعية والنزاهة ، هل نستطيع أن نفكر بنفس الأسلوب فى سائر شئون الحياة؟ لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة بنفس الدقة والنزاهة الموضوعية؟

وكانت هدى تساعدنى ، فهى مثقفة ، حاصلة على شهادة مدرسة أجنبية ، درست مبادئ العلوم والرياضة والآداب واللغات كما درست العربية على يد مدرس

خصوصى، وهى غاية فى الذكاء والاستيعاب، وقد ساعدتنى أكثر مما ساعدنى أى مدرس خصوصى. وكانت تقول لى:

ـ الشهادة لا تهم فى ذاتها، ولكنها الوسيلة الوحيدة المعترف بها للعمل، ثم إنها تضفى على الدراسة جدية أكثر . .

ولم تفتر همتها فى مساعدتى حتى بعد أن تغير مزاجها العام بالحمل والوحم.

جمعنا رغم فارق السن والعلم حب يزداد مع الأيام رسوخا وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل العنيفة . .

لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات إلى حياة زوجية نقية وتحصيل للمعرفة بلا حدود، فى نظام دقيق أفقدنى الكثير من مظاهر الحرية السطحية، ولكنه فتح لى أبواب الحرية المضيئة التى يسمو بها الإنسان على ذاته بالوعى، الوعى الذى يسعد به الإنسان الحر حتى وإن أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية.

* * *

وهنا قاطعته قائلا:

ـ حدثنى عن تجربتك مع الحقيقة والحرية والمأساة.

فقال ضاحكا:

ـ إلى مَنْ توجه كلامك؟ إنك فى الواقع تخاطب إنسانا لا وجود له، لم يبقَ منه إلا الخرابة التى تجالسك الآن فى مقهى ودود بالباب الأخضر، لقد مات، لقد دفنت أكثر من شخص عاشوا فى جسدى متتابعين ولم يبق إلا هذه الخرابة.

وضحك مرة أخرى، ثم واصل:

ـ ولكنها خرابة غنية بالآثار على أى حال.

وتنحنح ثم قال:

ـ لقد عشقت العقل وقدسته فأحببت تبعا لذلك الحقيقة، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة والتجربة ليصل إلى حكم نقى تماما مما يخلّ بالمنطق والملاحظة والتجربة، وهو ما أسميته بالحقيقة.

وهذا العقل يعتبر مخلوقا حديثا نسبيا إذا قيس بالغرائز والعواطف، فالذى يربط الإنسان بالحياة غريزة، والذى يربطه بالبقاء غريزة، والذى يربطه بالتكاثر غريزة، ودور العقل فى كل أولئك هو دور الخادم الذكى . .

حسن، كيف يمكن أن ينقلب الوضع؟

أى أن يقرر العقل أولا ثم يستغل الغرائز لخدمته.

هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرر قتل نفسه؟ إن الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم، ولكن لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى، إذن فقد عشقت العقل وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هدية إلهية لنا، أحلم بألا يكون لنا من محرك إلا العقل، ولا هدف إلا العقل، ولا سلوك إلا من وحى العقل، أحلم بحياة عقلية خالصة يستوى العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملا مثل: «أعرف بقلبى» أو «ألهمتنى عواطفى» أو «التعبير الوجدانى للحياة»، وصببت غضبى على حجم الشعور واللاشعور، وجبل فرويد المطمور تحت الماء إلا قمته، إذ إن المسألة ليست مسألة حجم، ولكنها مسألة القيمة أولا وأخيرا، أردت لقمة الإنسان ـ عقله ـ أن تحكم وأن تسيطر، حتى فى شئون الغذاء والجنس، والحب نفسه أى قيمة له إذا لم يقتنع به العقل تماما؟ الحب الأعمى سيظل أعمى ويتمخض بعد الإشباع عن خواء مكررا مأساتى مع مروانة، لذلك أتمنى أن يلعب العقل دوره فى حياتنا الحميمة كما يلعبه فى المعمل، وبنفس اليقظة والنزاهة والموضوعية، ويجب بالتالى أن تتغير أغانينا وأشواقنا وأحلامنا.

ولا أزعم أننى استطعت أن أرتفع إلى هذا المستوى، بل لعل عجزى كان عنصرا مهما فى المأساة، كما أننى لا أدعو إلى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها، ولكن أتشوق إلى تجنب آثارها المدمرة على الحقيقة، تصور أن نقيم أنفسنا دون خضوع للأنانية، أن نقيم أوطاننا بلا تأثر بما ندعوه الوطنية، وبصفة عامة أصبح الإنسان العاقل حلمى كما كان الإنسان الإلهى من قبل..

قلت له:

ـ هذه الصورة العقلية للعالم صورها أناس فى كتبهم فى صورة مخيفة..

ـ أعلم ذلك، لأنهم عالجوها بقلوب رومانتيكية مريضة وسخيفة، ولكنى أومن بأن العقل سيُغنى الإنسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعا مثل الزائدة الدودية.

ولكن كيف انقلبت هذا الانقلاب الخطير من النقيض إلى النقيض..؟

ـ كما قلت لك من قبل إنى أتحرك فى الحياة بالطفرة، لقد اكتشفت عالم العقل فجأة ففُتنت به، وأيقنت أننى كنت أغامر فى خواء، وأنى مدعو الآن حقّا للمغامرة فى عالم الفكر، هذه هى المغامرة الحقة..

فسألته باهتمام:

ـ وماذا عن الحرية؟

ـ مثل المغامرة، تمارسها أحيانا كمتعة للغرائز كما استمتعت بمروانة والنبيذ والمنزول، هى عبودية متنكرة فى لباس حر، الحرية الحقيقية وعى بالعقل ورسالته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرية الإرادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذى يجريها مجرى القيود، فهى حرية فى لباس عبودية، وجرت حياتى على هذا النحو فى رحاب بيت المنيل، فثمة ساعات للمذاكرة، وساعات للقراءة الحرة، وساعات للمناقشة والنزهة والحب، على طريق طويل رفعت على ساريته راية العقل . .

وهنا قلت له:

ـ هلا حدثتنى الآن عن المأساة؟

فنفخ وهو يقول:

ـ انتظر قليلا، فثمة مأساة خاصة، ولكنى أود أن أعرض عليك رؤياى عن مأساة عامة أولا، هى مأساة الإنسان العاقل، فقبل خلق العقل كان الإنسان منسجما مع ذاته وحياته، حياة صراع قاسية، ولكن يبدو ألا حيلة له فيها، مثله مثل أى حيوان آخر، فلما أن وُهب العقل، وشرع يخلق الحضارة، حمل أمانة جديدة، مسئولية لا مفر منها، وفى الوقت نفسه هو غير أهل لتحملها، بدأ يدرك النظرة الشاملة، وأن حياته على الأرض هى حياة رجل واحد رغم التناقض الظاهرى، ولكنه كان ومازال يمر بفترة انتقال تتواجد فيها الغرائز والعقل معا، فما يقول به العقل تعارضه الغرائز، وما يزال النصر مقررا حتى اليوم للغرائز، على الأقل فى الحياة العامة، لم يظفر العقل بالسيادة المطلقة إلا فى العلم، فيما عدا ذلك فهو يخضع للغرائز، حتى ثمار العلم نفسه تلتهمها الغرائز، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصة فى مجال البحث فاللغة التى تستجيب لها الملايين ما تزال هى لغة العواطف والغرائز، أغانى الجنس والوطن والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل، هذه هى المأساة العامة، ولن تنقشع سحبها الحمراء إلا حين يعلو صوت العقل وتتراجع الغرائز نحو الذبول والفناء . .

أما مأساتى الخاصة فنشأت من الصراع بين عقلى وبين إيمانى الراسخ بالله.

واعترضنى السؤال، كيف تصون إيمانك إذا أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك؟!

تزعزعت ثقتى بالإيمان الخالص كما تزعزعت فى لغة القلب.

وعلى العقل أن يحل بقوته هذه المشكلة.

والقول بأنه لم يخلق لذلك اعتراف بالعجز ليس إلا، واقتراح بديل له نسميه القلب أو البداهة اعتراف آخر بالإفلاس.

ـ وماذا قال لك عقلك؟

ـ عجز تماما عن إدراكه أو تصوره، ولكنه لم يجد مفرا من افتراض وجوده، وهذه هى المأساة، وإذا قرر أناس أن المشكلة مفتعلة، وأنه يمكن أن نعيش دون التفكير فيها، فقد كل شىء معناه مهما خلقنا له من معنى بقوة الخيال والإرادة والشجاعة، وإنى لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين بلا إله . .

وكاشفت هدى بهمومى، وهى مؤمنة إيمانا بلغ من قوته أنها لم تبال يوما بالصلاة أو الصوم، فقالت لى :

ـ لا يمكن تقبل الكون بغيره، ألا ترى إلى عمليات الخلق المتواصلة تحت أعيننا فى عوالم النبات والحيوان والإنسان؟ . . فلا يمكن الشك فى قوة الخلق . .

قلت لها :

ـ أريد علاقة حميمة واقتناعا لا مفر منه مثل ١+١=٢ .

فقالت هدى :

ـ نحن نتكلم عن القلب كنبع للإيمان، ولكن تذكر أن الله لم يعبده إلا الإنسان العاقل، فالعقل فى الواقع هو أساس الإيمان، ولكن عجزه النسبى عن إدراكه ـ مع حرصه عليه ـ جعله يرجع الإيمان به إلى عضو آخر هروبا من التناقض .

فقلت لها :

ـ لقد أدرك الإنسان الحياة والموت والخوف فافترض عقله فرضا لينقذ الأمل، وحتى موسى نفسه أراد أن يرى الله!

* * *

عند ذاك سألته :

ـ ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر؟

فطوح برأسه إلى الوراء مرسلا بصره الضعيف نحو جدول النجوم الجارى بين مئذنة الحسين من جهة، وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى، وتمتم :

ـ إنى عاجز عن الكفر بالله!

* * *

ثم واصل حديثه قائلا :

ـ تقدمت فى الدراسة، أحرزت النجاح بعد النجاح، اتسعت مداركى، تنوعت ثقافتى، أنجبت أربعة ذكور، عشت فترة تُعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتى .

وكان محمد شكرون هو الذى يوصل النفقة الشرعية إلى أم مروانة . وعندما بلغ ابنى

الأكبر السن التى أستحقه فيها قررت أن أسترده، وخاطبت فى ذلك هدى فلم تمانع والحق يقال، ولكن تبين لى أن مروانة تزوجت وأنها رحلت هى والأولاد إلى إحدى الواحات، بل قيل إنها رحلت إلى ليبيا، واشتد حزنى طويلا . .

ولم تهن صداقتى بمحمد شكرون، كنا نصلى الجمعة معا فى جامع الحسين، ثم نتناول الغداء فى الحلمية، وقد اقتصر إسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع عن الخمر فى رمضان، وكان يؤكد لى أن الفنانين أمثاله سيحاسبون حسابا ملطفا تراعى فيه ظروف حياتهم ومتطلبات مهنتهم، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة الثانية قد تأكد، كما أن ألحانه الشعبية ذاعت وطُبعت فى أسطوانات ناجحة، وقد انتقل هو وأسرته إلى روض الفرج، ولكنه لم ينجب ذرية.

وقد ظل صديقى الوحيد حتى تعرفت على زملاء من خان جعفر ممن سبقونى فى التعليم وعملوا محامين ومدرسين، وقد أفدت منهم فى دراستى، ولم يقف أثرهم عند هذا الحد كما سوف ترى . . .

وسعدت بالأبناء أكثر من أى شىء آخر، كانوا آيات فى الجمال والصحة والنضارة، وكان البكرى صورة طبق الأصل من جده الراوى.

أما جدى نفسه فما عرفت عنه إلا اليسير مما كان يبلغنى عن طريق محمد شكرون.

طعن الشيخ فى السن، اعتكف فى بيته بصفة شبه دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة، وخصص ليلة واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين، وأحيانا تستغرقه الشيخوخة فيُخيّل إلى من يعاشره أنه نسى همومه الماضية والراهنة، فبت أشك فى أن أبقى مجرد ذكرى فى روحه.

وتتابع النجاح والتفوق والسنون حتى نلت درجة الليسانس فى الحقوق.

وأتمت هدى نعمتها علىّ ففتحت لى مكتبا للمحاماة فى ميدان باب الخلق، وأثثته بمكتبة غنية وحجرة استقبال فاخرة لا يوجدان عادة إلا فى مكاتب كبار المحامين!

هكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة.

٧

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه، فهو سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدئ، وأنا أعمل فى الواقع كتابع له وفى نطاق نشاطه.

ولكن مكتبى صار ملتقى للأصدقاء الذين اتخذت منهم مرشدين فى دراستى

القانونية، وكانوا فى الأصل أقران طريق من بعيد، وفى ذلك الملتقى الدائم تم الغزو السياسى لروحى . .

أود أن أقول لك إننى لم أكن مقطوع الصلة بالسياسة كما قد تظن. ففى بيت جدى كان يزوره فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة، وكانوا جميعا ذوى طابع واحد، فهم يمجدون الصفوة التى يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن.

وكان الحديث يدور كثيرا حول الدستور، لا باعتباره أساس الحكم للشعب، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم فى مواجهة الحاكم، وكأن الميدان لا يشغله إلا الحاكم والصفوة.

وكانوا يستحوذون على إعجابى بفخامة منظرهم وشواربهم الكثة ولحاهم المهذبة، وكانوا يتحاورون بهدوء وتؤدة، ويتكلمون كثيرا عن العلم والتعليم والبعثات وتجديد الفكر الدينى، ولم يخفوا احتقارهم للغوغاء وحكم الغوغاء، وأكدوا على حاجة الشعب إلى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتى يحق له قدر من المشاركة المتواضعة فى الحياة السياسية.

وسمعت جدى يتساءل مرة:

ـ إذن فالسياسة فى نظرهم مثل التصوف مضنون بها على غير أهلها؟

وجاء الجواب بالإيجاب، فتساءل جدى:

ـ ومن يرعى مصالح الغوغاء؟

وكان الجواب:

ـ نحن أصحاب المصالح الحقيقية، فنحن أهل الزراعة والتجارة والصناعة، أما الغوغاء فحاجتها لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات. .

وملت فى ذلك الوقت إلى الاقتناع بتلك النظرية، والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور، وحمدت الله على انتمائى فى النهاية إلى الصفوة لا الغوغاء.

وقد مرت بنا أيام مثيرة، تعالى فيها اسم الشعب حتى ملأ الفضاء، وتدفقت أمواج المظاهرات من الغوغاء كالطوفان، فراقبتها من فوق السطح بذهول وسرور.

بيد أننى لم أنفعل بالسياسة بقوة ملحوظة قط، وآمنت بأنه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرها من غير أن أطرق للسياسة بابا.

* * *

فى مكتبى بميدان باب الخلق غزتنى السياسة بعنف لأول مرة، وعلى غير توقع.

اصطرعت فى حجرة مكتبى أفكار الليبرالية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية

والسلفية الدينية والفاشستية. وجدتنى فى دوامة صاخبة دار بها رأسى، وعملا بمبدئى فى تقديس العقل نزعت إليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان.

وذات يوم سألنى الأستاذ «سعد كبير» ونحن بصدد استعراض المذاهب، وسوف أقتصر على ذكر اسمه لخطورة الدور الذى لعبه فى حياتى ولتفاهة أثر الآخرين. سألنى:

ـ ما أنت؟

فقلت بعد تردد:

ـ لا شىء.

فقال بحنق وكان شديد الحساسية والعصبية رغم ذكائه وشمول ثقافته:

ـ إنه الموت..

ـ ولكنى دارس مجتهد ممن يقدسون العقل.

ـ وهل يتم للعقل مضمونه دون أن يبدى رأيه فى نظام الحكم البشرى؟

ـ ولكن.. ولكن السياسة مصالح.

ـ المصالح تهدى الرجل العادى إلى حزبه، ولكن العقل يستطيع بنوره أن يميز بين الحق والباطل..

فتساءلت مبتسما:

ـ أين توجهنى مصالحى فيما تظن؟

ـ ولكنك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك..

ـ على أى حال يجب أن أعطى مهلة أطول للتفكير.

وأفضيت بهمومى إلى هدى باعتبارها الصديق الأول الذى لا أخفى عنه شيئا، فقالت بلا تردد:

ـ ألاحظ أن السياسة مفسدة للعقل.

فقلت لها وكأنما أعلن عما يضطرم فى أعماقى:

ـ ذلك يتوقف على العقل نفسه..

فقالت لى بإيمان:

ـ فى السياسة يجد العقل نفسه فى محنة..

ـ ربما، ولكن لن يكون الحل فى الهرب.

الحق أن التفكير أصبح جزءا لا يتجزأ من حياتى، وما سمعته فى مكتبى قد تحدانى بعنف، فرحت أتساءل عن معنى ذلك كله، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة فإننى لم أشك فى أن بعضهم ينظر إلى «وضعى الطبقى» نظرة عدائية أصيلة، وبالتبعية جعلت ـ

لأول مرة ـ أنظر إلى هذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسى اجتماعى، كأنما استيقظت فجأة لأجد نفسى مستلقيا فوق فوهة بركان.

أجل، فإننى بصفتى حفيد الراوى أنتمى إلى الطبقة الإقطاعية، وعليه فمصلحتى تتفق مع حكم الصفوة، ولعلها لا تتناقض بحدة مع السلفية الدينية، ولكنى لا أتفق مع الليبرالية الشعبية، وأما الشيوعيون والاشتراكيون فهم أعدائى الطبيعيون، مثل عداوة القط والفأر، هكذا فكرت، ثم تساءلت: هل يتيسر لى رغم ذلك أن أحكم العقل بنزاهة بين هذه المذاهب؟ أو تخوننى العواطف فأستخدمه كعبد ذكى؟

بوسعى أن أوثر السلامة بتجنب السياسة، ولكننى آمنت بأن ذلك لا يتفق بحال مع احترام العقل وتقديسه.

السياسة هى الحياة.

ولم ينقطع الحوار بينى وبين «سعد كبير» فقد وجدت فى موقفه التحدى الحقيقى الذى يواجهنى بكل صلابة.

قلت له مرة:

ـ السياسة عالم رحيب، مفاتنه موزعة على جميع المذاهب!

فتقلص وجهه الأسمر، دقيق القسمات، وقال:

ـ مغفور لك ترددك فلابد للفكرة من مهلة حضانة.

ـ صبرك، إنى أجد فى الصفوة نبلا وثقافة وعراقة تاريخية.

ـ ممكن فى نظام اجتماعى عادل أن يرتفع كافة الأفراد إلى مرتبة الصفوة..

فتفكرت مليا ثم قلت:

ـ وفى الليبرالية حرية وقيم وحقوق الإنسان آية فى الجمال؟

ـ استغل ذلك كله لخدمة طبقة معينة.

فقلت بالإخلاص نفسه:

ـ وفى الشيوعية عدالة كاملة تجد المذاهب البشرية فى مناخها تفتحها وازدهارها..

ـ لعل هذا أقل ما يقال فيها!

ـ وفى الدين مزايا متوازنة لا تعد ولا تحصى.

ففقد أعصابه هاتفا:

ـ اللعنة!

فقلت دون مبالاة بعصبيته:

ـ لابد من الحقيقة ولو طال التخبط..

وكانت هدى فى الحقيقة الليبرالية أصيلة ترى فى النظام الإنجليزى مثلها الأعلى، وكانت تتابع تأملاتى باهتمام مشوب بالقلق حتى سألتها:

ـ لم تقلقين يا هدى؟

فقالت لى بصراحة:

ـ التفكير فى السياسة قد يتبع بنشاط سياسى وهو أمر لا يخلو من خطورة.

فقلت لها متنهدا:

ـ الأمان جميل، ولكن فى الحياة أشياء أهم من الأمان. .

ـ لذلك أشعر أحيانا بأن بيتى السعيد أصبح مهددا.

فقبّلتها وأنا أقول:

ـ كونى شجاعة كعهدى بك دائما . .

ـ أصبحت الموضة هذه الأيام أن يؤمن الشباب بالشيوعية . .

ـ ولكنى أفكر يا عزيزتى فلا تهمنى الموضة بحال من الأحوال.

وواليت الدراسة والتفكير.

* * *

وهنا قهقه عاليا بصوت أزعج النائمين والهائمين فى الحارة التاريخية فسألته:

ـ ماذا يضحكك؟

ـ سأعترف لك بسر لم أبح به لإنسان، ولا لزوجتى الصديقة.

ـ حقّا؟!

ـ خطر لى ذات مرة أنه توجد أوجه شبه بين حياة النبى وحياتى!

وتريث قليلا، ولكنى لم أعلق فواصل حديثه:

ـ فقد توفى والدى وأنا دون الوعى وتوفيت أمى وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمرى فكفلنى جدى، ثم تصورت خروجى من قصر جدى نوعا من الهجرة.

ـ ولكن النبى لم يهاجر من أجل المغامرة.

ـ كلا . . كلا . . إنه تشابه وليس تطابقا . . ثم جاء زواجى من سيدة ذات حسب ونسب تكبرنى فى العمر، وكيف وجدت فى المناخ الذى هيأته لى فرصة طيبة للدراسة والتفكير، تأملت ذلك فخطر لى أننى سأكون صاحب رسالة أيضا . .

فتساءلت ضاحكا:

ـ رسالة دينية؟

ـ لتكن رسالة من نوع جديد، ولكن سرعان ما فتنتنى الفكرة فبت أسيرا لها. .
وواليت الدراسة والتفكير.

وكنت أحذر نفسى دائما من خدع الغرائز والعواطف لأنقى تفكيرى من كل شائبة.

ووصلت إلى أولى النتائج، وهى أن نظامنا الاجتماعى غير معقول، ظالم، وأنه مسئول عن أدوائنا من الفقر والجهل والمرض، وأننى لست من الصفوة كما توهمت كثيرا، ولكننى فرد من عصابة. واحتجت هدى على هذا الوصف ونوهت بشرف أجدادها، ولكننى أخذت فى تحليل أسباب الثراء من الهبات والانتهازية والاستغلال والعسف والقوة حتى اقتنعت بأنه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. .

وشجعنى سعد كبير قائلا:

ـ هذا اتجاه طيب يعد بخاتمة طيبة، ولكن عليك أن تبدأ بالمادية الجدلية والمادية التاريخية. .

فقلت بثقة:

ـ إنى أقف موقفا واحدا من جميع الفلسفات، والفلسفة الماركسية ليست إلا فلسفة من الفلسفات فلماذا تتحول إلى عقيدة؟ ولماذا تفرض نفسها بالقوة والدكتاتورية؟

ـ ليست فلسفة من الفلسفات، ولكنها أنزلت من سماء التأمل النظرى لتطبق على حياة الناس، ولتعطى للبشرية أملا جديدا، فهى تستحق أن تكون عقيدة. .

فقلت متململا:

ـ الجزم بالمادية ليس أقوى فى شرعة العقل من الجزم بالله. .

فقال بازدراء:

ـ ما زلت مثاليا!

فهتفت بغضب:

ـ لا ترم بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة الموضوعية.

فرجع إلى الهدوء وقال:

ـ ادرس، يلزمك مزيدا من الدراسة.

فقلت:

ـ ولكننى غير مقتنع بالنظرية، على حين أننى أرى العدالة الاجتماعية بديهية لا تحتاج إلى نظرية.

وانقطعت زمنا للدراسة والتفكير.

وصار صدرى معتركا لصراع كالجحيم.

فى ذلك الوقت لم أستمتع بصداقة زوجتى إلا قليلا ، ولم أهنأ بملاعبة أبنائى إلا خطفا ، ولاحت لعينى فكرة الرسالة كقوة واعدة ومسيطرة ، ومتواضعة فى الوقت نفسه لأننى نذرت نفسى لإنقاذ البشرية فى مصر فحسب!

وكنت أفكر وأعاود التفكير ، وأوجه إلى نفسى التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيرى فى مزالق العاطفة أو العقائد الموروثة .

ولكى تتضح لى الأمور قررت أن أسجل أفكارى على الورق .

فسألته باهتمام :

ـ وفعلت؟

ـ نعم .

ـ هل طبعتها فى كتاب؟

ـ كلا ، سبقتنى الأحداث .

ـ أتذكر خلاصتها؟

قال وهو يضحك :

ـ عرضت تاريخا موجزا للمذاهب السياسية والاجتماعية ، من الإقطاع حتى الشيوعية ، ثم عرضت مشروعى الذى يقوم على أسس ثلاثة : أساس فلسفى ، مذهب اجتماعى ، أسلوب فى الحكم . أما الأساس الفلسفى فمتروك لاجتهاد المريد ، له أن يعتنق المادية والروحية أو حتى الصوفية ، والأساس الاجتماعى شيوعى فى جوهره يقوم على الملكية العامة وإلغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة وإلغاء أى نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى فى التعامل «من كلّ على قدر طاقته ولكلّ على قدر حاجته» ، أما أسلوب الحكم فديمقراطى يقوم على تعدد الأحزاب وفصل السلطات وضمان الحريات كافة ـ عدا حرية الملكية ـ والقيم الإنسانية ، وبصفة عامة يمكن أن تقول إن نظامى هو الوريث الشرعى للإسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية .

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير وأنا أقول :

ـ هاك رأيى . .

فتناوله بدهشة وهو يتمتم :

ـ حقّا؟!

فقلت بإصرار :

ـ ولن تخيفنى نعوتك المشهورة ، برجوازى . . تصالحى . . تجميعى ، فمن حقى أن أنشئ مذهبا جديدا إذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة . .

فلاحت فى عينيه نظرة ارتياب ، وقال :

ـ بشرط أن تنشئ حقّا لا أن تلفق .

فقلت غاضبا :

ـ جميع المذاهب أخذ وعطاء .

وقرأ سعد كبير المخطوط فى مكتبى حتى فرغ منه فى حوالى الساعتين أو أكثر ، ثم تنهد طويلا وتمتم :

ـ لا فائدة !

فانتظرت متوثبا فعاد يتمتم وكأنما يحادث نفسه :

ـ سمك لبن تمرهندى !

فقلت له :

ـ أفصح .

فقال بعصبية :

ـ تلفيق . . أحلام يقظة . . خيال . . تجميع ما لا يجتمع . . لا شىء . .

ـ أهذا هو رأيك النهائى ؟

ـ ماذا تتوقع ؟

ـ أتوقع أن تقتنع برأيى .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم نكوِّن جمعية . . هيئة . . حزبا . .

فضحك ضحكة باردة وتمتم :

ـ يا للخسارة !

فقلت محتدا :

ـ إنكم مسلوبو الإرادة والتفكير !

فقال بجدية تامة :

ـ أنت تعلم على الأقل أننا جادون ، وأننا نحمل رءوسنا على أكفنا ، وأننا نؤمن بالإنسان !

ـ إنى أؤمن بالإنسان أكثر منك ، لا أصدق أن مؤمنا حقّا بالإنسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتاتورى ، وإنى جاد أيضا ، وعلى استعداد لحمل رأسى على كفى . .

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ سأكوِّن جمعية أو حزبا . .

وقام سعد كبير وهو يقول بفتور :

ـ لنا رجعة ورجعة . .

وقبل أن أشرع فى الدعوة إلى تكوين الجمعية شاورت زوجتى فى الأمر، فانزعجت جدًّا، وكانت قد قرأت المخطوط بعناية، وقالت :

ـ إنك قانونى وتعلم أن دستور البلاد يعتبر الشيوعية جريمة .

فقلت :

ـ الشيوعية شىء ومذهبى شىء آخر . .

ـ إنك تدعو إلى نظام اجتماعى شيوعى وهذا هو ما يهم القانون وواضعيه . .

ـ يمكن أن أغير صياغة البند الثانى فإنى أجد مثلا أن كلمة الاشتراكية مقبولة، ثم إننى مؤمن بالله رغم أننى لا أريد فرض الإيمان على أحد، وأخيرا فإننى مستمسك بالنظام الديمقراطى كما يمارس فى الغرب، ألا يبعد كل ذلك الشبهة عنى؟

ـ لا أظن يا عزيزى، فإنى أراك فى الواقع شيوعيا قحًّا فى الأمر الجوهرى الذى يهم من يملكون ومن لا يملكون . .

ـ المسألة أنك يا هدى لا تؤمنين بى . .

ـ إنى ديمقراطية، وأرى الديمقراطية نظاما لا ينقصه كى يبلغ الكمال إلا الرعاية الإنسانية لجماهير الشعب! وإنه لا يداخلنى شك فى أن المواطن الإنجليزى مثلا يتمتع بحياة أفضل من المواطن الروسى . .

ـ أما أنا فلا أشاركك الإيمان بذلك . .

فقالت بشىء من الاستياء :

ـ حسن، طالما اتفقنا فى كل شىء ، والآن آن لنا أن نختلف!

وكان سعد كبير يحاول من ناحيته إقناعها بالماركسية .

كان الأصدقاء يتناولون العشاء كثيرا على مائدتنا، ودعوت محمد شكرون معهم، ولكنه لم يرتح إلى صحبتهم وتلقى مناقشاتهم بالتثاؤب .

وأظن أنه يجب أن تعرف شيئا أكثر عن سعد كبير، لقد كان أحد الأصدقاء الذين يجتمعون فى مكتبى للمناقشة، يمثلون فى مجموعهم جميع المذاهب حتى المذهب الإقطاعى البائد، ولكنه كان أشدهم حماسا وتفاعلا مع مصيرى، كان محاميا مبشرا، راسخا فى مادته، ذا ثقافة واسعة، ومقدرة فى الجدل والمحاضرة، وكان ذا طبيعة حادة متماسكة، شديد اليقين بما يؤمن لحد التعصب الأعمى، من الذين يعملون بكل قواهم

فى اتجاه واحد، ولا يتوانى عن تحطيم خصمه بكل الوسائل البلاغية والمناورات الغريبة التى تثير ثائرة من يحترم العقل ويقدسه مثلى.

وقد لمحت فى عينى هدى إعجابا به واستسلاما لجدله الحماسى العنيف.

وذات يوم قال لى محمد شكرون:

ـ أصحابك لا يعجبوننى..

فقلت له متوددا:

ـ ولكنهم طيبون.

فقال بفتور:

ـ ربما، لكن المدعو سعد كبير ليس بالطيب.

ـ ولكنه رجل ممتاز بكل معنى الكلمة.

ـ ربما.. لكنه أذكى مما يجب.

فضحكت مؤمنا بقوله، فعاد يقول:

ـ لا تفتح بيتك لكل من هب ودب.

فآنست من صوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير فاشتعل وجدانى وسألته:

ـ ماذا تعنى يا شكرون؟

فقال متهربا:

ـ المسألة أننى لا أرتاح إليه.

فقلت بحدة شديدة:

ـ أفصح!

ـ إنه من النوع المعتد بنفسه، ولكنه ليس أهلا للثقة.

ـ إنك تقصد أشياء أكثر من ذلك..

ـ أبدا وأقسم على ذلك برأس الحسين!

بعد ذلك الحوار لم أرجع إلى طمأنينتى السابقة، وجعلت أراقب ما يدور حولى بدقة وسوء ظن، وفى الوقت نفسه أبت علىّ كرامتى أن أغيّر من نظام الأشياء، ولو بدر منى أمر كهذا لأغضبت بلا شك سيدة أبية مثل هدى، ولسقطت فى نظرها، ولكنى جعلت أراقب وأحترق من شدة الانتباه والقلق، كان ينهمك فى الحديث معها فتنهمك معه، ووضح لى أن أسلوبه فى الحوار يعجبها ويبعث فيها حيوية دافقة وأنها تبدو فى شوق دائم إلى المزيد منه.

وقلت لها فى أعقاب سهرة:

ـ لن أدهش إذا اعترفت لى فجأة بأنك شيوعية!

فابتسمت متسائلة :

ـ أغرك إقبالى على حديثه؟

ـ وتأثرك به . .

ـ إنه شخص ممتاز ولذلك فإننى أرثى له!

كانت هدى فى ذلك الوقت فى الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير فى الثلاثين، ولم يكن بقى فى قلبى لها إلا صداقة عميقة، ورغم ذلك ركبنى الهم، ورحت أتساءل عما عناه محمد شكرون، هل رأى أكثر مما رأيت؟ هل كتم عنى أشياء؟ هل تعانى هدى أزمة من أزمات الشيخوخة؟ ولكنها كانت وما زالت مثالا للعقل والرزانة، ولم أعثر من ناحيته على إشارة واحدة تستحق الريبة، لا إشارة ولا حركة ولا كلمة، ورغم ذلك كله اهتز عقلى المقدس، وسقطت فريسة لانفعالات مبهمة . .

ثم اجتاحتنى المأساة كأنها زلزال غير مسبوقة بأسباب واضحة . .

* * *

وصمت مليا فتساءلت :

ـ المأساة؟!

فضحك ولم ينبس، فعدت أتساءل :

ـ المأساة؟ . . ماذا قلت؟

ـ وقعت المأساة وأنا أتأهب لتكوين الحزب .

ـ ثم ماذا؟

ـ وأتهيأ لخوض غمار المعركة متحديا اليسار واليمين معا .

وواصل حديثه متنهدا :

ـ كنا مجتمعين فى مكتبى ـ أنا وسعد كبير ـ منفردين، وجرى الحديث، حادا من ناحيته كالعادة وحادا من ناحيتى على غير العادة . .

قال ثائرا :

ـ إنك تتوهم أنك صاحب مذهب ميتافيزيقى اجتماعى سياسى، إن أى مذهب خليق بأن يستغرق عمرا كاملا فى تكوينه، ولكن القارئ يطلع على المذاهب كلها فى عام أو عامين، وقد يتراءى له أن يقوم بعملية انتخاب من المذاهب يظنها تفكيرا وهى ليست إلا عملية انتخاب للجمع بين متناقضات يستطيعها أى مخلوق، ويمكن بهذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الأميين فى العالم!

وصحت به على غير توقع منه :

ـ وقح . . قليل الأدب . .

نظر إلىّ بذهول وتمتم :

ـ ماذا؟ !

فصحت بإصرار :

ـ وقح . . قليل الأدب ! . .

فتساءل بحنق :

ـ أنسيت أنك تخاطب أستاذك؟ !

وثبت عليه .

لطمته ، لكمنى ، اشتبكنا فى صراع مخيف ، لم يوجد من يخلّص بيننا ، كنت أقوى منه وكان أكثر شبابا ، ولما بدأت ألهث تناولت قطاعة الورق . .

* * *

وصمت مليا .

ورحت أتخيل المنظر .

ثم واصل حديثه .

ـ صورة وجهه لا يمكن أن تنسى ، أعنى بعد أن غرزت النصل الحاد فى عنقه ، وجهه وهو ينطفئ هابطا إلى قرارة الظلمة ، وهو يتخلى عن المعركة ويستسلم للمجهول ، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء والمجد وكل شىء .

هتفت :

ـ قتلت يا جعفر ؟ !

ـ أصبح جعفر الراوى قاتلا .

ـ يا للخسارة !

ـ وقفت أتأمل جثته الملقاة بين المكتب والكنبة الجلدية فى ذهول بارد سرمدى وأنا أشعر بأننى تخففت دفعة واحدة من كافة أعباء الحياة وانفعالاتها ثم غصت فجأة إلى أعماق دنيا العلم فرأيت من كوة فى جدارها المتهافت شبح المأساة وهو يجرى بعيدا عنى ، فى كون آخر مضاد لا تربطنى به صلة بشرية ، وسمعت صوتا لعله صوتى أو صوت آخر يهتف مذبوحا : «يا عقلى المقدس ، لماذا تخليت عنى؟» .

ـ يا للخسارة . .

ـ من رئاسة حزب إلى التأبيدة !

وبعد صمت قصير سألته :

ـ أكان للقتل ما يبرره؟

ـ من ناحية فللقتل ما يبرره دائما، ومن ناحية أخرى فلا شيء يمكن أن يبرر القتل .

ـ أعنى هل وجدت فى شكوكك ما يبرر القتل؟

ـ لا شيء ألبتة، صدقني . وجاء انهيار زوجتى حزنا عليّ مؤكدا لحماقتى، كأن المأساة قد وقعت لتسخر من عابد العقل ومقدسه، هذا كل ما هنالك . .

ـ وهل ورد فى المحكمة ذكر لشكوكك؟

ـ كلا، أبيت ذلك كل الإباء، فصور الموضوع فى المحكمة باعتباره نزاعا بين شيوعيين أدى إلى القتل . . وكنت فى السجن أصر على اعتبارى مجرما سياسيا، ولكنى اعتبرت مجرد قاتل، وحتى اليوم فإنى مصر على أنى مجرم سياسى، ما رأيك؟

ـ لعلك مجرم نصف سياسى!

ـ ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلا . .

ـ ربما . . ولكن ماذا كان موقف جدك؟

ـ قبيل الحادث بأيام جاءنى محمد شكرون وأخبرنى أن جدى مريض جدّا، واقترح عليّ أن أزوره مصطحبا زوجى وأبنائى، شاورت هدى فى الأمر فرحبت به جدّا، وأجلت الزيارة ليوم الجمعة، ولكن الجريمة وقعت مساء الخميس، ولم يصلنى من ناحيته رسول أو رسالة ولا عرفت حتى إن كان علم بجريمتى .

المهم أنى طالبت فى السجن باعتبارى مجرما سياسيا رغم أنه لا توجد تفرقة فى المعاملة بين المجرم السياسى والمجرم العادى، واشتهرت بذلك فصرت به دعابة، اعتُبر أحيانا شغبا تعرضت بسببه لعقوبة الجلد، وقد زارتنى هدى مرة واحدة . .

فتساءلت باهتمام :

ـ هل انقطعت بعد ذلك؟

ـ انتقلت إلى جوار ربها!

ثم واصل :

ـ حزنت جدّا، وقلقت على الأبناء جدّا، ثم أخبرنى شكرون أن عمة والدتهم تكفلت بهم وأنهم سافروا إليها فى المنيا ليبقوا تحت رعايتها ولا شك فى أنهم نسونى سريعا كما نسيت أمى فى مثل سن أكبرهم . وفى زيارة تالية أخبرنى محمد شكرون أنه سيقوم برحلة فنية فى شمالى إفريقيا فانقطعت أخباره عنى حتى اليوم، مات جعفر الراوى ومات العالم الخارجى . .

واصلت الجهاد فى السجن داعيا إلى مذهبى الجديد فاصطدمت بجهل وسلبية وسخرية، حتى مأمور السجن دعوته، وكان يعطف علىّ لأصلى ومهنتى وسوء حظى . .

وفى السجن ضعف بصرى وأصبت بأمراض شتى. وخرجت وحالى كما ترانى أمامك.

٨

خرجت وحالى كما ترانى أمامك، خرابة من الخرابات . .

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من الذكريات لا تصدق.

ولكنى لم أفقد صفاء الذهن ولا قوة الإصرار ولم ينطفئ فى قلبى سحر الآراء.

وقلت لو أعثر على محمد شكرون فقد أجد فيه الخيط الذى يوصلنى إلى قلب الأشياء، ولكنى لم أعثر له على أثر، ولم أصادف أحدا يعرفه وكأنه لم يطرب بصوته جيلا من الناس، وفى معهد الموسيقى الشرقى أخبرنى أحدهم بأنه ـ محمد شكرون ـ أقام فى المغرب ثم انقطعت أخباره.

وذهبت إلى قصر الحلمية فوجدت مكانه عمارة شاهقة تملكها شركة تأمين، وكنت قد ورثت عن زوجتى مبلغا محترما من النقود أنفقت أكثره فى السجن فى شراء السجائر وخلافه ولم يكد يبقى منه شىء ذو بال.

وذهبت أيضا إلى عشش الترجمان، ولكنى لم أجد لها أثرا، لقد اجتاحها العمران فتحولت إلى حى وبستان ومحطة بنزين.

وعثرت على زملاء غير قليلين، بعضهم على المعاش وبعضهم ما زال يعمل فى المحاماة، وأصارحك بأنه لم يتهرب منى أحد، واستقبلنى بعضهم بحرارة، منهم من لا يزالون على حماسهم الأول لعقائدهم ومنهم من شغلته الحياة ومطالبها.

ولكن أين أبناء مروانة؟ وأين أبناء هدى؟

وقررت أنه لا خير يرجى من الاهتداء إليهم وأننى يجب أن أتركهم دون إزعاج، ويطيب لى أحيانا أن أتخيل حيواتهم وحياة أحفادى منهم، أجل يوجد بينهم الآن قطاع طرق وقضاة ولعلهم أكثر مما أتصور، ولعلى أصادفهم فى تخبطى فلا أعرفهم ولا يعرفوننى . .

ولما فرغت من هذه الأمور العاجلة فكرت فى إمكان استئناف الجهاد فى سبيل مذهبى

وتكوين الحزب، غير أننى اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها، منها سنى الطاعنة وضعفى الشديد، وسحنتى التى أصبحت تثير الرثاء بل وأحيانا الاشمئزاز.

إن الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصية ذات قوة وجاذبية معا، فضلا عن ذلك فإن ميدان السياسة حافل بالشخصيات ذوات الحيوية والتأثير فقلت أسجل نظريتى فى كتاب فإن أعجزنى ذلك - ولابد أن يعجزنى - فإننى سأدعو إليها حيثما أسير، وقد يتبناها عنى شخص أقدر على نشرها وتحقيقها منى . .

عند ذاك بدا لى أنه لم يبق لى إلا الراحة القهرية القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية . .

* * *

ولاذ بالصمت مليا، ثم تمتم بهدوء:

- طالعنى من الماضى وجه الراوى . .

هممت بالحديث، ولكنه بادرنى قائلا:

- لم أكن أشك فى وفاته، ولكن ما مآل ثروته وقصره؟ وقفت تحت سور القصر الشاهق وهو قائم كالجبل، وتسللت إلى العطفة نحو الباب الكبير فأدهشنى أن أجده مواربا . .

وصمت لحظات ثم قال:

- دفعت الباب قليلا ودخلت فرأيت منظرا لم أتوقعه، لم أتصوره، لم يجر لى فى خاطر، لا الحديقة هناك ولا السلاملك، لا أخلاط العبير ولا زقزقة العصافير، ولكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات ونفر من الصعاليك . .

فهتفت مستغربا:

- كيف؟! . . هل هدم؟!

- لا شىء إلا الخراب يحيط به جدار شاهق وباب عظيم، ونظر إلىّ الصعاليك بحذر وارتياب، فضربت الأرض بقدمى، ورحت أبحث عن أحد حى من مريدى جدى، وفى أثناء بحثى وتجوالى علمت أن الراوى تُوفى بعد سجنى بعام واحد، وبأنه أوقف ثروته كلها على الخيرات دون أن يخصص لى مليما واحدا ولا لأحد من ذريتى، أما القصر فقد ألقيت عليه قنبلة فى إحدى الغارات الجوية ثم أزيلت أنقاضه، هذه هى القصة كلها من أولها لآخرها، وأدركت فى الحال أننى لن أظفر براحة فى الراحة القهرية القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية، ولكننى قررت أن أجعل بيتى فى الخرابة المتخلفة عن قصر جدى، وإنى أنام فيها عادة ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك.

وضحك ضحكة قصيرة ثم سكت وهو ينفخ، فقلت برثاء:

ـ شيخوخة غير سعيدة .

فهتفت بكبرياء :

ـ كلا . إنى أرفض الرثاء والعطف ، تذكر دائما أنك تخاطب عظيما من الرجال ، ومن أسباب عظمته السحرية أنه قادر على التكيف مع أقسى الظروف والأحوال فيخوضها بكل تعال وابتسام !

وآمنت بقوله ، ولكننى قلت :

ـ على أى حال فإن الإعانة الشهرية التى . . .

فقاطعنى بحدة :

ـ لقد اتخذت فيها قرارا !

ـ لم أظنك جادا فيما قررت . .

ـ ولكنى جاد كل الجد !

ـ أتعنى أنك لن تكتب الالتماس ؟

ـ قطعا !

ـ ولكنه الجنون عينه . .

ـ سمه كما تشاء ، لقد حرمنى الراوى من تركته ، وإنى أرفض أن أتسول منها مليما واحدا !

ـ ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان ما تنفد النقود المتبقية لديك . .

ـ أعرف هذا حرفا حرفا ، ولكنى أعند من الراوى نفسه . .

ـ دعنى أكتب الالتماس بنفسى .

ـ إنى أرفض .

ـ ولكن . . .

ـ إنى أرفض الكلام حول هذا الموضوع . . .

وساد الصمت ، وكان التعب قد نال منه محدِّثا كما نال منى مستمعا . .

وتثاءبت ، فضحك قائلا :

ـ إنى لا أتثاءب قبل الفجر .

فتمتمت بفتور :

ـ عفارم .

ـ إنى صعلوك متجول ، أغادر خرابة الراوى لأهيم على وجهى فى الطرقات ، من

مرجوش إلى الخرنفش إلى النحاسين إلى خان جعفر، فى كل مكان لى ذكرى ونجوى، وفى الحلمية ذكريات، وفى ميدان باب الخلق يخفق قلبى، وفى كل مكان أدعوه دعوة صريحة إلى مذهبى، أدعو البشرية إلى إنقاذ نفسها.

ـ مذهبك؟

ـ أجل..

ـ علانية؟!

ـ أجل..

ـ يجب أن تحذر المتاعب.

ـ إنى لا أخشى المتاعب..

وقلت لنفسى: إن هيئته لا توحى بأى جدية فلا خوف عليه.

واستنمنا إلى الصمت مرهقين.

وفى لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذن يعانق أمواج الظلام.

وتمطى جعفر قائلا بصوته الرنان الخشن:

ـ آن لنا أن نذهب..

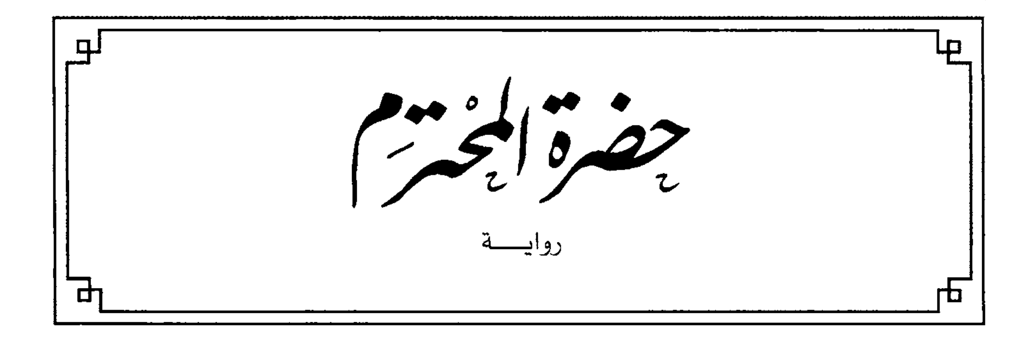
سرنا جنبا إلى جنب، اخترقنا القبو إلى الميدان.

وهمس جعفر:

ـ لتمتلئ الحياة بالجنون المقدس حتى النفس الأخير.

وكان رأسى يطن بحديث الليل الطويل.





١

انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعانى والمثيرات لا مكانا محدودا منطويا فى شتى التفاصيل . آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم . لذلك اشتعل وجدانه وغرق فى انبهار سحرى . فَقَدَ أول ما فقده تركيزه . نسى ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الإله القابع وراء المكتب الفخم . وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست فى صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة فى ذروتها الجليلة المتسلطة . عند ذاك دعاه نداء القوة للسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملى إرادته . وتلبية لإغراء لا يقاوم خطف نظرة من الإله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحليا بكل ما يملك من خشوع .

وكان حمزة السويفى مدير الإدارة يتقدم الموكب الصغير فقال مخاطبا المدير العام :

ـ هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب السعادة . .

مر ضوء عينيه على الوجوه ، وعلى وجهه ضمنا ، فجال بخاطره أنه دخل تاريخ الحكومة ، وأنه يحظى بالمثول فى الحضرة . وخيل إليه أنه يسمع همهمة من نوع عجيب ، لعله يسمعها وحده ، ولعله صوت القدر نفسه . ولما استوفت الفراسة امتحانها الوئيد تكلم صاحب السعادة . تكلم بصوت بطىء وهادئ ومنخفض فلم يكشف عن شىء يذكر من جوهره . قال متسائلا :

ـ جميعهم من حملة البكالوريا؟

فأجاب حمزة السويفى :

ـ بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة :

ـ العالم يتقدم ، كل شىء يتغير . ها هى ذى البكالوريا تحل محل الابتدائية .

اطمأنت القلـوب ودارت فرحتهـا بمزيـد من الخشوع ، فقال الرجل :

ـ حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة .

وراح يراجع بيانا بالأسماء حتى سأل عن غير توقع :

ـ من منكم عثمان بيومى؟

دق قلبه دقة قوية جدا . وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعا مؤثرا عنيفا . تقدم خطوة مطرقا وهمس :

ـ أنا يا صاحب السعادة!

ـ ترتيبك ممتاز فى البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك؟

صمت . اضطرب . لم يدر فى الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب فى وعيه طيلة الوقت . وعنه أجاب مدير الإدارة كالمعتذر :

ـ لعلها ظروف يا صاحب السعادة!

سمع الهمهمة مرة أخرى ، سمع صوت القدر . ولأول مرة شعر بأن ثمة زرقة تخضب الجو ، وأن رائحة طيبة غريبة تجول فى المكان . ولم يحزنه أن يشار إلى «ظروفه» المعوقة بعد أن تقدس شخصه بعطف صاحب السعادة وتقديره . وقال لنفسه إنه يستطيع أن يحارب جيشا بمفرده فينتصر عليه . والحق أنه ارتفع وارتفع حتى غاص رأسه فى السحاب ، وثمل لدرجة العربدة الوحشية . أما صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذنا بالختام :

ـ شكرا ، ومع السلامة . .

وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسى .

٢

ـ إنى أشتعل يا ربى .

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة فى الأحلام .

وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كمجموعة من نور باهر ، فاحتواها بقلبه وشد عليه بجنون . كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه فى هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة . أما على الأرض فقد تقرر إلحاقه بالمحفوظات . لم يهمه كيف يبدأ فالحياة بدأت من خلية واحدة بل من دون ذلك .

وهبط إلى مقره الجديد وجناحاه يرفرفان، يشق طريقه إلى بدروم الوزارة. طالعته قتامة، ورائحة أوراق قديمة، ورأى سطح الأرض فى الخارج عند مستوى رأسه من خلال نافذة مصفحة. وامتد البهو أمامه. تتلاصق على جانبيه دواليب شنن، وصف طويل منها يشقه شقا طوليا. على حين استقرت مكاتب الموظفين فى ثغرات بين الدواليب. ومضى وراء موظف إلى مكتب يستعرض تجويفا كالمحراب فى الصدر جلس إليه رئيس المجفوظات. لم يكن أفاق من نفثة السحر المقدسة، حتى الغوص فى البدروم لم يوقظه. سار وراء الموظف بتشتته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه: اللانهاية هى ما ينشد الإنسان.

وقدمه الموظف إلى الرئيس:

ـ عثمان أفندى بيومى الموظف الجديد.

ثم قدم الرئيس إليه قائلا:

ـ رئيسنا سعفان أفندى بسيونى..

رأى فى الوجه قرابة طبيعية كأنما كان فى الأصل من مواليد حارته. وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعَّث، وأحب أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى. ابتسم الرجل كاشفا عن أقبح ما فيه، أسنان سود مثرمة، وقال:

ـ أهلا بموظفنا الجديد، اجلس..

وراح يقلب فى صور أوراق تعيينه ثم قال:

ـ أهلا.. أهلا.. الحياة يمكن تلخيصها فى كلمتين، استقبال ثم توديع..

وقال عثمان فى نفسه: ولكنها رغم ذلك لانهائية. وهفت عليه ريح خفيفة مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات فقال إنها لا نهائية ولكنها فى حاجة إلى إرادة لانهائية كذلك. وأشار الرئيس إلى مكتب خال متآكل الجلدة منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال:

ـ مكتبك، تفحص الكرسى بعناية فإن أحقر مسمار قد يهتك بذلة جديدة..

فقال عثمان:

ـ بذلتى قديمة جدا والحمد لله..

فواصل الرجل تحذيره:

ـ واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابا من دواليب شنن، فقبل العيد الماضى طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر..

وضحك حتى سعل ثم استدرك:

ـ ولكنه لم يكن من نوع سام . .

فتساءل عثمان بقلق :

ـ وكيف نفرق بين السام وغير السام؟

ـ عندك فراش المحفوظات فهو أصلا من أبو رواش وهى بلدة الثعابين . .

وتناسى ذلك وعدَّه مزاحا . وراح يلوم نفسه كيف فاته أن يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير العام : كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه؟ كيف لم يحاول أن يقف على سر السحر الذى يخضع به الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه؟ هذه هي القوة المعبودة وهى الجمال أيضا . هى سر من أسرار الكون ، على الأرض تطرح أسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة . إن الزمن قصير بين الاستقبال والتوديع ولكنه لانهائى أيضا . الويل للذى ينسى هذه الحقيقة . ثمة أناس لا يتحركون مثل سعفان أفندى بسيونى . الرجل الطيب التعس . إنه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئا . كذلك كان أبوه عم بيومى . ليس كذلك من مست النار المقدسة قلوبهم . هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهى متألقة عند صاحب السعادة المدير العام . هذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذلك . تلك هى سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الإلهية والكبرياء البشرى . ثامنة . . . سابعة . . . سادسة . . . . خامسة . . . رابعة . . . ثالثة . . . ثانية . . . أولى . . . مدير عام . معجزتها تتحقق فى اثنين وثلاثين عاما ، وربما تحققت فى أكثر من ذلك . أما الساقطون فى وسط الطريق فلا حصر لهم . إن النظام الفلكى لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفون منهم . . والزمن يستكن بين يديه كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبؤ بغده . إنه يشتعل ، هذا كل ما هنالك . ويخيل إليه أن النار المتقدة فى صدره هى التى تضىء النجوم فى أفلاكها . نحن أسرار لا يطلع على خباياها إلا خالقها .

وقال له سعفان أفندى بسيوني :

ـ ستُدرب أولا على الوارد فهو أسهل . .

ثم وهو يضحك :

ـ على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل أو أن يحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والإكلبسات .

كل ذلك يسير ، أما العسير حقا فهو كيف نتعامل مع الزمن . . .

٣

فى مسكنه - حجرة وحيدة ومرافق - يرى نفسه، يتجسد له معنى حياته. إنه يعيش متفتح الحواس مرهف الوعى ليتزود بكل سلاح. ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه - حارة الحسينى - كأنها امتداد لروحه وجسده. حارة طويلة ذات منحنى حاد، مشهورة بموقف للكارو ومسقى للحمير. البيت الذى ولد ونشأ فيه تهدم. وقامت موضعه باحة صغيرة لعربات اليد. قليل من مواليد الحارة من يبرحها بصفة نهائية إلا للقبر. يعملون فى مواقع كثيرة، فى المبيضة.. الدراسة.. السكة الجديدة.. أو فيما وراء ذلك، ولكنهم يرجعون إليها آخر النهار. ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس أو النجوى، أصواتها مرتفعة جدا، متوترة بين الحكمة والبدائية، ومن بينها صوت قريب قوى خشن لم يخلخله الكبر، صوت أم حسنى صاحبة البيت. إن أحلام الأبدية جد مرهقة، ولكن ماذا كان بالأمس؟ وماذا يكون اليوم؟ خليق بمثله ألا يعرف المستحيل. وخليق به ألا يترك نفسه للتيار بلا خطة. وخطة محكمة. كثيرا ما يحلم أنه يبول ولكنه يستيقظ فى اللحظة المناسبة، فما معنى ذلك؟. أم حسنى كانت صديقة لأمه وزميلة ومرشدة، صديقة عمر طويل. كانت كلتاهما زوجة لسواق كارو، وعاملة كادحة، تكد بصبر النمل ودأبه سعيا وراء القرش، تسند به زوجها وترم عشها. دلالة.. ماشطة.. خاطبة، وغير ذلك. ماتت أمه وهى تعمل، أما أم حسنى فما زالت تعمل بهمة عالية. وكانت أم حسنى أحسن حظا وأوفر رزقا فتجمع لديها من المال ما بنت به بيتها المكون من ثلاثة أدوار، مخزن أخشاب أرضى، وشقتين، تقيم هى فى إحداهما وعثمان فى الأخرى. وابنها حسنى لم يخلف وراءه إلا اسمه أما شخصه فقد حملته أيام الحروب والمحن إلى بلاد نائية فاستقر فيها.

ألا يحق له أن يحلم؟ إنه يحلم بفضل الشعلة المقدسة التى تتقد فى صدره، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم أيضا. وألف أحلامه كما يألف الفراش والكنبة والسحارة والحصيرة، وكما ألف الأصوات الحادة والمنغومة التى تند عن حنجرته فتردد أصداءها الجدران الراسخة القائمة.

ماذا كان بالأمس؟ أراد أبوه أن يجعل منه سواق كارو مثله ولكن شيخ الكتاب قال له:

- يا عم بيومى توكل على الله وأدخل الولد المدرسة الابتدائية..

فذهل الرجل وتساءل :

ـ ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟

فقال الشيخ :

ـ الولد ذكى وعاقل وربما رأيته يوما من رجال الحكومة . .

وقهقه عم بيومى غير مصدق، فقال الشيخ :

ـ عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان .

وتردد عم بيومى زمنا ثم تمت المعجزة . ونجح عثمان فى المدرسة نجاحا مذهلا حتى حصل على الابتدائية . تميز عن أقرانه الحفاة من أبناء الحارة ورأى بعينيه الحادتين أول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاده النابض، وأيقن أن الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللانهاية . والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك فحقق من النجاح ما لم يصدقه أحد فى حارة الحسينى . ومرض عم بيومى مرض الوفاة وابنه فى السنة الثانية، فندم الرجل على ما «فعله» بابنه وقال له :

ـ ها أنا ذا أتركك تلميذا لا حول له، فمن يسوق الكارو؟ ومن يحفظ البيت؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين . وضاعفت الأم نشاطها مؤملة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر، أليس الله بقادر على كل شىء؟! ولولا وفاة الأم بغير توقع لأكمل عثمان تعليمه فى المدارس العليا . وقد اشتدت لذلك حسرته، وضاعف من حدتها اكتمال وعيه بطموحه وبأحلامه المقدسة . ومقدسة عنده أيضا ذكرى والديه . وكل موسم يزور قبرهما . وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور فى العراء . وهو اليوم وحيد، مقطوع من شجرة . قتل أخوه الأكبر ـ كان شرطيا ـ فى مظاهرة، وماتت أخته بالتيفود فى مستشفى الحميات . وأخ آخر مات فى السجن . إنه يتذكر أسرته فيشقى بالتذكر ويرثى لوالديه، ويقرن تلك الأحداث بدراما عليا يتطلع إليها باحترام ووجل، فالمصائر تتقرر فى الحارة بفضل الإرادات المتصارعة والقوى المجهولة ثم تتقدس فى الأبدية . لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنه يعتمد فى النهاية على الله ذى الجلال . ولذلك أيضا فلا تفوته فريضة وبخاصة صلاة الجمعة فى جامع الحسين . وكإيمان أهل حارته لم يكن يفرق بين الدين والدنيا، فالدين للدنيا والدنيا للدين . وجوهرة متألقة مثل درجة المدير العام ما هى إلا مقام مقدس فى الطريق الإلهى اللانهائى . ولما كان يعيش بين زملائه بوعى يقظ لماح فقد التقط ما يهمه من المعانى والكلمات، ثم عكف على دراسة خطة دقيقة للمستقبل، ترجمها فى ورقة عمل ليذاكرها كل صباح قبل انطلاقه إلى العمل :

شعار للعمل والحياة

١ ـ القيام بالواجب بدقة وأمانة .

٢ ـ دراسة اللائحة المالية التى يشار إليها كأنها كتاب مقدس .

٣ ـ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .

٤ ـ دراسة خاصة للغتين الإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى العربية .

٥ ـ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .

٦ ـ الإعلان بكل وسيلة مهذبة عن تدينى وخلقى واجتهادى فى عملى .

٧ ـ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .

٨ ـ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذى شأن، صداقة مفيدة، زواج موفق من شأنه تمهيد الطريق للتقدم .

ولم يكن من النادر أن ينظر فى مرآة صغيرة معلقة بمسمار بين النافذة والمشجب ليتفحص منظره، وليطمئن على نفسه . من هذه الناحية، لن يكون منظره عائقا فى سبيله على أى حال، فهو قوى الجسم كأبناء حارته، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق، وبصفة عامة سيجد فى جسمه الصلاحية لملء أى مركز مهما جل شأنه .

وقال لنفسه مستمدا من طواياها القوة والتشجيع :

ـ بداية لا بأس بها، وطريق بلا نهاية . .

٤

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدسة أيضًا، وهو يهرع إليها بقلب مشغوف، وبمرح من يتخفف من حمل الأيام بثقلها العتيد . هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الأثرى المهجور، على أدنى سلمة يجلسان جنبا إلى جنب فى أحضان الأصيل اللا متناهية، تترامى الصحراء أمامهما حتى سفح الجبل، ويغنى الصمت بلغته المجهولة . سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفز، سمرة موروثة عن أم مصرية وأب نوبى توفى وهى فى السادسة . زمالتهما القديمة فى الحارة تمتد أصولها فى الماضى البعيد حتى تتلاشى

فى منبع الحياة نفسه. عندما ينظر فى عينيها النجلاوين الواسعتين أو يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحيوية، فإنه يتلقى المثال المثير لفطرته الذى يبعث فى غرائزه اليقظة والابتهال. إنها قرينة طفولته فى الحارة وفوق السطح، وزميلته فى الكتاب، وعلى الرغم من أنها لم تتجاوز السادسة عشرة فهى معدودة ست بيت ماهرة، وهى يد أمها الوحيدة بعد أن تزوجت أخواتها السبع.

ابتسمت سيدة. وجهها بسام دائما، وعيناها مشعتان، وأطرافها تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوترة، وخصلات شعرها المموج الخشن ترقص فى تيار النسيم الجاف الهابط من الجبل. ومرقت من الصمت المعذب قائلة:

ـ فرحت أمى بدخولك الحكومة..

سألها فى دعابة:

ـ وأنت؟

فتمادت فى ابتسامتها ولم تجب. أحاطها بذراعه ولثم بشفتيه الحادتين شفتيها المليئتين. لم يجر للحب ذكر بينهما، ولكنهما يعربان عنه فى كل خلوة بالأحضان والقبل. وهى تشبع من نفسه جانبها المنهوم بالحياة فى بساطتها ومسراتها، ويحبها بعقله أيضا لأنه يقدر مزاياها وإخلاصها، ويشعر بتلقائية بأنها كفيلة بإسعاده.

ـ أصبحت موظفا..

وشى صوتها بالإعجاب، فقبلها مرة ثانية.

ـ لم يحظ أحد فى حارتنا بذلك..

جميع أقرانه يعملون فى شتى الحرف. يرمقونه ـ إذا مر ـ بالإعجاب وأحيانا بالحسد. ما أجدره بأن يسر لولا شعوره الحاد القاسى بطول الطريق وعناده.

ـ أنت الأفندى الوحيد!

فقال بهدوء:

ـ لا قيمة لذلك خارج حارتنا.

ـ الخارج لا يهم، أما حارتنا فهى حارة الكارو!

ـ فقبلها للمرة الثالثة وقال:

ـ لا تتكلمى عن الكارو إلا بالاحترام..

ـ صدقت، أنت شهم..

وقد قبض على أبيها فى المعركة التى قبض فيها على أخيه فدخل السجن ومات فيه بسببها، ولكن تلك الأحداث تعد من الأمجاد التى يطيب بها ذكر الحارة. ولكن سيدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح. ولا جدوى من تجاهله فها هى ذى تسأل:

ـ وماذا بعد ذلك؟

إنه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد. ويعلم أيضًا أن سعادته لن تقل عن سعادتها بحال إن لم تزد. إنه يحب هذه الفتاة كما تحبه ولا غنى له عنها. ولكنه يخاف. عليه أن يفكر ألف مرة. وليراجع ورقة العمل المريرة. ليتمل طويلا الحياة التى تقف أمامه مرحبة ومتحدية معا.

ـ ماذا تعنين يا سيدة؟ . .

فأجابت معاندة فى خفة:

ـ لا شىء!

ـ لا يجوز أن ننسى أننا صغيران . .

ـ أنا؟!

قالتها باحتجاج عذب أشارت به إشارة مليحة إلى أنوثتها الصارخة.

فقال مداعبا:

ـ إنما قصدت نفسى . .

ـ أطلق شاربك فهذا ما ينقصك.

أخذ مزاحها مأخذ الجد وفكر بأن ذلك قد ينفعه حقا فى نضاله، فمنذا الذى يتصور موظفا كبيرا بلا شارب؟!

قال بهدوء:

ـ سأكمل تعليمى يا سيدة.

ـ هل ما زال ينقصك تعليم؟

ـ الشهادة العليا.

ـ لماذا؟

ـ مساعد لا بأس به للترقى.

ـ وهل يلزمك وقت طويل؟

ـ أربعة أعوام على الأقل.

قرأ بتألم خفى الفتور فى عينيها وربما الخجل وشيئا من الغضب!

ـ وما ضرورة الترقى؟

ضحك. لثم شعرها. لم يجرؤ على تجاوز ذلك. ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا، وبلكمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس. لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف.

ـ الظاهر أن الترقى مهم أكثر مما تصورت . .

فتناول يدها بين يديه وغمغم :

ـ أحبك ، إلى الأبد . .

نطق صدقا . وبقدر صدقه اغتم وتألم وسخط على نفسه ، وقال إن تجربة الحياة عظيمة جليلة ولكنها مرهقة .

٥

وقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها وقرأ الفاتحة ، ثم قال :

ـ يرحمكما الله رحمة واسعة . .

ثم ناجاهما بامتنان قائلا :

ـ عثمان موظف محترم يخطو خطواته الأولى فى طريق عسير ولكنه مصمم على السير حتى النهاية .

ثم انحنى قليلا وقال بابتهال :

ـ كل ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما . .

وتلا غلام ضرير بعضا من السور الصغيرة فنقده نصف قرش ، وعلى الرغم من تفاهة المبلغ فإنه لم يخل من الضيق الذى يركبه عند الدفع . ولما ذهب الغلام عاد إلى مخاطبة والديه قائلا :

ـ عهد الله أن أنقلكما إلى قبر جديد إذا حقق الله آمالى . .

ولم يكن لديه فكرة عما يبقى من الجثث فى مجرى الزمن ولكنه تخيل أن يبقى شىء على أى حال . وتذكر وهو يعجب لذلك سيدة فوضحت صورتها الباسمة أمام عينيه ، وخيل إليه أنها تتحفز لإطلاق ملاحظة حادة وصريحة وساخرة . انقبض قلبه وتوجع وهمس :

ـ اللهم اهدنى سواء السبيل ، فكل ما أفعل من وحيك .

وعاش من جديد الأيام الأخيرة لأبيه . هذا أمر لا مفر منه . كان المرض والكبر قد أقعداه فكانت نزهته أن يفترش فروة أمام البيت ، لا يكاد يرى أو يسمع ، يتأمل عجزه . يتأوه هاتفا :

ـ اللهم لطفك ورحمتك . .

كان فى زمانه من رجال الحارة الأشداء. عاش حياة طويلة معتمدا على عضلات ذراعيه وساقيه، يعمل بلا انقطاع ويعانى على المدى شظف العيش والفقر. قوة مهدرة تتغذى على لا شيء ويقهقه فى الملمات بلا معنى ولا سبب. ووجد ذات مساء ميتا حيث يجلس على الفروة فلم يدر أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقاه هو. أما أمه فكانت ميتتها أدعى للدهشة. كانت تغسل فانطوت على نفسها حتى تقوست وراحت تصرخ من شدة الألم. وجاءت الإسعاف فحملتها إلى قصر العينى وتقرر إجراء جراحة فى الأعور قتلت فى أثنائها.

أسرته ضحية فريدة للموت. شيء قال له فى باطنه إنه ربما بسبب ذلك سيعمر هو طويلا. واجتاحته موجة من الأسى. كل موت معقول بالقياس إلى موت أخيه الشرطى. رجل كالجمل يقتل بطوب الثوار. أى ميتة؟ لا يعرفهم ولا يعرفونه. إنه يقف من تلك الأحداث موقف المتفرج المتعجب. لا يفقه لها معنى على الإطلاق. أجل عرف كثيرا من مطالعة التاريخ. عرف التاريخ من أقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى. عرف الثورات. ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها. وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب. لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده إلى الميدان. ما أعجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم! لقد عاش حياته مطاردا بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتا لمد آفاق تفكيره إلى الخارج. انحصر فى الحارة بهمومها المجهولة من الجميع، الوحشية، القاسية، المتلاحقة. واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا وإلهيا فى آن لا علاقة له فى تصوره بالأحداث العجيبة التى تجرى باسم السياسة. قال إن حياة الإنسان الحقيقية هى حياته الخاصة التى ينبض بها قلبه فى كل لحظة، التى تستأديه الجهد والإخلاص والإبداع. إنها مقدسة ودينية. بها تتحقق ذاته فى خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة. بها يتحقق جلال الإنسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا. إنهم يهتفون بغير ذلك أو بما يناقض ذلك ولكنهم مجانين مزيفون. ولذلك فإنه لم يغفر لنفسه أنه لم يملأ عينيه من حجرة المدير العام، ولا من شخصه المتفرد الذى يحرك الإدارة كلها من وراء برافان. فى نظام دقيق وتتابع كامل يذكِّر الغافل بالنظام الفلكى وبحكمة السماوات.

تنهد بعمق.

قرأ الفاتحة مرة أخرى. قال مودعا:

ـ ادع لى ربك يا أبى.

ودار حول القبر الذى سقط شاهداه وتشقق ركنه ثم قال:

ـ ادعى لى ربك يا أمى.

٦

ما أعجب الفصول فى تعاقبها. إنه يعايشها من خلال عمله المتواصل. الشتاء فى الحارة فصل شديد القسوة ولكنه يحفز للعمل، الربيع بخماسينه لعنة، الصيف جحيم، الخريف بسمة غامضة متأملة. إنه يواصل العمل بإرادة صلبة وشهوة نارية. ها هى ذى كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة. لا ينام من الليل إلا أقله. يعانق الأفكار ويصارع الغموض، وحتى النجاح لا يريد أن يقنع به وحده. ويوم الجمعة يخصص عادة للثقافة العامة الجديرة بالمديرين ومن فى خدمتهم. واهتم بالشعر بخاصة، حفظ الكثير، بل حاول نظمه ولكنه فشل. قال إن الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرب من الكبراء، والتألق فى الحفلات الرسمية. إنه لخسران فادح أن يفشل فى نظمه. ولكنه على أى حال خير طريق لإتقان النثر، والخطابة لا تقل عن الشعر فى النجاح المنشود. والأسلوب الجزل مطلوب، قلبه يحدثه بذلك. واللغات الأجنبية مثله وأكثر. جميع تلك المعارف مفيدة، ولها وقتها الذى ترتفع فيه قيمتها فى بورصة المضاربات الديوانية، فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف. أجل عليه أن يتزود من كل شىء نافع بطرف، فمن يعلم؟ وكان يقول إن حياته تيار غير منقطع ماض فى مجرى النور والعرفان، يتكاثف بكل طريف، ويتشعب فى مجالات الفكر، تدفعه حرارة الإيمان والكبرياء البشرى الشريف، ليصب فى النهاية فى الأعتاب الإلهية.

أما راحة النفس فيحظى بها على سلم السبيل الأثرى. فى عناق الحب المشبوب. بين يدى الفتاة الجميلة المحبة. فى حضنها العذرى المشتعل. بلا تورط فى فعل أو قول. لكنه يتعلق به تعلقه بالحياة نفسها. آه لو كانت الحياة تقنع بالحب والسعادة اليسيرة. ومن شدة قلق سيدة تجاوزت تحفظها الفطرى. تمادت فى الإفصاح عن عواطفها الصادقة. كشفت عن لهفتها المحمومة. قالت له مرة بورع:

ـ لا حياة لى بدونك.

ولكن بدا قولها فاترا بالقياس إلى ما تمنحه شفتاها المليئتان. وقالت له مرة أيضا:

ـ أنت كل شىء، ما مضى وما هو آت..

وعيناها العسليتان تبعثان ألقا ناطقا بالوفاء والجزع والأشواق الصادقة. وفى غمار العناق الذائب فى الأنفاس المحترقة قالت متنهدة:

ـ ينقصنا شىء..

فقال ببلادة وأنانية:

ـ حبنا الكامل لا ينقصه شيء!

فرفعت منكبيها محتجة ولكن بحذر من يرغب عن إحراجه ويستعين عليه بالصبر والإصرار. ووجد أنه يعانى كبتا مرعبا سيرمى به مرة تحت رحمة المجهول. لذلك أذعن لإغراء زميل دعاه إلى زيارة لدرب البغاء الرسمى. وكابن من أبناء حارة الحسينى لم تعوزه الجرأة الكافية. انطلق فى الدرب الذى يضيئه مصباحان غازيان متباعدان يغلفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته فى شبه ظلام مثير للشهوات. وقلب عينيه القلقتين حتى استقر على صيد. ويعقب ذلك عادة إكباب على طلب الغفران، وعكوف طويل على الصلاة والعبادة. وهو ما يفعله عادة كلما واجه نواياه العميقة الخفية من ناحية سيدة. فإلى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشد من عذابات ضميره. وكان يختم لياليه الطويلة المرهقة فى إعياء نفسى شديد، كالإغماء، وأحيانا تبتل جفونه وهو لا يكاد يدرى.

وكان سعفان بسيونى رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمى بإعجاب وحذر. أعجب بجلده وحسن تصرفه وخلقه، ولم يرتح من بادئ الأمر إلى البكالوريا التى تميز بها وحده فى المحفوظات ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذى سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة «الابتدائية». وفطن عثمان إلى ذلك فى حينه، ولكنه طمع فى طيبته الفطرية وضاعف من تودده إليه وإذعانه لتوجيهاته حتى اطمأن الرجل إليه تماما وفتح له قلبه فى صفاء نادر. وفى أوقات الفراغ قربه إليه، وأفضى إليه بخواطره، حتى السياسة صرحه فيها برأيه وأهوائه. ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الإعراض عن اهتماماته أو معالنته بحياده البارد إزاءها، وقال بغموض وحذر:

ـ الحق أننا من مشرب واحد، ولا عجب فى ذلك..

فسُرَّ الكهل بقوله سرورا عظيما ذهل له عثمان. عجيب استغراق الرجل فى هذه الشئون. وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها. ماذا يشدهم إليها؟ أليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها؟

ولكنه قال لنفسه بازدراء غير قليل: إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محددا، وإيمانهم الدينى إيمان سطحى، ولم يفكروا بما فيه الكفاية فى معنى الحياة، ولا فيما خلقهم الله من أجله، وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم فى لهو وسفسطة، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل. تستغفلهم الأوهام، ويمضى الزمن وهم لا يعلمون..

٧

قال له سعفان بسيونى بعد أن تلقى منه بريد الوارد :

- إنى أدعوك إلى سهرة ممتعة فى بيتى . .

دهش وانزعج ولكنه لم يفكر في التملص . قال الرجل :

- يوجد حفل زفاف فى بيت الجيران ، سنتعشى معا لحمة رأس ، ونجلس فى الشرفة نستمع للغناء . .

كان الرجل يقيم فى شقة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعرية . وتبين له أنه كان المدعو الوحيد . طاب نفسا بالمكانة التى يؤثره بها رئيسه ، وتناول معه عشاء لذيذا مكونا من المخ والجبهة واللسان والجوهرة وممبار وفتة بالتقلية غير الفجل والمخلل ، وحلوى من الشمام . أكلة ممتازة ووفيرة وقد أكل حتى امتلأ . وجلسا فى شرفة تطل على فناء البيت الذى قام فيه الفرح . تبدى الفناء غارقا فى الأنوار تصب عليه من كلوبات كثيرة . وصفت به الأرائك والكراسى التى اكتظت بالمدعوين ، واكتظت المماشى بالغلمان والأطفال ، وأحدق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج . وشعت الأنوار فى البيت من الداخل أيضا وتراءت النساء وهن يذهبن ويجئن . وهدر المكان بالأصوات من جميع الدرجات والأنواع ، وارتفع الضحك والسعال والزغاريد . خفق قلب عثمان وهو يرنو إلى جو الفرح وانتقلت إلى فؤاده حرارته الفواحة بعطر الجنس والحب . لذلك تلقى دغدغات التخت الأولى بتأثر أشد مما توقع وممّا ألف . فهو لا يعشق الغناء ، ولكن إذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو إلى حين قليل . حسن ، الموسيقى لا بأس بها أحيانا ، شىء طيب ومريح . الزواج علاقة باهرة وفرح ودين . وخالجه شعور شامل بالأسى .

- لعلك فى حاجة إلى الترفيه ، هذا ما أقوله لنفسى كثيرا . .

قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضىء أنوار الفرح أجزاء منه وتتوارى أجزاء فى الظلال . وقال أيضا :

- عمرك يجرى فى العمل والدراسة ولكن الحياة تطالبنا بأشياء كثيرة . .

أصغى إليه باهتمام فى الظاهر واستخفاف فى الباطن . إنه يحتقر المواعظ التى تحث على الكسل ويَعُدّها تجديفا بذى الجلال ، غير أنه تذكر سيدة فى عذابها الطويل ، وما عليه أن ينجزه ويحفظه ويراجعه ، وشعر بأنه يبتسم ابتسامة لا معنى لها . وعاد سعفان يقول :

- لك همة عالية ولكن راحة البال جوهرة ثمينة أيضا . .

فقال له واستخفافه به يتصاعد :

ـ أنت رجل حكيم يا سعفان أفندى . .

وظهر فى مدخل الشرفة شبح ، فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاى المنعنع . انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها ، فوضحت بعض معالمه على الرغم من ظلام الغرفة القابع وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحى ، وثمة ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق . ساوره قلق . وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاى رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هى التى تنفث رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ، ثم توارت فى الظلام وهى تدارى ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا . وساد صمت كأنه الشعور بالإثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سعفان :

ـ ابنتى . .

هز رأسه إعرابا عن الاحترام . .

ـ حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة . .

واصل هز رأسه فى تقدير وإعجاب . ترامت إليهما أصوات الجوقة وهى تغنى التواشيح . ومضى سعفان قائلا :

ـ البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت . .

لم يعلق ، لم يجد ما يقوله ، وضاق فى الوقت نفسه بصمته .

ـ ما رأيك فى ذلك؟

ـ أوافقك كل الموافقة . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح فى حياتها المريرة . شعر بأنه يدفع إلى مصيدة . بدأ الغناء بصوت الطرب هادئا وخافتا وناعما . وتمتم سعفان :

ـ ما أجمل الصوت !

ـ نعم .

ـ الحياة جميلة أيضا .

ـ بلا شك .

ـ ولكنها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها . .

ـ أليست الحكمة ثمرة عسيرة؟

ـ كلا ، هى هبة من الله سبحانه .

قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة . الرجل يحاصره وهو لن يستسلم ، ولكن كيف يفوز بحريته ورضا رئيسه معا؟ ! لم يعد يسمع من الغناء شيئا .

سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده وقدمه وينظر إليه بين ذلك متفحصا مستطلعا. وحنق عليه كجلاد ماكر. ورأى أن عليه أن يرد الدعوة بأحسن منها دفاعا عن نفسه المهددة. آلمه ذلك ألما غير هين. إنه لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحة. وفتح حسابا فى دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه. ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه. وهو يؤمن بأن الادخار وسيلة مهمة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه، وأمان ضد الخوف فى عالم مخيف. ولكن لا بد مما ليس منه بد. سيرد الدعوة بأحسن منها. وسيتم ذلك فى مطعم لا فى حجرته المكتظة بالكتب، الفقيرة فى كل شيء عدا ذلك. وإذن فسوف ينفق مبلغا جسيما حقا. اللعنة على الحمقى. بات الغناء ضجيجا لا معنى له وتفتحت أبواب الجحيم. والكهل يهز رأسه طربا غير عالم بجريمته. والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها.

٨

وقبل مضى الشهر، دعا الرجل للعشاء فى مطعم الكاشف. تناولا سمكا شهيا وحليا بمهلبية. وكان الكهل من السعادة فى غاية وخيل إليه أنه يتوقع نزول ملاك السعادة والرحمة. ولم يقنع بالعشاء فيما يبدو فاقترح قائلا:

ـ ما رأيك فى سهرة فى الفيشاوى؟

وجب قلبه بألم عميق ولكنه تأبط ذراعه قائلا:

ـ يا لها من فكرة رائعة!

وجلسا فى المقهى وهو يتذكر عيدا من أعياد الفطر تمزق فيه جلبابه الجديد فى معركة بحارة الحسينى، ضربه أبوه، واضطر إلى استعمال الجلباب عاما كاملا بعد أن رقعته أمه. وأزعجه سرور الكهل وانشراحه. إنه يتوقع أن يسمع خبرا سارا بلا شك. وها هى ذى فرحة قلقة فى أعماق عينيه الشاحبتين، وها هو ذا يجود بالرضا على كل شيء.. قال:

ـ أأنت سعيد بزملائك فى المحفوظات؟..

ـ أعتقد ذلك.

ـ إنهم تعساء ولكنهم طيبون..

ـ إنهم طيبون حقا..

ـ أما أنت فشاب ممتاز، هل تعمل محاميا إذا انتهيت من دراستك؟

ـ كلا، لكنى أرجو تحسين حالتى.

- فكرة طيبة. يعجبنى طموحك الشريف!

وخرج عثمان من تردده مصمما على النجاة ولو بخنق آمال الرجل. قال:

- إن همومى أكبر مما تتصور..

فرمقه الرجل متوجسا وسأله:

- لِم كفى الله الشر؟

- لا يهمنى الطموح كما تظن، تهمنى أشياء أقل من ذلك بكثير..

- حقا؟

- لولا الظروف القاسية لما فكرت إلا فى أمر بسيط وطبيعى ومعقول وهو أن أكمل نصف دينى!

لم يفلح الكهل فى مداراة الخيبة التى خنقته، وتساءل:

- أى ظروف يا ترى؟

فتنهد عثمان فى أسى وقال:

- مسئوليات جسيمة، نحن أبناء الفقر وهو يصر على مطاردتنا.. وأطرق وهو يقول بصوت كئيب:

- كم كنت أود..

وسكت كأنما غلبه الانفعال. تراجع الكهل عن ضوء المصباح فمضى فى الظل. لا مفر من ذلك ولكن عليه أن يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة. وجاءه صوت الرجل من الظل:

- ومتى تستطيع الوقوف على قدميك؟

فأجاب بنبرة يائسة:

- فى عنقى صغار وأرامل، ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور فى ساقية..

مات كل شىء. حتى مطارق قطع النرد لم تعد تسمع. عاد يتمتم:

- كم كنت أود..

فلم يعلق الكهل بكلمة. وأراد أن يدفع الحساب ولكن عثمان أبى عليه ذلك ودفعه من جيبه وهو يتمزق. تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع فى إحيائها الافتعال. وغادرا المقهى فمضيا مشيا على الأقدام حتى ميدان باب الشعرية، وهناك فارقه الرجل إلى مسكنه. وجد نفسه فى حال تعيسة من التوتر والقلق. ودهمته موجة مجنونة من الاستهتار فدعته إلى التبذير اليائس كأسلوب من الانتحار.

وقصد بلا تردد الدرب ليدفن فى أعماقه قلقه وأحزانه وعذابات ضميره. وقال لنفسه بحزن:

ـ حتى أخطاء الإنسان يجب أن تكون مقدسة..

٩

اعترضت أم حسنى طريقه وهو نازل. إنها لا تفعل ذلك بلا سبب. نظر إلى وجهها المخدد بالتجاعيد وشعرها المصبوغ بالحناء وجسمها القوى رغم شيخوختها فتذكر أمه. صافحها وهو يبتسم فقالت:

ـ عندى خبر..

ـ خير إن شاء الله.

فقالت وهى تضيق عينها الوحيدة ـ فقدت الأخرى فى معركة من معارك الحارة ـ قالت:

ـ لا خير فيه..

نظر إليها جادا فقالت:

ـ عريس، وجد عريس فى طريقك!

ـ هه؟

ـ عريس تقدم لسيدة..

اجتاحه حزن وذهول كأن ذلك لم يكن متوقعا. لم يجد ما يقوله.

ـ ترزى بلدى..

كان يعلم بأن ذلك آت لا ريب فيه. لا يحاول دفعه ولا أمل له فى منعه. كالموت. ولم ينبس فسحبته من يده إلى حجرتها وأجلسته على الكنبة إلى جانبها، وسألته:

ـ ألا يهمك الأمر؟

شعر بألم حاد فى أعماق روحه. شعر بأن الدنيا تتلاشى. قال بغضب:

ـ لا تطرحى أسئلة لا معنى لها..

ـ هدئ خاطرك..

ـ يحسن بى أن أذهب.

ـ ولكنك لن تتمكن من لقائها.

الدنيا تتلاشى أكثر وأكثر . . قالت :

ـ كان يجب أن تدرك ذلك من نفسك .

ـ لم؟

ـ أَمها تتشدد فى منعها من الخروج ، فرجل حقيقى خير من خيال . .

وتمتم بلا وعى :

ـ رجل حقيقى خير من خيال!

ـ أنت تحبها . أليس كذلك؟

فقال بأسى :

ـ إنى أحبها .

ـ حكاية محفوظة فى حارتنا .

ـ وهى حقيقية .

ـ عظيم ، ولِم لم تتكلم؟

فقال بحدة :

ـ لا أستطيع .

ـ اسمع ، توسلت البنت إلىَّ أن أبلغك . .

تنهد فى يأس كامل . فقالت المرأة :

ـ اذهب من توك فاخطبها ، أو دعنى أتولى ذلك عنك .

حادث نفسه بأصوات مبهمة كأنما يتكلم لغة مجهولة حتى ذهلت المرأة فقال مواصلا حديثه مع نفسه :

ـ ولن يغفر الله لى . .

ـ أعوذ بالله ، أتراها غير أهل لموظف مثلك؟

ـ لا تتقولى علىَّ يا أم حسنى . .

ـ أطلعنى على قلبك ، أنا أمك . .

فقال متنهدا :

ـ لا أستطيع أن أتزوج الآن .

ـ تنتظرك كما تشاء .

ـ سيطول الانتظار . .

ـ اربطها بكلمة ، هذا يكفى الآن . .

- كلا ، لست أنانيا ، إنى أرفض حرصا على سعادتها .

وهمت بالاسترسال فى الحديث ولكنه غادر الحجرة . سار ببطء فى الحوارى الضيقة . كان يتعذب بعمق ويسلم بمرارة بأنه لن يراها مرة أخرى . وعلى الرغم من عذابه شعر بارتياح خفى يائس ، وبقدر ارتياحه آمن بأن اللعنة حلت به . إنه يحبها ولن تملأ أخرى الفراغ الذى خلفته وراءها فى نفسه . وهذا الحب لن يمحى بسهولة ، وسيعلمه كيف يكره نفسه وطموحه ، ولكنه سيصر على التعلق بهما بقوة الكراهية واليأس . إن ما يركبه جنون ، ولكنه جنون مقدس يغلق باب السعادة باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوة فى طريق المجد الشاق المحفوف بالأشواك . إن السعادة تغريه بالتفكير فى الانتحار ، أما الشقاء فهو الذى يحرضه على نشدان الحياة وعبادتها .

ولكن ياللخسارة ياسيدة ! . .

١٠

وتقدم فى كل شىء ولكن عذابه لم يكد يخف ، ورسخت قدمه فى عمله حتى شهد له سعفان بسيونى - على الرغم من إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة ، وكان يقول عنه :

- إنه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفى أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . .

وهو يؤدى عمله ، ويؤدى عن المتأخرين أعمالهم ، فالكلام عن نجدته لايقل عن الكلام عن قدرته . وسار فى دراسته بعزم قوى يبشر بنجاح باهر . وأصبح من مدمنى التردد على دار الكتب ، يقرأ بنهم شتى الثقافات إلى جانب دراسته القانونية الشاقة . أصبح كذلك من الوجوه المعروفة التى ترى فى جامع الحسين فى صلاة الجمعة فعرف فى الحى - كما عرف فى الوزارة - بالتقوى والورع . ولكن عذابه لم يكد يخف ، وظلت سيدة مسيطرة تماما على خياله ووعيه حتى قال لنفسه :

- إنها الجوهرة الوحيدة فى حياتى . . .

وفى مواعيد اللقاء يجلس على سلم السبيل الأثرى فتلفحه حرارة الذكريات ويغوض فيها حتى تتجسد له حية ملموسة . فى لحظات اشتداد الوجد يتوقع أن يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة محفوفة بالشوق والحياء . وحديثها الطويل وعناقهما الحار وكل موضع ثمين غسله بقبلاته . ولكنها لا تأتى ولن تأتى . قطعته ولعلها نسيته . وإذا خطر ببالها لعنته بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها فى ساعة العصارى فخيل إليه أن

رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتبترد، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة. وقال لنفسه:

ـ مقدس الإنسان فى عذاباته..

وقال أيضا:

ـ لا يخلو عمل للإنسان من عبادة..

وصادفها صباح الجمعة فى الخيمية بصحبة أمها. تلاقت عيناهما لحظة ثم حولتهما عنه فى غير مبالاة. لم تلتفت وراءها. تجلى له معنى من معانى الموت، كما خرج أبوه من الجنة بإرادته. وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء.

وكان يختلف إلى الدرب بحذر وانفعال ويأس. ووثقت الأيام علاقته بفتاة تماثله فى السن تسمى نفسها قدرية. جذبته بسمرة غامقة ـ مثل سيدة ـ ولكنها أعمق فى زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة فى البدانة. ومنذ ساقته قدماه إليها ـ منذ زمن ليس بالقصير ـ لم ينحرف إلى سواها. وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائية بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرآة وكرسى وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب، وطشت وإبريق. لذلك لم يكن يستطيع خلع بذلته فى ليالى الشتاء. ومرت أعوام لم يبادلها سوى تحية القدوم وتحية الذهاب. وعلى الرغم من تدينه العميق علمته الشراب، القدر القليل الضروى. وكان قدح النبيذ من نبيذ «السلسلة» الجهنمى ـ بنصف قرش ـ يكفى لطمس عقله وبعث الجنون فى دمه حتى قال لها مرة فى نشوة مضحكة:

ـ أنت سيدة الكون..

وكان يتأمل الحجرة العارية، ويشم رائحة البخور، ويلمح الحشرات، ويتخيل الجراثيم المستكنة ويتساءل: أليس هذا الركن الملعون المشتعل بنار الجحيم جزءاً من مملكة الله؟!.. ومرة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس فى الحجرة العاربة. خلا الدرب وخفتت الأصوات وساد الظلام. تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسى الخيزران، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة. ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرؤها ـ كعادته ـ بصوت مسموع. وسألته قدرية:

ـ قرآن؟

فهز رأسه بالنفى وهو يبتسم.

ـ مواعيد غرامية؟

ـ دروس!

ـ تلميذ؟!.. ولماذا تربى شاربك؟..

ـ موظف وتلميذ فى مدرسة ليلية..

وتذكر سيدة بحنين وأسى . وخطرت له فكرة استراح لها وهى أن المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه .

وعاد ذات يوم إلى الحارة فرأى الأرض مفروشة بالرمل أمام بيت سيدة والرايات تخفق على الجانبين . دق قلبه دقة النهاية . والتقى أم حسنى على السلم - ترى هل تعمدت أن تنتظره؟ - فحياها عابرا ومضى وصوتها يدعو له :

- ربنا يحقق مقاصدك ويسعدك . .

لم يستطع أن يركز عقله فى دروسه . واقتحمت حجرته الصغيرة الأصوات ، الزغاريد ، تهليل الغلمان . موسيقى حسب الله ، أجل . . ها هى ذى سيدة تدخل مملكة رجل آخر ، وتنطوى فترة من الشباب وتدفن .

* * *

غادر البيت بتصميم جديد . قال إن الحياة أعظم من جميع آمالها . وأن الخيَّام أجمل حكمة من المعرى . وأن القلب هو المرشد الوحيد . اقتحم الفرح حتى قالوا إنه مجنون . وأشار إلى سيدة وقال لها : «إنى أدع لك الحكم» . استجابت على الرغم من الصراخ والعويل لأنه فى اللحظات الحرجة التى تسبق الإعدام تتعرى الحقائق فتهزم الموت . ومضى بها مخترقا ثلاثة أزقة مارقا من باب النصر إلى مدينة الأموات وهما يترنحان من السعادة .

* * *

لم تسكت الأصوات والزغاريد والأغانى حتى مطلع الفجر . وكان ينظر إلى الكلمات ولا يفقه لها معنى . شعر بالوحدة فتوغل فى عالم مجدب خال من الأصوات والأمل . وثقلت عليه المعاناة فى الطريق الشاق فتذكر معارك الأمم ، ومعارك الجراثيم ، ومعارك الصحة والعافية فهتف :

- سبحان الله العظيم!

١١

حضرة صاحب السعادة المدير العام :

أتشرف بإبلاغ سعادتكم بأننى حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام - من منازلهم - استزادة من العلم واستكمالا للوسائل الضرورية للموظف ، مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم ، فى ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه .

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرافقة بملف خدمتى .

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام ،

عثمان بيومى

كاتب الواردات بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحا باهرا بالقياس إلى زملائه المتقدمين من منازلهم . وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفان بسيونى ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الإدارة حمزة السويفى ، فهو يُسَرَّك فى صادر المحفوظات ثم يسرك مرة أخرى فى وارد الإدارة . بعد ذلك يعرض على حمزة السويفى ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام ، فيسرَّك فى صادر الإدارة ثم يسرك فى وارد مكتب المدير العام ، ثم يقرؤه حضرة صاحب السعادة المدير العام ، يقرؤه بعينيه ويتسلل إلى ذاكرته وربما هز عواطفه ، ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لإجراء اللازم ، فيسرك فى صادر مكتب المدير العام ووارد المستخدمين حيث تتخذ الإجراءات ، ثم ترسل صورة إلى المحفوظات التى صدر منها الخطاب للحفظ فى ملف خدمته الإداري ، بذلك تتم الدورة الفلكية ويعلم من لم يكن يعلم .

وثمل بالسعادة يوما . وتتابعت الأيام . ماذا بعد ذلك؟ هل يبتلع الصمت كل شىء؟ لا شىء يحدث النار المقدسة مشتعلة فى صدره . ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة . الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشر بالضياء . وقد انتهى من الدراسة ، أما اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقف، أبدا . إنه يُشبع بها أشواقه إلى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون أهلا للمركز الذى سيشغله يوما بإذن الله وفضله ، ويتسلح بها فى نضاله الطويل المرير فى الغابة الرسمية التى يطالب فيها كل ذى شأن بقرابينه . إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الأسر الكبيرة . ولا قوة حزبية تسنده ، وليس من الذين يرتضون أن يؤدوا دور البهلوان أو العبد أو القواد . إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذى عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التى قضت على الإنسان بالسقوط فى الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى إلى السماء .

ومن خلال تتابع الأيام فى مجراها الأبدى خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها إلى وزارة أخرى . وقال له سعفان بسيونى :

ـ رشحتك للدرجة الخالية ، فلا يوجد فى المحفوظات من هو أحق بها منك . .

فشد على يده بامتنان وهو يود أن يقبله فقال الكهل :

ـ سبعة أعوام مضت عليك فى الثامنة ، وقد حصلت فى أثنائها على ليسانس الحقوق ، وأثبت بجدارة كفاءة لا نظير لها . .

وضحك الكهل كاشفا عن أسنانه السود المثرمة وقال :

ـ وهى مضمونة لك إن شاء الله ، فلا رغبة لأهل الوساطات فى وظيفة بإدارة تسكنها الثعابين والحشرات . .

وطال الانتظار ومضت الأيام . وقال لنفسه ها هى ذى سبعة أعوام تمر فى درجة واحدة فيلزمنى على هذا القياس أربعة وستون عاما حتى أبلغ الأمل المنشود . المدير العام الذى أشعل النار المقدسة فى قلبه . لم تقع عليه عيناه منذ مَثَلَ بين يديه ضمن المستجدين . وإن متعة نفسه أن يقف فى جانب من الميدان يراقب موكبه وهو يغادر الوزارة فى أبهة الملك وقدسيته . هذا هو غاية الحياة ومعناها وجلالها .

واستفحل العمل فى الإدارة أيام إعداد الميزانية ، فاحتاج مدير الإدارة إلى موظفين إضافيين من الأقسام التابعة له ، فندب عثمان للعمل عن المحفوظات . سر بذلك وقال إنها فرصته . وثوثب للعمل بهمة هائلة ، عمل مع المراجعين كما عمل مع وكيلى الإدارة ، وشهد اجتماعات مع مدير الإدارة نفسه . انفجر كبركان وكأنما كان ينتظر هذه الفرصة مذ اشتعل قلبه بالطموح المقدس . ولم يتردد فوضع نفسه تحت تصرف السادة الرؤساء من مطلع الصباح حتى منتصف الليل . فى الظروف الدقيقة الحرجة ينسى كل شىء فى الحكومة إلا الكفاءة الحقة . والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزارة والبرلمان والصحافة ، فلا مجال فى أيامها المشحونة بالإرهاق لصاحب امتياز ، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعى نفسه ويتقدم الأكفاء ويعترف بالقيمة الذاتية حتى ولو لم يقدر لها حسن الجزاء . وقد لفت عثمان إليه الانتباه وحاز الثقة الكاملة ، وتجلت قدرته الخارقة على العمل ، كما تجلت دراسته باللوائح والقانون . ولم يقنع بما أحرز من نجاح فتطوع سرا لكتابة مشروع بيان الميزانية الذى يكتبه عادة مدير الإدارة بنفسه . وهيأ له العمل فرصة الانفراد بمدير الإدارة حمزة السويفى فلما فرغ من عرض أوراقه قال له بأدبه الجم :

ـ سيدى المدير ، اسمح لى أن أقدم لكم بعض الملاحظات التى قيدتها فى أثناء العمل لعلها تنفع عند النظر فى تحرير بيان الميزانية !

فنظر إليه حمزة السويفى باستخفاف مشوب بالعطف وقال :

ـ أنت شاب ممتاز كما يقال عنك . .

ـ أستغفر الله يا فندم .

ـ على فكرة مبارك فقد تمت اليوم الموافقة على ترقيتك إلى السابعة . .

تمتع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان :

ـ بفضل الله وفضلكم !

فقال مدير الإدارة مبتسما :

ـ مبارك، أما بيان الميزانية فشىء آخر!

فقال باستماتة:

ـ عظم الله قدرك، لا جرأة لى على الاقتراب من بيان الميزانية، ولكن عنت لى ملاحظات فى أثناء العمل، ملاحظات مجتهد درس القانون والمالية، فطمع فى أن تكون فى الخدمة عندما تحتشدون لوضع البيان الخطير.

وتناول الرجل «الملاحظات» وراح يقرؤها والآخر يتابعه باهتمام مركز خيالى. لقد سيطرت عليه الملاحظات، هذا واضح. ثم قال بهدوء سطحى:

ـ أسلوبك جيد..

ـ شكرا يا سيدى..

ـ يخيل إلىّ أنك قارئ ممتاز.

ـ أعتقد ذلك يا سيدى.

ـ ماذا تقرأ؟

ـ الأدب، سير العظماء، الإنجليزية والفرنسية..

ـ هل لك قدرة على الترجمة؟

ـ إنى أمضى أوقات فراغى فى مطالعة القواميس.

فضحك حمزة السويفى وقال:

ـ شىء جميل، وفقك الله..

وأذن له فى الانصراف ولكنه استبقى «الملاحظات» عنده. وغادر عثمان حجرته ثملا بالأفراح، يؤمن بأنه نال من ثقته ما هو أثمن من الدرجة السابعة نفسها.

وعندما طبع مشروع الميزانية بعد ذلك بأشهر هرع عثمان إلى مقدمة الميزانية فقرأ البيان الذى كتبه بخط يده عدا تغيير طفيف لا يقدم ولا يؤخر. سعد بذلك سعادة كبيرة، امتلأ ثقة بنفسه وبمستقبله، واستوصى بذكائه فلم يفش سر البيان لأحد.

وما لبث أن صدر قرار بنقله من المحفوظات إلى إدارة الميزانية. ليلتها وقف وراء نافذة حجرته ينظر إلى الحارة الغارقة فى الظلام. ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة. مستقرة فيما يبدو ولكن لا شىء جامد فى الكون. وقال إن الله خلق النجوم الجميلة ليحفزنا إلى النظر إلى أعلى. وإن المأساة أنها ستطل يوما من عليائها فلا تجد لنا من أثر. ولا يتحقق معنى لوجودنا إلا بالعرق والدم.

١٢

قال له سعفان بسيونى :

ـ سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما أنا سعيد بك .

وذاب عثمان فى الجو العاطفى بإخلاص وقتى فدمعت عيناه وتمتم :

ـ لن أنساك أبدا يا سعفان أفندى ولن أنسى عهد المحفوظات .

ـ ولكنى سعيد لأنك سعيد . .

فتنهد عثمان وقال :

ـ السعادة عمرها قصير جدا يا سعفان أفندى .

ولم يفهم سعفان قوله ولكن الآخر كان يعيشه . كان يحمل الزمن على ظهره لحظة فلحظة ويعانى الصبر نقطة نقطة . وسرعان مانسى تماما أنه رقى إلى السابعة أو أنه يعمل فى إدارة الميزانية . كان يعمل بجنون فى الوزارة ، ويتبحر فى المعرفة فى حجرته الصغيرة . وبين هذا وذاك يقول بجزع :

ـ العمر يجرى . . الشباب يجرى . . الأيام لا تريد أن تستريح . .

وما زال فى أول الطريق الطويل . وكان ولعه بالادخار يزداد مع الأيام ، واستمساكه بمسكنه البدائى يقوى ويشتد . المال حصن ، هكذا يشعر . وهو مهر عند الضرورة لعروس الأحلام . وعروس الأحلام هى التى تفتح مغالق الأبواب وتستنزل جوهرة المستقبل من معتصمها . وللموظفين فى ذلك أقوال مأثورة وحكم وأمثال .

العروس الجميلة إما أن تكون هدية مجد مبكر أو ذريعة إلى المجد المستعصى . والطريق يبدو شاقا وطويلا فهو فى حاجة إلى إسعاف . وهم يقولون :

ـ سعادة المدير العام ارتقى إلى مركزه الفريد وهو شاب تقريبا بفضل السياسة والأسرة فتزوج من فتاة من أسرة تعد من ملكات الجمال .

ويقولون أيضا :

ـ أما الوكيل الأول للإدارة فترقى بفضل زوجته ، أو أسرة زوجته وهو الأصح . .

وهو يزود نفسه بكل سلاح فلا عيب إذا استعان بعد ذلك بعروس كريمة ، وإلا فكيف يقف ضد تيار الزمن المتدفق بلا رحمة؟! ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله ويزيد بالتالى من مدخراته . ونجح فى ذلك نجاحا لا بأس

به. ولم ينفق مليما جديدا للتخفيف من تقشفه. ولم يعرف من عالم اللهو إلا زيارته الأسبوعية لقدرية فى الدرب وشرب قدح النبيذ الجهنمى بنصف قرش. قالت له مرة:

ـ أنت لا تغير هذه البذلة أبدا؟! هى هى صيفا وشتاء، أعرفها من سنوات كما أعرفك..

فقطب ولم يعلق فقالت:

ـ لا تغضب، أنا أحب الضحك..

فسألها بسذاجة:

ـ هل جمعت ما أعطيتك من نقود طيلة السنين الماضية؟

فقالت ساخرة:

ـ عشقت رجلا مرة فسرق منى مائتى جنيه، هل تعرف معنى مائتى جنيه؟

تخيل المصيبة فاستعاذ بالله، وقال لنفسه إن كوارث الدنيا لا تعد ولا تحصى، وسألها:

ـ وماذا فعلت؟

ـ لا شىء، ربنا يحفظ صحتنا فهى الأهم..

قال لنفسه إنها مجنونة بلا شك، ولذلك فهى بغى. ولكنها كانت الترفيه الوحيد فى حياته الشاقة، ووهبته عزاء لا بأس به. وأحيانا كان يحن إلى الحب وأيامه وسحره الذى يغير مذاق الدنيا، ويتذكر سيدة وسلم السبيل المهجور والصحراء، ولكنه يستسلم فى النهاية لدعابات الدنيا القاسية، ويرضى عن نفسه المعذبة لاختيارها الطريق العسير المكلل ببركة الله ومجده العالى. وقالت له قدرية ذات ليلة:

ـ ألا تحب أن نمضى صباح الجمعة معا فى نزهة؟

فدهش وقال:

ـ إنى أجيئك كاللص متخفيا فى الظلام..

ـ مم تخاف؟

ماذا يقول؟.. إنها لا تفهم شيئا. وقال معتذرا:

ـ لا يجوز أن يرانى أحد..

ـ هل ترتكب جريمة؟

ـ الناس..

فقالت هازئة:

ـ أنت الثور الذى يحمل الأرض على قرنيه.

إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها. وقالت له بإغراء:

ـ ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة، يمكن الاتفاق على ذلك..

فسألها بحذر:

ـ والثمن؟

ـ خمسون قرشا...

وفكر باهتمام. سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح. إنه فى حاجة إلى الراحة. قال:

ـ فكرة طيبة، ولتكن مرة فى الشهر..

ـ هل تكتفى بمرة واحدة فى الشهر؟..

ـ ربما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية.

واعترف بأنه لا غنى له عنها. إنها تماثله فى السن، ولكن يبدو أنها غافلة عن الزمن، وعن أثره السريع فيها. وهى تعيش بلا حب ولا مجد، وكأنها تؤاخى الشيطان فى غضبها. وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت فى مظاهرة فهتف محتدا:

ـ مظاهرة؟!

ـ ما لك؟!.. نعم مظاهرة.. حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما ما..

وقال إن الجنون منتشر أكثر مما تصور. الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه. وهو يصر على عدم الاكتراث بها. ويؤمن بأن للإنسان طريقا واحدة، وأن عليه أن يشقها وحيدا مصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات، وأن الإنسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه وبما يطالبه به فى هذه الحياة، وأن مجده يتحقق فى تخبطه الواعى بين الخير والشر، ومقاومة الموت حتى اللحظة الأخيرة.

١٣

واطلع عثمان بيومى ذات يوم على إعلان له شأنه. أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى مترجم للغتين الإنجليزية والفرنسية بمكافأة ٣٥ ج. م، وحددت يوما لامتحان مسابقة. اشترك فى المسابقة بلا تردد وبلا تفكير شامل. وأسفرت النتيجة عن اختياره مما زاد ثقته بنفسه واعتزازه بمواهبه. واستدعاه حمزة السويفى إلى مكتبه ـ وكانت الوظيفة الجديدة فى مكتبه ـ وقال له:

ـ أهنئك على نجاحك الذى يقطع بتعدد قدراتك .

فشكره عثمان بأدبه المعهود ، فقال الرجل :

ـ ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام ، فهل فكرت فى ذلك؟

لم يفطن فى الواقع إلى ذلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتبها الضخم نسبيا ، وقال :

ـ الحق أنى لا أرغب فى الخروج من الكادر العام . .

ـ هذا يعنى أن نعين التالى فى الترتيب؟

فطرأت على ذهنه فكرة طيبة فقال :

ـ ألا يمكن أن أرقى إلى الدرجة السادسة على أن تضاف إلى أعمال الترجمة وبذلك أوفر للميزانية مبلغا لا بأس به؟

فتفكر مدير الإدارة مليا ثم قال :

ـ المسألة تحتاج إلى مراجعة المستخدمين والإدارة القانونية . .

ـ ليكن يا سيدى . .

فضحك حمزة بك وقال :

ـ إنك طموح وحكيم ، أرجو أن يكون اقتراحك مقبولا . .

وتقررت ترقيته إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها ، وعلى الرغم من تضحيته بعشرة جنيهات ، فإنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلا عن الأهمية التى اختص بها بعمله المزدوج . وتمتع بسعادة قصيرة كالعادة . لم يعرف السعادة إلا خطفا مثل لقاءات الطريق العابرة . وعاد يقيس الطريق الطويلة ويئن تحت وطأة لا نهائيتها . ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك أن يلج مرحلة جديدة من العمر؟! وقبّله سعفان بسيونى وقال له :

ـ إنك تقفز بقوة مليحة يا ولدى . .

فقال بأسى :

ـ ولكن الأيام أسرع من الخيال . .

ـ هى كذلك كفاك الله شرها . .

فرنا إلى وجهه المتغضن وسأله :

ـ هلا حدثتنى عن طموح شبابك؟

ـ أنا؟! ، له الحمد ، كانت رئاسة المحفوظات أبعد من خيالى . .

ـ ألم تحلم بأن تكون المدير العام؟

فأغرق الكهل فى الضحك حتى دمعت عيناه، ثم قال:

ـ نحن أبناء الشعب لا نطمع فيما يتجاوز رئاسات الأقسام.

إنه مخطىء. إنما يصدق كلامه على وظائف الوزراء والوكلاء، أما وظيفة المدير العام فلا تستعصى على أبناء الشعب، هى أملهم المنشود والأخير. وبخاصة الأفذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم. بيد أن الأيام تمر بلا توقف، وفى غفلة ونعومة، ولا قيمة لدرجة المدير العام إذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها أعواما حتى ينعم بها وينعم بالدنيا فى ظلها ويحقق باسمها أجل الخدمات للجهاز المقدس الذى يسمونه الحكومة.

ومتى يكمل نصف دينه؟ قبل بلوغ الأمل أم بعده؟ يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة. فإما العروس التى ترفع إلى العلا، وإما العلا الذى يحظى بالعروس الباهرة. ومن شدة معاناته للعذاب يحن أحيانا للهدوء والخمول ويتطلع إلى الجهاد الشاق الذى يهب الحياة معناها الوحيد، وعذابها المقدس.

وسمع ذات يوم أن مدير الإدارة حمزة السويفى يشكو ضعف نجله فى اللغات الأجنبية، فاقترح عليه أن يساعده. وتردد الرجل قائلا:

ـ الأوفق أن أحضر له مدرسا خاصا حرصا على وقتك.

فقال له بأسلوبه المختار:

ـ لن أغفر لسعادتك هذا القول..

وتردد على بيت المدير، فقدم للشاب مساعدة فذة كان لها أثرها فى إنجاحه. وفكر المدير فى تقديم مكافأة له، فتراجع كأنما يجفل من نار وقال:

ـ لن أغفر لسعادتك هذا أيضا..

وأصر على موقفه حتى سلم الرجل، فقال له بنبرة الممتن:

ـ ما زلت أسير فضلك وتشجيعك..

على أنه شعر فى أعماقه بألم يناسب المبلغ الذى رفضه بشهامته. وثمة خيبة أخرى عاناها فى تردده على بيت المدير، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا «مناسبة»، ومن يعلم؟.. وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك فيغضى عن وضاعة أصله، ويقبله فى طبقة جديدة تمهد له السبيل إلى التقدم. ولكن الحلم لم يتحقق، ولم يصادفه فى تردده إلا الذكور! سعفان بسيونى ما كان يهمه أصله فهما من أصل واحد تقريبا ومنبت متشابه ولكن أى فائدة كان يرجوها من الزواج بكريمته؟ لا شىء إلا الذرية والمتاعب والفقر. ولا حب أيضا. فهو لم يحب إلا سيدة، وقد مات قلبه مذ سلاها، ولكن المتطلعين إلى المجد فى طريق الله لا يحفلون بالسعادة.

وتمضى الأيام، وستمضى أبدا، بصيفها اللافح وخريفها الحالم وشتائها القاسى وربيعها الفواح، وسيظل عزيمة مثابرة وهمة متصاعدة وقلبا معذبا وأشواقا طاحنة.

١٤

وزارته أم حسنى كعادتها بين الحين والحين. أهدته برطمانا من الليمون المخلل وجلست على الكنبة وهى تنظر إليه باهتمام أثار فضوله. ضربت على ركبتها فجأة وقالت:

ـ تحزننى وحق الحسين وحدتك..

فابتسم بلا اكتراث فقالت:

ـ أنسيت أنك تتقدم فى العمر؟

ـ كلا طبعا يا أم حسنى..

ـ وأنه لا يوجد ما هو أغدر من السنين؟!

ـ صدقت.

ـ أين الذرية لتؤنس وحدتك؟

ـ فى عالم الغيب.

وصمت قليلا حتى قال ضاحكا:

ـ طبع مهنتك يتحرك فيك يا أم حسنى..

فضحكت وقالت:

ـ اسمع، عندى شىء ثمين..

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث بإغراءاته العذبة المجهولة. قال:

ـ دائما عندك شىء ثمين.

فقالت بأمل:

ـ حلوة.. أرملة.. متوسطة العمر.. ولكنها عاقلة، بنت المرحوم شيخ الحارة..

ـ هه!

ـ لها بنت وحيدة فى الرابعة عشرة!

ـ إذن هما امرأتان لا امرأة واحدة..

ـ ستذهب البنت إلى بيت عمها.. لا تحمل هما من هذه الناحية..

ـ عظيم .

ـ وهى صاحبة ملك !

ـ حقا؟ !

ـ بيت فى برجوان . . . فى حوشه شجرة توت . .

نظرت إليه ببصرها الضعيف لترى أثر كلامها ، فتوهمت رضاه ، وقالت :

ـ ستراها بنفسك . .

وبإرشاد من أم حسنى رآها فى السكة الجديدة . رآها ترتدى معطفا ولكن وضح له أن مشيتها المتثنية الوانية تربت وترعرعت فى الملاءة اللف . مائلة للقصر وبدينة ، ذات وجه ريان وشعر أسود .

نادت فيه رغبة بدائية . مثل قدرية . قال إنها أنظف ربما ولكن متاعبها أكثر بما لا يقاس . وشعر برثاء نحو أم حسنى التى تجهله كل الجهل رغم طول المعاشرة . من أين لها أن تفهم معنى مراجع بإدارة الميزانية ومترجم؟ مأساة الآدمية أنها تبدأ من الطين ، وأن عليها أن تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم .

وسألت أم حسنى :

ـ ما رأيك؟

فأجاب باسما :

ـ سيدة ممتازة . . ما زلت أستاذة !

ـ هل أكمل ما بدأت؟

فأجاب بهدوء :

ـ كلا .

ـ ألم تقل إنها سيدة ممتازة؟

ـ ولكنها ليست بالزوجة الصالحة لى .

وأثبتت العجوز أنها أعند مما يتصور ، فجاءته يوما وهى تقول :

ـ من المصادفات السعيدة أن ست سنية جاءت تزورنى . .

فتحركت الرغبة البدائية واستسلم لضعف طارئ فذكرته أم حسنى بقولها قائلة :

ـ جاءت تزورنى . .

فقال بخبث :

ـ لعلها تزورنى أيضا .

فقالت وهى تمضى :

ـ إذا شئت فانزل أنت . .

ولم يتردد فنزل . وغلب الصمت فانفسح المجال لأم حسنى فراحت تتكلم بلا توقف . وتذكر عثمان أنه لم يتكلم كلاما له معنى إلا مع سيدة . واضطر إلى أن يقول :

ـ شرفتنا . .

فهمست :

ـ متشكرة . .

ـ الجو بارد اليوم .

ـ نعم .

ـ هل انتهيت من تبييض بيتك؟

فأحنت رأسها بالإيجاب .

حاولت أيضا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنه لزم الصمت . ورغبته تأججت ولكن بلا أمل وتحركت سنية حركة خفيفة تنبئ عن رغبتها فى الذهاب فقام من فوره ، سلم وذهب . وبدلا من أن يصعد إلى شقته هبط أسفل السلم مضمرا خطة تتسم بالجرأة . سمع أقدامها وهى تتحرك على السلم نازلة . دهشت لمرآه فقال متظاهرا بالدهشة كذلك :

ـ فرصة طيبة . .

أوسع لها ولكنه همس وهى تحاذيه :

ـ تفضلى لشرب فنجان شاى فوق . .

فقالت بعجلة :

ـ شكرا . .

ـ تفضلى عندى ما أقوله . .

فقالت باحتجاج :

ـ كلا .

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك . قال وأطرافه ترتعش بالرغبة إنه أسرع ، كيف تصور أنها يمكن أن تقبل؟ ولكنها الرغبة وقلة الصبر والحيلة . وصعد خجلان غاضبا . وقال إنه سيظل مراهقا حتى يستقر فى بيت محترم .

١٥

حالته المالية تتحسن يوما بعد يوم، استحق علاوة، وعائده من الترجمة يتزايد. ولأنه لا ينفق إلا ما تحتمه الضرورة، فرصيده فى البريد يرتفع باستمرار. وهمته فى العمل لا تهن، وعلاقته بمدير الإدارة حميمة كأنها الصداقة، ويوما قال له:

- أبدى سعادة المدير العام إعجابه بأسلوبك فى الترجمة..

فاجتاحته موجة فرح حتى أغرقته، وأيقن بأنه لن ينام من الليل ساعة. طبعا سعادته لا يتذكره، ولكنه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنوى. قال مدير الإدارة:

- سعادة المدير مترجم كبير، ترجم كثيرا من الكتب المهمة فهو يقدرك عن بينة!

وتمتم شاكرا، ثم قال:

- إنما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عنى.

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة فى الود:

- دعيت لإلقاء محاضرة فى جمعية الموظفين، وقد سجلت نقاطها، فما رأيك فى أن تكتبها بأسلوبك الممتاز؟

فقال بحماس:

- إنها لسعادة كبرى يا سيدى المدير.

إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا. إن عمله فى الإدارة - على ضخامته وتقدير الجميع له - لن يكفى وحده. فلا أقل من تقديم الخدمات للرؤساء، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة. ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه. ولكنه عزاء يتزود به فى طريقه الطويل. وفى الليل غشيته كآبة بلا مقدمات وهتف:

- يا لى من مجنون، كيف أتصور أننى سأبلغ يوما مرادى؟!

وحسب ما ينقصه من درجات، الخامسةوالرابعة والثالثة والثانية والأولى، قبل أن يتبوأ ذروة المجد! حسب ذلك وما يقتضيه من سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالأسى. وقال إنه يجب أن يحدث شيء كبير، وأن حياته لا يمكن أن تضيع هدرا. وكان على موعد مع سعفان بسيونى فى المقهى فارتدى ملابسه وغادر الشقة. وجد أم حسنى فى انتظاره أمام شقتها فقالت له:

- عندى ضيوف يجب أن تسلم عليهم، عندى سيدة وأم سيدة..

دخل وسلم. دخل كالخائف ولكن سرعان ما أدرك أن كل شيء قد انتهى وانقضى. لم يلمس لمحة جفاء أو عتاب واحدة، ولكنه رأى نظرة محايدة لا تكلف فيها ولا التماعة تذكر، فأيقن من سقوط الماضى فى هوة الموت اللانهائية. وضاعف من إحساسه العميق بالزمن ترحيب الأم به ترحيبا صافيا بلا شائبة. رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظن بها الخلود والأبدية فإذا بها ذكرى مجردة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنها خروج آدم من جنة الخلد. وها هى ذى سيدة تميل إلى البدانة والبلادة، ذكرته بقدرية، فأمعن فى الاضطراب ورأى أعلى ملاءتها قد هبط عن رأسها فطوق منكبيها، فانطلق الرأس والعنق فى حرية، وتراجع منديلها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدم شعر مفروق، أما الألق الذى ألف أن يطالعه فى عينيها فقد استقر وانطفأ. تمت المقابلة فى جو محنط وغربة ساخرة، وعبثا حاول أن يجد فوق الشفتين الغليظتين أى أثر لشفتيه أو أسنانه. مكث ما تقتضيه المجاملة ثم ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتاك ذى الابتسامة الناعمة القاسية. ذهب إلى رئيسه القديم لقضاء سهرة ودية لمناسبة إحالته على المعاش بعد أيام معدودات. أمسى الكهل عودا هزيلا، هلكت آخر شعرة فى رأسه، لا بسبب الكبر ولكن لمرض فى المعدة، ولكنه ظل طيبا مستسلما كالعهد به. ووضح أنه يستقبل نهاية خدمته بكآبة وحزن وتشتت، فمضى يجامله ويقول:

ـ أتمنى لك راحة سعيدة مديدة..

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها:

ـ لا أدرى كيف تكون الحياة بعيدا عن المحفوظات..

ثم وهو يتنهد:

ـ ولا هواية لى، وهذا هو المزعج حقا..

ـ ولكنك محبوب، الجميع يحبونك..

ـ نعم، ولم تعد لدى واجبات عائلية بلا إنجاز، ولكننى خائف.

وجعلا يحتسيان الشاى وهو يسترق منه النظر برثاء حتى رجع يقول ـ الرجل ـ:

ـ أذكر يوم التحاقى بالخدمة كأنه الأمس، إنه يوم لا ينسى مثل ليلة الدخلة، أذكره بكل تفاصيله، كيف مر ذلك العمر بهذه السرعة؟!

فانقبض قلب عثمان وتمتم:

ـ نعم كأشياء كثيرة..

فابتسم إليه كأنما يفتتح بالابتسامة عهدا جديدا وسأله:

ـ وكيف حال أعبائك العائلية؟

تذكر ادعاءاته الكاذبة فقال :

ـ ما زال الحمل غير خفيف . .

فرنا إليه بمودة وقال :

ـ تسلمتك غلاما كبيرا ليس إلا ، وها أنت ذا اليوم رجل كامل ، وعما قليل . . ولكن ما علينا ، المهم ألا يسرقك الزمن ، خذ بالك بكل قوة . .

ـ عظيم ، وهل يجدى ذلك؟

ـ على الأقل لا يجوز أن يفوتك القطار . .

ـ هل تقصد الزواج؟

ـ كل شيء ، دائما أراك فى حال تأهب واستعداد ، لأى شيء؟ وحتى متى؟

ـ ولكن هذه هى طبيعة الحياة . .

فلوح الرجل بيده محتجا وقال :

ـ كلنا يتكلم عن الحياة بثقة كأنما يعرفها حق المعرفة . .

ـ لا مفر من ذلك . .

ـ لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها . .

ـ من حسن حظنا أنه موجود وأنه أعلم منا بما يفعل . .

فقال الكهل بعمق :

ـ الحمد لله . .

وصمتا وتكلما ، ثم صمتا وتكلما حتى آن وقت الذهاب . شعر عثمان بأنه لن يراه مرة أخرى . ولم تكن تربطه به إلا زمالة قديمة وإحساس بالواجب ولكنه وجد نحوه ـ فى لحظته ـ أسى غير قليل . قال الكهل وهو يصافحه :

ـ أتوقع ألا تنسانى؟

فقال بنبرة أحر من قلبه :

ـ معاذ الله . .

فقال الرجل برجاء :

ـ النسيان هو الموت .

ـ مد الله فى عمرك .

ولم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقى من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجحود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الدينى ، ومضى فى طريقه لا يرى شيئا ، وعلى الرغم منه تركز تفكيره فى الدرجة الخامسة التى ستخلو بعد أيام .

وكانت مكانته قد تدعمت لدى مدير الإدارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن.

ورقى إلى الدرجة الخامسة فى نفس الشهر مع نقله رئيسا للمحفوظات.

١٦

هبة قيمة تتخلق فى الفراغ المشحون بالصبر. الوثبة الجديدة وثبة حقيقية. وامتيازها الخطير أن رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات المهمة على حضرة صاحب السعادة المدير العام ليتلقى توجيهاته وينفذها فى سرية تامة. رضى الله عنه أخيرا ففتح له الباب العالى الموصل إلى الحضرة الإدارية العليا. وهى فرصة سلطانية تطالبه باستغلال جميع ماتمرس به من خبرة وثقافة ولباقة وإخلاص. ها هى ذى الحجرة المترامية كميدان التى يحلم بأن يحكم منها ذات يوم. الحلم الذى يجب أن يتحقق ولو ضحى على مذبحه بجميع القرابين، الحلم المضنون به على غير أهله من الأكفاء الذين يشترونه بمسرات الدنيا الرخيصة العابرة.

وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض، سقفها الأبيض الأملس، ونجفتها الكرستال، وجدرانها المورقة، مدفأتها الموشاة بالقرميد، بساطها الأزرق الذى لم يتخيل إمكان وجود بساط فى طوله وعرضه، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلورى، وتحفه الفضية من وراقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلى.

وتهيأت فرصة لا ستراق النظر إلى المدير السعيد وهو مستقر فوق مقعده الكبير، يطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق، وطربوش غامق الاحمرار، ورائحته الزكية، وشاربه الأسود المتوسط الطول والارتفاع، وهالة الصحة التى تطوقه، وبدانته المتوسطة وإن لم يعرف على وجه الدقة طوله، وتحفظه الراسخ المهيب الذى يجعل من صداقته مطلبا عزيز المنال.

ها هو ذا يقف فى حضرته، فى متناول أنفاسه، فى مجال رائحته الزكية، يكاد يسمع نبضه، ويقرأ أفكاره، ويستلهم رغائبه، وينفذ - قبل البوح - أوامره، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته، وقرة عين حلمه الأبدى أن يجلس ذات يوم مكانه.

انحنى بأدب وورع وقال:

- صبحك الله بالسعادة يا صاحب السعادة.

فرفع إليه بصره مغمغما برد التحية ، فقال الآخر يقدم نفسه :

ـ عثمان بيومى رئيس المحفوظات .

فقرأ فى ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتسامة لم ترتسم على شفتيه ، فقال مستزيدا من تقديم نفسه :

ـ الجديد يا فندم .

ـ والمترجم . أليس كذلك؟

فقال بقلب خافق :

ـ بلى يا صاحب السعادة .

فقال بصوت منخفض :

ـ أسلوبك جيد . .

ـ إنه لشرف عظيم هذا التشجيع . .

ـ هل لديك مراسلات مهمة؟

راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات ويتلقى في دقة التوجيهات . انحنى مرة أخرى ثم غادر الحجرة ثملا بالأفراح . فكر فى طريق عودته إلى المحفوظات بأن حمزة السويفى يتراجع ـ فى حياته ـ إلى الظل حتى يدركه الظلام الذى ابتلع سعفان بسيونى وأن مستقبله أصبح منذ الساعة بيد حضرة صاحب السعادة بعد الله ذى الجلال . وقال لنفسه :

ـ احذر يا عثمان مغبة السير الرتيب ، لا بد من وثبة أو وثبات . . .

وقال أيضا :

ـ سعفان بسيونى قضى نصف مدة خدمته فى الدرجة التى أسلمته إلى المعاش!

وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للإدارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتى إلا عن طريق حمزة السويفى ، بأن يرقى أو يحال إلى المعاش أو . . يموت!! وامتعض من نفسه كما يحدث له كثيرا ، وابتهل إلى الله قائلا :

ـ أسألك اللهم العفو والسماح!

وتساءل :

ـ لماذا خلقنا على هذه الصورة الفاسدة؟

قل أن يرضى عن طبيعته ولكنه يسلم بواقعها ، ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه أمواج الخير والشر ، وأن شيئا لا يمكن أن ينال من قدسيته سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرات السهلة وأحلام اليقظة .

ـ اغفر لى ذنبى إننى أحب المجد الذى بثثت حبه فى نفسى يا ذا الجلال . .

وساءل نفسه بتصميم :

ـ كيف تقنع حضرة صاحب السعادة بفوائدك؟ . . هذه هى المسألة .

كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو خزى؟ وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة السويفى؟ وفى نطاق الكبرياء والشموخ وإن يكن فى الحدود الرسمية بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة؟

ـ إن جهادى شريف، أما العواطف والأفكار فهى ملك لله وحده . .

إنه يؤمن بأن الله خلق الإنسان للقوة والمجد، الحياة قوة، المحافظة عليها قوة، الاستمرار فيها قوة، فردوس الله لا يبلغ إلا بالقوة والنضال .

وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة صاحب السعادة بهجت نور المدير العام نيشان النيل . حبر مقالة فى تهنئته نشرتها له صحيفة يمدها عادة بترجماته . نوه فيها بالحزم والخلق والدين والإدارة والمثالية، قال إنه مثال للمدير الوطنى الذى ظُن يوما أنه لا يمكن أن يقوم مكان المدير الإنجليزى .

وعندما دخل الحجرة العصماء لعرض البريد، ابتسم صاحب السعادة له لأول مرة، وقال له :

ـ أشكرك يا عثمان أفندى . .

فقال وهو ينحنى :

ـ الشكر لله ياصاحب السعادة . .

ـ أما أسلوبك فمما تغبط عليه .

وآمن بأنه ليس بالنبيذ الجهنمى وحده يسكر الإنسان . ولكن السكر لا يدوم . وكثيرا ما يعقبه خمار . ويخيل إليه أن عجلة الأيام تزيد من سرعتها . غاية ما يذكر أن الزمان لم يكن موجودا . كانت حارة الحسينى مكانا صرفا . لا خطورة للدرجة الخامسة فى حياة رجل يتوسط العمر . رجل يرفع رأسه دواما نحو النجم القطبى، يحبس نفسه فى حجرته الصغيرة المكتظة بالكتب . خير ما فى حياته من طعام لحمة الرأس أو الكباب فى المواسم السعيدة . ولا يعرف من مسرات الدنيا إلا النبيذ الجهنمى وقدرية الزنجية فى الحجرة العارية . إنه بحاجة إلى دفء إنسانى حقيقى، إلى عروس وأسرة . لم يعد يحتمل أن يحترق فى الحياة وحيدا . .

ما أحوجه إلى أنيس فى هذا الكون المكتظ بملايين الأكوان! . .

١٧

دعا أم حسنى لزيارته. صنع لها القهوة بيده على موقده الكحولى. لعلها شعرت بأنه يتهيأ للكلام فى قلق عذب. قالت برجاء:

- قلبى يحدثنى أنك ناديتنى لأمر، يشهد الله بأننى حلمت أمس..

فقاطعها:

- لا داعى للأحلام يا أم حسنى، أريد عروسا.

فتهلل وجهها وهتفت:

- يا ألف نهار أبيض..

- عروس مناسبة..

- ما أكثرهن!

- لى شروط يا أم حسنى، افهمينى جيدا..

- عندى الأبكار والثيبات، مطلقات وأرامل، الغنيات ومن هن على باب الكريم..

فقال بصوت حاسم:

- أبعدى فكرك عن حارتنا، عن حينا كله..

فتساءلت بحيرة:

- ما هى أفكارك يا بنى؟

- أريد عروسا من أسرة كريمة..

- عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدى.

فقاطعها بنفاد صبر:

- لا تفكرى فى حينا، عليك بالأسر الكريمة..

- تقصد..؟

- الأعيان.. كبار الموظفين.. أصحاب السلطة.

بهتت المرأة كأنما تسمع عن عالم فلكى جديد.

- الظاهر أنه لا حول لك فى هذا المجال.

فقالت بيأس:

ـ تفكيرك غريب يا بنى . .

ـ ليكن . .

ـ لا حول لى كما قلت ولكنى أعرف أم زينب الخاطبة بالحلمية .

ـ عليك بها، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت صاحبة الفضل الأول . .

وهى تضحك :

ـ أنت بخيل يا سى عثمان .

ـ يا ولية يا ظالمة، هذا وعد ورحمة أمى . .

ـ ربنا يوفق .

ـ ليس من الضرورى أن تكون بكرا، لتكن أرملة . . مطلقة . . عانسا . . لا يهمنى الجمال ـ ولكن لتكن مقبولة ـ ولا يهمنى السن ولا المال .

هزت المرأة رأسها فى حيرة فقال :

ـ عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا إلى الوزارة . أما . .

وسكت قليلا ثم استطرد :

ـ أما الأصل فيمكن القول بأن الأب كان تاجرا مثلا، هل يتحرون عن ذلك بدقة؟

ـ نعم . . رحم الله والديك . .

ـ على أى حال قد يشفع لى شخصى، ولنجرب!

ومضت الأيام مرهقة وهو ينتظر . وكلما رجع إلى أم حسنى أوصته بالصبر . تخيل أسباب التأخير وقلبه يغوص فى الظلام، وراح يتردد على مقام الحسين .

وحدث فى تلك الأيام أن تخلف عن العمل مدير الإدارة حمزة السويفى . وعلم بأنه لزم الفراش لارتفاع شديد فى ضغط الدم . وزاد من الحرج العام أن الإدارة كانت بصدد إعداد الميزانية الجديدة . وقد عاده فى مرضه، وجلس قرب فراشه طويلا . وأبدى من الحزن والإشفاق ما أطلق لسان الرجل بالثناء عليه والدعاء له أن يكفيه الله شر الأيام . وتذكر عثمان فى جلسته أنه لم يزر سعفان بسيونى، وأنه ترك أخباره تنقطع عنه كأنه رحل . وقال مخاطبا حمزة السويفى :

ـ ارتح تماما، ولا تترك الفراش حتى تسترد عافيتك بالكامل، ولا تقلق من ناحية العمل فإنى والزملاء فى خدمتك . .

فشكره الرجل وتمتم فى قلق :

ـ مشروع الميزانية!

فقال له بيقين :

- سيعدّ بإذن الله، كلهم تلاميذك ويعرفون من العمل تحت رياستك ما ينبغى عمله . .

أما فى الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه، قيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحى على الأقل عن مهامه الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفى تلقاه بسخط وقلق . . كالعادة، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه . وإذا بالمدير العام يصدر قرارا بتشكيل لجنة خاصة لإعداد الميزانية جعله مقررها . وتم اختياره عن دلالة لا تخفى على أحد . أجل لم يشك أحد فى كفاءته ولا فى حكمة القرار من هذه الناحية، ولكن - قيل - ألم يكن اللائق أن تسند رئاستها إلى وكيل الإدارة محافظة على الشكل؟! أما هو فكرس كل قواه لإعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته فى توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارات الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . واقتضى العمل الاتصال المباشر بحضرة صاحب السعادة والاجتماع به ساعة كل يوم وأحيانا ساعتين، حتى حلت الألفة بينهما مكان الكلفة . وامتد الاجتماع يوما أربع ساعات فأمر له بقهوة، وقدم له سيجارة ولكنه اعتذر شاكرا لكونه غير مدخن .

مرت أيام أترعت قلبه بالسعادة والزهو والأمل، ورضى الرجل عن عمله فشعر برضا الله وإقبال الدنيا . وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين .

ورجع حمزة السويفى إلى مكتبه مستردا صحته فى اليوم الأخير لعمل اللجنة، وأعلن عثمان أفراحه فعانقه داعيا له بطول العمر . قال له :

- كنا كالضائعين فالحمد لله على سلامتك .

وتساءل الرجل :

- والمشروع؟

- أعد، وكتبت المقدمة، هما معروضان الآن على صاحب السعادة، وسوف تطلع عليهما غدا أو بعد غد، ولكن كيف حال الصحة؟

- الحمد لله أجروا لى حجامة، ووصفوا لى رجيما دقيقا، والأمر لله من قبل ومن بعد .

- ونعم بالله . . . ما هى إلا سحابة صيف . .

ألف فى خدمته الطويلة انقسام الشخصية والعذابات الأخلاقية . كما ألف الصدمات المتوقعة وغير المتوقعة . كهذه الصدمة مثلا . وجثم الفتور فى أعماق قلبه حتى اليأس . ولذلك فعندما خلت درجة رابعة فى الإدارة القانونية دفعه التوتر إلى الكلام . أول مرة تكلم فيها بلسانه بعد أن اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته . وبفضل الجو الذى خلقه العمل بينه وبين صاحب السعادة قال له :

- لو تعطف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد يرى أن أستغل ثقافتى القانونية فى الإدارة القانونية . .

- كلا ، الإدارة القانونية وقف على أصحاب امتيازات يحسن تجنب التعرض لها . .

آه . . كالعروس التى طال انتظاره لها . وامتعض ولكنه قال بخشوع :

- أمرك يا صاحب السعادة !

ومضى نحو الباب ولكن صوت الرجل أدركه قائلا :

- اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات إلى الرابعة فى الميزانية الجديدة .

رجع فى خطوة واسعة واحدة وانحنى حتى كاد رأسه يمس طرف المكتب .

١٨

وثبة موفقة لا شك فى ذلك . وإذ جرى الحظ بذلك المعدل فربما بلغ المراد فى اثنى عشر عاما أو خمسة عشر ، ويتبقى له عدد لا بأس به من السنين يمارس فيه الإدارة الكبرى كصاحب سعادة . أما مهمة أم زينب فقد باءت بفشل أكيد ، لم يعد من مجال للشك فى ذلك .

- رئيس المحفوظات رفض بلا عناء ، مدير الإدارة ربما قبل ، أما صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ أرذل العمر !

لا حصر للأسباب التى تدعوه للزواج . منه يستمد العون ، ويبدد وحشة القلب وعذابات الوحدة ، ويرضى ورعه الدينى الذى يرى عزوبته إثما . قدرية تؤدى دورا ملطفا فى حياته المتوترة ولكنها لا تهيئ رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضاعفتها لمشاعر الإثم . العزاء الباقى هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه :

- هكذا عاش الخلفاء الراشدون !

وذات يوم وهو يعمل فى المحفوظات بوغت بسعفان بسيونى يقف أمامه مهدما مهزولا كأنه شبح يودع الحياة . نهض للترحيب به خجلان من هول ما أهمله . وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة :

- أى فرصة سعيدة !

فاستجمع العجوز أنفاسه بجهد جهيد ثم تمتم :

- كم أوحشتنا يا رجل!

فهتف بأسف وندم:

- اللعنة على العمل، اللعنة على البيت ومن فيه، كم أننى آسف يا صديقى العزيز.

قال بصوت شاك:

- أنا مريض يا عثمان . .

- لا بأس عليك، بخير إن شاء الله، هل آمر لك بقهوة؟

- لا شىء ألبتة، كل شىء ممنوع . .

- ربنا يرد لك الصحة والعافية . .

غاص فى الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن أن تنتهى هذه المقابلة التعيسة. وصمت سعفان قليلا ثم قال بانكسار وذل:

- إنى فى مسيس الحاجة إلى ثلاثة جنيهات.

غص بالكلام ثم استدرك:

- للعلاج كما ترى!

ارتعد عثمان. رأى أن الخطر يوشك أن يدهمه. بلا رحمة. هتف بطريقة مؤثرة كالمطارد:

- يا للفظاعة، ما كنت أتصور، ما كنت أتصور أن أرد لك طلبا، فضلا عن هذا الطلب بالذات، أيسر علىّ أن أسرق من أن أرفض طلبك!

فازدرد الرجل ريقه وقال بيأس:

- ولا جنيه واحد؟!

- ألا تصدقنى يا أعز الناس؟! والله لولا الحياء، لولا الحياء . . .

يئس الرجل تماما. غرق فى أفكار مجهولة. قام بصعوبة وهو يقول:

- إنى مصدقك، كان الله فى عونك، ربنا يلطف بنا كلنا . .

دمعت عينا عثمان وهو يصافحه. دمعة حقيقية. لا تمثيل فيها. هى تكثيف لبعض أبخرة الصراع المعذب الناشب فى أعماقه. كاد يلحق به. لكنه لم يتحرك. تركه يذهب. رجع إلى المكتب وهو يناجى نفسه:

- يا للعذاب! . .

وقال:

- كان يجب أن نقد من صخر أو حديد لنستطيع تحمل الحياة . .

وقال أيضا :

ـ الطريق طويلة جدا، عزائى أننى أقدس الحياة ـ نعمة الله ـ ولا أستهين بها!

فى نفس الأسبوع أبلغ بنعى سعفان بسيونى! فصدم صدمة عنيفة على الرغم من أن الأمر كان متوقعا.

ومن شدة ألمه صاح بنفسه :

ـ كف عن التألم، لديك من العذابات ما يكفيك.

وتساءل :

ـ إنى محسود، فهل أنا سعيد!؟

وتساءل أيضا :

ـ ما السعادة؟

ثم قال :

ـ سعادتنا الحقيقة أن الله موجود.

ثم بإصرار :

ـ إما أن نحيا وإما أن نموت!

١٩

الوقت كالسيف إن لم تقتله قتلك. بات خبيرا بقتل الوقت ولكن هل نجا حقا من سيفه؟! أمس خلا إليه موظف جديد شاب ليسأله النصح فى مسألة خاصة فمهد لسؤاله بقوله :

ـ معذرة يا سيدى الرئيس، إنما أسألك كوالد أو أخ أكبر!

وقع قوله من مسمعه موقعا غريبا حتى خيل إليه أنه يسخر منه! كوالد؟! حقا كان من الممكن أن يكون له ولد فى سنه. لِم لا؟. ومع ذلك فإنه لم يهمل قط في قتل الوقت.

ويوما قالت له أم حسنى :

ـ أما هذه المرة فهى ناظرة مدرسة!

اهتز بسرور لا خفاء فيه. ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين أنه يريد «مصعدا» فما العمل؟

ولم يستطع أن يقاوم حب الاستطلاع فسأل العجوز :

ـ طاعنة فى السن؟

ـ عز الأنوثة . . خمس وثلاثون سنة على أكثر تقدير . .

ـ أرملة أو مطلقة؟

ـ عذراء كما خلقها الله ، لم يكن يسمح لهن بالزواج كما تعلم . .

ولم يجد بأسا فى أن يراها . رآها فى السيدة . مقبولة المنظر والمبنى . أثارته كما أثارته سنية من قبل . هكذا رآها وعلم أيضا بأنها رأته .

وقالت له أم حسنى فى مقابلة تالية :

ـ لن تكلفك مليما واحدا . .

فأدرك أنه حاز القبول . وها هى ذى تقترح أن تجهز نفسها وتعد بيتها ولن يطالب إلا بالهين . قالت العجوز :

ـ الدبلة والشبكة وبعض النثريات ، فهل أقول مبارك؟

ـ صبرك . .

ـ لها شرط واحد أن يكون مؤخر الصداق مائة وخمسين جنيها . . .

كل شىء جميل ويوافق تماما حرصه . وهو مناسب جدا إذا كان يروم إكمال نصف دينه فقط ، ولكن ماذا عن دنياه؟! . . رغم ذلك غرق فى دوامة التفكير ربما بسبب شعوره بتقدم العمر . بسبب الإيحاءات المجهولة التى انثالت عليه من عالم الغيب . بسبب ما لاح له ساخرا وقاسيا وغادرا . بسبب الأزهار التى لم يتشممها والأنغام التى تتردد بعيدا عن تناول أذنيه . بسبب التقشف والحرمان . ومع ذلك قال لنفسه :

ـ أى تفكير وأى تردد؟ هراء فى هراء . . لن أجن على آخر الزمن!

وتمنى لو تنشأ بينهما علاقة ما . غير مقدسة!! ولكنه يلقى رفضا أشد مما لقى لدى سنية . والقبول ليس سعيدا كما يتبادر إلى الذهن . فهو يقتضيه إعداد شقة وتأثيثها . وانقبض قلبه خوفا . وقال لأم حسنى ببساطة آخر الأمر :

ـ كلا . .

فهتفت العجوز :

ـ أنت تعنى شيئا آخر . .

ـ قلت كلا . .

ـ أنت لغز يا بنى .

فضحك بلا سرور .

ـ ماذا تريد؟ . . ألا تحب جنس النساء؟

فضحك مرة أخرى . .

ـ غفر الله لك . .

فقالت العجوز :

ـ أنا حزينة يا بنى . .

فقال لنفسه ، بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلهى . .

٢٠

وجاءت أنسية رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداوية طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوة من قبل . قال إنه تائه فى صحراء قاحلة تتلظى بالنيران ، لم يفز بشىء ذى قيمة ، الأمل طويل والعمر قصير ، والماضى حقير ، رغم العواطف الشخصية الحميمة فهو حقير ، رمزه الحقيقى قبر الصدقة والسجن ، والشهيد فى أسرته استشهد فى جانب الظلم والبغى ، وهو بلا صديق ، انقطعت الصلة تماما بينه وبين أقران صباه ، له زملاء يحترمونه ويحسدونه ولكن لا صديق له ، الوحيد الذى يجالسه أحيانا ، فى صفاء خادم فى جامع الحسين ، والهبة الرومانسية فى حياته الجافة حجرة عارية وبغى نصف زنجية .

ـ ما معنى هذه الحياة؟

وهو كرس نفسه حقا لطريق الله المجيد ولكنه يغوص فى الآثام ، ويتلوث ساعة بعد أخرى ، ويبدو أنه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوة .

ـ كأنها لعبة خاسرة!

في الأتون المتقد ، وهو يتلظى فى جحيمه ، وفدت على المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبير جديد ، جديد على المحفوظات والإدارة العامة بكل معنى الكلمة . كانت أول فتاة تلحق بالإدارة وبالمحفوظات بالذات . سمراء رشيقة متناسقة القسمات بسيطة الملبس . أثار منظرها ارتباكه ودهشته وعطفه وهى تقف أمام مكتبه مقدمة نفسها . دعاها للجلوس وهو يلمح رءوس الموظفين تبرز من بين صفوف دواليب شتى . إنهم يتعجبون ولا يصدقون .

ـ أهلا بك . .

ـ متشكرة ، اسمى أنسية رمضان .

ـ تشرفنا ، يبدو أنك صغيرة جدا؟

ـ كلا. ثمانية عشر عاما!

ـ عظيم.. عظيم.. وما شهادتك؟

ـ بكالوريا علمى..

ـ جميل، لِم يا ترى لم تكملى تعليمك؟

وندم على ما فرط من سؤاله. وعاودته ذكريات أول يوم في خدمته فى حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العام، أما الفتاة فأجابت بحياء:

ـ ظروف اضطرتنى إلى الاكتفاء بذلك.

ولعن الظروف ولكنه تعزى باشتراكهما التاريخى فى هم مخيف واحد. قال ملاطفا:

ـ إنك تذكريننى بنفسى، ولكن اعلمى يأننى أكملت تعليمى وأنا موظف، وأن الأبواب المغلقة خليقة بأن تفتح أمام الهمة العالية..

فغامت عيناها برنوة حزن وقالت:

ـ ولكننا نعايش مجتمعا فظا سيئا..

وجد الأفكار «الثورية» التى يجهلها ويتجاهلها تهدد بمطاردته كالعادة فقال بإصرار:

ـ الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع، الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع. الظاهر أنك تهتمين بالسياسة وبما يسمونه بالأفكار الاجتماعية؟

ـ إنى أومن بذلك..

ـ هذا يعنى أنك لا تؤمنين بنفسك، أنا لا أعرف إلا عزيمتى وحكمة الله المجهولة!

فابتسمت ولم تعلق بحرف فابتسم أيضا وقال:

ـ سأعهد إليك بالوارد فهو أنسب عمل للموظف الجديد..

ـ شكرا يا سيدى..

ـ وسأنتظر منك دائما ما يجعلك أهلا للثقة..

ـ أرجو أن تجدنى عند حسن ظنك..

ـ وإذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا تتردّدِى عن إخبارى.

ـ أرجو ألا أحتاج لذلك.

وعهد بها إلى موظف ليمرنها على العمل قائلا باقتضاب:

ـ سركى الوارد..

شعر بأن المحفوظات تثب وثبة موفقة نحو الحياة المضيئة، وأنها لن تخلو بعد اليوم مما يحرك القلب والعواطف، وتبددت بعض الشىء سحب الذكريات السوداوية،

وتذكر بدلا من ذلك سيدة وسنية وأصيلة ناظرة المدرسة وقدرية، فقال لنفسه إن عالم النساء لا نهاية لتنوعه وعذوبته وعذاباته. وتساءل فى حيرة:

ـ أيهما الغاية وأيهما الوسيلة: المرأة أم الدرجة؟!

وقال أيضا:

ـ رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولكن من منهم عاش بلا امرأة؟

فى مثل سنه يفكر الإنسان مرتين. قد يضيق بصحبة الكتب ويتأفف من العمل، ويشق عليه الحرمان والتقشف ويطارده الماضى بلا رحمة. فى مثل سنه تشتد الحساسية بالعزلة والوحشة، وبالانتظار المؤرق لمجد يتعسر. وأمس قال له حمزة السويفى ضاحكا:

ـ ها هى ذى شعرة بيضاء فى رأسك يا عاهل اللوائح المالية! فزع كأنما ضبط متلبسا بجريمة، وقال:

ـ لعل المنظر خدعك يا سيدى المدير.

ـ لتكن المرآة حكما بينى وبينك فانظر جيدا فى البيت..

فتمتم منهزما:

ـ جاءت قبل الأوان.

فقال مدير الإدارة ضاحكا:

ـ أو بعد الأوان، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر منك بعشرة أعوام..

وضحك المدير طويلا ثم قال:

ـ أمس دار حديث عنك مع بعض الزملاء، تساءلنا بحيرة كيف تعيش؟ قلنا إنك لا تظهر فى طريق أو مقهى أو حفل فأين تقضى وقتك؟ وقالوا إنه غير متزوج فلماذا يعيش؟ وقالوا إنه لا يهتم لشىء مما يهتم به الناس فماذا يهمه حقا فى الدنيا؟!

فابتسم فى فتور وقال:

ـ يؤسفنى أننى شغلت بالكم..

ـ إنك رجل قادر وفاضل ولكنك غامض، ماذا يهمك فى هذه الدنيا؟

فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق:

ـ لا غموض يا حمزة بك، إنى رجل هوايته الواجب وقرة عينه فى عبادة الله..

ـ ونعم بالله، أرجو ألا أكون قد ضايقتك، المهم أن يرضى الإنسان عن نفسه..

ولكن أين الرضا؟ أين؟!

ها هى ذى طليعة الشيب تغزو رأسه، والحياة المجيدة تنقضى كالحياة التافهة، وكم يتبقى له من الزمن ياترى؟!

٢١

وقال له حمزة السويفى يوما فى مناقشة على هامش العمل اليومى :

ـ السعادة هى غاية الإنسان فى هذه الحياة .

فقال عثمان بازدراء باطنى :

ـ لو كان الأمر كذلك لما سمح سبحانه بخروج أبينا من الجنة . .

ـ إذن فما الهدف من الحياة فى نظرك؟

فأجاب باعتزاز :

ـ الطريق المقدس . .

ـ وما الطريق المقدس؟

ـ هو طريق المجد ، أو تحقيق الألوهية على الأرض!

فتساءل حمزة بدهشة :

ـ أتطمح حقا إلى سيادة الدنيا؟

ـ ليس ذلك بالدقة ، ولكن فى كل موضع يوجد مركز إلهى . .

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه ـ نادما ـ إنه يظن بى الجنون . .

وتطايرت شائعة بأن حضرة صاحب السعادة بهجت نور سينقل إلى وزارة أخرى ، فخفق قلبه خفقة كاد يخلع لها . لقد فعل المستحيل حتى حاز ثقته فمتى يحوز ثقة القادم المجهول؟ ولكن الشائعة لم تتحقق . ويوما سلمه مجموعة ضخمة من الأوراق قائلا :

ـ هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديو إسماعيل ، ترجمتها فى نصف عام!

نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

ـ يهمنى أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا . .

تلقى التكليف بسعادة شاملة ، وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة . وفى شهر واحد أعاده إلى صاحب السعادة فى صورة بيانية كاملة . بذلك قدم الخدمة التى تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا ، وحظى ـ عند كل لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها إلاّ المقربون .

رغم ذلك كله ألهبه الجزع بسياطه ، ورأى الزمن يجرى حتى توارى فى الأفق تاركا إياه وحيدا فى الخلاء مع طموحه المقدس . ومن نفاد الصبر مضى إلى قارئة فنجان فى

التوفيقية، نصف مصرية ونصف إفرنجية، تناولت فنجانه وراحت تقرؤه وهو يتابعها باهتمام لا يخلو من خجل ويقول لنفسه إنه ما كان يجوز له أن يؤمن بهذه الخرافات.

قالت له:

ـ صحتك ليست على ما يرام . .

الصحة جيدة بلا ريب. ولكن صحته النفسية عليلة. لعلها صدقت على أى حال . .

قالت المرأة:

ـ سيأتيك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة.

إنه لا يطلب المال وإن يكن حريصا على كل مليم يجيئه. لعلها تقصد علاوات الترقية المقدرة فى عالم الغيب.

ـ وعدو لك سيذهب فى طريق فلا يعود منه . .

الأعداء كثيرون. يختفون وراء الابتسامات الخلابة والكلمات المعسولة. فى طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل آخر ثانية ومدير إدارة أولى. جميعهم أصدقاء ـ أعداء كما تقضى به إرادة الحياة الطاهرة القاسية.

ـ وفى حياتك زيجتان . .

إنه لم يوفق إلى الزواج من واحدة، ولكن هذا هو جزاء من تدفعه الوساوس إلى الوقوع فى أحضان الخرافات. وتذكر فى طريق عودته أنسية رمضان. فى طريق الصحة والأناقة تتقدم، فنعمة الوظيفة سرعان ما تتجلى على الفقراء. هو رئيسها الحنون. تربطهما علاقة إنسانية رقيقة مهذبة يتعذر ـ حتى الآن ـ تسميتها. على أى حال لم يعد يتصور المحفوظات بغير وجودها العطر.

ولما رجع إلى حجرته لحقت به أم حسنى وقالت له باهتمام أثار ابتسامته:

ـ ست أصيلة هانم عندى، وهى . .

ـ الناظرة؟

ـ نعم ، وهى تريد أن تستعين بك فى بعض شئونها.

أدرك فى الحال أن المرأة جاءت لتطوقه بضفيرتها. وانساق إلى المغامرة بغريزته المتطلعة. صافح أصيلة لأول مرة. كانت ترتدى فستانا أزرق يكشف عن نحرها وساعديها، ويبرز مفاتنها. ها هى ذى تعرض عليه نفسها مهما ادعت من أسباب حقيقية أو وهمية. وأثارته كما أثارته سنية وقدرية. إنهن نمط واحد. شهى مثير لا خير فى الزواج منه. وقالت أم حسنى:

ـ سأذهب لأعد لكما القهوة . .

لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال . وها هما ذان يجلسان على كنبة واحدة لا يفصلهما إلا وسادة . أمال رأسه ليسوى شاربه مرسلا طرفه إلى ساقها المدمجة المغروسة فى حذاء ذى كعب واطئ أشبه بكعوب أحذية الرجال .

- تشرفنا يا هانم .

- ولى عظيم الشرف .

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دل على قدرتها على مواجهة المواقف :

- لى استفسار من فضلك .

- أفندم؟

- أملك قطعة أرض نزعت ملكيتها ، أظنك تفهم هذه الشئون؟

- طبعا .

- الطريق المزمع إنشاؤه يغطى أغلبها ولكنه يترك أجزاء لا يمكن الانتفاع بها .

- أعتقد أن التعويض عن ذلك يراعى عند تقدير الثمن .

- ولكن الإجراءات معقدة كما تعلم!

- لك أن تعتمدى علىّ . .

بقدر ما شعر بقوة شخصيتها بقدر ما يئس من إغوائها . إنها مستعدة للزواج وما جاءت فى الواقع إلا من أجل ذلك ، أما أن ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو أمرا مستحيلا . ورجعت أم حسنى ، ومضيا يحتسيان القهوة فى صمت تام ، لعلها أصلح زوجة من أكثر من ناحية ولكنها ليست من يريد . وهبطت من السماء صورة أنسية رمضان فجلست بينهما ومحت المرأة محوا . منذ عهد السبيل الأثرى لم يتحرك قلبه كما تحرك لهذه الفتاة الصغيرة . لانت أعصابه المتوترة وصَفَتْ نفسه وتلقى من الخيال نسمة منعشة أذكت أسمى عواطفه . ولما ذهبت المرأة وجد أم حسنى تنظر إليه باهتمام تريد أن تطمئن على الوظيفة الحيوية التى ترعاها بعملها وإيمانها . باتت العجوز تعبد الزواج والإنجاب والأفراح وتسبح لله فى معجزة الحب التى أبدعها . ولما طال سكونه قالت برجاء :

- لعلك غيرت رأيك؟

- لماذا؟

- ألم تر أنها مثل فلقة القمر؟

ولبث جامدا رافضا ممتنعا عن تناول يدها الحنون . فقالت باستياء :

- قالوا فى الأمثال . .

غادر الحجرة قبل أن يسمع المثل. يا للخسارة. إذا لم يسعفه زواج قيم فقد يتبدد سعيه ويهدر أمله فى وسط الطريق. وحياته أصبحت مثار تساؤلات وانتقادات لا حصر لها؛ فأناس يتساءلون: لم لا يتزوج وينجب ويألف ويؤلف؟ وأناس يتساءلون: كيف ينحصر فى ذاته متجاهلا الأحداث التى تقع من حوله فينفعل بها المواطنون حتى الموت؟ وما الهموم التى تشغلهم وتستحوذ على أفئدتهم؟ إنها تتطاير مع أحاديثهم الصاخبة وتعطل أعمالهم. دواما يتحدثون عن الأولاد والأمراض والطعام ونظام الحكم وصراع الطبقات والأحزاب والحكم والأمثال والنكات. إنهم لا يحيون حياة حقيقية ويفرون من واجبهم المقدس. يجفلون من الاشتراك فى السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت وتحقيق كلمة الله المضنون بها على غير أهلها.

٢٢

جاءت أنسية رمضان لعرض ميزان البريد الشهرى. كان صباح يوم من أيام الخريف والجو الرطيب يتسلل إلى حنايا النفس بالأسى العذب. نقل بصره بين الجدول الذى يراجعه وبين أصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب. خيل إليه أن شيئا ما يتحرك فى إحدى يديها. يتحرك ويقترب فى زحف رشيق كأنه كلمة سر. يقينا إنها علبة صغيرة دستها بخفة تحت السومان بعد توكدها من رؤيته لها.

- ما هذا؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزيا مع الحذر الذى اكتنف الحركة من أولها. رفع السومان قليلا فرأى علبة معدنية مفضضة بحجم نصف الكف. تساءل مرة أخرى:

- ما هذا؟

همست بوجه كالأرجوان:

- هدية بسيطة..

- هدية؟!.. ولكن ما المناسبة..؟

- مناسبة سعيدة..

بذهول وتشتت من شدة الانفعال:

- حقا؟

- ألا تتذكر؟

قال رغم أنه تذكر:

- ماذا؟

- اليوم عيد ميلادك!

تلقى موجة مترعة بنشوة الفرح. اليوم عيد ميلاده أو تاريخ ميلاده على الأصح. ولكنه يوم يمر كالأيام، ربما تذكره قبل حلوله بأيام أو بعد انقضائه بأيام أو حتى فى اليوم ذاته دون أن يكون لذلك أى أثر اللهم إلا مضاعفة الجزع على المستقبل. لم يحتفل به قط. لم يعرف ذلك التقليد، ولم تعرفه حارته العتيدة. ها هى ذى أنسية تبشر بتقاليد جديدة، وجديدة أيضا مناورتها الطاهرة فى التوادد وقدرتها البارعة فى فتح أبواب الرحمة.

- الحق أنى لا أعنى بتذكره..

- شىء غريب..

- ولم كلفت خاطرك بذلك؟

- تحية متواضعة جدا.

- إنى عاجز عن شكرك.

- لا داعى لذلك مطلقا.

- كم أنك رقيقة مهذبة، ولكن كيف عرفت تاريخ ميلادى؟

وضحك ثم قال مستدركا:

- آه.. نسيت.. اطلعت على ملف خدمتى الإدارى وفضحت سنى؟!

- إنه سن العقل والنضج..

مد لها يده فتصافحا. ضغط على يدها الرقيقة كغشاء من حرير. انثالت عليه الأفكار المعذبة طيلة الوقت. سيرد الهدية بأحسن منها فى عيد ميلادها الذى سيعرفه من ملفها الإدارى أيضا. ورغم سعادتها المشرقة تمنى لو أنها اختارت وسيلة للتحية لا علاقة لها بالنقود، فإنفاق النقود يؤلمه ويخل بميزان حياته. ولكنه لم يهتم لذلك طويلا. إنه ينزلق فى هاوية، يطير نحو المجهول، مفعم القلب بالمسرة والحنين. وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا. وماذا بعد ذلك؟ هل يتفق وطريقه الأوحد؟ إنه يواجه ما هو أعظم من موقف دقيق عابر مفعم بعبير ساحر، إنه يواجه المجهول والقدر. إنه يطرق الباب الذى يوقفون وراءه الزمن أو يرجعونه خطوة إلى الوراء. وثمة نداء يردد أن ارجع وإلا هلكت ولكن لم تستجب له أذن ولا قلب.

وقفت فى اليوم التالى قبالته تراسله بنظرات تفيض بالطاعة والعذوبة. حرقت الحرارة رأسه وعنقه. انجذبت أصابعه إلى ملامسة أصابعها فوق الدوسيه المبسوط بينهما. أفضى

إليها بتوجيهات مدغمة لا معنى لها . وفتشت عيناه المكان بحذر . مال رأسه حتى لثم فاها . تراجع إلى مقعده وهو ينتفض ، يرتعش ، يحترق ، ثملا بخمر الحياة والخوف من المجهول .

٢٣

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة . تم نتيجة لتيار من الاستسلام لا يقاوم وبأمل فى النجاة آخر الأمر . سماه تدهورا ولكنه كان محفوفا بالسعادة . ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هى حديقة الأزبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحدق به الأعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهى بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة ، خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض الترام إليها حقولا وخلاء . ومشيا جنبا لجنب يستمتعان بحياة «حقيقية» في الساعات السابقة لميعاد الإغلاق . لم يكن رأى الحديقة منذ زارها فى رحلة مدرسية . ولم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال . ما يفعل وما لا يفعل . سارا صامتين سعيدين ولكن ثمة إحساسا غير مرح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغى أن يستسلم . ودفعا لارتباكه ولمشاعره المحبطة أبدى إعجابه بالأشجار والقناطر والجبلاية والجداول والبحيرات وبأنواع شتى من الحيوان . ولبث مقتنعا بأنه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد ، وبأنه يحاول الهرب بعد فوات الأوان . وسارت إلى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة ، مرفوعة الرأس ، مسددة النهدين ، يوحى منظرها بأنها مندفعة فى مجرى من المطالب لا أفق له ، وأنها تلتهم فى نفسها أجمل أسرار الحياة . وتلاقت عيناهما فقرأ فى ألقهما البراءة الناصعة والمكر العذب وسيالا من الرغبات المجهولة . قالت محتجة :

ـ حتى وأنا موظفة لا أستطيع أن أخرج إلى مثل هذا اللقاء بسهولة . .

فندت عنه نبرة أبوة مضحكة وهو يقول :

ـ لا تغضبى من أجل ذلك يا عزيزتى . .

ـ ولكنه غير طبيعى ومهين . .

ـ ترجمة غير دقيقة لعواطف الأمهات والآباء ، لا أعتقد أنك تؤمنين بذلك . .

ـ حقا؟!

وضحكت فى ثقة كاملة ثم قالت مستدركة :

ـ لو عرفت ماما أننى سألقاك لما ما نعت فيما أعتقد .

فقال بقلق :

ـ ولكنها لم تعرف؟

فعاودها الضحك ، وسكتت قليلا حتى جف ريقه تماما ، ثم قالت :

ـ اللقاء سر كما اتفقنا .

ـ طبعا يا عزيزتى .

ـ الحق أنى غير مقتنعة . .

واضح جدا أنها تود أن تعمل فى النور . وما يعنيه ذلك واضح أيضا . . ترى هل بات تحت رحمتها؟ هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس فى مخططه؟ هل تحاصره عناصر هدم تبدد بصفة نهائية حلمه الوحيد المقدس الممتنع؟ . . وتحدى من خلال خواطره المخيفة المجهول فأنذره بالقتل ، حتى خجل من أفكاره وهو يلحظ الغزال الأسمر الذى يثب متأبطا ذراعه فى فرحة تباركها السحائب السابحة فى سماء الحديقة . وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه ، وهادن آماله الملحة ، ليذوب فى المفاتن المشرقة ، ويتذوق السعير المشتعل في جوفه . ووجد أن كوعه يلامس جسدها اللدن ، ويتلقى من مجاهيله الفتية إشعاعات من السحر ، تفرس فى المكان حوله بنظرة متلصصة آثمة ، ثم لثم خدها ، وعنقها ، ثم التقت شفتاهما . قال بصوت لم يعرفه :

ـ أنت فاتنة يا أنسية .

فابتسمت فى حياء وسعادة ، فقال بحرارة :

ـ أود أن . .

وسكت وهو يتنفس بصوت مسموع فتساءلت :

ـ هه؟

ـ كأننى أعرفك منذ الأزل . .

فابتسمت فى رضا وإن طالبت عيناها بالمزيد . قال :

ـ ما أجمل المكان! كل شىء ينطق بجمال صارخ . .

ـ أنت تحب الطبيعة!

وقع القول من أذنه موقعا غريبا وساخرا بقدر بعده عن واقعه . قال :

ـ أنت التى جعلت كل شىء جميلا . .

ـ لا تبالغ ، أتحب أن أصارحك بشىء؟

ـ جدا!

ـ تبدو عادة غير مهتم بشىء .

ـ حقا؟ . . وهل صدقت ما يبدو؟

ـ لا أدرى ، ولكننى شعرت بأنك لغز بقدر ما أنت طيب . .

ـ لا معنى لذلك كله ، الحقيقة الوحيدة المسلم بها هى أنك فاتنة . .

ـ وبعد؟

ـ وما بيننا يجب أن يبقى إلى الأبد مهما يكن المصير !

ـ المصير ؟ !

ـ ألم يخبرك الملف الإدارى بشىء غير طيب؟

ـ أبدا .

ـ أنت أجمل شىء فى حياتى . .

فقالت بهدوء واستسلام :

ـ وأنت كذلك . .

فلثم خدها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوة وهمس :

ـ ما أشد حيرتى بين ما أريد وما أستطيع .

ـ هل تريد شيئا ولا تستطيعه؟

ـ الدنيا مليئة بالرغائب الممتنعة . .

ـ حدثنى عما يخصنى أنا . .

لها حق . ما زال فوه يندى بقبلتها ، ما زال كوعه يلامس فتنتها الطرية ، وهما يختالان أمام الفيل الذى يرفع خرطومه تحية لهما .

ـ ليكن ما بيننا سرا .

ـ لماذا؟

ـ كيلا يسىء أحد بنا الظن .

ـ ولماذا يسىء بنا الظن؟

ـ هكذا الناس .

ـ لا سوء بيننا .

ـ ولكن هكذا الناس يا عزيزتى .

ضحكت بمرح وتساءلت :

ـ أدعوتنى يا أستاذى لتعظنى؟

ـ دعوتك لنتعارف ولأتوكد من أن قلبى على حق .

ـ وماذا كانت النتيجة؟

ـ آمنت بأن القلب خير دليل!

تساءل طيلة الطريق لم لم يعترف لها بحبه صراحة؟ لم لم يطلب يدها؟ وعلى فرض أنها ستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له فى محرابَ الحياة قبلة جديدة، أليست هى أقدر على إسعاده من النجم القطبى؟!

٢٤

جاءت أصيلة حجازى «الناظرة» بحجة السؤال عن نتيجة مسعاه. بذلك أخبرته أم حسنى وهى تدعوه إلى شقتها. كان يعانى من همومه الثابتة بالإضافة إلى الحب الذى غزاه ليبلغ بحدة الصراع فى نفسه درجة الجنون. لذلك رحب بزيارة أصيلة حجازى ليهرب من نفسه ولو ارتكب فى سبيل ذلك حماقة مأمونة العواقب. كان بحاجة إلى الهرب ولم تكن قدرية فى متناول يده كل يوم. صافح الناظرة. جلس وهو يقول:

ـ مسألتك تسير فى طريق الحل..

سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمى على أوتار فستانها المنقوش بالورد. وتساءلت وهى ترنو إليه بمودة:

ـ هل أنتظر طويلا؟

رأت أم حسنى أن تذهب لإعداد القهوة فركبه تصميم جنونى على حسم الموضوع، وتوجيه ضربة غير متوقعة مستهينا بالعواقب. قال:

ـ لن تنتظرى طويلا..

ـ بفضلك.

ـ الحق أن كل شىء يتوقف على قوة أعصابك.

ـ الظاهر أنه ينبغى أن أنتظر بعض الوقت؟

فقال بنبرة جديدة تماما كأنما يفتتح بها موضوعا جديدا لا صلة له بما قبله:

ـ اسمحى لى أن أصارحك بإعجابى!

فغضت بصرها موردة الوجنتين فقال:

ـ إنه إعجاب صادق، إعجاب رجل بامرأة، أنت تفهمين ذلك..

فلم تنبس ولكنها تبدت سعيدة وعلى وشك دخول الجنة..

- ولكن يجب الحذر، يلزم المصارحة بأمر آخر لعله لا يروقك . .

لمحته مستطلعة فقال :

- فكرة الزواج مستحيلة !

راقبها وهى تتحول إلى رماد، ثم قال بجرأة وبلا رحمة :

- عندى ألف سبب وسبب والدنيا أسرار . .

تساءلت بصوت مريض :

- ماذا دعاك لمصارحتى بذلك؟

فقال بلهجة مؤدبة وهو يمعن فى قسوته :

- لسنا مراهقين، فلنتكلم كراشدين ولنبحث عن سعادتنا بإخلاص وشجاعة . .

- لا أفهم شيئا .

- حسن، إنى معجب بك ولكنى أعزب أبدى .

- ولماذا تقول لى ذلك؟

- ربما وجدت عندك حلا للحال المستعصية .

فقالت باستياء شديد :

- إنك تجرح كرامتى بأسلوب غير إنسانى . .

- اعفى عنى، إنى أصارحك بدافع من عذاب شديد . .

لاذت بالصمت مقطبة فقال :

- يمكن أن تهبنا الشجاعة سعادة لا يستهان بها .

- ماذا تقصد؟

- ألا يكفى أن أتكلم بالإشارة؟

- لا أظن أنى فهمت قصدك . .

فقال بقحة لم يعهدها فى نفسه من قبل :

- يلزمنا مكان آمن نلتقى فيه .

هتفت :

- عثمان أفندى !

فقال بدون مبالاة :

- سيكون مأوى رحيما لاثنين فى حاجة إلى الحب والمعاشرة . .

قامت غاضبة وهى تقول :

ـ إما أن تذهب أو أذهب أنا . .

ـ سأذهب ولكن فكرى بالأمر بروية وعقل، ولا تنسى أننى رجل فقير!!

٢٥

لم تعد شعرة بيضاء واحدة يتعذر اكتشافها. كل فترة تطل شعرة جديدة بنظرة بيضاء باردة تنذر بإيقاع جديد للحياة. لعبة طارئة، يتجرعها الإنسان بلا استساغة، ثم يجد نفسه وجها لوجه مع الحتم المؤجل. ويلقى نظرة على الحياة شاملة، يزن أعماله، يقيم ثماره، يتلقى أنفاس المجهول بامتعاض، يتوثب أكثر للصراع، يسلم بالهزيمة، ولكنه يأمل أن تحل مقدسة. لا خطوة قريبة فى سلم الترقية، مدخره يتصاعد، توتره يشتد، جهده يتضاعف، علاقته بأنسية تتوطد ولكن فى حذر، أما قدرية فتستحق أن توصف برفيقة العمر. فى أعقاب صلاته يخاطب ربه:

ـ ما الحياة بغير وجودك يارب؟

ولكن يبدو أن الآخرين لا يتماسكون مثله، فقد دق جرس التليفون ذات يوم فإذا بالمتحدثة أصيلة حجازى الناظرة:

ـ أشكر لك وساطتك المثمرة.

ـ العفو يا فندم.

ـ وكيف حالك؟

ـ عال. الحمد لله.

ـ إنى سعيدة بسماع ذلك . .

ـ شكرا.

ـ ربنا لا يحرمنا منك.

ـ كلك إنسانية.

ومضت ثوان من الصمت، ثم واصلت:

ـ ولكن لى عليك عتاب.

ـ لا سمح الله.

ـ تركتك آخر مرة غاضبة، ألا تذكر؟

ـ آسف، لم يوجد سبب للغضب.

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ نعم .

ـ ولكنك لم تسأل عنى؟

ـ آسف ، لم أعرف رقم تليفونك .

ـ ولكنى عرفت رقم تليفونك .

ـ أكرر الأسف .

ـ تمنيت أن تلطف الموقف بكلمة حلوة . .

ـ إنى على أتم الاستعداد .

ـ حقا؟

ـ بكل توكيد .

ـ كيف؟

ـ لنتفق على ذلك!

وهى تضحك ضحكة مكتومة :

ـ أوَما زلت تشكو الفقر؟

ـ إنه قدر لا مفر منه .

ـ من حسن حظنا أن عندى من المال الكفاية .

ـ ربنا يزيدك .

ـ هل تتوقع أن أصارحك أكثر من ذلك؟

ـ إنى على أتم الاستعداد!

ـ عظيم . . ليقم كل منا بما يخصه!

ما هو بالاستسلام ولكنه الانهيار . يستطيع أن يتخيل الواقع وراءه . العمر بها يتوسط ويميل نحو المنحدر ، وهى تعانى الوحدة وترتعد أمام الشيخوخة المقبلة ، لا شباب ولا جمال حقيقى . ثمة معركة لم يشهدها ولكنه يرى عواقبها المحزنة . ماذا يفعل؟ إنه يخاف أنسية ولا رغبة له حقيقية فى أصيلة ، يتمنى فى لحظات يائسة لو يموت قلبه وتخمد شهوته لتطمئن نفسه فى مسيرتها المضنية . وقال لنفسه فى أسى :

ـ إنى أعذر من يظنون بى الجنون!

٢٦

متى وكيف يفرغ للبحث عن شقة وتأثيثها؟ ترك الأيام تمر وهو لا يفعل شيئا. أهمل الموضوع جملة وتفصيلا حتى وجدها ـ أصيلة ـ تقف أمام مكتبه! ابتسم مرحبا وهو يلعنها فى باطنه. قالت:

ـ معذرة عن جرأتى..

فابتسم صامتا. فقالت:

ـ لم يعد التليفون يكفى كى أفهمك..

فقال بجدية تناسب مكان العمل:

ـ واضح أن الفراغ معدوم فى هذه الأيام.

ـ ماذا فعلت؟

ـ لا شىء.

ـ أبدا؟

ـ لم يسمح العمل بدقيقة، صدقينى..

كانت تتكلم بجرأة أشبه باليأس، حال من نفد صبره واشتدت مخاوفه. قالت:

ـ توقعت أن أجدك أكثر حماسة..

ـ الرغبة متوافرة أما الوقت فلا وقت عندى.

ـ توجد شقة فى روض الفرج..

ومدت يدها بورقة مطوية واستطردت:

ـ إليك العنوان، عاينها بنفسك واشرع فى تأثيثها.

ثم بنبرة إغراء وابتهال:

ـ أرجو أن تعجبك وأن تكون قدم السعد..

رأى نارا تقترب وهى تصفر. وعقب اختفاء المرأة فكر بالليالى الطويلة التى ستلحق بليالى ألف ليلة وليلة، لا الليالى التى تنفق فى الدراسة والترجمة وخدمة حضرة صاحب السعادة، قربانا على طريق المجد الذى اختاره منذ أول يوم رمزاً متاحا للأشواق اللانهائية. فترت رغبته فى المرأة لشدة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفظ. إنها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وآماله

المقدسة الموصولة بسر كلمة الله العظيم. لن يسمح لقوة أن تقتله إلا الموت نفسه بوصفه سرا من أسرار الله مثل مجده الملهم، وما دامت الزوجة المجهولة التى سعى إليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأرامل والعوانس.

وسمع ذات ليلة نقرا على باب حجرته. ذهل عندما رأى أصيلة وهى تتسلل إلى الداخل متعثرة فى خجلها وذلها، قالت بارتباك:

ـ صح عزمى على المجىء، وقلت لنفسى إذا لمحتنى عين قصدت شقة أم حسنى كأنما جئت أصلا لزيارتها..

وجلست على الكنبة وهى تلهث فقال ملاطفا:

ـ فكرة طيبة..

ـ هل ضايقك حضورى؟

فقال والنشاط يدب فى أعماقه:

ـ بل سرنى فوق ما تتصورين..

ـ ولن تلبث أم حسنى حتى تنام، هل يكدرك أن تشك العجوز فيما حصل؟

ـ ألبتة..

وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أى أثر للكبرياء، محض عاشقة مهدرة الدفاع. وسألته برقة ورجاء:

ـ ماذا فعلت؟

أفاق تماما من الدهشة. صدفت نفسه عن أى موضوع وتركزت فى الرغبة المتجسدة فى صورة امرأة مستسلمة. تناول يدها البضة الباردة بعد أن شفط القلب المتقلص الدم من الأطراف. وضغط عليها ضغطات متوترة باعثا برسائله الخفية. لم تتوقع ذلك أو بذلك تظاهرت. أرادت أن تسحب يدها فلم يسمح لها فقالت:

ـ ماذا فعلت؟

ـ سنناقش ذلك فيما بعد..

ـ ولكنك لم تحاول الاتصال بى؟

مال نحوها حتى قبل خدها وهمس فى أذنها:

ـ فيما بعد.. فيما بعد..

ـ ولكنى جئت لذلك.

ـ سيكون لك ما قصدت، ولكن فيما بعد.

همت بالكلام ولكنه سد فاها بقبلة غليظة وطويلة وهو يقول بحدة:

ـ فيما بعد . . .

وأعلن لحن من الألحان اللانهائية للطبيعة عن تغريده المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة. وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا إلى نوم أبدى، مخلفا وراءه صمتا مريبا وراحة فاترة مشبعة بالأسى. رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت فوق الكنبة معرضة قميصها وحبات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العارى. نظر إلى لا شىء لا ينشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه فى الحياة الدنيا. وحانت منه التفاتة إليها فأنكرها كلية. كأنها شىء غريب يخرج من باطن الليل، غير الكائن السحرى الذى جره إلى السعير، شىء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له. وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هى إلا تمرين على الموت، والبعث، وإدراك مسبق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدى من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائية. ودرجة المدير العام آية أخرى ولكنها تجلٍّ للإرادة الشامخة لا للاستسلام العذب! وحمدا لله فقد تحصن بالبرود العاقل والقاتل أيضا. وها هى ذى المرأة ترغب بلا شك فى العودة إلى موضوعها المهم ولكن من خلال تردد وخجل. تتمنى لو يبدأ هو. ولما يئست نظرت إليه بابتهال وأسى وغمغمت:

ـ نعم؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة، ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية. إنها تريد أن تهدم البناء الذى يشيده حجرا على حجر. سألت:

ـ ماذا قلت؟

ركبه عنف طبعه المستتر المستمد من أعماق حارته قال:

ـ لا شىء.

ـ ولكنك فعلت شيئا بلا ريب. . ؟

ـ أبدا.

ـ ألم تعاين الشقة؟

ـ كلا.

فاسود وجهها من الحزن وقالت:

ـ معذرة. . هل ينبغى أن أضع النقود بين يديك؟

ـ كلا.

ـ الحق أنى لا أفهمك. .

ـ إنى واضح جدا.

- ماذا تعنى؟!. . لا تعذبنى من فضلك.

- ليس فى نيتى أن أفعل شيئا. .

فقالت بنبرة مرتعشة:

- اعتقدت أنك وافقت ووعدت. .

- ليس فى نيتى أن أفعل شيئا. .

- إذا لم يكن لديك وقت الآن. .

- لا وقت لدى. . ولن أجده فى المستقبل. .

تنفست أصيلة بصعوبة وقالت بصوت متهافت:

- صدقت أن شعورك مختلف. .

فاعترف قائلا:

- لا خير فى، هذه هى الحقيقة. .

تراجعت كأنما طعنت. ارتدت فستانها فى عجلة. ولكنها انهارت على الكنبة مرة أخرى فى إعياء أسندت معه رأسها إلى كفها وأغمضت عينيها حتى توقع أن يغمى عليها. دق قلبه بعنف أيقظه من فتوره وقسوته. لو وقع ما ليس فى حسبان فربما تعرض لفضيحة منذرة بأوخم العواقب. الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة، فكيف إذا دهمته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها؟! أوشك أن يغير سياسته كلها، أن يخاطر بكذبة جديدة، ولكنها تحركت فى آخر لحظة. قامت بشىء من الصعوبة، مضت نحو الباب بهدوء وأسى، ثم اختفت عن نظره. تنهد فى ارتياح عميق. قام إلى النافذة ينظر إلى الحارة شبه المظلمة حتى رأى شبحها يمرق من الباب؛ ثم يوغل نحو طرف الحارة الموصل إلى الجمالية، وسرعان ما ذابت فى الظلام تماما.

وقال لنفسه إن أحدا لا يعلم الغيب، ولذلك يتعذر الحكم الشامل على أى فعل من فعالنا، بيد أن تحديد هدف للإنسان يعتبر هاديا فى الظلام وعذرا فى تضارب الحظوظ والأحداث، وهو مثال على ما يبدو أن الطبيعة تترسمه فى خطواتها اللا نهائية.

٢٧

أما أنسية رمضان فهو يحبها. عليه أن يعترف بذلك أمام ضميره وأمام الله. منذ عهد السبيل الأثرى لم يصدر عن قلبه مثل هذا اللحن العذب. ولذلك فعليه أن يخشاها أكثر

من أى امرأة أخرى فى الوجود. وهى أيضا تحبه مما يضاعف من خطورة الأمر. العروس التى لا تدفع إلى الأمام ترجع إلى الوراء. ولعله كان يتزوجها بلا تردد لو أن الذى بينه وبين درجة حضرة صاحب السعادة خطوة واحدة، أما والحال على ما هو عليه فلن يجنى من الزواج سوى المتاعب والهموم اليومية التى تستهلك القوى البشرية فى غير ما خلقت له.

وجاءه يوما حسين أفندى جميل ليعرض البريد كالمعتاد، فلما وقع عليه بتوجيهاته لم يذهب كالمتوقع. إنه شاب من موظفى المحفوظات عمل تحت رئاسته خمس سنوات متتابعة وعرف بالمواظبة وحسن السلوك.

- أتريد شيئا ما يا حسين أفندى؟

إنه مضطرب بصورة واضحة، ويريد أن يتمخض عن شىء، أى شىء؟

- مالك؟ . . أهو أمر يتعلق بالعمل؟

اقترب الشاب أكثر كأنما ليضمن عدم وصول صوته إلى الآخرين، وقال:

- يوجد شىء يا حضرة الريس.

- ما هو يا بنى؟

- آسف، ولكن لابد من الكلام.

- عظيم. . إنى مصغ إليك.

وسكت ليتأهب، ثم قال:

- الأمر يتعلق بالآنسة أنسية رمضان.

فيما بعد قال لنفسه إنه لم يسمع الاسم أو إنه سمعه ولم يفقه له معنى. قال بذهول:

- هيه؟

- أنسية رمضان!

- زميلتك؟ . . ماذا عنها؟

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- الحق أنى أحبها . .

فقطب عثمان وقلبه يترنح. تساءل مستنكرا:

- وما شأنى أنا بذلك؟

- أردت أن أخطبها . .

- كلام معقول، ولكن ما شأنى أنا؟

فأطرق وهو يتمتم:

ـ ولكن سعادتك..

ارتعدت مفاصله. رمقه مستطلعا فى استسلام:

ـ ماذا عنى؟

ـ سعادتك تعلم بكل شىء..

ـ أى شىء من فضلك؟

ـ الحق أنه لولاك لتقدمت لخطبتها..

أيقن أنه هلك. لم يعد لشىء قيمة. ولا الحياة نفسها. تساءل:

ـ لولاى؟

فقال الشاب بوجوم:

ـ شاهدت كل شىء، هنا وفى الخارج!

بقوة اليأس نفسه توثب للدفاع المستميت. لم يحزن لحبه الضائع بقدر ما خاف على «مركزه». قال:

ـ أنت شاب سيئ الظن، ماذا شاهدت؟ ماذا شاهدت يا مسكين؟ ولكن هكذا هم المحبون! طالما عاملتها كابنة من صلبى، علاقة هى البراءة نفسها، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدرى ولا تقصد!!

فقال الشاب ببراءة وحزن جليل:

ـ إنى أعرف متى وكيف أكتم أحزانى وأحافظ على سمعة من أحبهم!

فقال وهو يتنهد:

ـ أحسنت.. أحسنت..

ثم وموجة من الأسى تجتاحه:

ـ سلكت سلوكا خليقا بالرجال..

من شدة رد الفعل، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان. قال:

ـ مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب..

مضى عنه معذبه. بقى وحده مع حزنه. وتجسد الحزن وتهول فصار كالقدر نفسه. وأعاد إليه ذكرى حزنه القديم فى الليالى الطويلة. وقال لنفسه إن الحياة لو تقيم بحظها من السرور فإن حياته تعتبر ضياعا وهباء. لم يقتضينا الجلال هذا الشقاء كله؟!

٢٨

دعا أنسية إلى مقابلته فى صحراء الهرم صباح الجمعة. هيأ للقاء تلك المرة بحذر أشد من المعتاد، فدس لها ورقة سمى فيها الميعاد وخط السير على أن يذهب كل منهما منفردا. كان صباحا من أصابيح الشتاء الجاف البارد ولكن أشعة الشمس كستها كساء دافئا ومنعشا. وكان يرنو إليها طيلة الوقت بحزن صادق رغم اقتناعه بأنه يقوم أساسا بتمثيل دور قاس وقذر. ومن أول الأمر بدت الفتاة قلقة على غير عادتها، وقالت له:

- شعرت بشىء غير عادى فانقبض قلبى..

فقال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل فى معرفة شئونها الصميمة. وإنه لو كان للإنسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الآن. واشتد حزنه وهو يقول:

- الحق أن الأمر يستحق التفكير.

- أى أمر تقصد؟

- علاقتنا الحميمة المقدسة.

- ماذا عنها؟

- لعلك عجبت من صمتى، ناقشنا كل شىء إلا الجوهر، ولم تدركى طبعا أننى كنت أحترق وأتعذب طيلة الوقت..

فلمست ذراعه بإشفاق وقالت:

- أعترف لك بأن قلبى يزداد انقباضا!

- وأنا أعترف بأننى رجل أنانى.

فرفضت ذلك بإصرار قائلة:

- كلا، لست أنانيا على الإطلاق.

- أنانى بكل معنى الكلمة، وبسبب أنانيتى شجعتك وأوهمتك فتمادينا إلى ما لا نهاية. لن أغفر لنفسى ذلك أبدا.

- لم تفعل إلا ما هو نبيل وطيب!

- لا تدافعى عنى، لعلك تساءلت كثيرا: متى يتكلم هذا الرجل؟ ماذا يريد منى؟ حتى متى نتلاقى ونفترق بلا تقدم حقيقى؟ هل يتسلى بى؟!

- لم أظن بك سوءا قط!

- أنا نفسى طرحتها مرات عديدة، ولكن غلبنى الاستسلام الوهمى للسعادة فلم أحسم الأمر قبل أن يستفحل، وكم صممت على مصارحتك بالحقيقة ثم أضعف وأستسلم!

تساءلت بصوت يدل على الخيبة:

- تصارحنى بماذا؟

- آه.. لِمَ لم أعرض عليك الزواج؟

اختلجَت عيناها وهى تسمع الكلمة المحبوبة، نظرت إليه بإشفاق، تحولت عنه متطلعة للمجهول وكأنها تصلى صلاة صامتة لدفع البلاء.

- طبعا ساءلت نفسك عن ذلك، وإلا فما معنى الحياة؟

أطرقت كأن رغبتها فى معرفة المزيد قد فترت لعدم توقعها أى خير، أما هو فواصل قائلا:

- إنى مريض..

- لا..

ندت عنها بخوف صادق فقال:

- لا أصلح للزواج!

حدقت فيه بذهول فمضى:

- لا يغرنك منظرى، فمرضى ليس فى القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماما عن الزواج..

أطرق كالمحزون فسمع تنهدة حادة مزقت قلبه. أوشك أن يتحرر من التزاماته كافة وأن يكب على قدميها بشفتيه وأن يمضى بها إلى المأذون، ولكن القوة الأخرى صدته وجمدته.

- لم أهمل، ذهبت إلى أكثر من طبيب، لم أفقد الأمل ولولا ذلك لصارحتك من زمن بعيد، ولكن لا فائدة، لا يجوز أن أستأثر بك أكثر من ذلك وإلا قضيت على مستقبلك إلى الأبد!

- ولكن كيف أستقبل الحياة بدونك؟

- أنت صغيرة، جرح الشباب سريع الالتئام.

- لا أصدق، إنه كابوس.

- لا يجوز التمادى فى الخطإ بعد ذلك.

- لا أصدق . .

- كل مصيبة غير متوقعة فهى لا تصدق، ولكن الحياة تبدو أحيانا سلسلة من المصائب غير المتوقعة، ولكن عليك أن تهتدى إلى سبيلك قبل ضياع الفرصة . .

فتمزق صوتها بالجزع وهى تسأله :

- ماذا تريد؟

- أن نكف عن السير فى طريق مسدود!

- لا أستطيع .

- لا بد مما ليس منه بد، فمن الجنون أن نستمر . .

وتجنب النظر إليها. كان قد نفذ خطته حتى النهاية بنجاح وإحكام. وبنجاحها الوحشى وجد نفسه فى الفراغ منفردا بعذاب أليم، مكللا بعار الجحيم، بلا إيمان ولا عزاء. وقال لنفسه إنه لا نجاة له إلا بالجنون. الجنون وحده هو الذى يتسع للإيمان والكفر، للمجد والخزى، للحب والخداع، للصدق والكذب، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه فى الوحل؟!

وبكى طويلا فى الليل . .

٢٩

بدا أن ظلمة السحب تنضح بشعاع يهفو خلفها. فقد علم بأن أنسية رمضان خطبت إلى حسين جميل. سعد بالخبر بوصفه بشير النجاة، وقال لنفسه :

- أستطيع الآن أن أحزن على الحب الضائع ببال رائق لا تعكره المخاوف، أستطيع أن أنهل من العذاب حتى أستنفده وأتحرر منه، وإنى بذلك لخبير . .

ولم يكن صادف فى حياته من هى أكفأ منها على إسعاده. ولا سيدة نفسها. جميلة وذكية وطاهرة، وقد أحبته بصدق ونقاء. وبات يؤمن بأنه لن يظفر بمثلها مهما ابتسم له الحظ وأنه جزاء عادل على أى حال.

وحمل تيار الزمن حدثا آخر، فقد تخلف حمزة السويفى عن العمل، وعرف فى الإدارة أنه يعانى أزمة ضغط جديدة أشد من الأولى وأخطر. ومضى إليه يعوده. ووجده راقدا فى استسلام كامل هذه المرة، وأطياف من العالم الآخر تلوح فى نظرة عينيه الغائمة. تأثر لمنظره ورأى فيه المنظر الأخير الذى يترصد الجميع بمختلف درجاتهم. وقال له :

ـ سلمت أيها الإنسان الكريم . .

ابتسم المدير ممتنا ، ومتسولا أي كلمة طيبة في ضعفه الداهم :

ـ أشكرك يا أخى ، أنت رجل نبيل بقدر ما أنت كفء وقادر .

ـ ما هى إلا سحابة تمر ثم تعود لتتربع فوق كرسيك العظيم . .

فتقلص وجه الرجل ليمنع دمعة وقال :

ـ الحق أنى لن أعود . .

فقال محتجا :

ـ لا سمح الله . .

ـ ولكنها الحقيقة يا أستاذ عثمان .

ـ أنت دائما تبالغ . .

ـ ولكنه تقرير الطبيب ، قال لى صراحة إننى بالطاعة والدقة أنجو من الأزمة ، ولكن على أن أعتزل العمل فورا . .

غلب الأسى على عواطفه المتضاربة فقال :

ـ ولكن رحمة الله واسعة ومعجزاته لا نهاية لها . .

ـ لا أهمية للحرص على العمل ، لقد زوجت البنات ، والابن الأخير فى السنة النهائية من كلية الزراعة ، أديت رسالتى كما ترى ، وما أحتاجه الآن فهو راحة البال .

ـ متعك الله بكل طيب .

قال بفخار رغم وهنه وتعبه :

ـ الحمد لله ، قمت بواجبى فى الوزارة كما تعلم ، وأديت رسالتى نحو الأسرة ، وعشت كما سأعيش مستورا كثير الأحباب والأصدقاء ، فيم يطمع المرء أكثر من ذلك؟

ـ أنت ذلك وأكثر يا صاحب الفضل والفضيلة .

ـ نحن نمضى واحدا فى إثر واحد ، هل تذكر المرحوم سعفان بسيونى؟ كل من عليها فان ، ولكن العمل الطيب يبقى إلى الأبد .

ـ صدقت فى كل ما قلت . .

ونظر إليه طويلا ثم قال :

ـ وفقك الله إلى ما فيه صلاحك .

اشتد به التأثر . وبقى التأثر معه طويلا . وامتلأ في حينه بالعبرة والموعظة حال الراجع من دفن عزيز . ولكنه أفاق فى الوقت المناسب كذلك . وقال لنفسه :

ـ إن أحزان الدنيا توجد لا لتثبط الهمة ولكن لتشحذها . .

واتجه تفكيره بكل قوة إلى الدرجة التى ستخلو قريبا . وهو لا يختلف اثنان فى الشهادة له بالقدرة والاستقامة والورع . بل هو أكفأ من وكيلى الإدارة ولكن أحدهما فى الثانية والآخر فى الثالثة ، ولو جرى العدل بغير اعتبارإلا للكفاءة وحدها لكان أحق منهما بدرجة مدير الإدارة ، ولكن كيف يثب من الرابعة إلى الأولى دفعة واحدة؟!

وأحيل حمزة السويفى إلى المعاش بناء على طلبه . وأجريت حركة ترقيات شاملة فى الإدارة من الثامنة إلى الأولى ، فرقى إسماعيل فائق إلى درجة المدير ، كما رقى عثمان بيومى إلى الدرجة الثالثة وكيلا للإدارة . وهكذا غير ضغط الدم شتى المصائر سلبا وإيجابا . وسعد عثمان بالترقية يوما ولكن سرعان ما أدركه الفتور . لقد كان حمزة السويفى موظفا قديرا ولكن لا يوجد بعده من هو أحق بمركزه منه هو ، وإنه لمن المضحك المبكى أن يقدم رجل مثل إسماعيل فائق مديرا للإدارة . ومضى إلى حضرة صاحب السعادة المدير العام ليشكره . ولم يكن يداخله شك فى أنه أقرب الموظفين إلى قلبه وتقديره ، وأنه يعتمد عليه فى أعمال الإدارة ونشاطه الخاص على السواء . صافحه ، وأعرب لسعادته عن شكره بلسان بليغ . وقال صاحب السعادة :

ـ إنك لم تعرف الظروف كلها ، لقد تراكمت على مكتبى التوصيات من الوزير والوكيل والشيوخ والنواب . .

ونظر إليه مليا ثم استطرد :

ـ قلت لكم ما تشاءون إلا درجة واحدة لرجل وساطته هى مقدرته وخلقه .

فلهج بالشكر لسانه وكتم فى القلب أحزانه فعاد صاحب السعادة يقول :

ـ لا خفاء بيننا فى أن إسماعيل فائق ضعيف وجاهل .

فقال بامتعاض :

ـ لا خلاف على ذلك يا صاحب السعادة . .

ـ فالثقل سيقع عليك وحدك بالرغم من أنك الوكيل الثانى .

ـ إنى فى الخدمة دائما . .

فقال بهجت نور متأسفا :

ـ ماذا كان فى وسعى أن أفعل؟ . . إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل .

ـ لا لوم عليك يا صاحب السعادة . .

ـ على أى حال مبارك ، ومصيرك أن تنال حقك كاملا غير منقوص . .

ورجع راضيا بعض الشىء ولكن امتعاضه مضى يتصاعد فنسى فرحة الترقية . ولعن الجميع بغير استثناء . وقال جزعا :

ـ العمر أسرع من جميع حركات الترقيات!

وودع موظفى الأرشيف فصافحهم وهو يتلقى تهانيهم، وعندما جاءت أنسية لمصافحته لاحظ ـ فى دوامة من الانفعالات المتضاربة ـ أن بطنها يتخلق بصورة جديدة وسعيدة! زوجة وحبلى ولا شك فى أن حسين سيسعد سعادة خاصة بنقله إلى الإدارة. وجلس فى الإدارة وكيلا ثانيا، ولكنه شعر باستعلاء على من حوله، وبأنه أهل الثقة الأولى، وبأنه الحجة فى الإدارة واللوائح والميزانية فضلا عن دراسته للقانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ فى اللغات. وتساءل:

ـ ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر أو أمام مرض مباغت؟!

وتوكد لديه أن الوكيل الأول والمدير أصغر منه فى السن، وأن الدرجات لن تخلو إلا بمعجزة مجهولة، أو بوفاة عاجلة، أو بحادث يقع فى الطريق!

ـ أستغفرك اللهم لأفكارى وتمنياتى..

وكان كلاهما يتمتع بصحة جيدة وطبع بهيج وجهل مطبق وعقل مغلق. وإن أى درجة سوى الدرجة المرموقة لا يمكن أن تبرر التضحيات الجسيمة التى بذلها من عمره وسعادته وراحة باله. ولعله لم يشعر فى أى وقت مضى بما يشعر به الآن من حاجته إلى زوجة قوية رافعة، قبل أن تنقضى مدة خدمته أو يفاجئه مرض أو يدهمه الموت. لذلك طلب من أم حسنى أن تخاطب أم زينب بشأنه من جديد بعد أن رفعه الله إلى الدرجة الثالثة وكيلا للإدارة. وفى تلك الأيام ضاعف من حذره وهو ذاهب إلى قدرية بالدرب. تراءى له أن يتنكر فى ملابس بلديه حتى لا تعرفه عين، ومضى إليها بجلباب فضفاض وعباءة ولاسة فلم تعرفه حتى سمعت صوته. ولما عرفته ضحكت كما لم تضحك من قبل، وسألته:

ـ رفتوك من الحكومة؟!

وكان العمر ينحدر بها رويدا رويدا، فتمادت فى الضخامة والانطباع بطابع الفحش والشهوانية، ولكن العلاقة بينهما توثقت وداخلها ألفة إنسانية. وقد مر معها بجميع الأطوار من الرغبة إلى الملل ثم إلى العادة التى لا يسهل الاستغناء عنها. وباتت هى والحجرة العارية والنبيذ الجهنمى عناصر متكاملة وحميمة وأليفة، تهبه الراحة والتأمل والأسى، وتدفعه إلى مواجهة الحياة فى بدائيتها القاسية، غير مبال بسلوك صاحبته الحيادى وتصرفاتها المهينة، مما لم يحرمه ـ وهو معها ـ من وحدته المقدسة. وكان يقول لنفسه:

ـ عجيب أننى لم أمارس الحب مع امرأة عادية إلا مرة واحدة رغم هذا التقدم فى العمر!

وتذكر أصيلة، فتذكر بالتالى أنها كانت جريمة وليست ممارسة للحب. وقال أيضا:

- توجد معاشرة صحية إنسانية.

ثم وهو يتنهد:

- كما يوجد المجد.

ثم وهو يتنهد بعمق أكثر:

- وكما يوجد الله وهو أصل كل شىء..

ثم وهو يتنهد بعمق أكثر وأكثر:

- ونحن نتذكره بالخير ونتذكره أيضا بالشر!

٣٠

ظهرت أمارات العجز على أم حسنى رغم صمودها للزمن فضعف بصرها حتى الحضيض، وأصابها عرج، فلا تمشى إلا متوكئة على عصا هى يد مكنسة قديمة. ويئس هو تماما من أم زينب حتى قال لنفسه حانقا:

- إن الذين يثرثرون حول صراع الطبقات لهم عذرهم!

ولم تعد أم حسنى تصلح لعملها الجليل، أصابها ما يشبه الخرف، وعرضت عليه يوما عروسا ناسية أنها انتقلت إلى رحمة الله منذ أعوام. ومرة - عقب صلاة الجمعة - وكان يجلس فى الكلوب المصري رأى أصيلة وهى تسير بصحبة سيدة أخرى. عرفها من أول نظرة، رغم أنها تغيرت لدرجة أزعجته. تهدلت ككرة مثقوبة، وجف ينبوع الأنوثة من وجهها، وحل محله خيال غامض لا هو أنثى ولا هو ذكر. مضت بخطوات فظة مثالا للتعاسة والتدهور. وشىء قال له إن الموت يطاردها، وأنه يقترب من زمانه ومكانه، وإن زمانه الذى تقدس بالخلود يوما مضت تنقشع عنه الأوهام العذبة، وتتجلى له الحقيقة الأبدية المتعالية بجلال قسوتها. أما زالت أصيلة تذكره؟ لا يمكن أن تنساه، لقد نفذ إلى أعماقها بثقله وغدره وأنانيته مخلفا وراءه الكراهية واللعنة. أما أقران صباه فهم يحترفون الحقارة ويتكاثرون بالذرية، ويملئون الجو بقهقهاتهم. وضاعت تماما عواطف الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب، مثل حارة الحسينى، التى تغير جلدها، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير، وكثيرون من أهل الحى هاجروا إلى المذبح، كل شىء يتغير، النور والمياه دخلت البيوت، والراديو يصخب ليل نهار، والملاءة اللف تتوارى، حتى الخير والشر

يتجددان ويتنوعان. كل ذلك يحدث وهو ما زال فى الدرجة الثالثة، مع عمره المتقدم، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفانى الجليل؟ ألم يعلموا بأنه إنسان تلخص فى خبرة مؤيدة بالعلم والعمل؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة فى الإدارة والمخازن والمشتريات لو جمعت فى كتاب لكانت دائرة معارف فى الشئون الحكومية؟ خبرة نيرة منزوية فى وظيفة وكيل ثان لإدارة كأنها مصباح كهربائى قوة خمسمائة شمعة ثبتت فى جدار مرحاض زاوية بقرية! وقال لنفسه أيضا: إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد. الوظيفة فى تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد، والموظف المصرى أقدم موظف فى تاريخ الحضارة. إن يكن المثل الأعلى فى البلدان الأخر محاربا أو سياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو فى مصر الموظف. وإن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا من أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ. وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الآلهة فى السماء ليحكم الوادى من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية. ووادينا وادى فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رءوسهم ترتفع لدى انتظامهم فى سلك الوظائف، حينذاك يتطلعون إلى فوق، إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة فى السماء. الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة الله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء.

ومضى ذات يوم للتفتيش فى المحفوظات. وهناك رأى أنسية وقد انتقلت إلى طور النضج الأنثوى والوظيفى أيضا، فأصبحت مراجعة فى الوظيفة التى خلت بانتقال زوجها إلى وزارة المعارف. ولم يتمالك أن قال لها وهو يصافحها:

- أيام..

فابتسمت فى حياء صادق فقال:

- سعيدة إن شاء الله؟

- الحمد لله.

فقال بعد تردد وبإغراء لم يستطع مقاومته:

- من حسن الحظ أننا ننسى.

فقالت ببساطة ومودة:

- لا شىء ينسى ولا شىء يبقى!

وتفكر فى قولها طويلا. وغادر المحفوظات وهو يقول لنفسه:

- يا أنسية أحببتك كثيرا فى الأيام الخالية.

وعاد إلى مكتبه فوجد نشرة مرسلة من إدارة العلاقات العامة عرف من شكلها أنها تحمل نعى موظف أو قريب له . قرأ :

«انتقل صباح اليوم إلى رحمة الله المغفور له إسماعيل بك فائق مدير الإدارة ، وستشيع الجنازة . . . » إلخ .

أعاد القراءة . قرأ الاسم مرات . مستحيل . كان حتى الأمس يباشر عمله وهو فى غاية من الصحة والنشاط . وقد شرب قهوة الصباح معه فى مكتبه ، وكان الرجل يقول مرددا اهتماماته المعروفة :

ـ البلد يموج بالأفكار المتضاربة . .

فابتسم عثمان ولم ينبس ، فقال إسماعيل :

ـ كل واحد يعتقد أنه رسول العناية الإلهية .

وهز رأسه ثم تساءل :

ـ بأى عقل نشرع فى إعداد الحساب الختامى ؟

فأجاب عثمان بهدوء ساخر :

ـ بعقلى أنا !

فضحك الرجل ضحكة عالية . وكان يسلم بكفاءة مرءوسه وأنه العمود الفقرى للإدارة . لم تكن بينهما مودة ولا عداء . رباه كيف مات الرجل ؟ ! وذهب إلى الوكيل الأول المعروف بصلته الحميمة بالراحل وسأله :

ـ هل عندك علم عن هذه المصيبة ؟

فأجاب الوكيل الأول بذهول :

ـ شرع فى تناول الإفطار ، ثم شعر بتعب مفاجئ فقام ليستلقى على ديوان ، ولما لحقت به حرمه لترى ما به وجدته جثة هامدة !

إن ما يوفر لنا بعض الطمأنينة هو اعتقادنا بأن الموت منطقى ، يمارس وظيفته من خلال مقدمات ونتائج . ولكنه كثيرا ما يدهمنا بلا نذير كزلزال . تمتع إسماعيل حتى آخر لحظة بكامل حيويته . وما حدث له قد يحدث لأى إنسان ، أليس كذلك ؟ . وهكذا فلا ضمان ألبتة لصحة أو لخبرة أو لعلم . وهزه الخوف من أعماقه .

ـ خير تعريف للحياة أنها لا شىء . . .

ولكن هل وقع جديد لم يكن له به علم ؟ كلا . غير أنه ليس من سمع كمن رأى . وسيستمر خوفه يوما أو يوما وبعض يوم . وفى تلك الساعات تتساوى المكاسب والخسائر ، والمسرات والأحزان ، وتتوارى معانى الأشياء .

ـ ما قيمة ما بذلت طيلة العمر من جهد وتفان؟!

ولازمته وساوسه فى الجنازة، والمأتم، وحتى أحاديث الموظفين المتنوعة فى المأتم لم تلغ وساوسه، ولكنه شعر بامتنان لأنه ما زال حيا.

ـ ما البطولة الحقة؟ . . هى أننا نعمل بلا هوادة رغم علمنا بكل ذلك.

وسرعان ما طرد التفكير فى درجة مدير الإدارة ما عداه. إن الوكيل الأول مرشح لوظيفة فى القضاء، والطريق واضح بعد ذلك، وهو أن يرقى إلى الثانية ويندب مديرا للإدارة فيستحق الترقية إليها بعد مضى عام على شغلها.

تجسد له الأمل حقيقة ملموسة.

ولكنه بوغت بقرار تعيين مدير إدارة جديد نقلا من وزارة المواصلات! . .

٣١

لا . . لا . . لا . .

ذاك ما لم يخطر له ببال. وحقد على حضرة صاحب السعادة بهجت نور ولعنه ألف لعنة. هو من كان ينبغى أن يدافع عنه. عليهم اللعنة. . هل يتصورون أن يعمل لحساب غيره طول عمره؟ ومن هو المدير الجديد؟! من يكون عبد الله وجدى هذا؟ كيف يقدم له نفسه مرءوسا؟ إنه لشيء مخجل. الخجل يطارده فى أروقة الوزارة، وما أكثر الشامتين.

ودعاه بهجت نور إلى مقابلته وقال له:

ـ إنى آسف جدا يا أستاذ عثمان. . .

فقال له صراحة:

ـ إنه اليأس من الحياة الفاضلة. . .

ـ لا . . لا، إنه قريب الوزير!

ـ إنى أحسد الموظفين الكسالى.

ـ أكرر الأسف، وأخبرك بأن سعادة وكيل الوزارة آسف أيضا. . .

وتمهل دقيقة ثم قال:

ـ لا تيأس، فالرأى متفق على ترقيتك وكيلا أول عقب نقل شاغلها مباشرة فى هذا الشهر. . .

لا فائدة. الدرجات لا تهمه إلا بوصفها وسيلة لأمله المنشود الذى كرس له العمر.

والمدير الجديد فى الأربعين من عمره. شاب أو أكثر من ذلك بقليل. وإذا سارت الأمور سيرها الطبيعى فسوف يحال على المعاش وهو وكيل للإدارة أو وهو مديرها على الأكثر إذا وقعت معجزة. تبدد حلم الحياة وبات مستحيلا. ومات الماضى بعد أن تمخض عن وهم أسود. ولعله كان خيرا له لو أقام حياته كأبيه فوق الكارو. ولأول مرة فى حياته يدهمه اليأس، فقد بدت نهاية العمر أقرب كثيرا من جوهرة الأمل. وفكرة جديدة تسلطت عليه بقوة قاهرة لم يعهدها من قبل هى الزواج. لا يجوز تأجيلها بعد اليوم، ولا فائدة ترجى من تأجيلها. وبحسبه أن ضاعت أطيب فترات العمر الصالحة للحب والزواج. ما أشد حاجته إلى شريكة، إلى عاطفة صادقة. إلى مشاركة أمينة، إلى دفء البيت، إلى الذرية، إلى علاقة إنسانية، إلى قلب ويد ولسان، إلى ملجإ من العذاب، إلى درع ضد الموت، إلى منقذ من الضياع، إلى محراب مناسب للإيمان، إلى محطة راحة من الأحلام الخرقاء، إلى هدنة مع الحرص والحرمان والوحشة.

- المرأة هى الحياة، الموت نفسه يكلل بجلالة الحق بين يديها.. ولم يلجأ إلى أم زينب، ولا فائدة ترجى اليوم من أم حسنى بعد أن أقعدها العجز، ولكن ثمة فتاة جديدة فى الإدارة تدعى إحسان إبراهيم، لم يتردد فى إظهار تودده إليها. ذلك أنه يريد أن يتزوج اليوم إن أمكن. وكلما بات ليلة وحيدا اشتد جزعه. كأن الرغبة فى الزواج كانت تنمو فى داخله وهو لا يدرى حتى انفجرت كبركان. ولم تفهم إحسان تودده على الوجه الصحيح، ولعلها استبعدت أن يغازلها رجل فى سنِّه؟ وما حيلته ولم يعد يوجد حب كأيام سيدة وأنسية، ولا رغبة جامحة كأيام سنية وأصيلة.

وانتهز فرصة وجودها - إحسان - يوما فى حجرته لعمل فسألها:

- تسمحين لى بسؤال غريب بعض الشىء يا آنسة إحسان؟

- طبعا يا سعادة البك.

فتردد قليلا ثم سأل:

- أأنت مخطوبة؟

تورد وجهها ورمقته لأول مرة بنظرة أنثى لا موظفة وأجابت:

- نعم يا سيدى.

شعر بخيبة أمل، ولكنه قال:

- معذرة فإنى لم أر خاتما فى أصبعك.

- أعنى فى حكم المخطوبة.

تفكر مليا ثم قال:

ـ لدى رجاء ولكن يجب أن يبقى سرا بيننا؟

ـ أفندم؟

ـ هل أطمع فى أن تدلينى على عروس؟

فتفكرت فى ارتباك، ثم قالت فى حذر:

ـ جميع من أعرف من قريبات وصديقات يقاربننى فى السن فهن لا يلقن بك!

ـ يا لها من ترجمة مهذبة لـ «لا تليق بهن»، وتمادى من شدة يأسه فسألها:

ـ ألا يمكن أن يتزوج إنسان فى مثل سنى؟

ـ لِم لا؟ توجد عروس مناسبة لكل سن!

ـ شكرا ومعذرة عن مضايقتك.

ـ أرجو أو أوفق لخدمتك...

وعند ذهابها استشاط غضبا. تصور أنها كان يجب أن ترحب به لنفسها أو لإحدى القريبات أو الصديقات. إذن قد صار كهنة مثل فضلات المخازن التى يعرضها للبيع عند الجرد السنوى. والظاهر أنه لن يكون أسعد حظا فى مسألة الزواج، ولو نال أمله المنشود وحلم العمر فى حجرة صاحب السعادة. ها هو ذا الزمن يلهبه بسياطه على حين أنه لم يعد يقوى على العدو. وبمرور كل يوم اشتد تسلط فكرة الزواج عليه حتى كادت تزاحم هوس الدرجة. ولم ترجع إليه إحسان بجواب. ومن جنونه راح يحاول مغازلة النسوان فى الطرقات والباصات بلا خبرة وبلا نجاح حتى اضطر إلى الكف عن ذلك وهو يقول متأوها:

ـ ما أضيع العمر!

وتساءل با متعاض عما يجعل زواجه متعسرا بهذه الصورة حتى بعد أن نزل عن شروطه المعوقة الأولى. السن بلا شك مثبطة ولكنها ليست كل شىء. إنهم يتحرون عنه، وسرعان ما يعرفون كل شىء عن أصله وفصله، هذه هى الحقيقة الأخرى المخزية. إنه فى الحقيقة كهل ذو منبت حقير، والله أعلم بما يقال عنه بالإضافة إلى ذلك، فإن رجلا متفوقا مثله خليق بإثارة عواطف الحسد فى النفوس، وطالما شعر بأنه بلا صديق حقيقى فى هذه الدنيا، وبأنه وحيد متعال عن الضعف البشرى!

وحمله الليل ـ كالعادة الرتيبة ـ إلى الحجرة العارية، إلى قدرية. وقال لنفسه بمرارة: ما أجمل أن يكون نصيبى من الدنيا درجة وكيل إدارة وبغيا نصف زنجية! وكانت تقول له ضاحكة:

ـ لأول مرة تشرب قدحين من النبيذ، هل قامت القيامة؟

أما القيامة فقد قامت وها هو ذا يشعر بدوار غريب فى رأسه. قال لها بلا مناسبة:

ـ اعلمى يا قدرية أنى رجل مؤمن.

فلفت شعرها الخشن بمنديل أحمر وقالت:

ـ الحمد لله..

ـ ولولا إيمانى بأن الدنيا مقدسة بما هى من صنع الله لرضيت بحياة البهائم..

فنظرت إليه نظرة بلهاء، وقالت:

ـ قرروا إلغاءنا عليهم اللعنة..

فواصل بلا انتباه إلى قولها:

ـ والله سبحانه..

فقاطعته:

ـ قرروا إلغاءنا..

ـ أفندم؟

ـ ألم يبلغك ما يقال عن إلغاء البغاء؟

كلا. إنه لا يقرأ فى الصحف إلا الوفيات وشئون الدولة والدواوين. فتساءل بانزعاج:

ـ حقا؟!

ـ نبهوا علينا بالفعل.

ـ خبر غريب..

ـ وعدونا بعمل لمن تريد عملا، أى عمل؟! عليهم لعنات الدنيا والآخرة، هل أصلحوا كل شىء فلم يبق إلا نحن؟!

ـ لعله كلام، ما أكثر الكلام فى هذا البلد..

ـ يا سيدنا لقد أبلغنا رسميا بالأمر..

فسأل بجزع ورعبك

ـ ومتى تم ذلك؟

ـ قبل نهاية هذا العام..

وساد صمت حتى ضجت الحجرة بأصوات المعربدين فى الحارة. كم من مصائب توقعها، أما هذه المصيبة فلم تجر له على خاطر. وقال بأسى:

ـ ستنتشر بيوت الدعارة فى كل مكان..

ـ والأمراض كذلك .

ـ وآلاف من بنات الناس سيتعرضن للفساد .

ـ ماذا نقول لمن لا عمل لهم؟

وتنهد ثم سألها :

ـ وعلام نويت؟

ـ على أى حال لن أقبل أن أعمل غسالة فى مستشفى .

ـ هل يمكن أن أعرف عنوان بيتك؟

ـ سنكون تحت رقابة مشددة .

وشعر بيأس لا يطاق وسألها :

ـ ألم تكونى فكرة عن المستقبل؟

فقالت بثقة :

ـ سأتزوج . لم يبق لى إلا الزواج . .

ولطمه قولها فملأ القدح الثالث ، وسألها :

ـ عندك عريس؟

ـ ما أسهل أن يوجد!

ـ ولكن كيف؟

فقالت فى مباهاة :

ـ عندى خمسمائة جنيه ، ممكن أجهز شقة بمائة وخمسين ، وأحتفظ بالباقى كاحتياطى ، ألا يرحب كثيرون بالزواج منى فى تلك الحال؟

ـ معقول جدا . . .

فقالت وهى تضحك :

ـ إن وجدت عريسا مناسبا فأخبرنى . .

وعند منتصف الليل وهو يتسلل تحت البواكى صادف سكران يتقايأ فتقزز لدرجة غير محتملة . وشعر بوحدته وضياعه ويأسه وبرغبة فى الانتحار . وغير طريقه بلا تفكير . رجع إلى الدرب مترنحا فصادف قدرية تهبط السلم فى طريقها إلى مأواها . أوقفها بيده وقال لها :

ـ قدرية . وجدت لك الزوج المناسب . .

لم ير وجهها فى الظلام ، ولكن خمن تأثير قوله فقال :

ـ لنتزوج فى الحال!

٣٢

وتم الزواج فى اليوم التالى مباشرة. ولم تذهل المرأة لقراره كما توقع. رمقته بنظرة متفحصة لتتوكد من صدقه، فلما تبين لها صدقه أحنت رأسها بالقبول. وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابح فى الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه! وقال لها بعجلة:

ـ لنذهب إلى المأذون توا.

فقالت وهى تضحك فى سعادة:

ـ أفق أولا وانتظر طلوع النهار.

وبات الليل فى شقتها الصغيرة بعطفة الشماشرجى. وفى الصباح قال لها:

ـ نعد بيتنا الجديد ثم نتزوج.

ولكنها قالت بإصرار نهائى:

ـ بل نتزوج ثم نعد بيتنا.

وجىء بالمأذون إلى البيت. واقتضت الإجراءات شاهدين، فلم تجد إلا قوادين ممن كانوا يعملون معها. وجرت المراسم البسيطة وهو يتابعها بذهول. ما هذا الذى يجرى؟! واجتاحه شعور ممزق بالقلق بلغ حد الرعب، فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد سحابات الكابوس الذى يعانى. ثم اجتاحته موجة من الاستسلام بلغت حد الاستهتار. ولما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول. قال لنفسه: إنهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون. ولعله من الإنصاف أن يعترف ـ بدءا من اليوم ـ بأنه مجنون ـ كهلة نصف سوداء فى ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش. هكذا تحققت الأمنية التى تاق إلى تحقيقها بجنون، فأصبح زوجا، كما أصبحت قدرية ـ رفيقة شبابه ـ زوجه له. ترى ماذا فعل بنفسه؟! وقال:

ـ على أن أبدأ حياة جديدة..

ولإعجابه بروض الفرج ـ الذى رآه وهو يعود حمزة السويفى ـ استأجر به شقة من ثلاث حجرات وصالة، ومضيا يؤثثانها معا بعد أن ألزمها بالحجاب، باسم الحشمة فى الظاهر، وفى الحقيقة خوفا من أن تقع عليها عين زبون قديم أو حديث. ابتاعا حجرة للنوم وثانية للسفرة وثالثة للمكتبة والجلوس والاستقبال، وثيابا لها وله، وراديو وغير ذلك. وقد أسهمت فى التجهيز بمائة جنيه ورصد هو لها بمثلها. وبدافع من الاستهتار

الذى ركبه مال إلى تغيير سياسته نحو «النقود»، فأنفق ـ كلما دعا الداعى ـ باستسلام يائس غطى على الألم المعتاد فى مثل تلك الأحوال، وتملكته رغبة قوية فى الاستمتاع بطيبات الحياة التى طالما حرم نفسه منها. وودع أم حسنى وداعا مؤثرا، فذهلت العجوز لقراره وبكت قائلة:

ـ لا تهجر منبتك فليس فى ذلك خير.

ولكنه هجره بلا أسف، ولم يكن مما يصح التفكير فيه أن يجىء بقدرية إلى حارة الحسينى، ونظر إليه بصفة عامة كرمز للبلى والحرمان والضياع والذكريات المحزنة. أغرق آلامه الظاهرة والخفية فى المتع المتاحة، وأصر على تذكير نفسه ـ وإقناعها ـ بأن قدرية هى المرأة الوحيدة التى أحبها حبا حقيقيا، وإلا فكيف عاشرها ذلك العمر الطويل كله؟! وها هى ذى لا تألو جهدا فى أداء دور ست البيت فى الوسط الجديد «الراقى» الذى يعد الانتقال إليه من «الدرب» وثبة خيالية. ودعا الله ألا تراها العيون التى عرفتها. ونصحها قائلا:

ـ تجنبى الاختلاط بالجيران.

فسألته:

ـ لم؟

ـ الناس أخلاقها لا تسر!

وكان يخشى أن يقع خلاف بينها وبين إحدى الجارات فتنسى تحفظها وتنفجر براكين الفحش الكامنة فى أعماقها. عدا ذلك فإنه لا يجحد اجتهادها الصادق فى إسعاده وحرصها على النجاح فى حياتها الجديدة. وبمضى الأيام اطمأن إلى الحياة الجديدة، سلم بواقعها، ونعم بما وفرته له من أنس وراحة ونظام ونظافة، وها هو ذا يصلى بلا قلق ولا حرج، بل ها هو ذا يتقرب إلى ربه بما أنقذ من روح ضائعة، ولعلها روحان لا روح واحدة.

واعتقد أن حياته الدنيا قد كملت بالمقسوم له وأنه آن له أن يفكر فى آخرته. قال:

ـ واجب علىّ أن أشيد لى مدفنا!

واستشار أهل الخبرة، وبفضلهم اشترى أرضا فى الخفير، وشرع فى بناء قبر مناسب. وكثيرا ما تفقد العمل بصحبة مهندس من الإدارة الهندسية بالوزارة. وسأله المهندس.

ـ أليس للأسرة مقبرة قديمة؟

فأجاب بثبات:

ـ قديمة جدا، واكتظت بالآباء والأجداد، فدعت الضرورة إلى بناء هذه المقبرة..

فقال المهندس :

ـ شتان بين الجديد والقديم فى القبور ، القبر الجديد بناء عصرى جميل . .

ـ أنا لا أهتم بتملك بيت فى الدنيا فشقة مستأجرة تفى بالغرض ولكن لا مناص من تملك قبر وإلا ضاعت كرامة الإنسان . .

فضحك المهندس ، وقال :

ـ فى الهند يحرقون الجثث . .

فقال متأففا :

ـ أعوذ بالله . .

فضحك المهندس كرة أخرى ، وقال :

ـ أتريد رأيى؟ النار أحفظ لكرامة الجثة من التراب ، أليس لديك فكرة عن أطوار تحلل الجثة فى القبر؟

فقال بضيق :

ـ كلا ، ولا داعى ألبتة لهذه المعرفة!

وتفكر قليلا ثم سأل المهندس :

ـ ألا يحسن بناء دورة مياه؟

ـ ستستعمل فى غيابك ، وبطريقة مقززة!

ـ ولكن لا بأس من زراعة شجرة أو لبلابة . .

ـ ليكن ، ويمكن ريها من الخارج . .

وتم البناء فذهب لتسلمه ودفع باقى الأتعاب . تفحص القبر بإعجاب . كان بابه مفتوحا ، والسلم يرى فى تدرجه نحو المنامة متألقا بنور الشمس . وانحنى قليلا ليلقى نظرة على أرضه المنبسطة الجديدة المكللة بالضوء والنقاء والنظافة وشعر باطمئنان غريب غير متوقع . فها هو ذا البيت الباقى قد أعد ، ولن تضيع عظامه فى زحمة العظام كوالديه . وبخلاف المتوقع أيضا انبجس من أعماقه شعور ناعم غريب يدعوه بهمس كالغزال إلى الرقاد فوق الأرض النظيفة المضيئة ، ليتذوق راحة لم تقسم له فى حياته ، وليستمتع بهدوء لم يعرفه وسط انفعالاته المتلاطمة الحارقة . نداء مجهول ود لحظتها لو يطيعه منفضا يديه من الدنيا بكل همومها وآمالها . ولم يفق من غمرة مشاعره المجهولة حتى غادر القرافة راجعا إلى المدينة . كم يود أن ينقل والديه إلى القبر الجديد ليكمل اطمئنانه إليه ولكنه علم باستحالة ذلك منذ زمن غير قصير . أجل ، فإن قبر الصدقة يكتظ بالجثث بحيث يستحيل التمييز بينها . وقال متسولا الاقتناع بحكمة تصرفه :

- ليس من شك فى أن حياتى اليوم خير من حياتى أمس . .

وهى لا تعنى بحال أنه حاد عن طريق الله وكلمته الأبدية ، وإن اعتراه فتور ملحوظ . .

٣٣

لتمض الأيام .

مهما يكن من أمر فقد أصبح صاحب أسرة ومالك قبر ، وعرف من الطعام ألوانا جديدة غير المعهود من لحمة الرأس والكشرى والفول والطعمية والعدس والبصارة ، كما عرف للنقود وظيفة غير التحنيط فى صندوق البريد .

ولكن ألا تمضى الأيام فى رتابة ووخامة؟ وهل فقد الأمل بصفة نهائية؟!

وانبثقت من تيار الأيام موجة عالية وعاتية غير متوقعة بتاتا ، غيرت المصائر والحظوظ ، وأعادت خلق العالم من جديد . فقد أصبحت الوزارة ذات يوم على قرار بتعيين بهجت نور المدير العام وكيلا للوزارة فخلت وظيفة المدير العام لأول مرة منذ عهد مديد ، وعاشت قلوب كثيرة فى خفقان متواصل مقدار أسبوعين حتى صدر قرار بترقية عبد الله وجدى مدير الإدارة إلى وظيفة المدير العام فبات «صاحب سعادة» بالطول والعرض . وانبعث الخفقان فى قلب كان قد استنام إلى الهمود زمنا غير قصير . فقال عثمان :

- إنى المرشح الوحيد «رسميا» و «طبيعيا» ، فماذا تراهم يفعلون؟!

ومضت أسابيع فلم يقصر فى حق نفسه . حادث المدير العام كما حادث وكيل الوزارة .

وسمع بعضهم يقول :

- إن وظيفة مدير الإدارة من الوظائف الحساسة .

فسأله عما يعنى فأجاب :

- لا تراعى الشهادة والكفادة وحدها عند الاختيار لها ، ولكن يضاف إليهما المكانة الاجتماعية . .

فصاح بغضب :

- ذلك كلام يصدق على الوكيل أو الوزير أما مدير الإدارة بل والمدير العام فلا يحرم منها أبناء الشعب ، بذلك جرى العرف منذ تنحى عنها الموظفون البريطانيون . .

ولم يطل به العذاب، فقد صدر قرار ترقيته إلى درجة مدير الإدارة فى الشهر نفسه. وفيما بعد تذكر ذلك اليوم بوجد وكان يقول:

ـ وقعت المعجزة فى غمضة عين!

وقال أيضا:

ـ لم يعد يفصل بينى وبين المدير العام فاصل من الكادر!

ولكن كيف وقعت المعجزة؟ جرى فى تقديره يوما أنه سيحال على المعاش قبل أن يتحرك أحد فى الطابور أمامه، ولكن حدث تعديل وزارى اختير فيه وكيل الوزارة وزيرا، ثم أعقب ذلك التغيرات السعيدة المفاجئة. وقال له بهجت نور وكيل الوزارة:

ـ رقيتك رغم الاعتراضات الكثيرة..

فشكر له فضله ولكنه تساءل بأسف:

ـ ولماذا الاعتراضات؟

فقال الوكيل:

ـ إنك فوق قمة عمرك الحكومى، فلا يمكن أن تجهل سببا مما تسأل عنه..

على أى حال انفتحت نفسه للعمل كحاله الأولى، وتعهد أمام ربه بأن يسجل فى رياسته الإدارة تاريخا فذا حافلا بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة، وأن يثبت للجميع أن الوظيفة عمل مقدس وخدمة إنسانية وعبادة بكل معنى الكلمة. ومن أول يوم قرر أن يتعاون مع عبد الله وجدى بصدق، لأن التعاون مع المدير العام طقس من طقوس العبادة فى العمل، ولأنه لم يخن واجب الوظيفة أبدا، بل قرر أن يغطى ضعفه بخبرته، يقدم له من الخدمات الخاصة ما هو فى حاجة إليه أسوة بوكيل الوزارة نفسه، ولعله يجنى يوما ثمرة ما يزرع. وجعل يقول لنفسه:

ـ عبد الله وجدى فى حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد!

ولكنه فى الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها! كان يرمق بدانة عبد الله وجدى باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه فى الطعام والشراب بارتياح خفى، ويردد فيما بينه وبين نفسه:

ـ ما أكثر الأمراض التى يتعرض لها أمثاله!

وهو حق وعدل. لم لا؟ إنه برغم الهفوات رجل مؤمن، من رجال الله، ومن مريدى الحسين والله لن يتخلىَ عنه. قال:

ـ هل يستطيع الإنسان فى يوم الحساب أن يقدم خيرا من طموحه النبيل وعمله المقدس وتقدمه الثابت وسجلا بالخدمات التى أداها للدولة والناس؟!

وقال أيضا :

ـ إن الدولة هى معبد الله على الأرض ، وبقدر اجتهادنا فيها تتقرر مكانتنا فى الدنيا والآخرة . .

أما حياته الزوجية فلم تنعم بالهدوء والازدهار طويلا . ومتاعبها كانت متوقعة على الرغم من مغالطة النفس والتعلق بالآمال . وقال لها :

ـ قدرية ، إنك تفرطين فى شرب الخمر .

فرمقته بدهشة وقالت :

ـ هذا واضح ، وهو قديم . .

فقال برجاء :

ـ يوجد أمل دائما فى أن نتغلب على عاداتنا السيئة . .

ـ لا ضرورة لهذا التعب . .

فقال برجاء أيضا :

ـ بل إنى آمل أن تصومى وأن تصلى ، فنحن فى حاجة إلى رضا الله عنا .

فقالت بامتعاض :

ـ إنى مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم . .

ـ إنك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة . .

ـ إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟ !

ـ يجب ألا تسكر على الإطلاق .

فضحكت بصوت مزعج ولكنها سرعان ما قطبت وقالت بأسى :

ـ لا أمل !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا أمل فى بنت أو ولد ، فات أوان ذلك .

وشعر بأنه يشاركها فى الحزن على ذلك ، ولكنه قال :

ـ أمامنا على أى حال فرص طيبة للحياة الهانئة .

وبذلت محاولة غير جادة للامتناع عن الشرب ولكنها استمرت فيما هى فيه . وربما ضاعفت من إدمانها بعد رجوع عثمان إلى الاستغراق فى عمله ومعاناتها لفراغ مخيف بلا أنيس . ولمحها مرة وهى تتناول قطعة من الأفيون ، ففزع الرجل وصاح :

ـ لا . .

فصاحت بحدة :

ـ لا تتعرض لهذا!

فسألها بلهفة :

ـ منذ متى؟

ـ من أيام سيدنا نوح .

ـ ولكن . .

ـ إلا هذا ، إنه أقوى من الموت . .

ـ ولكنه والموت شيء واحد .

فقالت باستهتار :

ـ ليكن . .

تملكه الفزع . ماذا فعل بنفسه؟ أى طلاء سعادة خدعه؟ بأى ثمن عليه أن يقاوم؟ لا جدوى من التفكير فى الطلاق لأنه يعنى الدخول فى معركة حامية ربما انتهت بالقضاء عليه . وسألها :

ـ كيف تحصلين عليه؟

فلم تجب . فقال :

ـ تذهبين إلى الحثالة القديمة المشبوهة وفى ذلك ما فيه من الخطر البين . .

ـ لا تبالغ . .

ـ قدرية ، فكرى ، إن لم تغيرى حياتك حل الخراب بنا . .

وشحذ إرادته للدفاع عن سمعته ومستقبله . ومن خلال ما يشبه المعركة حملها إلى مصحة نفسية وعصبية بحلوان فمكثت بها أشهرا حتى شفيت من الإدمان . خيل إليه أنها عادت امرأة جديدة . ولم تجد من سلوى فى حياتها إلا الطعام فأقبلت عليه بشراهة وإفراط ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك فى الدهن الذى اكتنز به جسدها فزاد بدانة على بدانة حتى تبدت فى صورة تدعو إلى الرثاء والسخرية معا . ولم يفارقه القلق من ناحيتها فكان يعمل بعين ويراقبها بعين ، ويقول بحزن :

ـ فقدت الميزة الوحيدة التى كنت أستمتع بها فى الليالى البهيمية ، وها هى ذى تتعرى كاشفة عن بدائية تعيسة بلا خلق ولا دين ولا عقل ولا ذوق . .

وتذكر الآراء التى يعلل بها بعض الزملاء ـ المولعين بالسياسة والأفكار ـ هذه الظاهرة وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات . ولكنه تذكر أيضا «حالته» : ألم ينشأ مثل قدرية فقيرا وعاجزا ومحروما من كل سلاح؟ . بلى ، ولكنه اكتشف فى الوقت المناسب السر المقدس فى ذاته الضعيفة ، كما اكتشف حكمة الله الخالدة ، فشق طريقه

بجلال وعذاب جديرين بالإنسان مخلوق الله العظيم، ولذلك لم يكد يعطف عليها، ورجع يتساءل:

ـ ماذا فعلت بنفسى؟

أجل، ما معنى حياة زوجية بدائية بلا حب حقيقى أو علاقة روحية أو أمل فى ذرية أو مجرد زمالة إنسانية؟!! على أنه قال لنفسه محذرا:

ـ هون من أحزانك، لم تعد تتحمل كالزمان الأول، أجل يوجد تغير جديد، خفيف كالنسيم ولكنه ماكر كالثعلب. إنه السن، وإنه الزمن..

وتفكر قليلا ثم قال:

ـ بفضله نحقق كل شىء، وبسببه نخسر كل شىء، ولا يبقى إلا وجه ذى الجلال!

٣٤

كالعادة نسى النجاح تماما. انجابت الأفراح وتراكمت سحب الهموم. أصبحت رياسة الإدارة عادة روتينية، عليه أن يتجاوزها، وأن يتجاوزها بسرعة تناسب القليل الباقى من العمر، وإلا انقضت مدة الخدمة وهو واقف كالمتسول أمام باب الحجرة الزرقاء. والطموح عنيف والزواج لم يعد بالمرفإ المواسى.

ـ يا ربى إنى أحاول هدايتها فهبنى من لدنك قوة.

لكن جهده يتبدد هباء، ودهمها بتعاسة لم تجر لها فى خاطر. فى الماضى كانت تعيش التعاسة ولا تكاد تشعر بها، وتجد فى الخمر والأفيون ملاذا طيبا. أما اليوم فهى تتصدى للخواء فى يقظة بغيضة بعينين محملقتين مذعورتين بلا عزاء ولا حب ولا ذرية. قال:

ـ كانت فى الدرب عزاء لى ولذة، أما فى هذا البيت المريح فهى الجحيم.

وقال أيضا:

ـ لو ذهب كل منا إلى حاله لربما حدثت معجزة سعادة، أين وحدتى القديمة؟ أين؟!

ورجع يوما فرأى فى عينيها نظرة حمراء ذاهلة وضاحكة، فقال برعب:

ـ عدت إلى الشراب؟

فأحنت رأسها باستسلام وقالت:

ـ نعم والحمد لله!

فتنهد وقال:

ـ وعما قريب سترجعين إلى الأفيون؟

فقالت بنبرة ساخرة :

ـ حصل والشكر لله . .

فتساءل بحدة :

ـ والعمل ؟ !

فقالت بهدوء :

ـ كل شيء طيب ، ليلة أمس حلمت بأمى !

ـ سأيأس منك نهائيا .

ـ خير ما تفعل .

ووجدها تذوب فى عالمها الوهمى وتعتزله كلية ، فارتاح بعض الشىء . ها هى ذى تستقل بدنياها وها هو ذا يعود إلى وحدته . وقرر بضمير قلق ـ ألا يقاوم تدهورها هذه المرة . وقال يخاطب ربه :

ـ اغفر لى أفكارى يارب ، إنها قاسية مثل الحياة ، وهى جزء منها ليس إلا . .

وهو يتلظى بذلك السعير ، تعينت راضية عبد الخالق سكرتيرة له . وكان مدير المستخدمين قد طلب منه اختيار الشخص الذى يجده مناسبا لسكرتيريته . قال له :

ـ من حقك أن تختار سكرتيرتك ، بل من حقك أن تعين فيه قريبة من ذوى الثقة . .

أحقا لا يعرف الرجل شيئا عن أصله وفصله؟ عرف طيلة خدمته الطويلة عبقرية الموظفين فى نبش المستور ونشر الفضائح ، ولا شك فى أن المنبت «الكارو» لم يعد يخفى على أحد . وقال الرجل :

ـ أترك لك الاختيار .

فقال مدير المستخدمين مداهنا :

ـ إنك مثال النزاهة والترفع يا سيدى المدير .

وفى صباح اليوم التالى دخلت عليه راضية عبد الخالق ، فحيته وقالت :

ـ راضية عبد الخالق ، سكرتيرة سعادتك إذا سمحت ووافقت . .

فقال وهو يتذوق انفعالا طيبا :

ـ أهلا بك ، من أى قسم؟

ـ المستخدمين .

ـ عظيم ، وما مؤهلاتك؟

ـ ليسانس آداب قسم التاريخ . . .

ـ عظيم . .

هم بسؤالها عن سنها ولكنه أمسك، وقدره بخمسة وعشرين عاما. رشيقة القوام بصورة ملحوظة، ذات هالة من الشعر الفاحم سواها الحلاق فى بساطة وانسياب فأحدقت بجانبى الوجه الأسمر الطويل صانعة له إطارا حانيا، وعيناها صغيرتان وواضحتان وذكيتان يومضان بجاذبية، وبروز ثنيتيها ـ وربما عد عيبا ـ أضفى على فيها شخصية حلوة. انفعل بجاذبيتها وقال فى سره:

ـ لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق . .

وقال لنفسه أيضا:

ـ إنى فى حاجة إلى مظلة فى هذا الجحيم . .

ومن أول نظرة نزع قلبه إليها بارتياح وسرور ورغبة خفية فى الاحتماء. وبمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمة عانس. وفضحته أمانيه العميقة أمام نفسه، فضحت أحلامه ورغباته، ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير ـ مجرد التفكير ـ فى ارتكاب أى حماقة. قال لنفسه:

ـ حسبى أن أصبح على وجهها كل يوم.

واستأسره أدبها ورقتها وعذوبة نظرتها الناعمة. وحلل ذلك بأنه السلوك الواجب من سكرتيرة نحو مدير، وهو واجب أكثر إذا كان المدير فى سن والدها. ولكن ما بالها تشغله أكثر مما يجب؟ ما بالها تعبق حياته بشذا طيب ونفاذ. وقال لنفسه:

ـ فى لحظة من لحظات الحياة يستوى من أخذها مأخذ الجد ومن لها بها لهو العبث والهزل.

وتوجه إلى ربه داعيا:

ـ اللهم عفوك ورحمتك.

وجعل يلاحظ عملها باهتمام حتى سألها يوما:

ـ أيشق عليك العمل فى مكتبى؟

فأجابت بحرارة:

ـ كلا، إنى أحب العمل!

ـ كذلك كنت منذ نشأتى الأولى، وما زلت، وأبشرك بأنه جهد غير ضائع . .

ـ ولكن يقال . .

فقاطعها:

ـ أعرف ما يقال، ولا أنكره، الوساطة . . القرابة . . الحزبية كل أولئك وما هو أشنع . ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك، حتى أصحاب المراكز من غير ذوى الكفاءة يجدون أنفسهم فى حاجة إلى من يغطى عجزهم من الأكفاء الحقيقيين . .

وابتسم فى افتتان خفى بجاذبيتها واستطرد :

ـ لقد شققت طريقى معتمدا على الله سبحانه وعلى عملى . .

ـ يتردد ذلك فى كل مكان .

ترى ماذا يتردد أيضا؟! ذلك الذى جعل أم زينب لا ترجع بجواب! ولكن لم تعد لذلك أهمية اليوم . وقال لها :

ـ من الإنصاف أن أصارحك بأننى راض عن عملك تماما!

فابتسمت قائلة بسرور :

ـ إنى مدينة لنبلك بهذا التشجيع!

لا يوجد جو أصفى من ذلك . جو نقى ملىء بالوعود . والقلب يستقطر منه مرحا مقدسا . من مثل هذا المنطلق يبدأ العاشق سيره، والزواج الموفق، والصداقة السعيدة . هكذا يصادف الحائرون احتمالات ثرية للسعادة فى ظروف غير مناسبة حين يتفق المكان مثلا ويختلف الزمان، أو العكس، مما يقطع بأن السعادة كائنة ولكن السبل ليست ممهدة دائما، ومن اللعب بين هذا وذاك يجىء الحظ السعيد أو العبث . ولكن لا يجوز أن تنسى الأخطاء كذلك ـ أخطاء؟ ـ أن تنسى سيدة وأصيلة وأنسية .

وبمرور الأيام جعل يقول لنفسه :

ـ يا قلبى حاذر .

وكالعادة راح يخاف راضية بقدر ما يودها . وكالعادة ترك نفسه للتيار ليفصل فى مصيره قدر مجهول . .

٣٥

وتتابعت الأيام بين عمل فى الإدارة وأحزان فى البيت وأشواق تندلع فى القلب . وبدا أن الكون قد توقف وأن عبد الله وجدى قد رسخ فى وظيفة المدير العام مثل الهرم الأكبر . وقال بحزن :

ـ لا بارقة أمل .

أين تقع المعجزة هذه المرة؟! وها هو ذا لم يبق من السواد فى رأسه إلا شعيرات معدودات، وقد ضعف بصره فاستعان بنظارة، وفقد جهازه الهضمى نشاطه المعهود فعرف العقاقير لأول مرة فى حياته، وعلاه أحديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته أى نوع من أنواع الرياضة. وكان يقول لنفسه:

ـ ما زلت قويا والحمد لله . . .

وعلى غير عادة كان ينظر طويلا فى المرآة ويقول:

ـ ما زلت مقبولا!

وفى تلك الأثناء وضع كتابا فى قوانين الموظفين مع تعليق شامل، وكان للكتاب دوى فى أوساط الموظفين. وعلى الرغم من تقدمه فى السن، فإنه ثابر على طاقته الخارقة فى العمل والترجمة، حبا فيهما، وهربا من شبح حياته الزوجية وعواطفه المشبوبة المتسمة فى نظره بالنزق والطيش. وقال لنفسه:

ـ فلأعترف بأن ساعة عرض البريد فى الصباح هى نصيبى من سعادة الدنيا!

تبادلُ تحيات، تراشقُ بسمات، تعليقاتٌ مصلحية، دعابات خفية، إشارات ثناء لبقة إلى التسريحة أو الحذاء أو البلوزة.

ومرة كان يثنى على تسريحتها قالت:

ـ أفكر فى تقصير شعرى . .

فهتف محتجا:

ـ كلا.

وابتسمت لحرارة الاحتجاج على شأن لا علاقة له بشئون اللوائح.

ـ ولكن . .

فقاطعها:

ـ اتركيه وشأنه.

ـ ولكن الموضة . .

ـ لا خبرة لى بالموضة، ولكننى أحبه كما هو . . !

وتورد وجهها. تفحصها بعناية فلم يعثر على أثر لاستياء. وأراد أن يستغل الدروس التى تلقاها فى لحظاته السعيدة الماضية، فانتهز فرصة وجودها ذات صباح وقدم لها علبة صغيرة أنيقة وذهلت راضية وتساءلت:

ـ ما هذا؟

ـ شىء بسيط لمناسبة كبيرة . .

- ولكن . . ولكن كيف عرفت . . ؟

- عقبى لمائة عام . .

- إنه يوم ميلادى حقا .

- طبعا . .

- ولكن . . ما أنبلك . . الحق أنى لا أستحق . .

- الحق أنك لا تحسنين الكلام كما تحسنين التأثير . .

- إنى ممتنة .

- وإنى سعيد .

وتنهد . واستجمع إرادته . ثم أذعن لعواطفه كلية وبلا احتراس . وفى اندفاع انفعالى خطير ، قال :

- ما الحيلة؟ . . إنه الحب . .

فغضت بصرها متلقية اعترافه باستسلام قدرى عذب .

- آخر ما يجوز الحديث عنه ، ولكن ما الحيلة؟

غمق وجهها الأسمر بالدم المتصاعد ولكنها لم تذهب ، جلست مستسلمة كأنها تتطلع للمزيد .

- لست شابا كما ترين .

وصمت مليا ثم استطرد :

- ثم إنى متزوج . .

أجل ماذا يريد؟ لعله لا يريد أن يواجه الفشل المحتمل أو الموت فى النهاية وحده ، بلا حب دفىء وبلا ذرية! . وعاد يقول :

- ولكن ما الحيلة؟ . . إنه الحب . .

وغلب الصمت مرة أخرى . لم يعد يبالى بشىء . سألها متصنعا الدعابة :

- ما رأيك فى هذه الحالة؟

ابتسمت وغمغمت بصوت غير مسموع ، فقال :

- لعلك تتهميننى بالأنانية؟

فقالت همسا :

- كلا ، لست كذلك . .

- ولا بالخرف؟!

فضحكت ضحكة خافتة ناعمة وقالت :

ـ لا تلصق بنفسك ما ليس فيها .

ـ إنى سعيد برأيك ولكن ما العمل؟

وساد الصمت للمرة الثالثة فقال :

ـ أود جدا أن أسمع رأيك؟

فقالت بجدية :

ـ الموقف دقيق ومحير ، ولا أحب أن أتجاهل العواطف الإنسانية والرحمة . .

ـ لعلك تلمحين إلى زوجتى؟

ـ هو ما يجب أن تفكر فيه . .

ـ دعى ذلك لى وحدى فأنا المسئول عنه . .

ـ حسن .

ـ ولكنى أريد أن أسمع رأيك فيما عدا ذلك . .

وكانت تمالكت مشاعرها لدرجة لا بأس بها ، فقالت :

ـ ألم تدلك مناقشتى فى الموضوع على شىء ما يخص المبدأ؟

ـ إنى سعيد جدا ياراضية ، هذا يعنى أنك تباركين حبى لك؟

فقالت بشجاعة :

ـ نعم .

فهزته النشوة حتى سكر ، وقال باستهانة جليلة .

ـ ليكن ما يكون .

ثم بلهجة مستدرة للعطف :

ـ أعترف لك بأننى لم أعرف قط السعادة .

ـ لم أتصور ذلك .

ـ حياة شاقة وزواج تعيس !

ـ لم أتصور ذلك حقا .

ـ لماذا؟

ـ تبدو لى دائما حكيما ، وفكرتى عن الحكماء أنهم هم السعداء .

ـ يا لها من فكرة . .

ـ إنى آسفة . .

ـ أما أنا فسعيد بحبك .

وآمن بأنه فاز بأكبر غنيمة فى حياته، وآمن بأن الحب هو القوة التالية لله سبحانه .

واقتضى سير الأمور أن يذهب معها إلى بيتها بالسيدة زينب . قدمته إلى عمتها العانس العجوز . ومن بادئ الأمر شعر بأن المرأة غير مرحبة، وأن موقفهاواضح وحاد . وكانت عصبية وصريحة . ونوقش الموضوع من جميع جوانبه . قالت له :

ـ طلق امرأتك أولا .

فرفض الفكرة وقال معتذرا :

ـ إنها مريضة . .

فقالت بحدة :

ـ أنت عجوز ولا وفاء لك . .

فتدخلت راضية للدفاع والاحتجاج وقالت له :

ـ لا تزعل من عمتى أبدا . .

وعادت العمة تسأله عما يريد، فاقترح زواجا فى السر لفترة قصيرة حتى يتاح له إعلانه، فصاحت العمة :

ـ الله . . الله . .

وسألت راضية عن رأيها فأجابت :

ـ يوجد اتفاق بيننا على ذلك، لم أسعد به ولكنى لم أرفضه .

فصاحت بها :

ـ أنت حرة، ولكنى أرى الأمر كله خطأ وحراما .

فهتفت الفتاة :

ـ عمتى !

فتحولت إليه وقالت بغضب :

ـ هل تستغل ضعفنا وفقرنا وألا أهل لنا؟

فقال عثمان غاضبا لأول مرة :

ـ إنى أنموذج للفقر وانعدام الأهل .

فقالت العمة برجاء :

ـ إذن ليلتقط كل منكما رزقه فى مكان غير مكان الآخر .

فقالت راضية بإصرار :

ـ اتفقنا على مكان واحد . .

فقالت العجوز :

ـ لا حيلة لى ولتكن إرادة الله .

وتم الزواج بعد شهر واحد فى بيت العمة . وأعيد تأثيث الشقة لتصلح للحياة الجديدة . وقال عثمان إن حياته سلسلة من الأحلام والكوابيس وأن ذلك الحلم الأخير هو أسعدها جميعا . وكان يلبث فى بيت راضية حتى حوالى منتصف الليل ثم يرجع إلى روض الفرج فلا تسأله قدرية ، فى ملكوتها ، أين كان؟ ولا ماذا يفعل؟ وعن حكمة قرر تأجيل الإنجاب حتى يعلن زواجه تفاديا من إحراجها ـ زوجته الجديدة ـ فى الإدارة .

ونسى فى سعادته الغامرة كبره وتجمده الأبدى أمام وظيفة المدير العام وقدرية ، وقال إن الحياة لم تخلق إلا لتكون مسرحا للعجائب تحت العناية الإلهية . .

٣٦

لأول مرة يخطر فى ملابس أنيقة . بدلة رمادية من الصوف الإنجليزى ، وحذاء إنجليزى كذلك . أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية بنفسها . ولأول مرة كذلك يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أى وقت مضى . وقال لراضية :

ـ معك يا حبيبتى سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة . .

وقبلها ثم استطرد :

ـ سيكون لنا بنون وبنات . .

وتفكر مليا ثم قال :

ـ الأعمار حقا بيد الله وحده ولكننى من أسرة معمرة ، أسأل الله أن يمد فى عمرنا .

فقبلته راضية وقالت :

ـ قلبى يحدثنى بمستقبل سعيد . .

ـ قلب المؤمن دليله ، عندى من الإيمان ما يغفر لى كثيرا من الأخطاء ، وخدمت الدولة بإخلاص يكفر عن كثير من السيئات ، وعندما تستقر الأمور سأقوم بالحج تجديدا لروحى وجسدى .

أما قدرية فتمادت فى التدهور ، ولكنه تدهور أراحه منها تماما . ولم يخل قلبه من رثاء لها ولكنه ظل على خوفه من مصارحتها بزواجه الثانى .

ولم ينس أنه يمضى نحو نهاية خدمته بلا أمل حقيقى فى جوهرة العمر، ولكن الأيام فى جريانها السريع تمخضت عن حدث لم يكن فى الحسبان، فقد عين عبد الله وجدى وكيلا لوزارة الخارجية. فجأة وبلا مقدمات وجد عثمان وظيفة المدير العام خالية. أغمض عينيه، توسل إلى قلبه أن يهدئ من خفقانه، أمسى كل شىء فى دنياه ـ عروسه.. أفراحه.. آماله ـ لا شىء أمام الوظيفة الخالية. تفجر طموحه المكبوت وانقلب إلى العابد القديم فى محراب الرقى المقدس.

وقالت له راضية:

ـ الجميع يتحدثون عنك بصفتك المرشح الوحيد..

فابتهل قائلا:

ـ فليحقق الله الآمال.

ثم بحنان وامتنان:

ـ الحياة العجيبة تمسح فى لحظة من الأحزان ما يعجز المحيط عن غسلها، فهى الأم الحنون رغم معاملتها أحيانا القاسية..

ومضى من فوره إلى الخارجية ليهنئ عبد الله وجدى، فاستقبله الرجل مرحبا وقال له مجاملا:

ـ أعترف لك يا عثمان بك بأننى سررت مرتين، مرة لتعيينى وكيلا للخارجية، ومرة ليقينى بأنك ستحل محلى فى الوزارة.

وغادر عثمان الخارجية ثملا من السرور والأمل. وتساءل ترى هل يندب أولا للوظيفة تمهيدا للترقية، أو يبقى حتى تتم الترقية؟ وكلما مضى يوم عذبه الانتظار. أجل تعذب على الرغم من أن الوزير يقدره والوكيل يعتبر حاميه الأول. ولما نفد صبره ذهب لمقابلة بهجت نور الوكيل فاستقبله الرجل بحفاوة وبادره قائلا:

ـ كأنى أقرأ فؤادك..

فابتسم عثمان مرتبكا ولم يجد ما يقوله فقال الوكيل:

ـ ولكنك لا تقرأ ما فى فؤادى!

فقال وهو يفكر:

ـ إنى مدين لك بكل خير فى حياتى..

فابتسم الوكيل وقال:

ـ المطلوب منك شىء من الصبر، وسوف تسمع بإذن الله ما يسرك.

غادره ممتنا ومسرورا، ولكنه تساءل: لِم يطالبنى بالصبر؟ وقال لنفسه إن الجو يبشر

بالخير ولكنه لا يشعر بالطمأنينة الكاملة. وتصبر وعانى العذاب. واستدعاه الوكيل مرة أخرى بعد مرور أسبوع. خيل إليه أن الرجل يعالج نظرة فاترة فى عينيه فخفق قلبه خفقة شديدة. قال بهجت نور:

ـ لعلك تتساءل عما أخر ترقيتك؟!

ـ فعلا يا صاحب السعادة.

ـ حسن، أنت تعلم رأيى فيك، وأضيف إلى ذلك أن رأى الوزير فيك مثل رأيى..

ـ عظيم..

وصمت الوكيل. تبادلا نظرة طويلة. قال صاحب السعادة متسائلا:

ـ ماذا فهمت؟

أجاب خامدا:

ـ ثمة اعتراضات من فوق!

ـ بالصراحة يوجد شبه صراع..

ـ والنتيجة يا صاحب السعادة؟

ـ فى اعتقادى أن وزيرنا لن يلين..

سأل بحلق جاف:

ـ ما نسبة الأمل في تقدير سعادتك؟

ـ كبيرة جدا، ضع ثقتك فى الله كما يجدر برجل مؤمن مثلك..

ثقته بالله لا حد لها. لكن دور الشيطان فى الإدارة راسخ منذ القدم. عليه دائما أن يعبر جسرا من المسامير. وتأوه قائلا:

ـ الفرص الباقية نادرة جدا.

فقالت راضية:

ـ لا تحزن، الدرجة ليست كل شىء فى هذه الدنيا..

ولكنه حزن، ورسب الحزن فى أعماقه، وتقدم فى العمر جيلا كاملا، وتحولت أحلام الدنيا إلى تراب. واقترحت راضية أن يمضيا يوم العطلة فى القناطر. فاستجاب لاقتراحها العذب، وأعطاها قياده تجول به فى الحدائق. وهى البسمة السعيدة الوحيدة فى حياته. وقالت ضاحكة:

ـ حكمة قديمة أن ننسى متاعبنا فى أحضان الطبيعة..

تربعت فوق الحشائش ووهبت حواسها وروحها للماء والخضرة والسماء المنقوشة بالسحائب المبعثرة، وهو ينظر إليها بإعجاب وافتتان، وتحدثه عن سحر الطبيعة فيجاملها

بالموافقة، ويجول بنظره فى الآفاق فيرى مناظر لم تجذبه من قبل ولا يشعر نحوها بسحر ما، أجل إنه منغمس دواما فى الداخل، فى أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز، فى الله ومجده الدنيوى المقدس وصراع الخير والشر والفساد، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا.

- أنت تحب الطبيعة ولا شك.

- أنا أحبك..

- انظر إلى العشاق!

- ما أكثرهم!

أنامت راحتها على يده وقالت:

- لننس همومنا فى هذا الجو المنعش.

- أجل لننس!

- ولكنك فى الواقع حزين..

تنهد ولم ينبس، فقالت:

- إنك موظف كبير، فى الدرجة الأولى، غيرك كثيرون يسعدون بما دون ذلك بكثير.

أوشك أن يقول لها إن الإيمان الحق نقيض السعادة التافهة ولكنه أمسك، ثم قال:

- لست كغيرى من الموظفين، والحيلولة بينى وبين الوظيفة التى أستحقها عمل دنىء فيه اعتداء صارخ على النظام الأخلاقى للدولة..

- ألست تغالى فى تقديرك للوظيفة؟

- الوظيفة حجر فى بناء الدولة، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الأرض!

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدرى مدى إيمانه ولا مضمونه. قالت:

- إنه لمعنى جديد بالقياس إلىّ، ولكنى سمعت كثيرا أن روح الشعب من روح الله!

فابتسم بازدراء وقال:

- لا تحدثينى عن الصراعات السياسية..

- ولكنها الحياة الحقيقية..

- ما هى إلا صخب زائف..

- الدنيا من حولنا..

فقاطعها بنفاد صبر:

- الدنيا الحقيقية فى أعماق القلب..

وغاص قلبه فى صدره عندما تصور إمكان أن تراه «مجنونا» كبعض الحمقى، فقال لها متهربا ولائذا بأمل جديد:

ـ دعينا من الخلاف..

فابتسمت فى استسلام عذب فاستطرد:

ـ آن لنا أن نعلن زواجنا..

فتورد وجهها وتساءلت:

ـ هل زالت العقبات؟

ـ علينا أن نواجه الحياة بشجاعة لنستحق سعادتنا..

ـ ما أجمل أن أسمع ذلك..

ـ سأصارح زوجتى بالحقيقة..

وابتسم ابتسامة أشرق بها وجهه الحزين وقال:

ـ قوة مقدسة تدعونى لتجديد الحياة وإنجاب الذرية الصالحة..

٣٧

على مسمع من العمة كرر نواياه الطيبة، فقالت العجوز:

ـ إنك تبدو لى «إنسانا» و «عاقلا» لأول مرة..

فضحك وأغرقت راضية فى الضحك، وقال:

ـ لا خير فى حياتنا ولا معنى بدونك يا عمتى..

فابتسمت العجوز معلنة عن رضاها فقال:

ـ لقد قضينا يوما طيبا فى القناطر وآن لى أن أذهب..

فسألته العمة:

ـ هل تخبر زوجتك الليلة؟

فقال وهو يقوم:

ـ خير البر عاجله.

وخطا خطوة واحدة، ولكنه توقف وقد تغير وجهه بصورة ملحوظة فسألته راضية:

ـ مالك؟

فأشار إلى صدره ولم ينبس . .

ـ هل تشعر بتعب؟ . اجلس . .

تمتم وهو يشير إلى صدره :

ـ ألم شديد هنا . .

هرعت إليه لتسنده ولكنه انحط فوق مقعده وراح فى إغماء . ولما أفاق وجد نفسه راقدا فوق الفراش لم ينزع من ملابسه إلا الحذاء ورباط الرقبة . ورأى فى الحجرة شخصا جديدا أدرك من فوره ـ رغم وهنه ـ أنه الطبيب . وقرأ فى وجه راضية شحوبا وحزنا ، وحتى وجه العمة أعلن عن حزنه .

نظر الطبيب فى عينيه وسأله :

ـ كيف حالك؟

فسأله بدوره :

ـ ماذا جرى؟

ـ شىء طارئ لا خطر منه .

ـ ولكن . .

ـ ولكن الأمر يقتضى راحة طويلة بعض الشىء .

فقال بقلق :

ـ أشعر بأننى فى حال طبيعية تماما ، وأنه بوسعى القيام . . .

فقال الطبيب بحزم :

ـ ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعبا ، إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامى يخلق منها شيئا آخر ، يلزمك راحة مثالية ، شهر على الأقل .

هتف :

ـ شهر؟!

ـ وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة فى ذلك ألبتة ، وسوف أزورك غدا . .

وجمع أدواته فى حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول :

ـ احفظ كلامى عن ظهر قلب . .

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه بنظرة مغيظة يائسة . واقتربت راضية حتى التصقت بالفراش وهى ترنو إليه بنظرة باسمة مشجعة وهى تقول :

ـ بعض الصبر ، وسيمضى كل شىء بسلام . .

عكست عيناه نظرة قلقة فمست جبينه بأناملها بحنان وقالت :

ـ لا تشغل بالك ولا تحمل هما . .

ـ ولكن توجد أمور كثيرة . .

ـ سأقوم بالواجب فى الوزارة . .

ـ كيف ؟

ـ لا مفر من إعلان الحقيقة ، لا عيب فى ذلك ألبتة . .

ـ ياله من موقف !

ـ ولابد من إبلاغ زوجتك أيضا !

ـ موقف أشد . ـ علينا أن نواجه الحقيقة وبأى ثمن . .

وقالت العمة :

ـ اخلد أنت للراحة .

ذلك حق ، وعليه أن يقاوم . إرادة الحياة فيه ترفض اليأس والاستسلام . ليكن ما يكون . والأمر لا يخلو فى النهاية مما يشبه المزاح .

وأغمض عينيه تاركا الأحداث تتشابك فى الخارج بعيدا عنه على الرغم من أنه محورها . وسرعان ما هرع الزملاء إلى البيت لعيادته . ولما كانت زيارته ممنوعة فقد حمل إليه طوفان من البطاقات . قرأ الأدعية والتمنيات الطيبة . وتذكر سعفان بسيونى وحمزة السويفى ، وعاودته ذكريات لم يرتح لها ، وتساءل : كيف حال حمزة السويفى ؟ هل ما زال على قيد الحياة ؟ وثمة موظفون جدد يلحقون اليوم بالعمل لم يعرفوه وربما لن تتاح لهم معرفته ، وفوق ذلك كله تجرى السحب فى السماء وتختفى وراء الأفق ، وقد فهم الساعة فقط مغزى حركة الشمس .

وأغمض عينيه حينا ثم فتحهما فرأى قدرية جالسة على كثب من الفراش ترنو إليه . قرأ فى عينيها الذهول الناعم المعتم غير المبالى بشىء كالقمر المجلل بسحابة شفافة . أدرك أنها تناجى الملكوت وأنه لا خوف منها . وبدا أنها ـ إلى ذلك ـ شحنت بتوصيات طبية إذ سألته بهدوء :

ـ كيف حالك ؟

فابتسم مرتبكا وقال بامتنان :

ـ بخير ، شكرا لك !

قالت تعاتب المجهول :

ـ قيل لى إن نقلك إلى بيتك « الأصلى » غير محمود العواقب ، وكان بودِّى أن أسهر عليك !

ـ أشكرك يا قدرية، خيرك سابق!

ـ انعم بالراحة حتى يأخذ الله بيدك . .

وهزت رأسها بحكمة غير معهودة ثم استطردت:

ـ لك العذر، أنا فاهمة كل شىء، إنك تريد ولدا، ولك الحق، وربنا يحقق رغبتك . .

ـ أنت طيبة وإنسانة يا قدرية . .

ولاذت بالصمت ثم راحت فى ذهول معبق بشذا الفردوس. وشعر بارتياح عميق لانكشاف السر ولتجاوزه منطقة الحرج المليئة بالاحتمالات المتفجرة. ولكنه من ناحية أخرى أدرك معنى مرضه بكافة أبعاده.

ـ أى أمل يبقى للدرجة؟

أجل . . أجل . .

ـ وأى أمل يبقى للإنجاب؟

وقال لراضية:

ـ لم أشعر بنذير تعب ولو من بعيد . .

ـ الطبيب لم يعجب لذلك . .

ـ وعرفت المعنى الحقيقى للمباغتة والغدر!

ـ إنها سحابة سرعان ما تمر وتختفى . .

ـ الحق أنى آسف لك جدا . .

ـ أنا؟! . . إن ما يهمنى هو صحتك وسعادتك .

فنظر إليها بحب وعطف وقال:

ـ لا أمان فى هذه الدنيا . .

أطرقت حتى أشفق من أنها تخفى دمعة، فقال:

ـ إنى ممتن لك، أنت نور فى هذه الدنيا التى تمضى بلا منطق ولا وجود حقيقى . .

ـ املأ قلبك بالأفكار العذبة حرصا عليك وعلى . .

فتنهد وسأل:

ـ هل ذهبت قدرية بسلام؟

ـ نعم .

ـ خيل إلىّ أن صوتها زمجر وأرعد، ماذا جرى؟

ـ لا شىء ألبتة، إنها امرأة مسكينة . .

ـ أجل. الأخطاء ترتكب بعدد تردد الأنفاس .

ـ عليك أن تنعم بالراحة الكاملة . .

فرقت نظرته بحنان وسألها :

ـ هل يقدر لنا أن نحقق أملا من آمالنا؟

ـ بمشيئة الله . .

فقال وهو يحدجها بحزن :

ـ فى لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهرى وتركز أملى فى حلم واحد هو الإنجاب . .

ـ جميل ، سيكون لنا ذلك . .

ـ شكرا لك يا حبيبتى . .

ـ اهدأ حتى تتم سعادتنا . .

ـ ولكنى أتساءل عن معنى ضياع أمل ذى طبيعة خالدة؟ . . إنه يعنى أن فناء العالم ممكن ، وأنه ربما وقع بكل بساطة . .

ـ ألا تهب وقتا آخر للتفلسف؟

ـ حسن . .

ـ ألا ترغب فى شىء قبل النوم؟

فأجاب باسما :

ـ أرغب فى معرفة حكمة الحياة . .

٣٨

وأخيرا استقبل زواره . جاء الزملاء والمرءوسون والسعاة والفراشون . وانعقدت الجلسات بحجرة النوم وطالت وبشرت بالشفاء الكامل . ودار الحديث عن الصحة والمرض ، ومعجزات الشفاء ، ورحمة الله ، ومهارة الأطباء ، وأخبار الوزارة والإدارة ، والبطاقة التى أرسلها الوزير ، والأخرى التى أرسلها الوكيل .

ـ لِمَ لم يحضر الوكيل بنفسه؟

ـ إنه غائص فى العمل حتى قمة رأسه ولكن عذره ضعيف . .

ـ حسن وما أهمية ذلك؟

وسرعان ما خاضوا فى الأحاديث العامة ، حفلة الإذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال إلخ . .

وهو قد شارك فى الحديث بقدر وتابعه بقدر أكبر، وما يدرى إلا وهم يتكلمون فى السياسة! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة برموزها الرنانة: الحرية.. الديمقراطية.. الشعب.. الجماهير الكادحة.. المذاهب الثورية.. التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد.. وقال لنفسه: إن الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك؟! ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية! حسن.. أى ثورة تضمن له الشفاء وإنجاب الذرية وتحقيق كلمة الله فى الدولة المقدسة؟! ولكنه لم يعلن أفكاره ولم يبح بسره لأحد، إنهم قطيع تافه فى مراعى التعاسة، يعلقون الأمل على الأحلام لضعف نفوسهم وتهافت إيمانهم وجهلهم أن الوحدة عبادة.

واستشعر دفء الشفاء الوشيك فرغب فى أن يجرب قوته. وجد فرصة فى خلو الحجرة فتزحزح ببطء إلى حافة الفراش، وأنزل ساقيه بحذر حتى مست قدماه الأرض. غمغم:

- توكلت على الله..

ووقف مستندا إلى الفراش واطمأن إلى ثقته بنفسه فحرك قدميه بحذر كأنه طفل يمشى معتمدا على نفسه لأول مرة. بصعوبة حملته ساقاه من الضعف وطول الرقاد. تقدم حتى بلغ الباب المغلق ففتحه وواصل السير نحو حجرة الجلوس مضمرا مفاجأة سارة. وباقترابه ترامى إليه صوت، حوار يدور بين العمة وراضية. تساءلت راضية بحدة:

- من؟.. من؟..

فجاءه صوت العمة خافتا على غير العادة:

- أنت الجانية على نفسك، طالما قلت لك ذلك.

- ما الفائدة؟

- ها هى ذى عقبى الطمع وسوء التصرف!

- اصرخى حتى يسمع!

وساد الصمت.

عاد إلى الفراش ذاهلا.

- فيم يتحاوران؟.. أى جناية؟.. أى طمع؟.. أى سوء تصرف؟!

وأغمض عينيه وهو يعض على شفته:

- يا ربى المعبود، ماذا يعنى ذلك؟ أهو ممكن؟

لِمَ لا؟ طالما رغب فى أن يلعب هذه اللعبة فلم ينجح. ومن شدة الشعور بالخيبة ذهل عن وجوده تماما.

ـ يا لى من أحمق!

ودهمته نكسة. هصرته أزمة جديدة. مضت أيام وأيدى الحياة والموت تتنازعه فيما بينها. وبدا أنه مصمم على الاستمساك بالحياة على الرغم من كل شىء، وعلى الرغم من قوله لنفسه:

ـ معركة طويلة وخاسرة!

ـ لتكن مشيئة الله..

وقيل إنه اجتاز مرحلة الخطر ولكن كان من المسلم به من أول الأمر أن رقاده سيطول إلى أجل غير مسمى. ولم يبح بسره لأحد، وكان يلقى راضية وهو مغمض العينين. ولم يحقد عليها ولم يغضب وقال لنفسه:

ـ لا يحق لى أن أكرهها إلا كما أكره نفسى..

وقال أيضا:

ـ إذا تهيأ لى يوما أن أنجب منها فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهاها الأبيض والأسود..

وتنهد قائلا:

ـ يا لى من أحمق!. هكذا يكون سوء الختام وإلا فلا..

لم يغضب، ولكنه فقد الثقة فى المكان.

* * *

وذات مساء دخلت راضية بوجه مبتهج وقالت:

ـ وكيل الوزارة جاء لزيارتك.

ودخل بهجت نور بوقاره المعروف، فصافحه ثم جلس وهو يقول:

ـ شد حيلك..

فقال عثمان بتأثر:

ـ خطوة عزيزة يا صاحب السعادة..

ـ إنك تستحق كل تكريم، ولا يمكن نسيان أفضالك.

فاغرورقت عيناه امتنانا فقال الوكيل:

ـ فى مكانك فراغ لا يسده أحد سواك..

ـ إنه كرم أخلاقك الذى يتكلم، ليس إلا..

ـ عما قريب ستشفى وترجع إلينا وسوف تجدنا فى انتظارك، ولقد حملت معى إليك نبأ سعيدا..

وابتسم الرجل والآخر يرنو إليه بإعياء وذهول ثم قال :

ـ صدر اليوم قرار ترقيتك إلى وظيفة المدير العام . .

استمر ينظر إليه ولكن ببلاهة فقال الرجل :

ـ انتصر الحق والعدل ولو بعد حين . .

فتمتم عثمان :

ـ إنها لبركة من أفضالك .

ـ العفو ، وقد كلفنى معالى الوزير بإبلاغك تحياته وتمنياته لك بالشفاء العاجل .

ـ لمعاليه الشكر والدعاء . .

وذهب الرجل مخلفا وراءه فردوسا من المشاعر ، كأنما كان رسول رحمة من الغيب . وتلقى تهانى راضية وعمتها وهو مغمض العينين . وعاوده شعور بفقدان الثقة فى المكان . وسمعها وهى تقول :

ـ كم أننى سعيدة . .

تذوق فى هدوء نجاحه . إنه صاحب السعادة ، مالك الحجرة الزرقاء ، مرجع الفتاوى والأوامر الإدارية ، وملهم التوجيهات الرشيدة للإدارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقال لنفسه :

ـ ستتم نعتمك علىّ يا ربى يوم تمكننى من القيام لممارسة السلطان وإعلاء شأنك فى الأرض !

ولكن الطبيب قال له :

ـ ما يهمنى هو صحتك لا وظيفتك !

وإنه لصارم وعنيد ، ولو صح تقديره فستظل الترقية شكلا بلا مضمون . قال له :

ـ المؤمن الحقيقى لا يسعد بالصحة وحدها . .

فقال الطبيب :

ـ لم أسمع بذلك من قبل . .

ـ وربما استنفدت إجازاتى فى الرقاد فأحال إلى المعاش !

ـ كل شىء قسمة ونصيب !

وقال لنفسه بوجوم :

ـ لعلهم وهبونى الترقية صدقة وهم يعلمون أن الوظيفة باقية لهم !

ونادى راضية فقال لها :

ـ لا أريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك .

فسألته فى حيرة :

ـ ماذا تعنى؟

ـ تمريض مريض واجب ثقيل . .

فوضعت أصبعيها على شفتيه محتجة فنحاه بلطف وقال :

ـ سأنتقل إلى قسم الطبيب المعالج بالمستشفى .

واحتجت راضية ولكنه أصر . وعرض فكرته على الطبيب فوافق عليها ونقل إلى حجرة خاصة . ومهما يكن من شأن الزيارات فقد عاد إلى وحدته كالزمن الأول .

ومضت الأيام فى مسارها الأبدى ، وكاد أن ينقطع ما بينه وبين العالم الخارجى . وكفت قدرية عن زيارته بسبب التدهور والمرض ، واستسلم لقدره فلم يعد يبالى بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون . وتحمل الساعات التى تقضيها راضية إلى جانبه بضيق شديد ولكنه احتفظ بأحزانه لنفسه ، وآمن فى الوقت نفسه بعدالتها . وظل على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالى . وقال إن العجز أحيانا عن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام أن الإصرار على المضى نحوه هو المسئول عن وجود النبل والمعنى فى الحياة .

وكره كلمات التشجيع الجوفاء ، وسلم بأن تقلده للوظيفة الجديدة حلم ، كما سلم بأن نهوضه لإنجاب ذرية حلم آخر ، ومع ذلك فمن يعلم؟!

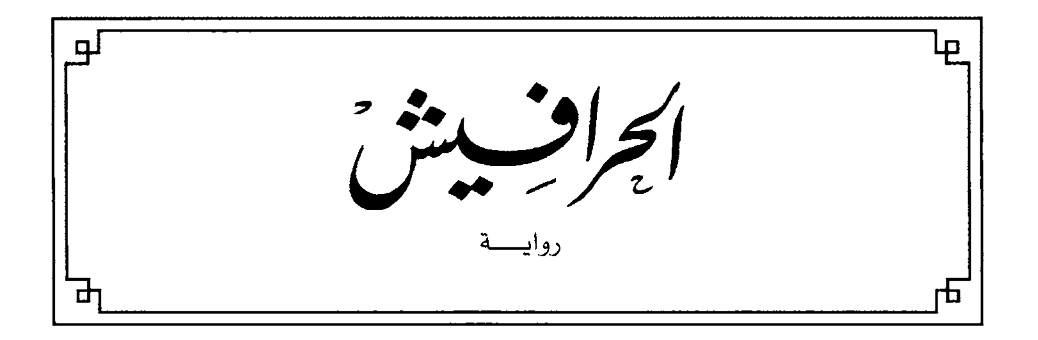
وما يحز فى نفسه أن كل شيء يمضى فى سبيله دون مبالاة به .

التعيين والترقى والإحالة إلى المعاش ، الحب والزواج وحتى الطلاق ، صراعات السياسة وشعاراتها المحمومة ، تعاقب الليل والنهار . .

وها هى ذى نداءات الباعة تنذر باقتراب الشتاء .

ولعله من محاسن الصدف أن القبر الجديد قد حاز رضاه تحت ضوء الشمس .





المحتويـــات

عاشور الناجى : الحكاية الأولى . ٣٠٧
شمس الدين : الحكاية الثانية ... ٣٧٠
الحب والقضبان : الحكاية الثالثة ٤١٥
المطارد : الحكاية الرابعة ٤٥٩
قرة عينى : الحكاية الخامسة ٥٠٥
شهد الملكة : الحكاية السادسة .. ٥٥١
جلال صاحب الجلالة : الحكاية السابعة ٦٠١
الأشباح : الحكاية الثامنة ٦٤٩
سارق النغمة : الحكاية التاسعة .. ٦٨٠
التوت والنبوت : الحكاية العاشرة ٧٠١

عاشور الناجى
الحكاية الأولى من ملحمة الحرافيش

١

فى ظلمة الفجر العاشقة، فى الممر العابر بين الموت والحياة، على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة متجسدة للمعاناة والمسرات الموعودة لحارتنا.

٢

مضى يتلمس طريقه بطرف عصاه الغليظة، مرشدته فى ظلامه الأبدى. مولاى يعرف مواقعه بالرائحة وحساب الخطوات ودرجة وضوح الأناشيد والإلهام الباطنى. بين مسكنه عند مشارف القرافة وبين الحارة يخوض أشق مرحلة فى طريقه إلى الحسين وأعذبها. على غير المعهود تناهى إلى أذنيه الحادتين بكاء وليد. لعله دوى أكبر من حجمه

فى ساعة الفجر. الحق قد جذبه من سكرة الرؤى ونشوة الأناشيد. فى هذه الساعة تهيم أمهات بأطفالهن! ها هو ذا الصوت يشتد ويقترب وعما قليل سيحاذيه تماما. وتنحنح كيلا يقع ارتطام فى مشهد الفجر. وتساءل: متى يكف الطفل عن البكاء ليرتاح قلبه ويعاود خشوعه؟ الآن صار البكاء ينخس جنبه الأيسر. تباعد يمنة حتى مس كتفه سور التكية، وتوقف قائلا:

ـ يا حرمة.. أرضعى الطفل!

ولكن لم يجبه أحد وتواصل البكاء، فهتف:

ـ يا حرمة.. يا أهل الله!

فلم يسمع إلا البكاء. ساور الشك قلبه فولت البراءة المغسولة بماء الفجر، واتجه نحو الصوت بحذر شديد جاعلا عصاه لصق جنبه. انحنى قليلا فوق الصوت، مد راحته برحمة حتى مس سبابته لفافة. هو ما توقعه القلب. جال بأصابعه فى طياتها حتى لامس وجهًا طريا متشنجا بالبكاء. هتف متأثرا:

ـ تدفن القلوب فى ظلمة الإثم..

وصاح بغضب:

ـ لعنة الله على الظالمين..

وتفكر قليلا ولكنه قرر ألا يهمله ولو فاتته صلاة الفجر فى الحسين. النسمة باردة فى هذه اللحظة من الصيف، والزواحف شتى، والله يمتحن عبده بما لا يجرى له فى حسبان. وحمله برفق، ثم عزم على الرجوع إلى مسكنه ليشاور زوجته فى الأمر. وترامت إليه أصوات آدميين لعلهم ذاهبون إلى صلاة الفجر فسعل منبها فجاءه صوت يقول:

ـ سلام الله على المؤمنين!

فأجاب بهدوء:

ـ سلام الله عليكم..

وعرف المتكلم صوته فقال:

ـ الشيخ عفرة زيدان؟ ماذا أخرك؟

ـ إنى راجع إلى البيت ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ـ سلامتك يا شيخ عفرة!

فقال بعد تردد:

ـ عثرت على وليد تحت السور العتيق..

وانداحت همهمة بين الرجال حتى قال أحدهم :

ـ اللعنة على الآثمين . .

وقال ثان :

ـ اذهب به إلى القسم !

وسأله ثالث :

ـ ماذا أنت فاعل به؟

فقال بهدوء لا يناسب المقام :

ـ سوف يهدينى الله إلى مشيئته . .

٣

انزعجت سكينة لدى رؤيتها زوجها الشيخ على ضوء المصباح المرفوع بيسراها ، وتساءلت :

ـ ماذا أرجعك كفى الله الشر ؟

وسرعان ما رأت الوليد فهتفت :

ـ ما هذا يا شيخ عفرة؟

ـ عثرت عليه فى الممر . .

ـ يا رحمة الله !

تناولت الوليد برقة . جلس الشيخ على كنبة بين البئر المغطاة والفرن وهو يغمغم :

ـ لا إله إلا الله !

راحت سكينة تهدهد الطفل ، ثم قالت بحنان :

ـ إنه ذكر يا شيخ عفرة !

فحرك رأسه صامتا ، فقالت باهتمام :

ـ يلزمه غذاء . .

ـ وما درايتك بذلك وأنت لم تنجبى ذكرا ولا أنثى ؟ !

ـ أعرف أشياء ، ومن يسترشد يجد من يرشده ، ماذا أنت فاعل به؟

ـ نصحونى بأن أذهب به إلى القسم .

ـ هل يرضعونه فى القسم؟ لننتظر حتى يظهر من يبحث عنه.

ـ لن يبحث عنه أحد..

وتجلى صمت مفعم بالانفعالات حتى تمتم الشيخ عفرة زيدان:

ـ أليس من الخطأ أن نبقيه أكثر مما ينبغى؟

فقالت بحماسة وحرارة:

ـ الخطأ خطأ من ضيعه..

ثم قالت وهى تتلقى إلهاما بالرضا:

ـ لم يبقَ لى أمل فى الإنجاب!

فحسر العمامة عن جبهته البارزة مثل قبضة الجندرة وتساءل:

ـ فيم تفكرين يا سكينة؟

فقالت ثملة بإلهامها:

ـ يا سيدنا الشيخ، وهبنى الله رزقا فكيف أرفضه؟

مسح بمنديله عينيه المطبقتين ولم ينبس، فقالت بظفر:

ـ أنت نفسك تريد ذلك..

فتجاهلها يقول متشكيا:

ـ فاتتنى صلاة الفجر فى الحسين.

فقالت بثغر باسم وعيناها لا تفارقان الوجه المحتقن:

ـ الضوء شقشق والله غفور رحيم..

وقام الشيخ عفرة زيدان ليصلى على حين هبط من السلم درويش زيدان مثقل الجفون من أثر النوم وهو يقول:

ـ جوعان يا امرأة أخى..

ورأى الوليد فذهل كما ينبغى لغلام فى العاشرة من عمره وتساءل:

ـ ما هذا؟

فأجابته سكينة:

ـ رزق من الله العلى القدير.

فرنا إليه مليا ثم تساءل:

ـ ما اسمه؟

فترددت المرأة ثم غمغمت:

ـ ليكن اسم أبى اسما له، عاشور عبد الله، وليشمله الله ببركته ورضوانه . .

وارتفع صوت الشيخ عفرة بالتلاوة .

٤

وتتابعت الأيام على أنغام الأناشيد البهيجة الغامضة . وذات يوم قال الشيخ عفرة زيدان لشقيقه درويش :

ـ بلغت العشرين من عمرك، فمتى تتزوج؟

فأجاب الفتى بفتور :

ـ عندما يشاء الله . .

ـ إنك حمال قوى والحمال ذو رزق موفور .

ـ عندما يشاء الله . .

ـ ألا تخشى على نفسك من الفتنة؟

ـ الله يحفظ المؤمنين .

فحرك المقرئ الضرير وجهه يمنة ويسرة وقال بأسف :

ـ لم تنتفع بالكتاب ولم تحفظ من كتاب الله سورة واحدة!

فقال بامتعاض :

ـ العمل هو ما يحاسب عليه وإنى أحصل على رزقى بعرق الجبين . .

فتفكر الشيخ مليا وقال :

ـ فى وجهك ندوب فما شأنها؟

فأدرك درويش أن امرأة أخيه قد وشت به فرمقها مقطبا وهى عاكفة على إشعال الفرن بمساعدة عاشور، فقالت باسمة :

ـ أتتوقع منى يا درويش أن أخفى عن أخيك ما يضرك؟

وسأله الشيخ عفرة معاتبا :

ـ أتقلد أهل العنف والشر؟

ـ أحيانا يتحرش بى أهل الشر فأدافع عن نفسى . .

ـ يا درويش، لقد نشأت فى بيت خدمة القرآن شرفه وعزته . ألا ترى إلى سلوك أخيك الطيب عاشور؟

قال بحدة :

ـ ليس عاشور بأخى !

لاذ الشيخ بالصمت مستاء .

وكان عاشور يتابع الحديث باهتمام فصدم صدمة متوقعة على أى حال .

إنه يفعل ما بوسعه ولا يدعى أكثر مما له . يقوم بتنظيف البيت ، وشراء الحوائج من السوق ، ويمضى كل فجر بولى نعمته إلى الحسين ، ويملأ الدلو من البئر ، ويشعل الفرن ، وعند الأصيل يجلس عند قدمى الشيخ فيحفظه ما يتيسر من القرآن ويلقنه آداب السلوك والحياة . الحق أن الشيخ أحبه ورضى عنه ، وكانت سكينة ترمقه بإعجاب وتقول :

ـ سيكون فتى طيبا وقويا .

فيقول الشيخ عفرة زيدان :

ـ لتكن قوته فى خدمة الناس لا الشيطان .

٥

جادت السماء ببركاتها على عاشور فسعد به قلب الشيخ عفرة زيدان عاما فى إثر عام بقدر ما سخط على درويش شقيقه وربيبه . لم يا ربى وقد نشآ فى حظيرة واحدة؟ ولكن درويش نأى عن ظل الشيخ سعيا وراء الرزق بعد أن رفض التعلم قلبه . انطلق إلى العالم غلاما طريا فتربى فى أحضان المرارة والعنف قبل أن يستقيم عوده ، قبل أن تتشرب روحه بالصلابة والنقاء . أما عاشور فتفتح قلبه أول ما تفتح للبهجة والنور والأناشيد ، ونما نموا هائلا مثل بوابة التكية ، طوله فارع ، عرضه منبسط ، ساعده حجر من أحجار السور العتيق ، ساقه جذع شجرة توت ، رأسه ضخم نبيل ، قسماته وافية التقطيع غليظة مترعة بماء الحياة . تبدت قوته فى تفانيه فى العمل ، وتحمله لمشاقه ، ومواصلته بلا ملل أو كلل ، وفى تمام من الرضا والتوثب . وأكثر من مرة قال له الشيخ :

ـ لتكن قوتك فى خدمة الناس لا فى خدمة الشيطان!

وذات يوم أعلن الشيخ رغبته فى أن يجعل منه مقرئا للقرآن مثله ، فضحك درويش ساخراً وقال معلقا على رغبة شقيقه :

ـ ألا ترى أن هيكله الضخم جدير بأن يلقى الرعب فى قلوب المستمعين؟!

ولم يحفل بتعليق درويش ولكنه اضطر إلى العدول عن رغبته عندما وضح له أن

حنجرة عاشور لا تسعفه بحال، وأنها عاجزة عن تطويع النغم، لاحظ لها من الحلاوة والمرونة وكأنها بخشونتها ترن فى جوف قبو، فضلا عن قصوره عن حفظ السور الطويلة.

وقنع عاشور بعمله كما قنع بحياته، وظن أنه سيبقى بالفردوس حتى آخر الأجل.. وصدق ما قيل له من أن الشيخ تكفل به بعد وفاة والدين طيبين مقطوعين من شجرة، وحمد الله الذى قدر ولطف، فرعاه برحمة لا يستظل بمثلها مأوى آخر فى الحارة. وفى ذات الوقت رأى الشيخ عفرة أنه استأثر به مدة كفت لتعليمه وتهذيبه وأنه آن له أن يرسله لتلقن حرفة من الحرف. غير أن حتم الأجل كان أسرع فمرض الشيخ بحمى لم تنفع فى علاجها الوصفات الشعبية، فانتقل إلى جوار ربه ووجدت سكينة نفسها بلا مورد أو قدرة على العمل فرحلت إلى قريتها بالقليوبية. كان الوداع بينه وبين سكينة مؤثرا ودامعا. قبلته ورقته ومضت، وسرعان ما شعر بأنه وحيد، فى دنيا بلا ناس، اللهم إلا سيده العنيد درويش زيدان.

وأسبل جفنيه الغليظين متفكرا، شعر بأن الخلاء يلتهم الأشياء، وأنه يود أن يتسلق شعاع الشمس، أو يذوب فى قطرة الندى، أو يمتطى الريح المزمجرة فى القبو، ولكن صوتا صاعدا من صميم قلبه قال له إنه عندما يحل الخلاء بالأرض فإنها تمتلئ بدفقات الرحمن ذى الجلال.

٦

تفحصه درويش وهو مقرفص على كثب من الفرن منكسر القلب. يا له من عملاق، له فكا حيوان مفترس، وشارب مثل قرن الكبش! قوة بلا حيلة ولا عمل ولا رزق. من حسن الحظ أنه لم يتعلم حرفة، ولكنه لا يمكن الاستهانة به، ترى لم لا يحبه؟ تذكره صورته المغروسة فى الأرض بصخرة مدببة تعترض الطريق، بهبة من هبات الخماسين المثقلة بالغبار، بقبر يتجلى فى الأعياد متحديا، يجب الانتفاع به عليه اللعنة!

سأله دون أن ينظر نحوه:

ـ كيف ستحصل على لقمتك؟

ففتح عينيه العميقتين العسليتين وقال باستسلام:

ـ فى خدمتك يا معلم درويش..

فقال ببرود:

ـ لست فى حاجة إلى خدمة أحد .

ـ على أن أذهب .

ثم مستدركًا فى رجاء :

ـ هلا تركتنى آوى إلى البيت الذى لا أعرف سواه؟

ـ إنه بيت لا فندق .

ـ تبدت فوهة الفرن خامدة مظلمة ، وندت عن الرف خشخشة رجل فأر ترتطم بأعواد الثوم الجاف .

وسعل درويش ثم سأله :

ـ أين تذهب؟

ـ دنيا الله واسعة . .

فقال متهكما :

ـ ولكنك لا تعرف عنها شيئًا وهى أقسى مما تتصور . . .

ـ سأجد على أى حال عملاً أرتزق منه .

ـ جسمك أكبر عائق ، لن يقبلك بيت ، ولا معلم حرفة ، ثم إنك تقترب من العشرين!

ـ لم أستغل قوتى قط فيما يضر .

فضحك عاليًا وقال :

ـ لن تحوز ثقة أحد ، الفتوة يظنك متحديا ، والتاجر يحسبك قاطع طريق . .

ثم بهدوء عمق :

ـ ستهلك جوعا إذا لم تعتمد على قوتك . .

فقال بحرارة :

ـ أهبها عن رضا لخدمة الناس والله شهيد . .

ـ لا فائدة من قوتك إن لم تغسل مخك من الغباء!

فمد إليه بصرا حائرا ثم قال :

ـ شغلنى حمالا معك . .

فقال ساخرا :

ـ لم أشتغل حمالا ساعة واحدة من حياتى .

ـ ولكن . .

ـ دعك مما قلت ، أكان بوسعى أن أقول غيره؟

ـ فما عملك يا سيدى؟

ـ صبرك سوف أفتح لك باب الرزق، لك أن تدخل ولك أن تذهب . .

ترامى من القرافة صوات يشى بتشييع جنازة فقال درويش :

ـ كل من عليها فان .

فقال عاشور وقد نفد صبره :

ـ إنى جوعان يا معلم درويش !

فمد له يده بنكلة وهو يقول :

ـ إليك آخر هبة منى !

غادر عاشور البيت والمغيب يهبط على القبور والخلاء . أمسية من أماسى الصيف وثمة نسمة رقيقة تتهادى حاملة أخلاط التراب والريحان . مضى فى الممر حتى بلغ ساحة التكية . . بدا لعينيه القبو مظلما، وترامت أشباح أشجار التوت من فوق الأسوار . تصاعدت الأناشيد بغموضها فصمم على طرح الهم جانبا وقال لنفسه :

ـ لا تحزن يا عاشور فلك فى الدنيا إخوة ليس لعدهم حصر . .

ومضى تلاحقه الأناشيد :

أى فروغ مـــاء حسن	**إز روى رخشان شمـــا**
ابروى خوبى از جـاه	**ر نخســـدان شمــــــا**

٧

امتلأ عاشور بأنفاس الليل . انسابت إلى قلبه نظرات النجوم المتألقة . هفت روحه إلى سماء الصيف الصافية . قال ما أجدرها ليلة بالعبادة . كى يجثو فوق الأعتاب . كى يناجى رغبات نفسه الكظيمة . كى ينادى الأحبة وراء سياج المجهول .

وثمة شبح يقف منه على بعد شبرين يعكر عليه صفوه ويشده إلى عالم القلق، فرفع صوته الأجش متسائلا :

ـ ماذا تنتظر يا معلم درويش؟

فلكزه درويش فى صدره وهمس بحنق :

ـ اخفض صوتك يا بغل !

كانا يلبدان وراء تعريشة عند طرف القرافة بمشارف الصحراء . الجبل فى أقصى اليمين

والقبور إلى اليسار. لا نأمة، لا عابر سبيل، حتى أرواح الموتى مستكنة فى مقر مجهول، فى تلك الساعة من الليل. والخواطر تتجسد فى الظلمة كالنذر ويخفق القلب الطيب فى غير ما ارتياح. همس عاشور:

ـ نورنى نور اللّه قلبك..

فنهره هامسا:

ـ انتظر، أليس عندك صبر؟

ثم وهو يميل نحوه:

ـ لا أطالبك بعمل، سأقوم بكل شىء، عليك أن تحمى ظهرى إذا اقتضى الأمر حماية..

ـ ولكنى لا أدرى عما تنوى شيئا..

ـ اسكت، سيكون لك الخيار..

وتمخض جانب الصحراء عن نأمة. وحمل الهواء عطر حى وارتفع صوت موسوم بالشيخوخة يقول:

ـ توكلى على اللّه..

وعند القرب وضح أن العجوز يمتطى حمارا. وعندما حاذاهما تماما وثب عليه درويش.. ذهل عاشور وتحققت مخاوفه. لم ير شيئا بوضوح ولكنه سمع صوت درويش وهو يقول متوعدا:

ـ هات الصرة وإلا..

فتردد صوت مرتعشا بالكبر والذعر:

ـ الرحمة.. خفف قبضتك..

اندفع عاشور إلى الأمام بلا وعى وهتف:

ـ دعه يا معلمى!

صرخ به درويش:

ـ اخرس..

قلت لك دعه..

وطوقه بذراعيه وحمله بلا جهد فضربه الآخر بكوعه قائلا:

ـ الويل لك..

لم يتحرك فى درويش بعد ذلك إلا لسانه، أما عاشور فخاطب العجوز قائلا:

ـ اذهب بسلام!

حتى إذا اطمأن إلى نجاة الرجل أطلق درويش وهو يقول معتذرا:

ـ اغفر لى خشونتى..

فصاح به:

ـ أيها اللقيط الجاحد!

ـ لقد أنقذتك من شر نفسك..

ـ أيها البغل الخسيس المخلوق للتسول..

ـ فليسامحك اللّه...

ـ أيها اللقيط القذر..

فصمت عاشور محزونا فعاد الآخر يقول:

ـ لقيط، ألا تفهم؟ هذه هى الحقيقة.

ـ لا تستسلم للغضب، لقد قال الشيخ المرحوم كلمته..

فقال بحقد:

ـ الحقيقة هى ما أقول. لقد وجدك فى الممر مهجورا من أم فاسقة!

ـ رحم اللّه الطيبين..

ـ بشرفى ورحمة أخى إنك لقيط ابن حرام..، لماذا يتخلصون من وليد بليل؟!

فاستاء عاشور وصمت فراح درويش يقول:

ـ ضيعت جهدى، أغلقت باب الرزق فى وجهك، إنك قوى ولكنك جبان، وهاك الدليل.

وهوى بكفه على وجهه بجامع قوته فبوغت عاشور بأول لطمة يتلقاها فى حياته، وصاح درويش بجنون:

ـ أيها الجبان الرعديد!

عصف الغضب بعاشور. اجتاحت عاصفته جدران معبد الليل. وجه من راحته الكبيرة ضربة إلى رأس معلمه هوى على أثرها فاقد الوعى. لبث يصارع غضبته حتى تراخت للسكون. أدرك خطورة ما أقدم عليه. غمغم:

ـ غفرانك يا شيخ عفرة.

انحنى فوق الرجل فحمله بين يديه. مضى به يشق سبيله بين القبور حتى دخل به البيت. أنامه على الكنبة. أشعل المصباح. مضى ينظر إليه فى قلق وإشفاق. تتابعت دقائق ثقيلة حتى فتح عينيه وحرك رأسه..

تطاير من عينى درويش شرر ينم على التذكر. ترامقا مليا فى صمت. خيل إلى عاشور أن عفرة وسكينة حاضران، ينظران فى وجوم . .

غادر عاشور البيت مغمغما :

ـ توكلت على خالق السماوات والأرض . .

٨

هام عاشور على وجهه. مأواه الأرض. هى الأم والأب لمن لا أم ولا أب له. يلتقط الرزق حيثما اتفق. فى الليالى الدافئة ينام تحت سور التكية. فى الليالى الباردة ينام تحت القبو. ما قاله درويش عن أصله قد صدقه. طاردته الحقيقة المرة وأحدقت به. لقد عرف من حقائق الدنيا على يد درويش فى ليال ما لم يعرفه طيلة عشرين عاما فى كنف الشيخ الطيب عفرة زيدان. الأشرار معلمون قساة وصادقون. خطيئة أوجدته، توارى الخطأة، ها هو يواجه الدنيا وحده، ولعله يعيش الآن ذكرى محرقة فى قلب مؤرق.

ومن شدة حزنه استمع إلى أناشيد التكية بحب. . معانيها المترنمة تختفى وراء ألفاظها الأعجمية كما يختفى أبواه وراء وجوه الغرباء. وربما عثر ذات يوم على امرأة أو رجل أو معنى. وربما فك ذات يوم رمزًا أو أرسل دمعة رضا أو تجسدت إحدى رغائبه، فى مخلوق حنون. ويتأمل الحديقة بأشجارها الرشيقة الحانية، ووجهها المعشوشب، وعصافيرها المعششة الشادية، ويتأمل الدراويش بعباءاتهم الفضفاضة وقاووقاتهم الطويلة وخطواتهم الخفيفة.

وساءل نفسه مرة :

ـ لماذا يقومون بالخدمة كالفقراء؟ لماذا يقومون بالكنس والرش والسقى، أليسوا فى حاجة إلى خادم أمين؟ !

ـ البوابة تناديه. تهمس فى قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فز بالنعيم والهدوء والطرب، تحول إلى ثمرة توت، امتلئ بالرحيق العذب، انفث الحرير، وسوف تقطفك أيد طاهرة فى فرح وحبور.

وملكه الهمس الناعم فمضى إلى الباب المغلق وهتف بخشوع وأدب :

ـ يا أهل اللّه . .

وكرر النداء مرات.

إنهم يتوارون. لا يردون. حتى العصافير ترمقه بحذر. يجهلون لغته ويجهل

لغتهم . . الجدول كف عن الجريان . الأعشاب توقفت عن الرقص . لا شيء فى حاجة إلى خدماته .

فتر حماسه . انطفأ إلهامه . جلله الحياء . عاتب نفسه . عنف عشقه . شد على إرادته . قبض على شاربه الشامخ . قال لنفسه :

ـ لا تجعل من نفسك حديث كل من هب ودب . .

وتراجع وهو يقول :

ـ انصرف عن الذين يرفضون يدك لأنهم فى غير حاجة إليها ، وابحث عمن هم فى حاجة إلى خدماتك . .

ذهب وجاء وراء اللقمة . يجد زفافًا فيتطوع للخدمة أو يصادف مأتما فيتطوع أيضا . يتقدم لمن يريد حمالا أو رسولا . يرضى بالمليم أو بالرغيف أو حتى بكلمة طيبة .

وصادفه رجل ربعة قبيح الوجه كأن أصله فأر ، فناداه قائلا :

ـ يا ولد!

فذهب إليه عاشور بأدب واستعداد للخدمة فسأله :

ـ ألا تعرفنى؟

فأجابه مرتبكا :

ـ اعذر غريبا جهلك .

ـ ولكنك من أبناء حارتنا؟

ـ ما عشت فيها إلا منذ قريب .

ـ كليب السمانى من رجال فتوتنا قنصوه .

ـ تشرفنا يا معلم . .

وتفحصه مليا ثم سأله :

ـ تنضم إلينا؟

فقال عاشور بلا تردد :

ـ لا قلب لى على ذلك . .

فضحك كليب ساخرا ومضى وهو يقول :

ـ جسم ثور وقلب عصفورة!

وكان يرى حمير المعلم زين الناطورى وهى ترابط فى الحظيرة عقب يوم طويل فى قضاء المشاوير . . يتطوع بتنظيفها وتقديم العلف لها وكنس الفناء ورشه على مرأى من المعلم ثم يذهب دون أن يسأله شيئا .

وذات يوم ناداه المعلم زين وسأله :

ـ أنت صبى المرحوم الشيخ عفرة زيدان؟

فأجاب بخشوع :

ـ نعم، رحمه اللّه رحمة واسعة . .

ـ بلغنى أنك رفضت الانضمام لرجال الفتوة قنصوه؟

ـ لا مأرب لى فى ذلك . .

فابتسم المعلم وعرض عليه أن يعمل عنده مكاريا . ومن فوره قبل وقلبه من الفرحة يرقص .

ومضى بحماره متحمسا لعمله بكل قواه وحيويته . وكلما مضى يوم اطمأن المعلم إلى سلوكه وأدبه وتقواه، وأثبت عاشور بدوره أنه أهل للثقة .

وكان وهو يعمل فى فناء البيت يتجنب النظر إلى الناحية التى يحتمل أن يلمح فيها زوجة المعلم . ولكنه رأى ابنته زينب وهى ذاهبة إلى الطريق فخانه طرفه لحظات خاطفة ولكنها جديرة بالندم . وتفشى الندم أكثر عندما اجتاحته شعلة ألهبت الصدر والجهاز الهضمى واستقرت فى الجوهرة الحمراء المشعة للرغبة الجامحة . غمغم وهو ثمل بنشوة دسمة نهمة :

ـ ليحفظنا اللّه!

ولأول مرة يردد اسم اللّه بطرف لسانه وفكره مشدود إلى غيره . وحضرته تجاربه الجنسية البدائية المحدودة فى رجفة من الحيرة والقلق والغربة . .

واقتنع المعلم زين الناطورى بمزاياه كحارس أمين فسأله :

ـ أين تسكن يا عاشور؟

فأجاب ببساطة :

ـ سور التكية أو تحت القبو .

ـ يسرك ولا شك أن تنام فى الحظيرة؟

فأجاب بسرور :

ـ نعمة أشكرها لك يا معلم . .

٩

يستيقظ فى الفجر. إنه يألف ظلمته المشعشعة بالبسمات. ودبيب أهل التقوى والفجور. وأنفاس الكون النقية المسربلة بالأحلام. ينفض عن قلبه صورة زينب المتحدية ويصلى. يلتهم رغيفا مع الزيتون المخلل والبصل الأخضر. يربت ظهر حماره ثم يسوقه أمامه نحو الميدان مستقبلاً يوم الرزق والعمل. يفيض بحيوية متدفقة، يمتلئ بثقة غير محدودة فى قدرته وصبره وامتلاكه للمجهول. تكتنفه دوامة تكاد تقتلعه من جذوره.. دائما تتقدمه زينب فتغلبه بنداء غامض.. وجهها مشوب بشحوب، أنفها بارز، شفتاها غليظتان، جسمها صغير ومدمج ولكنها تستمد تأثرها عليه من مصدر مسحور. دائمًا تشعل جذوة فى أعماقه، وأحيانا لا يرى الحمار وراكبه.

وفى أويقات الراحة يقف أمام البيت يتابع تيار السابلة. ما أكثر العاملين فى الدكاكين أو وراء عربات اليد والسلال والمقاطف، وما أكثر المتشردين من الحرافيش بلا عمل! من أبوه بين هؤلاء الرجال؟ من أمه بين هؤلاء النسوة؟ رحلا عن الدنيا أم يبقيان؟ هل يعرفانه أم يجهلان؟ من الذى أورثه هذا الكائن الهائل المفعم بمعروف الشيخ عفرة زيدان؟ ويطرد عن رأسه الأفكار العقيمة المضنية فتبادر إليه زينب زين الناطورى بندائها الغامض. وقال لنفسه:

ـ كل شىء يتحرك فلابد أن تحدث أمور.

وقال لنفسه أيضًا:

ـ ليكن الطيب حليفى جزاء نيتى البيضاء.

وترامى إليه صوت زين الناطورى وهو يحتدم غضبا. رآه فى الفناء مشتبكًا فى معركة لفظية مع أحد العملاء.. وبعنف صاح به:

ـ أنت لص لا أكثر ولا أقل!

فصاح العميل:

ـ احبس لسانك القذر!

وإذا بالمعلم يصفعه فيمسك الرجل بتلابيبه. هرع عاشور إليهما وهو يهتف:

ـ وحدوا اللّٰه!

رمى نفسه بينهما فركله العميل وهو يسبه. ضمه عاشور إلى صدره بقوة حتى صرخ. تركه يفلت وهو يقول له:

ـ اذهب بسلام فهو خير لك .

سرعان ما خلا منه الفناء . وتكأكأت النساء فى النافذة وصاحت الأم :

ـ لم يبق إلا أن يعتدى علينا فى بيتنا !

ورمق زين الناطورى عاشور بامتنان وقال مداريا حياءه :

ـ اللّه يفتح عليك .

ومضى المعلم إلى الداخل . ولم يبق فى النافذة إلا زينب .

عاد عاشور عند موقفه عند الباب وهو يقول لنفسه :

ـ لم يبق إلا أن نتبادل النظرات !

واستند إلى الجدار فلمح قطة تتوثب لتخويف كلب أسود يتنحى تجنبا للمعركة . . وقال لنفسه :

ـ حذار يا عاشور ، هذه وصية والديك !

واستسلم لأنامل الأحلام الناعمة حتى حرقته أشعة الصيف .

١٠

قالت عدلات لزوجها زين الناطورى :

ـ إنك تؤكد أنه أهل للثقة؟

ـ أجل ، صار لى به ابن . .

فقالت بنفاد صبر :

ـ عظيم ، زوجه لزينب . .

فقطب زين الناطورى متفكرا ثم قال :

ـ آمل فيمن هو خير منه !

ـ طال الانتظار ، وكلما جاء عريس لإحدى أخواتها رفضته إكراما لسنها .

فقال باستياء :

ـ لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك . .

ـ أصبحت عقبة فى سبيل بناتى ، وهى فى الخامسة والعشرين ولا جمال لها ، وطباعها تسوء يوما بعد يوم .

فكرر عابسا :

ـ لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك!

ـ ألا يكفى أنك تثق به؟ وأنت فى حاجة إلى من تثق به فى كبرك .

ـ وزينب؟

ـ ستفرح ، أنقذها من يأسها . .

١١

سمع عاشور المعلم زين يناديه من المنظرة . ولما ذهب إليه أفسح له مكانا إلى جانبه على الأريكة الخشبية المفروشة بفروة خروف . تردد عاشور ثم جلس . عند ذاك سأله المعلم برقة :

ـ ألا تفكر يا عاشور فى ضمان نصف دينك؟

١٢

الفرحة والنور . عندما يصير الحلم نعمة تشدو فى الأذن والقلب . عندما تشرق وجوه العباد بضياء السماح ، وحتى الحشرات تمسك عن ارتكاب الأذى .

ذهب عاشور إلى حمام السلطان فأزال الشعر والعرق ، مشط شعره وهذب شاربه ، تطيب بالجلاب ، ونظف أسنانه بالسواك ، رفل فى جلباب أبيض ومركوب فصل خاصة لقدميه الضخمتين .

احتفل بزفاف مناسب فى بيت الناطورى ، ثم أقام العروسان فى بدروم مكون من حجرة ودهليز يقع أمام بيت الناطورى . واندلق عاشور فى الحب حتى قمة رأسه ، وكان بعض أهل الفجور عقب انطلاقهم من الغرز فى النصف الثانى من الليل يقرفصون فى الظلام لصق شباك البدروم يتنصتون ويحلمون .

وأنجب مع الأيام حسب اللّه ورزق اللّه وهبة اللّه ، وفى أثناء ذلك تُوفى المعلم زين وزوجه وتزوجت البنات .

تمتع عاشور بحياة زوجية سعيدة . ظل يعمل مكاريا وأصبح مالكا للحمار الذى وهبه

إياه الناطورى ليلة زفافه. وعملت زينب من ناحيتها بتربية الدجاج وبيع البيض فتيسرت المعيشة وفاح الدهليز برائحة التقلية.

وتقدم الأولاد صوب الشباب فعملوا فى مختلف الحرف. عمل حسب الله صبى نجار، ورزق اللّه مبيض نحاس، وهبة اللّه صبى كواء بلدى. ولم يرزق أحدهم عملقة أبيه ولكنهم كانوا أشداء لدرجة تستوجب الاحترام فى الحارة.

ورغم ما عرف به عاشور من دماثة الخلق فإن واحدا من رجال قنصوه الفتوة لم يتحرش به. ولم تكن زينب تماثله فى دماثته. كانت عصبية، سيئة الظن، طويلة اللسان ولكنها كانت مثالا طيبا للجد والاجتهاد والوفاء.

وكانت تكبره بخمس سنوات، وبقدر ما حافظ هو على حيويته وشبابه سارع إليها التغير والنضوب قبل الأوان. على ذاك لم تنزع له عين ولم يزهد فى حبها.

وبمرور الزمن ابتاع بنقوده ونقود زينب كارو فترقى من مكار إلى سواق. وقالت له زينب بنبرة وعيد:

ـ كان زبائنك من الرجال، ومن الساعة لن تحمل إلا النساء!

فضحك متسائلا:

ـ وهل يقصدنى إلا زائرات الأضرحة والقبور؟!

فهتفت به:

ـ بينى وبينك ربنا!

وأحزنه أنه مضى ينسى ما حفظه من القرآن فلم تبق له إلا السور الصغيرة التى يتلوها فى الصلوات، ولكن حبه الخير لم يفتر قط. وتعلم أن درويش زيدان ليس الشرير الوحيد فى الحياة. تعلم أن الحياة حافلة بالمكر والعنف ورذائل لا حصر لها. ولكنه واظب على الاستقامة ما وسعه ذلك، وكان يحاكم نفسه محاكمة قاسية كلما تورط فى خطأ. ولم ينس أنه استولى على جميع مدخرات زينب وبعض أجور أبنائه لكى يبتاع الكارو، وأنه فى سبيل ذلك قسى عليهم بعض الشىء وغضب غضبات كاسرة!

وكان يشاهد ما يصيب بعض جيرانه من عنت الفتوة ورجاله فيكظم غيظه ويطيب خاطر المظلومين بكلمات لا تغنى ويدعو للجميع بالهداية، حتى قال له جار ذات يوم:

ـ إنك لقوى يا عاشور ولكن ماذا أفدنا من قوتك؟!

علام يلومه الرجل؟ علام يحرضه؟ أليس حسبه أنه رفض الانضمام إلى الطغاة؟ أليس حسبه أنه لا يستغل قوته إلا فيما ينفع الناس؟

رغم ذلك هفت فى ضميره الوساوس كما يهفو الذباب فى يوم قائظ وقال إن الناس لا يرونه بالعين التى يرى بها نفسه، وتساءل فى حزن:

ـ أين صفاء البال؟ أين؟!

١٣

كان يتربع فى الساحة أمام التكية مودعا الغروب، مستقبلا المساء، ينتظر انسياب الأناشيد ونسمة من نسائم الخريف معطرة بالبرد والأسى تنزلق من فوق السور العتيق تشد بذيلها طيفا من أطياف الليل. بدا عاشور متخما بالسكينة ولم تشب له شعرة واحدة. كان يحمل فوق كاهله أربعين عاما وكأنها هى التى تحمله فى رشاقة الخالدين.

همسة فى باطنه جعلته يحول عينيه نحو ممر القرافة فرأى رجلا يخرج منه يسير فى تكاسل. لم يستطع أن يسترد عينيه، عرفه فى بقية ضوء المغيب، دق قلبه، وخمد سروره. أقبل الرجل نحوه حتى وقف أمامه حاجبا عنه التكية ومضى ينظر إليه باسما.

تمتم عاشور:

ـ درويش زيدان!

قال درويش معاتبا:

ـ هلا بدأت بالتحية؟ مساء الخير يا عاشور!

فنهض باسطا يده وهو يقول بنبرة محايد:

ـ أهلا بك يا درويش..

ـ لم أتغير كثيرا فيما أظن..

مؤسف هذا الشبه بينه وبين المرحوم عفرة، ولكن غلظت قسماته وتحجرت. قال:

ـ بلى..

فحدجه بنظرة ذات معنى وقال:

ـ رغم أن كل شىء يتغير!

فتجاهل عاشور ملاحظته متسائلا:

ـ أين غبت طوال ذاك العمر؟

فقال باستهانة ساخرة:

ـ فى السجن!

ورغم أنه لم يدهش فقد هتف:

ـ السجن!

ـ الجميع أشرار ولكنى سيئ الحظ!

ـ اللّٰه غفور رحيم..

ـ عرفت أن أحوالك رائعة؟

ـ الستر لا أكثر من ذلك..

فقال باقتضاب:

ـ إنى فى حاجة إلى نقود.

تضايق عاشور، ولكنه دس يده فى صدره فاستخرج ريالا، أعطاه له قائلا:

ـ إنه قليل ولكنه كثير بالقياس إلى حالى..

تناوله بوجه مكفهر وقال بنبرة ذات مغزى:

ـ لنقرأ الفاتحة على روح أخى عفرة.

فقرأها ثم قال:

ـ لم أنقطع عن زيارة قبره..

فسأله بجرأة:

ـ هل أجد عندك مأوى حتى أقف على قدمى؟

فبادره قائلا:

ـ لا مكان فى حجرتى لغريب..

ـ غريب؟!

فقال بإصرار وجرأة:

ـ لولا ذكرى مولاى ما مددت لك يدى!

فقال بقحة:

ـ أعطنى ريالا آخر وسوف أسدد دينى عند الميسرة.

فلم يضن عليه بالنقود وهو من الضيق فى غاية.

ومضى درويش نحو القبو صامتا على حين تهادى من التكية صوت عذب ينشد:

زكريه مردم جشم نشسته در خونست

١٤

رأى عاشور وهو ينطلق بالكارو جماعة تتجمهر فى خرابة على كثب من مدخل الحارة. وعندما اقترب منهم وضح له أنهم عمال بناء يحدقون بأكوام من الصفائح والأخشاب وسعف النخل، ورأى بينهم درويش زيدان. انقبض صدره وقال إن الرجل يشيد لنفسه مأوى. وصاح به درويش حين مر به:

ـ إنى أبذل ما فى وسعى لخدمتكم..

فقال له بجفاء:

ـ حسن أن يكون للإنسان بيت.

ـ بيت؟!

وضحك درويش ضحكة عالية ثم واصل:

ـ سيكون بيت من لا بيت له!

١٥

وقال حسب اللّه لأبيه عاشور:

ـ وضح الأمر، الرجل يبنى بوظة!

فذهل عاشور متسائلا:

ـ خمارة؟!

فقال رزق اللّه:

ـ الجميع يقولون ذلك.

فهتف عاشور:

ـ رباه.. لقد أسهمت نقودى فى بنائها!

فقال هبة اللّه:

ـ إنما الأعمال بالنيات..

ـ والحكومة؟

ـ أخذ الرخصة ولا شك .

فقال عاشور محزونا :

ـ حارتنا لم يشيد بها سبيل للعطشى ولا زاوية للمصلين بعد، فكيف تقام بها بوظة؟!

وافتتح البوظة قنصوه الفتوة ورجاله فزادت كآبة عاشور وتمتم :

ـ وأيضا وجد الحماية!

١٦

ثمة ضجة وراء شباك البدروم . ما هذا؟ ألا تكف هذه الحارة عن الشجار؟ عاشور فوق الكنبة الوحيدة بالحجرة يحتسى قهوته، والمصباح لم يشعل بعد . ضلفة الشباك ترتعش بهبة من أنفاس الشتاء الباردة، وزينب عاكفة على كى ملابس بالجندرة . رفعت زينب رأسها وقالت بانزعاج :

ـ هذا صوت رزق اللّٰه!

ـ الأولاد يتشاجرون؟!

وهرعت زينب إلى الخارج وسرعان ما جاءه صوتها وهى تصيح :

ـ يا مجانين احتشموا . .

ـ وثب عاشور ناهضا . فى لحظة كان يقف وسط أبنائه . صمتوا ولكن الغضب لم يتلاش من وجوههم . هتف :

ـ ما شاء اللّٰه!

لاحت منه نظرة إلى الأرض فرأى مخطط سيجة مبعثرة فوق حصوات اللعب فتساءل بحدة :

ـ تلعبون أم تقامرون؟

لم يجبه أحد . اشتعل غضبا . تساءل :

ـ متى تصيرون رجالا؟

وجذب إليه حسب اللّٰه قائلا :

ـ أنت الأكبر، أليس كذلك؟

وفغمته رائحة غريبة تتناثر من فيه فجزع . جذب الآخرين وتشمم أنفاسهم . آه . فلتخسف الأرض بمن عليها!

ـ سكارى؟! يا كلاب . .

وراح يعصر آذانهم وعضلات وجهه تموج بسحب حمراء. وتجمع غلمان يتفرجون فهتف حسب اللّه متوسلا :

ـ فلندخل البيت .

فصاح بصوته الأجش :

ـ تخجلون من الناس ولا تخجلون من اللّه؟!

وشدته زينب من ذراعه وهى تقول :

ـ لا تجعلنا جرسة بين الأوباش . .

فاستسلم ليدها وهو يقول :

ـ هم . . هم الأوباش!

فهمست بحدة :

ـ ليسوا أطفالا . .

ـ لا خير فيهم ولا فيك . .

ـ البوظة لا تفرغ من الناس!

فانحط على الكنبة وهو يتمتم :

ـ يا للخسارة! لا فائدة ترجى منك .

أشعلت المصباح ووضعته داخل الكوة ثم قالت بنبرة لطيفة :

ـ إنى أعمل أكثر منك ، لولاى ما ملكت الكارو وما اشتعل لك كانون . .

فقال بضجر :

ـ لم يبق منك إلا لسان مثل السوط . .

فهتفت بحدة :

ـ ذبل الشباب فى خدمتكم . .

ـ لا بد من تأديبهم . .

ـ ليسوا أطفالا وسيذهبون . .

إنها تعلم أن الخصام سيتلاشى سريعا ، وأن الكلمات القارصة والهمسات العذبة تمتزج فى قدح واحد . .

وفكر عاشور فى أمر أولاده بقلق .

لم يفلح أحدهم فى الكتاب . لم يجد أحد منهم عناية من والديه لانشغالهما بعملهما

المتواصل. لم يحظوا بما حظى هو به فى كنف الشيخ عفرة. تشربوا بعنف الحارة وخرافاتها وغابت عنهم فضائلها. حتى قوته لم يرثها أحد منهم. لم يتعلق أحدهم به أو بأمه، حبهم سطحى متقلب، قلوبهم متمردة من قديم وإن لاذت بالصمت. لا موهبة ولا ميزة، سيظلون صبيانا ولن يترقى أحد منهم إلى درجة معلم أبدا. وها هم أولاء يهرعون إلى البوظة عند أول إشارة، ولن يقفوا عند حد.

قال بحزن:

ـ لن يجيئنا منهم إلا ما يكدر القلب.

فقالت بتسليم:

ـ إنهم رجال يا معلم!

١٧

مرة وهو مقبل بالكارو فيما أمام الخمارة تصدى له درويش قائلا:

ـ مرحبا..

لم يتجاهله هذه المرة. رغم مقته له لم يتجاهله. شد اللجام فتوقف الحمار عن السير، ووثب واقفا أمام درويش وقال له بحزم:

ـ هذا العمل لا يليق بذكرى أخيك..

فابتسم درويش متهكما وقال:

ـ أليس خيرا من قطع الطريق؟

ـ إنه سيئ مثله.

ـ معذرة فإنى أحب المغامرات...

ـ بحارتنا من الشر ما يكفى وزيادة..

ـ البوظة كما أنها تضاعف من شر الشرير، فإنها تضاعف من طيبة الطيب، شرف وجرب..

ـ عليها اللعنة..

عند ذاك لمح داخل البوظة مخلوقا يمر بسرعة من جانب إلى جانب فذهل متسائلا:

ـ النساء أيضا؟

ـ لعلك رأيت فلة؟

لم يكن رأى منها شيئا ذا دلالة، فسأله:

ـ هل يجيئك نساء أيضا؟

ـ كلا. إنها بنت يتيمة تبنيتها..

ثم مواصلا بلهجة ذات مغزى:

ـ أنت لا تتصور أنى قادر على فعل الخير، ولكن أليس تبنى لقيطة خيرا من بناء زاوية؟

تلقى الغمزة صابرا وسأله:

ـ ولماذا تجيء بها إلى الخمارة؟

ـ لتكسب رزقها بعرق جبينها!

فغمغم آسفا:

ـ لا فائدة.

ووثب إلى مقدم الكارو وهو يصيح «حا» فمضى الحمار مرسلا بحدواته طقطقاته الموسيقية.

١٨

لم يعد عاشور يرى من النهار إلا غباره، ولا من الليل إلا ظلامه، وكلما أقدم على عطفة توقع عثرة ليست فى الحسبان، وترف عيناه فيغمغم اللهم اجعله خيرا. ترى هل أصاب البنيان شرخ يتعذر ترميمه؟

وكان يستنيم إلى مضجعه عقب منتصف الليل عندما ترامى إليه صوت يزعق من وراء النافذة:

ـ يا معلم عاشور.. يا معلم عاشور..

هرع إلى الشباك ففتحه وهو يغمغم «الأولاد!» فرأى شبحا منحنيا فوق القضبان، سأله:

ـ ماذا هناك؟

ـ أدرك أولادك، إنهم يتقاتلون فى البوظة بسبب البنت فلة!

وهتفت زينب:

ـ ابق أنت ودعنى أذهب إليهم..

فأزاحها عن طريقه، دس قدميه فى المركوب، انطلق مثل عاصفة..

١٩

ملأ هيكله فراغ الباب. اتجهت نحوه أبصار السكارى المطروحين على الجانبين. وثب نحوه درويش وهو يهتف:

ـ سيهدم أولادك المكان!

رأى هبة اللّه ملقى على الأرض بلا حيلة. رأى حسب اللّه ورزق اللّه مشتبكين فى صراع حقود، على حين انطرح السكارى غير مبالين. صاح بصوت فظيع:

ـ تأدب يا ولد..

انفصل الشابان وهما ينظران نحو مصدر الصوت برعب. بظهر كفه لطم الأول فالثانى فتهاويا فوق الأرض التربة العارية. وقف يقلب عينيه فى الوجوه متحديا فلم ينبس أحد. قذف درويش بنظرة متحجرة وصاح به:

ـ ملعون أنت وملعون جحرك الموبوء!

عند ذاك ظهرت فلة لا يدرى من أين جاءت وتمتمت:

ـ إنى بريئة!

وقال درويش:

ـ إنها تقوم بالخدمة، ولكن أولادك طمعوا فيها!

فصاح به:

ـ اخرس يا قواد.

فتراجع درويش قائلا:

ـ سامحك اللّه..

ـ فى قدرتى أن أهدم هذه البؤرة فوق رءوسكم..

تقدمت فلة خطوة حتى مثلت أمامه تماما وقالت:

ـ إنى بريئة!

قال لها بخشونة وهو ينتزع عينيه منها:

ـ اغربى عن وجهى..

دفع بأولاده المترنحين إلى الخارج بعنف واحدا فى إثر واحد.

عادت فلة تتساءل:

ـ ألا تصدق أنى بريئة؟

انتزع عينيه منها مرة أخرى هاتفا :

ـ بل شيطانة صغيرة من صنع شيطان كبير . .

وغادر المكان وهو يتجنب النظر إليها . .

فى ظلام الحارة تنفس بعمق . شعر بأن سراحه قد أطلق وأنه تملص من قبضة شريرة . الظلام كثيف لا عين له . أحد بصره ليعثر على أشباح أولاده ولكنهم ذابوا . هتف :

ـ حسب اللّه!

لا شيء سوى الصمت والظلام . بصيص ضوء ينساب من القهوة هناك ولا شيء بعد ذلك . قلبه يحدثه أنهم لن يرجعوا . سيهجرون مهدهم وسلطانه . سيتراءون فى المستقبل كالغرباء . لا أبناء يلتصقون بأصولهم فى هذه الحارة إلا أبناء الوجهاء .

شعر وهو يشق طريقه فى الظلام بأنه يودع الطمأنينة والثقة . ها هو ذا تيار مضطرب يلفه فى دوامته ، وهو يساوره الخوف كما يساوره النوم . وقال لنفسه : إن البنت بهرتهم بجمالها . وقال أيضا : إن البنت بهرتهم بجمالها الفتان ، لماذا لا يتزوج الحمقى؟ أليس الزواج دينا ووقاية؟

٢٠

فى انتظاره كانت زينب أمام الباب . اهتدى إلى مسكنه بضوء مصباحها الموضوع على عتبة المدخل . . سألته بلهفة :

ـ أين الأولاد؟

فتساءل بوجوم :

ـ ألم يرجعوا؟

فتنهدت بصوت مسموع فتمتم :

ـ لتكن إرادة اللّه .

وهو يجلس على الكنبة قالت له بحدة :

ـ كان يجب أن تدعنى أذهب . .

ـ تذهبين إلى البوظة فى خضم السكارى؟!

ـ ضربتهم ، ليسوا أطفالا ، ولن يرجعوا إلى البيت .

ـ يتسكعون يوما ثم يرجعون . .

ـ إنى أعرف بهم منك .

فلاذ بالصمت فواصلت تسأله :

ـ وما هذه الفلة التى رمانا بها درويش؟

تجنب النظر إليها وقال بازدراء :

ـ فيم تسألين؟ بنت تقيم فى خمارة!

ـ جميلة؟

ـ داعرة .

ـ جميلة؟

فقال بعد تردد :

ـ لم أنظر نحوها .

فقالت متأوهة :

ـ لن يرجعوا يا عاشور . .

ـ لتكن إرادة اللّه .

ـ ألا تسمع عما يفعل الشبان؟

فلم ينبس فقالت :

ـ علينا أن نتسامح مع الأخطاء . .

فتساءل بذهول :

ـ حقّا؟!

وتبدت لعينيه ناضبة شاحبة طاعنة فى السن مثل جدار الممر العتيق فتمتم :

ـ إنى أرثى لك يا زينب . .

فقالت بحدة :

ـ سنتبادل الرثاء كثيرا .

ـ على أى حال فليسوا فى حاجة إلينا . .

ـ بغيرهم لا أنفاس فى البيت تتردد .

ـ إنى أرثى لك يا زينب .

أسندت رأسها إلى راحتها وتمتمت متشكية :

ـ لدى عمل فى الصباح الباكر .

ـ جربى النوم .

ـ فى هذه الليلة؟

فقال بضجر :

ـ فى أى ليلة!

ـ وأنت؟!

فقال بتصميم :

ـ الحق أنى بحاجة إلى نسمة هواء فى الخارج!

٢١

الظلام مرة أخرى. . يتجسد فى القبو. يغطى المتسولين والصعاليك. ينطق بلغة صامتة. يحتضن الملائكة والشياطين. فيه يختفى المرهق من ذاته، ليغرق فى ذاته. إن قدر الخوف على أن ينفذ من مسام الجدران فالنجاة عبث.

٢٢

خرج من القبو إلى الساحة. انفرد بأناشيد التكية والجدار العتيق والسماء المرصعة بالنجوم. جلس القرفصاء دافنا وجهه بين ركبتيه، منذ نيف وأربعين عاما تسللت به أقدام خاطئة لتوارى خطيئتها فى ظلمة الممر. كيف وقعت تلك الخطيئة القديمة؟ أين؟ فى أى ظروف؟ ألم يكن لها ضحية سواه؟ تخيل إن استطعت وجه أمك الحالم ووجه أبيك المحتقن، استعد إن استطعت كلمات التغرير المعسولة، استحضر اللحظة الحاسمة التى تقررت بها مصائر. كان يقف إلى جانبهما ملاك وشيطان ولكن الرغبة تهزم الملائكة. تخيل صورة أمك. . لعلها مثل. . ؟! لكى تحتدم المعركة لا بد من بشرة صافية وعينين سوداوين مكحولتين وقسمات دقيقة مثل البراعم. لا بد من الرشاقة والسحر وعذوبة الصوت. وقبل ذلك لا بد من القوى الخفية المتدفقة المناسبة الغادرة المغتصبة بلا ضمير. والطُّعم الفواح تضعه الحياة فى الفخ وتنتظر. وتودع ذلك كله خمسة عشر عاما من عمر البشر.

لذلك دق باب الأناشيد ولكنه لم ينفتح. الحق كان بوسعك أن تدفعه بقوتك ولكنك لم ترد. ومن يتزوج الحياة فليحتضن ذريتها المعطرة بالشبق. ولكن لا مفر من أن تعترف

بأن ما يحدث لا يمكن أن يصدق. وأن تعانى إحساس المطارد إذا سبق. فالبسمة قدر والدمعة قدر. وها هو ذا مخلوق جديد يولد مكللا بالطموح الأعمى والجنون والندم. ويسأل الغوث من الرحمن فتنسكب عليه خمر الفتن.

وثقل رأسه فغفا.

رأى الشيخ عفرة زيدان أمام قبره، حمله بين يديه فسأله فى جزع:

ـ إلى القبر يا مولاى؟

ولكنه مضى به إلى الممر، ومن الممر إلى الساحة، ومن الساحة إلى القبو..

واستيقظ على شىء.

فتح عينيه فسمع صوت زينب وهى تقول:

ـ هذا ما خمنته، تنام حتى مطلع الفجر؟

نهض فزعا. أسلم لها يده. مضيا صامتين.

٢٣

ما يدرون إلا وهيكله العظيم يملأ باب البوظة.

اختلجت الجفون الثقيلة، وترددت التساؤلات تحت غيوم الأعين:

ـ ماذا جاء يفعل؟

ـ مطاردة أولاده؟

ـ لا تتوقعوا من ورائه مسرة!

مسح المكان ببصره حتى وجد فراغا فى الجناح الأيسر فمضى إليه وتربع هناك فى هدوء تستر به على ارتباكه. هرع إليه درويش قائلا:

ـ خطوة عزيزة..

ثم وهو يبتسم:

ـ فليعنى اللّه على التصديق!

تجاهله تماما. وفى الحال جاءت فلة تسعى بالقرعة وقرطاس الترمس المدعوك بالشطة. أسبل جفنيه وتذكر قصة الطوفان. نحى القرعة جانبا، وأدى الثمن، بلا كلام. وجعل درويش يراقبه بحيرة ثم همس له، وهو يهم بالابتعاد:

ـ نحن فى الخدمة أيّا تكن!

سرعان ما نسيه الآخرون. أما فلة فساءلت نفسها عما يزهده فى الشراب. اقتربت منه مرة أخرى وقالت وهى تومئ إلى القرعة:

ـ إنها جيدة فوق الوصف!

فحنى رأسه فيما يشبه الشكر. وقال لها أحد السكارى:

ـ ابعدى عنه يا بنت.

فرجعت ضاحكة وهى تقول بصوت مسموع:

ـ ألا ترى أنه يشبه الأسد؟!

قطرت السماء فرحة من أفراح الطفولة ولكن عضلات وجهه تصلبت أكثر. ولم تعد ملابسه تحجب عريه عن الأعين. واختصر طريق حياته بين زاوية الممر وهذا المجلس بالبوظة. ما عدا ذلك طوى وتلاشى فى نغمة جديدة غامرة.. وسرعان ما استنام إلى الهزيمة جذلان بإحساس الظفر.

ووقفت فلة بين الأوعية الفخارية ترنو إليه باهتمام على حين اقتحم الباب حسب اللّه ورزق اللّه وهبة اللّه.

سرى التوقع فى ثنايا الخمول واشرأبت الأعناق. هتف حسب اللّه:

ـ سلام الجدعان.

ولمح أباه فتشنج حلقه وجمد. وخمد حماس رزق اللّه وهبة اللّه. وقفوا لحظة مذهولين ثم استداروا فتلاشوا كشىء لم يكن. وارتفعت ضحكة هازئة. ونظرت فلة نحو درويش فلم ينبس ولكن تجلى الضيق فى وجهه..

٢٤

احتجت قسمات زينب وسألته:

ـ وهل يستمر ذلك إلى الأبد؟

فتساءل عاشور فى قهر:

ـ ما الحيلة؟

ـ عظيم أن تصدهم عن البوظة ولكن بأى ثمن؟

فحرك رأسه الكبير بحيرة صامتا فهتفت بحدة:

ـ النتيجة أنك بت الزبون الدائم عند درويش!

٢٥

كان يمضى بالكارو عندما مرقت فلة من باب الخمارة فاعترضت طريقه. شد اللجام وهو يقول لنفسه: «لتدركنى رحمة السماء». ودون كلمة وثبت إلى الكارو برشاقة، تربعت وهى تحبك ملاءتها حولها، وكانت سافرة الوجه. نظر إليها مستفهما فقالت بعذوبة:

ـ وصلنى إلى مرجوش..

وظهر درويش باسما وهو يقول:

ـ فى رعايتك، وحسابها عندى.

رأى خيوط العنكبوت ولكنه لم يبال. طرب حتى ثمل. هرس تراثه تحت حوافر الحمار. سارت الكارو وظهره ينصهر بالسخونة.

وإذا بصوتها يقول:

ـ لو أنصفت نفسك لكنت الفتوة..

فامتلأ بشاشة وتساءل:

ـ أترييننى شريرا؟

فضحكت برقة وتساءلت بدورها:

ـ وما جدوى الخير مع أناس لا خير فيهم؟

ـ ما زلت صغيرة..

فقالت بنبرة لاذعة:

ـ لم أعامل كصغيرة قط..

فتجهم وجهه مقطبا. وحتى تلك اللحظة لم تغب عن عينيه النظرات المتطلعة إلى حمله الثمين.. ووجد نفسه يسألها:

ـ لماذا تذهبين إلى مرجوش؟

ولما لم تجبه ندم على ما فرط منه.. وطلبت منه التوقف عند مدخل مرجوش، ثم قالت:

ـ تمنيت لو كان المشوار أطول..

ثم وهى تهم بالذهاب:

ـ ولكن الليل ليس ببعيد!

ربّت عنق الحمار وهمس فى أذنه:

ـ انتهى صاحبك . .

٢٦

مع أول شعاع للشمس اقتحم باب البوظة . استيقظ درويش صاخبا محتجا ثم ذهل لمرآه ثم تساءل:

ـ ماذا وراءك؟

فأقامه بيده وحدجه بنظرة هائجة وتمتم:

ـ لا بد مما ليس منه بد . .

ـ ماذا جاء بك يا عاشور؟

فقال بغلظة:

ـ إنك خبيث وشرير وتعرف كل شىء . .

فدعك درويش قفاه وهو يطالعه بعينيه المحمرتين وتمتم:

ـ هذا وقت الرزق!

فقال ملقيا بنفسه فى اليم:

ـ قررت أن آخذها . .

فقال باسما:

ـ لكل شىء وقته!

فقال باستسلام نهائى:

ـ على سنة اللّه ورسوله!

اتسعت عينا درويش من وقع المفاجأة وراحا يترامقان فى صمت حتى تمتم:

ـ ما معنى هذا؟

ـ ليست كما تظن . .

ـ أجننت يا عاشور؟

ـ ربما . .

فكساه الفتور وقال :

ـ إنى لا أستغنى عنها !

ـ سوف تستغنى عنها يا درويش !

ـ هل فكرت فى العواقب؟

ـ لا دخل للتفكير فى ذلك !

فتساءل فى خبث :

ـ ألا تعلم أنه ما من رجل . .

وقاطعه صوت فلة وافدا من فوق أريكتها مما قطع بمتابعتها للحديث وهو يقول :

ـ ماذا تريد أن تقول؟ لو كان فى حاجة إلى شهادتك لسألك !

فثار درويش وصاح :

ـ ستصير أحدوثة الصغير والكبير . .

فصاحت فلة :

ـ إنه قادر على حماية ما يملكه . .

فانقض عليها فلطمها حتى صرخت فوثب عاشور نحوه وطوقه بذراعيه . وشد حتى صاح متأوها :

ـ أنا فى عرض النبى . .

فتركه وهو يزمجر غاضبا فتهاوى درويش على الأرض وهو يصرخ :

ـ فى ألف داهية . .

٢٧

جرى عاشور مع عزمته بجرأة مستهترة . حتى حزنه لزينب وذكرياتها لم يوقفه . وقال لها حانى الرأس :

ـ قضاء اللّه لا حيلة لنا فيه . .

فنظرت إليه ببراءة مستطلعة فقال :

ـ سأتزوج من أخرى يا زينب !

وصعقت المرأة . ذهلت تماما وطارت من رأسها عصافير مصوصوة وصاحت :

ـ أنت الرجل الطيب؟!

فقال بخشوع:

ـ قضاء اللّه..

فصرخت:

ـ لم تتمحكون باسم اللّه؟ لم لا تعترف بأنه الشيطان؟ ترمينى قشرة وتذهب؟

فقال بتوكيد:

ـ مصونة جميع حقوقك!

فصاحت وهى تشرق بالدمع:

ـ لى اللّه وحده يا غادر يا خائن العيش والملح..

٢٨

زفت فلة إلى عاشور فى حفل صامت. استأجر لها بدروما فى طرف الحارة من ناحية الميدان. وسعد الرجل بزواجه حتى خيل إلى من يراه أنه رجع إلى شبابه الأول.

٢٩

واجتاح خبر الزواج الحارة كالنار. تساءل كثيرون:

ـ ألم يكن بوسعه أن يفعل مثل الآخرين؟!

وقال حسب اللّه:

ـ إذن كان يصدنا نحن أبناءه ليستولى هو عليها!

وضاعف من أثر الخبر ما عرف به عاشور من الطيبة والاستقامة. أهكذا يقع الناس الطيبون؟ أين الوفاء لزينب؟ وأين الوفاء لزين الناطورى؟ من الذى جعل منه مالك كارو بعد أن كان مكاريا؟ ومن الذى انتشله من التشرد فجعله مكاريا؟

وكان عاشور يقول مدافعا عن نفسه:

ـ لولا أننى عاشور ما تزوجتها!

وتمضى الأيام وهو يزداد سعادة وامتنانًا، واستهانة بالأقاويل. وتعلقت به فلة تعلقا لم

يحلم به. صممتْ على أن تثبت له أنها ست بيت، مطيعة، بعيدة كل البعد عما يثير غيرته. ومما جعلها أثيرة عنده أكثر أنه وجدها ـ مثله ـ مجهولة الأب والأم. وبسبب من شدة حبها له تسامح مع جهلها بكثير من الشئون النافعة، كما تسامح مع كثير من العادات السيئة. ومن أول الأمر أدرك أنها بلا دين إلا الاسم، وبلا أخلاق، وأنها تتبع فى مسيرتها الغرائز وملابسات الحياة، فتساءل: متى يجد وقتا ليلقنها ما ينقصها حقّا فى الحياة؟ الحب وحده ما يحفظها ولكن متى يكفى ذلك؟

ولم ينقطع عن زينب، ولم يغمط لها حقّا، ومضت هى تألف الحياة الجديدة، وتعاشر جرحها معاشرة التسليم، فلا تكدر زياراته بمكدر.

وجعل درويش يراقب الأمور ويقول بحقد:

ـ العقرب تعبده، ما زالت تعبده، فمتى تلسعه؟

وتمضى الأيام فتحبل فلة، ثم تنجب ذكرا يسميه أبوه «شمس الدين» ويفرح به عاشور فرحة كبرى كأنما هو بكريه.

وتمضى أيام صفاء وسعادة لم يجدهما عاشور فيما سلف من عمره.

٣٠

ماذا يحدث بحارتنا؟

ليس اليوم كالأمس، ولا كان الأمس كأول أمس. أمر خطير طرأ. من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟ وهل تجرى هذه الشئون بمحض المصادفة؟ ومع ذلك فالشمس ما زالت تشرق وتقوم برحلتها اليومية، والليل يتبع النهار، والناس يذهبون ويجيئون والحناجر تشدو بالأناشيد الغامضة..

ماذا يحدث بحارتنا؟

وجعل يراقب شمس الدين الثمل بالانهماك فى الرضاع ويبتسم، رغم كل شىء فهو يبتسم. وقال:

ـ ميت جديد، ألا تسمعين الصوات؟

فتساءلت فلة:

ـ بيت من يا ترى؟

فمد بصره من خلال قضبان النافذة متنصتا ثم تمتم:

ـ لعله بيت زيدون الدخاخنى!

فقالت فلة بقلق:

ـ ما أكثر أموات هذا الأسبوع!

ـ أكثر ممن يموتون عادة فى عام!

ـ وقد يمر العام بلا ميت واحد..

ولم تهدأ ثائرة الطارئ الجديد.

وكان عاشور ماضيا بالكارو عندما اعترضه درويش وقال له:

ـ الأقاويل كثيرة، ألم تسمع شيئا يا عاشور؟

ـ عم تتحدث؟

ـ يتحدثون عن قىء وإسهال مثل الفيضان ثم ينهار الشخص ويلتهمه الموت..

فتمتم عاشور بامتعاض:

ـ ما أكثر ما يقال فى حارتنا!

ـ أمس أصيب زبون عندى بذلك حتى لوث المحل..

فرمقه بازدراء فعاد درويش يقول:

ـ حتى بيوت الأعيان لم تسلم، ها هى ذى حزم البنان تُوفيت صباح اليوم!

فقال عاشور وهو يمضى:

ـ إذن فهو غضب اللّٰه!

٣١

تفاقم الأمر واستفحل.

دبت فى ممر القرافة حياة جديدة.. يسير فيه النعش وراء النعش.. يكتظ بالمشيعين. وأحيانًا تتتابع النعوش كالطابور. فى كل بيت نواح. بين ساعة وأخرى يعلن عن ميت جديد. لا يفرق هذا الموت الكاسح بين غنى وفقير، قوى وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنه يطارد الخلق بهراوة الفناء. وترامت أخبار مماثلة من الحارات المجاورة فاستحكم الحصار. ولهجت أصوات معولة بالأوراد والأدعية والاستغاثة بأولياء اللّٰه الصالحين.

ووقف شيخ الحارة عم حميدو أمام دكانه وضرب الطبلة براحته فهرع الناس إليه من البيوت والحوانيت.

وبوجه مكفهر راح يقول :

ـ إنها الشوطة ، تجىء لا يدرى أحد من أين ، تحصد الأرواح إلا من كتب اللّه له السلامة . .

وسيطر الصمت والخوف فتريث قليلاً ، ثم مضى يقول :

ـ اسمعوا كلمة الحكومة . .

أنصت الجميع باهتمام ، ترى أفى وسع الحكومة دفع البلاء ؟ !

ـ تجنبوا الزحام !

فترامقوا فى ذهول . حياتهم تجرى فى الحارة . والحرافيش يتلاصقون بالليل تحت القبو وفى الخرابات ، فكيف يتجنبون الزحام ؟ ولكنه قال موضحًا :

ـ تجنبوا القهوة والبوظة والغرز !

الفرار من الموت إلى الموت ! لشد ما تتجهمنا الحياة !

ـ والنظافة . . النظافة . .

تطلعت إليه فى سخرية أعين الحرافيش من وجوه متوارية وراء أقنعة من الأتربة المتلبدة .

ـ اغلوا مياه الآبار والقرب قبل استعمالها . . اشربوا عصير الليمون والبصل . .

ساد الصمت ، وظَلّ ظِل الموت ممتدا فوق الرءوس حتى تساءل صوت :

ـ أهذا كل شىء ؟

فقال حميدو بنبرة الختام :

ـ اذكروا ربكم وارضوا بقضائه . .

رجع الناس إلى البيوت والدكاكين واجمين ، وتفرق الحرافيش فى الخرابات وهم يتبادلون الدعابات الساخرة ، ولم يتوقف موكب النعوش ساعة واحدة . .

٣٢

دفعه القلق إلى الساحة فى جوف الليل . الشتاء يطوى آخر طية فى ردائه ، الهواء منعش لين القبضة ، النجوم متوارية فوق السحب . فى ظلمة داجية تهادت الأناشيد من التكية فى صرحها الأبدى . لا نغمة رثاء واحدة تنداح بينها . ألم تعلموا يا سادة بما حل بنا ؟ أليس عندكم دواء لنا ؟ ألم يترام إلى آذانكم نواح الثكالى ؟ ألم تشاهدوا النعوش وهى تحمل لصق سوركم ؟

رنا عاشور إلى شبح البوابة، إلى هامتها المقوسة، بإصرار حتى دار رأسه. تضخمت البوابة وتعملقت حتى غابت هامتها فى السحب. ما هذا يا ربى؟ إنها تتمخض عن حركة بطيئة دون أن تبرح مكانها. تتموج وقد تنقض فى أى لحظة. وشم رائحة غريبة لا تخلو من نفخة ترابية. إنها تتلقى من النجوم أوامر صارمة. جرب عاشور الخوف لأول مرة فى حياته. نهض مرتعداً، مضى نحو القبو وهو يقول لنفسه: إنه الموت. تساءل فى أسى وهو يقترب من مسكنه: لماذا تخاف الموت يا عاشور؟!

٣٣

أشعل المصباح فرأى فلة نائمة، وشمس الدين لا يبدو من الغطاء إلا شعر رأسه.. جمالها مستسلم لسطوة النوم، ثغرها مفتر بلا بسمة. منديلها منسحب وخصلات شعرها نافرة. دق الرعب أبواب رغبته الغافية. تمطى نداء مثل لسان من لهب. جن بالشهوة فاندفع بلهوجة المطارد. همس باسمها حتى فتحت عينيها. نظرت إليه منكرة حتى عرفته.. فقهت وقفته ونظرة عينيه فتزحزحت من تحت الغطاء بارزة، وتثاءبت، وابتسمت، وتساءلت:

ـ ماذا دهاك فى الليل؟

ولكنه من شدة الانفعال صمت. امتلأ صدره العريض بالعنف والأسى.

٣٤

نام ساعتين.

رأى فى وسط الحارة الشيخ عفرة زيدان. هرع نحوه مجذوباً بالأشواق. كلما تقدم خطوة سبق الشيخ خطوتين. هكذا اخترقا الممر والقرافة نحو الخلاء والجبل. وناداه من أعماقه ولكن الصوت فى حلقه انكتم.

واستيقظ فى غاية من القهر.

وقال لنفسه: إن هذا ليس لغير ما سبب. وفكر طويلا. وعندما نضح الشباك بلون الفجر تلقى عزمته. ونهض مرحا بعزمته. أيقظ فلة. بكى شمس الدين. غيرت لفته ودست برفق ثديها الثرى فى ثغره ثم التفتت إلى الرجل تعنفه.

مسح على شعرها بحنان وقال :

ـ حلمت حلما مذهلا . .

فقالت محتجة :

ـ لم أشبع من النوم . .

فقال بجدية غير متوقعة :

ـ علينا أن نهجر الحارة بلا تردد .

فرمقته غير مصدقة فعاد يقول :

ـ بلا تردد .

فتساءلت مقطبة :

ـ ماذا حلمت يا رجل؟

ـ أبى عفرة أرانى الطريق . .

ـ إلى أين؟

ـ إلى الخلاء والجبل!

ـ إنك ولا شك تهذى . .

ـ بل رأيت الموت أمس ، ورائحته شممت . .

ـ وهل الموت يعاند يا عاشور؟

فقال وهو يحنى رأسه فى حياء :

ـ الموت حق والمقاومة حق . .

ـ ولكنك تهرب!

ـ من الهرب ما هو مقاومة!

فتساءلت فى قلق :

ـ وكيف نعيش فى الخلاء؟

ـ الرزق فى الساعدين لا فى المكان .

فتنهدت قائلة :

ـ سيضحك الناس من جهلنا!

فقال بوجوم :

ـ لقد جفت ينابيع الضحك .

فأجهشت فى البكاء فتساءل فى قلق :

ـ هل تتخلين عنى يا فلة؟

فقالت وهى تنتحب :

ـ لا أحد لى سواك ، سوف أتبعك .

٣٥

اجتمع عاشور بأسرته الأولى ، زينب وحسب اللّه ورزق اللّه وهبة اللّه ، وباح لهم بحلمه وعزمته ، ثم قال :

ـ لا ترددوا ، فالوقت ثمين .

ذهلوا جميعا وارتسم فى وجوههم الرفض . وقالت زينب ساخرة :

ـ ها هى ذى وسيلة جديدة لتجنب الموت !

وقال حسب اللّه :

ـ أرزاقنا هنا ، ولا مجال لنا سواه . .

فقال عاشور غاضبا :

ـ لنا سواعدنا ، ولنا أيضا الكارو والحمار .

فسأله هبة اللّه :

ـ ألا يوجد الموت فى الخلاء يا أبى؟

فقال عاشور وهو يزداد غضبا :

ـ علينا أن نبذل ما فى وسعنا وأن نقدم الدليل للمولى على تعلقنا ببركته .

فهتفت زينب :

ـ أفسدت البنت عقلك !

فقلب وجهه فى وجوههم وتساءل :

ـ ما قولكم؟

فأجابه حسب اللّه :

ـ عفوا يا أبى ، نحن باقون ولتكن مشيئة اللّه !

هام عاشور فى حزن عميق ثم غادر المكان .

٣٦

رفع شيخ الحارة حميدو رأسه عن مكتبه ليرى عاشور واقفا أمامه مثل الطود فسأله بحدة :

ـ ماذا تريد يا عاشور؟

وقبل أن يجيبه عاشور قال :

ـ حدثنى ابنك حسب اللّه عما عزمت ، وللّه فى خلقه شئون!

فقال عاشور بهدوء عجيب :

ـ جئتك لتدعو الناس بنفسك فهم أجدر أن يسمعوا لك!

فصاح شيخ الحارة :

ـ أجننت يا عاشور؟ أتفهم أنت خيرا من الحكومة؟

ـ ولكن . . .

فقاطعه بحدة :

ـ حذار أن تعطل الأرزاق وتنشر الفوضى . .

ـ لقد رأيت الموت والحلم!

ـ هذا هو الجنون بعينه ، الموت لا يرى ، ونصف الأحلام مصدرها إبليس!

ـ إنى رجل طيب يا معلم حميدو . .

ـ ألم تذهب يوما إلى البوظة لتنقذ أبناءك من امرأة ثم وقعت أنت فى هواها واستأثرت بها لنفسك؟

فقال بغضب :

ـ لقد أنقذتها من الشر ، ثم إننى لا أبرئ نفسى من الذنوب . . .

فصاح شيخ الحارة :

ـ افعل بنفسك ما تشاء ولكن لا تغرر به أحدا وإلا أبلغت عنك القسم . .

٣٧

هاجر عاشور فى الفجر. وتحركت به الكارو نحو القبو كما تفعل فى مواسم القرافة. تربعت فوق سطحها المترجرج فلة محتضنة شمس الدين، أمامها بقجة مكتظة، وراءها أجونة من الفول السودانى وبلاليص من الليمون والزيتون المخلل، وزكائب من العيش المقدد. ولما خلصت العربة إلى الساحة، استقبلتها تراتيل آخر الليل وهى تشدو:

جز آستان تو ام درجهان بناهى ينست

سر مرا بجز أين در حواله كاهى ينست

استمع عاشور إليها بحزن، ثم دعا لحارته بالهداية من أعماق قلبه.

واخترق الممر الطويل، ثم شق سبيله بين القبور، قبور لا تكاد تغلق حتى تفتح ثانية، ثم انتهى إلى الخلاء. غمره تيار خفيف بارد، منعش وودود، ولكنه قال:

ـ احبكى الغطاء حولك وحول الولد.

فقالت متشكية:

ـ لا حى موجود.

ـ اللّه موجود.

ـ أين نقف؟

ـ عند سفح الجبل.

ـ هل نتحمل جوه؟

ـ أقوى مما تتحمله التلال، وتوجد ثمة كهوف..

ـ وقطاع الطريق؟!

فقال هازئا:

ـ فليقدم من كتب عليه الهلاك!

وراحت الكارو تتقدم والظلام يخف. تذوب الظلمة فى ماء وردى شفاف فتتكشف عوالم فى السماوات والأرض. تنساب منها ألوان عجيبة متداخلة حتى اصطبغ الأفق بحمرة نقية متباهية، تلاشت أطرافها فى زرقة القبة الصافية، وأطل من وراء ذلك أول شعاع مغسول بالندى. وتراءى الجبل شاهقا، رزينا، صامدا، لا مباليا. هتف عاشور:

ـ اللّه أكبر..

ونظر نحو فلة وقال مشجعا :

ـ انتهت الرحلة . .

ثم وهو يضحك :

ـ بدأت الرحلة !

٣٨

قضى عاشور وأسرته فى الخلاء ما يقارب الستة الأشهر .

لم يكن يغادر موقع الكهف إلا ليحضر ماء من حنفية الدراسة أو يبتاع علفا للحمار أو بعض الضرورات فى نطاق ما يملك من مدخر قليل . واقترحت فلة أن تبيع قرطها الذهبى ولكنه رفض . وأخفى عنها أسباب زهده . لقد جاءته والقرط فى أذنيها فهو من مال حرام جاء !

وتبدت الحياة فى الأيام الأولى نزهة ومغامرة ورياضة ، ولم تشعر بخوف فى ظل زوجها الجبار . وسرعان ما تبدت خالية مضجرة لا تحتمل . ماذا؟ هل جئنا نحسب الزمن بدبيبه المتتابع فوق جلودنا؟ هل جئنا لنعد حبات الرمال والنجوم الساهرة؟

وقالت له فلة :

ـ حتى الجنة لا تطاق بلا ناس وبلا عمل . .

فلم يعترض ولكنه قال :

ـ نحن مطالبون بالصبر . .

وقت طويل من وقته مضى فى العبادة . ووقت طويل مضى فى تذكر أسرته هناك وأهل حارته ، حتى قال لزوجه مرة :

ـ ما أحببت الناس قط كما أحبهم اليوم .

وكان يحظى بنصيبه من النوم فى النهار ويسهر الليل بطوله . وترامت تأملاته حتى شعر شعورا عجيبا بأنه عما قريب سيسمع أصواتا ويرى أشباحا . . بات صديقا للنجوم وللفجر . وقال إنه من ربه قريب ، لا يحجزه عنه شىء ، وإنه لا يدرى لم يستسلم أهل حارته للموت ؛ ولا لم يقرون بعجز الإنسان ، أليس الإقرار بعجز الإنسان كفرا بالخالق؟ واشتبك فى أحاديث صامتة لا نهاية لها مع ماضيه ، الشيخ عفرة ، ست سكينة ، الناطورى ، زينب ، وأحاديث حميمة حزينة مع حسب اللّه ورزق اللّه وهبة اللّه .

حسب اللّه كان مرشحا دائمًا لصداقته فيا للخسارة! رزق اللّه لا خير فيه ولكنه ذكى، أما هبة اللّه فمتعلق بأمه بدرجة لا تليق. على ذلك فهو يقر بأنهم خير من كثيرين من أضرابهم، ودعا لهم ولأمهم طويلا. ولاحت له حارته مثل جوهرة غارقة فى الوحل. إنه الآن يحبها حتى بسوءاتها! ولكن ثمة فكرة تتسلل إليه خلال عباداته المتواصلة بأن الإنسان يستحق ما يعانيه! الوجهاء والحرافيش ودرويش يدورون حول محور منحرف يرغب حقيقة فى القبض على سره الماكر العسير. وها هو ذا اللّه يعاقبهم جميعا كأنما قد ضاق بهم! ورغم ذلك يثمل الفجر بغبطته الوردية، ويرقص شعاع الضياء فى مرح أبدى! إنه على وشك أن يسمع أصواتا، ويرى أشباحا، إنه يتمخض عن ميلاد جديد.

٣٩

وثمة فرصة سنحت ليملأ قلب فلة بالإيمان. إنها امرأة صغيرة جميلة لا دين لها. لا تعرف اللّه ولا الأنبياء ولا الثواب ولا العقاب. يحفظها فى هذه الدنيا المرعبة حبها وأمومتها. حسن، إنه يلقى عناء فى تعليمها. ولولا ثقتها فيه ما صدقت كلمة واحدة مما يقول. تحفظ سور الصلاة فى عناء. يغلبها الضحك فتخرج من الصلاة. وتصلى اتقاء لغضبه واستجلابا لمرضاته.

وسألته ببراءة:

ـ لماذا ترك اللّه الموت يفتك بالناس؟

فأجابها بعنف:

ـ من يدرى، لعلهم فى حاجة إلى تأديب؟!

فقالت مداعبة:

ـ لا تغضب مثل اللّه..

ـ متى تهذبين ألفاظك؟

ـ عظيم، ولم خلقنا بهذا القدر من السوء؟

فضرب الرمل براحته وتساءل:

ـ من أنا حتى أجيبك نيابة عنه عز وجل؟

ثم برجاء:

ـ علينا أن نؤمن به فقط، علينا أن نضع قوتنا فى خدمته...

فانسحبت من الحديث جملة وهتفت متشكية :

ـ الأيام تمر والوحدة ثقيلة أفظع من الموت .

فحول عنها ناظريه فى صمت . إنها تنذر بالتمرد . هل تغادره هاربة بشمس الدين؟ وماذا يبقى له فى الحياة؟

شمس الدين سعيد . يزحف فوق الرمل ، يجلس ليعبث بالحصى ، يعرف النوم ولا يعرف الملل ، ينضج فى الهواء والشمس ، يجد غذاءه الطبيعى متوافرا . الحمار أيضا سعيد . يأكل ، ينعم براحة كبيرة ، يهش الذباب بذيله ، يهيم فى ملكوته مزودا بصبر لا نهائى . ويرمقه عاشور بعطف وتقدير . إنه صاحبه ورفيقه ومصدر رزقه ، وبينهما مودة راسخة .

٤٠

وتمضى الأيام . يقتربون من حافة الانهيار .

وذات يوم قال لها عقب عودته من الدراسة :

ـ يقولون هناك إن الهلاك يولى مدبرا .

فصفقت فلة وصاحت :

ـ لنرجع فى الحال . .

فقال بحزم :

ـ بل ننتظر حتى أتحقق من الخبر . .

٤١

رجعت الكارو تشق طريقها بين القبور فى الهزيع الأخير من الليل . طفحت قلوب أصحابها بالسعادة تحت النجوم وانتفضت بأمانى النجاة . ولما انعطفت إلى الممر واستقبلتها الأناشيد دمعت الأعين وقالت الأناشيد إن كل شيء سيكون كالعهد به .

ها هى ذى الحارة مستغرقة فى النوم ، الإنسان والحيوان والجماد . عجيبة فى سباتها كما هى عجيبة فى يقظتها ، ولسوف تتندر به طويلا . عند مسكن زينب توقف قلبه ولكنه أشفق من إزعاجهم ، وأجل ارتباكه ساعتين . من القلوب انسابت قبلات تلثم الجدران

والأديم والخدود وترقص بالطرب. الموت لا يجهز على الحياة وإلا لأجهز على نفسه، ولكن ثمة شعور بالندم والخجل.

وضمتهم أخيرا حجرتهم فامتلأت خياشيمهم برائحة التراب والعطن، وبادرت فلة تفتح النافذة وهى تقول:

ـ كيف يلقاك الناس يا عاشور؟

فقال بتحد كاذب:

ـ كل يعمل بإيمانه!

٤٢

قبع وراء قضبان النافذة يترقب بصبر انطواء آخر ذيول الظلام. ها هو ذا أول ضياء يتطامن فوق الجدران، ها هى ذى معالمها تتحدد كوجه صديق قديم. من أول قادم يكون؟ لعله اللبان أو خادم من بيوت الوجهاء.. سيجيبه بصوت يمزق الصمت وليلق من السخرية حظه المقسوم. ها هو ذا النور يشعشع فى الحارة وحتى دكان الفول لم يفتح.

تراجع متململا وهو يقول:

ـ الظاهر أن تعاليم الحكومة قد غيرت من عادات حارتنا..

ودس قدميه فى المركوب قائلا:

ـ سأذهب لزيارة الأولاد..

٤٣

انطلق فى خلاء، بين أبواب ونوافذ موصدة. إلى بدروم زينب. دفع الباب فانفتح، وجد نفسه فى حجرة خالية عبقة برائحة محزنة. الفراش كما هو مغطى بطبقة من التراب، والكنبة الوحيدة عليها أشياء كالخرق البالية، والمقعد الخشبى مقلوب على مسنده، وتحت الفراش تكومت الحلة والأطباق والكانون ومقطف مملوء بالفحم إلى منتصفه. والسحارة ليست خالية، توجد بها الملاءة وجلباب ومشط ومرآة ومنشفة..

ـ هاجروا؟ ولكن لم يتركون الملابس؟!

عبثا حاول أن يدفع البلوى أو أن يؤجل تجرعها . ضرب جبينه براحته . تأوه . . أجهش فى البكاء . قال إنه سيعلم من الآخرين الخبر ، وإنه لم يفقد بعد الأمل .

غادر المكان مترنحا . .

٤٤

اندفع فى الحارة حتى مطلعها عند الميدان . يا له من صمت! ويا له من خلاء! لا باب مفتوح ولا نافذة . تقدم ببطء وذهول . الخمارة مغلقة ، البيوت ، الوكالة ، القهوة ، لا نأمة ، لا قطة ، ولا كلب ، لا رائحة لحياة ، الدور التربة غارقة فى نفس الفناء .

الشمس ترسل أشعتها بلا جدوى ، هواء الخريف يتموج فى فتور وبلا هدف .

وصاح بصوته الأجش الباكى :

ـ يا هوه! يا أهل اللَّه . .

فلم يجبه أحد . لم تفتح نافذة . لم تشرئب رأس من جحر . ليس سوى صمت اليأس العنيد ، والرعب المتحدى ، والقهر الصليد .

اخترق القبو إلى الساحة فطالعته التكية كما هى دائما . رنت إليه أوراق التوت فرأى رحيقها يسيل دما . سكتت الأناشيد وتلفعت بطيلسان اللامبالاة . رنا إليها طويلا والحزن يعصف بجذور قلبه ودموعه تسيل .

وبصوت كالرعد صاح :

ـ يا درويش!

خيل إليه أن غصون الأشجار تميد من صوته ، ولكن لم يجبه أحد .

وراح يصيح دون توقف ، وبلا جدوى . .

وقهقه كالأبله ثم تساءل :

ـ منذا يسمع أناشيدكم اليوم ، ألا تعلمون؟

٤٥

قال لفلة وهو يجفف دمعه :

ـ لا حى فى الحارة!

رأى فى حمرة عينيها أنها فطنت إلى الكارثة بطريقة ما. سمعها وهى تقول منتحبة:

ـ من الخلاء إلى الخلاء يا عاشور..

وراح يتأوه، فقالت:

ـ فلنهاجر إلى مكان معمور.

فنظر إليها بحيرة وصمت فتساءلت بحدة:

ـ أنبقى فى هذه القرافة؟

فتمتم بفتور:

ـ سنتجول فوق عربتنا، لن نبقى فى البيت، أما المأوى فلا مأوى لنا إلا هنا..

صاحت:

ـ بيت فى حارة خالية؟!

فصاح بغضب:

ـ لن تبقى خالية إلى الأبد!

٤٦

لا حزن يدوم ولا فرح.

عاد عاشور إلى ممارسة عمله كسواق كارو. وكان يأخذ معه فلة وشمس الدين النهار كله وشطرا من الليل، ثم يأوون إلى البدروم فى كنف الرجل العملاق.

أدرك عاشور أن الحارة أصبحت منسية فى غمار المسئوليات التى واجهت الحكومة بسبب انتشار الشوطة فى جميع الأحياء. لا أحد يدرى به فى هذا الركن الفانى ولكنهم سيأتون، يوما ما سيأتون. سيجىء أناس من هنا وهناك وستتردد الأنفاس من جديد وترسل دفئها فى البقاع.

وكلما خرج مبكرًا ليعد العربة جذبت عينيه دار البنان. تعجبه هامتها الأرجوانية وضخامتها المهيبة وأسرارها المنطوية. ماذا بقى فى الداخل؟ ألا يوجد من آل البنان من يهمه استردادها؟

ويرسخ الإغراء فى أعماقه وينفث أحلاما سحرية. كما اشتاق يوما إلى الاطلاع على أسرار التكية. غير أن دار البنان قريبة ولا حى سواه فى الحارة. ليس بينه وبين تحقيق الحلم إلا حركة، حركة مغلفة بالأمان!

٤٧

هز منكبيه العريضين استهانة ودفع الباب فانفتح. التراب يغطى الفسيفساء. كما يغطى أرض السلاملك الرخامية. التراب هو ما يسود فى كل مكان. وقف عند البهو مرتاعا. إنه ميدان يا عاشور. سقفه عال جدًّا لا تبلغه رءوس الجان. فى وسطه نجفة مثل قبة الغورى ومن أركانه تتدلى القناديل. على جوانبه أرائك مغطاة بالسجاجيد المزركشة، كما تغطى جدرانه بالحصر الفاخرة وأطر الآيات المذهبة.

ترامى إليه صوت فلة وهى تنادى فجرى نحوها. رمقته بذهول. تساءلت:

ـ ماذا فعلت؟

فأجاب بحياء:

ـ أمنية طارئة حققتها!

ـ ألا تخشى أن يعلم أصحابه؟

ـ لا صاحب له..

وترددت تلعب بها الأهواء ثم أشارت إلى الكارو وقالت:

ـ تأخرنا..

فقال بحياء أشد:

ـ إنى أدعوك للمشاهدة يا فلة..

أمضيا النهار فى التنقل من حجرة إلى حجرة، وقفا طويلا فى الحمام والمطبخ، جربا الجلوس على دواوين ومقاعد وأرائك، طفر الجنون من عينى فلة الجميلتين. قالت:

ـ نبيت ليلتنا هنا..

صمت عاشور وهو يعانى ضعفا أشد فقالت:

ـ نستحم فى الحمام العجيب، نرتدى ثيابا جديدة، وننام فوق هذا الفراش، ليلة واحدة نعود بعدها إلى الكارو..

٤٨

لكنها لم تكن ليلة واحدة

كانا يغادران الدار فجرا ثم يتسللان إليها مع الليل. فى النهار تمضى بهما الكارو من حى إلى حى، يتناولان طعامهما عدسا وفولا وطعمية، وفى الليل يرفلان فى الثياب القطنية والحريرية، يستريحان فى السلاملك الداخلى أو فوق الدواوين، وينامان فوق فراش وثير يصعد إليه بسلم قصير من الآبنوس. وتتحسس فلة الستائر والوسائد والطنافس براحتيها وتهتف:

ـ لم تكن حياتنا إلا كابوسا..

وتتبدى لهما الحارة، فى الليل من المشربية ظلمة وهياكل أشباح غارقة فى التعاسة فيتمتم عاشور فى أسى:

ـ حكمة اللّٰه تعز على العقول!

فتجيبه بتحد:

ـ ولكنه يهب الرزق لمن يشاء..

ويبتسم متسائلا حتى متى يدوم هذا الحلم؟ ولكنها كانت تفكر فى أمور أخرى فقالت:

ـ انظر إلى التحف حولنا، لا شك فى أنها غالية الثمن، لم لا نبيع بعضها لنأكل مثلما نعيش؟!

فقال بإشفاق:

ـ ولكنه مال الغير..

ـ لا صاحب له كما ترى، هو رزقنا من اللّٰه..

وتفكر عاشور مليا. زحف عليه الإغراء كما يزحف النوم على المكدود. وصمم على أن يجد لأزمته حلا. واهتدى إلى حكمة جديدة فقال:

ـ المال حرام ما لم ينفق فى الحلال!

فقالت متوثبة للخصام:

ـ هو رزقنا يا عاشور، وما نريد إلا أن نأكل..

ومضى يذرع السلاملك حائرا، ثم تمتم:

ـ هو حلال ما دمنا ننفقه فى الحلال!

٤٩

وبمرور الأيام هان كل شيء، فأصبحت إقامة عاشور وأسرته بدار البنان دائمة. سرح الحمار فى الفناء الخلفى، ووووريت الكارو فى البدروم. خطر عاشور فى الدار مثل الوجهاء، بعمامة مقلوظة وعباءة فضفاضة، وعصا ذات مقبض ذهبى. وتجلت فلة فى نضارة النعيم كأجمل هانم عرفتها الحارة. أما شمس الدين فكان يبول على سجاد شيرازى يقدر ثمنه بالمئات. وشاع الدفء فى المطبخ، وتطايرت منه روائح اللحوم بأنواعها.

وبمضى الأيام أخذت الحياة تتسرب إلى الحارة. جاء حرافيش فآووا إلى الخربات. وكل يوم يعمر بيت بأسرة جديدة. ومضت الدكاكين تفتح أبوابها. ترددت أنفاس الحياة، ارتفعت الحرارة، تجاوبت الأصوات، هلت الكلاب والقطط، عادت الديكة تصيح فى الفجر، ولم تبق خالية إلا دور الأغنياء.

وعرف عاشور بوجيه الحارة الوحيد. يشار إليه بإكبار، ويقال بإخلاص:

ـ سيد الحارة..

وشاع أنه الوحيد الذى نجا من الشوطة، فأطلق عليه «عاشور الناجى». وتحمس الجميع لإغداق الثناء عليه لجوده وإحسانه وعطفه. كان راعى الفقراء، يتصدق عليهم، ولم يقنع بذلك فكان يشترى الحمير ويسرح بها العاطلين، أو يبتاع لمن يريد عملا السلال والمقاطف وعربات اليد، حتى لم يبق عاطل واحد فى الحارة عدا العجزة والمجاذيب.

الحق أنه لم يعرف عن وجيه من قبل مثل ذلك. لذلك رفعوه إلى مرتبة الأولياء، وقالوا إنه لذلك نجاه اللّه من دون الآخرين.

وهدأ عاشور واستكن ضميره الحى. وشرع فى تحقيق أحلام كانت تراوده من قبل، فجاء بعمال لتنظيف الساحة والممر، وتطهيرها من تلال الأتربة والزبالة، وشيد حوض مياه الدواب، والسبيل، والزاوية، تلك المعالم التى رسخت فى وجدان حارتنا مثل التكية والقبو والقبور والسور العتيق، وبها وبه صارت الحارة جوهرة الحى كله.

٥٠

ترامت إلى أذنيه حركة غريبة آتية من ناحية الخمارة!

كان فى طريقه إلى الحسين فتوقف. رأى عمالا يرممون المكان ويعدونه لحياة جديدة. مال نحو المدخل ثم تساءل بصوت مرتفع:

ـ لحساب من تعملون؟

فجاءه صوت من ركن مظلم إلى يمين الداخل يقول:

ـ لحسابى أنا يا سيد الحارة!

وبرز درويش من الظلام فتراءى أمامه. دهمته قشعريرة مفاجأة مختلطة بوثبة غضب. هتف:

ـ أنت حى يا درويش!

فقال حانيا رأسه بامتنان:

ـ بفضلك يا سيد الحارة!

ورآه فى حاجة إلى إيضاح فقال بنبرة لم تخل من سخرية:

ـ عملت بحكمتك فهاجرت إلى الخلاء، لم أكن بعيدا عنك طيلة الوقت..

فصمم على مواجهة الموقف بالقوة الضرورية فقال:

ـ لن أسمح بفتح البوظة!

ـ إنك سيد الحارة ووجيهها الأوحد ولكنك لست القانون ولا الفتوة!

فسأله بحنق:

ـ لم لا تذهب إلى أى حارة أخرى؟

ـ هنا وطنى يا سيد الوجهاء..

وتبادلا نظرة طويلة حتى قال درويش:

ـ بل إنى أتوقع أن يشملنى إحسانك العميم!

ها هو ذا يخطط للابتزاز! وأرعشه الغضب فسحبه من يده إلى الخارج ثم قال له:

ـ لعلى لا أستطيع أن أغلق خمارتك ولكنى لن أخضع لأى تهديد..

ـ ولكنك تجود على كل محتاج؟!

فى سبيل الخير أعطى لا فى سبيل الشر .

فقال بنبرة ذات مغزى :

ـ إنك حر فى «مالك» يا سيد الحارة !

وضغط على «مالك» ضغطا موحيا فرفع عاشور منكبيه استهانة وقال :

ـ قد تسول لك نفسك أن تشى بى ، وأن تفشى سرى بين الناس ، هذا ممكن يا درويش ، ولكن أتدرى ماذا ستكون عواقب ذلك؟

ـ تهددنى يا عاشور؟

ـ أعجنك ورأس الحسين حتى لا يعرف لك رأس من قدم !

ـ تهددنى بالقتل؟

ـ وأنت تعرف أننى على ذلك قادر !

ـ من أجل أن تستأثر بمال لست صاحبه؟

ـ إنى صاحبه ما دمت أنفقه فيما ينفع الناس . .

تبادلا نظرة طويلة مرة أخرى . تجلى التخاذل فى عينى درويش ، فقال ملاينا :

ـ ما أريد إلا أن تجود على مثل الآخرين . .

ـ ولا مليم لأمثالك . .

وساد صمت فرجع عاشور يتساءل :

ـ ماذا قلت؟

فتمتم درويش بأسف :

ـ ليكن ، رغم أننا أخوان فسنعيش كالغرباء !

٥١

تلقت فلة الخبر بانزعاج شديد حتى تجهم وجهها العذب بالتعاسة ثم قالت برجاء :

ـ غيّر معاملتك له ، أعطه ما يطمع فيه ، أبعد عنا شبح الغدر .

فقال عاشور مقطبا :

ـ ألم يطهرك هواء الخلاء من الضعف؟

فلوحت له بخمار من الحرير الدمشقى وقالت :

ـ أخاف على هذا . .

فحرك رأسه بحدة فقالت :

ـ لم يعد الأمان كما كان يا عاشور . .

فقال باستهانة :

ـ إنه شرير حقّا ولكنه جبان . .

٥٢

وأشرقت الشمس من جديد فى أعقاب ليلة عاصفة باردة . ها هو ذا دكان شيخ الحارة يفتح أبوابه ، ويحل به شيخ جديد عم محمود قطائف . أدرك الناس أن الحكومة أخذت تفيق من هجمة الموت فتعين أحياء مكان من هلك من عمالها .

وتفاءل كثيرون بالحدث ولكنه كان ذا رجع مختلف فى دار عاشور . انقبض قلب عاشور لا شك ، وفزعت فلة فضمت شمس الدين إلى صدرها وتمتمت :

ـ لا شىء يبتسم .

فتساءل عاشور فى قلق :

ـ أليس ما مضى قد مضى ؟

ـ ولكنك تشاركنى مخاوفى يا عاشور !

ـ ماذا جنينا ؟ وجدنا مالا بلا صاحب فأنفقناه فيما ينفع الناس . .

ـ ألا ينذر وجه ذلك الرجل بشر ؟

فغضب عاشور وصاح :

ـ فلنثق بصاحب المال الأصلى جل جلاله . .

فهدهدت فلة شمس الدين وقالت :

ـ أما أنا فأرغب فى أن يمتد نهر الخير حتى يسبح فيه هذا الولد !

٥٣

وقرر عاشور أن يواجه التحدى بلا تسويف .

مال فى طريقه إلى دكان شيخ الحارة ليحييه . استقبله الرجل بحرارة وهو يقول :

ـ أهلا بسيد الحارة وراعيها . .

فشاع السرور فى صدر عاشور وقال :

ـ أهلا بشيخ حارتنا !

وإذا به يقول :

ـ أتدرى يا معلم أننى كنت على وشك الذهاب للقائك؟

فخفق قلبه ولكنه قال :

ـ أهلا بك فى أى وقت .

ـ أجدنى فى حاجة إلى رأى الناجى أحق الناس بالكلام عن الحارة الهالكة .

٥٤

هكذا دخل محمود قطائف دار عاشور . وجلسا متجاورين على ديوان بالبهو على حين توارت فلة وراء الباب الموارب . احتسيا القهوة وهما يتبادلان كلمات المجاملة حتى قال الرجل :

ـ بحاجة أنا إلى رأى رجل يعده الجميع ولى نعمتهم !

فقال عاشور بفتور :

ـ فى خدمتك يا شيخ حارتنا . .

فتريث الرجل قليلا ثم قال :

ـ تكونت لجنة منذ قليل لجرد دور الأغنياء ومحسوبك عضو فيها . .

ـ ليرحم اللّه من مات .

ـ وقد تبين لنا أن الدور قد نهبت يا صاحب النجاة !

ـ ولكن لم يكن بالحارة حى !

ـ ذاك ما كشف عنه الجرد .

فقال عاشور بحنق :

ـ إنه لغريب ، أسأل اللّه أن يكون المال قد وقع فى يد من يستحقونه !

ـ يستحقونه؟

ـ أعنى الفقراء من أبناء حارتنا .

فابتسم محمود قطائف وقال :

ـ هذه نظرية ولكن للحكومة نظرية أخرى .

ـ وما نظرية الحكومة؟

ـ الدور تعتبر ملكا لبيت المال وسوف تعرض للبيع فى المزاد . .

فحدجه عاشور بحدة وسأله :

ـ وماذا عن النهب؟

فهز منكبيه قائلا :

ـ رأت اللجنة أن تتغاضى عنه منعا لتعريض الأبرياء للتهم!

أدرك عاشور أن اللجنة قد نهبت الدور، ورغم شعوره بالازدراء فقد استعاد الكثير من طمأنينته، وقال مداعبا :

ـ لعل اللجنة تعمل بنظريتى يا شيخ محمود .

فقال شيخ الحارة بإشفاق :

ـ تبقى مشكلة واحدة .

فتساءل عاشور بعينيه وهو يشعر بأنه وافى شاطئ الأمان . وقال شيخ الحارة :

ـ تريد اللجنة أن تطلع على وثائق ملكيتك لهذه الدار، وبذلك تنتهى مهمتها . .

اغتيل الأمان بطعنة غادرة، فاختطفت عينيه نظرة من الباب الموارب، وتساءل :

ـ أثمة شك فى ملكيتى لها؟

ـ معاذ اللّٰه ولكنها الأوامر!

فقال بحدة بصوته الخشن :

ـ أريد أن أعرف ما تعنيه أوامرك؟

فقال محمود قطائف بصوت منخفض :

ـ اغتصبت بعض دور الهالكين فى الأحياء المجاورة!

وغرقا معا فى صمت ثقيل مشحون بالتوجس والريب حتى رفع عاشور صوته قائلا :

ـ هبها فقدت فى فوضى الموت والهجرة؟!

فتمتم شيخ الحارة بأسف :

ـ ستكون ورطة أى ورطة!

فصاح عاشور غاضبا :

ـ ورطة! ألم تقنع اللجنة بما نهبت؟

فارتعد الرجل من شدة الصوت وقال كالمعتذر :

ـ ما أنا إلا عبد الأمر . .

ـ عندك معلومات فصرح بما فى نفسك . .

ـ المسألة أن عضوا من أعضاء اللجنة أعلن بعض التساؤلات . .

ـ عليه اللعنة . .

ـ الوثائق تحسم كافة الريب . .

ـ ولكنها ضائعة !

فقال بلين وخوف :

ـ ستكون ورطة يا معلم عاشور . .

عند ذاك اقتحمت الحجرة فلة ثائرة وهتفت مخاطبة شيخ الحارة :

ـ لندع اللف والدوران .

فنهض الرجل مرتبكًا فقالت بصراحة مثل ضربة نبوت :

ـ لن يصعب عليك صعب فلنسو الأمر فيما بيننا . .

فقال الرجل بأسف :

ـ لو كان الأمر بيدى لهان !

ونهض عاشور محتدا وهو يقول :

ـ لتكن إرادة اللّٰه . .

٥٥

تحدث أمور فى السر والعلانية . الحارة الغارقة فى نشاطها الدائب لا تفطن لها . قليلون جدًا من يلاحظون أشياء دون أن يرتبوا عليها نتائج ذات بال . والقلوب ثملة بالآمال مؤمنة بالضياء .

وذات صباح خرج عليهم عاشور الناجى منكس الرأس . بجسمه العملاق ولكنه منكس الرأس ومكبل اليد بقيد حديدى أيضا . هو عاشور الناجى دون غيره . يحف به جنود ، يتقدمهم ضابط ويسير محمود قطائف فى ذيل الموكب .

انتشر شرر الذهول الغاضب بين الناس فشدهم من الدكاكين والبيوت وملأ بهم النوافذ .

ـ ماذا نرى؟!

ـ ماذا وقع للدنيا؟!

ـ الرجل الطيب فى الحديد؟!

وهتف الضابط بحدة:

ـ أوسعوا الطريق..

ولكنهم تجمعوا وراء الموكب وتبعوه كالظل حتى صاح الضابط مرة أخرى:

ـ الويل لمن يقترب من القسم!

وجعل درويش الخمار يتساءل عن معنى ما يرى ويرفض تصديقه، وبصوت مرتفع قصد أن يسمعه عاشور قال:

ـ ورحمة أخى ما خرجت من لسانى كلمة واحدة..

وتبدت فلة آية فى الجمال والحزن، متوركة شمس الدين، حاملة بقجة، محمرة العينين من البكاء..

٥٦

وكانت محاكمة عاشور من الأحداث المستعصية على النسيان. شهدها جمع غفير من الحارة وخفقت لها القلوب. لأول مرة تحب الحارة وتعشق. ووقف عاشور فى القفص مزهوا بحرارة القلوب من حوله. ولعل القضاة أعجبوا بعملقته، وبصورة الأسد المرسومة فى صفحة وجهه. ولم ينس الناس صوته الأجش وهو يقول:

ـ لست لصا، لم أعتد على أحد صدقونى، كان الموت قد أهلك الحارة، رجعت من الخلاء فوجدتها خالية، وجدت الدار بلا صاحب، ألا تستحق أن توهب للوحيد الذى نجا؟ ولم أستأثر بالمال لنفسى، اعتبرته مال اللّه، واعتبرت نفسى خادما له فى إنفاقه على عباده، فلم يعد يوجد جائع ولا متعطل، ولم يعد ينقصنا شىء، فعندنا السبيل والحوض والزاوية، لماذا قبضتم علىَّ كاللصوص؟ لماذا تعاقبوننى؟

وقال الناس آمين.. وحتى القضاة ابتسم باطنهم طوال الوقت. وحكموا عليه بعام واحد.

٥٧

رجعت فلة إلى البدروم وهى لا تملك مليما واحدا وجدت رعاية صادقة. جاءها الطعام، وحمل إليها الماء والوقود. وعبق مسكنها بالكلمات الطيبة وانحسار الستر عن سر عاشور لم ينل من حب الناس له أو احترامهم، بل لعله خلق منه أسطورة أغنى بالبطولة والجود.

ولكنها قررت ألا تعيش على جود المحسنين، وأن تعمل فى سوق الدراسة بعيدا عن الأعين.

واعترض طريقها درويش وقال لها بخشوع:

ـ قلبى معك يا أم شمس الدين..

فقالت له بحدة:

ـ اشمت بنا ما تشاء يا درويش!

فقال لها بحرارة:

ـ لا دخل لى فيما كان ومحمود قطائف شاهد على ذلك..

ـ ولكنه جاء على هواك..

ـ سامحك اللّه.. ماذا أفيد من سجنه؟!

ـ لا تخف فرحك يا درويش.

فقال متوددا:

ـ سامحك اللّه، دعى الخصام واقبلى مشورتى..

ـ مشورتك؟

ـ لا يصح أن تعملى فى سوق الدراسة وحدك..

فسألته ساخرة:

ـ عندك عمل أفضل؟

ـ تحت رعايتى أفضل من العمل وحدك فى سوق!

ـ فى البوظة؟!

ـ مع الحفظ والصون!

فصاحت به:

ـ ملعون أنت فى الدارين!

وغادرته بلا تحية.

وفى المساء ترامت إليها أنباء بأنه يكون عصابة لينصب نفسه فتوة للحارة...

٥٨

ولما زارت عاشور ورأته فى لباس السجن اغرورقت عيناها. وتواثب شمس الدين مرحا حتى تلقى قبلة أبيه من وراء الحاجز. وسألها عن حالها فقالت:

ـ أعمل فى السوق والحال معدن..

وبدا ممتعضا متمردا، وقال:

ـ الظلم أقبح من السجن نفسه..

وأكثر من مرة قال:

ـ لا أستحق العقاب..

وبلغت نبرته غاية الاحتجاج وهو يقول:

ـ ليس بين المساجين من يماثل درويش فى شره..

فقالت ساخرة:

ـ ألا تعلم؟ لقد دعانى إلى العمل عنده!

ـ الوغد، وماذا عن شيخ الحارة؟

ـ يعاملنى باحترام..

ـ وغد آخر ولص حقيقى.

ـ أحمل إليك تحيات لا عد لها..

ـ مباركة تحياتهم، وكم أتوق إلى سماع الأناشيد..

ـ سترجع إلى سماعها، أما الزاوية والسبيل والحوض فأصبحت تذكر مقرونة باسمك..

ـ بل يجب أن تقرن باسم صاحبها الحقيقى جل شأنه..

وابتسمت فلة بفتور وقالت:

ـ من أخبارنا التعيسة أن درويش أصبح فتوتنا..

فقطب عاشور وتمتم:

ـ لن ينفعه ذلك . .

وعجبت فلة فقد خيل إليها أن عاشور يزداد صحة ونضارة . .

٥٩

لم ينقطع الناس عن التفكير فى عاشور الناجى طيلة مدة سجنه . انتظر الحرافيش على لهف يوم عودته ، وعمل آخرون لذلك اليوم ألف حساب . حصن درويش نفسه بالأتباع ، وأغدق عليهم النقود من حصيلة الإتاوات المفروضة على العباد . وشجعه على ذلك محمود قطائف قائلاً :

ـ إن الكثرة تغلب الفرد مهما تكن قوته .

وأيده الأعيان خوفا من حب الحارة للغائب ، حتى اتفق الرأى على إخضاعه أو اغتياله .

وتتابعت الفصول ، وظلت التكية تشدو بالأناشيد الغامضة ، حتى جاء اليوم الموعود .

وتلفت شيخ الحارة فيما حوله وغمغم حانقا :

ـ ما شاء اللَّه !

رأى الأعلام ترفرف فى أعالى الدكاكين والأسطح ، رأى الكلوبات تعلق ، رأى الأرض تفرش بالرمل الفاقع ، سمع موجات الأصوات وهى تهدر بتبادل التهانى . عاد يغمغم :

ـ كل ذلك من أجل عودة لص من سجنه !

ورأى درويش قادما فسأله :

ـ هل أعددت العدة لاستقبال الملك ؟

فهمس درويش بصوت مضطرب :

ـ أما علمت بما حدث ؟

وقص عليه حكاية العصابة ، كيف انفضت من حوله وذهبت إلى الميدان لاستقبال العائد فلم يبق معه رجل واحد . اصفرّ وجه شيخ الحارة وتمتم :

ـ الأوغاد !

وهمس فى أذن درويش :

ـ علينا أن نعيد التفكير لمواجهة الخماسين . .

فمضى درويش وهو يقول :

ـ إنه الفتوة الجديد بلا منازع . .

ومن الميدان ترامى طبل وزمر . .

وفى الحال خرج إلى الحارة أهلها نساء ورجالا وصغارا . وتهادت كارو من ذوات العجلات الأربع قد تربع فى وسطها عاشور تتقدمها الزفة ، ويحدق بها رجال العصابة .

صفق الناس وهللوا ورقصوا ، ومن شدة الزحام قطعت العربة المسافة بين مدخل الحارة والزاوية فى حوالى الساعة .

وتواصل الرقص والطرب حتى فجر اليوم التالى .

خـــاتمـــة

وجد عاشور الناجى نفسه فتوة للحارة دون منازع . وكما توقع الحرافيش أقام فتونته على أصول لم تعرف من قبل . رجع إلى عمله الأول ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كل تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه ، وبذلك محق البلطجة محقا . ولم يفرض إتاوة إلا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين . . وانتصر على فتوات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل ، فحف بها الإجلال خارج الميدان كما سعدت فى داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة .

وكان يسهر ليله فى الساحة أمام التكية ، يطرب للألحان ، ثم يبسط راحتيه داعيا : «اللهم صن لى قوتى ، وزدنى منها ، لأجعلها فى خدمة عبادك الطيبين»!

* * *

شمس الدين
الحكاية الثانية من ملحمة الحرافيش

١

فى ظل العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة فى زوايا النسيان. تزدهر القلوب بالثقة وتمتلئ برحيق التوت. ويسعد بالألحان من لا يفقه لها معنى، ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية؟

٢

لأول مرة تستيقظ فلة فلا ترى عاشور جنبها يغط فى نومه. قلقت عيناها المثقلتان بالنوم وانقبض صدرها.. استعاذت باللّه من همسات الغيب فى القلب العاشق، وأسفر عالمها العذب عن خلاء. أين الشاب العجيب البالغ الستين من عمره؟ القوى النشيط الفاحم الشعر؟ هل غلبه النوم فى سهرته الليلية أمام التكية؟

ونادت شمس الدين حتى فتح عينيه متذمرا. طالعها بوجهه الجميل متسائلا، فقالت له:

ـ أبوك لم يرجع من سهرته!

ولما استوعب قولها أزاح عنه الغطاء، ونهض بجسمه الرشيق المائل إلى الطول، وبقلق غمغم:

ـ ماذا حدث؟

فقالت تتحدى هواجسها:

ـ لعل النوم قد غلبه..

تجلت رشاقته أكثر وهو يرتدى جلبابه، ووسامته المكللة ببراءة الشباب الأول. ومضى وهو يقول:

ـ كيف يطيب السهر فى فجر الخريف؟!

٣

فى الجو نسيم رطيب، وذيول شابورة تتلاشى فى المجهول، وفى الجنبات تتدفق حياة البشر. عما قليل سيلقى أباه. سيجده مستلقيًا بلا غطاء. سيعاتبه بما له عليه من دالة.

واخترق القبو إلى الساحة. سبقته عيناه وهو يتأهب لملحمة اللقاء. ولكنه وجد المكان خاليا. جال ببصره فيما حوله فى صمت وقهر. الساحة والتكية والسور العتيق ولا أثر لإنسان. فى هذا الموضع يجلس العملاق عادة، فأين ذهب؟

وألقى على التكية نظرة حانقة. هى شاهد لا يدلى بشهادته. وتساءل مرة أخرى: «أين ذهب؟».

٤

لعله يجد الجواب عند غسان أو دهشان أقوى مساعدين للرجل. ولكنهما تلقيا السؤال بعجب، وقالا إنه يذهب إلى الساحة قبيل منتصف الليل فيمكث ساعة أو أكثر، لا يتقدم ولا يتأخر. وسأل شمس الدين:

ـ ألم يكن هناك ميعاد به ارتبط؟

فنفيا علمهما بأى شىء عدا ما ذكر.

وبعد تردد قصد شيخ الحارة محمود قطائف فتلقى الرجل الخبر بدهشة، وراح يفكر ويفكر ثم قال:

ـ لا تقلق لغياب الأسد، عذره معه، وسيرجع قبل الضحى..

٥

وخذلت فلة إرادتها فهتفت:

ـ أفزع إليك يا ربى من قلبى ومخاوفه..

وجلس شمس الدين بين رجال أبيه فى القهوة يتناقشون وينتظرون، ينظرون نحو القبو تارة ونحو مدخل الميدان تارة أخرى. وانتشرت سحائب الخريف مفضضة بالنور المستتر. وانتصف النهار ولم يظهر لعاشور أثر. عند ذلك تفرق الرجال فى شتى الأنحاء وراء شهادة أو خبر. وعرفت الحارة الواقعة فاشتعلت بها، وشغلت بها عن الرزق والكدح.

٦

ونما الخبر إلى الأعيان والتجار فدهمهم الذهول. وتفشى فى جوهم سحر كالمعجزة. أجل فعندما تستحكم القبضة ولا يوجد منفذ واحد للأمل، تؤمن القلوب القانطة بالمعجزة. ولولا الإشفاق من خيبة عاجلة لأسدلوا الستائر وجهروا بالشماتة والفرح. ماذا ينقذهم من سطوة الجبار وشبابه المتجدد وإرادته الحديدية إلا معجزة؟! فليدم الغياب، ولتطو الأسطورة، ولينقلب الوضع إلى الأبد!

وسعى درويش الخمار إلى محمود قطائف وسأله:

ـ أين ذهب الرجل؟

فقال شيخ الحارة بنبرة ساخرة:

ـ وهل أنا على الغيب مطلع؟

فحرّك درويش رأسه الأبيض وتمتم:

ـ ثمة احتمال لا يجوز أن يغيب وهو ضعفه المباغت أمام النساء!

فابتسم محمود قطائف بازدراء ولم يعلق فواصل الآخر:

ـ كنت أحسب له للبقاء مائة سنة!

فغمغم شيخ الحارة:

ـ ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

٧

وهبط المساء، وساقت أمواج الليل برودة غير متوقعة، ولم يظهر لعاشور الناجى أثر. وغشيت الكآبة القهوة والبوظة والغرز. ولم ينم من أسرته أو رجاله أحد. وتأوهت فلة قائلة:

ـ ما أكثر الرجال! وما أقل الحيلة!

فتساءل شمس الدين بحزن:

ـ هل أغفلنا بابا أو تهاونا فى عمل؟

فتركت دموعها تسيل وقالت:

ـ قلبى رفض من بادئ الأمر أن يخدع بالأمل..

فصاح بحنق:

ـ إنى عدو القلوب الضعيفة المتشائمة، ما كان أبى لعبة ليختطف، ولا كان غرا ليمضى إلى شرك بلا حذر، وما يحزننى إلا انسداد السبل..

٨

وفى ضحى اليوم التالى اجتمع رجال عاشور فى القهوة، بينهم شمس الدين وفلة، وانضم إليهم محمود قطائف شيخ الحارة وحسين قفة إمام الزاوية. لفتهم الحيرة جميعا وغصت قلوبهم بالنذر. وساورتهم مخاوف ولكن لم يجرؤ أحد على التصريح بما يساوره. وقال دهشان:

ـ معلمنا لم يخرج عن عاداته مرة طوال عشرين سنة.

فقال الشيخ حسين قفة:

ـ فى الأمر سر!

فقال غسان:

ـ لا يخفى عنا سرا.

وقالت فلة:

ـ ولا عنى من باب أولى.

فتساءل حسين قفة:

ـ ألا يكون قد انضم إلى التكية؟

فارتفع أكثر من صوت يقول:

ـ خيال لا يقبله عقل..

فقال محمود قطائف:

ـ قلبى يحدثنى بأنه سيظهر فجأة كما اختفى فجأة . .

فقالت فلة بنبرة باكية :

ـ لا يوجد أمل !

وعند ذاك صاح دهشان :

ـ لعله الغدر !

وخفقت القلوب وتطاير من الأعين الشرر ، فعاد دهشان يقول :

ـ حتى الأسد يجرى عليه الغدر . .

فصاح محمود قطائف :

ـ الصبر الصبر يا رجال ، لا يوجد بحارتنا كاره واحد لخير من حملت الأرض . .

ـ يوجد كارهون وغادرون !

ـ احذروا الفتنة واصبروا واللّه شهيد . .

٩

وكان درويش يقدم قرعة لسكير ، فقبض الرجل على ذراعه وهمس فى أذنه :

ـ سمعت الرجال وهم يقولون إنه لا يغدر بعاشور إلا درويش !

ففزع الخمار وهرع إلى دكان محمود قطائف وأفضى إليه بما سمع وهو يرتعد من الذعر حتى ضاق به شيخ الحارة وقال له بحدة :

ـ لا تفعل كالنساء .

ـ كيف أتهم وأنا لا أغادر البوظة ليلا ونهارا ؟ !

فتفكر شيخ الحارة مليا وقال له :

ـ اهرب . . لم يعد أمامك إلا الهرب .

وقد اختفى درويش زيدان فجأة ، فلم يعد يعرف إن كان هرب أم قتل ، ولم يسأل أحد عنه ، وتجاهله محمود قطائف تمامًا ، وما لبث أن حل محله عليوة أبو راسين بياع المنزول وكأن درويش لم يكن . . .

١٠

ومضت الأيام لا تحمل بصيصا من أمل. تسير بطيئة ثقيلة مسربلة بالكآبة. ويئس كل قلب من أن يرى من جديد عاشور الناجى وهو يمضى بهيكله العملاق، يكبح المتجبرين ويرعى الكادحين وينشر التقوى والأمان.

وترتدى فلة الحداد، ويبكى شمس الدين بلا حساب، ويغرق الأعوان فى الحزن والتفكير. وقد اعتقد قوم أن درويش غدر بالرجل فى مجلس السماع ثم سحبه إلى القرافة فدفنه فى قبر مجهول. وأصر أناس رغم اليأس على أنه سيرجع ذات يوم هازئا من كافة الظنون. ومن شدة الحزن تصور آخرون أن اختفاءه كرامة من كرامات الأولياء.

ـ ومضى سحر العادة القاسى يفعل فعله بالخطب، يعاشره ويألفه ويهونه، ويدفعه فى تيار الأحداث اللانهائية فيذوب فى عبابها.

لقد اختفى عاشور الناجى.

ولكن الزمن لن يتوقف وما ينبغى له..

١١

وكان لا بد من اختيار فتوة جديد للحارة قبل أن ينفرط نظامها أو تدوسها أقدام الحارات المتربصة.. وانحصر الاختيار بين غسان ودهشان باعتبارهما أقوى الرجال وألصقهما بالناجى، ولم يلتفت إلى شمس الدين لحداثة سنه ونعومة مظهره. وانحاز رجال لكل رجل فتقرر اتباع ما يتبع عادة فى هذه الأحوال. وهو أن يتصارع المتنافسان فى صحراء المماليك، ثم يتوج الفائز فتوة للحارة.

تلقت فلة تلك الأنباء، ورأت شمس الدين وهو يرتدى جلبابه استعداداً لشهود المعركة ضمن الأتباع ففاضت دموعها وراحت تندب حظها. وضاق الشاب بذلك فقال:

ـ لا يمكن أن تعيش الحارة بلا فتوة.

فتساءلت بحدة:

ـ وهل تخلف القطط الأسود؟

ـ لا حيلة أمام قضاء اللّه.

ـ سوف ترتد الفتونة إلى عهد البلطجة والطغيان .

فقال الشاب بحرارة :

ـ ليس من اليسير النكوص عن تراث الناجى . .

فتنهدت وقالت وهى تخاطب نفسها :

ـ أمس كنت رغم الفقر السيدة ، ومن الغد سأكون الأرملة الحزينة المهجورة ، أبتهل للمجهول بلا أمل ، أحلم بالفراديس المفقودة ، أنزوى عند الأفراح ، أخاف الظلام ، أحذر الرجال ، أتجنب النساء . ولا صديق إلا الإهمال والنسيان . .

فقال بعتاب :

ـ ولكنى لم أمت بعد يا أمى !

ـ فليمد اللّه فى عمرك حتى تلعن الحياة ، ولكنه تركك يافعا ، سواق كارو ، لا مال ولا جاه ، ولا عملقة تضمن لك الفتونة . .

فتمتم فى كآبة :

ـ آن لى أن أذهب ، أستودعك الحى الذى لا يموت .

وتأبط عصا أبيه العجراء وذهب .

١٢

نشأ شمس الدين فى مسكن متقشف فلم يعرف من الحياة إلا البساطة والكدح . لم تحتفظ ذاكرته بصورة واحدة من دار البنان السامقة . وكان عاشور يتملى وجهه الوسيم . المقتبس من وجه أمه ، ويقول باسما :

ـ لن يصلح هذا الولد للفتونة . .

وأرسله إلى الكتاب ، وسكب فى قلبه أعذب ألحان الحياة ، ولم يهمل جانب القوة فعلمه ركوب الخيل واللعب بالعصا والمصارعة وإن لم يفكر قط فى إعداده للفتونة . ولما درج شمس الدين فى الوعى بنفسه وبما حوله . أدرك سطوة أبيه غير المحدودة ، وسرعان ما ارتطم بالتناقض الحاد بين «عظمته» وبين حياته الفقيرة الكادحة . وقال له مرة عند قدوم عيد :

ـ أريد يا أبى أن أرتدى عباءة ولاثة . .

فقال عاشور بحزم :

ـ ألا ترى أن أباك لا يرتدى إلا الجلباب؟

وكانت فلة تضيق بالحياة مثل ابنها، وكانت تقول لعاشور على مسمع من شمس الدين:

ـ لو أخذت من الإتاوات ما يضمن لك حياة كريمة ما لامك أحد..

فيقول لها عاشور:

ـ بل عليك أن تربى الدجاج لتهبى حياتنا شيئًا من اليسر المشروع..

ثم يقول مخاطبًا شمس الدين:

ـ لا قيمة لبريق فى هذه الحياة بالقياس إلى طهارة الضمير وحب الناس وسماع الأناشيد..!

ودربه على الكارو، وتبادلا العمل عليها، ولما شارف الستين تركها له أكثر الوقت. وكان شمس الدين يعجب بأبيه ويجله، ويحن فى الوقت ذاته إلى الحياة السائغة، ويؤيد أحيانًا أمانى أمه الجميلة، وبدافع من هذه الرغائب الكامنة قبل بسلامة نية «عيدية» قدمها له صاحب الوكالة، فبادر إلى شراء عباءة ولاثة ومركوب، وخطر مزهوا بها صباح يوم العيد. وما إن رآه عاشور حتى أخذه من تلابيبه إلى البدروم ثم لطمه لطمة دار بها رأسه وصاح به:

ـ يتسللون إلىّ من ثغرة ضعفك بعد أن أعيتهم إرادتى الصلبة..

وألزمه برد الملابس إلى البائع ثم برد العيدية إلى صاحب الوكالة. وأدرك شمس الدين أنه لا قبل له بغضب أبيه. وخجل من نفسه، وخذلته أمه فلم تجرؤ على الدفاع عنه أو الوقوف إلى جانبه.

ـ ولكن الحب ـ لا العنف ـ كان ما يربط شمس الدين بأبيه، فكان تلميذه ونجيه وصديقه، وتشبع بكلماته وبمثاله وبتقواه ونزوعه إلى الألحان والنجوم، ومضى بالكارو فخورا، وقاهرا لنزعات الضعف التى تومض بين الحين فى أعماقه.

ورغم الفقر كان الحب والإجلال يحفان بهما حيثما ذهبا فهل يستمر الحال كما كان؟

ها هى ذى أمه ترنو إلى الغد بأعين طافحة بالهواجس!

١٣

فى صحراء المماليك الوحشية المترامية لاح الرجال كحفنة من رمال. أرض الهاربين وقطاع الطرق، مأوى الجن والزواحف، مقبرة العظام المطمورة. غسان يتقدم هلالا من

رجال، يقابله غير بعيد دهشان ورجاله. الأعين تترامق تحت أشعة شمس محرقة وتتلقى من لظى الرمال جحيما.. الخلاء المحيط يرنو بعين باردة ساخرة قاسية منذرا المنهزم بالضياع الأبدى.

أقبل شمس الدين هادئا، اختار موقفه فى مركز بين الجماعتين، معلنا حياده، ومعلنا فى الوقت ذاته استعداده للانضواء تحت راية المنتصر. ورفع يده تحية وقال بصوته الجهورى الخشن الذى لم يرث عن عاشور سواه:

ـ سلام اللّه على رجال حارتنا.

فتمتمت شفاه جافة من التحفز والإصرار:

ـ سلام اللّه على ابن العظيم الطيب.

وتذكر شمس الدين أن أحدا من الفريقين لم يسع إلى ضمه إليه ولا إلى نيل بركة أمه. أجل ففى ميدان الصراع الوحشى لا يكترث بالنساء ولا باليافعين..

وانضم شعلان الأعور إلى موقف شمس الدين، وهو فتوة متقاعد بالكبر ويقوم من الجماعة مقام الناصح الأمين. قال شعلان يمهد للمصارعة:

ـ سيبدأ الصراع بين غسان ودهشان. فليتذكر كل واحد من الجماعة واجبه..

وحرّك يده محذرا وواصل:

ـ يلزم كل مكانه، يرضى بما يقع، وخرق العهد معناه الضياع للجميع..

لم ينبس أحد، ظل الخلاء يرنو بنظرته الباردة القاسية الساخرة، ونعق غراب فى القبة الصافية، فعاد شعلان الأعور يقول:

ـ للفائز الحق، وعلى الجميع الطاعة وأولهم الخاسر.

استسلمت الجباه المبللة بالعرق للمقادر ولم تعترض، فخاطب شعلان غسان متسائلاً:

ـ تتعهد بالطاعة إذا الآخر انتصر؟

فقال غسان:

ـ أتعهد واللّه شهيد.

ـ وأنت يا دهشان؟

ـ أتعهد واللّه شهيد.

فقال شعلان:

ـ اللمسة كافية لتقرير النصر، والحذر الحذر من عنف لا يورث إلا الضغينة.

واتسعت الدائرة فاقتصرت الحلقة على غسان ودهشان. جسمان متينان يلعبان

بالنبوت لعبة الحواة ويتحفزان. وثب غسان إلى الأمام فانقض عليه دهشان. التحم النبوتان وتحاورا برشاقة ومكر ودهاء. يجهد كل للنفاذ إلى ملمس فيقابل بالصد والرد والإفلات، ويستحر الهجوم والحذر والإصرار، وتبارك الشمس النضال بجحيمها المستعر.

وبحركة خاطفة مباغتة يعمى الحذر فيلمس نبوت غسان ترقوة دهشان.

وتهتف جماعته بحماس متقد:

ـ غسان.. غسان.. اسم اللّٰه عليه!

وتراخى دهشان وهو يلهث ويتجرع الأسى. ومد له غسان يده وهو يقول:

ـ نعم الأخ أنت!

فشد عليها دهشان وهو يتمتم:

ـ ونعم الفتوة أنت!

ورددت الأفواه بنبرة منغومة:

ـ اسم اللّٰه عليه.. اسم اللّٰه عليه..

ودار غسان حول نفسه فى رشاقة وسعادة وهو يتساءل:

ـ هل من معترض؟!

استبقت الخناجر إلى المبايعة. ولما هدأت العاصفة ارتفع صوت يقول:

ـ إنى أعترض يا غسان.

١٤

انجذبت الأنظار نحو شمس الدين فى ذهول. كان يقف بقامته الرشيقة المائلة للطول، رافعًا وجهه الوسيم، وبشرته بأشعة الشمس تحترق. تمتم غسان:

ـ أنت يا شمس الدين؟

فأجابه بثبات:

ـ نعم يا غسان..

ـ أتطمع حقًا فى الفتونة؟

ـ هى واجبى ومصيرى.

فقال شعلان الأعور بإشفاق:

ـ أبوك نفسه لم يعدك لها!

ـ تعلمت أشياء، وعرفت أشياء لا يستثمرها مثل فتوة!

ـ الخير وحده لا يكفى!

فلعب شمس الدين بنبوت أبيه فى رشاقة خلابة، فصاح غسان:

ـ يعز علىّ أن أسىء إليك..

ـ لندع النبوت يتكلم!

ـ إنك غلام يا شمس الدين!

فقال بإصرار:

ـ إنى رجل من صلب رجل..

فرفع غسان وجهه إلى السماء تحت النار المندلعة وصاح:

ـ عفوك يا عاشور ومعذرة!

لم يرتح أحد لما يجرى. التوت الشفاه بالامتعاض. وتبدت نظرة الخلاء أبرد وأقسى وأسخر مما كانت.

وبدأ شمس الدين المعركة فتلاقى الخصمان. وتفجرت معجزة فى اللحظة الأولى فتسلل نبوت شمس الدين إلى ساق غسان والتصق. وقف غسان ذاهلا. وخُيّل إلى كثيرين أنه استهان بخصمه فحدث ما حدث. المعركة لم تبدأ، فكيف هكذا تنتهى؟ وتمادى غسان فى ذهوله، ولم يهتف أحد. ومد شمس الدين يده وهو يقول:

ـ نعم الأخ أنت!

فتجاهل غسان يده، وتوثب بين حاجبيه الغضب. وصاح شعلان الأعور مشفقا ومحذرا:

ـ غسان امدد يدك!

فهتف غسان:

ـ إنها ضربة حظ وقدر.

ـ ولكن شاء اللّه أن ينتصر.

فهتف غسان بإصرار:

ـ النبوت حكم فاصل لمتماثلين فى القوة، ولكن شمس الدين عود أخضر ما أيسر أن ينكسر، أم تريدون أن تكونوا لقمة سائغة لكل حارة ولعبة بيد كل فتوة مقتدر؟!

عند ذاك رمى شمس الدين نبوته، ونضا عنه ملابسه إلا ما للعورة يستر، ووقف بقامته الرشيقة المتألقة بلعاب الشمس ينتظر.

وابتسم غسان ابتسامة ثقة، وفعل مثل صاحبه، وهو يقول:

ـ سوف أحميك من شر نفسك.

وتقاربا خطوة فخطوة حتى التصقا تماما ولف كل منهما ذراعه حول الآخر. وشد كل بما فيه من عزم وإصرار وقوة حتى انتفخت منه العضلات ونفرت العروق. انغرزت الأقدام فى الرمال، وتعملقت إرادة صلبة تروم اعتصار الخصم وتصفية ماء حياته. وحملقت الأعين فى ذهول وتوقعت لدم أن ينفجر. وتتابعت الثوانى منصهرة فى الأتون الملتهب. وانحبست الأنفاس فلم تسمع نأمة واحدة. حتى تلاقى حاجبا غسان فى عبوسة حاقدة. وبدا متحديا للمستحيل والقدر. أو أنه يغالب الغرق. ويدافع المجهول ولو بالجنون. ويطلق الحقد الأعمى على اليأس الزاحف.. ويتخاذل رغم الإصرار والكبرياء والغضب. ويتخبط وتترنح ساقاه. ويتهاوى فى العجز ويشهق فلا يرحمه شمس الدين حتى تسقط ذراعاه وتتداعى رجلاه وينهدم.

ويقف شمس الدين لاهثا غارقا فى العرق، ويغلب صمت الذهول، حتى يمضى شعلان الأعور إليه بملابسه وهو يقول:

ـ نعم الفتى.. ونعم الفتوة..

وتنطلق الحناجر هاتفة:

ـ اسم اللّه عليه.. اسم اللّه عليه..

وصاح دهشان:

ـ ها قد بعث عاشور الناجى!

فقال شعلان الأعور:

ـ اسمه الجديد شمس الدين الناجى..

وظل الخلاء محيطا متراميا مثابرا على جلاله وتعاليه..

١٥

وكانت الحارة تنتظر زفة الفتوة الجديد. راهن كثيرون على غسان كما راهن كثيرون على دهشان، ولكن لم يخطر ببال أحد الفتى المليح شمس الدين. ولما ترامت الأخبار ذهل الجميع، وسرعان ما انقلب الذهول فرحة شاملة. فرح الحرافيش ورقصوا وقالوا إن هذا يعنى أن عاشور حى لم يمت.

وتساءل محمود قطائف بامتعاض شديد :

ـ هل رجع عصر المعجزات؟

واستقبل شمس الدين بالبهجة والأفراح ، وحتى فلة زغردت رغم الحداد .

واستمع شيخ الحارة إلى القصة كما رواها شعلان الأعور بكآبة دفينة ، وراح يتساءل :

ـ ترى هل يمتد عهد التجهم والفقر؟!

١٦

وقال شمس الدين لأمه فلة مزهوا :

ـ كنت أعد نفسى لذلك .

فقالت بابتهاج :

ـ حتى أبوك لم يصدق .

فقال بجدية :

ـ ما أشق أن يكون مثلى خليفة لأبى . . .

فقالت بدهاء :

ـ لا تنس عدوك غسان ، ولكن بيدك أن تملك قلوب رجالك!

فتجهم وجهه وقال :

ـ إنى اليوم الأمل فلا خاب الأمل . .

فقالت بإغراء :

ـ الاعتدال سيد الأخلاق .

فقال بإصرار :

ـ إنى اليوم الأمل ، فلا خاب الأمل .

١٧

ومضت الأيام هازجة بالأفراح ، وآمن الناس بأن عاشور الناجى لم يمت .

وكان غسان يسهر فى البوظة فيسكر ويغنى :

البخت إن مال حتعمل إيه بشطارتك

وذات مرة قال له شعلان الأعور:

ـ ألم تشبع من هذا الموال؟ عليك أن تنقى قلبك . .

فقال دهشان:

ـ إنه يفتحه للشياطين . .

فقال غسان بغلظة:

ـ إنك لا تغفر لى انتصارى عليك يا دهشان .

ـ عليك اللعنة ، بل عاملتك بالأصول . .

ـ لولا الحقد ما رحبت بفتونة غلام!

فتساءل دهشان بحنق:

ـ ألم ينتصر بكل جدارة؟

وعند ذاك تساءل عليوة أبو راسين الخمار:

ـ قلبى يحدثنى بأن فتوتنا الجديد سيكون من زبائنى الكرام . .

فقهقه غسان وقال:

ـ أحلق شاربى لو فعل ، ولن نحظى منه إلا بالفقر . .

فصاح شعلان الأعور:

ـ لن تمر الليلة على خير!

فقال غسان ساخرا:

ـ هذيان سكران يا شعلان ، ستمر الليلة مثل كل ليلة ، ومثل الليالى السعيدة الغابرة التى شهدت ست الستات وهى تخطر بين السكارى بجمالها الفتان!

ورماه دهشان بالقرعة فأصاب صدره وصرخ فى وجهه:

ـ يا وغد . .

ووقف غسان متحديًا فوثب شعلان نحوه وقال له بحزم:

ـ لا حياة لك فى هذه الحارة . .

فأدرك خطأه رغم سكره ، وغادر البوظة وهو يترنح . .

١٨

ولم يفكر أحد فى إبلاغ شمس الدين بما قيل عن أمه. قال شعلان لدهشان:

ـ لا علم للفتى بذلك التاريخ القديم.

فقال دهشان:

ـ ولكن من حقه علينا أن نبلغه بتمرد غسان . .

وصمم شمس الدين على حسم الأمر بالسرعة الواجبة فقصد غسان فى مجلسه بالقهوة، وقف أمامه بوجه يموج بالغضب، وسأله:

ـ يا غسان هل يمكن أن تخلص لى كما أخلصت لأبى؟

فقال غسان:

ـ لقد عاهدتك على ذلك . .

ـ ولكنك كاذب وغير أمين . .

ـ لا تصدق الوشاة.

ـ أصدق المخلصين . .

ومال نحوه وهو يقول:

ـ لن تكون بعد اليوم من رجالى . .

ولم ير غسان بعد ذاك اللقاء فى الحارة . .

١٩

لم يتغير شىء من عهد عاشور الناجى . . خلفه شمس الدين راعيا للحرافيش شاكما للسادة والأعيان، وثابر الفتوة على عمله سواقا للكارو، كما اشتغل كل رجل من رجاله بحرفته. ولم يتخل عن شقته الصغيرة مسكنا، وسد أذنه دون همسات أمه المتوسلة. امتلأت أعطافه بالعظمة الحقيقية، وروى ظمأ قلبه بحب الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من رواد الزاوية وأصدقاء الشيخ حسين قفة. ومن أموال الإتاوات جدد أثاث الزاوية، ورحب باقتراح للشيخ حسين قفة فأنشا كتابا جديدا فوق السبيل.

ولم يغفل عن مسئوليته حيال الحارة والناس قط. شعر بثقل الأمانة وخطوتها شأن المخلصين من الرجال. ولا شك أن فتوات الحارات المجاورة قد استردوا أنفاسهم باختفاء العملاق المهيب، ورا حوا يتحرشون ببعض الباعة المتجولين من أبناء الحارة. فلكى يؤكد قوته وينفض عنها شبهات الظنون، ولكى يثبت أن ملاحته ورشاقته لا ينقصان من فتونته، قرر أن يتحدى أقوى الفتوات وهو فتوة العطوف. وتحين فرصة زفة عطوفية فتعرض لها فى ميدان القلعة، فدارت بين الفريقين معركة حامية انتصر فيها انتصاراً حاسما اجتاحت أنباؤه الحارات جميعًا. فأيقن كل من داعبه أمل التحدى أن شمس الدين لا يقل عن عاشور قوة وبأسا.

هكذا حافظت الحارة على نظامها المثالى فى الداخل وعلى سمعتها خارج نطاق الميدان.

٢٠

رغم ذلك رجع شمس الدين من معركة العطوف مبلبل الخاطر. الزوبعة الثملة بالقوة والنصر تتشرب بالأتربة والقاذورات. لقد قال له فتوة العطوف وهو يتوثب للالتحام:

ـ أقدم يا بن الزانية.. أقدم يا بن عاهرة خمارة درويش!

وملأ سبابه الأسماع.. هلل له رجاله وزمجر الآخرون. أهو محض سباب مما تفتتح به المعارك؟ أم هو تاريخ يعلمه الجميع ويجهله هو بحكم حداثة سنه؟

وخلا إلى شعلان الأعور وسأله عما يعنيه الرجل، فقال له شعلان بحدة:

ـ نباح كلب جريح!

وقال له أيضا:

ـ إن امرأة يختارها عاشور الناجى زوجة له ووعاء لذريته لا يمكن أن ترتقى إليها شبهة من الشبهات..

واطمأن قلبه، ولكن لفترة قصيرة. لم يسترد الصفاء. وهامت فى صدره الهواجس مثل السحائب فى اليوم المطير. وفى وقت راحته جعل يسترق النظرات إلى فلة. إنها فى الأربعين أو دون ذلك. مليحة ملاحة فائقة. صغيرة الجسم، رشيقة، فاتنة. عيناها تنفثان سحرا خالصًا. تقية محترمة وذات شخصية مؤثرة. لا يمكن أن يتصور ذلك، والويل لمن تسول له نفسه اقتحام محرابها! كم تعلق بها لدرجة الهوس حتى قال له عاشور الناجى يوما:

ـ الرجل الحق لا يتعلق بأمه مثلما تفعل . .

واستصحبه معه وهو صغير، فكان يأكل وينام فوق الكارو، ودار فى فلك أبيه منتزعا من الأحضان الدافئة .

ترى ماذا شهدت خمارة درويش؟ هل يوجد رجال يعرفون من خفايا أمه ما لا يمكن أن يعرف؟!

وغمغم بغضب :

ـ الويل لمن تسول له نفسه اقتحام محرابها!

٢١

وذات يوم رأى وجهها أرجعه سنوات إلى عهد الطفولة .

كان يمضى بالكارو نحو الميدان فاعترضته معركة عجيبة ناشبة بين فتاة وفتى : كانت الفتاة تثب كالنمر فتلطم الفتى، تبصق على وجهه، قاذفة إياه بسيل من الشتائم، وهو يتفادى من هجماتها، يرد الشتائم بأقبح منها، والناس من حولهما يتفرجون ويتضاحكون .

ولما رأى الناس شمس الدين حيوه، وتوقفت المعركة، فهرب الفتى، وراحت الفتاة تلتقط ملاءتها من الأرض وتلتف بها وهى ترامقه فى حياء .

أعجب شمس الدين بحيويتها، ونضارة وجهها، ومرونة جسدها . ورأته يرنو إليها فقالت معتذرة :

ـ قل أدبه يا معلمنا فأدبته . .

فتمتم باسما :

ـ أحسنت، ما اسمك؟

ـ عجمية . .

ثم بمزيد من الحياء :

ـ ألا تذكرنى يا معلم؟

وتذكرها فجأة فقال بدهشة :

ـ بلى . . كنا نلعب معا . .

ـ ولكنك لم تتذكرنى . .

ـ تغيرت كثيرا، أنت ابنة دهشان؟

فحنت رأسها وذهبت.

ابنة معاونه دهشان، ولكن لشد ما تغيرت.

وأشعلت حواسه فتدفق شبابه مثل أشعة الظهيرة.

٢٢

وعند مشارف الغورية رأى عيوشة الدلالة وهى تشير إليه فتوقف. تبين له أنها بصحبة سيدة أخرى. سيدة ذات بهاء يلفت الأنظار إليها بملاءتها الكريشة وعروس برقعها الذهبية، وعينيها المكحولتين الجميلتين، وجسمها المدمج الريان. وسرعان ما اتخذت المرأتان مجلسهما فوق العربة وعيوشة تقول بنبرتها العجوز:

ـ الدرب الأحمر يا معلم..

وثب إلى مقدمة الكارو، وهو يتمنى لو يخطف من المرأة نظرة أخرى.

وجعلت عيوشة تقول:

ـ ما أجمل أن تسوق الكارو يا فتوتنا، وأنت إن شئت أن تعيش حياة الوجهاء ما منعك مانع!

فسعد بقولها ولكنه لم ينبس. إنه يسعد بدفء الحب، ويمتلئ بأريج العظمة الحقيقية، ويمحق بذلك خطرات الضعف والغواية. وتوقع أن تقول الجميلة شيئا ولكنها لاذت بالصمت، حتى غادرت العربة فى الدرب الأحمر. هناك ملأ منها عينيه، وأتبعها ناظريه وهى تمضى نحو رواق المشايخ.

ولبثت عيوشة بمحلها فنظر نحوها متسائلا فتمتمت:

ـ القلعة..

مضت العربة وهو صامت. صمت رغم أنه رغب فى التكلم. وإذا بالعجوز تسأله:

ـ ألم تر من قبل ست قمر؟

فشكر للمرأة فتحها الحديث وأجاب:

ـ نعم، لم أرها..

ـ هذا شأن السيدات المصونات!

ـ من حارتنا؟

ـ نعم، أرملة غاية فى الجمال والغنى . .

فتساءل :

ـ ولم لا تستقل الحانطور؟

ـ رغبت فى عربة فتوتنا!

فالتفت نحوها فقرأ فى عينيها الكليلتين نظرة باسمة ماكرة . اشتعلت حواسه مرة أخرى . استحضر صورة عجمية فتراقصت الصورتان فى وجدانه وثمل .

وقالت عيوشة :

ـ أعجبتك ولاشك؟

فسألها بخشونة مصطنعة :

ـ عم تسألين يا ولية؟

فقالت ضاحكة :

ـ مهنتى بيع الملابس والسعادة للناس . .

فانقطع عنها فى حذر .

وعند ميدان القلعة غادرت العربة وهى تقول له :

ـ للكلام بقية، فلا تنس عيوشة . .

٢٣

وتلاقت به أكثر من مرة فوق الكارو، عيوشة الدلالة . الغزو يطرق بابه بعنف ولكن ضعفه الحقيقى يكمن فى قلبه الفتى، فى شبابه المتوقد . قمر تناوشه بأبهتها، وعجمية تناوشه أيضًا بشبابها . ولعله يتجاوز عمره اليافع فى إدراك ما يعنيه زواجه من سيدة فى مركز قمر، وما يعنيه زواجه من فتاة مثل عجمية . ثمة عاصفة تتوثب فى الأفق . من المستحسن أن تقصف بوادرها وأن يخوض ضرباتها ليحظى فى النهاية بالهدوء والاستقرار .

وفى جلسة المساء عقب العشاء رأى أمه فى حال غير عادية . عيناها الجميلتان تبرقان بالمكر، وتنفذان إلى دوامة هواجسه . وها هى ذى تسأل فى عتاب :

ـ ماذا يجرى وراء ظهرى؟

حسن . إنه يرحب بالمكاشفة . ويرغب فى هتك أسرار قلبها المتمرد .

ـ عم تسألين؟

فرفعت رأسها فى كبرياء من يتعالى على الانخداع، وتساءلت:

ـ أى لعبة تلعبها عيوشة الدلالة؟

وقال لنفسه إنه لا سر يصان فى فم عيوشة المثرم، وابتسم مستسلمًا وهو يتمتم:

ـ إنها تمارس مهنتها.

فقالت بحدة:

ـ قمر فى مثل سن أمك وهى عقيم!

فقال رغبة فى الإثارة ليس إلا:

ـ ولكنها جميلة وغنية!

ـ لم يبق من عمر جمالها إلا أيام، وإذا كنت ترغب حقّا فى الثراء، فماذا يصدك عنه؟

فتساءل منكرا:

ـ أترضين لى خيانة عهد عاشور الناجى؟

ـ ولكن الإثراء عن طريق امرأة لا يقل عن ذلك عارا!

فقال لا عن إيمان ولكن تماديا فى إثارتها:

ـ لا أظن ذلك..

ـ حقّا؟! إذن دعنى أختر لك عروسا مناسبة من بنات الوجهاء!

ـ هو أيضًا إثراء عن طريق امرأة!

ـ ولكنه طبيعى لا شذوذ فيه، وأصارحك بأن هذا ما يتمناه قلبى!

فرنا إليها بقلق وقال:

ـ إنك لا تسلمين بحياتنا المجيدة إلا مضطرة، أصدقت حقّا أنى أستهين بحب الناس وبالعظمة الحقيقية؟

ـ أكنت تمكر بأمك؟

ـ كنت أداعبها!

فقالت باستياء:

ـ لست أنانية كما تتصور، أمس فقط رفضت يد سيد وجهاء الحارة!

فقطب منزعجا وقد تخضب وجهه بالدم، فقالت:

ـ وعيوشة كانت الواسطة أيضا!

ـ عليها اللعنة!

ـ قلت لها إن أرملة عاشور الناجى لا تقبل أن يحل محله رجل آخر .

فقال بجفاء :

ـ أقل ما يمكن أن يقال . .

فقالت بتحد :

ـ قلته إكراما لأبيك لا خوفا منك . .

ـ ومن الوغد؟

ـ ليس وغدًا ، وما طلبه مشروع . .

ـ من هو؟

ـ عنتر الخشاب صاحب الوكالة !

فقال بازدراء :

ـ إنه متزوج ويماثلنى فى السن !

فهزت منكبيها استهانة وقالت :

ـ هذا ما كان ! أما حالنا فنحن نجرى العدل بين الناس ونظلم أنفسنا !

فقال بحزم :

ـ لقد قال أبى كلمته وما علىَّ إلا الطاعة .

وقال لنفسه إن قلبها لطموح ، إنها متمردة ، ترى ما حقيقة تاريخك أيتها السيدة التى أحبها أكثر من أى شىء فى الوجود؟

٢٤

اعترف شمس الدين بأن أمه قوية وعنيدة . اعترف أيضا بأنه يحبها ويحترمها لا بصفتها أمه فحسب ولكن بصفتها أرملة عاشور الناجى أيضا . أجل . إن عاشور الناجى أبوه ولكنه يمثل فى الوقت ذاته حقيقة أكبر من الأبوة . وهو يهيم بهذه الحقيقة أكثر من الأبوة نفسها ، هى محور حياته . ومعقد أمله ، وسر افتتانه بالعظمة الحقيقية .

لذا قرر أن يصيب هدفه دون مشاورة عقيمة .

مضى بصديقه دهشان إلى الساحة أمام التكية فى أول الليل . كانت ليلة من ليالى الصيف الرائقة . والحناجر تشدو بألحانها والنجوم فوقها تتوامض فى سلام .

وقال شمس الدين لدهشان :

ـ فى هذا المكان الطيب كان عاشور يخلو إلى نفسه ويواصل أسمى أفكار الحياة .

فدعا دهشان لمعلمه القديم بالرحمة فى السماوات . فقال شمس الدين :

ـ وقد اخترته لتحل بركته بما سأطلبه منك . .

فتمتم دهشان :

ـ إنى رهن أمرك ولتحل به البركة . .

فقال شمس الدين بهدوء :

ـ أريد ابنتك عجمية على سنة اللّه ورسوله !

وأخذ دهشان بما لم يتوقع ، فانعقد لسانه ، فسأله شمس الدين بلطف :

ـ ما قولك يا دهشان؟

ـ يا له من شرف لم أحلم به يا معلمى !

فمد له يده قائلا :

ـ إذن فلنقرأ الفاتحة .

٢٥

ولدى رجوعه إلى بيته من الساحة مارس شعورا أليما ، شعور التحدى لسطوة أمه ، السطوة القوية الناعمة . قال وهو يجالسها فى هدوء غامض :

ـ أمى ، قرأت الآن فاتحة عجمية بنت دهشان .

وللحظة لم تفهم فلة شيئا . ثم رنت إليه فى ذهول :

ـ ماذا قلت؟

فقال بإباء داخلى :

ـ قرأت فاتحة عجمية بنت دهشان .

ـ مزاح من جديد؟

ـ هى الحقيقة يا أمى . .

فتساءلت محتجة :

ـ أما كان يجب أن تشاورنى قبل أن تفعل؟

ـ بنت مناسبة وأبوها رجل مخلص . .

ـ أبوها رجل مخلص، ولكن أما كان يجب أن تشاورنى؟

فقال بهدوء:

ـ إنى أعرف رأيك مقدما وهو مستحيل . .

فتمتمت محزونة:

ـ يا للخسارة!

فتساءل باسما:

ـ ألا أستحق تهنئة طيبة؟

وترددت قليلا، ثم اقتربت منه فلثمت جبينه وتمتمت:

ـ فليبارك المولى خطواتك . .

٢٦

واستأذن شيخ الحارة محمود قطائف فى مقابلة شمس الدين. وتذكرت فلة خطوة مثل هذه فى العهد القديم فغمغمت «عليه اللعنة» فاستقبله شمس الدين فأجلسه إلى جانبه على الكنبة الوحيدة فى الحجرة. ورغم تجاوزه الستين بدا متمتعا بالصحة والحيوية، وأقدر على الصمود لضآلة جسمه وخفته. وقدمت فلة القهوة وقد لفت رأسها بخمار أسود، وجاملته قائلة:

ـ كيف حالك يا معلم محمود؟

فدعا لها الرجل بالصحة والبركة، وقال:

ـ ليتك تشرفين مجلسنا بحضورك لننتفع برأيك!

فتبادلت فلة نظرة مع شمس الدين ثم جلست على حافة الفراش. وتوثب شمس الدين للاستماع وهو لا يتوقع خيرا. كان يعد محمود قطائف بين كارهيه المكظومين، مثل الأعيان، ومن فقدوا بفتونته الجاه والسيطرة. وقال شيخ الحارة:

ـ الحلم سيد الأخلاق، والكمال من شيم القادرين . .

فهزَّ شمس الدين رأسه دون أن ينبس فواصل الرجل:

ـ بكل أمانة يا معلم شمس الدين إنى مفوض من الأعيان للحديث معك . .

ـ ماذا يريدون؟

ـ لهم رغبة شريفة صادقة فى الاحتفال بزفافك . .

فقال شمس الدين ببساطة :

ـ سيجرى زفافى فى نطاق قدرتى كسواق كارو . .

ـ ولكنك فتوة الحارة أيضا . .

ـ لن يغير ذلك من وضعى كما تعلم .

ـ إنك فتوة الجميع ، فتوة الأعيان كما أنك فتوة الحرافيش ، ومن حق كل فريق أن يحتفل بك بطريقته وفى نطاق قدرته . .

والتفت شيخ الحارة نحو فلة وسألها :

ـ ما رأيك يا ست أم شمس الدين؟

فأجابت فلة بدهاء :

ـ الكريم يقبل التكريم ، ولكن الرأى رأيه . .

فقال محمود قطائف بارتياح :

ـ بالحق دائما تنطقين . .

وتجهم وجه شمس الدين ، فقال :

ـ كيف أقبل تكريم أناس أعلم أنهم يكرهوننى؟

ـ كلا لا أحد يكره العدل ، ولكنهم يرغبون فى تصفية الجو .

ـ إنه لن يصفو بالألاعيب ، وإنى أخمن أن عندك الكثير فهات ما عندك . .

فتحرج محمود قطائف مليا ثم قال :

ـ إنهم يقولون إن جميع الناس يتمتعون بالعدل والكرامة عدا الأعيان وأصحاب النشاط الحقيقى ، فهل هذا من العدل؟!

ها هى ذى جيوش الظلام تتحرك . تريد أن تطمس قبسات النور فى زوايا الحارة وأزقتها . يتوهمون أن شمس الدين صبى يافع تخلب لبه الزينة كما تخلب لب أمه الجميلة . فارفع عصا عاشور العجراء واهو بها على نبضات الفتنة والغرور والإغراء .

وتساءل بخشونة :

ـ ألا يعيشون فى أمان وراحة بال؟

ـ حلمك يا معلم ، لم لا تؤخذ الإتاوات إلا منهم؟

ـ هم وحدهم القادرون . .

ـ ولكن الناس تفسر ذلك على هواهم ويستهينون بهم!

فقال بغضب :

ـ إنهم يأبون إلا الرفعة لأنفسهم والدونية للآخرين .

فصمت محمود قطائف مليا ثم قال :

ـ من حقهم أن يطالبوا باحترام يكافئ أعمالهم .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ ماذا كانت تكون حارتنا لولاهم؟ دورهم زينة، أسماؤهم نجوم فى الحى، من حوانيتهم يتدفق الغذاء والكساء لحارتنا، ومن أموالهم شيدت الزاوية والحوض والسبيل والكُتّاب الجديد، ألا يكفى ذلك كله؟!

فاحتد شمس الدين غاضبا وقال :

ـ لولا أبى ما انتفع بأموالهم أحد، انظر إلى نظرائهم فى الحارات الأخرى ماذا يفعلون!

فلاذ شيخ الحارة بالصمت مرة أخرى، بدا مترددا، فقالت فلة :

ـ تكلم، ما على الرسول إلا البلاغ .

فتشجع محمود قطائف قائلا :

ـ إنهم يرون أنهم مظلومون، كما يرون أنك ورجالك مظلومون أيضا، يقولون إن منزلة الفتوة الحقيقية بين الأعيان، وإن الأعيان فضلهم اللّه درجات على الناس، ولن ينتقص ذلك من حق الفقير فى العدل!

فصاح شمس الدين :

ـ وضح الأمر يا شيخ الحارة، إنهم يغروننى بنبذ العهد والارتماء فى أحضان البلطجة . .

ـ معاذ اللّه!

ـ هى الحقيقة وإنك لتؤمن بما أقول . .

ـ معاذ اللّه يا معلم .

ـ إليك رأيى النهائى . . .

فقاطعه واقفا وهو يقول بتوسل :

ـ بل فكر فى الأمر قليلا، لا أطالبك إلا بتأجيل الحكم حتى تفكر . .

ومرق من الحجرة كالهارب . .

٢٧

اختفى محمود قطائف تاركا خلفه رائحة تبغ وعرق. وترك صمتا تتلاقى فيه النظرات وتتباعد. وثمة تناحر بين الفتى وأمه. بين الفتى وغرائزه. وزينة الدنيا ذات رائحة نفاذة ينجذب إليها لحل الأهواء المكبوتة. فى هذه الحجرة الحقيرة تضطرم أحلام باللآلئ والنعيم والضجعة الطيبة. همسات النفس يحمر لها الوجه خجلا ـ أمه الجميلة المتمردة ذات الالتفاتة الساحرة. جمالها مجهول النسب يتجسد ضعفه البغيض المستتر.

وقال لها متحديا:

ـ الفتوة كما تعلمت هو حامى الحارة وراعيها وكابح قوى الشر فيها..

فقالت ساخرة:

ـ وهو لا يتميز عن أى متسول فيها!

فقال بحرارة:

ـ أمى، كونى معى لا علىَّ..

ـ إنى معك دوما واللّه شهيد..

فهتف منقضا على أمه ونفسه معا:

ـ أريد أن أكون جديرا باسم الناجى وعهده..

فقالت أمه بظفر:

ـ عاشور لم يتردد عن وضع يده على دار البنان الخالية!

فقال غاضبا:

ـ العبرة بالخاتمة!

ـ بل أعطانا فى كل حال مثلا يحتذى..

فقال بازدراء:

ـ سيجىء زمن نلصق فيه بعاشور العظيم كل خلجة ضعف تضرب فى نفوسنا..

٢٨

مشى شمس الدين بحذاء الحمار مطمئنا ومثخنا بالجراح.. طالما رأى الشعاع يسيل مبتهجا عقب الغيوم الممطرة. لا خجل من الضعف إذا المرء عليه انتصر. وما معنى القوة إذا لم تستو فوق خلجات الخور. فانهل من رحيق الحياة السامى النابع من علو الهمم.

وأمام دكان محمود قطائف شد اللجام فتوقفت العربة.

وهرع إليه الرجل متلهفا:

فتخطاه بنظرة باردة وقال بحزم:

ـ عاشور الناجى لم يمت!

٢٩

وكان شمس الدين ماضيا نحو مسكنه ليلا عندما اعترضه شبح امرأة.

همست:

ـ مساء الخير..

ـ عيوشة؟ ماذا جاء بك؟

ـ هلا تبعتنى إلى حجرتى؟

خفق قلبه. خاف الدعوة. ثار فضوله.. اشتعل شبابه.. مضى وراءها صاغرا.

٣٠

همست العجوز وهى تتقدمه فى الدهليز:

ـ أمرك عجيب!

ـ ماذا؟

ـ ألا يحق لنا أن نسأل لم يرفض البدر فى تمامه؟

فتحت باب الحجرة فارتمى ضوء المصباح على الأرض. تنحت من أمامه وهى تدفعه بيدها. رأى ست قمر جالسة على حافة الفراش وهو الموضع الوحيد الصالح للجلوس. مبرقعة ملفوفة فى ملاءتها غاضة البصر من الحياء..

وقف يرنو إليها فى غاية من الانفعال.

وتساءلت عيوشة من موقفها فوق العتبة:

ـ هل بلغك عنا ما يسوء؟

فأجاب بارتباك:

ـ أبدا.

ـ هل فى جمالنا نقص أو عيب؟

فقال والحذر يسرى فى حواسه:

ـ معاذ اللّه..

ـ هل هون من شأننا البوح بسرنا؟

فغمغم بأصوات مغضوضة وجف ريقه.

وأغلقت العجوز الباب فدفعت به إلى الحافة.

وتمتمت قمر بصوت لا يكاد يسمع:

ـ إنى خجلى، لا أدرى ماذا صنعت بنفسى..

فقال ببلاهة:

ـ كل خير..

ـ لا تسئ بى الظن..

وتهاوى تحت دفعة طوفان فالتهمت الغريزة الكون كله. وأذعن لمشيئة القوة الملكية المزهوة بالاستهتار والخيلاء والعمى.

وهمست قمر وهى تقاوم مقاومة لا معنى لها:

ـ لا تسئ بى الظن..

٣١

وجد شمس الدين نفسه فى الدهليز مرة أخرى. عقب إغلاق الباب وراءه. سبح الظلام فى المكان وتسرب إلى حنايا نفسه. أخلفت النار رمادًا خانقًا وزفرت الدنيا فتورا وأسى.

وعند نهاية الدهليز رأى شبح عيوشة على ضوء النجوم الباهت. همست له وهو يمضى:

ـ الأمل فى شهامة الرجال لا يخيب..

فتجهم حانقًا ومضى مثقلاً بالأسى..

٣٢

لقد أخطأ ولكن خطأ الآخرين أفدح. وهو مبلبل البال ولكنها امرأة داهية. لن يقع فى الشرك كأبله، لن يقامر بمعدنه النفيس، ولو تحمل ألما وكدرا. إن قوى الظلام تتآمر عليه، كما تتآمر عليه أمه ونزعات ضعفه، ولكنه جدير بخوض المعارك.

٣٣

وزفت عجمية دهشان إلى شمس الدين الناجى.

وتصدى له شعلان الأعور وهو يقول:

ـ هذه ليلة يطيب فيها الخروج على الأصول..

ومضى به إلى غرزة خليل سكر. ومن الغرزة مضى به إلى بوظة عليوة أبو راسين.

وسارت الزفة التقليدية تجوب أطراف الحى يتقدمها الطبل والزمر، وتحدق بها النبابيت. لم يعترضها معترض، وبها رسخت مهابة الفتوة الأكبر.

ورأى شمس الدين أنه يطير بلا توقف. وعند كل محطة تهزه نشوة سرور وإلهام. وباركه عاشور الناجى وهو يمتطى مهرا أخضر. وهزجت له الملائكة فوق قطع السحاب.. وانفتح باب التكية وتدفق منه اللحن الملكى وثمار التوت.

أما عجمية فقد حملت على هودج مكلل بالستائر المزركشة.

واستقبلتها فلة بوجه مشرق وقلب كئيب.

٣٤

فى الصباحية جلس على أريكته المختارة بمدخل القهوة.

لمح عيوشة تتسلل نحوه ثم تقرفص تحت يمينه. حجبت سحابة ضوء الشمس. همس الصوت المثرم:

ـ ألف نهار أبيض!

فشكر فاستدركت:

ـ ولو أنى لم أشهد الفرح!

فقال بخمول:

ـ دعوتك مباحة فى جميع الأفراح.

ـ على أى حال نتوقع أن يشملنا عدل فتوتنا كالآخرين!

ـ أى ظلم تشكين؟

ـ إنى أدافع عن ضعف سيدة جليلة..

فقال بامتعاض:

ـ أنت الغاوية!

ـ هل تصح الغواية على القوى الأمين؟!

فتمتم متكدرا:

ـ عليك اللعنة..

فنهضت لتذهب وهى تقول:

ـ لن نمل انتظار العدل..

٣٥

وتمر الأيام.

تزمجر زوابع أمشير ثم تعقبها رياح الخماسين. تتراكم السحب ثم يسفر بحر الصفاء الأزرق.

من أول شهر ينشب صراع حام بين فلة وعجمية، يستحر ويستفحل بلا أمل فى سلام، وتنجب العروس ولدا بعد ولد. ويتجاهل شمس الدين الصراع، يشفق من مساندة المظلوم كما يشفق من زجر الظالم. ثبت له أن دخول معركة آمن من الدخول بين امرأتين متعاديتين. وتبدت فلة عنيدة شرسة لا ترحم كما تبدت عجمية قوية سليطة اللسان متوحشة عند الغضب رغم مزاياها النافعة فى النشاط والتفانى فى العمل والإخلاص للزوج والولد.

وسمع ذات يوم فلة تعير زوجته بجد لص، وما يدرى إلا وعجمية تصيح بها «يا ربيبة البوظة». عند ذاك فقد صوابه وصفع زوجه صفعة كادت تفقدها الحياة.

ومضى إلى ساحة التكية منفردا بنفسه فى الظلام. لم يسمع الألحان ولا رنا إلى نجم. انصهر فى نار باطنه الموقدة. هى الحقيقة بلا مراء. يعرفها الأعداء والأصدقاء. لولا سطوته لتغنى بها الكارهون. هى حكايتهم المفضلة وراء الأبواب المغلقة. إنه يعانق الجنون. يعانق الجنون ويرفض أن يحتقر أمه. لو لم تكن بريئة وفاضلة ما تزوج منها عاشور الناجى. اقترانها بعاشور شهادة أبدية بفضلها وخلق جديد لها. الويل لمن تسول له نفسه المساس بها. ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة قرحة دامية. وقد جاء الوباء ليهلك أى رجل من العابثين بها. ولكن تبقى الحقيقة قرحة دامية. قدح الحياة حتى فى أسعد أحوالها لا يخلو من كدر وسم. الويل الويل للحزن والكدر.

ومن شدة أساه حمل السور العتيق المترامى فوق عاتقه. .

٣٦

رغم كل شيء اعتبرته أمه متهاونا فى حقها. واستسلمت للغضب فرمته بطعنة مفاجئة. انتهزت فرصة غياب عجمية فى الخارج وقالت له بجرأة سافرة:

ـ قررت أن أتزوج!

فذهل شمس الدين، ورماها بنظرة متأججة وهو يتساءل:

ـ ماذا؟

ـ قررت أن أتزوج!

ـ إنك تمزحين. .

ـ بل هو الجد.

فصاح:

ـ هو الجنون .

ـ لا جنون فيما اللّه به أذن .

فصرخ بغضب :

ـ لن يقع ذلك وأنا حى !

وصار عنتر الخشاب غريمه فأهانه وهدده حتى اضطر الرجل إلى لزوم داره ، وراح يقول لأصحابه :

ـ انظروا ماذا يفعل الفتوة العادل . .

وقال أيضا :

ـ إنه يتحدى شريعة اللّه ذى الجلال . .

ويتضاعف غضب شمس الدين ، ويتضاعف حزنه ، ويشعر بأن الأرض الطيبة تميد به وأنه ينحرف عن الجادة . .

وتصاب فلة بحمى . تتدهور صحتها ولا تنفع معها وصفات العطار . وترنو إليه صامتة ، وتعجز حتى عن البكاء ، وتسلم الروح فى جوف الليل .

٣٧

شعر بأنه يقتلع من جذوره وأن الشمس لم تعد تشرق .

وتطايرت شائعات فى الحارات المعادية بأن شمس الدين دس السم لأمه ليمنعها من الزواج . وتمادوا فقالوا إنه اكتشف علاقة غير مشروعة بينها وبين عنتر الخشاب . وهاج شمس الدين فخاض معارك حامية دون أن يتحداه أحد ، وتمثل فى الحى جبارا لا يعرف الرحمة .

وغشيته كآبة دائمة مثل المرض المزمن . وتهولت فى خياله انحرافاته ، واجتر مواقفه المؤسفة مع قمر وفلة وعنتر الخشاب وعنفه الجنونى فى المعارك .

وراح يقول محزونا :

ـ إنى أحمل اسم الناجى لا صفاته .

وذات ليلة اضطربت أعصابه تحت ضربات قدره فمضى كالنائم إلى مسكن عيوشة الدلالة . جلس على الفراش دون أن ينظر إليها وهى تحملق فيه بذهول .

وقال بلا أى انفعال :

ـ إلىَّ بقمر . . . !

٣٨

وتمضى الأيام.

يكبر الأبناء ويتأهلون بشتى الحرف.

يموت شيخ الحارة محمود قطائف فيحل محله سعيد الفقى. يموت شعلان الأعور ويتقاعد دهشان. ويموت شيخ الزاوية حسين قفة فيحل محله الشيخ طلبة القاضى. ويموت عليوة أبو راسين فيشترى الخمارة عثمان الدرزى.

وولدت عجمية آخر العنقود «سليمان». وجاء نموه خارقا للمألوف حتى ذكر أباه بعملقة عاشور. لذلك قرر أن يؤهله للفتونة، وأن يربيه التربية المثالية الخليقة بعهد الناجى وتقاليده.

ورغم ما عانى شمس الدين من انحرافات شخصية فإنه حافظ على نقاء فتونته للحارة. ظل يعمل سواق كارو رغم سطوته وتقدمه فى العمر. ورعى الحرافيش بالرحمة والعدل والحب. وعرف بالتقوى والعبادة وصدق الإيمان. وتناسى الناس أخطاءه، وعبدوا طيب خصاله، وأصبح اسم الناجى مرادفا عندهم للخير والولاية والبركة.

٣٩

تنساب عربة مكللة بالزهور والحياء. صلصلة عجلاتها المدوية لا يسمعها أحد. الأذن لا تسمع إلا ما ترغب فى سماعه. يتوهم الفحل أنه اقترن بالدنيا قران دوام. ولكن العربة لا تتوقف والدنيا زوج خئون.

٤٠

دأبت عجمية على صبغ شعرها بالحناء، غزاها المشيب منذ بلغت الخمسين فلما شارفت الستين لم يبق برأسها شعرة سوداء واحدة. الحناء تروى الشعر بماء الغسق

وتضفى عليه حرارة وشموخا. وهى ما زالت قوية، تفيض بالحيوية، متحركة لا تهمد، تواصل العمل مع الشمس وأحيانًا مع الشمس والقمر ولم تزايلها النضارة، واكتسبت مع الأيام بدانة فاخرة. لم يتسلل إلى هيكلها المتين ما يثير هواجس الحذر.

ويداعبها شمس الدين فيقول لها وهو يلحظ عجينة الحناء:

ـ ما جدوى الكذب يا ولية؟!

فتسائله ساخرة:

ـ إذا كان الشيب علامة صادقة فلم يبقى رأسك أسود؟

فاحم الشعر، قوى البنيان، مستمسك بالقوة والرشاقة والبهاء. إنها تضمر نحوه حبا وإعجابا بلا حدود، ومسا من الغيرة والخوف، لم يتزوج بأخرى، لم يرتكب إلا هفوة عابرة لم تتكرر مع عجوز فى سن أمه. ولكن منذا يضمن المستقبل؟!

٤١

وذات صباح وهو يمشط ذؤابته حملقت عجمية فى رأسه، وبفرحة لم تفلح فى مداراتها هتفت:

ـ شعرة بيضاء!

التفت نحوها باهتمام كما يلتفت إلى صوت النذير فى المعركة. حدجها باستياء فقالت:

ـ شعرة بيضاء وحق النعمة..

فنظر إلى المرآة الصغيرة بيده، وتمتم:

ـ كاذبة..

فاقتربت منه مركزة بصرها على هدفها كالقطة عندما تنقض على الفأر، استخلصت من الذؤابة شعرة وقالت:

ـ ها هى ذى يا معلم..

تفحصها فى المرآة. لا مفر ولا مكابرة. كأنما فى سوء ضبط. كما ضبط منذ أعوام وأعوام وهو يتسلل إلى بدروم عيوشة. امتلأ قلبه بالاستياء والحنق، والخجل. وتجنب النظر إليها متمتما باستهانة:

ـ وماذا يعنى هذا؟!

ومضى وهو يقول :

ـ يا لك من حقود !

٤٢

لم يمر الاكتشاف بسلام كما توقعت . كان يتفحص رأسه كل صباح بتدقيق واهتمام . ندمت على ما بدر منها . وقالت مداهنة :

ـ لا علاقة ألبتة بين الشيب والعافية . .

ولكنه كان يتساءل عما بلغ من عمر . متى بلغه؟ كيف قطع ذلك الشوط الطويل؟ ألم يهزم غسان أمس؟ وكيف هرم دهشان وبات يمشى مثل طفل؟ وأى قيمة لفتوة بغير قوة دائمة؟

وعادت عجمية تقول :

ـ الصحة هى ما اللّه نسأل . .

فسألها بغيظ :

ـ لماذا تكثرين من الحكم الفارغة؟

فضحكت لتهون من حدته وقالت :

ـ الصبغة لا تعيب الرجال .

فهتف :

ـ لست من الحمقى . .

لأول مرة يتساءل عما فات وعما هو آت . ويتذكر الأموات . ويتذكر الأولياء الذين عمروا ألف عام . والخراب الذى يعبث بالأقوياء . وأن الغدر ليس وقفًا على ضعف النفس والرجال . وأن هدم زفة مسلحة أيسر ألف مرة من صد ثانية بما لا يقال . وأن البيت يجدد والخرابة تعمر لا الإنسان . وأن الطرب طلاء قصير الأجل فوق موال الفراق .

وطوق رأسه باللاثة وسألها :

ـ أتدرين ما هو الدعاء؟

ولما لم تجبه قال :

ـ أن يسبق الأجل خور الرجال !

٤٣

وقالت عجمية عقب ذهابه إن ما يبقى للإنسان هو الإيمان.

وجاءها نعى أبيها دهشان فصرخت صرخة ارتجت لها قضبان الشباك..

٤٤

بكت عجمية أباها دهشان طويلا. جعلت تقول إن الإنسان يصبح بطول العمر عادة محبوبة يتعذر تصور الدنيا بغيرها. وحزن شمس الدين لوفاة صديقه وصديق أبيه من قبل. ولكن لم يزعجه موت كما أزعجه موت عنتر الخشاب صاحب الوكالة. فهذا رجل يماثله فى السن، يقف معه فى صف واحد، وتدهورت صحته بغتة عقب شلل مفاجئ. ولكن الموت لا يهمه، لا يزعجه بقدر ما تزعجه الشيخوخة والضعف. إنه يأبى أن ينتصر على الفتوات وينهزم أمام الأسى المجهول بلا دفاع. وتساءل فى دهشة:

ـ ألم يكرم عاشور الناجى بالاختفاء وهو فى عز القوة والكرامة؟!

٤٥

وجرت أمام عينيه بمجلسه بالقهوة مصارعة ودية بين ابنه سليمان وبين شاب آخر من رجاله يدعى عتريس. تعادلا فى القوة والمهارة دقائق حتى تمكن سليمان من هزيمة صديقه.

اشتعل باطن شمس الدين بالغضب، وكبر عليه أن يصمد عتريس أمام سليمان أكثر من دقيقة. لم يسر بانتصاره. لم يتصور أن القوة تعوزه وهو الشبيه بعاشور فى عملقته ولكن تنقصه ولا شك المهارة الكافية.

٤٦

ومضى بسليمان إلى سطح البيت الذى يقيم فى شقة منه. خلع ثيابه إلا ما يستر العورة مغموسا فى أشعة الغروب الذهبية، وقال لسليمان:

- افعل مثلى..

فتساءل الشاب متراجعا:

- لم يا أبى؟

- إنه أمر.

وتراءيا وجها لوجه، شمس الدين بجسمه القوى الرشيق وسليمان بهيكله العملاق كأنه عاشور.

قال شمس الدين:

- بكل ما أوتيت من قوة صارع.

فقال سليمان:

- أعفنى من العار.

- صارع وتعلم فليست القوة بكل شىء.

وأطبق عليه بالقوة والإصرار.

تلاحما فانتفخت منهما العضلات وهو يقول:

- بكل قوتك.

فقال سليمان:

- إنى أمهلت عتريس مودة لا عن عجز.

فزمجر شمس الدين:

- بكل قوتك يا سليمان..

وشعر شمس الدين بأنه يغالب السور العتيق وأن أحجاره المترعة برحيق التاريخ تصكه مثل ضربات الزمن. وحمى الصراع حتى خال شمس الدين أنه يصد الجبل. منذ دهر لم يخض معركة. قوته راكدة فى ظل سمعته الشامخة. تناسى أنه يدرب فلذة الكبد. الموت أهون من التراجع. ركبه عناد ذو عين واحدة. شد على عضلاته بالإصرار والكبرياء. رفع البنيان بين ذراعيه ثم طرحه أرضا.

وقف يلهث ويتألم ويبتسم.

ونهض سليمان وهو يضحك قائلاً:

ـ أنت الناجى الأصيل المقتدر.

راح شمس الدين يرتدى ثيابه. تنازعته انفعالات متضاربة. لا حزين هو ولا سعيد. غابت الشمس واستكن الهدوء الشامل بين يدى المساء.

٤٧

جلس شمس الدين على الكنبة فلم يفارقه سليمان. لم لم يفارقه؟ هل يشى وجهه بآلامه؟

ـ لم لا تنصرف بسلامة اللَّه؟

فتمتم سليمان:

ـ إنى خجلان بما جرى.

ـ اذهب مصحوبا بالسلامة.

أراد أن يكرر الأمر، ولكنه صمت. لم يتحرك لسانه ونسى. أقبل الليل قبل موعده.

٤٨

أغمى على شمس الدين الناجى.

فتح عينيه فرأى تلالا حمرا فوقها سماء تقطر غبارا. غازلته ذكرى وسرعان ما تلاشت. إنه يتنفس فى كهف تسكنه اللامبالاة. ينحسر الضباب فيتراءى وجه عجمية ووجه سليمان. يدهمه الوعى بغلظة وضحكة صفراء. شم رائحة ماء الورد المتطايرة من عنقه ورأسه.

همست عجمية بوجه شاحب:

ـ هربت دمنا..

وسأله سليمان بصوت متهدج:

ـ بخير يا أبى؟

غمغم :

ـ الحمد للّه . .

ثم بنبرة المعتذر :

ـ حتى شمس الدين لا ينجو من المرض . .

فقالت عجمية بحيرة :

ـ ولكنك لم تشك . .

ـ ما أبغض الشكوى إلىّ .

وبقلق تساءل :

ـ تسرب الخبر إلى الخارج ؟

ـ كلا ، غبت دقيقتين . .

ـ عظيم ، لا يجوز أن يعرف الخبر ، حتى الأبناء لا يجوز أن يعرفوا . .

ونظر إلى سليمان وقال :

ـ ستنسى كل شىء عقب خروجك . .

فحنى رأسه امتثالا ، ولكن عجمية سألته :

ـ أنت بخير ؟

ـ كل خير .

ـ عند العطار وصفة ولا شك تفيدنا .

فقال بامتعاض :

ـ إنه من أعدائنا .

ـ الحلاق مفيد أيضًا وهو من محبيك . .

ـ قلت إنه لا يجوز أن يعرف الخبر ، وأنا بخير . .

فتساءل سليمان بجزع :

ـ ولكن لم حصل ما حصل ؟

فقال متظاهرا بالثقة :

ـ إنه الجهد عقب الإفراط فى الطعام !

ـ استرد الوعى تمامًا فاسترد الثقة . نهض وتمشى فى الحجرة الصغيرة . ألا يحسن به أن يسهر بعض الليل فى الساحة كما كان يفعل عاشور ؟

ثم ناداه النوم بإغراء لا يقاوم .

٤٩

مضى نحو الساحة عند الأصيل. كانت الشمس تسحب أذيالها من الأسطح والمئذنة. مر بعتريس وهو يسقى حماره من الحوض فحياه الشاب تحية الصبى لمعلمه المهيب. وعند زاوية السبيل التقى بسعيد الفقى شيخ الحارة فوقف يتبادل معه حديثا عابرا. من مكمنه وراء جناح السبيل ترامى إليه صوت عتريس وهو يخاطب آخر قائلاً:

ـ معلمنا شمس الدين ليس كعادته..

فقال الآخر بأسف:

ـ لعله مريض..

فقال عتريس مشاركًا فى الأسف:

ـ أو لعله العمر!

اجتاحته شعلة غضب. غادر مكمنه فرجع إلى عتريس وهو يهتف:

ـ أيها الجماد!

ورفعه بين يديه عاليا ورمى به فى الحوض. تفرق الواقفون تاركين الحمير وقد جفلت من رجرجة الماء عقب سقوط الجسم.

ولم يعد يصلح لزيارة الساحة فعدل عنها. وباندفاعة عمياء بادر إلى الخمارة فمرق من بابها مثل عاصفة.. سكتت الأصوات المخمورة وحدقت به الأبصار فى توقع ودهشة. جعل ينظر إليهم فى تحد غير مفهوم حتى وقفوا مترنحين وخاشعين..

دارت برأسه أفكار شيطانية وسرعان ما هرع إليه عثمان الدرزى. أفاق من جنونه فتلاشت نواياها المستهترة. استسخف سلوكه. كلا. لن يتحدى الهواء. لن يتمادى فى ارتكاب الحماقات. ستسنح فرصة فينتهزها. ستعرض تجربة فيخوضها.

وغادر المكان دون أن ينبس بكلمة أو يفعل شيئا تاركًا وراءه ذهولا شاملا.

٥٠

الأيام تتلاحق. ثمة مصير يتخايل عن بعد، ولكنه راسخ ويقترب. لا شىء يؤخر خطوته. إنه يشد عضلاته ويسل إرادته وينتظر. لماذا تتمسك بالقوة ولست عابدها

الأوحد. الشيب ينتشر. أيضا التجاعيد حول الفم وتحت العينين. البصر يفقد حدته وكذلك الذاكرة.

ويزحف التغير على عجمية بسرعة أشد ودون تدرج. تفتر شهوتها للطعام ويسوء الهضم. وتصاب بآلام مجهولة فى الظهر والساقين. وتهزل وتنضب ثم تستسلم للرقاد. ماذا دهى هذه المرأة القوية؟ وتجرب الوصفة بعد الوصفة ولكن ثمة شيئًا جوهريّا فقد.

ويكثر من الجلوس فى القهوة تاركًا الكارو لسليمان. يجتمع برجاله، يسمع الأخبار، يزن كل يوم سطوته، يمتحن فى النفوس أثره وهيبته. ويقول أحد أتباعه ذات يوم:

- ظهر فى العطوف فتوة جديد..

فيقول باستهانة:

- لعل القدر يعميه عن وزنه الحقيقى لنؤدبه!

وفى المساء يخلو إلى نفسه ساعة فى الساحة يستمع إلى الأناشيد ثم يسرع إلى البيت ليجلس إلى جانب عجمية. ويلاحظ بلا جهد أنها تمضى من سيئ إلى أسوأ. هل تقدر عليه الوحدة فى آخر أيامه؟ كل وصفة جربت ولكنها تمضى من سيئ إلى أسوأ.

٥١

وكان راجعًا إلى البيت ظهرًا عندما ارتطمت قدمه بنحلة يلعب بها طفل. وجاء صوت الطفل وهو يصيح مغيظًا:

- يا عجوز يا أعمى!

التفت نحوه فرآه فى طول عنزة وهو يحدجه بنظرة جريئة متحدية. ودَّ لو يهرسه بقدمه. كظم غيظه ومضى. هذا جيل يجهله. إنه يعيش بفضله ويجهله، ويصرح بعفوية بما يكتمه الراشدون. أليس من الأفضل أن نموت مرة واحدة؟

٥٢

عند الفجر من تلك الليلة استيقظ على حركة مبعثها عجمية. أشعل المصباح فوجدها جالسة فى الفراش متألقة بحيوية طارئة بعثت فى نفسه الأمل.

قال لها :

ـ لقد شفيت يا عجمية .

ولكنها لم تجبه . نظرت إلى الجدار وهمست :

ـ أبى . .

فامتلأ كآبة وتمتم برجاء :

ـ عجمية !

رآها تغيب فى المجهول وتتلاشى فهتف :

ـ لا تتركينى وحدى .

أسندها إلى صدره .

رفيقة العمر تحتضر .

ودهمه البكاء مجردا ولكن لم تسل من عينيه دمعة واحدة .

٥٣

تناوبت زوجات أبنائه خدمته . لم يخل البيت من أصوات وأنفاس ، ولكنه كان يناجى نفسه :

ـ ما أفظع وحدتى !

لم يحزن لموت عجمية كما توقع . شعر بأنه على بعد خطوات قلائل منها . الحزن فى مثل سنه لا يعنى شيئًا . إنه لا يخشى الموت ولكن الضعف يخشى . أصبح طاعنا فى السن ، وسيجىء يوم لا تبقى له فيه من الفتونة إلا الاسم والذكرى .

وقال له بكريه سماحة ، وكان قد جاوز الخمسين :

ـ من حقك أن تخلد إلى الراحة . .

وأكثر من واحد قال :

ـ ستجدنا جميعا فى خدمتك . .

فتساءل محتدا :

ـ ماذا تريدون ؟

فلم ينبس أحد فقال :

ـ لولا ثقتى بقوتى لاعتزلت !

فقال سماحة :

ـ دع سليمان يحمل العبء .

ولكن سليمان بادره :

ـ ما زال أبى هو الأقوى . .

فرمق ابنه بامتنان وتساءل :

ـ ماذا تعرفون عن لعنة العمر ؟

فقال سماحة :

ـ إنه ينقلب نعمة بين أحضان الراحة . .

ـ ويطمع الآخرون فينا ، ما أبغض قفا الحياة !

وساد الصمت حتى قال بضيق :

ـ انصرفوا مشكورين . .

٥٤

صلاح كار كجا ومن خراب كجـا
ببين تفاوت ره از كجاست تابكجا.

كان يذوب فى السماع تحت ضوء البدر الذى حول بكيميائه بلاط الساحة إلى فضة . وقبيل منتصف الليل غادر مجلسه . مر بدكان سعيد الفقى شيخ الحارة وهو به ، فلما رآه الرجل مضى إليه وهو يتساءل :

ـ أما علمت يا معلم ؟

فلما استوضحه ما يعنى ، قال سعيد الفقى :

ـ رجالك يتربصون لزفة فتوة العطوف الجديد !

انتفض غاضبا وهتف :

ـ كذب .

ـ هى الحقيقة وسينتصرون بإذن اللّه . .

ـ أين ؟

ـ عند بوابة المتولى ، يريدون أن يشكموا الفتوة الجديد . .

فتساءل شمس الدين محتدا :

ـ من وراء ظهرى؟!

وضرب الأرض بعصاه العجراء واندفع فى الظلام .

أتبعه سعيد الفقى عينيه حتى اختفى ثم تمتم ساخرا :

ـ أيها العجوز المخرف الذى يبول على نفسه!

٥٥

بدأت المعركة قبل وصوله بدقائق . رآه بعض رجاله فصاحوا :

ـ شمس الدين الناجى . .

الزفة تفور بضربات النبابيت . . سليمان يفعل الأعاجيب . فتوة العطوف يحمل حملات صادقة تزلزل الرجال .

اندفع شمس الدين بلهفة إلى قلب المعركة . وثب برشاقة أمام ابنه سليمان فصار وجها لوجه مع فتوة العطوف . تفادى من ضربة شديدة ثم وجه ضرباته السريعة فى خفة وحذر . امتلأ بقوة عجيبة لا يدرى من أين جاءته فقاتل كخير ما قاتل من قبل . تجلى مندفعا فياضا ملهما شديد البأس . تضاعف حماس رجاله وتصاعدت جعجعة النبابيت . وثمل بنشوة القتال فخلق المعجزات . أصابته ضربات لم تعجزه ولم توقفه . ونال من خصمه ضربة أخرجته من النضال . وسرعان ما تفشى الخور فى رجال العطوف وأخذوا يتقهقرون .

وما هى إلا ساعة حتى انقلبت الزفة مأتما . تحطمت الكلوبات وديست الورود وتحطمت المزامير والدفوف ولاذ الرجال بالهرب . .

وقف شمس الدين وهو يلهث والدم يخضب جبهته . التف حوله رجاله . وجاء سليمان فلثم يده ولكنه قال له :

ـ لى معك حساب .

فقال سليمان معتذرا :

ـ إنه الوفاء لا الغدر .

وصاح الرجال :

ـ صلاة النبى ترضى النبى .

٥٦

رجع الرجال، على رأسهم شمس الدين الناجى، يخوضون الظلام على ضوء الشموع. وأنشدوا بأصوات أيقظت النيام:

ـ اسم اللَّه عليه.. اسم اللَّه عليه..

ثم غنى ذو صوت حسن:

يا عود قرنفل فى الجنينة منعنع

ولكن شمس الدين لم ينعم طويلا بفوزه المبين. سرعان ما انفصل عن الجمع فوجد نفسه وحيداً. وحيدا فى وحدة متعالية وموحشة. ووردت كلمة تقول إن كل شىء هباء حتى الفوز. وتقول أيضًا إن الهتاف كثير ولكن ما أكثر الآذان التى تتعاقب على سماعه! وأقبل نحوه عاشور الناجى حاملا على ذراعيه أمه الجميلة فى كفنها الكمونى، وفرح لظهور عاشور بعد اختفائه الطويل. وقال إنه كان على يقين من ظهوره ذات يوم، ولكن ألم تدفن أمه بعد؟ وفى لحظات الرضا تهبط سحابة فيمتطيها ذو الحظ السعيد فترتفع به فى جوف القبة. عند ذاك لا يبالى بالموجات المثبطة التى يتلقاها من المجهول. يستوى لديه أن تحمله ساقاه أو تخذلانه. ولكنه وحيد. وحيد يتألم. ما معنى هذا الضعف الزاحف. الأنوار الخافتة تنطفىء. إنه يقترب من الحارة وفى الحقيقة هو يبتعد. يبتعد إلى ما لا نهاية. لم يعد له من مطمح أكثر من أن يبلغ فراشه.

وتجلجل الأصوات:

ـ اسم اللَّه عليه.. اسم اللَّه عليه..

ويصارع شمس الدين المجهول فى وحدته. إنه يصده عن السير، يرفع أديم الأرض حيال قدميه، يسرق فوزه العظيم ببسمة ساخرة.. ويكور قبضته، ويسدد إليه ضربة فى الصدر لم يعرف لعنفها مثيلا من قبل.

وتأوه شمس الدين الناجى ثم تهاوى فتلقفته أيدى الرجال.

الحب والقضبان
الحكاية الثالثة من ملحمة الحرافيش

١

خفقت الأفئدة لموت شمس الدين الناجى. أسهمت الحارة فى تشييد قبر له يليق بمقامه. وشيعته إليه فى جنازة مهيبة لم يتخلف عنها رجل أو امرأة. وعدت صلابته البطولية أسطورة وكرامة من كرامات الأولياء حتى سمى بقاهر الشيخوخة والمرض. وبقيت ذكرى فتونته النقية العادلة خالدة مثل فتونة أبيه العظيم، وتنوسيت هناته الانفعالية، ولم ينس أحد أنه عاش ومات كادحا، كما عاش ومات فقيرا.

وبفضله وفضل أبيه عاش فى وجدان الحارة مثلا أعلى ترنو إليه الأعين والقلوب على تعاقب الأزمان.

٢

تولى الفتونة سليمان شمس الدين الناجى. عملاق مثل جده عاشور، دون أبيه فى الجمال والرشاقة، ولكنه مكتس بروعة الصورة الشعبية الأصيلة. لم يتقدم لمنافسته أحد، وانضم إليه عتريس بحماس وحب. ولم يتغير مذاق الحياة فى شىء. لعب الأمل بقلوب السادة والوجهاء أياما ثم خمد. لم يكن عمره يتجاوز العشرين ولكنه اتبع خطى أبيه بلا تردد. ظل حامى الحرافيش وشاكم الأغنياء، وعدو البلطجة، ومارس مهنة أبيه برضا واقتناع.

وكالمتوقع واجه تحديات من فتوات الحارات المجاورة فلم ينكص عن خوض المعركة بعد المعركة، وأحرز فى كل معركة انتصاراً. أجل لم تكن انتصاراته بقوة انتصارات أبيه أو جده، ولكنها كانت كافية لتأمين الحارة وبسط قدر لا يستهان به من هيبتها. وترك العراك آثارا مستديمة فى الجبين والعنق، ولكنها عدت شهادة طيبة لبطولته الرائعة.

ومن الحق أن يقال إن قلبه كان ينازعه أحيانًا إلى الحياة الطيبة الرغيدة، وإنه

كان يقرأ مثل ذلك فى وجوه أعوانه وإخوته، ولكنه تجهم الضعف ولم يشجعه وفتح قلبه الغض لسحر العظمة الحقيقية.

٣

وكانت فتحية ـ شقيقة صديقه عتريس ـ زميلته فى الكُتَّاب. وغابت عنه دهرا حتى رآها مرة أخرى فى جنازة أبيه. ورغم حزنه مال قلبه إليها. كانت تقاربه فى السن، فى أنفها فطس. عميقة السمرة، جميلة العينين، ذات حيوية فائقة، وشعر بأن الزواج جدير بأن يصون فتونته من مباذل لا تليق بالفتونة النقية. هكذا طلب يدها من عتريس، وسرعان ما زفت إليه، واستبشرت الحارة بالزواج خيرا، وعدته نصرا للحرافيش والفتونة النقية.

٤

ومضت عشرة أعوام هادئة. كان سليمان يعمل شاعرا بأن الفتونة عبء ثقيل وبهجة عابرة. وكانت فتحية تعمل كما عملت عجمية وفلة من قبل وتلد بنتا بعد بنت.

وفى العام الأخير من أعوامه الهادئة رأى سنية السمرى.

من مجلسه فى القهوة فى أوقات الراحة يراها والدوكار يمضى بها. كريمة السمرى كبير تجار الدقيق، براقة المنظر فى طزيرتها، تطل من فوق برقعها الأبيض عينان سوداوان ساجيتان ساحرتان، يبعث مرورها السريع الدفء والإلهام.

تعلق بالدوكار اهتمامه. امتد بصره إلى دار السمرى السامقة. حلم على إيقاع جرس الدوكار برقص الفتوات فى أعقاب الظفر. تاه بعملقة الفتوة على تواضع الكارو. وتساءل من يجلس إذا سليمان وقف. وعدا بوابة التكية فأى باب يغلق فى وجهه. والضعف قبيح، ولكن ألم يعشق عاشور فلة جدته؟ أليست دار السمرى أنقى من خمارة درويش؟ هل كان عاشور ينكص إذا كانت فلة كريمة للبنان؟ هل غير استيلاؤه على دار البنان من عدله وطيبته. وهو قادر على قهر الفتوات ومحق الإغراء، ولكن الحب قدر. وحتى شمس الدين فى هوى قمر وقع. سيجزع الحرافيش ويفرح السادة ولكن سليمان لن يتغير. ثم ما الحيلة إذا كان الحب حكم. أجل ما زالت فتحية الزوجة المخلصة والأم الولود. وهى أيضًا شقيقة عتريس الوفى. الحب الجديد غطاها كالموجة الصاخبة ولكن جذورها هناك راسخة. ما أعذب الألم فى محن الأهواء الجامحة!

٥

عقب صلاة الجمعة سار سعيد الفقى شيخ الحارة إلى جانبه. قبيل القهوة قال له:

ـ رأيت يا معلم حلما عجيبا. . .

فحدجه سليمان بنظرة متسائلة فقال:

ـ حلمت بأن أناسا طيبين يتمنون لقاءك. .

فخفق قلب سليمان وشعر بأنه تجرد فجأة من ملابسه وتمتم ساخرا ليدارى اضطرابه:

ـ حلم شيطانى. .

فواصل شيخ الحارة بجدية:

ـ ولكنهم ينتظرون أن تجىء الخطوة الأولى منك. .

وتساءل سليمان متخابثا:

ـ ماذا يريدون من سواق كارو؟

فأجاب سعيد الفقى بإجلال:

ـ أن يوصلهم إلى سيد الحارة دون منازع. .

٦

ارتفعت موجه الإغراء كالجبل، فاستدعى سليمان عتريس إلى مجلسه بالقهوة وقال له:

ـ عندى سر أريد أن أفضى به إليك.

فتطلع إليه عتريس فى امتثال، فتساءل سليمان:

ـ أنت صديقى فكيف ترانى لو تزوجت مرة أخرى؟

فسأله عتريس ببساطة:

ـ تنوى التخلص من فتحية؟

ـ بل ستبقى فى أعز مكان. . .

فضحك عتريس وقال:

ـ أنت تعلم يا معلمى أنى شارع فى الزواج من الثالثة!

ـ الرجال لا يتنابذون بسبب النساء ولكن توجد مشكلة فى الأمر . . .

فابتسم عتريس وقال :

ـ إن الجديدة من دور السادة؟!

فتمتم سليمان بارتياع :

ـ ذاع السر لهذا الحد؟

ـ الحب ذو رائحة نفاذة!

ـ ماذا يقول الناس؟

ـ وماذا يهمنا من الناس؟

ـ ماذا يقول الحرافيش؟

فقال عتريس باندفاع :

ـ اللعنة على الحرافيش ، أما أعوانك المخلصون فسيرقصون طربا . .

فبادره سليمان عابسا :

ـ أخطأت التصور يا عتريس ، سليمان الناجى لن يتغير . .

فانطفأ تألق الآخر وقال :

ـ هل تشرك الهانم فى بدروم فتحية؟

ـ أيّا كان الحل فسليمان لن يتغير . . ، الحق أنكم تضيقون بالعدل ضيق الوجهاء!

ـ معلمى ، مَن من الفتوات يرضى بما نرضى به من العيش؟

فقال سليمان بإصرار :

ـ سليمان لن يتغير يا عتريس!

٧

حمل سعيد الفقى رغبة سليمان إلى السمرى وسرعان ما قوبلت بالرضا . كان السمرى فى أعماقه يحتقر سواق الكارو وأصله ولكنه كان يتطلع إلى مصاهرة الفتوة الجبار سيد الحارة وشاكم الأغنياء . ورجا رجاء واحدا أن يخصص لكريمته جناحا فى داره حتى يشيد لها داراً مناسبة فلم يعارض سليمان فى ذلك . وصعقت فتحية وبكت

ولكنها سلمت بالمقدر . وفرح السادة وتوجس الحرافيش ولكن سليمان أعلن أنه لن يتغير .

وشهدت الحارة زفافًا لم تشهد له مثيلا من قبل .

٨

هكذا ربطت المصاهرة بين الفتوة سليمان وبين الوجيه السمرى . وقال عنها شيخ الحارة سعيد الفقى :

ـ مصاهرة مباركة بين الفتونة والوجاهة .

وقد امتلأ جيبه جزاء سعيه المشكور ، بالرغم من أن سليمان أعلن أنه لن يتغير . ولكن الحياة جادت بمذاقات جديدة ، وحملت السحب ماء سلسبيلا . وقال سليمان لنفسه إن من النساء من هن جبن قريش ومنهن من هن زبدة وقشدة . أسكرته الرائحة الزكية ، وداهنته البشرة الملساء ، وأطربته النبرة العذبة . وحلت دنياه الرشاقة اللعوب . وبإقامته فى دار السمرى أيامًا معدودات كل أسبوع عرف نعومة المجلس ، ودفء المرقد ، وسلاسة الملبس ، وأبهة الماء الساخن فى الحمام الفسيح ، والستائر والوسائد والنمارق ، والتحف والتهاويل ، والسجاجيد والأبسطة ، والحلى والجواهر ، والأهم من ذلك كله الأطعمة الفاخرة واللحوم المتنوعة والحلوى الساحرة . . وذهل الفتوة ، وعجب كيف تسكن هذه الجنة الخلابة فى طوايا الحارة المتقشفة . أجل حافظ على مظهره فى الخارج . وأصر على ممارسة عمله المتواضع . ولم يتلفع أمام الأعين إلا بعظمته الحقيقية . غير أنه آنس رياحًا جديدة تهب على جوه المستقر ، وشررا يتطاير يوشك أن يشعل حرائق الأركان . ثمة نظرات نافذة تهتك ما يستقر فى معدته من أطايب الأطعمة والأشربة . وهمسات تدور حول الجنة الخفية ، بخاصة من رجاله وأتباعه . واضطر ـ ولأول مرة ـ أن يوزع عليهم فى المواسم والأعياد ، وفى سرية بالغة ، نقودا من الإتاوات ، دون غبن يذكر للفقراء والحرافيش . شعر وهو يفعل ذلك بأنه يخطو الخطوة الأولى فى طريق كريه شديد الانحدار ، وأنه يحيد نوعا ما عن سبيل الناجى . ثم هاله أن ينعم بما ينعم به فى دار السمرى على حين تعانى فتحية وبناتها حياتهن الجافة الشاحبة ، فامتدت يده مرة أخرى إلى الإتاوات وخصهن بنفحات محدودة ، منحدراً درجة جديدة فى الطريق الكريه . ومضى يقول متعزيا :

ـ لن يمس ذلك حقوق الفقراء والحرافيش إلا قليلا . .

ولم يسكت حواره مع نفسه، ولم تصف الحياة من شوائب الكدر . وها هى ذى سنية تلح عليه فى أن يكف عن ممارسة مهنته، أن يؤجر آخر ليسوق الكارو، وها هو ذا يرفض بإباء، ويحاول أن يسيطر سيطرة الفحل القوى . وهى تحب وتتظاهر بالطاعة تاركة الفعل والتأثير لحبها المتسلل المقتحم وكلما شعر سليمان بأنه يتغير قال لنفسه بحزم :

ـ ما تغيرت، ولن أتغير . .

٩

وجمعت مائدة العشاء بدار السمرى بينه وبين وجهاء الحى . كانوا يتجنبونه خوفا أو إيثارا للسلامة، الآن يحدقون به آمنين كما يحدق المشاهدون بالأسد فى حديقة الحيوان .

وتبودلت الأنخاب، وجرت الدماء بالشجاعة، وهلت تباشير الآمال، حتى قال صاحب الوكالة :

ـ لعلك ظننت يوما أننا لا نذعن لك إلا بالقهر، ألا تدرى يا معلم أن العدل قيمة يحبها فى النهاية من ينتفع بها ومن يخسر؟ !

فتمتم متسائلا :

ـ ومن يخسر؟

ـ حسبك أنك جنبتنا الحقد والحسد واللصوص .

وهنا قال البنان :

ـ ولكننا وجدنا فى عدلك الشامل شيئًا من الظلم !

فتساءل مقطبا :

ـ الظلم؟

ـ ظلمك نفسك وأتباعك . .

وتساءل العطار :

ـ أى ظلم فى أن تنال نصيبك كاملاً وأن ينالوا نصيبهم؟

وتساءل حموه السمرى :

ـ ألا تسفك دماؤكم دفاعا عن كرامتنا؟

وقال تاجر الغلال :

ـ الفتوة ورجاله من الوجهاء، أو هذا ما ينبغى أن يكون . .

فقال معترضا :

ـ كلا ، ما فعل ذلك أبى ولا جدى . .

فقال صاحب الوكالة :

ـ لولا إقامة جدك العظيم فى دار البنان ما عرفت الحارة معنى الفلاح . .

فقال بإصرار :

ـ كان فتوة أعظم منه وجيها . .

فقال صاحب الوكالة :

ـ خلق الفتوة ليكون وجيها وليلعنى اللّه إن كنت كاذبا أو مغرضا فيما أقول!

وضحك ساخرا ودفء الخمر يغزوه . .

١٠

وأنجبت سنية له «بكر» ثم «خضر» فنعم بما يعده أبوة حقيقية . وفى أثناء ذلك تم تشييد دار جديدة لسنية . وبات سليمان يسعد بأيامه فى الدار بقدر ما يشقى بعودته الإجبارية إلى بدروم فتحية . استولت سنية على قلبه تماما كما استحوذت دارها على رغباته . وبتعاقب الأيام زحف على وجدانه مخدر فعال . كف عن عمله وأحل فيه أحد رجاله . وزاد من الهبات لنفسه ولأعوانه فمضت العصبة ترتفع نحو منازل الوجهاء حتى هجروا فى النهاية حرفهم البسيطة أو أهملوها . وتناقصت أنصبة الفقراء والحرافيش وإن لم يحرموا من الهبات .

تغير وجه الحارة المشرق ، وأخذ الناس يتساءلون : أين عهد عاشور؟ أين إخلاص شمس الدين؟ وتحفز الأتباع للمتسائلين وأرهبوا الساخطين .

وأنشأت سنية بكرا وخضرا نشأة مرفهة ناعمة ، ثم أدخلتهما الكتاب ، وأعدتهما للتجارة ، فلم يبشر أحدهما بأنه سيخلف أباه ذات يوم . ولما بلغا سن المراهقة فتحت لهما محلا لبيع الغلال وبذلك صارا تاجرين وجيهين . .

وتجنب سليمان المعارك ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وآثر فى النهاية أن يحالف فتوة الحسينية ليتفادى من مواجهة التحديات وحده ، وفقدت الحارة مركز السيادة الذى تبوأته منذ عهد عاشور الناجى .

وتغيرت صورة العملاق ومنظره ، ارتدى العباءة والعمامة ، واستعمل الكارتة فى

مشاويره، نسى نفسه تمامًا، ثمل حتى أصابه خمار الانحراف، ومضى يمتلئ بالدهن حتى صار وجهه مثل قبة المئذنة وتدلى منه لغد مثل جراب الحاوى.

وكان سعيد الفقى عندما يهنئه بأحد الأعياد يقول له:

ـ أيامك كلها أعياد يا معلم سليمان..

١١

كان الشقيقان بكر وخضر مختلفى المظهر. بكر يشابه أمه سنية هانم فى جمالها ورقتها، يبدو دائمًا هاشا مترفعا. أما خضر فرغم جماله ورث عن أبيه وجنتيه البارزتين وطوله دون عملقته وإلى الرقة كان أقرب. ولعله لم يكن فى ترفع شقيقه ولكنه لم يعد على أى حال متواضعا. واكتسبا معا من دار السمرى أسلوبا راقيا فى الحياة وعادات عالية وتهذيبا أنيقا، فلم يعرفا حارتهما إلا من الشرفات العالية، ولم تطأ أقدامهما أرضها المبلطة، وأدارا محلهما من حجرة فاخرة لا يتلاقيان فيها إلا بكبار التجار تاركين المعاملات اليومية مع الجمهور لوكيل المحل. ولم يفهما والدهما. رغم أنهما لم يرياه إلا فى أفخم صورة، فإنهما لم يقتنعا بالفتونة ولا أضمرا لها الاحترام الكافى. لم يفطنا إلى أنه لولا سطوة أبيهما لما نجحت تجارتهما، ولعبث العملاء والتجار بسذاجتهما التجارية، فحصلا الخبرة والمهارة فى أسعد الظروف المواتية وهما لا يعلمان.

١٢

وذات مساء جلست الأسرة حول المدفأة المطلية بالفضة فى بهو المعيشة. كان شهر طوبة يستوى على عرشه الثلجى والرذاذ لم ينقطع منذ الصباح الباكر. ونظر سليمان إلى ابنيه الرقيقين المتلفعين بالعباءة المخملية المنزلية ثم قال باسما:

ـ لو رآكما عاشور الناجى لأنكركما وتبرأ منكما..

فقالت سنية وهى ترمقهما بحب وإعجاب:

ـ حتى الملوك يتمنونهما!

فقال سليمان بوجوم:

ـ إنهما ابناك وحدك وما منهما أحد يخلفنى..

فبادرت متسائلة :

ـ ومن أعلمك أننى أود لهما الفتونة؟

فسألها بجفاء :

ـ ألا تحترمين الفتونة؟

فتراجعت بلباقة قائلة :

ـ أحترمها كما أحترم رجلها ، ولكننى أكره أن يتعرض ابناى لمخاطرها . .

وتساءل : ما جدوى الخصام؟ وماذا بقى من العهد؟ لقد تزوجت بناته الكبريات من حرافيش . أما الصغيرة المعاصرة للوجاهة فقد تزوجت من «محترم» وسوف تنجب ذرية غريبة مثل أبيها . وقد استنام الضمير إلى الدعة ، واستسلم الجسد الشره إلى تيار الإغراء والاستهانة . والمعارضة فى هذه الحال حركة ساخرة .

قال ابنه بكر :

ـ ولكن جدنا عاشور الناجى كان يحب الحياة الفاخرة!

فسأله بغضب :

ـ من أنت لكى تفهم المعلم عاشور؟

ـ هكذا قيل يا أبى . .

ـ لا يفهم عاشور إلا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدسة . .

ـ ألم يحتل دار البنان؟

فقال سليمان محتدا :

ـ معجزته فى الحلم والعهد .

فقال بكر بجرأة غير محمودة :

ـ كان يستطيع أن يهرب من الشوطة بلا حلم .

احتقن وجه سليمان بالدم وهتف :

ـ هكذا تتكلم عن الناجى؟

تمخض الوجيه عن وحش فى لحظة من الزمان ، وكأن عاشورا الأسطورى قد بعث من جديد ، فجفلت سنية وقالت مخاطبة ابنها بحدة :

ـ جدك رجل مقدس يا بكر . .

وصاح به أبوه :

ـ إنك لا تصلح لشىء نبيل . .

وغادر الرجل مجلسه إلى مخدعه، فقالت سنية لبكر:

ـ لا تنس أنك بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجى!

وتمتم خضر:

ـ أجل.

فقال بكر وما زال متأثرا من غضبة أبيه:

ـ ولكنى تاجر ومن آل السمرى أيضا.

١٣

وقررت سنية هانم أن تفرح ببكريها. وكانت معجبة برضوانة رضوان كريمة الحاج رضوان الشوبكشى العطار فخطبتها له. لم يرها بكر من قبل ولكنه كان يثق بشهادة أمه.

وكان الحاج رضوان الشوبكشى واسع الثراء وفير الذرية وعاشقا للهو والطرب. وزفت رضوانة إلى بكر، وخصص لهما جناح فى الدار.

١٤

بزواج بكر وفد إلى الدار جمال جديد. فرح بها بكر وعشقها من أول ليلة. كانت ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبى. ذات قامة فرعاء رشيقة. شىء واحد ضايق بكرا مضايقة عابرة، أنها كانت تماثله فى الطول، وتبدو أطول منه بحذائها ذى الكعب العالى. وقالت له أمه تطمئنه من ناحية أخرى:

ـ ستجدها ذات قابلية للامتلاء، وستصير مع الأيام فى وزن أمها بإذن اللّه..

وكانت العروس تتعثر فى الحياء ولا تكاد تنظر فى وجه أحد. ولكنها مع الأيام بدأت تكتشف ما حولها، وتحدث بنظرات نافذة فى وجه الأب العملاق، وخضر شقيق زوجها، وسائر الأشياء المحيطة بها.

وقال خضر لأمه مرة:

ـ العروس لا تستقر.

فقالت باسمة:

ـ ستستقر عندما تنجب، إنى أعرف هذا النوع النفيس. ألا تود أن أخطب لك فتاة مثلها؟

فقال خضر:

ـ ليس قبل أن أبلغ العشرين..

وتردد وهو يرنو إلى عينين فارسيتين ترنوان إليه من سجادة معلقة فوق الجدار، ثم قال:

ـ وأفضل الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين..

فبسطت سنية ضفيرتها الفحماء أمام عينيها وتساءلت باسمة:

ـ هل ولى زمان الشعر الأسود؟!

١٥

وانعقدت بين رضوانة وخضر صداقة وأخوة. وكان يقوم بخدمتها كلما غاب بكر فى إحدى رحلاته التجارية. وفى أثناء ذلك عرف شقيقتها الصغرى وفاء. كانت صغيرة الجسم، باهرة الجمال، ولكنها ذات شعر كستنائى وعينين عسليتين. وقام بخاطره أن رضوانة قد تقترحها عليه زوجة بطريقة أو بأخرى، فأشفق من أن يغضبها رفضه. وسألته أمه ذات يوم:

ـ هل تعجبك وفاء؟

فقال بحزم:

ـ فتاة ممتازة، ولكن ليست لى..

فتمتمت أمه بأسف:

ـ أراها ممتازة حقّا...

وعند ذاك قال لأمه:

ـ أخشى أن تغضب رضوانة إذا علمت..

فقالت سنية:

ـ رضوانة ذات كبرياء وهى لا تعرض شقيقتها للبيع، ثم إن الزواج قسمة ونصيب!

١٦

وقام بكر برحلة تجارية تستغرق بضعة أيام .

وعندما رجع خضر من المحل مساء إلى الدار وجد رضوانة واقفة عند مدخل جناحها . تصافحا . وعندما همَّ بالسير قالت له :

ـ أريد مشورتك فى أمر .

تبعها إلى بهو الجلوس . جلس على ديوان . جلست أمامه على أريكة وراحت تتطلع إليه فى صمت كأنما لا تدرى كيف تبدأ حديثها . تنسم فى الجو أريج بخور مخدر وراح ينصت لهسيس الصمت . ولكى يشجعها على الكلام قال :

ـ إنى رهن إشارتك . .

فلم تنبس ، ولما لاحظت شدة انتظاره قالت :

ـ لا أدرى ماذا أقول ، هل ضقت بسرعة من وجودك معى؟

ـ أبدا ، المسألة أنى أود خدمتك .

فقالت بغموض :

ـ لا أريد أكثر من ذلك . .

انتظر وهو يقلق تحت شعاع العينين . تضاربت فى رأسه التخمينات . حدث شىء لم يقع له فى بال؟ هل سيفاجأ باقتراح محرج؟ قال :

ـ تحت أمرك . .

فقالت بنبرة غريبة :

ـ أنت تجهل حالى ، ولذلك فإنى أغفر لك تسرعك . .

ـ دعينى أطمئن عليك . .

ـ أهذا ممكن؟

ـ لم لا؟ يجب أن يكون ممكنا . .

فتساءلت وهى تهرب من عينيه :

ـ هل ذقت الهزيمة فى حياتك؟

ـ لا أظن ، ولكن أى هزيمة؟ من عدوك؟

ـ لا عدو لى ، إنها هزيمة من الداخل . .

فهزَّ رأسه متحيرا فقالت متشجعة بصورة أوضح :

ـ هزيمة الإنسان أمام نفسه، رضاؤه بالدمار إذا شئت . .

فقال متجهما :

ـ أعوذ بالله! صارحيني كأخ . .

فقالت بنبرة قاطعة :

ـ كلا، إخوتى هناك فى الدار الأخرى . .

ـ ولكنى أخوك أيضا . .

ـ كلا، ولكن لم لا تسمع القصة من أولها؟

فقال بتلهف :

ـ إنى مصغ .

فقالت بقلق واضح :

ـ حدث وأنا بنت فى دار أبى أننى رأيتك مرة ومرة على تباعد فى الزمن وسمعت من يقول إنك ابن الفتوة سليمان الناجى .

هزَّ رأسه صامتا، وتلقى فى الوقت نفسه رسالة مقلقة من المجهول. أما رضوانة فواصلت حديثها :

ـ لم أر بكر أبدا، هكذا حدث، لم أعرف حتى إن لك شقيقا، فلا لوم على أحد . .

ازدادت نذر المجهول، نفثت المخاوف فى الجو الذى يعبق البخور به، استحضر صورة بكر وأمه وأبيه . . جاءت الأسرة لتسمع القصة العجيبة .

ـ لماذا لا تتكلم؟

ـ إنى أصغى . .

فقالت ضاحكة فى ارتباك :

ـ ولكن القصة انتهت .

ـ ولكنى لم أفهم شيئًا . .

ـ إنك لا تريد أن تفهم . .

فقال بيأس خفى :

ـ كلا . .

فقالت وهى تحدجه بنظرة ماكرة وجريئة :

ـ سأجاريك ليس إلا، ذات يوم أخبرتنى أمى أن سنية هانم السمرى خطبتنى لابنها . .

رفعت عينيها إلى السقف حتى ترامى جيدها كالشمعدان الفضى. شىء هتف به أن الجمال الآسر قد خلق للقتل. وأن الأسى أثقل من الأرض وأشمل من الهواء. وأن الإنسان لا يتنفس بحرية إلا فى منفى الهجر.

واعترفت قائلة فى استسلام ناعم عذب:

ـ بصعوبة شديدة واريت فرحتى!

ثم فيما يشبه الغناء:

ـ ولم يداخلنى شك فى أنه أنت!

خرس وجفل، فقالت وهى تحدجه بجرأة:

ـ هذه هى القصة، فهل فهمت؟

فقال بصوت متهدج:

ـ ساق الحظ إليك خير الشقيقين..

فقالت برقة وعتاب:

ـ لا تسمعنى صوت الخوف!

ـ إنه صوت النجاة..

ـ طالما أشعرتنى بودك.

ـ طبعا، فإنك زوج أخى المحبوب!

فنهضت نحوه بحركة رشيقة ومالت قليلا حتى غزته بشذاها الطيب وقالت:

ـ بل حدثنى عن مكنون قلبك..

فوقف مذعورا، وتباعد قائلا:

ـ صارحتك بكل شىء..

ـ أنت خائف!

ـ كلا.

ـ تخاف أخاك، تخاف أباك، تخاف نفسك..

ـ كفى عذابا..

ـ ليس للحيطان آذان ولا عيون..

فانفلت نحو الباب وهو يتمتم:

ـ وداعا..

وغادر البهو أعمى العين والقلب والبصيرة.

١٧

تجنب خضر رؤيتها. حتى الغداء كان يتناوله فى المحل، والعشاء فى أى سهرة مفتعلة. لم تلاحظ سنية شيئا، ومرت الساعات فى هدوء ودعة فى دار سنية السمرى.

وعصفت الأحزان والقلق بقلب خضر. ماذا عليه أن يفعل؟ إنه مهجور مع مشكلة لا يجوز فيها المشاورة. نازعته نفسه إلى هجر الحارة كلها، ولكن أين يذهب، وبأى عذر يتعلل؟ إنه صاحب مبادئ. طالما قال عنه سليمان إنه تشرب ببعض روح الناجى وإن حرم من قوته وسيطرته، بخلاف شقيقه بكر الذى عشق التجارة والمغامرة والربح.

إنه يتعذب ولا يفعل شيئا، ويسلم للمقادر بلا ثقة ولا اطمئنان.

١٨

رجع بكر من رحلته فقصد المحل قبل الدار. استقبله خضر بحرارة. أقبل بكر متهللا بالفوز وهو يقول:

ـ صفقة رابحة والحمد للّه..

فابتسم خضر مرحبا فتساءل بكر:

ـ كيف حال العمل؟

ـ عال..

وإذا به يسأله:

ـ لست كعادتك، مالك؟

فارتعد، وتعلل بوعكة عابرة. كيف يمكن أن تطيب المعاشرة بعد ذلك؟ سجل تفاصيل الصفقة فى الدفتر والأفكار تتلاطم فى رأسه. الإفضاء إليه بالسر جريمة، وإخفاؤه عنه جريمة أخرى. كيف يمكن أن يختفى؟!

وقام بكر وهو يقول:

ـ إنى مرهق ويحسن بى أن أذهب إلى الدار..

١٩

فى هذه اللحظة يلتقى بكر برضوانة. فى هذه اللحظة أيضا يدرك خضر مدى خطئه ببقائه فى الحارة. كيف تلقاه الجميلة الجريئة؟ هل تستطيع تمثيل دور الزوجة المشتاقة المنتظرة؟ هل تقبل عليه كما أقبلت نحوه بنظرتها المشتعلة وأشواقها المحمومة؟ هل يسدل الستار على نزوة الماضى ويمضى تيار الحياة فى مجراه المألوف؟ أو يغلبها الفتور والعواطف الدفينة فتتعلل بالمرض؟ هل يدب الفساد فى الحياة الزوجية الجديدة فتتعقد الأمور ويتجهم وجه الحياة؟

وارتعدت مفاصله وغمغم:

ـ بوسعها أيضا أن تنتقم!

ها هو ذا بكر يسألها عما بها فتقول باكية:

ـ أخوك غدر!

أى أكذوبة؟! أى شر يبتدر؟!

ولكن مهلا. لم لَم تخبر حماها أو على الأقل حماتها؟ على أى حال ستجد من يصدقها ولن يجد هو من يصدقه.

كلا. إنها ماكرة وجريئة. ستتظاهر بالحزن، وتقول فى غموض:

ـ أود أن نعيش بعيدا عن هذه الدار.

سيسألها بكر عما يضايقها فتقطب ولا تجيب. تشاجرت مع أمى؟ مع أبى؟ كلا.. كلا. لا يبقى إلا خضر. ألم يحسن خضر خدمتك؟ إنها لا تجيب، ولكن يبدو أنها لا تطيق سماع اسم خضر. أى خطأ ارتكب؟ ثم تتضح الحقيقة مثل سواد الليل تحت سماء ملبدة بالغيوم. فى هذه الحال تلوذ الجميلة الماكرة بانطباع شخصى قد يصدق وقد لا يصدق ولكنه يترك أثره المحتوم. لن تصرح بأكثر من أن نظراته لم تعجبها، لم ترتح لها، وأنها لذلك تفضل العيش بعيدا عن دار السمرى!

كيف يدافع عن نفسه؟ هل يهدم سعادة أخيه وسمعة أسرته؟ هل يهرب حاملا الإثم وحده؟

ولكن أليس من الجائز أن أوهامه محض هواجس لا أساس لها، وأنهما الآن ينعمان بالحب بعد الغياب؟!

عند ذاك سمع وقع أقدام متوترة. ثم رأى بكر يسد الباب مرتجفا من شدة الغضب.

٢٠

صرخ بكر :

ـ يا لك من وغد خسيس!

انقض عليه كالوحش وراح يكيل له الضربات والآخر يسكت لا يرد. دميت شفتاه وأنفه ولكنه لم يرد، فصاح بكر :

ـ شلك العار . .

فتراجع متسائلا :

ـ ماذا جرى لك؟

ـ ألا تعرف حقّا؟!

ـ لا أفهم شيئا . .

فصرخ :

ـ تطمع فى زوجة شقيقك؟!

فهتف خضر :

ـ أى جنون!

واستأنف الحملة عليه حتى هرع عمال إلى مدخل الحجرة، وتجمهر نفر فى الحارة أمام المحل.

وترامى من بعيد صوت سليمان الناجى وهو يزمجر . . .

٢١

تفرق الناس ورجع العمال إلى أماكنهم. صاح سليمان :

ـ إذا رفعت يد فإنى قاطعها . .

تراجع بكر ومضى خضر يجفف دمه بمنديله. قال بكر :

ـ إنه غادر يستحق التأديب . .

ـ لا أريد أن أسمع كلمة هنا . .

وردد بصره بينهما فى غضب وأمر قائلا :

ـ اتبعانى . .

ومضى نحو الدار مثل أسد جريح .

٢٢

وقفوا أمامه جميعا ، بكر وخضر ورضوانة وسنية . صاح بفظاظة :

ـ الحقيقة !

لم ينبس أحد فصاح :

ـ الويل لمن يخفى همسة . .

ورمى رضوانة بنظرة حادة آمرا :

ـ تكلمى يا رضوانة . .

فأجهشت فى البكاء فهتف متبرما :

ـ لا أحب الدموع . .

فتمتمت وهى تشهق :

ـ لم أقل إلا إننى أريد أن أعيش بعيدا . .

ـ هذا وحده لا يعنى شيئا ذا بال !

فقال بكر :

ـ فهمت من حديثها أنها تكره أن تعيش فى دار واحدة مع خضر !

ـ لماذا؟ أريد حقيقة ملموسة . .

فقال بكر :

ـ جسدت لى الحقيقة دون تصريح . .

فصاح سليمان :

ـ الحقيقة الحقيقة حتى أقوم بواجبى . .

ثم نظر نحو رضوانة وأمر :

ـ تكلمى بالصراحة الكاملة . .

فأجهشت فى البكاء مرة أخرى ، فلوح بيده ساخطا ثم التفت نحو خضر وسأله بحنق :

ـ ماذا فعلت؟

فتمتم خضر :

ـ لا شىء ، واللّه مطلع . .

ـ أريد أن أعرف كل شىء فلا تثور زوبعة بلا سبب . .

هنا قالت سنية :

ـ يوجد سوء تفاهم ليس إلا . .

فقال لها سليمان بحدة :

ـ اسكتى . .

فقالت بيأس :

ـ إنه الشيطان يندس بيننا . .

فقال سليمان بحنق :

ـ الشيطان لا يندس إلا بإذن منا . .

فقالت سنية مولولة :

ـ حلت بنا اللعنة !

فقال سليمان :

ـ فلتحل اللعنة بمن يستحقها . .

وبغتة غادر خضر البهو ، فصاح به سليمان :

ـ ارجع يا ولد . .

ولكنه اختفى ، فصاح بكر :

ـ ألا ترى أنه يهرب يا أبى ؟

فصرخ سليمان وهو ينهض :

ـ ها أنت ذا تعترف يا مجرم .

ولكنه لم يرجع ولم يلحق به أحد .

٢٣

جرت فضيحة آل سليمان الناجى على كل لسان . وترحم الحرافيش على عهد الناجى القديم ، واعتبروا ما نزل بسليمان وابنيه جزاء عادلا على انحرافه وخيانته . قالوا إن عاشورا كان وليا ، أيده اللّه بالحلم والنجاة ، وأكرمه حيا وميتا . أما الكارهون فقالوا إنها ذرية داعرة متسلسلة من أصل داعر لم يكن إلا لصا فاسقا .

واجه سليمان ذلك بوحشية غيرت من شخصيته للمرة الثانية، فكان يشق الحارة بجسمه العملاق وبدانته الآخذة فى التمادى، متربصا لأى هفوة حتى خافه أقرب المقربين إليه. ولم يعد منظره ينسجم مع الفتونة، فهو يترهل ويعلوه الخمول ويغرق فى الإدمان والترف. وانتفخت كرشه وتدلت عجيزته، ومن إفراطه فى الطعام كان يغلبه النوم وهو متربع على أريكته فى القهوة.

٢٤

وذات صباح وقف سليمان الناجى يحادث سعيد الفقى شيخ الحارة وسط وحل تكدس فى جنبات الحارة من أثر مطر انهل شطرا من الليل. وكان سعيد الفقى يقول له:

ـ إن اللّٰه يمتحن من عباده المؤمنين..

وأراد سليمان أن يعلق ولكنه حملق بغتة فى وجه عدو ينقض عليه من الغيب وتهاوى على الأرض كمئذنة. حاول النهوض مرات ولكنه عجز. ثم استسلم لما يشبه النوم. وهرع إليه سعيد الفقى وآخرون ولكنه أصدر أصواتا مبهمة ولم يستطع النطق.

وحمل سليمان الناجى إلى دار سنية هانم السمرى كطفل عاجز.

٢٥

دهمه شلل نصفى فرقد فوق فراشه عاجزا. وكل من رآه أدرك أن سليمان الناجى قد تحول إلى لا شىء. وعادته فتحية وبناته مثل الغرباء. وقامت سنية برعايته وتمريضه فى صبر وحزن وهى تغمغم دائما:

ـ حلت بنا اللعنة!

وانقضت بضعة أعوام قبل أن يستطيع أن يتحرك. غدا فى قدرته أن يسير على نصف جارًا نصفه الآخر وهو يتوكأ على عكازين. وكان ينشد الفرجة بالجلوس أمام الدار أو فى القهوة، ينطق بالكلمة أو الكلمتين ويلقى على ما حوله نظرة غائبة وقد هجرته معانى الأشياء.

٢٦

وناب عتريس عن سليمان فى الفتونة. ظل على ولائه له بادئ الأمر، يزوره. ويعطيه نصيبه كاملا من الإتاوات، ويمارس السلطة الفعلية فى العصابة، ويقول له:

ـ أنت سيدنا وتاج رأسنا..

ثم شغلته واجبات الفتونة ـ هكذا قال ـ عن واجب الزيارة فكف عن ورود دار السمرى إلا يوم حمل الإتاوة.

ثم أعلن فتونته واستولى على نصيب سليمان من الإتاوات فلم يصادف من أحد الأعوان ما يكدر، بل لعلهم أملوا أن يتحرروا على يديه من الالتزامات المحدودة التى ظل سليمان ملتزما بها حيال الحرافيش.

وسرعان ما عادت الفتونة إلى سابق عهدها قبل عاشور الناجى. فتونة على الحارة لا لها، ولا خدمة تؤديها إلا خدمة الدفاع ضد الفتوات الآخرين. وحتى فى هذه الناحية اضطر عتريس إلى مهادنة أعداء ومحالفة آخرين، بل حتى الإتاوة دفعها إلى فتوة الحسينية ليتجنب معركة خاسرة. وكلما هان خارج الحارة زاد طغيانا وصلفا داخلها. وأهمل أخته فتحية وأكثر من الزواج والطلاق. واستأثر بالإتاوات هو وعصابته على حين أغدق على الحرافيش الزجر والتأديب، وأنزل الوجهاء ـ على حد قول سعيد الفقى شيخ الحارة ـ حيث أنزلهم اللّٰه سبحانه وتعالى..

٢٧

لم يفقد سليمان الناجى الفتونة فحسب، ولكنه فقد نفسه أيضا. لم يعد شيئا وتلاشت الدوافع والمعانى. واستمسك بأمل شارد فى الشفاء حتى سأل رضوان الشوبكشى العطار حما ابنه بكر:

ـ أليس لحالى دواء عندك؟

فأجابه الرجل وهو يدارى ازدراءه:

ـ لقد بذلت العطارة جميع ما فى وسعها..

وقال رضوان الشوبكشى لنفسه : «يطمع فى استرداد قوته وفتونته، عليه اللعنة وعلى أصله» .

وطاف سليمان بالأولياء، الأحياء منهم والأموات . وناجى الأمل كل مناجاة . وظل يزحف على عكازين، ويجمد فوق الأريكة مثل قدر المدمس . وانتابته حكمة لم يعرفها فى حياته، فقال إن الإنسان لعبة هزيلة والحياة حلم . وتجاهله عتريس تماما، كما تجاهله الأعوان، وتجاهله الحرافيش بلا رحمة وعدوه المسئول الأول عما حاق بهم .

ثم تغلغلت التعاسة فى جوف داره . بدا أن سنية هانم برمة بالحياة فى جواره . تركت مهمة رعايته إلى جارية . وتجهمت الحياة بقدر ما تجهمتها الحياة . ولم تنس قط ابنها الهارب خضر، وفترت لذلك العلاقة بينها وبين رضوانة . ومضت تتغيب عن الدار كثيرا ناشدة التسلية فى دور الجيران . وتألم سليمان لذلك غاية الألم، وقال إن أثر الشمس يمحى وراء الغيوم . وإنه لا كرامة لعاجز .

وقال لها مرة :

ـ غيابك عن الدار يطول أكثر مما يليق .

فقالت له بحدة :

ـ لم يبق بها شىء .

وخطر له كثيرا أن يطلقها ولكنه أشفق من ألا يجد فى مسكن فتحية الراحة الضرورية . وتجرع الذل والمهانة متصبرا .

٢٨

وجالسه سعيد الفقى ذات يوم فى القهوة . طالعه بوجه ودود، وقلب ذى حقد دفين قديم . وقال له بنبرة الصديق :

ـ يا معلم سليمان يعز علينا حالك . .

فرمقه بنظرة لا معنى لها، فواصل الرجل :

ـ ولكن لك علينا حق الصدق والإخلاص . .

ماذا يريد الرجل؟

ـ الرأى عندى يا معلم أن تطلق سنية هانم!

فاختلج جفناه وارتعشت يده، فقال سعيد :

ـ هذه نصيحتى كصديق قديم . .

غمغم سليمان :

ـ لم؟

فأجاب الرجل :

ـ لن أزيد حرفا . .

٢٩

لم يعد رد الفعل عنده ذا شأن. غدا ألمه مجردا. لا السرور يضحكه ولا الحزن يبكيه. ولكن لا بد من الطلاق. سيسير فى الطريق حتى نهايته المسدودة.

ورجع من القهوة إلى مسكن فتحية الذى استأجره لها عقب انقلابه الخطير. استدعى المأذون وطلق سنية هانم. وقد جزع لذلك بكر وقال له :

ـ ما كان ينبغى أن يقع ذلك . .

فقال له :

ـ بل عليك أن تصون أمك يا بكر!

فصرخ بكر :

ـ قطعا لألسنة الوشاة!

وافترقا شبه متخاصمين. وجعل سليمان ينفق من مدخره ويقول :

ـ أسأل اللّه أن يجىء موتى قبل أن أمد يدى إلى بكر . .

٣٠

فى أثناء ذلك تحسنت أحوال بكر التجارية والمالية. وأنجب من رضوانة رضوان وصفية وسماحة. وقد زلزله طلاق أمه، وترامت إليه شائعات أليمة، حتى اضطر إلى أن يبصرها بسلوكها وما يثيره حولها. وغضبت سنية ولعنت الحارة ووصمتها بكل خسيس، ولم تغير من تحررها وانطلاقها.

إلى ذلك كان بكر قلقا مضطربا فى حياته الزوجية. لم يشعر أبدا بأنه ملك رضوانة،

ولم يكف عن التفانى فى حبها . ليست هى بالمطيعة ولا بالمتفاهمة ولا بالمستجيبة ، وبها حدة مجهولة الأسباب تستفحل مع الأيام . إنها تنال ما تريد بلا امتنان ولا سعادة ، وهو لا يطيق الدنيا إذا جفته أو خاصمته . ويجن جنونا إذا خطر له أن حبها له ليس بالقوة اللائقة . ماذا ينقصها؟ ماذا تريد؟ أليس هو بالزوج المثالى؟ إنه يتجنب ما يثيرها من قريب أو بعيد ولكن ما يثيرها يدهمه من حيث لا يحتسب .

وبدت المعاشرة بلا أثر ، وبدت الذرية بلا أثر كذلك . وانطوى على قرحة أفسدت عليه مذاق حياته الخاصة .

ـ رضوانة ، بوسعك أن تجعلى من دارنا عشا للسعادة . .

فتساءلت بغموض :

ـ أليست هى كذلك؟

ـ ولكنك تهملين حبى يا رضوانة؟

فقالت متأففة :

ـ إنك لا تفكر إلا فى مسراتك ، وتنسى أننى أم لثلاثة . .

فقال بأسف :

ـ إنى أفتقد حرارة تكافئ حبى العظيم !

فضحكت بفتور وتمتمت :

ـ أنت طماع ، أما أنا فأبذل خير ما عندى . .

وضاعف من تعاسته تمزق العلاقات الطيبة بين أمه وزوجته . منذ اختفاء خضر تغيرت سنية ، وسرعان ما قابلت رضوانة التغير بمثله أو بأسوأ منه . وتنافرتا مرة بعنف حتى قالت سنية لها بحدة واتهام :

ـ قلبى يحدثنى ببراءة خضر !

فأجابتها بحدة أشد :

ـ الأصوب أن تصونى سمعتك !

فهاجت سنية ورمتها بشمعدان صغير لم يصبها . ولما رجع بكر وجد رضوانة شعلة من الكراهية والغضب . وخلا إلى أمه يعاتبها ولكنها قالت له :

ـ نصيحتى لك كأم أن تطلقها . .

فذهل بكر ، فقالت ساخرة :

ـ كانت قدم الشر الذى قضى على أخيك وأبيك وأمك . .

ثم بصوت حاد متهدج :

ـ إبليس نفسه يعجز عن فعل ذلك كله، حتى أنت حفيد الناجى الكبير تؤدى الإتاوة لصعلوك من خدم أبيك وجدك. .

وقال بكر لنفسه:

ـ إنها اللعنة قد حلت بنا حقّا!

ودارت عجلة الأيام بلا توقف كعادتها. ومات السمرى الكبير أبو سنية فورثت عنه مالا لا بأس به. واستوهبها بكر بعض المال ليزيد من رأس ماله فلم تمنعه، ومضى فى طريق الثراء بلا حدود. أخذ يتسلى عن همومه بالإغراق فى العمل، وخوض المغامرات الناجحة والمضاربات الخطيرة، حتى كادت أن تستأثر به شهوة المال لدرجة الجنون. كان يكنز المال كأنما يتحصن به حيال الموت والأحزان والفردوس المفقود. وكان ينطلق نحو الكفاح من مركز منغرس فى أرض الأحزان والهموم متحديا الألم والمجهول. ولم يكن بكر كريما ولكنه أيضا لم يكن بخيلا. لم يكن ينفق فى الخارج مليما لغير ما فائدة تعود عليه، أما فى داره فكان بحرا، أهدى إلى رضوانة جواهر تساويها وزنا، وجدد أثاث الدار ورياشها وتحفها حتى صارت متحفا. وقال والحسرة تقرض قلبه:

ـ ليت السعادة بالمال تشترى.

٣١

وذات يوم أشهر رضوان الشوبكشى ـ أبو رضوانة ـ إفلاسه. كان الرجل مسرفا، مولعا باللهو والطرب والليالى الملاح فأفلت منه توازنه التجارى وهوى. ورحب بكر بالفرصة ليثبت لزوجته المتمردة حبه وكرمه، فلما عرضت دار الشوبكشى للبيع فى المزاد اشتراها بثمن فاحش لييسر لحميه تسديد ديونه. وألحق بمحله إبراهيم الشوبكشى شقيق رضوانة الأصغر وجعله وكيله وأمين سره. غير أن رضوان الشوبكشى لم يتحمل الصدمة فمات بالسكتة، وشيعه بكر بما يليق بمقامه وأقام له مأتما استمر ثلاثة أيام، وتوقع بعد ذلك أن تغير رضوانة من سلوكها أو تهذب من طبعها ولكنها كانت مثل الصلب لا تلين، وزادتها الأحزان فتورا ونفورا حتى قال بكر لنفسه:

ـ إن قيام القيامة نفسها لن يغيرها. .

٣٢

وأطبق الظلام عندما اختفت سنية أمه من الدار والحارة! كارثة لم يستطع لها دفعا. وسرعان ما عرف أنها أخذت مالها وهربت مع شاب سقاء وتزوجت به. كارثة حقيقية نكست رأسه، فنفض منها يديه، ولم يهتم حتى بمعرفة مقامها الجديد، وتوارى وراء سجلاته ورحلاته.

وسعى إليه عتريس الفتوة وقال له:

ـ إنى فى خدمتك إن أردت خدمة..

فكره منظره، وداراه بابتسامة ممتنة، وقال له:

ـ الشكر لك يا معلم، وليفعل اللَّه بها ما يشاء..

وتبدت له الدنيا رمادية ضاربة للحمرة. وتساءل: لماذا نحب هذه الحياة ونحرص عليها هذا الحرص كله؟ لماذا نذعن لمشيئتها الحادة القاسية؟ ألا يحق لها بعد ذلك أن تسلط علينا دود أرضها؟ اللعنة على عاشور الناجى الأسطورة الكاذبة، اللعنة على الدراويش المجانين الذين لا يكفون عن الغناء. وتساءل أيضا:

ـ يوجد خطأ جسيم ولكن أين هو؟

٣٣

وذات مساء أرسل سليمان الناجى فى طلبه. تذكر أنه لم يزره منذ أشهر فخجل. كان قد مر على شلله عشرة أعوام، وكان قد لزم الفراش منذ عام فى رعاية مخلصة من فتحية. ذهب إليه، قبّل يده، جلس إلى جانب فراشه وهو يعتذر عن إهماله بشواغله وهمومه.

وقال سليمان الناجى:

ـ نهايتى اقتربت يا بكر.

فدعا له بطول العمر والعافية، فقال الرجل:

ـ حلمت بجدك شمس الدين ثلاث مرات فى ثلاث ليال متعاقبة..

ـ هذا لا يعنى شيئا ضارا يا أبى .

ـ هذا يعنى كل شىء ، وقد قال لى إن الدنيا لا تساوى شيئا حتى يهبها الإنسان روحه . . .

ـ رحمه اللّه يا أبى . .

فقال بأسى :

ـ ما مضى قد مضى ، ولكنى أسألك مَن من أبنائك يصلح لها؟

فأدرك أنه يعنى الفتونة فدارى ابتسامة وقال :

ـ ما زالوا صغارا ولن يصلحوا لها . .

ـ ولا أحد من أبناء أخواتك لأبيك؟

فقال بعد تردد :

ـ لا أدرى يا أبى . .

ـ لأنك لا تدرى عنهم شيئا . .

وتأوه ثم قال :

ـ إنى أودع الدنيا مثل سجين . . أستودعك الحى الذى لا يموت!

٣٤

فى جوف ذلك الليل فاضت روح سليمان شمس الدين عاشور الناجى . وعلى الرغم من عزلته الطويلة مشى فى جنازته جميع أهل الحارة ، حتى عتريس ورجاله ، ودفن إلى جانب شمس الدين .

وثارت مكامن الأحزان فى قلوب آل الناجى والحرافيش ، وانسابت عليهم الذكريات مترعة بالأسى .

٣٥

وطرأت حركة جديدة غير مألوفة . ندت عن تيار الأحداث الرتيبة والساعات التوائم مثل شهاب يمرق فى سماء باهتة .

وتساءلت رضوانة فى حيرة: «ماذا يفعل الرجل؟».

على غير عادة أخذها بكر من يدها وراح يتفقد جنبات داره الكبرى طابقا بعد طابق. إنه جاد أكثر مما تتصور، عظيم الاهتمام، كأنما يستعد لرحلة أو لمضاربة خطيرة..

ـ ماذا تفعل باللّه؟

فلم يجب، لم يبتسم، مضى بها من حجرة إلى حجرة، من بهو إلى بهو، من قاعة إلى قاعة، طائفا بقطع الأثاث النادرة، بالتحف، بالطنافس والستائر والسجاد، بالقناديل والشمعدانات والتحف، بمخدع نوم رضوان وصفية وسماحة.

وتمتمت بضيق:

ـ تعبت..

فأشار إلى مرآة تحتل جدارا كاملا مؤطرة بالذهب الخالص وقال:

ـ لا نظير لها فى البلد كله..

وأشار إلى نجفة شامخة مترامية الأبعاد، مرصعة بالكواكب وقال:

ـ إحدى ثلاث فى مدينتنا الكبرى..

ثم أشار إلى القبة الزجاجية التى تعلو المنور بألوانها الشتى وقال:

ـ صنعت وزخرفت فى عام كامل وكلفت ثمن مئونة جيش!

ثم بسط راحتيه نحو سجادة عملاقة تغطى أرض البهو الكبير وقال:

ـ حملت إلى خاصة من أرض العجم!

لم يترك صوانا إلا أشاد به، لم يغفل جوهرة حتى قدم لها فروض الطاعة والثناء.

عند ذاك توثبت رضوانة للتحدى فجذبت معصمها من قبضته وتساءلت:

ـ ما الحكاية؟

فشبك ذراعيه على صدره وهو يحدقها بنظرة غريبة غامضة ثم قال:

ـ الحكاية أننى محبوب الأقدار!

ـ ماذا تعنى؟

ـ الأقدار تعشقنى فهى لا تغفل عنى لحظة ولا تنام!

ـ إنك تبدو لعينى غاية فى الغرابة؟

ـ انظرى إلىَّ جيدا، تأمليني طويلا ما استطعت، أنا الدنيا بلا زيادة ولا نقصان..

ـ لم تعد أعصابى تتحمل أكثر..

فابتسم لأول مرة وقال:

ـ الحكاية يا رضوانة العزيزة المحبوبة المدللة المتمردة أن بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجى قد أفلس . . !

٣٦

لم تفهم شيئا . لم تصدق المستحيل . نطح رأسها سقف الصوان . تخايلت لها الدنيا فى صورة امرأة تغمز بعينها اليسرى . تهيأت لتستقل العربة الماضية إلى جبال الواق . تبدى لها وجه بكر أجمل من الواقع وأتعس من الممكن . مرقت من فيها شهقة سرعان ما تجسدت فى صورة عقرب .

تمتم بكر :

ـ هى الحقيقة يا رضوانة .

رآها تتمخض عن تمثال للذهول ، فقال بقهر ويأس وحقد :

ـ لا فتونة ولا مال ولا سعادة!

تساءلت بريق جاف :

ـ ولكن . . لكن كيف وقع ذلك؟

ـ كما يقع الشلل والفضيحة والموت ، لم تتعجبين؟ ما هى إلا مغامرة أخطأت الهدف!

فقالت بعذاب :

ـ طالما حذروك من المغامرات . .

فقال بازدراء :

ـ الذين لا يعلمون ينتقدون ويعظمون ويحسدون ، عليهم اللعنة . .

وساد الصمت دقيقة فرقصت أشباح المخاوف ، وارتطمت الأحلام المستحيلة بجدران الواقع الصلد المكفهر . ثم تساءلت :

ـ وماذا بعد؟

ـ سوف تصفى التجارة وتعرض جميع الأملاك فى المزاد . أما بعد ذلك . .

وتوقف فتساءلت :

ـ أما بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك ننضم إلى قافلة المتسولين . .

ـ لاشك فى أنك تحاول إرعابى . .

ـ أحاول إيقاظك ليس إلا . .

فصاحت :

ـ إنه جزاء الجنون . .

فقال ساخرا :

ـ إنها التجارة فحسب ، فيها شريك خفى هو القدر . .

ـ أنت الذى غامرت لا القدر . .

ـ و أنت طالما جحدت وتنكرت ، ولكن لا شأن لذلك بالسوق . .

فانهمرت دموعها وقالت :

ـ الآن أعرف كيف مات أبى . .

فقال بمرارة :

ـ كان سعيد الحظ !

ـ والأولاد ما مصيرهم . . ؟

فقال بامتعاض :

ـ فلندعهم ينعمون بنوم سعيد .

٣٧

توقفت الحارة عن نشاطها المألوف لتشهد المزاد الخاص بالرجل الذى كان أغنى أغنيائها من قبل أن ينزلق فى هاوية الإفلاس .

ثمة سحائب كانت تركض فوق سطح الشمس فى اليوم الأخير من أمشير . ووقف بكر سليمان الناجى وسط الشركاء الذين انقلبوا دائنين . جفت فوق شفاههم بسمات التودد ، انداح فوق خدودهم شحوب القلق ، وارتباك التحفز ، ولكن الأشداق انتفخت بحتمية التصميم .

ومال سعيد الفقى شيخ الحارة على أذن عثمان الدرزى الخمار وسأله متهكما :

ـ لم لَمْ ير حلم النجاة مثل جده الأول؟

فهمس الخمار :

ـ أحلام المتخمين كوابيس !

وقبيل المناداة بدقيقة ترامى رنين جرس مؤثر .

اتجهت أبصار نحو مدخل الحارة فرأوا كارتة قادمة يتوسطها رجل. ترى أهو مزايد طارئ من الخارج؟ وقفت الكارتة عند الحلقة. غادرها شاب فى عباءة سوداء، وعمامة مقلوظة، طويل رشيق، ذو سحنة غير غريبة.

وأكثر من صوت هتف:

ـ يا ألطاف الله، هذا خضر سليمان الناجى!

٣٨

تطايرت التوقعات من رأس إلى رأس. سرت الهمهمة مثل الطنين. دارى سعيد الفقى ابتسامة. اصفرّ وجه بكر وارتعشت أطرافه. أما خضر فقد رفع يده بالسلام، وتلقى الرد بترحيب ورجاء، وقال سعيد الفقى:

ـ جئت فى وقتك!

وتساءل عثمان الدرزى:

ـ أجئت مزايداً؟

فقال خضر بأسى:

ـ بل جئت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أدرك الجميع أنه يتكلم من موقع القوة والثقة. وأن الفتى نجح فى مهجره وأثرى، فانتعشت أنفس الدائنين وقال صوت:

ـ فليبارك الله خطاك..

فقال خضر:

ـ إذن فليؤجل المزاد لعلنا نصل إلى اتفاق.

عند ذاك صرخ بكر:

ـ كلا!

تركزت عليه الأبصار فى ذهول فصاح مخاطبا أخاه:

ـ لن يطهرك الزمن من جريمتك فاخسأ ملعونا غير مشكور!

وتناثرت الاعتراضات مثل الرذاذ وقد تلاحقت السحائب الراكضة فانعقدت خيمة دكناء.

وقال خضر برجاء:

ـ دعنى أقم بواجبى . .

فصرخ بكر فى هياج :

ـ الخراب أحب إلىّ من النجاة على يدك . .

فقال الشيخ طلبة القاضى شيخ الزاوية :

ـ لا يجوز تبديد رحمة من السماء .

فصاح بكر :

ـ ما جاء إلا للشماتة والانتقام . .

وأحاط الدائنون ببكر يهدئونه ويقنعونه ، وقال الشيخ طلبة القاضى :

ـ فليؤجل المزاد حتى نستقر على رأى لا يعقبه ندم . .

٣٩

ختم بكر حديثه ، ثم نظر نحو رضوانة وقال :

ـ هذه هى الحكاية .

انتظر التعليق بشغف محموم ولكنها ارتبكت وقهرت ولم تجد ما تقوله . انحصرت فى قفص من نظراته الحادة المستطلعة . وتساءل بكر :

ـ مالك لا تتكلمين؟

غاصت أكثر فى الصمت ، وغلبت على أمرها ، فعلت السخرية فى نبرته وهو يقول :

ـ خبرينى برأيك؟

فهربت ببصرها نحو البسملة المؤطرة بالذهب المثبتة فوق الجدار وقالت مدفوعة بإرادة يائسة :

ـ ماذا أقول والأولاد مهددون بالتسول؟!

ـ أسمعينى رأيك صريحا مثل النار .

فقالت وقد استردت بعض عنادها :

ـ أرى أنه يرغب فى إنقاذ سمعة الناجى . .

فقال بحنق :

ـ كلا ، لو كان يقيم وزنا للسمعة ما طمع فى زوجة شقيقه . .

فتمتمت فى حرج :

ـ لعله ينشد التكفير.

ـ لا تكفير لمن لا ضمير له..

ـ لم يضحى بماله إذن؟

فاجتاحه الغضب وقال:

ـ لعله يرغب فى إنقاذك أنت!

فلوحت محتجة وقالت بحدة:

ـ كلا..

ـ كلا هذه لا تعنى شيئا.

ـ أعتقد أنه يسعى لإنقاذ سمعة أسرته..

فاشتعل غضبه وقال:

ـ إنك تكذبين!

فقالت محتدة:

ـ لا تزد الأمور سوءا.

ـ دعينى أشك فى كل شىء، حتى أنت!

فصاحت به:

ـ إنك فى حال لا يمكن أن تحاسب معها على قول..

ـ إنى فى تمام قواى العقلية، الإنسان قد تجنه النعمة، ولكنه يلقن الحكمة على يد الإفلاس والمحن، ما أنت إلا امرأة قذرة تتطلع إلى عاشقها القديم..

فصرخت:

ـ لقد فقدت عقلك.

ـ المعجزة أننى لم أفقده طيلة معاشرتى لك، هل وجدت منك إلا الجحود والتمرد والنفور؟ هل وجدت منك إلا الغدر والخيانة المكبوتة؟ أعطيتك كل شىء ولم آخذ إلا الهواء، وكنت اللعنة وراء جنونى وإفلاسى، فلتحل بك اللعنة والخزى..

وتلوت قائمة مثل لسان من لهب وصرخت فى وجهه:

ـ اقطع لسانك القذر.

فجن جنونه.

انهال عليها ضربا وصفعا وركلا حتى تهاوت مغمى عليها. ومن خلال النار المشتعلة فى عينيه حملق فيها ذاهلا. اعتقد أنها تحتضر أو أنها ماتت. وبسرعة تملص من هموم

حياته ومن عذابات الحيرة. وثب من فوق أسوار الواقع فغادر المكان مكتظا بتصميم مدمر . .

٤٠

كان خضر سليمان الناجى مجتمعا بالدائنين فى دكان شيخ الحارة عندما اقتحمها بكر. قبض بيده على سكين، وثمل برحيق الجنون الأحمر. صاح :

ـ لقد قتلتها وسأقتلك يا تيس.

ووجه نحو أخيه ضربة. انحرفت الضربة بسبب تدخل البعض فاخترقت العمامة دون الرأس. تكالبوا عليه، انتزعوا السكين من يده، طرحوه أرضا.

ـ جنَّ الرجل.

ـ بل هو مجرم.

رفع بكر رأسه عن الأرض قليلا وصاح :

ـ أنتم وراء المال ولو فى بؤرة فسق.

وقال شيخ الحارة :

ـ نسلمه إلى القسم.

هتف خضر بجزع :

ـ لقد قتل زوجته . .

ـ يسلم للقسم.

وعاد بكر يصيح :

ـ جميعكم أوغاد وكلاب . .

٤١

سرعان ما تكشفت الحقائق. لم تمت رضوانة كما توهم بكر. أطلقوا سراح بكر. توارى بكر عن الأنظار واختفى من الحارة.

أدى خضر ما تم الاتفاق على أدائه من أنصبة الدائنين. صفيت التجارة، أما دارا السمرى والشوبكشى فبقيتا فى حيازة رضوانة.

وعـدت ست فتحية «خضر» للإقامة فى مسكنها الصغير ـ مسكن أبيه ـ حتى ينظم حياته. ووضح أن خضر ينوى الإقامة فى حارته. وبلا تردد اتخذ الإجراءات لشراء محل الغلال ومواصلة نشاطه التجارى السابق. وفكر أيضا فى شراء دار السمرى أو الشوبكشى، ليجد نفسه مقاما مناسبا من ناحية، ولتفيد رضوانة من ثمن الدار ما تعيش به عيشة كريمة هى وأبناء أخيه رضوان وصفية وسماحة.

وقالت له فتحية زوجة أبيه:

ـ جميع ما ينبع من قلبك نبيل..

فأجابها بفتور:

ـ لم أنس أسرتى، ظلت تعيش معى فى الخارج..

وحارته أيضا. وتعلم فى مهجره أن الناجى معنى حى، أما السمرى فلا وزن له يذكر. تعلم أن البطولة الحقة مثل المسك تطيب بها النفوس وتهفو إليها الأرواح ولو لم تؤت القدرة على استعمالها. ولكن أهذا هو ملاك الأمر كله وراء رجوعه إلى الحارة؟!

وسألته فتحية:

ـ لم لَمْ تكمل نصف دينك؟

فأجابها مبادرا:

ـ كرهت الزواج فى الغربة!

٤٢

وبوحى من تفكيره طلب مقابلة عتريس. تم اللقاء فى دار عتريس الفخيمة. واستقبله الفتوة بترحاب واحتفاء وقال له:

ـ شرفت الدار يا سليل البطولة..

فقال خضر بتواضع:

ـ إنه واجب من يروم الإقامة نحو فتوتنا...

فقال عتريس بارتياح:

ـ أنتم أصل الخير والبركة..

بذلك خمدت تساؤلات مريبة فى مهدها.

٤٣

حتام ينتظر؟ إنه يمارس عمله فى محل الغلال، ويعانى شتى الانفعالات المتضاربة. وها هى ذى الخماسين تسفع الجدران، تثير الغبار، ترفع الحرارة، تلون الجو بالكدر. وعما قليل يتهادى الصيف بجلاله الشعبى وصراحته الحامية، وأنفاسه اللزجة. حتام ينتظر؟ لقد أرسلت رضوانة إليه من يشكره فرد الرد الجميل. وعن لسانه قالت فتحية لرضوانة إنه يتذكر دائما أنه تبودلت الرسل بينهم كالأغراب، حتى أرسل إليها ست فتحية طالبا مقابلتها. وذهب إليها ليلا، متجنبا الأنظار، حتى لا تصبح ذكريات الماضى حكاية مرة أخرى على الألسنة. ذهب يحمل بين جنبيه دوامة، ويضمر أيضا تصميما.

استقبلته رضوانة فى بهو الاستقبال. طالعته محتشمة الملابس، مطوقة الرأس بخمار أسود كأنها فى حداد. وتصافحا، وتلاقت عيناهما مقدار ثانية ولكنها مشتعلة مثل شرارة متطايرة عن احتكاك حجرين. ثم جلسا صامتين متحرجين يودان الخلاص.

قالت رضوانة:

ـ إنها لفرصة كى أشكرك بنفسى..

فقال متحررا من حرجه بعض الشىء:

ـ وفرصة لى لأضع نفسى فى خدمتك.

ـ ماذا عن بكر؟

ـ لم أهمل واجبى فى ذلك الشأن ولكن لم يعثر له على أثر.

ـ متى يرجع فى تصورك؟

ـ إنه ذو كبرياء فيما أعلم وأخشى أن تطول غيبته.. كيف حال الأولاد؟

ـ على خير ما تحب..

فتردد خضر قليلا ثم قال:

ـ أود أن أشترى دار الشوبكشى إذا أذنت!

فقطبت قليلا وهى تقول:

ـ تريد أن تقدم مالا لامرأة مفلسة!

فقال متلعثما:

ـ إنى بحاجة إلى دار بصفة عاجلة..

ثم بتسليم :

ـ وأولادك أولادنا على أى حال .

فقالت وهى تتفحصه :

ـ تشكر على نواياك الطيبة . .

وصمتت لحظة ثم تساءلت :

ـ ترى هل نسيت الإساءة القديمة؟

فبادر يقول :

ـ من يحمل الماضى تتعثر خطاه .

ـ ولكن هل ينسى الماضى حقّا؟

ـ أجل . إن يكن من الخير أن ننساه . .

ـ لا أدرى .

ـ لولا ذلك ما رجعت ، وما تم بيننا لقاء . .

فلاحت نظرة حذرة فى عينيها الجميلتين وتساءلت :

ـ هل جئت حقّا من أجل شراء الدار؟

فدارى ارتباكا تهدده لحظة وقال :

ـ أجل . .

ـ ولكنك تعلم أنها ما زالت ملك بكر الغائب . . !

فتورد وجهه وهو يقول :

ـ قد نجد لذلك حلا . .

فهزت رأسها فى ريبة فقال :

ـ على الأقل لأكون فى خدمتك . .

فقالت بكبرياء :

ـ فى الدارين من التحف ما يكفل لنا حياة رغيدة!

ـ ولكنى مسئول أيضا .

فقالت وهى ترمقه بنظرة غامضة :

ـ لست فى حاجة إلى مساعدة والشكر لك . .

فحنى رأسه امتثالا ، وتحرك حركة توحى بوجوب إنهاء المقابلة ، فتساءلت بقلق :

ـ أم جئت لغرض آخر؟

فتطلع إليها بنظرة دهشة، فقالت بجرأة:

ـ من أجل الزجر والتأديب؟

فهتف بصدق:

ـ أعوذ بالله من خاطر لم يدر لى فى بال!

فلاذت بالصمت فعاد يقول بحرارة:

ـ ما نطقت إلا بالصدق..

فانقشع التوتر من شفتيها وحل مكانه سلام. وعند ذاك قلبت الصفحة قائلة:

ـ لقد نجحت فى مهجرك والحمد للّٰه.

ـ أجل. انتفعت بمدخرى الذى حملته معى..

ـ تسعدنا ولا شك سعادتك..

فتوقف قليلا ثم قال:

ـ النجاح لا يوفر دائمًا السعادة..

تلك حقيقة عرفتها بنفسى، ولكن ماذا حرم عليك السعادة أنت؟

فلاذ بصمت ذى مغزى فارتبكت وقالت:

ـ نحن أيضا خسرنا السعادة..

فتمتم:

ـ يا لها من لعنة!

ـ كانت سنية هانم تردد دائما أن اللعنة قد حلت بنا..

أدركت من تجنبه السؤال عن أمه أنه علم بمصيرها فندمت على ذكرها ولكنه قال:

ـ لعلها صدقت.

فقالت بأسى:

ـ كانت تعدنى اللعنة...

فقال بصوت منخفض:

ـ نحن نبالغ فى أحزاننا..

فقالت بجرأة:

ـ أعترف بأننى كنت شريرة، وأننى ظلمتك ظلم الحسن والحسين..

فغمغم:

ـ لا عودة إلى الماضى..

فقالت متمادية فى جرأتها :

ـ لا أحد يعترف للعواطف بحق . .

فلم يجد ما يقوله ، فقالت :

ـ ولو كانت صادقة !

ها هى ذى لحظة طالما يئس من العثور عليها . لعله من أجلها جاء . لعله من أجلها رجع إلى الحارة . لعله بسببها لم يذق للسعادة طعما .

وقال منحدرا فى عذوبة :

ـ حتى أصحاب العواطف قد يتنكرون لها . .

فتألقت عيناها ، وجرى فى لونهما المشرق التماع التفكير والنهم للمعرفة ، تساءلت :

ـ ماذا تعنى ؟

فصمت معانيا الإثم ، فعادت تتساءل :

ـ ماذا تعنى ؟

فتساءل فى حيرة :

ـ ماذا قلت ؟

ـ أصحاب العواطف قد يتنكرون لها ، لا تهرب . .

فهرب فى الصمت فقالت وهى تثمل بنشوة طارئة :

ـ من ناحيتى لم أتنكر . .

ظل صامتا فواصلت بانفعال شديد :

ـ لا تصمت ، لماذا جئت ؟

فقال متهالكا :

ـ لقد قلت . .

ـ أعنى قولك الأخير . .

فقال بنبرة اعتراف :

ـ تكلمت أكثر مما يجوز .

فهتفت وهى تفقد الوعى :

ـ ما الذى يجوز ؟ ما الذى لا يجوز ؟ لماذا جئت ؟ إنك ما جئت إلا لتقول ذلك . .

فقال وهو يتدهور أكثر فأكثر :

ـ فى البدء كانت اللعنة ، والآن الجنون . .

فبعث جمالها جارفا الأسى وقالت :

ـ أسمعنى بصراحة ووضوح .

ـ إنك تدركين كل شىء . .

ـ لا أهمية لذلك ، أسمعنى صوتك . .

فرنا إليها بنظرة هشة تسيل اعترافا . بعثت النظرة فى أوتارها عزف النغم فتوهج جمالها كالشعاع ، واكتسى بحلة الظفر المبهرجة .

ـ إذن لم يكن أنت الذى قال لا . .

فقال بأسى :

ـ شخص فىَّ قالها . .

ـ ثمة شخص آخر ، ماذا يقول؟

قال بجدية بالغة :

ـ كنت أحبك ، ما زلت أحبك ، ولكن علينا أن نفكر طويلا . .

واستقر الصمت بإرادة الطرفين فى وقار الليل ، وفى الصمت عزفت فى الآذان دقات القلوب . .

٤٤

لو أن شيئا يمكن أن يدوم على حال ، فلم تتعاقب الفصول؟

٤٥

الانتظار محنة ، فى الانتظار تتمزق أعضاء الأنفس . فى الانتظار يموت الزمن وهو يعى موته . والمستقبل يرتكز على مقدمات واضحة ولكنه يحتمل نهايات متناقضة . فليعب كل ملهوف من قدح القلق ما شاء .

متزوجة ، غير متزوجة ، أيضا عاشقة . تكاشف الأولياء ، تستشير المحامى ، تجن من التفكير فى الخطوة التالية .

فى محل الغلال تمارس التجارة بمهارة ، تحاور العواطف بشغف ، تدارى الأشواق بعذاب ، تصارع الغرائز بعنف ، ترفع إلى السماء أمانى وابتهالات .

الناس تراقب وتتذكر، تحصى اللفتات والنوايا، تَؤَوِّل الأوهام بأوهام، تتعجل تحقيق الظنون، تتستر بالتقوى والبراءة.

ويقول سعيد الفقى شيخ الحارة:

ـ الشهامة قناع. والفاسق أبرع من الشيطان.

ويسأل عثمان الدرزى السكارى فى البوظة:

ـ لِم لَم يتزوج حتى الآن؟

٤٦

زحف مد الأسى حتى غطى إبراهيم الشوبكشى شقيق رضوانة ووكيل خضر. الأقاويل تدهمه مثل الشرر. خسر الجاه وها هو ذا على وشك أن يخسر الشرف. الحياة تدبر رويدا رويدا منذرة بمأساة.

وسأل خضر ذات يوم:

ـ أليس من حقك أن تطالب بدارى الشوبكشى والسمرى نظير ما سددت من دين؟

فأجابه خضر بدهشة:

ـ ما خطر لى ذلك ببال.

فقال إبراهيم بمكر:

ـ جميل أن تحفظ عهد بكر رغم أنه ضيعه..

فقال خضر ببراءة:

ـ أبناء بكر أبنائى..

ما أجمل الكلام! ولكن ماذا عن النوايا؟

٤٧

ولقى إبراهيم الشوبكشى نفسه فى الجحيم. بين يديه سهل منبسط، وحياة واعدة لا بأس بها، ولكن ثمة قوى نابعة من المجهول تدفعه إلى طريق وعر. وهو لا يسير مغمض العينين، ولكنه يمتلئ بوعى حاد كالنصل، ويدرك أنه يطرق باب الرعب.

ذهب فى المساء لزيارة شقيقته رضوانة. طالما تبادلا الحب صافيا والرعاية. ولكنه لم يجد بدا من مصارحتها بما يتردد على ألسنة الخلق. واستاءت رضوانة استياء جليا، وقالت بحدة:

ـ هكذا الناس دائمًا وأبدا..

فقال إبراهيم:

ـ من واجبنا أن نقطع الألسنة.

ـ أود أن أقطعها بلا رحمة..

فقال إبراهيم بمكر:

ـ نالنا ما نالنا من اختفاء زوجك، إنه لوغد!

فانزلقت قائلة:

ـ هو كذلك، ومن حقى ألا أسكت على ذلك..

فاشتعلت هواجسه وتساءل:

ـ ماذا تعنين؟

ـ من حقى أن أطالب بالطلاق!

فصرخ إبراهيم بغضب:

ـ الطلاق؟!

ـ أجل، ماذا أغضبك؟

ـ النساء المحترمات لا يفعلن ذلك..

ـ لا يفعل ذلك إلا النساء المحترمات!

ـ وكيف تبررينه؟

ـ بأنه تركنى بلا مورد!

فتساءل بتربص:

ـ وهل يجيئك الطلاق بمورد؟

أدركت أنها جاوزت الحد بتصريحاتها، فارتبكت قليلا ثم تمتمت:

ـ على الأقل أن أقطع صلة لم يبق لها معنى..

فقال برجاء:

ـ أجلى ذلك من فضلك، ثم إنه طريق معقد لا ندرى شيئا عن مسالكه.

ـ كلا، المحامى له رأى آخر!

فتساءل فى ذهول :

ـ استشرت محاميا أيضا؟

فلاذت بصمت متحرج فهتف :

ـ يا للعار ! ومن وراء ظهرى؟ !

ـ محض استشارة لا ضرر منها . .

ـ يحق لناس عند ذاك أن يقولوا إنك تسعين إلى الطلاق تمهيدا للزواج من خضر !

ـ عليهم اللعنة . .

ـ ولكنه أمر خطير بالنسبة لسمعتنا !

فقالت بحدة :

ـ سلوكى طاهر لا شائبة تشوبه .

فقال وهو يحملق فى وجهها بوحشية :

ـ سيرجح لديهم ـ ولهم العذر ـ أنك كنت شريكة فى جريمته . .

ـ سيجدون دائما ما يقولونه . .

ـ ولكنه خطير جدّا وسينسف سمعتنا نسفا . .

فقالت بغضب :

ـ لست قاصرة يا إبراهيم . .

ـ المرأة قاصرة حتى تدخل القبر . .

وجفلت من غضبه فقالت :

ـ فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر .

فقالت بعناد :

ـ إنه غير قابل للتأجيل . .

فهتفت بعصبية :

ـ دعنى وشأنى . .

فصرخ :

ـ الآن أدرك أنك شريكة له !

ـ أنسيت ما حدث؟

ـ ولكنى أعرف قصة امرأة العزيز . .

فصاحت غاضبة :

ـ حسبى أنى واثقة من نفسى .

فوقف شاحبا وسأل :

ـ بصراحة أجيبينى ، هل تنوين الزواج من خضر ؟

ـ أرفض الاتهام ، كما أرفض التحقيق . .

ـ يا للكوارث التى لا تريد أن تقف عند حد !

ـ فوقفت بدورها وهى تتساءل :

ـ أليس الزواج علاقة مشروعة ؟

ـ أحيانا يكون هو والزنا سواء .

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل . .

فقال بهدوء طارئ :

ـ إذن فأنت تنوين الزواج من خضر ؟

فلاذت بالصمت وأطرافها ترتعش .

ـ إنك تنوين الزواج من خضر ! حقّا إن للناس غريزة لا تخيب . .

فقالت بأسى :

ـ تبرأ منى إذا شئت ، لننفصل يا إبراهيم !

فقال بهدوء :

ـ سوف ننفصل يا رضوانة . .

وانقض عليها بغتة . بكل وحشية وجنون طوق عنقها بيديه . شد بقوة حتى ثمل بالعنف وتمادى فى القتل . ودافعت رضوانة عن حياتها بيدين عاجزتين ، بانتفاضات عشوائية ، بصرخات لم تخرج ، باستغاثات لم تسمع ، بأمانى لم تذعن ، بيأس بدد النور والأشياء .

مضت تسترخى ، تستسلم ، تهن ، تهمد ، معلنة الندم . .

المطـــارد
الحكاية الرابعة من ملحمة الحرافيش

١

الشمس تشرق، الشمس تغرب، النور يسفر، الظلام يخيم، الأناشيد تشدو فى جوف الليل. غابت رضوانة فى بطن الأرض، غاب إبراهيم فى السجن، غاب بكر فى المجهول.

لم يرث أحد للقتيلة، فاز إبراهيم بالعطف والتقدير، انطوى خضر على أحزانه لا يشاركه فيها أحد. كثر تداول الحكم عن فساد طبيعة المرأة، الأمثال تضرب على خيانة الإخوة، تردد المواعظ اللعنة النازلة بآل الناجى.

تنكرت لهم الفتونة، رفل فى ثوبها الزاهى عتريس حتى انتقل إلى الآخرة، حل محله الفللى أقوى أتباعه، اندرج عاشور وشمس الدين وحتى سليمان ضمن ركب الأساطير.

ها هو ذا كبيرهم خضر سليمان الناجى يتربع فوق كرسيه بمحل الغلال، يثرى يوما بعد يوم، يؤدى الإتاوة للفللى فى حينها. مبتور الصلة ببطولة الأبطال.

شيد داراً جديدة، عكف على تربية رضوان وصفية وسماحة، لبث أعزب حتى قارب الأربعين، دفن فتحية زوجة أبيه، شهد موت الشيخ طلبة القاضى إمام الزاوية، وسعيد الفقى شيخ الحارة، وعثمان الدرزى الخمار.

وأخيرا تزوج خضر من ضياء الشوبكشى صغرى أخوات رضوانة، وهى بنت بها من رضوانة مشابه وفيها جمال أليف، وسرعان ما تبين له طيبتها غير العادية، طيبة النقاء والبساطة التى تقف على حافة السذاجة والبله. لم تؤدِّ فى الدار دورا ذا شأن ولم تنجب أطفالا، وتركت جمالها للفطرة بلا تأنق ولا تزويق. ورضى خضر بحظه ولم يخطر له ببال أن يتزوج من أخرى. . ومال إلى الورع والتقوى، وأكثر من السهر فى الساحة أمام التكية كما فعل جده عاشور من قبل.

وتزوجت صفية من بكرى صاحب وكالة الخشب، وعمل رضوان فى محل الغلال وكيلا لعمه فى المكان الذى خلا بسجن إبراهيم الشوبكشى. ومن خلال العمل تجلت رزانته وأمانته ومواهبه التجارية فبشر بمستقبل رائع.

أما سماحة، فقد بدا أنه مشكلة.

٢

كان سماحة متوسط الطول، فائض الحيوية، قوى العضلات، فى وجهه ملامح شعبية من وجه جده سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل وبشرة صافية تذكران بأمه رضوانة . .

أتم تعليمه فى الكُتَّاب، واكتسب من عالم الفضيلة شهامة وكرما وبعض الورع، ولكنه ولع بمغامرة الشباب، والجسارة، ، وعبادة البطولة . أما العمل فى المحل فلم ينشرح له صدره، ولا تجلت له فيه مواهب . واتخذ من بعض أفراد عصابة الفللى أصدقاء، فشاركهم سهراتهم فى الغرز، وحتى البوظة طاف بها مرات .

وقلق لذلك خضر، وكثيرا ما كان يقول له :

ـ يلزمك قدر كبير من الإرادة والتركيز . .

فينظر سماحة إلى شقيقه رضوان بفضول ويقول :

ـ لم أخلق للتجارة يا عمى . .

فيسأله قلقا :

ـ لم خلقت إذن يا سماحة؟

ويشرد ببصره فى حرج، فيقول خضر :

ـ إن مصاحبة الفتوات واللهو معهم ليس هدفا لأمثالك . .

فيتساءل سماحة :

ـ ماذا كان أجدادنا يا عمى؟

فيقول خضر بجدية :

ـ كانوا فتوات حقّا لا بلطجية، ولم يعد لنا من أمل إلا فى التجارة والجاه!

رغب فى إرشاده وتوجيهه مدفوعا بقوة حبه لأمه، وقد تركزت فيه وفى رضوان وصفية عواطف أبوته المغتالة . حقّا لم تعد رضوانة إلا ذكرى، ولكنها ذكرى، لا تريد أن تموت . .

٣

وما يدرى خضر سليمان الناجى إلا وسماحة ينضم إلى عصابة الفللى رجلا من رجاله. احتفل الفتوة بانضمام حفيد الناجى إلى أعوانه، وعده أكبر نصر له فى حارته. أما الحرافيش فاعتبروا ذلك طورا جديدا من أطوار المأساة التى تطحنهم. وقيل ـ فيما قيل ـ إن الله قادر على أن يخلق أحيانا من صلب الأبطال أوغادا لا وزن لهم، وإن عاشور صاحب الحلم والنجاة والعدل الشامل ظاهرة خارقة لا تتكرر.

وحزن خضر حزنا عميقا، وعانى مرارة الخيبة والمهانة. وقال لابن أخيه:

ـ إنك تمرغ ذكرى الناجى والسمرى والشوبكشى فى التراب. .

فقال له سماحة:

ـ رأسى ملىء بالآمال يا عمى. .

ـ ماذا تعنى يا سماحة؟

ـ سوف يرجع عهد الناجى ذات يوم إلى أصله!

فتساءل خضر جزعا:

ـ هل تراودك فكرة الفتونة؟

فقال بثقة:

ـ لم لا؟

ـ ولكنك لا تملك القوة الكافية. .

فقال بحرارة:

ـ هكذا ظن بشمس الدين!

ـ ولكنك لست شمس الدين. .

فقال:

ـ عندما يحين وقت المعركة. . .

فقاطعه خضر:

ـ احذر الفللى، إنه شيطان ماكر، احذر أن تجرفنا مغامرتك فتلقى بنا فى الهوان والضياع. .

وقال له شقيقه رضوان:

ـ أقلع عن طموحك، للفللى مائة عين، لقد طواك تحت جناحيه حتى لا تغيب عنه حركة من حركاتك . .

فابتسم سماحة، وتجلت الأحلام فى عينيه مثل حمرة الغسق.

٤

فى تلك الليلة سهر خضر فى الساحة أمام التكية. دفن قلقه ومخاوفه فى الظلمة المباركة. رفع عينيه إلى النجوم الساهرة طويلا. رنا بإجلال إلى شبح السور العتيق. ابتهل إلى بوابة التكية الشامخة. تأمل ممر الفناء بأسى. حيا أشباح أشجار التوت. تذكر بوجد الثاوين فى القبور والضائعين فى المجهول، والعواطف المشبوبة التى لم تنهل من رحيق الحياة. الآمال التى تلاشت فى الأبدية. الأحلام المنطلقة من وهدة السكون مثل الشهب. العرش الهائم فوق احتمالات الخير والشر كافة. وتساءل:

ـ ماذا يخبئ الغد؟ لم اختص عاشور بالرؤيا الهادية؟

وانتبه إلى الأنغام وهى تصعد مثل الهداهد هاتفة:

آنا نكة خاك را بنظر كيميـــا كنند

آيا بودكه كوشه جشمى بما كنند

٥

وفكر خضر فى تزويج سماحة من بنت الحلال. اعتقد أنه يعيش طور مغامرة هوجاء، وأنه ينقصه العقل. والارتباط بأسرة كريمة مدعاة إلى إعادة التفكير. والنزول بدار فاخرة وإنجاب ذرية كريمة ومصاهرة الأكابر، من شأنه خلق دنيا جديدة تقتضى أن يغير الإنسان جلده وعينيه. ورأى فى أنسية كريمة محمد البسيونى العطار أمله المنشود. وجس النبض فلقى ترحابا كما قدر وأكثر . .

عند ذاك قال لسماحة:

ـ وجدت لك ابنة الحلال . .

فتساءل سماحة:

ـ أليس من الواجب أن نبدأ بأخى الأكبر رضوان؟

ـ أو نبدأ بالجواد الجامح!

فقال سماحة بعذوبة وجرأة:

ـ الحق أنى سبقتك يا عمى..

ـ حقّا؟!

فحنى رأسه بهدوء فسأله بلهفة:

ـ من السعيدة المحظوظة؟

فقال وعلى شفتيه ابتسامة تحد:

ـ مهلبية!

ضحكت ضياء ضحكة عالية دون أن توضح نظرتها البريئة سعادتها بالخبر أو أساها.. أما رضوان فتمتم بذهول:

ـ مهلبية!

فقال سماحة بهدوء:

ـ كريمة كودية الزار صباح!

عبس خضر واحتقن وجهه. ضربت ضياء بيديها دفا مجهولا وهى تغرق فى الضحك. تساءل خضر:

ـ ماذا وراء تنكيلك بنا؟!

فقال سماحة بهدوئه:

ـ عمى إنى أحبك وأحب مهلبية!

٦

رآها لأول مرة فى موسم القرافة بصحبة أمها فوق كارو. من موقفه أمام حوش شمس الدين رآها وهى تثب من العربة. سمراء غامقة السمرة. ضاربة للسواد، ممشوقة القد، واضحة القسمات. مفصلة الأعضاء، باسمة الوجه، فائضة الحيوية والأنوثة مثل نافورة، فاضطرم بالرغبة والاندماج. تلاقت الأعين فى حب استطلاع متبادل، واستجابة عامة مثل أرض خصبة. انصهر بأسرارهما الهواء المطهو بأشعة الشمس والأنفاس الحارة والأحزان وشذا الخوص والريحان والفطائر. مال نحو منعطفها مثل عباد الشمس. واستحثه الموت المحيط بأن يسرع وألا يتردد.

لم يكن فى الأمر مفاجأة. كان يعلم من نوازع نفسه أنها ميالة بنهم إلى السود. ومغامراته البدائية كافة وقعت فى أحضانهن، فى ظلام القبو أو الخرابة وراء البوظة.

٧

اعتمد على نفسه وحدها. اختار للتحرى أسوأ الناس طرا أول ما اختار.

سأل «صديق أبوطاقية» عن مهلبية وأمها. وقال الرجل:

ـ إنى لا أبرح البوظة، ولكن الأخبار تجيئنى متطوعة ساعة بعد ساعة.

وجعل الرجل يتذكر ثم قال:

ـ للبنت معجبون، ولكنى لم أسمع عنها كلمة سوء..

ارتاح سماحة وعد شهادة أسوإ الناس خير شهادة. ولم يقنع بذلك فسأل الشيخ إسماعيل القليوبى شيخ الزاوية، فقال له:

ـ حرفة أمها ملعونة..

ـ إنى أسأل عن البنت.

فتساءل الشيخ باستياء:

ـ لم تختار زوجتك من مسكن تستقر بأركانه العفاريت؟

أما محمد توكل شيخ الحارة فكان واضحا وهو يقول:

ـ سمعة البنت لا غبار عليها..

وقال سماحة لنفسه:

ـ إنها أنقى سمعة من جدتى سنية هانم السمرى..

٨

مضى سماحة إلى مسكن صباح كودية الزار المطل على حوض الدواب. اعتقدت بادئ الأمر أنه يقصدها كزبون وجرى خاطرها إلى ضياء هانم الشوبكشى. قالت له:

ـ أهلا بسليل المجد...

وجعل ينظر إليها بهدوء، وشذا البخور السودانى يفعم أنفه ويخدره، وعيناه تتابعان

دفوفا مختلفة الأحجام، وسياطا وسيوفا ودراعات من الخرز الملون مبعثرات بين الكنبة والرفوف، ثم تعودان إلى الجسد البدين مثل زكيبة الفحم. قالت صباح:

ـ فى الخدمة يا سيد الكل..

فتمتم:

ـ ليس كما تتوقعين..

ـ فى الخدمة على أى حال..

فقال وهو يغرز عينيه فى الحصيرة المزركشة:

ـ طالب القرب فى بنتك مهلبية..

دهشت المرأة أول الأمر. تغير جوها بغتة. أشرق الوجه بابتسامة كاشفا عن أسنان نضيدة بيضاء، وتمتمت:

ـ زين!

فرفع رأسه باسما وقال:

ـ الله أسأل التوفيق..

فقالت بنبرة ذات معنى:

ـ لا أحد من الأسرة معك؟

فقال بغموض:

ـ قلت أبدأ بنفسى..

ـ حقّا؟ ما أسعدنى بالرجل الحر!

فابتسم متشجعا فتمتمت:

ـ زين!

وتلاقت يداهما فقرآ الفاتحة..

٩

ولم يفرط خضر فى أنسية كريمة محمد البسيونى العطار فتزوج منها رضوان، وأقام بنيانه على أساس متين..

وسأل سماحة عمه:

ـ هل تشهدون زفافى؟

فأجابه خضر بلا تردد :

ـ نحن أهل الظفر لا يقتلع من لحمه . .

فارتاح سماحة وطرح السؤال نفسه على رضوان فقال بحماس :

ـ ستجدنى دائما إلى جوارك . .

أما الحزن الدفين فلم يكن ثمة سبيل إلى محقه .

١٠

ـ أهلا بالناجى سيد الكل !

هكذا رحب به الفللى وهو متربع وسط أقوى أعوانه فى غرزة ترباسة . . وهكذا يرحب به دائما . وهو ليس غرّا . قلبه يهمس له دائما بالحذر . يشعر بأنه ثمة من يحصى عليه الحركات ويستقرئ النظرات واللفتات . يشعر بأنه يتحرك وسط دائرة من التوجس والترصد . ولكنه كان يمثل دوره كما ينبغى . هرع نحو المعلم الأكبر ولثم كتفه فى خشوع ، واتخذ مكانه المتواضع بين الأعوان فوق الحصيرة .

قال سماحة فى بشاشة :

ـ جئت أدعو المعلم والإخوان إلى حفل زفافى . .

فقهقه الفللى فى انشراح وقال مخاطبا حمودة قواده الخاص :

ـ زغرد يا بن الفنجرية !

فزغرد حمودة زغرودة لا تتأتى لامرأة قارحة ، وقال الفللى :

ـ مبارك عليك . متى ؟

ـ الخميس القادم بمشيئة الله . .

ـ من السعيدة المولودة فى ليلة القدر ؟

ـ كريمة صباح كودية الزار .

وجم الرجال . تطلعوا فى ذهول نحو الفتوة . لاحوا فى ضوء المصباح الوانى أشباحا شائهة الوجوه . وقال الفللى :

ـ ليس لصباح إلا بنت وحيدة !

ـ هى المقصودة يا معلم . .

فى الصمت لم تسمع إلا القرقرة، وسعلات متناثرة، وتلوَّت أسرار مبهمة فى الدخان المنتشر.

وهتف الفللى:

ـ يا حسين يا سيد الشهداء!

ونظر إلى رجاله متسائلا:

ـ ما رأيكم فى لعب هذه الدنيا العجيبة يا جدعان؟!

مصمصت الشفاه من وطأة العبرة، وتتابعت الأصوات:

ـ يا لها من دنيا!

ـ يا للعجب!

ـ يا هوه!

وصفع الفللى حمودة صفعة ودية وقال له:

ـ عليك أن تبلغ السر سليل المجد والشرف..

فقال حمودة مخاطبا سماحة:

ـ منذ ساعة واحدة تصور، منذ ساعة قرر المعلم الأكبر اختيارك لتكون رسوله إلى صباح لتطلب يد كريمتها له!

ذهل سماحة. مادت به الأرض، رأى الجب فاغرا فاه ينتظر جثته. لم يستطع أن ينبس بكلمة.

قال الفللى:

ـ إنه القدر. لم يستقر اختيارى إلا أمس فقط. منذ ساعة قررت اختيارك رسولا لى..

ها هى ذى الحقيقة تنجلى. لقد قبله عضوا بلا امتحان. كان يتربص به. وينتظر الفرصة المواتية. وها هى ذى قد جاءت بأبعادها القاسية. وها هو ذا فى مفرق الطرق بين الحياة والموت. إما الهلاك وإما الضياع.

ونظر الفللى إلى رجاله وتساءل:

ـ ما العمل؟

فتتابعت الأصوات:

ـ من ينكر الشمس فى السماء؟

ـ هل تعلو العين على الحاجب؟

ـ يا بخت من اختاره المعلم رسولا.

وسأله حمودة :

ـ متى تتكلم يا سماحة؟

عليه أن يتكلم . الشرر يملأ الغرزة ، عليه أن يغوص فى الأرض . ويرحب بالعدم . عليه أن يتجرع السم الزعاف .

قال سماحة سليمان الناجى :

ـ السمع والطاعة يا معلم . .

١١

انضم إلى مجلس الأسرة قبيل منتصف الليل بساعة . قال له عمه خضر :

ـ كانت ضياء تقص علينا حلما رأته عنك . .

لم يسمع . قالت له أنسية زوجة رضوان :

ـ رأيتك تمتطى بغلا ، تلهبه بسوط ولكنه يتشبث بالأرض .

وقال له رضوان :

ـ أحلام امرأة عمنا تستحق التأويل كما تعلم . .

فقالت ضياء :

ـ إنه عريس ، لا تزعجوا العريس . .

وزفر سماحة بصوت مسموع فتفحصه رضوان باهتمام وتمتم بقلق :

ـ أنت شخص آخر يا سماحة . .

فقال خضر :

ـ ذلك ما لاحظته وتجاهلته إلى حين . .

فقصَّ عليهم القصة بحذافيرها . سقطت على السامعين كتل من الرمال . حتى ضياء ارتسم الذعر فى وجهها الجميل . وتمتم خضر :

ـ طالما حذرتك . .

وقال رضوان :

ـ وجود مثلك فى العصابة مثار للمخاوف ، وحتى إذا لم تمس المخاوف الفللى نفسه فإنها خليقة بأن تجتاح الأتباع الطموحين المتربصين بالمستقبل ، ولا شك فى أن دأبهم كان الإيقاع بينك وبين الفتوة . .

صدق خضر على قوله وقال :

ـ ها هو ذا يدفع بك إلى مأزق لا مخرج منه إلا بضياع الكرامة أو فقدان الحياة نفسها . .

وقال رضوان :

ـ ضاعف من حذرك ، فإن عينه ترى حتى ما يكمن فى شقوق الجدران !

وقالت ضياء بحزن :

ـ البغل متشبث بالأرض !

فسألته أنسية :

ـ علام نويت؟

ولكن سماحة لاذ بالصمت ، وبدا تعيسا . .

وقال خضر بحزم ووضوح :

ـ احذر أن تفكر فى أى نوع من المقاومة !

١٢

ذهب سماحة إلى مسكن الكودية فى الصباح الباكر . شعر فى طريقه بوقع الأعين مثل لسعات الجمر . لثمت صباح جبينه وهى تقول :

ـ لم يبق إلا يومان ثم يجىء الخميس السعيد . .

فابتسم ابتسامة فاترة وتمتم :

ـ وقعت أمور !

فحدجته بنظرة متوجسة فقال باقتضاب وصراحة حادة :

ـ ما أنا إلا رسول الفللى لأطلب يد كريمتك مهلبية !

انزلقت الكلمات فوق وعيها دون أن تترك أثرا . كرر القول . طالب بحضور مهلبية فحضرت . راح يقص عليهما القصة وهما تتابعانه فى وجوم ، ثم هبط الصمت بكل ثقله .

وكان سماحة أول من خرج من الصمت ، فقال :

ـ إنها محنتى أولا . .

استنزلت صباح اللعنات وقنعت بذلك ، فقال سماحة :

ـ علينا أن نتدبر الأمر . .

فقالت صباح :

ـ إنه الرعب!

وسألته مهلبية :

ـ ماذا نويت؟

رغم كآبة الموقف انبعث منها إليه إثارة حادة. قال :

ـ يهمنى أن أعرف رأيكما . .

وإذا بصباح تقول :

ـ يا بنى منذا يفكر فى معاندة الفللى؟

ـ نستسلم؟!

ـ هو عين العقل ولا رأى غيره . .

ومال ببصره نحو مهلبية فقالت :

ـ رأيك أولا؟

فقال بوضوح :

ـ لا يمكن أن أتخلى عنك!

فهتفت صباح بذعر :

ـ هو الهلاك وخراب بيتى .

فقالت مهلبية :

ـ إنى معك . .

فخفق قلبه واشتعلت فى حواسه لذة عنيفة . أما صباح فقالت :

ـ هو الجنون . .

فقالت مهلبية :

ـ نهرب .

فهز رأسه موافقا ، فتساءلت صباح :

ـ وأنا؟

ـ لا شأن لك فى الأمر . .

ـ هل للانتقام عقل؟

ـ اهربى معنا!

ـ رزقى هنا . .

ـ الرزق فى كل مكان .

فقالت مهلبية :

ـ سيكون لدينا نقود .

فهتفت صباح :

ـ آه من الجنون إذا استحكم !

ومضى سماحة يخطط لتدبير محكم . .

١٣

ومن فوره ذهب إلى الفللى بمجلسه فى القهوة . لثم كتفه وقال بسرور :

ـ مبارك عليك يا معلم . .

فرنا إليه مليا ثم قال :

ـ عفارم يا بن الأصول .

١٤

ها هو ذا يلبد فى ظلمة الممر بين السور العتيق وسور التكية . هنا ، منذ أجيال ، ألقى بعاشور ، بلا اسم ولا شكل ، فى لفافة . هنا انهمرت فوقه الأناشيد بلا وعى منه . هنا امتدت إليه يد الرحمة تنتشله من الضياع . ها هى ذى الأناشيد تتسلق أمواج الظلام :

درين زمانه رفيقى كه خالى از خللست

صراحى مى نـاب وسفينـة عـز لست

ستجىء مهلبية متلفعة بالظلام ، يضىء قلبها فى الظلمة بما ينبض به من ابتهال للحب والحياة . سوف يتلامسان فى الممر ، ممر الأبدية المترعة بالآمال الملتهبة ، والآمال المتجددة .

حق إنه مضطرب . أكثر من مرة طوى جلبابه وبال . تنصت يحلم بالنجاة ويقارع التحديات والظنون . نذر لآل البيت خروفا . استحضر مثال عمه خضر الذى فرَّ ضائعا ثم رجع وجيها . لعله يرجع ذات يوم ليعيد عهد الناجى إلى عرشه . .

الفللى الآن يغط فى نومه . يحلم بالزفاف غدا . خدرته الزغاريد والعهود والبسمات . الآن أيضا تزحف مهلبية لصق الجدار نحو القبو . لعلها فى هذه اللحظة تشق الساحة والأناشيد . جسمها الحار يسوقها وقلبها الخافق يرشدها . الأناشيد تنتظم دقات قلبها ، تباركها ، تبدد وحشة الظلمة . .

١٥

من مكان ما فى مملكة الظلمة انطلقت صرخة . صرخة ممزقة بالفزع واليأس . سرعان ما تجسدت فى صورة فريسة موءودة الفرحة . تتطلع بعينين محتجتين نحو النجم اللامع ـ متلاطمة مع تموجات الأنغام . مسلمة فى النهاية إلى قبضة الصمت القاسى الساخر .

١٦

وثب سماحة من مكمنه كالمحترق . مهلبية ولا أحد سواها . اندفع نحو الساحة بلا حذر . ترامى إليه وقع أقدام من ناحية الساحة . قادمة منذرة بنواياها الدموية . افتضح السر بطريقة ما . بينه وبين الضحية عشرات النبابيت والخناجر . لا جدوى من الإقدام . توقف . تقهقر والأقدام تتقدم . عند منتصف الممر ترامى إليه وقع أقدام من ناحية القرافة . إنه محاصر . إنه الموت . السور العتيق مرتفع جدّا . سور التكية مدجج سطحه بقطع الزجاج المدبب المغروس . وثب بكل قوته متعلقا بطرف السور . انبطح فوق سطحه متلقيا نارا تسرى فى البطن والصدر والأطراف . فوق ما يتحمل البشر . .

تلاقى الجمعان وتجاوبت الأصوات :

ـ أين الثعبان؟

ـ مؤكد أنه تسلل إلى الساحة .

ـ لا أثر له فى الساحة .

ـ ولا فى الممر .

الألم يمزق الجسد ويتداح فى الروح . يخمد الأمل ويستعذب الموت .

١٧

السحب تهبط. تتهادى فى المكان مثل الضباب. تومض فى ثناياها نجوم. الأرواح ترقص مثل الأطياف.. السقاء يوزع قربة مليئة بالدموع. عاشور الناجى يتفقد الحارة الخالية. يقطع الحزن قلبه على الشهداء. يعنف الشوطة ويأخذ بتلابيبها. ثم يرقص رقصة النصر. يتلاقى مع سيدنا الخضر فى الساحة. إنى قادم لأقودك إلى السدرة. يسيران مشتبكى الذراعين فوق شعاع كوكب مضىء.

وشمس الدين يرفض استقبال الشيخوخة. يتركها متسولة عند الباب. يحمل السبيل فوق عاتقه ويمضى به نحو القبو. المتسول لا يبرح موقفه. شمس الدين يرقص رقصة النصر! ولكن أين سيدنا الخضر؟ المتسول لا يبرح موقفه. يا له من متسول عنيد! لا يرق لشلل سليمان، ولا لدموعه. يتركه يهوى درجة بعد درجة. أين المعجزات؟ أين الأحلام؟ ثمة دم يملأ حوض الدواب. ويملأ صهاريج السبيل. ويجف فى العروق. غير أن المتسول تحرك حركة عفوية. ولأول مرة يتكلم فيقول. عاشور لم يمت. عاشور سيرجع قبل بزوغ الهلال.

١٨

يشعر أول ما يشعر بحركة فى الجفون. بوجود مجرد. بنفحة من وعى.

يرى شابورة. تنجلى عن نقوش لا نهائية فى سقف المخدع. يا ألطاف الله. أين تسمع هذه الهمسات. هذه الألوان. أما زالت الدنيا على قيد الحياة؟ هذا الكائن امرأة. ضياء زوجة عمه خضر. تميل فوقه فى براءة وتتمتم:

ـ ما أكثر الأحلام!

دار خضر. ها هو ذا صوت عمه الطيب يردد:

ـ نحمد الله..

ها هى ذى الذكريات تدهمه فى طوفان. كيف تسلل إلى داره سائل الدم. وسور التكية المسلح. ما أقسى قلوب الخناجر الذهبية! وصرخة مهلبية فى جوف الليل. طارت

بكل الآمال الحية فألقتها وراء السور العتيق . بقى القلب المعذب الدامى وحده . تأوه من الأعماق . همس عمه فى أذنه :

ـ إنك هنا سر من الأسرار الخفية . .

وقال رضوان :

ـ لا ضمان لحياة أحدنا لو ذاع السر !

ها هى ذى الحقيقة مخضبة الوجه بالخجل والعار . ولكن كيف هتك سر هربه؟

١٩

تمضى صحته فى التحسن يوما بعد يوم . وتستعاد الحكاية بتفاصيلها الوحشية . مهلبية قتلت . شهد عشرات بأنه ـ سماحة ـ استدرجها بحيلة إلى الساحة ثم قتلها انتقاما منها لإيثارها الفللى عليه . . شهدت بذلك أمها أيضا . آثرت المرأة الحياة على الموت فشهدت لصالح القتلة . وإذن فقد قتل ثم لاذ بالفرار . وقال سماحة :

ـ صباح المسكينة هى التى اضطرت إلى البوح بسرنا !

وما العمل الآن؟

لا مفر من الهرب . كما هرب أبوه بكر وجدته سنية ، كما اختفى عاشور . فليودع التكية والقبوة والزاوية والسبيل والحوض والوجوه الحميمة كما ودع السعادة .

وسأل عمه :

ـ كيف تعاملون؟

فقال خضر بأسى :

ـ بالازدراء والغلظة . .

فتأوه . غير أن عمه قال له :

ـ يجب أن يكون هربك هذه المرة سرا لا يفشى !

٢٠

وجاءت أخبار مؤكدة بأنه قد صدر عليه حكم غيابى بالإعدام . وقال له خضر :

ـ بات الهرب واجبا لأكثر من سبب . .

إنه يختنق تحت ضغط الظلم والحنق. عاد خضر يقول:

ـ يجب أن تمر خمسة عشر عاما قبل أن يعثر عليك أحد.

وقال له رضوان:

ـ الحكومة تجد فى أثرك، وأعداؤك يجدون، احذر بصفة خاصة حمودة ودجلة وعنتر وفريد فقد كانوا على رأس الشهود..

آه! متى يقف على قدميه؟ متى تخف آلامه؟ متى ينسى أنه نكص عن نجدة مهلبية؟ متى ينزل انتقامه بأعدائه؟ ومتى وكيف يفلت من حبل المشنقة؟

وعانى آل الناجى شر معاملة. حتى الفقراء والحرافيش منهم لم يسلموا من الأذى. ثمة غلمان قذفوا خضر بالطين. نهبت عربة له محملة بالغلال. كانوا يأوون إلى بيوتهم مع المساء. غير أن خضر لم يغال فى التشاؤم، وقال:

ـ سوف يذعنون فى آخر الأمر لسحر النقود..

٢١

بتماثله إلى الشفاء الكامل نبض قلبه بدم جديد. جعل يفكر فى المستقبل ويرسم الخطط. لا مسرة فى الطريق حقّا ولكنه لم ينهزم. ودب من جديد فى أعماقه حب الحياة. اجتاحته رغبة ملهمة. تحفز للعناد والإصرار والبقاء.

٢٢

عندما عَدَّى النيل آمن بأنه انتقل إلى وطن جديد. كاد وجهه أن يختفى وراء لحية مسترسلة ولاثة تطوق الرأس فوق الحاجبين. أصبح اسمه «بدر الصعيدى»، وحرفته بيع التمر والحلبة والعدس. أقام فى بدروم ببولاق وعرف بسلوك عذب.

ونصب أمام مخيلته حبل المشنقة كأنه الميزان الذى لا يفارقه. أدرك أن الموت يرصده. أن الشياطين تقتفى أثره، وراح يسجل فى دفتر خاص الأيام فى مرورها كما يسجل فى الدفتر الآخر معاملاته التجارية. وغاب العالم القديم. كما غاب أهله وأهل حارته، طموحه فى الفتونة، حبه، الآمال الحارة. لم يبق معه إلا المنفى والعمل والتقوى.

ووجد بادئ الأمر وحشة فى بولاق. أجل إن المعالم متشابهة، فثمة السبيل والحوض والدواب والكُتّاب والزاوية وشيخ الحارة، طموحه فى الفتونة، حبه، الآمال الحارة، لم يبق معه إلا المنفى الناجى العظيم. ولم يثر فى الناس فضولا ذا خطر، فبولاق ميناء نهرى يلتقى عندها كثير من المراكب الشراعية كل يوم، ويؤمها الأغراب عبوراً وإقامة، لذلك لا يلوذ بها الفارون من وجه القانون، ولا تضيق بالغريب. وهى ممتدة ومتفرعة بخلاف حارته المكنونة، فتكاثف فى أعماقه الغربة والضياع، ولكنها غربة مسربلة بالأمان على أى حال. ثمة وقت غير محدود لتأمل حياته، ودراسة مشروعاته، واحتضان نوازعه الثابتة للانتقام وفرض سيادة العدل. هكذا قبع الحالم الكبير فى دكانه الصغير، يتعامل باللطف، ويدرع بالأمانة، ويقنع بالرزق الحلال، ويتحدى المجهول.

وقال له شيخ الحارة:

ـ الطيبون أمثالك نادرون.

فقال بأدب:

ـ من بعض ما عندكم..

ـ ترى ما سبب هجرتك من الصعيد؟

فأجاب بدهاء وقلبه يخفق:

ـ كيف يسأل صعيدى عن ذلك؟!

فضحك الرجل، وواصل بدر الصعيدى قائلا:

ـ وأجدادى الأوائل من بولاق!

فقال الرجل وهو يتناول منه لفافة بدينة حافلة بالمتنوعات:

ـ جميل أن يحن الإنسان إلى أصله..

٢٣

ثمة فتاة فى الجانب الآخر من العطفة. ملمح من ملامح الحارة الثابتة. تدعى محاسن بياعة الكبدة. دكانها متحرك يمكن حمله بجهد قليل. طبلية موضوعة فوق قائم أسطوانى من الجريد، منسوج الفراغات بالخوص المجدول، ترص على سطحها كبد العجول والضأن، يتوسطهما ميزان وساطور. والفتاة طويلة القامة، ثرية الأعضاء، ذات نظرة عسلية، فيها من الجاذبية بقدر ما فيها من حدة الطبع وطول اللسان.

يتوق الغريب إلى ما يؤنس وحدته ويبدد وحشة قلبه القلق. يتابع نشاطها باهتمام. يلاحظ عنفها بشغف. إنها مطمع كل شاب، وسرعان ما تشهر أسلحة الدفاع من لسان سام وأظافر حادة. إنه خير من الاستسلام، ولكن لم لَمْ يطلبها ابن الحلال؟

انفتحت شهيته للكبد: أدرك أنه ينساق فى طريق مجهول العواقب. وأنه يمضى مدفوعا بقوة فى داخله قبل أن تكون فى الجانب الآخر من الحارة. وزنت محاسن له رطلا ولفته فى ورقة، ثم قالت ببساطة:

ـ خذ يا سنى!

سُرَّ بدعابتها واعتبرها تحية. إنها تذكره برشاقتها وثراء أعضائها وغمقة سمرتها بفقيدته التعيسة مهلبية. وتذكره بالتالى بنكوصه المزرى عن نجدتها وبآلام الماضى الحزين. ولكنه ما زال يكابد الحياة، وربما كابدها طويلا تحت المطرقة. وكما طرح الموت ظله عليه تشبث أكثر بأهداب الحياة.

ومن ناحيتها كانت محاسن تبتاع منه العدس والفول والحلبة. خذ يا سنى. هات يا سنى. خذى يا ست محاسن. خذى يا ست الكل. لم يجاوز الاحتشام فى تعامله معها. لعلها قرأت فى عينيه أكثر مما يقول أو يفعل. لعلها عجبت أيضا لما ينفرد به من سلوك طيب..

وعلى جانبى الحارة، وبعيدا عن أى شبهة، نضجت عاطفة قوية..

٢٤

عقب صلاة العصر تعمد أن يشير إلى سيرتها فى حديث له مع إمام الزاوية.

ـ أهى وحيدة يا مولانا؟

ـ كلا، إنها تعيش مع أم عجوز ضريرة..

ـ ولا أهل لها سوى ذلك؟

ـ قُتل أبوها فى خناقة، ولها أخ فى الليمان..

ـ أظنها فى العشرين فلِمَ لَمْ تتزوج؟

فاستغفر الإمام وقال:

ـ كانت أمها سيئة السمعة!

ـ ولكن هل البنت..؟

فقاطعه الشيخ بصدق :

ـ لا غبار عليها ، والله أعلم !

زكاها عنده زهد الآخرين فيها ، ليس الغريب المطارد بالصالح للمنافسة ، الزواج يؤصله فى المكان ويجلب له الثقة . وهى خير من أخرى ذات أهل يهمهم أن يعرفوا الأصل والفصل . وأهم من ذلك كله لم لا يعترف بأنه يرغب فيها بكل شبابه؟

٢٥

انتهز فرصة وجودها بدكانه لشراء حوائجها ، مشجعا بدلالها ومرحها ، فسألها :

ـ ماذا ترين يا محاسن إذا طلبك رجل على سنة الله ورسوله؟

فرمقته باهتمام ، اهتمام غطته بنظرة ساخرة وضاءة ، وتساءلت :

ـ أيوجد مثل هذا المجنون؟

ـ أجل ، إنسان من لحم ودم ومستور برعاية الله . .

وتبادلا النظر مليا فى رضا وسلام ، ثم غلبها المرح فتساءلت :

ـ أله لحية مثل فروة الخروف؟

ـ هو ذلك . .

ـ وماذا أفعل بلحيته؟

فقال ضاحكا :

ـ لحية مستأنسة ولا ضرر منها على الإطلاق . .

نم وجهها على الرضا ولكنها ذهبت دون أن تنبس . .

ومضى يتذكر مهلبية بأسى عميق . .

٢٦

أعلنت الخطبة . وبعد أشهر تم الزفاف .

رغم أن العروسين كانا بلا أهل فقد اكتظ الفرح بالمدعوين من الجيران والزبائن . أنفق بدر الصعيدى عن سعة . جالت زفته بالحى فى حمى الفتوة فمرت بسلام .

وجهزت شقة مكونة من حجرة وصالة، حجرة للنوم وصالة للجلوس والمائدة، وأسهمت محاسن وأمها فى الجهاز بما يرفع الرأس.

وسعد سماحة بعروسه ولكن تنغص صفوه بعض الشيء بإقامة حماته معهما، واحتلالها الصالة ليل نهار. كانت عجوزا ضريرة، تشهد قسماتها العتيقة بجمال دابر، وكانت وقحة سليطة اللسان، قدت كلماتها من رصاص، فلم تعرف المجاملة حتى فى شهر العسل والمجاملات. ولكن الحب اكتسح كل شيء فى فصله الوردى.

٢٧

تفرغت محاسن للبيت. أحبت زوجها. اكتشفت أنه ميسور الحال أكثر مما يعلن، وأنه فى الداخل أجمل منه فى الطريق.

قالت له مرة:

ـ لو حلقت لحيتك لكنت من أحسن الناس صورة..

فقال متهربا:

ـ إنها سر نجاحى فى الحياة.

وإذا بحماته تبغته قائلة وهى تقهقه بصوت داعر:

ـ استعمليها بدل المقشة!

ولم يكن يستخف لها ظلا ولا يغفر لها ماضيا فحنق عليها وقال بحدة:

ـ أوافق بشرط أن نكنسك بها..

فاشتعلت العجوز بالغضب وهتفت:

ـ احترسى من هذا الرجل، فإن قلبه أسود..

رماها بنظرة حاقدة وعدها ضمن سوءات الحظ التى تطارده.

٢٨

حتى محاسن لم تنج من سهام العجوز. كانت فاسدة الطبع مشاكسة سيئة الظن بكل شيء. كثيرا ما تقول لابنتها:

ـ تضنون عليَّ بأطايب الطعام وترمون إليَّ بأسوئه . .

فتقول لها محاسن :

ـ تأكلين مما نأكل .

فتقول بإصرار :

ـ كذابة لا تخفى على حقيقة رائحة ، كذابة مثل زوجك !

فيغضب سماحة ويقول :

ـ ما دخلى أنا؟

ـ أنت رأس البلوى . .

ـ الصبر . . الصبر . . حتى يجىء الفرج !

فتصرخ العجوز :

ـ الفرج ! ستسبقنى إلى القبر !

ـ طريقنا مختلف على أى حال .

فتقهقه قائلة :

ـ أراهن على أنك قتلت أباك فى الصعيد وجئتنا هربا من حبل المشنقة ! ارتعد حنقا وحقدا وتمنى لو يحطم رأسها . .

٢٩

لكنه سعد بمحاسن حقّا ، ولاذ يحضنها من همومه الراسخة . هى أيضا تستجيب له وتسعد به . أجل آمن منذ الشهر الأول بأنها ليست الزوجة الطيبة المطيعة . إنها جريئة ، حادة ، واثقة من نفسها ، مداعباتها تخشن أحيانا لحد القسوة . وهى تبالغ فى عنايتها بنفسها . تكثر من الاستحمام والتعطر بالقرنفل ولكنها تتزين لحد البهرج . وعد ذلك من مزاياها ولكنه كره أن يطلع عليه غريب . ومن جراء ذلك نشب بينهما أول خلاف جدى .

قال لها مرة :

ـ لا تطلى من النافذة وأنت على هذه الصورة .

فقالت باستياء :

ـ طالما عملت فى الطريق . .

ـ كنت تظهرين كما خلقك الله . .

فقالت بحدة :

ـ وكنت ترى كيف أؤدب السفلة!

وتدخلت العجوز وقالت :

ـ ألم أقل لك إن قلبه أسود؟!

فنهرها قائلا :

ـ اقطعى لسانك القذر . .

فولولت العجوز :

ـ فليحمك الله من قاتل أبيه!

فأعرض عنها وهو ينتفض غضبا وقال لمحاسن :

ـ تشجعك على الفساد . .

فاشتد بها الاستياء وقالت :

ـ لست عرضة للفساد . .

ـ فى هذا الأمر أطالبك بالطاعة التامة . .

ـ لست طفلة ولا خادمة . .

فانهارت فرامله وصاح :

ـ سأقذف بك من النافذة!

فجنت محاسن وهتفت :

ـ سأقذف بك فى المرحاض . .

فصاحت العجوز :

ـ عفارم!

فصرخ سماحة :

ـ أتحدى أن تتجاهلى أمرى . .

وقف الخصام عند ذاك الحد . وسرعان ما تصافيا فى اليوم التالى . وفى مساء ذلك اليوم بشرته بأنها فى طريقها إلى الأمومة . .

٣٠

ماتت حماته العجوز الضريرة ميتة غريبة . .

سقطت من نافذة الصالة المطلة على المنور فتهشم رأسها . لعله من حسن حظ بدر الصعيدى أنه كان وقت ذاك فى دكانه . وجرت الإجراءات سراعا وبلا عرقلة حتى شيعت القتيلة إلى قبرها . احتفل بدر بالجنازة والمأتم إكراما لمحاسن ولمركزه فى الحارة . ووجد رغم ذلك حرجا لسابقة العداء المستحكم بينه وبين الراحلة .

وبكت محاسن بكاء مرا حتى قال لها :

ـ لا تبكى فأنت حبلى . .

فسألته بعتاب قاس :

ـ ألا تهمك المرحومة؟

ولما لاذ بالصمت اتهمته قائلة :

ـ لا تدار فرحتك!

فقال محتجا :

ـ الموت يفرض احترامه .

وعددت محاسن مزايا أمها التى لا يجوز أن تنسى . كانت تحبها رغم مشاكستها السطحية ، ومن قبل أحبت أباها لدرجة العبادة . وشد ما تحطمت عند مصرعه فى عز شبابه . وشد ما تحطمت عندما قضى على أخيها بالتأبيدة . وأدمنت الأفيون فاضطرب سلوكها واتهمت بكل سوء . هكذا فقد بصرها فزادت تعاستها . وتكالبت عليها الأحزان وهى مهملة فى بيت رجل لم يرحب بوجودها قط!

وقالت أيضا إنها كانت فى شبابها من أجمل بنات بولاق ، وإنها آثرت الزواج من أبيها على الاقتران بقصاب غنى ؛ فلم تكن تافهة أبدا .

تابع سماحة سيرة العجوز وهو يتذكر جدته سنية هانم السمرى التى هربت مع سقاء فى سن ابنها ، وتساءل بحزن : ترى أين تقيم؟ وماذا فعل الزمان بها؟ وماذا فعل بأبيه بكر؟ وكم ينطوى الماضى على مخاز وأحزان؟!

٣١

وجاء الصيف زافرا أنفاسه الحارة. إنه يحب ضياءه، لا يضيق بلفحاته، ويستعذب أماسيه الرقيقة، ويعشق الملوخية والبامية والبطيخ والشمام، ويستبشر بالاستحمام كل شروق.

وأنجبت محاسن ذكرا. وسُرَّ الرجل به سرورا فخورا. ود لو يسميه شمس الدين، ولكنه خاف الاسم كأنما سيزيح عنه الأمان، فوافق على الاسم الذى اختارته محاسن، رمانة، اسم أبيها.

وتضاعف نجاحه وثراؤه، وحول ساعدى محاسن تكاثرت الأساور الذهبية، وبدا وجه الحياة بساما. ويوما بعد يوم سجل فى دفتره السرى جريان الزمان البطىء. وعند كل مرة يتذكر حبل المشنقة، ويتساءل: هل تكتب له النجاة حقّا؟ ويتذكر أهله، وأهل حارته، ترى ماذا فعل الزمان بهم؟ ويتذكر أعداءه، الفللى ودجلة وعنتر وحمودة القواد، هل يقف فوق رءوسهم يوما وقفة المنتصر؟! هل يعيد إلى حارته عهد الناجى؟ هل يرجع إلى سماع الأناشيد؟

٣٢

وبعد رمانة أنجبت محاسن قرة ووحيد. استوى بدر وجيها من وجهاء الحارة ومحسنا من رجالها الطيبين. أصبحت له منزلة خاصة عند المساكين.

ولم تتخل محاسن عن عنايتها التقليدية بجمالها ونظافتها. لم تشغلها الأمومة عن الأنوثة وحب الحب. وإلى ذلك ولعت بالحشيش حتى صار مزاجا ملازما. جربته أول الأمر على سبيل المشاركة العابثة مع زوجها الذى يدخنه فى بيته كل ليلة. خرت بعد ذلك بين أنامله الناعمة الشرهة وهامت به.

ومرت الأيام وتعاقبت الأعوام حتى أمن الرجل إلى مصيره وانجلت عنه المخاوف أو كادت.

٣٣

وسرى إلى بولاق خبر عجيب .

ثمة صداقة تتوطد أركانها بين فتوة بولاق والفللى !

صعقه الخبر . انفتحت بغتة تحت قدميه فوهة جب . زلزلت أركان دنياه الأربعة .

وسأل شيخ الحارة عما يقال فقال الرجل :

ـ أبشر ، إنه يعنى مضاعفة لقوة الفتوتين !

تظاهر بدر بالسرور ، فقال شيخ الحارة :

ـ ستكثر الأفراح والليالى الملاح . .

ـ هذا هو المأمول .

ـ ثق من ذلك ، سوف تتبادل الزيارات ، وهذا يعنى الغناء والرقص والسكر .

فتمتم بدر بريق جاف :

ـ ما أطيب ذلك وأجمله !

تسلل ثعبان إلى المسكن المطمئن . لم يخطر له ذلك على بال . طالما ظن أن النيل حاجز لا يعبر . هكذا سيجىء الفللى وعصابته . سيمرحون فى الحى . سيدعى إلى الأفراح . لم يزل نصف المدة قائما ، قابضا على حبل المشنقة . لن تخفى حقيقته عن الأعين الثاقبة . ورسم خطة .

ادعى المرض قبيل الزيارة بأيام . حتى محاسن صدقته وحلت فى الدكان محله .

٣٤

فى الليلة الموعودة قبع وراء خصاص النافذة .

غيرت الدنيا سحنتها . كل شىء ينطق بالغرابة . السخرية متجسدة حول الكلوبات مثل وجه ساحرة . نفايات الأمان مكومة فى المزابل . أما الحارة فتتموج برقص الراقصات والراقصين . ورائحة السمك المقلى تملأ الهواء . إنه الشتاء فلم لا تمطر السماء؟ أين الرعد والبرق؟ أين قسوة الرياح؟ وعلا الطبل والزمر . وضج المكان بالهتاف والزغاريد . ها هو

ذا موكب الأصدقاء يقترب. تتقدمه جياد راقصة مجلجلة بأهلتها الفضية. ها هو ذا أبغض خلق الله، الفللى القبيح اللئيم الطاغية، شابكا ذراعه بذراع فتوتنا. يبتسم عن أسنان ذهبية. ها هو ذا دجلة. عنتر. فريد. أين حمودة؟ قتل. سجن. مات. الأوغاد مجتمعون. أين القضاء والقدر؟ ما جدواك أيها الحقد؟ إنهم يبتعدون ولكن الضوضاء تتفشى. ليلة صاخبة. معربدة. مضمرة للعذابات المبهمة. متوعدة بكل شر. عزرائيل يباركها. حبل المشنقة يطوقها. الأحلام تختنق فيها. الأحبة ـ محاسن ورمانة وقرة ووحيد ـ يتحولون إلى أطياف. قد تتلاشى فى أى لحظة. ويحل ظلام دامس. ويحل يأس قاتل. ويحل فراغ شامل . .

٣٥

رجع إلى دكانه مستقبلا التهانى. القبوع فى البيت مفسدة للروح، مثير للمخاوف، مهول للأحزان. أما الحركة فبركة. المعاملة تجديد للدماء وبعث للشجاعة. اختفى الأعداء. توارى عزرائيل . . رحيق الحياة يجرى فى ريقه. التوكل على الله ينعش روحه. الأمل يخطر من جديد. الإلهام يفعم وجدانه. اطمئن يا بدر ولا تخف. تحصن وراء لحيتك واعتمد على رب العدل.

واشتدت ارتباطاته الوجدانية بمحاسن ورمانة وقرة ووحيد. بالطعام والشراب والعبادة والحياة. حتى الشتاء وجد فى سحبه شغفا. طرب لكل شىء حتى أصوات الشتائم المتبادلة. أسف على أنه لا يستطيع أن يلقن الأبناء حكايات عاشور وشمس الدين. أن ينشئوا جاهلين لأصلهم المبارك، لبركة الحلم، وصداقة سيدنا الخضر. متى يعرف رمانة أنه رمانة سماحة الناجى؟

وقال لنفسه:

ـ افرح عند كل شروق شمس ولا تحزن عند غروبها!

٣٦

كان يسجل مرور يوم جديد بدفتره السرى عندما أمره شعور داخلى بأن يرفع عينيه. رفع عينيه فرأى محمد توكل شيخ حارته الأصلية على بعد متر من دكانه. رآه يمر وهو يلقى نظرة عابرة.

انخلع قلبه. اخترقه الفزع مثل بلطة. تلاشى كل شىء.

هل رآه الرجل؟ هل تذكره؟

ولمحه عن بعد جالسا فى دكان شيخ الحارة. يتحدثان ويتضاحكان. وتنظر عيناه كيفما اتفق. إنه الموت. شد ما يسعده أن يقدم خدمة للداخلية. شد ما يسعده أن يهنئ الفللى بالقبض عليه. لو عمى الرجل ما عرف ـ هو ـ الأمان بعد الساعة. أصبحت بولاق مباحة للأعداء.

وها هو ذا خبر ينتشر أن محمد توكل يسعى إلى مصاهرة تاجر الخردة. لعله جاء فى صحبة الفللى فقادته عيناه إلى زوجة جديدة. سوف يمسى من أهل بولاق بقدر ما هو من أهل الحسين. لم تعد بولاق بالمأوى الآمن.

أجل لم تعد بولاق بالمأوى الآمن..

٣٧

قالت له محاسن وهى تتفرس فى وجهه:

ـ فى قلبك شىء.

كان الأبناء قد ناموا. وكانت تحوم حوله فى زينتها الحلوة فآنست منه ما خيب حلمها. قال:

ـ فى قلبى أشياء..

سلمت للخيبة وتساءلت:

ـ التجارة؟

فتمتم بحزن:

ـ التجارة رابحة، ولكن أمامى رحلة طويلة..

ـ الصعيد؟

ـ ربما..

ـ ولكن ما السبب؟

فتجاهل سؤالها قائلا:

ـ سوف تطول أعواما..

ـ أعوام؟! خذنا معك..

ـ أتمنى ذلك، ولكنه مستحيل . .

فقطبت فى ريبة فقال :

ـ رحلة مطارد لا رحلة تاجر!

ـ مطارد؟!

فتنهد قائلا بأسى :

ـ إليك قصة المطارد المظلوم يا محاسن!

٣٨

ودع الرجل زوجته وأولاده وغادر داره متسللا قبيل الفجر .

مع الصباح الباكر وقفت محاسن فى الدكان تمارس حياتها الجديدة . كانت كئيبة حزينة ضائقة بسرها . وكانت تقف بين الشك واليقين مما حكاه زوجها . لقد خدعها أعواما . وربما له عذره، ولكنه خدعها، فهل صدقها أخيرا أم تمادى فى خداعه؟

ومر بها شيخ الحارة، فسألها عن زوجها، ماذا أقعده فى البيت؟ فقالت بوجوم :

ـ سافر إلى الصعيد . .

فدهش الرجل وقال :

ـ أمس قابلته فلم يخبرنى بشىء . .

فقالت باستسلام :

ـ سافر!

ـ صاحب همة عالية، ولكنك لست كعادتك يا ست محاسن . .

ـ بخير يا ريس .

ـ متى يرجع؟

فلاذت بصمت واجم، فتساءل الرجل بحذر :

ـ امرأة أخرى؟

فقالت بحدة :

ـ كلا .

ـ هل تطول غيبته؟

ـ ستطول أعواما يا ريس!

ـ يا للخبر!

ـ قسمتى . .

ـ ولكنك تخفين أشياء . .

فقالت بفتور :

ـ كلا .

فمضى الرجل وهو يقول :

ـ لا أمان للصعايدة!

٣٩

ونشر شيخ الحارة الخبر حتى علم به محمد توكل وكان ينزل ضيفا عليه . وبخلاف ما توقع اهتم الضيف بالخبر وتساءل :

ـ أهو الصعيدى ذو اللحية؟

فأجاب شيخ حارة بولاق بالإيجاب .

عند ذاك أغمض محمد توكل عينيه متفكرا . .

٤٠

عقب ساعة اهتزت الحارة على كبسة عسكرية .

اقتحمت قوة منها مسكن بدر الصعيدى بقيادة ضابط ، وقد اقتحمت دكانه بقيادة المخبر حلمى عبد الباسط .

زحف الأهالى نحو المواقع كالنمل .

سأل حلمى عبد الباسط محاسن بخشونة :

ـ أين سماحة سليمان الناجى؟

فأجابت بثبات :

ـ لا أعرف أحدا بهذا الاسم . .

ـ حقّا؟! أين بدر الصعيدى؟

ـ لا أدرى.

ـ كذابة..

ـ لا تسب يا مخبر، ماذا تريدون من رجل شريف؟

ـ شريف؟! أنت تعلمين أنه هارب من حبل المشنقة..

ـ أعوذ بالله.. الحارة كلها تعرفه..

فصاح:

ـ أمامى إلى القسم..

فهتفت:

ـ لى أبناء ثلاثة لا أحد يرعاهم. ماذا تريدون منى؟

٤١

فتش الدكان كما فتش البيت. جرى تحقيق دقيق مع محاسن. أفرج عنها. وطار الخبر فى الحارة مثل النار. ذهل الناس ذهولا.

ـ بدر الصعيدى!

ـ صاحب اللحية..

ـ المحسن!

ـ قاتل هارب من المشنقة!

ـ لم يكشفه إلا حماته وإن تكن امرأة سوء مثله!

٤٢

مضت العادة تستل من العجائب روحها وجدتها. أدخلت محاسن أبناءها الكُتَّاب، وكانت تجىء بهم عقب الكُتَّاب إلى الدكان أو تتركهم يلعبون أمام عينيها، شد ما حزنت على زوجها، وشد ما حزنت لحظها الأسود. ورغم نوبات الحنق لم تنس أنه تركها مستورة، بل غنية بتجارة رابحة.

ومنذ يوم الكبسة لم يتخلف المخبر حلمى عبد الباسط عن المرور بالحارة أو الجلوس أحيانا بدكان شيخ الحارة. ترى أما زال يراقبها؟ إنها تشعر بنظراته وتضيق بحركاته ولكنها تتجاهله. رجل فظ غليظ. طويل القامة، كبير الوجه. ذو عينين صغيرتين وأنف غليظ، وشارب مثل مخرطة الملوخية. يا له من منظر شؤم، شؤم ما اقترن به من ذكريات! إنه يراقبها بلا أدنى شك. فماذا يظن؟ يمر بالدكان فيرمى بنظرة غريبة مثيرة للتساؤل، أو يجلس بدكان شيخ الحارة فيسدد بصره بلا هوادة ماذا يريد؟ تساءل عقلها وتساءلت غريزتها. توثبت للنضال كما توثبت للاستطلاع.

ومرة توقف أمام الدكان. اقترب خطوة فانحشر فى أفكارها. تبسم متسائلا:

ـ أتؤمنين حقّا ببراءة زوجك؟

فأجابت دون أن ترفع عينيها إليه:

ـ إنى أصدقه.

فقال بنبرة الوعظ وهو يمضى:

ـ حتى يلتف الحبل بعنق القاتل يظل مصرا على براءته!

٤٣

ورأت يوما محمد توكل شيخ الحارة فدعته إلى دكانها. أكرمته وقالت له:

ـ لعلك تدرك ما أعانيه من متاعب.

فقال الرجل مجاملا:

ـ كان الله فى عونك..

ـ ولكنك وحدك من يعرف الحقيقة..

ـ الحقيقة؟!

ـ حقيقة التهمة..

فقال توكل بلباقة:

ـ لا أعرف إلا ما أسفر عنه التحقيق.

ـ ولكنه أقسم لى بأنه برىء..

ـ ثبت أنه قتل البنت ثم هرب..

تنهدت محاسن يائسة، ثم قالت:

ـ حدثني عن أهل زوجي وأبنائي . .

فقال محمد توكل باسما :

ـ إنهم من صلب فتوات قدامي يروون عن سيرهم ما يشبه المعجزات ، ولكني لا أصدق خيال أهل حارتنا ، فهم يؤمنون بأن الخير بدأ وانتهى في ماض غامض ، ولا يفرقون بين الحقيقة والحلم ، يفكرون بعواطفهم ، ويحكمون على الأشياء بتعاستهم ، ويصدقون أن الملائكة هجرت سماواتها ذات يوم لتحمي هذا أو ذاك من أجدادهم . .

ـ هل الفللي منهم؟

ـ كلا ، انتهى زمان فتونتهم ، لم يعد أحد منهم يفكر فيها ، أكثرهم اليوم فقراء أو من أهل الحرف ، ولكن زوجك ينتمي إلى الأسرة الغنية الوحيدة فيهم ، فعمه المعلم خضر من كبار التجار ، وكذلك شقيقه رضوان ، هل تنوين تسليمهم الأبناء؟

فبادرت تقول :

ـ كلا ، لن أتخلى عن أبنائي ، ولست في حاجة إلى أحد ، وما سألتك إلا لأعرف ما ينبغي معرفته . .

ـ قد يطالبون بهم ذات يوم؟

فقالت محاسن بحرارة :

ـ سأحتفظ بهم ما وجدت إلى ذلك سبيلا . .

فقام شيخ الحارة وهو يقول :

ـ كان الله في عونك . .

٤٤

مع الأيام أصبح حلمي عبد الباسط من زبائن الدكان . أكان ذلك ضمن خطته في المراقبة؟ ولكن كفى خداعا للنفس . هذه النظرات الجائعة لا تصدر عن تجسس . وليس في حياتها ما يستحق المراقبة . إنه يحوم حولها بنظرات مشغوفة ، وابتسامة متوددة ، وارتباك ينم عن نواياه الدفينة . إنها تعرف ذلك بغريزتها ولكنها تتجاهله . وهي تشعر بنفور ولكنها تتجنب الحزم . وقلقها من المستقبل يتزايد يوما بعد يوم .

ومرة قال لها :

ـ سامحه الله . .

فنظرت إليه مستطلعة رغم أنها عرفت من يقصد فقال :

ـ يتركك وحيدة مع ثلاثة أبناء . .

فلم تنبس ، فقال :

ـ وحتى إذا كتبت له النجاة فعليك أن تنتظرى ثمانية أعوام . .

فقطبت فقال بيقين :

ـ ولن تكتب له النجاة !

فقالت بحزن :

ـ الله مع المظلومين !

فقال بإصرار :

ـ طيلة حياتى لم أسمع أن قاتلا أفلت حقّا من حبل المشنقة !

٤٥

ومرت الأيام ثقيلة متشابهة . أرهقها الجهد المتواصل والضجر . وأرهقها الحرمان من الذى كان يملأ حياتها . ووجدت مشقة فى تموين دكانها بالسلع فهبط الدخل رغم أنه ما زال فوق الكفاية . وراحت تحاكم سماحة وتدينه لما نزل بها ، وتشتد فى محاسبته كلما أثقلها الضجر أو عذبتها الوحدة . وأكثر الوقت ضاع رمانة وقرة ووحيد فى الطريق بلا رعاية ، حتى قال لها شيخ الزاوية :

ـ الأولاد معرضون للشر يا ست محاسن . .

فقالت بأسى :

ـ ما العمل؟ لم يبلغوا بعد السن التى يعدون فيها للعمل فى الدكان . .

ـ أليس الأفضل أن يلقنوا حرفة ولو على سبيل حفظهم من الطريق؟

فقالت مقطبة :

ـ لن أتركهم تحت رحمة أناس لا ثقة لى فيهم . .

وتضاعف سخطها وقلقها . .

٤٦

ولم يكف حلمى عبد الباسط عن الحومان حولها. ومرة قال لها بحنان:

ـ إنى أرثى لك يا ست محاسن..

فقالت بإصرار:

ـ إنى قوية وناجحة..

ـ ولكنك لست حرة.

ـ ماذا تعنى؟

ـ ما زلت مرتبطة بحبل المشنقة..

فقطبت قائلة:

ـ إنى راضية..

ـ بل عليك أن تتحررى لخيرك وخير الأولاد..

ماذا يريد أن يقول؟

ـ فى مثل ظروفك تطالب المرأة بالطلاق!

فضحكت ساخرة فقال:

ـ سيطلبك ابن الحلال فإنك فى الحق جوهرة..

وغادر الدكان متجنبا سماع جواب لا يرضيه..

٤٧

عقب اختفائه بدقائق سمعت صرخة عصفت بجذور قلبها. اندفعت من الدكان مجنونة فرأت وحيدا يتمرغ فى التراب مخضب الوجه بالدماء. وعن بعد ثمة غلمان يجرون فزعين، تجاهلت مضطرة الجناة ورفعت ابنها بين يديها وهى تصوت، ولما تفحصت وجهه صرخت بأعلى صوتها:

ـ ضاعت عين الولد!

٤٨

سحب الهموم تراكمت . أمطرت قلقا وكآبة . وحلت بالأركان الضجر . تجلت همسات الإغراء مثل قوس قزح .

٤٩

أمام الدكان وقف دوكار . نهضت محاسن مستطلعة . غادر الدوكار كهل ثم شاب ، يرفلان فى عباءتين من وبر الجمل . أقبلا عليها والكهل يقول متسائلا :

ـ ست محاسن؟

أجابت بالإيجاب ، فقال الكهل :

ـ أنا خضر سليمان الناجى عم زوجك سماحة وهذا شقيقه رضوان . .

خفق قلبها بعنف . قدمت لهما مقعدين وقلبها يخفق . وتمتمت :

ـ أهلا بكما ، وشرفتما .

فقال خضر :

ـ كان ينبغى أن نتعارف من قبل ، ولكن الأخبار لم تتسلل إلينا إلا أمس!

ـ أفهم ذلك جيدا . .

همت أن تقول إنها عرفت عنهما الكثير ، ولكنها سرعان ما عدلت عن ذلك . وقال خضر :

ـ شرفنا أن نعرفك نحن أهل زوجك ، وأهل أبنائه ، ويسرنا أن نكون فى خدمتك!

ـ تستحق الشكر يا معلم خضر . .

فقال رضوان :

ـ ثقتنا فى الله كبيرة . وسوف ينكشف الظلم عن المظلوم . .

ـ حدثنى سماحة بكل شىء ، ولكن ألا تستطيعون إثبات براءته؟

فقال خضر بأسف :

ـ نخاطر بأرواحنا فى سبيل قضية خاسرة . .

وتساءل رضوان:

ـ أين الأولاد؟

ـ فى الكُتَّاب . .

وانخطف لونها وهى تقول:

ـ فقد أصغرهم عينه فى مشاجرة مع الأولاد .

تجلى التأثر فى وجهى خضر ورضوان، وقال خضر:

ـ حملك ثقيل يا ست محاسن .

فقالت بحذر:

ـ لست ضعيفة، ولكنه سوء الحظ . .

فقرأ خضر أفكارها ولكنه تساءل:

ـ كيف تتصورين المستقبل؟

ـ أن يعملوا فى الدكان . .

أجال خضر عينيه فى الدكان، فقالت:

ـ الرزق موفور والحمد لله . .

فقال برقة:

ـ لعله توجد فرصة أطيب عندنا!

فقالت بلهفة:

ـ لا أحب أن أتخلى عنهم . .

فقال بوضوح:

ـ ولن نحملك ما تكرهين، ولكن أليس من الظلم أن يحرموا من حياة أفضل؟

فراحت تقضم أظافرها وهى لا تدرى، فعاد الرجل يقول:

ـ لن نحملك على ما تكرهين . .

وقال رضوان:

ـ اعتبرى زيارتنا للتعارف والمودة . .

وقال خضر:

ـ واعلمى أنك لست وحيدة، نحن أهلك أيضا . فكرى على مهل فيما أعرضه عليك، تعالى معهم إذا شئت، زوريهم فى أى وقت، أو أبقيهم فى كنفك، الأمر بيدك على أى حال . .

٥٠

ما إن غاب رنين جرس الدوكار حتى كان حلمى عبد الباسط فى الدكان. سألها باهتمام:

ـ ماذا يريد السادة؟

لم يعد غريبا أن تباسطه فى الحديث. كفت من زمن عن صده وتحديه. أصبح عادة يومية فى حياتها. حتى قبحه لم يعد منفرا أو مزعجا. هكذا وافته بما لديها. وبادرها قائلا:

ـ عين الصواب..

ـ أهجر أبنائى؟

ـ بل ترسليهم إلى حظهم السعيد.

ـ ماذا تعرف عن قلب الأم؟

ـ الأمومة الحقة تضحية!

فقالت بمكر:

ـ ربما كان الأصوب أن أذهب معهم..

فهتف:

ـ معاذ الله!

ـ إنهم أهلى أيضا..

ـ ولكن غريبة! أنت من بولاق وهم من الحسين، هنا عزتك وكرامتك..

وحدق فى وجهها بعينيه الصغيرتين النهمتين وتمتم:

ـ وهنا من يحبك أكثر من نور عينيه..

٥١

لا دائم إلا الحركة. هى الألم والسرور. عندما تخضر من جديد الورقة، عندما تنبت الزهرة، عندما تنضج الثمرة، تمحى من الذاكرة سفعة البرد وجلجلة الشتاء.

٥٢

كل ما يحدث مألوف لا ينكره عرف ولا دين. والقشرة الصلبة تنطوى على سائل الرحمة العذب مثل جوزة الهند. هكذا انتقل رمانة وقرة ووحيد من بولاق إلى دار خضر الناجى. لم يدرك الغلمان ما يراد بهم. أجهشوا فى البكاء فبكت محاسن بحرارة. بررت قرارها بزعم أن آل الناجى هددوها بالالتجاء إلى القضاء. اعتذرت عن سلوكها ولكنها حزنت بصدق ومن الأعماق. نبض قلبها بالعواطف المتناقضة مثل مشمشة حلوة النسيج مرة النواة. ثمة إيثار الأبناء بالنعمة والتضحية بهم فى آن. ثمة صراع بين الوفاء لسماحة ومحاسبته الدائمة على خداعها ثم تركها وحيدة. وثمة صراع أعنف بين الصبر والحرمان من ناحية وبين الاستسلام لتيار الحياة المتدفق من ناحية أخرى. بين الزلل والفتنة وبين الحق الشرعى لغريزة نهمة. أقنعت نفسها بأنها امرأة ضعيفة وأن عليها أن تتصرف من منطلق الضعف والمحافظة على السلوك السوى. وأيدها فى تفكيرها شيخ الزاوية وشيخ الحارة وكثير من الجيران.

ـ لا خير فى الوفاء لقاتل..

ـ ولا خير فى بقاء شابة جميلة بلا زوج..

وهل يمكن أن تنسى ما التصق بالمرحومة أمها من سوء السمعة؟ إلى ذلك كله فإن زواج امرأة من مخبر أمر مرغوب فيه من غالبية أهل الحارة.

هكذا سلمت محاسن أبناءها إلى أهل سماحة، وهكذا حصلت على الطلاق من سماحة القاتل الهارب.

٥٣

وتم زواجها من المخبر حلمى عبد الباسط فى جو من الترحيب والمرح. جددت جهازها ولكنها لبثت فى شقتها، وظلت تعمل فى دكانها لتحافظ على استقلالها وكرامتها كثالث زوجة فى حياة الرجل. ووجدت عناء فى الانتقال من معاشرة سماحة إلى معاشرة عبد الباسط، ولكن الجديد يطمس القديم عادة ويغطى على ذكرياته وبخاصة إذا تمتع بجدارة ذات شأن. لذلك ألفته مع الأيام، وأحبته، وأنجبت له. ودأبت على

زيارة رمانة وقرة ووحيد فى دار خضر. تستقبل بالترحاب والاحترام من أهل الدار، وبالحب الشديد من الأولاد. ووجدت أنهم يتأقلمون بسرعة، ويتبدون فى صورة مختلفة، ولكنهم لا ينسون أمهم ولا ملاعبهم ولا أقرانهم ولا حتى أباهم الذى طال غيابه. ولكن بمرور الأيام وكثرة الإنجاب تباعدت الفترة بين الزيارة والزيارة، وطالت أكثر مما يتوقع حتى ندرت، وذهب الأولاد لزيارة أمهم فى الدوكار ولكن عبد الباسط استقبلهم استقبالا جافا جعلهم لا يفكرون مرة أخرى فى تكرير الزيارة. وأخذت العلاقات تفتر حتى أنذرت بالقطيعة. حتى حصون القلوب يغزوها الزمن بانسيابه بين النعومة والصرامة.

٥٤

لم ينفق عبد الباسط من نقوده إلا فى أيام شهر العسل. ثم قال لها بصراحة حادة:

ـ أنت غنية وأنا فقير والتعاون مشروع بين الزوجين..

واحتجت على موقفه، واعتبرته استهانة بحبها، ولكن لم يجد الاحتجاج شيئا، كلاهما يتسم بالعنف والعناد، وهى لا تفكر فى التضحية بحياتها الزوجية الجديدة بعد أن عانت فى سبيلها ما عانت.

ولم يقنع عبد الباسط بذلك فكان يقترض منها عند الضرورة. وتراكمت القروض دون أن يلوح أمل فى السداد. ونشبت بسبب ذلك خصومات وتبودلت لعنات. الضرب أيضا تبودل، والعنف احتدم أيما احتدام. ولكن تيار الحياة لم ينقطع. وحملت أمواجه المتتابعة الملاطفات والتنهدات والرغبات مع السباب واللطمات. وجاء الوليد فى أعقاب الوليد حتى اكتمل لها ستة.

الشىء الوحيد الذى لم يمسه التغيير كان حرصها الأبدى على أنوثتها وجمالها.

٥٥

وتمر الأيام، وتنمو الحياة وتتفرع، وتتجمع المصائر فى الأفق.

٥٦

وكان سماحة بكر الناجى يعانى الحياة وهو يسمع صلصلة عجلة الزمن تجد وراءه. إن الإنسان يشقى بساعة انتظار فكيف إذا صارت الحياة كلها مفرغة إلا من انتظار متواصل؟ ومن أول الأمر صمم على ألا يقيم فى مكان واحد. عمل بائعا سريحا يجول بين القرى، مرسلا لحيته وشاربه، مخفيا عينه اليسرى بزعم العور. وظل يسجل مرور الأيام فى دفتره السرى، ويسجل أيضا أعمار أولاده رمانة وقرة ووحيد. وتركزت أوقات فراغه فى تذكر أسرته، محاسن وأولادها. وفى أعقاب الجهد والعناء، قبيل النوم، يتعزى بالأحلام. الحلم باليوم الموعود. يوم النجاة من المشنقة والعودة إلى الأهل، يوم يرجع إلى حارته مشهرا عصا التأديب، باعثا من ظلمات الحاضر عهد الناجى بعدله المرموق. وتحدثه نفسه أحيانا، إذا اشتد خفقان قلبه بالحنين، أن يزور أهله متخفيا فى ثياب امرأة، ولكنه يكظم أشواقه. وينثنى عن عزمته، متقهقرا أمام العواقب الوخيمة الجديرة بإهدار صبر الأعوام.

وعاش وحيدا. بل عاش فى ظل أطياف متجسدة لا تبرحه. أطياف الظلم والحنان والحرمان والخوف المستمر من انكشاف أمره. واعتاد محاورة نفسه وأطيافه. يحاورها من خلال الصمت أو بصوت يسمعه الخلاء والشجر والنيل. وجن مرة إذ خُيِّل إليه أنه يرى محاسن. وحلم مرة بأنه التقى بمحمد توكل فى سوق الدومة. وخير أحلامه ما رأى فيه سيدنا الخضر، ومن عجب أنه لم يبق من الحلم شيئا، سوى ثقل فى القلب وحزن فى الوجدان، وأمل غامض. وقال لنفسه:

- إنه لا يجىء إلا الخير..

وقال أيضا:

- لا يوجد ألم بلا معنى، وسوف يجىء الضياء ذات يوم.. الحق أنه كان قد فقد كل شىء، فإن شجاعته لم تنضب وقوته لم تهن. لعله يزداد بالإصرار شجاعة وقوة. ويزداد بالشجاعة والقوة إصرارا، ولكن ماذا صنعت الدنيا بمحاسن ورمانة وقرة ووحيد؟ سيرجع ذات يوم فيجدهم رجالا فى الدكان. سينظرون إليه بذهول أول الأمر، ولكنه لا يمكن أن يمحق من ذاكرتهم.

وكلما مر عام تنهد قائلا:

- ها هو ذا الجبل يتزحزح!

٥٧

وكان العام الأخير أشد الأعوام عذابا . وكلما مر منه يوم اشتد العذاب . إنه يستمسك بالصبر ويلاطفه ويتوسل إليه أن يثبت حتى الدقيقة الأخيرة . إنه يصارع الألم بعنف لا هوادة فيه . يغرق أفكاره فى هموم الحياة اليومية ، ولكنها تأبى إلا أن تغرق فى مجرى الزمن ، أن تتابعه لحظة بعد أخرى ، أن تندس فى اللحظة حتى تتضخم فتصير دهرا ، حتى تنغرز فى أساس التجمد وتنعدم الحركة تماما .

٥٨

ولم يبق إلا يوم واحد . صباح الغد وينتهى كل شىء . سينطلق إلى العمل لكى ينسى . ولكنه عجز عن العمل . عجز عن أى شىء إلا معانقة الزمن . عزيمته تتبدد وتتبخر . ويقول بصوت مرتفع كأنما يستمد من ارتفاع الصوت قوة ويجعل منه تعهدا أمام الكون :

ـ سأبيت ليلتى هنا ثم أذهب مع الصباح إلى البيت . .

ولكن أعصابه تمردت على حيلته . هزئت بتعهده . أرسلت أوامرها إلى أعضائه فكفت عن العمل ، فلا طعام ولا شراب ولا حلم . راقب قرص الشمس المدقوق فى السماء . جفت آخر قطرة للصبر .

سيبيت الليلة فى حضن أسرته . وقذف بنفسه صوب الأمل . .

٥٩

سمعت محاسن طرقا خفيفا على الباب .

كان الأولاد قد ناموا على الشلت فى الصالة ، وكانت قد تزينت وتأهبت للنوم .

من الطارق والليل يكاد أن ينتصف؟

فتحت الباب عن زيق فرأت شبحا فسألته :

ـ من؟

دفع الباب فانقض عليها. هكذا خُيّل إليها. قبل أن تصرخ أطبق على فيها. صارا كائنا واحدا تحت ضوء المصباح المشتعل فى الكوة. رفع فاه مطبقا براحته على فيها وهو يقول:

ـ أنا سماحة يا محاسن، سماحة رجع..

عند ذاك سحب راحته فراحت تحملق فى وجهه المغطى بالشعر بذهول.

ـ ليطمئن قلبك، سماحة رجع، انتهى العذاب!

لم تخرج من ذهولها فقال:

ـ انقضت المدة، لم يبق إلا ساعات، خاننى الصبر..

هنا ظهر حلمى عبد الباسط فى باب الحجرة وبيده جندرة وهو يقول:

ـ جئت لقضائك، سلم نفسك..

تلقى سماحة ظهوره كضربة فوق يافوخه.. تمتم:

ـ من هذا؟ رجل فى حجرتك.. ما معنى هذا يا محاسن؟

لاذت محاسن بزوجها. ازدردت ريقها، وقالت:

ـ إنه زوجى..

وأشارت إلى الأولاد الذين رآهم لأول مرة وقالت:

ـ أبو هؤلاء..

ارتفعت يسراه ثم انحطت فوق رأسه والأرض تميد به، وراح يقول:

ـ حقّا؟ زوجك! ما تصورت شيئا كهذا!

ولوح عبد الباسط بالجندرة قائلا:

ـ سلم نفسك، أنا مخبر النقطة!

ـ حقّا؟!

وتشنج بنوبة من الضحك فصاح عبد الباسط:

ـ إذا قاومت حطمت رأسك..

فهمست محاسن:

ـ دعه يذهب..

فقال لها بلهجة آمرة:

ـ صوتى فى النافذة..

وبسرعة انقض سماحة على طفل فرفعه بيد وأطبق بالأخرى حول عنقه وقال والطفل يصرخ:

ـ حذار، لا حركة ولا صوت وإلا هلك الطفل..

صرخت محاسن:

ـ دع ابنى يا مجرم!

ـ لا حركة ولا صوت، لا تهاجم ثعبانا جريحا..

ـ اترك الولد.

ـ هو بخير ما دمت بخير..

قالت محاسن:

ـ رمانة وقرة ووحيد فى كفالة عمك.

فهزَّ رأسه وهو يقول:

ـ طيب، ولكن الويل لمن تحدثه نفسه بتسليمى إلى المشنقة..

فتوسلت محاسن إلى زوجها قائلة:

ـ دعه يذهب.

فقال عبد الباسط بنبرة تسليم:

ـ فليذهب إلى الجحيم..

ـ ارم الجندرة أولا..

رمى عبد الباسط الجندرة. هرعت محاسن إلى سماحة فأخذت الطفل. وبسرعة التقط عبد الباسط الجندرة ورمى سماحة بها فمست قمة رأسه. لم يكن التسديد محكما، وقد أصاب اللاثة، فالتقط سماحة بدوره الجندرة وانقض على الرجل وضربه ضربة صادقة على عنقه فتهاوى على الأرض فاقد الوعى.

غادر البيت وثبا وصوات محاسن يلاحقه. عندما بلغ الطريق كان بعض الساهرين يتجهون نحو مصدر الاستغاثة. اندفع بكل قوته نحو الطريق الموصل إلى النيل.. وسرعان ما بدأت مطاردة من نوع جديد، ولكنه وثب إلى قارب وراح يجدف مبتعدا عن الشاطئ..

وعند منتصف النهر جاءه صوت غير غريب، صوت شيخ الحارة وهو يصيح به:

ـ سلم نفسك يا سماحة، قتلت حلمى عبد الباسط مخبر الحكومة..

٦٠

صاح خضر سليمان الناجى وهو يرنو إلى سماحة :

ـ سماحة أخيرا !

تعانقا عناقا حارا ثم هتف خضر :

ـ طالما حلمت بيوم النجاة فالحمد لله رب العالمين ، دعنى أوقظ رضوان . .

ولكن سماحة أمسك بيده وتمتم :

ـ الأولاد؟

ـ انتظر حتى الصباح . عليك أن تحلق لحيتك أولا . .

فهمس سماحة بإصرار :

ـ الأولاد . .

٦١

اقترب من الأسرة المتجاورة وهو يرنو إلى الوجوه الهائمة فى وادى النوم المجهول . ثغور مفترة ، وأقنعة متحررة من حركة الزمن ، وملامح صبا واشية بحرارة المراهقة ، وبذور ناضجة يكمن فى نواتها مستقبل غنى بالمتناقضات .

أطل الحنان من عينيه مبللا بالدمع ، وتدفق الشوق فى حناياه ينبوعا ساخنا ، واهتزت جوارحه حتى شهق .

ضغط على شاربه ولحيته ليحرر شفتيه ، فهمس خضر فى أذنه :

ـ أخاف عليهم الفزع .

ولكنه لثم الخدود بخفة ورشاقة ، وهو يراقب حركات صغيرة سريعة غامضة ، ثم تراجع بهدوء وحذر وأسى .

٦٢

وقال له خضر :

ـ عليك أن تنام . .

فقال وهو يهز رأسه :

ـ لا وقت للنوم . .

ـ ولكنك متعب جدّا يا سماحة . .

ـ وأمامى تعب بلا نهاية .

فراح يحدثه عن موت الفللى منذ عامين وحلول الفسخانى محله، عن موت دجلة أيضا وحمودة، وسجن عنتر وفريد، وسماحة يتابعه بلا اكتراث .

ووضع يده على منكبه وقال :

ـ ما زلت مطاردا يا عمى . .

فتساءل خضر بانزعاج :

ـ ألم تنقض المدة؟

فقال وهو يتنهد :

ـ اضطررت إلى قتل وغد منذ ساعة!

٦٣

فى طريقه إلى الاختفاء وقف فى الساحة أمام التكية . ها هو ذا يمتلئ برائحة الحارة وأنفاسها، ولكن أين النشوة؟ كم حلم بهذه الوقفة كمنطلق لدفقة جديدة من الحياة . تؤدب الأوغاد وتبعث روح العهد . ما هذه الليلة إلا بدء رحلة طويلة جديدة فى دنيا العذاب والمطاردة . سيرجع إذا رجع شيخا بلا حول . .

ومضى نحو الممر والأصوات تترنم فى جلال الليل :

درد مـــارا نيست درمان الغيـــاث

هجــر مارا نيســت بابان الغياث

قــرة عينـــى
الحكاية الخامسة من ملحمة الحرافيش

١

كان لعودة سماحة بكر الناجى المباغتة واختفائه الخاطف زلزلة عنيفة فى نفوس آل الناجى والحرافيش. ولعل أبناءه كانوا أقل الناس تأثرا إذ إنه جاء وذهب وهم نيام، فضلا عن أنه لم يعد بالقياس إليهم إلا ذكرى باهتة مثل ذكرى أمهم محاسن البولاقية. ورويت مأساته بالطول والعرض فأصبحت أسطورة وموعظة.

٢

وانتظم رمانة وقرة ووحيد فى العـ[illegible] الغلال مع عمهم رضوان وعم أبيهم خضر. وترامى إلى الحارة خبر عجيب يقول إن الخبر حلمى عبد الباسط لم يمت كما توهم المتوهمون. وإنه شفى من ضربة الجندرة، وواصل حياته فى خدمة الحكومة والبلطجة على محاسن. عند ذاك تجلى العبث فى هرب سماحة، واشتد الحزن عليه، فهب خضر للبحث عنه. من أجل ذلك سعى سعيه لدى مأمور قسم الجمالية، ومن أجل ذلك فاوض فتوة الحارة «الفسخانى» مضاعفا له الإتاوة وواعدا إياه بمكافأة مغرية، ومن أجل ذلك أيضا رصد مكافأة كبيرة لمن يعثر عليه.

وأثار نشاطه ريبة الفسخانى. وذكره رجال من أعوانه بتطلع سماحة إلى الفتونة فقلق الرجل وقلق معه وجهاء الحارة وأعيانها.

وما تدرى الحارة إلا والرجل الطيب خضر يعثر عليه مثخنا بالجراح فى عطفة الكبابجى حيث كان فى سهرة أخرته لما بعد منتصف الليل. ولم يجد الإسعاف فى إنقاذ الرجل فقضى نحبه عقب يومين من الحادث. ورغم إجماع القلوب على معرفة المجرمين فقد قيد الحادث كالعادة ضد مجهول، وضاع خضر مثل ذرة من رمال.

٣

زلزل آل الناجى لمصرع عميدهم، وعدوا ذلك نهاية من نهايات الهوان المقدر عليهم. رغم ذلك استسلموا لقدرهم وأقروا بعجزهم، غير أن وحيد ـ ابن سماحة الأصغر ـ غضب غضبة مجنونة أنذرت بوخيم العواقب. قال بحنق:

ـ قاتل عمنا يمرح ويدعى الفسخانى!

وتساءل بمرارة:

ـ أكان عاشور الناجى يتصور هذه النهاية لذريته؟

ومثله فى الانفعال كانت ضياء أرملة خضر، ولكنها انفعلت بأسلوبها الموائم. دفعتها الجريمة فتهاوت فى أحضان المجهول، جفلت من عالم الإنس، لقنت لغة الجماد والطير، واحتمت من نصال الألم بكهف الأشباح. صارت شيخة، الحلم رؤيتها، والفنجان نافذتها، والنبوءة الغامضة ترجمانها. وعشقت الجلباب الأبيض والخمار الأخضر والمبخرة النحاسية، تتهادى عند الأصيل بين الساحة والميدان، تنفث الدخان العطر، تلوذ بالصمت، تتبعها جارية، تحدق بها الأعين.

ويسخر رجال من رجال الفتوة، فيقول قائلهم:

ـ ذلك آمن من الطمع فى الفتونة..

وآلم سلوكها الشبان، كما آلم رضوان وزوجته أنسية وشقيقته صفية ولكنهم عجزوا عن ترويضها. حتى وحيد الغاضب قال لها:

ـ دارك يا امرأة عمى، الزمى دارك إكراما لذكرى عمنا خضر..

فنظرت إليه ببلاهة وقالت:

ـ رأيتك فى نومى ممتطيا جرادة خضراء..

فيئس وحيد من مناقشتها، ولكنها سألته:

ـ ألا تدرى معنى ذلك؟

فلم يكترث، ولكنها قالت تجيب نفسها:

ـ إنك خلقت للهواء!

٤

وبقوة الغضب اخترق وحيد جدار الحذر. ما أضجره بمحل الغلال! ما أبعده عن رمانة وقرة! تقول الشيخة إنه خلق للهواء. ترى هل يصلح للتحدى؟

كان متوسط القامة وسيما، رغم عوره، قويا ولكنه بالقياس إلى الفسخانى مثل هرة بالقياس إلى خروف. لم يندفع فى مغامرة، ولكنه يضطرب كثيرا بحركة غامضة وقلق معذب. طالما قال له عمه رضوان:

ـ احذر الخيال، وأقبل على العمل..

وطالما قالت له عمته صفية:

ـ لا تؤول أحلام ست ضياء على هواك..

وانحرف عن خط الأسرة فصادق شيخ الحارة محمد توكل رغم فارق السن، وسهر معه كثيرا فى غرزة الصناديقى. وأنشأ علاقة طيبة مع صديق أبو طاقية الخمار من خلال تردده بين حين وآخر على البوظة. له صبوات فى العربدة، ولكن لم تفته أبدا صلاة الجمعة، حتى قال له مرة الشيخ إسماعيل القليوبى:

ـ هل يجمع الله فى قلب واحد بين الخمارة والزاوية؟

فتساءل وحيد بمرارة:

ـ ألا ترى قاتلا يمرح وبريئا يتعذب فى الغربة؟

٥

وفى أعقاب ليلة معربدة رأى حلما طويلا. رأى نفسه فى الساحة أمام التكية، ولم يكن من المولعين بالساحة. وجاءه درويش فقال له:

ـ الشيخ الأكبر يخبرك بأن العالم قد خلق فجر الأمس.

فصدقه وحيد ثملا بسعادة تفوق التصور. وحمل على هودج فراح يشق الحارة بين صفين من الرجال والنساء. ورأى أمه محاسن البولاقية وهى تشير إليه وتقول:

ـ اصعد.

فارتفع به الهودج، فحملته الريح إلى خلاء يحدق به جبل أحمر. ووجد نفسه يتساءل:

ـ أين الرجل؟

فانحدر عملاق من سفح الجبل وقال له:

ـ اثبت فى مركز النجاة..

فقال له بيقين:

ـ إنك أنت عاشور.

فتناول ساعده ودلكه بدهان قائلا:

ـ هذا هو السحر!

٦

عندما استيقظ وحيد وجد نفسه مفعما بإلهام. أذعنت له القوة والتفاؤل والنصر. لم يشك فى أنه قادر على المعجزة. وأنه يستطيع أن يقفز من سطح الدار إلى الأرض دون خوف من الكسر.

أطاع الريح الهوجاء فارتدى ملابسه ومضى من توه إلى مجلس الفسخانى بالقهوة. رماه بنظرة قاسية وقال له:

ـ إنى أتحداك أيها المجرم..

رفع الفتوة جفنيه الثقيلين. تصوره مجنونا. رحب على أى حال بالبطش بأحد أشبال الناجى. سأله:

ـ مسطول يا بن القديمة؟

فبصق على وجهه.

ووثب الفسخانى قائما. تجمع خلق للمشاهدة.

لم يتردد وحيد. انقض على الفتوة، وبكل قوته ضربه بيده المسحورة فى عنقه فتقهقر الرجل حتى وقع على ظهره وهو يشهق. خطف وحيد نبوته وضربه على ركبتيه فشله. والتحم مع نفر من أتباعه فجندلهم بقوة وسرعة مذهلتين.

لم ينقض النهار حتى كان وحيد سماحة الناجى فتوة للحارة!

٧

عصفت الدهشة بالحارة .

خفقت قلوب الحرافيش بالأمل . اضطربت خواطر الوجهاء بالخوف . حلمت أسرة الناجى بالعرش المضىء . ومضى وحيد ينوه بالحلم الذى رآه ، والمعجزة التى أحدثتها يده المسحورة ، والثقة الخارقة فى النصر التى هونت عليه مجابهة الموت . وسرعان ما أحس حرارة الأمل المتطلعة إليه ، وبرودة الخوف المتوجسة منه ، ولكنه آثر التمهل والتدبر ، فترك الأمور تسير فى طريقها المعهود عدا نفحات جاد بها على المعسرين من الحرافيش .

وسأله عمه رضوان :

ـ متى تحقق حلم أبيك الغائب؟

فأجابه بحذر :

ـ خطوة خطوة وإلا أفلت زمام العصابة من يدى . .

ـ هذه سياسة لا بطولة يا بن أخى . .

فقال بغموض :

ـ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

ولم يفقد رضوان الأمل ، على حين طال بوحيد التأمل . وكلما مضى يوم تذوق جلال الفتونة ، ونعمة الثروة ، ومداهنة الوجهاء ، وأخذ يستسلم لتيار الإغراء ، فتقوى فى نفسه نوازع الأنانية ، وتضعف أحلام البطولة والعهد . وإذا به يشرع فى إنشاء دار خاصة به ، ويتمتع بكل جميل وطيب فى الحياة ، ويولع أكثر بالبوظة والمخدرات ، ويتمادى فى ممارسة شذوذه حتى خرج به من السر إلى العلانية ، حتى قال رضوان لزوجته أنسية :

ـ أليس الأفضل أن يكون الوغد من غيرنا!

وتذكر الحرافيش تدهور سليمان الناجى فقالوا إن الشر وحده هو ما يورث فى آل الناجى . وتألم لذلك قرة كما تألم عمه رضوان ، أما رمانة فقال :

ـ حسبنا العزة التى عادت إلى الناجى . .

وكان رمانة يشبه أخاه وحيدا فى تكالبه على المسرات واستهانته بعهد الناجى القديم . وأطلق وحيد على نفسه «صاحب الرؤيا» ، ولكن الحرافيش دعوه سرا بالأعور . وعرف بشذوذه فلم يتزوج ، وأحاط نفسه بفتية مثل المماليك . .

هكذا استقرت فتونة وحيد الأعور . .

٨

تعب قلب رضوان. غدا العمل يرهقه رغم أنه كان دون الأربعين. ما أسرع أن يتصبب عرقا باردا وتظلم الدنيا فى عينيه. وتراكمت فوقه الأحزان بسبب مأساة أخيه سماحة وسلوك وحيد. لذلك عزفت نفسه عن التجارة والحياة ومال إلى العزلة والعبادة. هكذا هجر المحل تاركا إدارته لرمانة وقرة.

٩

احتل رمانة وقرة حجرة الإدارة، يشتركان فى عمل واحد وقلبهما مفترقان. كان قرة وسيما، تشع من عينيه جاذبية، ورث من أمه محاسن دقة قسماتها ورشاقتها، فضلا عما عرف به من تهذيب واستقامة، كأنه شمس الدين فى جماله وعذوبته دون قوته. أما رمانة فكان قصيرا بدينا مثل برميل، غامق اللون غليظ القسمات، به استهتار وخشونة. وكان قرة أقدر منه فى الإدارة والتجارة، وأنقى منه فى المعاملة، وقد أحبه العمال لسماحته وجوده. وكان رمانة يخالط أخاه وحيدا فى الغرزة، ويتورط فى المغامرات بنهم، وينتقد ـ إذا سكر ـ شقيقه قرة حاسدا وساخرا.

قال مرة لقرة:

ـ إنك تبدد مالك لتشترى به حب العمال، أى حكمة فى هذا؟!

فقال له قرة:

ـ العطف ليس تجارة..

ـ ماذا هو إذن؟

ـ جربه يا رمانة!

فضحك ساخرا وهو يقول:

ـ ما أنت إلا ماكر..

ورغم أن قرة كان يصغر رمانة بعام إلا أنه كان يشعر بأنه مسئول عنه، حتى عن وحيد كان يشعر بمسئوليته أيضا. وضاق رمانة ووحيد بمثاليته. وغضب وحيد مرة فقال له:

ـ صرتم سادة الحارة بعد أن كنتم أذلاءها، ألا تقر لى بهذا الجميل؟

فقال له قرة بحدة:

ـ وما فقدنا سمعتنا القديمة إلا بك..

فقال بحنق أفقده ضبط النفس:

ـ لا أصدق الخرافات!

فتساءل قرة ساخرا:

ـ ألست «صاحب الرؤيا»؟

فغادره ساخطا محتدما.

كذلك ساءته مغامرات رمانة، فقال له يوما:

ـ تزوج، أكرمنا بزواجك..

فقال له رمانة بحنق:

ـ أنت أخى، أصغر منى بعام، لا تسع للتسلط على حريتى..

وقلق رضوان مما لاحظ بين الشقيقين من منافرة، فقال لقرة:

ـ يهمنى أن يستقر الوئام بينك وبين أخيك..

وقالت له عمته صفية:

ـ بنا من الجروح ما يكفى، ولن تغير الكون..

هذا وما زالت الشيخة ضياء تتهادى بمبخرتها فى الحارة كل أصيل، تناجى المجهول، دامعة العينين..

١٠

وكان قرة عائدا إلى الدار ليلا عندما اعترضته فى الظلمة عجوز وهى تقول:

ـ مساء الخير يا معلم قرة.

فرد تحيتها متعجبا، فقالت له:

ـ ثمة من ينتظرك الآن فى ساحة التكية..

فثار فى نفسه حب الاستطلاع وتساءل:

ـ من؟

ـ ستى عزيزة كريمة المعلم إسماعيل البنان!

١١

تبع العجوز يشقان الظلمة الكثيفة تحت القبو حتى خرجا إلى ظلمة الساحة المشعشعة بأضواء النجوم. كان الزمان صيفا والنسمة لطيفة وانية، وعذوبة الأناشيد تملأ الجو. قادته العجوز إلى شبح واقف تحت السور العتيق. لم يتبين منها شيئا، ولم يكن رآها أو سمع عنها من قبل. ولما طال السكوت همس مشجعا:

ـ إنى فى خدمة الهانم.

فجاءه صوت ناعم مضطرب النبرة يقول:

ـ أشكرك..

ثم مستدركة فى توسل:

ـ لا تسئ بى الظن!

ـ معاذ الله..

وحجز السكوت بينهما كالأول، فأدرك أنها تنادى شجاعة مفتقدة وذهبت به الظنون كل مذهب، حتى اضطر إلى أن يقول:

ـ إنى مصغ إليك..

فقالت وهى تزداد اضطرابا:

ـ سمعتك كالورد، وما هى إلا كلمة واحدة، فليعنى الله على قولها..

ـ إنى أصغى إليك بكل اهتمام..

ـ أخوك رمانة..

وانقطع الصوت كأنه اختنق، فخنق قلبه، تبددت ظنون، حل محلها الظلام، تمتم:

ـ أخى رمانة؟!

بدت عاجزة عن مواصلة الحديث، وتخايلت الحقيقة مثل حشرة تزحف فى الظلام. عند ذاك همست العجوز:

ـ كان قد وعدها بالزواج..

ـ هكذا!

فقالت العجوز:

ـ إن لم يف بوعده فى الحال حق علينا الهلاك!

وابتعد الشبحان. وصوت نحيب مكتوم يتكلس حول طبلة أذنه..

١٢

وتناول عشاءه مع عمه رضوان وزوجه أنسية. ضياء لا تبارح جناحها، ورمانة دائما في سهرة خارج الدار. وقال له عمه:

ـ لست كعادتك..

فتمتم:

ـ إني بخير..

فقالت أنسية:

ـ لست كعادتك ورأس الحسين..

كيف يبدأ الكلام؟ رأى أن يفاتحهما بالأمر. هكذا تصور وهو عائد من الساحة. إنه الآن يتراجع، قوة تمنعه وتحذره. لقد أودعته الفتاة سرا وعليه أن يصونه. يجب أن يبدأ برمانة رغم كراهيته لذلك.

١٣

نامت الدار ولكنه لم ينم. رجع رمانة قبل الفجر بساعة واحدة.

رأى عينيه محمرتين ثقيلتين بالخمار. أدرك في الحال صعوبة مهمته. ولكن كيف يتصرف وهو يعلم أنه يستيقظ في الضحى، وأنه ـ قرة ـ يفتح المحل في الصباح الباكر، وأن حجرة الإدارة لا تتسع لمثل هذا الحديث؟

ـ ماذا أيقظك؟

فمضى به إلى حجرته. ارتمى على ديوان وهو يقول في حذر:

ـ موعظة الفجر؟

فتجاهل سخريته وقال برقة:

ـ عندي حديث مهم أرجو أن يتسع له صدرك يا رمانة..

ـ حقًّا؟!

ـ هذا مؤكد!

فقال بتربص :

ـ تحت شرط ألا يكون له علاقة بالأخلاق!

ـ لا شيء مقطوع الصلة بالأخلاق . .

فقال بعناد :

ـ أرفض الاستماع . .

ـ صبرك ، ليس كما تتصور ، إنه أمر يهمك أكثر مما يهمنى ، ولا يمكن إهماله . .

ـ أثرت فضولى . . .

فوضع راحته على منكبه برقة وهمس :

ـ إنه يتعلق بعزيزة!

تراجع رأس رمانة كأنما ضرب بحجر وتمتم :

ـ عزيزة؟!

ـ كريمة إسماعيل البنان . .

ـ لا أفهم شيئا ، ماذا تريد أن تقول؟

فقال بهدوء ناعم وقوى فى آن :

ـ عليك أن تتزوج منها ، وفى الحال!

أزاح اللاثة عن رأسه ، تخلص من راحة أخيه بهزة من منكبه وقال بحدة :

ـ لا حياء ، أين الحياء؟ كيف اتصلت بك؟

ـ لا يهم ، المهم أن نمنع وقوع مأساة . .

فقال بسخرية :

ـ لا مأساة إلا فى خيالك!

ـ أعتقد أنها مأساة حقيقية . .

فقال رمانة وهو ينفخ :

ـ كلا ، لا رغبة لى فى ذلك . .

ـ لم لا؟ لا شك فى أنها أعجبتك مرة ، ثم إن أباها وجيه حسن السمعة!

فقال ببرود :

ـ لا ثقة لى فيمن تستسلم!

ـ أيّا ما كان الرأى فثمة أحكام للشهامة أيضا . .

ـ أى شهامة؟! . . إنى أحتقر ذلك . .

فقال برجاء:

ـ المطلوب الستر، ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك..

فهز رأسه فى حيرة، وقال:

ـ ثمة عقبة فى الطريق..

ـ ما هى؟

ـ حب بينى وبين شقيقتها رئيفة!

فقال قرة بجزع:

ـ لا يمكن أن تذبح واحدة ثم تتزوج من الأخرى..

فغمغم بكلام غامض، فقال قرة:

ـ وربما علمت رئيفة بالمأساة ذات يوم..

ـ إنها تعلم بالفعل!

ـ وتوافقك على ما تريد؟

فهز رأسه بالإيجاب، فقال قرة:

ـ إنها لشريرة يا أخى..

ـ بل هى مثلى تحتقر من تستسلم!

ـ ولكنها شقيقتها!

فقال بحنق:

ـ لا توجد الكراهية الحقة إلا بين الإخوة والأخوات!

فجفل قرة، ثم غضب، وهتف:

ـ عليك أن تتزوجها فى الحال..

فصاح به:

ـ لا أسمح لك!

ونهض متحديا. مضى وهو يقول:

ـ إن تكن رحيما حقّا فتزوجها أنت!

١٤

تسقط الأمطار فوق الأرض ولا تتلاشى فى الفضاء. وتومض الشهب ثانية ثم تتهاوى. والأشجار تستقر فى منابتها ولا تطير فى الجو. والطيور تدوم كيف شاءت ثم تأوى إلى أعشاشها بين الغصون. ثمة قوة تغرى الجميع بالرقص فى منظومة واحدة.. لا يدرى أحد ما تعانيه الأشياء فى سبيل ذلك من أشواق وعناء، مثلما تتلاطم السحب فتنفجر السماء بالرعود.

وقد فكر قرة فى همه طويلا. وقال لنفسه إنه ما عليه من بأس إن هو مضى فى سبيله وقد بذل ما فى وسعه من جهد. ماذا فى وسعه أن يفعل أكثر مما فعل؟ ولكنه لم يستطع أن يمضى على هواه. استغاثة عزيزة تتردد مع الأناشيد. راسخة مثل السور العتيق. نحيبها متكلس حول طبلة أذنه. إنه مسئول. وآل الناجى أيضا. حتى عاشور المعجزة. لا يستطيع أن يهز منكبيه ويمضى. تشده القوة الجاذبة. لن يكون أكثر حرية من الطير والشهاب والمطر. إلى مركز العذاب والمعاناة. إلى جحيم القوى المتخاصمة المتعادلة.

ـ إن تكن رحيما حقّا فتزوجها أنت!

الوغد يتحداه. الوغد يمتحنه. الوغد ينتقم منه. أهذا هو حظه من الزواج؟ كلا وألف مرة كلا. ولكن أين المفر؟ إنه يحتقر الاستسلام ولكنه أيضا يقدس العذاب. كأنه قدر لا يتزحزح. ولكن ألم يقل للوغد:

ـ المطلوب الستر، ثم افعل ما بدا لك..

أجل إنه الستر أولا ثم يفعل ما بدا له.

١٥

قال لعمه رضوان:

ـ قررت أن أكمل نصف دينى!

فضحك الرجل وقال:

ـ رمانة سبقك فى ذلك بساعة واحدة!

فخفق قلبه مؤملا أن يكون الله قد هداه، فسأل عمه:

ـ من يا عمى؟
ـ رئيفة كريمة إسماعيل البنان.
فخاب أمله وصمت فسأله رضوان:
ـ وأنت؟
فرسم ابتسامة على شفتيه متظاهرا بالدهشة وقال:
ـ يا للمصادفة العجيبة!.. تصور يا عمى أنى أريد شقيقتها عزيزة! فضحك رضوان ضحكة عالية وقال:
ـ فليبارك الله لكما. إنى سعيد، وإسماعيل البنان جار نبيل وتاجر أمين.

١٦

لم يتطهر بالقرار من هواجسه. الغبطة مازجها قلق وجفاء. كما يغرق المطر النقى فى الوحل. وضاعف من أساه اطلاع رمانة ورئيفة على سره. وإلى ذلك فقد خاف أن تأبى عزيزة يده المجللة بالإحسان وتدهمهم بكارثة، ولكن جاء البشير بالرضا. وانغرز النصل الطاهر الحامى فى اللحم حتى النخاع.. وتعجل الأمر بصورة أذهلت الجميع وأثارت الدعابة.

١٧

زفت عزيزة ورئيفة إلى قرة ورمانة فى عرس واحد. عرس ابتهجت له الحارة كلها. وفى حفل الزفاف رأى قرة الشقيقتين لأول مرة فى حياته. هاله تماثلهما كأنهما توءمتان. توسط فى الطول والامتلاء، لون خمرى نقى البشرة، سواد عميق فى العينين، تناسق بديع فى القسمات. وفتش عن فروق بين الاثنتين حتى ظفر به فى ثغرة فى ذقن عزيزة وهى الكبرى، وامتلاء أشد فى الشفتين. هذا كله لا وزن له، ولكنه عثر على فارق ملموس فى نظرة العينين المتماثلتين. نظرة عزيزة ثابتة وهادئة موحية بالطمأنينة، أما نظرة رئيفة فقلقة خاطفة البريق كأنما تستقرئ أعين الآخرين بلا توقف ويلوح فيهما ذكاء أسود. فسرعان ما توكد فى قلبه النفور منها. ولم تحاول إخفاء فوزها، ولعله الوحيد الذى أدرك ذلك. أما عزيزة فكانت تنظر طول الوقت إلى حذائها الأبيض المزين

بالأطلس والترتر. وقال لنفسه: إنها عروس غير سعيدة، وهو أيضا عريس غير سعيد، وسوف يهون ذلك عليهما اتخاذ القرار المتوقع. ومضى بها إلى الجناح المخصص لهما على دق الدفوف وغناء العالمة وهو يتساءل: ترى ماذا فعل بنفسه؟!

١٨

ولما خلا إليها وجدها متعثرة فى الارتباك حتى قمة رأسها. لا تجرؤ على النظر إليه ولا على إتيان أى حركة. بلا حول ولا كرامة، فريسة إحسانه. رق لها بقوة. وضاعف من رقته تأثره بجمالها الفتان الحزين. ولكنه لم ينس أن قلبها مغلق، وأنها غريبة تماما، وأن فستان الزفاف بمثابة بدلة السجين. ما هى إلا فترة عبور لا دوام لها. وفى هذه اللحظة تستكن رئيفة فى حضن رمانة مفعمة بالرغبة والفوز. ترى ماذا عليه أن يقول؟ وأعفته من ذلك فجاءه الصوت الناعم قائلا:

ـ الشكر لك..

فرق أكثر وقال:

ـ إنى آسف وحزين..

ـ إنى أشعر بفداحة الظلم الذى تتحمله..

فقال مجاملا:

ـ ولكنك تتحملين ما هو أفدح..

ـ إنه خطئى على أى حال!

ـ يا له من حديث فى ليلة الدخلة!

لم تند عن أحدهما حركة. حتى طرحة الزفاف بقيت فى موضعها فوق الرأس. غير أنه تفرس فى وجهها بحرية فى غيبة من عينيها المنكستين وتأثر أكثر بجمالها وجاذبيتها حتى اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه لولا شذوذ الظرف لالتهمها. وقال بهدوء:

ـ لن ترغمى تحت سقفى على شىء ترفضينه..

فقالت بحرارة:

ـ إنى واثقة من شهامتك ولكنى..

وأمسكت لحظة ثم قالت:

ـ ولكنى أؤكد لك أنه لم يبق من الماضى إلا ذكراه المؤلمة.

ترى ماذا تعنى؟ فيم تفكر؟ ألم تدرك أبعاد إقدامه على ما فعل؟ متى يصارحها بكل شىء؟ ومتى يتحرر من تأثير أنوثتها الطاغية؟ وتجاهل قولها، وقال متهربا ربما:

ـ إنى أعجب لشقيقتك، فهى لا تقل عن أخى سوءا!

فقالت بازدراء:

ـ ما أليقهما بعضهما ببعض!

ـ ماذا بينكما؟

ـ شر ولا شىء إلا الشر.

ـ ولكن ما سببه؟

ـ تريد أن تستأثر بكل شىء، بالتفوق والحب، ولكنى تفوقت، وتوهمت أن والدى يحباننى أكثر فأضمرت لى الحقد والكراهية.. إنها فظيعة.

ـ أخى أيضا فظيع..

ثم مستطردا:

ـ ولكنك..

وصمت فقالت بحرارة:

ـ انتهى، أبصرت بعد عمى!

رباه. واضح أنها تعيش فى حلم. وهى صادقة. حقّا؟ أجل صادقة. ما قيمة ذلك؟ المهمة شاقة. وأى خوف من تأثير جمالها وجاذبيتها! الضعف فى أعماقه أقوى من القوة فى أنوثتها. ها هى ذى ترفع عينيها لأول مرة فتلتقى العينان. ويواصل الشمع ذوبانه فى الشمعدان الفضى.

سألته باستسلام:

ـ أود أن أعرف ما يجول بخاطرك!

يا لها من ليلة صيف دافئة! ولم ينبس. قالت:

ـ ترانى غير لائقة بك؟!

فقال باندفاع:

ـ إنك صادقة وأصيلة ومحترمة!

ـ أشكرك وأقدر عطفك، ولكن العطف لا يصلح أساسا للحياة!

إنه يناقش، يتعذب، ويقاوم الإغراء. سألها:

ـ ماذا يجول فى خاطرك أنت؟

فقالت بحرارة وشجاعة استمدتها من الحديث:

ـ إنى حرة، حرة تماما، ولكن كل شىء يتوقف عليك . .

بصراحة قال:

ـ لا أنسى أنك طالبت بالزواج منه!

فبادرته:

ـ كان الخوف ورائى لا الرغبة، صدقنى . .

فقال مخدرا:

ـ إنى أصدقك!

فقالت بتسليم:

ـ ولكن لك الحق كل الحق فى التصرف بما تراه لائقا . .

أى هاوية. أى إغراء. أى جنون يعربد فى قلبه. أى قلق. أى رغبة فى دفن القلق. عند الأرق المعذب، يسف المؤرق الخشخاش، فينحسر الجبين عن ثغرة تسلل منها أنامل النوم الناعمة . .

١٩

ومضت الأيام المتأججة بالصيف. استسلم قرة تماما وعشق عزيزة. آمن بأن الحب إذا شاء قهر التراث. ومثلت عزيزة ورئيفة دورهما بإتقان كشقيقتين، فلم تلاحظ أنسية شيئا يكدر البال. وفى حجرة الإدارة بمحل الغلال واصل قرة ورمانة عملهما، ولم يتبادل بينهما حديث إلا فى شئون العمل. هكذا تجاور الحب والمقت.

وسرعان ما حبلت عزيزة. وشمل الفرح آل البنان وآل الناجى. قرة وحده تمنى لو تأخر الحبل. وتساءل متى بدأ؟ تسللت حشرة إلى قلب الزهرة النابض بالنضارة. أظلم المعبد المنير بروح شريرة. إبر الشك المحماة المسمومة. ولكنها لا تقرأ أفكاره. إنها تمرح فى البراءة والحب الصادق. ولم يعد للتراجع موضع. إنه رجل حر وصادق وعاشق. وهو مؤمن أيضا وثقته بالله عظيمة. وأصبح رفيقا للسرور والألم . .

٢٠

لِم لَم تحبل رئيفة؟

تردد السؤال بقلق فى دار آل البنان وآل الناجى. وانطحنت به رئيفة وعيناها تطفحان بالحنق. لا يؤخر الحبل إلا علة، فالطبيعة لا تعرف التأجيل. وحامت الشبهة كالعادة حول رئيفة. ولم يهدأ لأمها بال. واستفتيت الداية فأفتت بالمشورة تلو المشورة. وبمضى الأيام رسخ الخوف وتوكد الجزع فتجمعت سحب الأحزان.

وقال رمانة وهو ثمل فى مخدعه:

ـ يا لها من ضجة!

فقالت رئيفة بحدة:

ـ لا يرحمون. إنه الجحيم..

قال رمانة ممتعضا:

ـ إنكما متماثلتان، فما النقص بك؟

فتملكها غضب شديد وتساءلت:

ـ أألهمك الله أن النقص بى وليس بك؟!

فقال غاضبا:

ـ إنى رجل كامل..

ـ ما من رجل إلا ويتصور ذلك!

فجن جنون غضبه المخمور وصاح:

ـ أجرب نفسى مع زوجة أخرى؟

ارتفع رأسها والتوى عنقها إلى الوراء مثل حية وتمتمت بازدراء:

ـ سكران!

فتمادى فى غضبه قائلا:

ـ لعل لى جنينا ينمو فى بطن أخرى.

فصاحت:

ـ مجنون!

ـ احفظى لسانك القذر . .

ـ أنت أنت القذر .

فنهض مهددا فتراجعت متوثبة للدفاع فلم يتحرك ولكنه قال بحقد :

ـ شيطانة وعقيم !

كانت أول مشاجرة زوجية وقد دهش لعنفها .

ولكن رغبتيهما المتلاحمتين كانتا أقوى من الأعاصير الطارئة .

٢١

كان محمد توكل شيخ الحارة يجالس صديق أبو طاقية الخمار عندما مرت الشيخة ضياء بمبخرتها . فضحك الخمار وهمس :

ـ رجعت الفتونة إلى آل الناجى ، فلم تواصل المرأة المجنونة البكاء؟

٢٢

فى أوائل الربيع ونداءات الباعة تتردد بالملانة والعجوز . . وضعت «عزيزة» طفلا أسموه عزيز . وطوقت الشواغل قرة حتى هدأ كل شىء ، فرقدت عزيزة فى فراشها وراح هو يحنو على الوليد متأملا . تأمله بقلب مضطرب بشتى الانفعالات المتضاربة . ورنت عزيزة إليه برقة وإعياء وفخار وتمتمت :

ـ ما أشبهه بك !

لم توكد ذلك؟ إنه لا يجد له شكلا ولكنها تتكلم ببراءة . لقد نسيت الماضى تماما وهى غريقة البراءة والحب . عاد الرفيقان ـ السرور والألم ـ يتجاذبانه . ولكنه كان مصمما على الحياة والسعادة .

٢٣

ومحافظة على المظاهر زار جناحه رمانة ورئيفة. أهديا الوليد مصحفا مذهب الغلاف. وقال له رمانة:

ـ يتربى فى عزك..

ورنت رئيفة إلى الوليد طويلا وهى تقول:

ـ ما أجمله!

وتقلص قلب عزيزة وهى ترى نظرة رئيفة فوق وجه عزيز. وتصرف قرة التصرف الطبيعى المرح. وطيلة الوقت سأل ربه أن يلهمه الصواب. أن يضيئه بالحقيقة. ألا يعرض حبه لمحنة مضللة. أن يعبر به الوساوس والظلمات. أن يرفعه إلى براءة عزيزة وصدقها. ألا يتردى فى الجحيم بإرادته.

٢٤

وحمل الطفل فى لفافته ومضى به ليلا إلى ساحة التكية. استقبل فيض الأناشيد فى أوله. دعا الله أن يجعل من الصغير غصنا فى دوحة البطولة والخير. أن تتجسد فيه الأحلام المقدسة لا الأهواء الجامحة الشريرة. وسرح فكره إلى الممر الضيق حيث ترك عاشور فى مثل سن ابنه. وكما تعبر سحابة وجه القمر فتحجب نوره اقتحمه خاطر مظلم. تذكر ما يتقول به الأعداء عن عاشور وأصله. غشيته كآبة عفنة. لاذ بالأناشيد ليغتسل من عرقها الحامض وغمغم: «اللهم هبنى القوة».

انغمس فى الأنغام تماما وهى تردد:

نقدها را بود آياكه عيارى كيرند

تاهمه صومعه داران بى كارى كيرند

٢٥

لما خرج من القبو عائدا سمع صوتا غليظا يتساءل :

ـ من القادم؟

عرف صوت أخيه وحيد الفتوة فأجاب باسما :

ـ قرة سماحة الناجى .

فقهقه الفتوة . وقفا شبحين فى الظلام . تساءل وحيد :

ـ كنت فى الساحة مثل الأجداد الطيبين؟

ـ بل ذهبت بالوليد ، ها هو ذا بين يدى . .

ـ مبارك عليك . نويت أن أزورك غدا فى المحل مهنئا . .

ـ لم لا تزورنى فى البيت؟

ـ أنت تعلم أنى أتجنبه!

فقال قرة برقة :

ـ إنه بيتك والله الهادى . .

فقال وحيد مغيرا نبرته :

ـ وكان فى نيتى أن أفاتحك بأمر آخر؟

ـ خير؟

ـ أخونا رمانة . .

تنهد قرة ولاذ بالصمت ، فقال وحيد :

ـ إنه يعبث بماله بسفاهة ، لست واعظا ، ولكنى أعلم أنه لا يقدر على السفاهة إلا فتوة!

ـ أنا عارف ، النصيحة غير مجدية ، ولا ينجم عنها إلا الغضب!

فقال وحيد بحنق :

ـ إنه ينتحر .

٢٦

كأن ما يربط رمانة برئيفة شيء أقوى من الخير والشر والنزاع. لا يفرط أحدهما فى الآخر مهما نشب بينهما من خلاف. النقار متواصل والحب متواصل. يختلط العنف بالدلال، الزجر بالتنهدات، سوء الظن بالقبل. هى فى اعتقاده عقيم وهو فى حدسها عقيم، هو رجلها الوحيد، وهو أيضا لا يخطر له أن يتزوج عليها. ويقول وهو ثمل:

ـ إنها قدر!

٢٧

وتوفى رضوان بكر الناجى عقب مرض قصير. كان قد اعتزل الحارة حتى نسى تماما فتذكره الناس بالموت بضعة أيام. وزعت تركته بالاتفاق حتى يخلص المحل لرمانة وقرة، ووزعت بقية التركة بين أنسية زوجته وصفية أخته.

٢٨

ولم يعد رمانة يقنع بالبوظة والمخدرات فانزلق إلى القمار يدفن فيه ضجره. وتصبر قرة ما تصبر حتى فاض به الكأس فقال له يوما وهما فى حجرة الإدارة:

ـ إنك تبعثر مالك بلا حساب..

فقال بجفاء:

ـ إنه مالى!

ـ تضطر أحيانا إلى الاقتراض منى!

ـ هل أكلت عليك قرضا؟

فقال قرة باستياء:

ـ ولكن ذلك ضار بعملنا المشترك، ثم إنك لا تكاد تبذل فيه أى جهد!

فقال رمانة بامتعاض :

ـ إنك لا تولينى ثقتك .

فصمت قرة مليا ثم قال :

ـ من الخير لكلينا أن ننفصل ، فليستقل كل بتجارته قبل أن نغرق معا . .

٢٩

عرف الخصام ، فاضطربت له أفئدة الأسرة .

أما وحيد فقد زار قرة وقال له بكل صراحة :

ـ افعل ما تراه فى صالحك .

وقال له أيضا :

ـ ابنك يكبر يوما عن يوم .

ثم قال عن رمانة بازدراء :

ـ إنه خنزير مثل زوج أمه!

واجتمعت صفية بقرة ورمانة وقدمت اقتراحها قائلة :

ـ ليستقل قرة بالإدارة وليأخذ رمانة نصيبه من الربح وهو حر فيه . .

فقال رمانة :

ـ لست طفلا يا عمتى . .

فدمعت عيناها وقالت :

ـ سمعة الناجى أمانة بين يديكما . .

فقال قرة بحزن :

ـ سمعة الناجى؟! لنا الفتونة وما هى بالفتونة . أبونا ضائع بلا ذنب . أخى إما فى البوظة وإما فى الغرزة ثم يمضى إلى القمار!

فتوسلت إليه قائلة :

ـ أنت أنت الأمل يا قرة .

فقال بشدة :

ـ لذلك أريد أن أستقل بتجارتى . .

٣٠

انذعرت رئيفة لفكرة الانفصال وأعلنت عن مخاوفها حتى قال لها رمانة :

ـ أنت أيضا لا تثقين فى !

فقالت بلين ومداهنة :

ـ إنك أهل للثقة إذا أقلعت عن عاداتك السيئة .

ـ سأقلع عنها حتما إذا اضطررت لتحمل مسئوليتى !

ـ وهل تعرف العمل حقّا ؟

فقطب متسائلا ، فقالت :

ـ يلزمك وقت للتدريب يا رمانة ، احذر العناد والغرور . كان الرأى دائما رأى أخيك ، هو عاقد الصفقات ، هو الرحالة ، هو كل شىء ، وأنت متربع وراء مكتبك لا شىء !

فتلظى بالحقد مليا ثم قال :

ـ وما العمل إذا صمم على تحقيق فكرته ؟

فقالت والشر يتراقص فى عينيها :

ـ يجب منعه بأى ثمن . .

ـ بالقوة ؟

ـ بأى ثمن ، أتدرى ما معنى أن تستقل الآن ؟ أن تفلس فى أيام أو أسابيع ، أخ وجيه وأخ فتوة وأخ شحاذ !

ـ والعمل ؟

ـ بادر بالملاينة ، فى الوقت نفسه غير حياتك ، اشترك فى العمل ، ثم نفكر فى كل شىء . .

صمت متجهما فرجعت تقول :

ـ خسائرك فادحة ، ماذا يبقى لك لو وقع الانفصال الآن ، تذكر ذلك ، وتذكر أيضا . .

وسكتت قليلا ثم واصلت :

ـ وتذكر أيضا أنه لا يوجد مستحيل . .

٣١

مضى قرة يستعد لسفر عاجل . اقترح رمانة عليه أن يؤجل فكرة الانفصال لحين عودته ، وقال له برقة غير معهودة :

ـ ربما وجدتنى لدى عودتك شخصا آخر . .

٣٢

وفى الليل تطرق الحديث بين قرة وعزيزة إلى الموضوع . ولم تخف عزيزة مشاعرها فقالت :

ـ إنه لا يستحق الثقة . .

فقال قرة :

ـ بلى ، ولكن الوقت لا يتسع الآن لإجراءات الانفصال . .

ـ ليكن ولكن لا تتردد . إنه لا يحبك ، هو وزوجته يتمنيان لنا الهلاك !

وتابعت عزيز وهو يلاعب قطة بيضاء فرقت عيناها وهى تقول :

ـ تلقيت من السماء هدية جديدة لك . .

فرمق بطنها بحنان وبهجة . وأشارت عزيزة إلى عزيز وتمتمت :

ـ أهلك يحلمون له بالفتونة . .

فابتسم قائلا :

ـ هكذا آل الناجى !

فقالت عزيزة :

ـ أما أنا فأومن بأن أبواب الخير كثيرة . .

ـ وعاشور ؟

ـ دائما عاشور ! . . أتحن إلى أحلامهم ؟

ـ سأنشئه كما أنشأنى المرحوم خضر ، وليفعل بنفسه بعد ذلك ما يشاء . .

ـ كم تريحون أنفسكم لو تتناسون أنكم ذرية عاشور الناجى !

ـ سنظل ذريته على أى حال . .

ورنا إلى عزيز طويلا ثم تساءل :

ـ متى أجلسه أمامى فى حجرة الإدارة؟!

٣٣

اتخذ السائق مجلسه بالدوكار . وقف قرة بين مودعيه . وحيد ورمانة والشيخ إسماعيل القليوبى شيخ الزاوية ومحمد توكل شيخ الحارة وآخرين . وأمسك محمد توكل بيد رمانة وتساءل بلهجة ذات معنى :

ـ من يحل محلك يا معلم عند السفر إذا استقل كل منكما بتجارته؟

فتجاهل قرة الملاحظة مواصلا حديثا جانبيا مع الشيخ إسماعيل . وفى تلك اللحظة مرت الشيخة ضياء بمبخرتها وعينيها الدامعتين . لم يعد منظرها يثير استياء أحد من آل الناجى ، وقال وحيد :

ـ الشيخة تبارك سفرك!

وصافحهم واحدا بعد واحد واستقل الدوكار ورمانة يقول :

ـ بالسلامة فى الذهاب وفى الإياب . .

ورن الجرس وتهادى الدوكار نحو الميدان . .

٣٤

كانت الرحلة عادة تستغرق أسبوعا . مضى الأسبوع ولكن قرة لم يرجع .

تبودلت الأفكار فى الدار مساء فقال رمانة :

ـ عذر الغائب معه .

وتمتمت أنسية :

ـ لا يحسب الوقت فى رحلته بالساعة والدقيقة .

وقالت رئيفة :

ـ مرة تأخر يومين عن ميعاد عودته . .

ولاذت عزيزة بالصمت .

٣٥

مر اليوم التالى كما مر الأول . ترددت الكلمات الملتمسة للطمأنينة . قالت عزيزة لنفسها :

ـ ما أبغض قلقا لا مبرر له!

٣٦

يذهب الدوكار مع الصباح إلى ميناء بولاق ثم يرجع مع الليل خاليا . ويعذب السهاد عزيزة حتى الفجر . .

٣٧

باتت الحارة تتساءل عن غياب قرة . دعت عزيزة وحيدا وسألته :

ـ ماذا ترى يا معلم وحيد؟

فقال الفتوة :

ـ اعتزمت السفر بنفسى . .

٣٨

غاب وحيد أياما ثلاثة ثم رجع فى مساء الرابع . رأت عزيزة وجهه فغاص قلبها فى صدرها وهتفت :

ـ ليس وراءك خير!

فقال وحيد بوجوم :

ـ قرر عملاؤه أنه لم يصل إليهم . .

فتساءلت عزيزة بوجه شاحب :

ـ ما معنى ذلك؟

فقالت أنسية وهى تدارى اضطرابها :

ـ قلبى يحدثنى بالسلامة . .

فقالت عزيزة :

ـ قلبى لا يحدثنى بذلك . .

فقال رمانة :

ـ لا تستسلموا للتشاؤم . .

فهتفت عزيزة :

ـ الغائبون فى أسرتكم أكثر من الحاضرين . .

فقالت أنسية :

ـ فليخيب الله الظنون السيئة . .

فتمتمت رئيفة :

ـ آمين . .

عند ذاك ولولت عزيزة :

ـ ما العمل وأنا امرأة لا حول لى؟!

فقال وحيد :

ـ لقد قمت بالخطوة الأولى وتوجد بعد ذلك خطوات . .

وقالت أنسية :

ـ إنه لا أعداء له . .

فقال رمانة :

ـ هذا حق ولكن للطريق أخطاره . .

فتأوهت عزيزة ، وقال وحيد :

ـ سأفعل المستحيل . .

٣٩

مضى أسبوع فى إثر أسبوع . تتابعت الأيام بلا مبالاة . شغل الناس بالشمس والليل والنهار والطعام . أيقنوا أن المعلم قرة لن يرجع إلى حارته .

٤٠

أصرت عزيزة على مصارعة النسيان واللامبالاة . غياب قرة كارثة يتجدد وقوعها فى قلبها كل صباح . وهى تتمزق بالحزن والغضب . تأبى أن تصدق أن سنن الكون يمكن أن تتبدل بغتة فى لحظة من الزمان . ومن شدة الانفعال أجهضت فرقدت مريضة أسبوعا . واستدعت وحيدا وقالت له :

ـ لن أسكت ، لن أهمد ، ولو مضى العمر كله على ذلك . .

فقال وحيد :

ـ إنك لا تدركين حزنى يا ست عزيزة ، إنه لعار أن يقع ذلك لشقيق فتوة . .

ـ لن أسكت ولن أهمد . .

ـ لم يعد لأحد من رجالى من مهمة مقدمة على البحث والتحرى ، استعنت أيضا بأصدقاء من الفتوات . .

وتمهل قليلا ثم قال :

ـ ذهبت إلى أمى فى بولاق ، إنها اليوم ضريرة ، وذهبت معى إلى فتوة بولاق ، الدنيا كلها تبحث عن قرة . .

٤١

من ناحية أخرى زار أبوها إسماعيل البنان مأمور القسم ، فوعده الرجل بتقديم كل مساعدة ممكنة . وجعل أبوها يشجعها ويواسيها ولكنها قالت له :

ـ كأن قلبى يعرف السر . .

وقرأ أبوها خواطرها فقلق وقال :

ـ إياك وسوء الظن بالأبرياء . .

ـ الأبرياء؟!

ـ أصغى إلىّ، اضبطى لسانك . .

ـ لا أعداء لنا سواهما . .

ـ قطاع الطريق أعداء كل إنسان . .

ـ لا أعداء لنا سواهما .

ـ لا دليل لديك إلا سوء ظنك القديم . .

فقالت بإصرار :

ـ لن أهمد ولو مضى العمر كله على ذلك . .

٤٢

اقتحمت جناح الشيخة ضياء وهو ما لا يجرؤ عليه أحد . . وجدتها متربعة على شلتة مستغرقة فى تهاويل السجادة . ركعت إلى جانبها . لم تلتفت المرأة إليها ، لم تشعر بها . همست :

ـ يا شيخة ضياء ، ما رأيك؟

فلم يطرق الصوت باب دنياها المسحورة ، فهمست بحرارة :

ـ قولى شيئا يا شيخة ضياء!

ولكن ضياء لم تسمع ، لم تحس ، لم تولد .

شعرت عزيزة بأنها تصارع مجهولا لا سبيل إليه ، وإنها تتحدى المستحيل . .

٤٣

وعاشت شبه معتزلة فى جناحها منفردة بعزيز . حتى الطعام كان يحمل إليها . وزارها فى الجناح رمانة ورئيفة . وكان حزنهما على الغائب جليا مشهودا . وقالت لها رئيفة :

ـ عزلتك تضاعف من أحزاننا . .

فقالت وهى تتجنب النظر إليهما :

ـ لم أعد صالحة لمعاشرة الآخرين . .

فتمتم رمانة :

ـ نحن الأهل الأقربون . .

فقالت بضيق :

ـ الحزن كالوباء يوجب العزلة . .

فقال رمانة :

ـ بل المعاشرة تعالجه ، واعلمى أننى لا أكف عن البحث . .

فقالت بإصرار :

ـ أجل ، علينا أن نعرف القاتل !

فهتفت رئيفة :

ـ لا أصدق أنه قتل . .

فقاومت عزيزة دموعها بكبرياء ، ولم تهش لكلمة من الكلمات الطيبة ، فلم يسفر اللقاء عن خير . ولم تنقطع عزيزة عن وحيد أو أبيها . لم يتسلل اليأس إلى إرادتها ، وجعلت الأيام تمضى ، والمعلم قرة يذوب فى المجهول . .

٤٤

فسر اختفاء المعلم قرة فى الحارة باعتباره نتيجة لعدوان قطاع الطريق . هكذا يقال جهرا كلما جاء للحادث ذكر . أما همسات الاتهام فى البوظة والغرزة فكانت تحوم حول رمانة . لقد قضى على شقيقه بالقتل قبل أن يقضى عليه بالفصل والإفلاس . وها هو ذا يستقل بإدارة المحل ، متصرفا فى ماله ومال ابن أخيه اليتيم ، وقد أقلع عن العربدة والقمار حتى لا يقال بأنه يبدد مال اليتيم ، وعمل ألف حساب لوحيد فتوة الحارة . رغم ذلك فقد تضاءلت عملقة المحل ، واختصرت معاملاته ، واعتذر رمانة عن ذلك بقلة درايته ومهارته التجارية .

وقال لشقيقه وحيد :

ـ ليس فى وسعى أفضل من ذلك ، وإنى أرحب بأن تعمل معى إذا شئت . .

ولكن وحيدا قال له ببرود :

ـ أنت تعلم ألا خبرة لى بهذه الشئون .

٤٥

ولم تكترث عزيزة كثيرا لما يطرأ على المحل من تحول أو ضمور. كانت تحلم باليوم الذى يحل فيه عزيز فى مكان أبيه، فيستقل عن عمه ويعيد إلى المحل سيرته الأولى. فى سبيل ذلك وقفت نفسها على تربية وحيدها. أرسلته إلى الكُتَّاب فى سن مبكرة. وزودته بمعلم خاص ليزيده علما بالحساب والمعاملة. ولم تأل فى تذكيره بسير أجداده من آل البنان، بل دفعها إخلاصها لقرة إلى التنويه له ببطولات الناجى ومثله العليا وأمجاده الأسطورية. وبثت فيه ـ بلا وعى وبوعى أحيانا ـ الحذر من عمه وزوجته، والنفور منهما، وشحنت قلبه بأنباء العداوة التى اضطرمت بين أبيه وعمه، واختفاء أبيه الغريب المريب..

وكان قرة قد نسى. لم يبق حيا إلا فى قلب عزيزة، ولدرجة ما فى خيال عزيز. وثمة حلم يقظة كان متعة تأملاتها، أن تجوب البلدان بحثا عنه، أن تعثر عليه، أو أن تكتشف بالبينة قاتليه، أن تنتقم، أن تعيد ميزان العدل إلى استوائه الأبدى، أن يستعيد القلب صفاءه..

٤٦

وما إن جاوز عزيز العاشرة حتى طالبت عزيزة بأن يتدرب فى محل أبيه. وسرعان ما وافق رمانة وهو يقول:

ـ أهلا بالعزيز ابن العزيز..

وعقب ذلك تُوفى إسماعيل البنان أبو عزيزة فورثت عنه قدرا من المال لا بأس به، فقررت أن تكنزه ليستثمره عزيز فى التجارة عندما يستقل عن عمه!. وماتت أنسية عقب وفاة أبيها بعام ونصف العام فخلت الدار من الأحباب. لم يبق إلا رمانة ورئيفة، والشيخة ضياء إن عد وجودها وجودا. وقد عجزت الشيخة عن مواصلة مسيرتها اليومية فى الحارة فاعتزلت تماما فى جناحها، وعند الأصيل من كل يوم كانت تدلى بالمبخرة من مشربية حجرتها، وحتى الدموع لم تعد تسعفها..

٤٧

وينظر رمانة متأملا كلما وجد الفراغ.

ها هو ذا عزيز يجلس فى مكان أبيه بحجرة الإدارة. إنه يتقدم بخطوات ثابتة تنبئ عن رجاحة عقل. يطرق بلا شك باب المراهقة. صبى جميل مفعم حيوية. قامة طويلة رشيقة، عذب الملامح، يلوح القلق فى عينيه كما يلوح التفكير. وبينهما مجاملة محسوسة ولكن بلا ألفة حقيقية. وثمة نفور أيضا يتوارى وراء الكلمة المهذبة والابتسامة الحلوة. حلوى كذبة إبريل المرة. مشحون بنفثات أمه السامة. وقد يستوى يوما عدوا ذا خطر! يتصور أحيانا أنه ابنه! ولايتخلى عن تصوره رغم أن وجه الصبى مزيج متعادل من وجهى عزيزة وقرة، ولكن ما الفائدة؟ العبرة بالروح لا بالدم. إنه ابن أخيه بل إنه عدوه، وهو لا يستطيع أن يحبه مهما تصور. وقد لا يقوم تصوره على أساس. ولعله لو علم بخواطره لازداد له كرها.

وقال له:

ـ إنك منطو على نفسك يا عزيز، لماذا؟

حدق فيه الصبى بحيرة كأنه لم يفهم فقال:

ـ أين أصدقاؤك؟ لم لا تخالطهم فى الحارة؟

فتمتم:

ـ أحيانا أستقبلهم فى الدار..

ـ هذا لا يكفى..

وضحك رمانة ثم قال:

ـ لم أسمعك تخاطبنى مرة بقولك يا عمى..

فارتبك عزيز فقال رمانة:

ـ إنى عمك، صديقك أيضا..

فابتسم عزيز وقال:

ـ طبعا..

وكف عن مضايقته بلباقة. وقال لنفسه إن عليه أن يحاول مستقبلا أن يصطحبه إلى مجالس الرجال، أن يخرجه من قوقعة النفور، أن يسرقه من قبضة أمه..

ونظر فى دفتره ولكن سرعان ما اشتعل خياله بالصور الجامحة. رأى «عزيز» وهو يحتضر.. إثر حادث أو مرض..

٤٨

وكان يكاشف رئيفة بهواجسه، وكانت تقول له:

ـ طالما حذرتك بما تعده الأفعى..

فقال بضيق:

ـ لم أكن بحاجة إلى تحذير!

ـ ولا أنت فى حاجة إلى من يرشدك إلى ما ينبغى عمله..

ما أكثر ما تردد ذلك بينهما! ها هو ذا الشيطان يطل من عينيها الجميلتين.

قال بحنق:

ـ ما كل مرة تسلم الجرة..

فقالت ساخرة:

ـ فلننتظر المصير.

ـ أصبح الآن يتعامل معى فثمة أمل!

ـ تتصور أن تخطفه من حضن أمه المغلى بالحقد!

ـ إنه لم يعرف بعد أن فى الدنيا طربا وسرورا!

ـ الأفعى مغروسة فى أعماقه..

فنفخ متجهما. وساد الصمت إلا من هسيس الخواطر الدامية.. وترامى من الحارة صياح غلمان، وتتابع نقر فوق خصاص المشربية فتمتمت رئيفة:

ـ رجع المطر..

تسلى بفحص الجمرات فى المدفأة بعود من الحديد، قال:

ـ يا له من برد!

فقالت مارقة من أفكاره:

ـ إنه لحلم..

ـ ما هو؟

ـ ليس مستحيلا أن يغرى مثله بأمجاد الناجى!

ـ عزيز؟!

ـ أجل، إنه سن الأحلام، مثل أبيك المطارد!

رنا إليها بذهول. خافها بقدر ما أعجب بها. ولكنه قال بخمول:

ـ لا ثقة له فىّ!

ـ ولكنه يشحن إذا لم ير اليد التى تشحنه..

وتنهدت بعمق وهى تقول:

ـ ثم يحذر «وحيد» فى الوقت المناسب!

ما جدوى ذلك كله؟ إنه يشعر أحيانا بالضجر. ولكن طاب له أن يتسلى بحلم يقظته الدامى..

٤٩

اصطحبه معه إلى مجالس الرجال بحجة تقديمه إلى العملاء، فلم تستطع عزيزة أن تمانع. ودارت الجوزة ولكنه لم يدعه إليها قط. وقال له:

ـ إنها ضرورة فى مجالس الرجال ولكن تجنبها فهى لا تليق بك..

وتعرف عزيز بكثيرين. أسعده أنهم يحفظون لأبيه خالص الود وجميل الذكرى. وتتلاحق الأقوال:

ـ لم نعرف له نظيرا فى أمانته ودقته..

ـ الأخلاق فى المرتبة الأولى ثم تجىء التجارة..

ـ كان فى التجارة كما كان جده فى الفتونة!

ـ واحسرتاه على عهد الناجى وأمجاده..

ـ سيجىء يوما من يعيد العهد إلى عرشه..

دائما تتردد تلك الأقوال فى كل لقاء. وفى طريق العودة إلى الدار يقول له رمانة:

ـ هؤلاء الناس لا يكفون عن الأحلام..

ويقول له أيضا:

ـ لولا عمك وحيد ما كان لنا قيمة فى هذه الحارة..

ومرة قال عزيز:

ـ ولكن وحيد ليس مثل عاشور .

ـ لا أحد مثل عاشور ، لقد انتهى عصر المعجزات ، حسبنا أن رجعت الفتونة إلى آل الناجى . .

تمنى أن ينفذ إلى أعماقه . وكان ـ فى الاجتماعات ـ يسترق النظر إليه فينشرح صدره بضوء الحماس المشع من عينيه .

٥٠

وذات مساء قالت عزيزة لعزيز :

ـ جاء اليوم الموعود .

أدرك ما ترمى إليه ولكنه انتظر فقالت :

ـ تستطيع الآن أن تضطلع بشئونك ، لم تعد صبيا ، استقل بتجارتك ، عندى من المال ما يضمن لك نجاحا مثل نجاح أبيك . .

فهز رأسه موافقا ولكنها لم تلمس الحماس الذى توقعته فقالت :

ـ ابعد عنك عدو أبيك ، وحسبه ما نهب من مالك . .

ـ هذا متفق عليه !

ـ ولكنك لا تبدى الحماس الواجب . .

ـ الحماس متوافر ، طالما انتظرت هذا اليوم . .

ـ ستنفذه فورا ؟

ـ أجل . .

ـ ولكنك مشغول البال ، أكثر من مرة لاحظت ذلك فعللته بمتاعب العمل . .

ـ هو ذلك !

فقالت بارتياب :

ـ كلا يا عزيز ، عيناك تحدثاننى بأن هناك شيئا آخر . .

فضحك قائلا :

ـ لا تجعلى من الحبة قبة . .

سره حقيقة بأن يخفيه عنها بقدر ما هو حقيق بأن يخفيه عن وحيد نفسه . إنه يعرف تماما موقفها ومشاعرها . غير أنها قالت بقلق :

ـ لا تخف عنى شيئا يا عزيز، نحن محاطان بالأعداء، عليك أن تطلعنى على كل شىء..

فقال متظاهراً بالمرح:

ـ سأنفذ ما اتفقنا عليه، ما عدا ذلك فهو وهم..

فقالت بمزيد من القلق:

ـ أى وهم؟! ما أكثر الأوهام القاتلة!

ارتعد لنفاذ بصيرتها المستلهمة من غريزة الأم وحبها وخوفها معا. غمغم متهربا:

ـ لا شىء!

فهتفت بحرارة:

ـ لا تسلمنى للجنون، أمك حزينة أبدية، تحملت ما لم تتحمله زوجة مخلصة، أنت أملها الوحيد، عزاء صبرها وتصبرها، استيقاظها من كابوس طويل، وقد قضى علينا أن نعيش فى غشاء من المكر السيئ، ولن يقدم لنا السم إلا فى قطعة من الحلوى، لا خوف عليك من العداء السافر، ولكن الخوف واجب من البسمة الحلوة والكلمة العذبة والدواء الشافى وأقنعة الإخلاص التى لا حصر لها.

فتمتم وهو يتلوى فى الحصار:

ـ لست غرّا يا أماه..

ـ ولكنك برىء، والبراءة فريسة الأوغاد..

وانزلق إلى أن يقول وهو لا يدرى:

ـ إنه خارج الموضوع!

ـ رمانة؟!

ـ أجل..

ـ حدثنى عن الموضوع، واحزناه، هل أصبحت غريبة عن قلبى وروحى فلا أعلم شيئا عن أخطر الأمور إلا ما تلقيه إلىّ المصادفة العمياء؟!

ـ لم أضمر إخفاء شىء عنك ولكنى أعلم بهواجسك؟

ـ صارحنى فإن قلبى يوشك أن يتوقف..

فنهض، راح يتمشى فى الحجرة، ثم وقف أمامها، وتساءل:

ـ ألا يحق لى أن أفكر بنبل؟

فدهمتها أفكار مفزعة وقالت:

ـ ما العواقب يا عزيز؟ هذا ما يهم، سبق أن فكر جدك سماحة بنبل وها هو ذا طريد كالمتسول لا يدرى أحد عنه شيئا.. حدثنى عن أفكارك النبيلة يا عزيز..

مضى بنبرة اعترافية يحدثها عما دار فى اللقاءات مع العلماء. تابعته بوجه شاحب حتى خضبته فى النهاية صفرة الموت..

وقالت بصوت متهدج:

ـ إنه تحريض واضح على عمك وحيد!

ـ لست غرّا..

ـ إنى أرى رمانة فى نسيج المؤامرة..

فبادرها:

ـ لم ينبس بكلمة، وهو دائما فى صف وحيد، ودائما يحذرنى..

ـ لا تصدقه، إنهم يرددون ما يشحنهم به، هل صارحتهم بأفكارك النبيلة؟

فقال بصدق:

ـ كلا، لست غرّا، قلت لهم إنى لا أخون عمى وحيد..

ـ هذا حسن، هل قلت لعمك قولا آخر؟

ـ كلا.. تظاهرت بالميل لقوله..

تنهدت بعمق، اغرورقت عيناها، غمغمت:

ـ حمدا لله..

ثم بحدة:

ـ لقد أعطيانى الحبل، ما عليك إلا أن تتوفر على عملك، استقل عن عدو أبيك، بل عن قاتله، توفر لعملك، لقد أعطيانى الحبل..

٥١

ثمة صمت ينذر بهبوب عاصفة. نظرات عزيز لا تبشر بخير. منذ شارف بلوغ الرشد وهو يتوقع منه ضربة قاسية. لم يفلح فى كسب ثقته، بادله ملاينة بملاينة، لم تزل قدمه رغم دهنه الأرض تحت قدميه بالزيت، وها هو ذا يتحفز للانتقام.

وخاطبه ذات صباح بقوله:

ـ عماه!

لأول مرة ينطق بها فأيقن أنها مقدمة لشر .

ـ ماذا يا بن أخى؟

فقال بهدوء كريه ذكره ببعض أحوال أبيه قرة :

ـ أرى أن أستقل بتجارتى !

رغم أنه توقع ذلك، توقعه منذ وقت طويل، إلا أن قلبه غاص فى صدره، وتمتم :

ـ حقّا؟ ! طبعا أنت حر، ولكن لماذا؟ لماذا نفتت قوتنا؟

ـ أمى ترغب فى مشاركتى !

ـ هذا ممكن مع المحافظة على الوضع الراهن . .

ـ كان أبى يرغب فى ذلك كما تعلم !

ـ قال ذلك يوما ما ولكنه لم يصمم عليه وإلا ما منعه مانع . .

فقال عزيز ببرود :

ـ منعه اختفاؤه الغريب . .

فانقبض قلب رمانة، ولكنه تجاهل الطعنة وقال :

ـ كان بوسعه أن يؤجل السفر حتى يفعل ما يشاء . .

ثم باستياء واضح :

ـ لا تصدق كل ما يقال . .

فقال بجرأة لم يبدها من قبل :

ـ إنى أصدق ما يستحق التصديق . .

فقال رمانة بيأس :

ـ أكرر أنك حر، ولكنه ضار بكلينا . .

ـ ليس هو كذلك بالنسبة إلى . .

تلقى طعنة ثانية وهو يتلظى بالحقد الدفين . وقال لنفسه إن يكن ابنى حقّا فكيف ألفته إلى الدور الساخر الأليم الذى يلعبه ! كيف أكبح الشيطان الذى يتمطى فى قلبه الأسود لينتقم منى؟ قال :

ـ تعبير لا يجدر بك، ألا تفكر فى الأمر مليا؟

فقال برقة ما استطاع :

ـ إنه أمر متفق عليه .

فقال بيأس :

ـ حتى إذا رجوتك أن تعدل عنه؟

ـ يؤسفنى أننى لا أستطيع تحقيق الرجاء . .

ـ لعلها أمك؟

ـ تريد أن تشاركنى كما قلت . .

ـ إنه سوء الظن الذى يخلق الكراهية على أساس من الأوهام .

فتردد قليلا ثم قال :

ـ ليست أوهاما ، الحسابات غير مقنعة ، والشركة لم تكن فى صالحى . .

ـ من الآن ستؤدى دورك كاملا . .

فتمتم عزيز بضيق :

ـ لا فائدة يا سيدى .

فاجتاحه الغضب وهتف :

ـ إنها الكراهية ، إنه الحقد الأسود ، إنها اللعنة التى تطارد آل الناجى . .

٥٢

رجع رمانة إلى رئيفة محطما . وسرعان ما أخبرها بكل شىء ، ثم قال :

ـ بذرة الكراهية تلفظ ثمرتها السامة .

فقالت رئيفة بوجه مخطوف من الحقد :

ـ الأمل معقود بوحيد . .

ـ ولكن الماكر الصغير لم يقع بعد فى الشرك . .

ـ لا تنتظر حتى يقع . .

ـ ليس الأمر باليسر الذى تحلمين به . .

ثم بهدوء :

ـ الأمل معقود بميراثك !

ـ ميراثى ؟ !

ـ عزيزة ستمده بميراثها . .

ـ لأنها كانت تعده لساعة الانتقام . .

ـ بميراثك أستطيع أن أبدأ من جديد!

فتساءلت بذهول:

ـ ومالك أنت؟

فقال بقنوط:

ـ لم يبق منه ما يصلح لإقامة محل كريم..

فهتفت:

ـ التهمه القمار؟!

ـ ماذا؟ أهذا وقت الزجر؟

ـ لم أكنز ميراثى مثلما فعلت الأفعى، وتريد أن تبدد ما بقى منه لنتسول معا؟!

فقال محتدا:

ـ سأبدأ بسلوك جديد!

فضحكت ساخرة فاشتعل غضبه وقال:

ـ لم يبق إلا أن أكاشفه بأنه ابنى!

فانتقل اللهب إليها وصاحت:

ـ أفق، ألم تقتنع بعد بأنك عقيم؟!

فصاح بحنق:

ـ بل أنت العقيم!

ـ ما وجدت الداية بى من عيب!

همَّ بأن يلطمها ولكنها تحفزت للرد مثل لبؤة غاضبة. لم تقنع بتراجعه فتمادت فى الحنق، وهى تقول:

ـ أشمت بنا الأعداء، لعل وهم الأبوة الفارغ هو ما صدك عن التخلص منه طيلة الأعوام الماضية!

فتمتم وهو يهز رأسه دهشة:

ـ تحسبين القتل لهوا!

عند ذاك أقبلت جارية لتستأذن فى حضور محمد توكل شيخ الحارة..

٥٣

استقبله فى بهو الاستقبال بالدور الأول. جاء الرجل فى هالة من العجلة والاهتمام والقلق حتى انقبض قلب رمانة. وجلس وهو يتساءل بلا أى تمهيد:

ـ هل أغضبت أخاك وحيدا؟

فذهل رمانة وقال:

ـ ما بينى وبينه إلا كل خير!

ـ رأيته الساعة فى البوظة هائجا ثملا، يلعن ويسب، متهما إياك بأنك تحرض عزيزا عليه!

فانتتر منفزعا وهو يصيح:

ـ افتراء وكذب..

فبادره محمد توكل:

ـ لا تتوان عن إقناعه.. عجل..

فتساءل رمانة محتدا:

ـ ماذا تعنى؟

ـ إن لم تسرع فسيصيبك أذى لا تتصوره..

ـ ولكنه أخى!

فقال توكل وهو لا يفطن إلى أبعاد قوله:

ـ ليس نادرا أن يقتل الأخ أخاه فى حارتنا!

فازدرد رمانة ريقه بامتعاض وغمغم:

ـ هكذا؟!

فقال شيخ الحارة:

ـ لقد أعذر من أنذر فتحرك وحق الحسين..

٥٤

لم يجرؤ رمانة على مقابلة وحيد وهو سكران، فقرر أن ينتظر حتى الصباح. غير أن الشيخ إسماعيل القليوبى شيخ الزاوية اقتحم عليه داره عند منتصف الليل حاملا إنذاراً من وحيد بأنه إذا غادر داره فقد عرض نفسه للهلاك.

وأدرك رمانة أن عزيزا هو الذى أوقع بينه وبين وحيد فتهجم على جناحه وانهال عليه سبا حتى أوشك أن يلتحم الاثنان فى عراك عنيف. عند ذاك اعترفت عزيزة بأنها هى التى فطنت إلى المؤامرة التى دبرها لابنها وأنها أفضت بظنونها إلى وحيد. وصب رمانة عليها غضبه حتى صرخت فى وجهه:

ـ ابعد عن وجهى يا قاتل قرة.

هكذا اشتعلت الدار بالغضب والكراهية على مشهد من الخدم.

وفى الحال انتقلت عزيزة وعزيز إلى دار البنان، ولم يبق فى الدار إلا رمانة ورئيفة والشيخة ضياء.

واستقل عزيز بمحل الغلال، فجدده، وأعاده إلى أيام ازدهاره كما كان أيام قرة ولم يساور وحيد ارتياب فيه، ووجد فى تنبيه عزيزة له ما طمأنه من ناحية عزيز فزاره مهنئا ومضفيا عليه أمام الحارة رضاه وحمايته. وأقلع عزيز عن أحلامه. أقلع عنها وهو حزين، غير مبرإ من ازدراء نفسه. وقنع بممارسة الخير فى محله، مع عماله وعملائه وزبائنه ومن يتيسر له مساعدتهم من الحرافيش.

٥٥

قبع رمانة فى داره. قضى على نفسه بالسجن بلا حكم. يحيط به الخوف ويستكن فى قلبه الخزى. ينفق من ماله غير المستثمر ومن مال رئيفة. يقتله الضجر. يهرب من الضجر فى الخمر والمخدرات. يمارس غضبه على الخدم والجدران والأثاث والمجهول.

ومضت العلاقة تتوتر بينه وبين رئيفة، وتسوء يوما بعد يوم. اشمأزت من جبنه وبطالته وغيبوبته وصراخه. وسرعان ما اشتد الخلاف والنقار وحل النفور محل الوئام. وكلما نشبت بينهما مشاجرة طالبته بالطلاق حتى فقد وعيه ذات مرة فطلقها. كان

القرار أهوج إذ كان كل منهما لا يستغنى عن حب الآخر ولكن الغضب مجنون والكبرياء عربيدة والتمادى مرض. وكأنما أراد كل شريك أن يثبت للآخر أنه هو العقيم فسرعان ما تزوجت رئيفة من قريب لها، على حين تزوج رمانة من جارية فى داره. وثبت لهما باليقين تقريبا أنهما عقيمان. وتزوج رمانة من ثانية وثالثة ورابعة حتى تجرع كأس اليأس لآخر نقطة فيه.

عاش رمانة كما عاشت رئيفة فى الجحيم، فى دنيا الضجر بلا حب..

٥٦

ذات صباح جاء الحارة رجل غريب. معتم بعمامة سوداء، متلفع بعباءة أرجوانية، ضرير يسترشد فى مسيره بطرف عصاه، ذو لحية بيضاء وجبين نبيل. مرت فوقه الأعين بلا اكتراث، ترك وشأنه، تساءل البعض عما جاء به.

عندما ابتعد عن مدخل الحارة بأذرع هتف:

ـ يا أهل الله!

فسأله الخمار صديق أبو طاقية:

ـ ماذا تريد؟

فقال بنبرة حزينة:

ـ دلونى على دار خضر سليمان الناجى.

تفرس صديق أبو طاقية فى وجهه مليا. سرعان ما رأى حلما. سرعان ما دهمه الماضى. صاح بذهول:

ـ يا ألطاف الله!.. المعلم سماحة بكر الناجى؟!

فقال الضرير بامتنان:

ـ نور الله قلبك!

على عجل جاء كثيرون فى مقدمتهم وحيد وعزيز ومحمد توكل وإسماعيل القليوبى. وحمى العناق والتبريك والدعاء.

ـ يوم السعد يا أبى.

ـ يوم العدل يا جدى.

ـ يوم النور يا معلم.

وكرر سماحة مرارا ووجهه يضىء بالإشراق :

ـ بارك الله فيكم ، بارك الله فيكم . .

وكل دعاه إلى بيته ، ولكنه قال بإصرار :

ـ دارى دار خضر !

وانتشر الخبر ، فدعا الرجال من الدكاكين وجمع الحرافيش بين الجحور والخرابات ، وتعالى التهليل والدعاء ثم زغردت النساء فى النوافذ والمشربيات . وقال صديق أبو طاقية :

ـ سبحان الله العظيم ، لا غيبة تخلد ولا ظلم يدوم .

٥٧

تربع سماحة فوق ديوان . وجلس أمامه على الشلت وحيد ورمانة وعزيز . هكذا اجتمع وحيد ورمانة وعزيز فى سلام كظيم . كما يتجاور البلسم والسم فى محل العطار . امحت الخصومات فى حضرة الأب المعذب شهيد النقاء .

وقال له وحيد :

ـ أعددنا لك الحمام والطعام . .

فتمتم فى هدوء :

ـ مهلا ، لقلبى أن يطمئن أولا . .

وحرك رأسه ثم تساءل :

ـ أين خضر ؟

فقال وحيد :

ـ سبحان من له الدوام .

فوجم قليلا ثم تساءل :

ـ وزوجته ضياء ؟

ـ فى جناحها ، شيخة غائبة فى ملكوت الله . .

وتردد سماحة فى إشفاق ثم تساءل :

ـ وقرة ؟ !

فساد الصمت ، فتأوه الرجل وقال :

ـ قبل الأوان! . . طالما حلمت بأن ضرسى انخلع . .

وبسط راحته وهو يقول :

ـ يدك يا عزيز . .

قبض على يده بحنو ، وسأله :

ـ تذكره ولا شك؟

فقال عزيز :

ـ اختاره الله وأنا طفل . .

ـ يا رحمة الله! . . ومن أمك يا بنى؟

ـ كريمة إسماعيل البنان . .

ـ أنعم وأكرم ، وأين هى؟

ـ هى وعمتى صفية فى الطريق إلينا . .

وسأل الرجل :

ـ وأنت يا رمانة؟

تبادل وحيد ورمانة نظرة سريعة ، وقال رمانة :

ـ لى أكثر من زوجة هن من سيقمن بخدمتك . .

ـ أولادك؟

ـ لم أرزق بذرية بعد!

فشهق بعمق متمتما :

ـ إرادة الله وحكمته ، وأنت يا وحيد؟

فساد الصمت حتى تحرك رأس الرجل بقلق فعاد يتساءل :

ـ وأنت يا وحيد؟

فقال وحيد مقطبا :

ـ لم أتزوج بعد!

ـ أعجب ما سمعت ، لم تكن الكوابيس التى أراها بلا سبب! ورضوان؟

ـ البقية فى حياتك . .

ـ حقّا؟! . . لم تبق إلا الأسماء . .

وسكت مليا ليهضم أنباء الزمان ، بلا انتباه للتوتر المستحوذ على الجالسين ، ثم سأل :

ـ من الفتوة اليوم؟

فقال وحيد بشجاعة لأول مرة :

ـ ابنك وحيد!

فانتفض الرجل من التأثر وقال :

ـ حقّا؟

ـ ابنك وحيد يا أبى . .

وقصَّ قصة الرؤيا والوثوب إلى الفتونة . فتهلل وجه سماحة وهتف :

ـ أول نبأ من السماء . .

وشبك ذراعيه فوق صدره ممتنا وقال :

ـ إذن قد رجع عهد عاشور . .

ركبهم الارتباك والحرج ولكن وحيدا قال بجرأة :

ـ عهد عاشور رجع!

فهتف الضرير :

ـ يا بركة السماوات السبع!

وتجلى الرضا فى وجهه وفى حركاته المرحة . . وقال :

ـ ليهنأ عاشور فى غيبته الملائكية . . وليسعد شمس الدين فى جنات النعيم . .

لم يفكر أحدهم لحظة واحدة فى إيقاظه من الحلم أو الاستهانة بسعادته . وبدا هو كأنما قد نسى الغربة والمطاردة ونعم بحسن الختام . وقال بهدوء :

ـ إلىَّ بالحمام والطعام ولتحل بركة الله بالأرض .

٥٨

نام سماحة بقية النهار كله . وسهر الليل فى ساحة التكية . عرفها هذه المرة عن طريق الأذن والأنف واللمس . ودعا بقوة الخيال صورة التكية والتوت والسور العتيق . وراح يملأ قلبه بالأنغام فى ارتياح وغبطة .

وبسط راحتيه وقال :

ـ حمدا لله الذى شاءت إرادته أن أدفن إلى جوار شمس الدين . حمدا لله الذى أذنت رحمته للعدل أن يظل فى حارتنا ، حمدا لله الذى أورث ابنى خير إرث للإنسان الخير والقوة .

وجرى شكره فى ظل نشيد يترنم :

هو آنكه جانب أهـل خدا نكهدرد

خداش در همه حال ازبلانكه دارد

شـهد الملكـة

الحكاية السادسة من ملحمة الحرافيش

١

تدهورت صحة سماحة فاضمحل سريعا ، وما لبث أن أسلم الروح وهو يتأهب للنوم عقب صلاة الفجر . وكأنه لم يرجع من منفاه إلا ليدفن فى جوار شمس الدين . غير أنه مات سعيدا ، مات وهو يتوهم أنه إنما يهجر فردوسا إلى فردوس . وقال عزيز :

ـ لقد أنكرنا حقيقـة حياتنـا أمامـه فاعترفنا بـذلك ـ بمـا فينـا وحيـد نفسه ـ إن حياتنا منكر لا يجوز إفشاؤه على مسمع من الطيبين .

٢

ونجح محل الغلال نجاحا عظيما ، وأثرى عزيز ثراء واسعا . وقنع من البطولة بإيمان القلب ، وحب الخير وممارسته فى نطاق محدود . أقلع عن أحلام النبل مؤثرا السلامة ، ومعتذرا عن تقصيره أمام ضميره أنه لم يعد للبطولة ولم يملك وسائلها .

خطبت له عزيزة ألفت الدهشورى كريمة عامر الدهشورى صاحب وكالة الحديد ، فرضى باختيار أمه ملهمة حياته وراعية أمنه ونجاحه . وزفت إليه بعد مرور عام على وفاة جده سماحة . وأقام معها فى دار البنان التى اشتراها وجددها فأصبحت دار عزيز . وكانت العروس حسناء فارعة بدينة مثقفة فى فنون البيت وآدابه فوجد فيها بغية قلبه وسرعان ما ربطهما الحب برباط متين .

واستقبلا حياة مترعة بالسعادة والذرية .

٣

ولبث رمانة حبيس داره حتى بعد زوال الأسباب الداعية إلى ذلك. فقد تراجع وحيد عن وعيده بمجرد عودة سماحة، ولكن رمانة كره الخارج، وغاب عن الوعى والكرامة. وكان يعيش فى شبه عزلة عن زوجاته الأربع، ولم يسل قط عن رئيفة، ودأب على السكر والمخدر.

وذات مساء اشتد به السكر فمضى مترنحا إلى جناح الشيخة ضياء، فدار حول مجلسها وهو يقهقه، وراح يقول لها ساخرا:

ـ إنك أصل البلاهة والبلاء.

وظلت المرأة غائبة، فقال:

ـ إنى فى حاجة إلى نقودك فأين تكنزينها يا معتوهة؟!

وقبض على يدها وأنهضها بعنف ففزعت المرأة وضربته بالمبخرة فى وجهه. عند ذاك جن غضبه فقبض على عنقها وشد بعنف فلم يتركها إلا جثة هامدة.

٤

ارتجت الدار بالفزع. انقض الخبر على الحارة. أبلغ شيخ الحارة الجديد جبريل الفص القسم. قبض على رمانة. حُوكم وقضى عليه بتأبيدة. ودعا عزيز إليه قبيل حمله إلى الليمان وقال له:

ـ أعترف لك بأننى مدبر قتل أبيك.

فقال عزيز بأسى:

ـ أعرف ذلك.

فقال بحزن:

ـ إنه مدفون بملابسه فى قبر وحيد لصق مقام الشيخ يونس..

٥

واستخرج عزيز جثة أبيه قرة بحضور شيخ الحارة ومخبر، فضلا عن وحيد وعزيزة. هكذا ظهر قرة وهو هيكل عظمى فجدد الأحزان. وكفن ثم شيع فى جنازة مهيبة ثم أعيد دفنه فى قبر شمس الدين.

وقالت عزيزة:

ـ ليرتح اليوم قلبى، كان ذلك بعض حلمى، وقد ضمنت به أن أرقد إلى جواره إذا حان الأجل.

٦

وناوش الألم من جديد ضمير عزيز. وكلما ساءت سمعة وحيد اشتد ضغط الألم عليه. لقد غدا الفتوة مضرب الأمثال بشذوذه وشراهته فى الحى كله لا فى الحارة وحدها. وقد عاش بضعة أعوام بعد وفاة أبيه، ومات إثر هبوط فى القلب نتيجة الإفراط فى البلبعة.

وفى أثناء ذلك كله كان عزيز يتحرى عمن يصلح للفتونة من آل الناجى الكثيرين لعله يبعث عهد عاشور بعد موات، ولكنه وجد آل الناجى قد ذابوا فى الحرافيش، فهصرهم الفقر والبؤس، واستل من أرواحهم خير ما فيها. هكذا فوجئ بموت وحيد دون أن يعد له خليفة لائقا. وسرعان ما واجهته مشكلة غاية فى الحساسية. هل يدفن إلى جوار شمس الدين؟ لقد أبى قلبه ذلك. قالت له ألفت الدهشورى:

ـ إنه عمك على أى حال..

ولكنه ظل على إبائه، ودفنه فى قبر من قبور الصدقة بحوش الناجى. ومن عجب أن ذلك التصرف لم يقابل بارتياح فى الحارة. وقال سنقر الشمام الخمار الجديد:

ـ جامله حيا وانتقم منه ميتا..

٧

ووثب إلى الفتونة نوح الغراب. كان فظا غليظا نهما. هادن فتوات الحارات واستثمر قوته فى الاستبداد بالحارة حتى صار من كبار الأثرياء فى عام واحد. وتحمل الناس وطأته بلا مبالاة، ولم يعد أحد يتحسر على فتونة الناجى بعد أن تلاشت أحلامها العذبة على يد وحيد. وابتهج الوجهاء، وانحشر الحرافيش فى طور جديد من أطوار الصعلكة والبؤس.

٨

ودارت الشمس دورتها. تطل حينا من سماء صافية، وحينا تتوارى وراء الغيوم. وقد جدد عزيز الزاوية واختار لها شيخا جديدا هو الشيخ خليل الدهشان عقب وفاة إسماعيل القليوبى. وجدد أيضا السبيل وحوض الدواب والكتاب القديم.

وترملت رئيفة فعاشت وحيدة فى دارها مع الخدم. وورثت عن زوجها الجديد ثروة غير قليلة ولكن انقطع ما بينها وبين شقيقتها عزيزة تماما كأنهما غريبتان بل عدوتان. ومن عجب أنها كانت تتهمها بأنها سبب كل شر حاق بها، وأنها نفخت فيها روح التعاسة منذ كانتا فى المهد.

وخرقت مألوف التقاليد فى الحارة عندما مضت تزور رمانة فى سجنه، فأعلنت بذلك حبها له رغم كل ما حصل.

هكذا مضت السنون بخير لا يذكر وشر لا يحصى.

٩

وذات يوم علم عزيز قرة الناجى أن أحد عماله لقى حتفه وهو ينقل حمولة من الغلال. كان يدعى عاشور وينسب نفسه بصدق إلى آل الناجى لانحداره من فتحية أم

البنات زوجة سليمان الناجى الأولى. امتلأ قلب عزيز الرقيق بالحزن، فدفن الرجل ورتب لزوجته معاشا شهريا. وبالتحرى عن أسرته عرف أن بناته تزوجن، عدا بنت صغيرة فى السادسة تدعى زهيرة ما زالت فى حاجة إلى الرعاية. اقترح عزيز على الأم أن يضم الصغيرة إلى داره لتكون فى خدمة أمه عزيزة هانم فرحبت بذلك أيما ترحيب. وانتقلت زهيرة إلى جناح عزيزة وكأنما انتقلت إلى الفردوس. تجلى لونها الحقيقى لأول مرة. نعمت بالغذاء والكساء. مارست واجبات الدار. واستحقت عطف عزيزة فخصتها بمعاملة رقيقة دون الجوارى والخدم، بل أرسلتها فترة إلى الكُتّاب. ولم يهتم عزيز برؤية البنت ولكنه أوصى أمه بها وهو يقول فى دعابة:

ـ لا تنسى أنها من آل الناجى..

١٠

وزارت أم زهيرة المعلم عزيز فى حجرة الإدارة وقد نسيها تماما. ذكرته بنفسها، وبالعامل عاشور الذى مضت عشرة أعوام على مصرعه، ودعت له طويلا، ثم قالت:

ـ يدوم عزك، عبد ربه يرغب فى الزواج من زهيرة.

وتذكر المعلم عزيز البنت وكان قد نسيها أيضا فسأل المرأة:

ـ هل ترينه كفئا لها؟

فقالت باعتزاز:

ـ شاب كامل، رزقه كاف.

فتمتم عزيز بلا اكتراث:

ـ على خيرة الله..

١١

على مائدة العشاء أنهى عزيز إلى عزيزة هانم وألفت هانم قراره. وسرعان ما قالت ألفت ضاحكة:

ـ عبده الفران! إنه بغل.

وقالت عزيزة محتجة :

ـ البنت ممتازة وتستحق من هو خير من عبده الفران !

فتساءل عزيز ضاحكا :

ـ هل تتوقعين أن يتقدم لها تاجر؟

ـ جمالها يؤهلها لذلك . .

فقال عزيز بلا مبالاة :

ـ الولد كفء لها ، أمها راضية ، لا يصح أن نفرط فى واقع ملموس من أجل خيال قد لايتحقق أبدا . .

ثم مواصلا بنبرة من قرر أن ينهى الموضوع :

ـ لقد وعدتها بالموافقة فضلا عن أنها صاحبة الحق الأول فى ذلك .

١٢

جهزتها عزيزة هانم بالفراش والثياب والنحاس . دائما كانت تردد :

ـ يا للخسارة . .

وكان عزيز يحتسى قهوة الصباح قبيل ذهابه إلى المحل عندما جاءته عزيزة بزهيرة لتودعه شاكرة ضيافته لها ، قبل مغادرتها الدار . دخلت الأم وهى تنادى :

ـ تعالى يا زهيرة لتقبلى يد سيدك . .

وهمس عزيز معترضا :

ـ ما ضرورة ذلك يا أمى؟!

دخلت الفتاة مسربلة بالحياء والارتباك ثم وقفت عند الباب . نظر نحوها مشجعا . ثبت بصره عليها ثوانى ثم سرعان ما استرده . فر ببصره . حافظ على وقاره الظاهر تحت عينى أمه وزوجته . كتم الدهشة فى أعماقه . دهشة عنيفة جامحة . كيف دفن هذا الكنز فى جناح أمه؟ كيف أخفى سره عنه؟ إنها قوام رشيق لا يتأتى لراقصة . وصفاء بشرة لا يحظى به بشر . وفتنة عينين مسكرة مخدرة . إنها روح الجمال الفتاك . لحظ ألفت هانم فوجدها منهمكة فى إرضاع طفل فتمالك نفسه وقال متشبثا بالنجاة :

ـ مبارك عليك يا زهيرة .

فقالت عزيزة :

ـ قبلى يد سيدك .

مد يده . اقتربت حتى اجتاحته رائحة القرنفل المتطايرة من شعرها الفاحم المسترسل ، شعر بانطباع شفتيها فوق ظاهر يده . خطف منها نظرة أخرى وهى راجعة . وسرعان ما دهمه إلهام بأنه سيرى ذات يوم معجزة .

١٣

من عادته صباحا أن يمضى بالدوكار إلى الحسين فيقرأ الفاتحة ثم يميل إلى السكة الجديدة فالصاغة فالنحاسين ثم ينتهى إلى المحل . فقد نفسه طيلة الطريق . روحه تهيم فى سماوات ويبقى جسده فى الدوكار بلا روح . هل عرف أخيرا لم تشرق الشمس؟ لم تتألق النجوم فى الليل؟ عم تفصح أناشيد التكية؟ لم يتعذب المجانين بالسعادة؟ لم نحزن للموت؟ وتمر عشرة أعوام وهذا الجمال يتنفس فى كنفه! كيف غاب السحر عن أمه وزوجته؟ هل تفطن البنت إلى ثرائها؟ أهى مثل الريح تزعزع الأركان بلا تيه؟ هل جنت الأم لترحب بعبده الفران ذلك الترحيب الأعمى؟ هل بوسعه أن يحول بين المطر وبين أن ينهمر؟ يا لتعاسة القلوب الغافلة!

فى عشية الزفاف زارته أم زهيرة لتشكره . تفرس فى وجهها بحب استطلاع . عجوز تشى مخلفاتها بجمال دابر . رمقها بحنق خفى . قال :

ـ كل شىء على ما يرام؟

ـ بفضل الله وفضلك .

ـ ألم تتعجلى؟

فقالت بتسليم :

ـ فاتحتها مقروءة منذ مولدها .

ومضت وهو يلعنها فى سره . وتساءل محزونا لم لا نفعل ما نشاء؟!

١٤

زفت زهيرة إلى عبد ربه الفران فى حفل متواضع . لم يرها مذ كانت فى السادسة ولكنه اعتاد أن يعتبرها حليلته . ولما رآها ليلة الدخلة صعقه جمالها ولكنه كان مشحونا

بتعاليم وتقاليد أوجبت عليه التظاهر بالثبات والسيادة. كان فوق العشرين بعام، طويلا مفتول العضلات، ذا سحنة شعبية صميمة بنتوء خديه وفطس أنفه وغلظ شاربه. حليق الرأس مثل زلطة عدا ذؤابة نافرة فى المقدمة. صلى ركعتين، واتخذ من الخشونة إهابا يخفى به عذوبة الأعماق.

أعجبت برجولته، استنامت إلى حرارته، سلمت به مثل قدر.

وجدت نفسها فى بدروم مكون من حجرة ودهليز يستعمل مطبخا وحماما. وتذكرت الفردوس المفقود، ولكن غريزتها همست بأنه كان فندقا للعبور لا للإقامة، وأنها كانت به ضيفة. أما هذا البدروم فهو بيتها ومصيرها، فيه ملكت رجلا، وحققت حلما، واطمأن القلب.

١٥

وتمكن الحب من قلبه فكاد يهتك ستره، ولكنه غلا فى إظهار الرجولة. وحتى قبل أن ينتهى الشهر الأول سألها:

ـ هل تقبعين فى البيت كما تفعل الهوانم؟

فتساءلت بدورها:

ـ ماذا تريدنى أن أفعل؟

فقال بحزم:

ـ اليد البطالة نجسة!

١٦

هكذا سرحت زهيرة بالملبن وبراغيث الست، ارتدت جلباب العمل الأزرق يغطيها من العنق حتى الكاهل، وخطرت وهى تنادى:

ـ الملبن يا أولاد!

بانطلاقها إلى الطريق اكتشفت ذاتها. تنبهت إلى سحرها وقوتها. الأعين تلتهمها، الألسنة تتغنى بالثناء عليها، منظرها يبعث السحر ويخلق الحركة. إنها قوية مدللة بالطبيعة والناس. وهى تقابل الغزل بالترفع والكبرياء، وتزداد تيها وثقة بالنفس.

١٧

وتوثقت العلاقة بينها وبين عبد ربه. فى الأعماق هو رجلها وهى معبودته. يعاملها بتقاليد الرجولة ولكنه يجدها صلبة بقدر ما هى محبة، غضوبة أحيانا بقدر ما هى مخلصة. وأنجبت له «جلال» فسرى رحيق الأمومة فى أعطافها وتلقت سعادة جديدة.

١٨

وكان عبد ربه الفران يحمل الخبز إلى دار رئيفة هانم، فسألته ذات يوم:

ـ لماذا تترك زوجتك تسرح فى الطريق؟

فقال الرجل بتسليم:

ـ الرزق يا ست هانم.

ـ الرزق متعدد السبل، إنى امرأة وحيدة وفى حاجة إلى وصيفة، وخدمتى توفر رزقا أكثر وتقى من شر الطريق..

فأخذ عبد ربه وتساءل فى حيرة:

ـ وجلال الصغير؟

فقالت بإغراء:

ـ لن أفرق بين الأم وابنها..

فغزا الطموح قلبه وقال:

ـ الأم والأب والابن فى خدمتك يا ست هانم.

١٩

تمتمت زهيرة بقلق:

ـ رئيفة هانم!

فقال عبد ربه :

ـ هانم واسعة الثراء ووحيدة .

ـ ولكنها عدوة عزيزة هانم اللدود!

ـ لا شأن لنا بذلك ، وخدمتها أيسر وأغنى من التسول فى الحارة وأنت حاملة القفة بذراع والطفل بذراع . .

ـ الأفضل أن أعمل فى خدمة عزيزة هانم .

فقال عبد ربه باستياء :

ـ ولكنها لم تطلبك وهذا يعنى أنها لا تريدك . .

وصمتت زهيرة ولكن حلمها بالفردوس نشط من جديد . .

٢٠

استشاطت عزيزة هانم غضبا عندما علمت بالخبر وهتفت :

ـ يا لها من بنت متعجلة . .

فقالت ألفت هانم :

ـ لم تقصدك بسوء ولكنها تسعى للرزق . .

ـ نحن أولى بها!

فقالت ألفت هانم معترضة :

ـ إنها ذات وليد لا تستطيع فراقه فى هذه السن وصحبته مدعاة للقذارة . .

تابع عزيز الحوار باهتمام . شعر بأن زوجته لا ترتاح لرجوع زهيرة إلى الدار ، فاشتعل وجدانه بالتوجس وكأن أصبعا يشير نحوه بالاتهام ، فقال بحزم :

ـ رأى ألفت عين الصواب .

٢١

كانت زهيرة تمشط شعر رئيفة فى قاعة الجلوس عندما دخلت خادمة لتستأذن لقادم قائلة :

ـ المعلم محمد أنور . .

من تعليق رئيفة عرفت زهيرة أن القادم هو ابن المرحوم زوج رئيفة، وأنه ظل على ولائه لها حتى من بعد ما ذاع عن زيارتها لرمانة فى سجنه. وسرعان ما جاء القادم فسلم وقدم لفافة أنيقة لأرملة أبيه وهو يقول:

ـ البطارخ!

فتهلل وجهها وشكرته. كان شابا متوسط الطول، مقبول الملامح، جميل الجبة والقفطان. قالت له:

ـ فيك الخير يا محمد.

فقال بانشراح:

ـ يهمنى أن تذوقى البطارخ قبل أى زبون من زبائن دكانى . .

فسألته بدعابة:

ـ متى تدعنى أدفع الثمن مثل بقية عشاق البطارخ؟

فقال وهو يتناول قدح قرفة محشوة باللوز والجوز والبندق:

ـ عندما تشرق الشمس من الغرب!

فضحكت رئيفة وقالت:

ـ فيك الخير يا محمد.

وهو يحتسى القرفة وقعت عيناه على زهيرة وهى منهمكة فى تمشيط سيدتها. ذهل. لم يصدق عينيه. ركز عينيه فى القدح وكأنه يهرب. قال فى سره «الغياث بالله من صنع الله».

وسألته رئيفة:

ـ كيف حال تجارتك؟

فاسترد نفسه من عالم الافتتان وقال:

ـ عال ولله الحمد.

ولاحظت زهيرة نظرة منه إليها متسولة تبرق بالانبهار، فافتر باطنها عن بسمة.

٢٢

كان محمد أنور يتردد على دار رئيفة فى كل مناسبة تسنح. غدا بالقياس إلى زهيرة عادة، كما غدت نظراته الملتاعة عادة أخرى. وكان يحاذر من إثارة أدنى شبهة عند

رئيفة، ويهب دارها ما تستحقه من الولاء والاحترام. ما من رجل رآها إلا وجن بها. أصبحت تؤمن تماما بأنها أجمل من جميع هوانم الحارة. وهى أيضا من آل الناجى مثل المعلم العظيم عزيز. ولكن كم أنها عجيبة الحظوظ فى هذه الدنيا! توفر لامرأة دارا ولأخرى بدروما. تعطى واحدة تاجرا ثريا وتعطى أخرى فرانا. لقد تقرر مصيرها وهى عمياء. حتى ميلها الفطرى لزوجها لا يقنعها بالرضا. ليست الحياة شهوة وأمومة. ليست فقرا وكدحا ونعيما كاذبا مستعارا من خدمة هانم غنية. ليست أن تملك قوة مذهلة ثم تبددها فى الخنوع. باطنها يتغير ببطء ولكن بثبات وإصرار. يتمخض كل يوم عن حركة، كل أسبوع عن وثبة، كل شهر عن طفرة. إنها تكتشف ذاتها طية وراء طية. تنبثق من جوفها أنواع شتى من المخلوقات المتحفزة الصارمة. وتحاكم فى الخيال أمها وزوجها ومسكنها وحظها. تحقد على كل ما يطالبها بالرضا، على حكمة الأمثال وعطف الهانم وفحولة زوجها. وتتلقى من المجهول شرابا ملتهبا به يستفحل الخيال ويثمل القلب ويطلع الفجر الأحمر.

وقال محمد أنور لرئيفة هانم ذات يوم:

ـ أما سمعت بالخبر؟ لقد وثبت إلى الفتونة فى بيرجوان امرأة!

فضحكت رئيفة هانم وقالت:

ـ أود أن أرى امرأة وهى تصرع الرجال..

ودارت زهيرة ابتسامة إعجاب واشتعلت فى قلبها نيران غامضة. ورماها محمد أنور بنظرة متلهفة متوسلة، فتساءلت ترى أيكون حلمها رجلا مثل محمد أنور؟ لم تجد من قلبها أى خفقة تنبئ عن جواب. وتأمله عقلها بلا حماس وبلا فتور. ودهمتها فكرة متحدية تقول إن قلب المرأة هو ضعفها، وإن علاقتها بالرجل يجب أن تتحدد بعيدا عن الغريزة والقلب. الحياة غالية مترامية الأبعاد لاحد لآفاقها، وما الحب إلا متسول ضرير يزحف فى أركان الأزقة. وتنهدت وقالت لنفسها:

ـ ليس أتعس من الحظ السيئ إلا الرضا به.

٢٣

وكانت زهيرة ترضع جلالا فى قاعة الجلوس عندما رأت فجأة محمد أنور يقتحم المكان. بسرعة دست ثديها فى ثوبها وحبكت الخمار حول رأسها مرتبكة بالحياء. رنا إليها مضطرب النظرة ثم تساءل:

ـ أين رئيفة هانم؟

أيقنت بكذبه، لم تشك فى أنه رأى الهانم فى الدوكار وهو ماض بها إلى الميدان. ولكنها أجابت بأدب:

ـ خرجت فى مشوار.

فتردد مليا ثم قال:

ـ أنتظر؟ كلا، يجب أن أرجع الآن إلى الدكان، أليس كذلك؟

فقالت بحسم ودون مبالاة بالمجاملة:

ـ مع السلامة يا سيدى!

ولكنه لم يكن ينوى الذهاب. تسمر تحت وطأة قوة طاغية. واقترب ببصر زائغ يشى برغبة جنونية جامحة. تراجعت مقطبة. اقترب أكثر فقالت بحدة:

ـ لا..

فتمتم فى هلوسة:

ـ زهيرة!

فهتفت:

ـ سأذهب إن لم تذهب أنت!

ـ حلمك،.. إنى.. إنى أحبك..

فقالت بحزم:

ـ لست ساقطة!

ـ معاذ الله.. إنى أحبك..

واضطر إلى التراجع خوفا من شبح رئيفة، فقال وهو يمضى:

ـ كيف أتزوج من امرأة متزوجة!

٢٤

عاشت فى دوامة من التمرد والتحفز. على الحياة أن تغير وجهها. القوة كفيلة بأن تغير أبعاد الكون. كل دقيقة تمر بلا تغيير انتصار للذل والتعاسة.

ولكن كيف تخوض المعركة؟ وانتهزت فرصة صداع ألم برئيفة هانم فتطوعت قائلة:

ـ سأبيت معك يا ست هانم..

فتساءلت رئيفة:

ـ وزوجك؟

ـ لن يقتله الرعب إذا بات وحده!

وعندما مضت ساعتان على موعد رجوعها جاء عبد ربه مستطلعا فقابلته وقالت له:

ـ الهانم مريضة..

فسكت الرجل لا يدرى ماذا يقول، ثم تساءل بمرارة:

ـ أما كان يجب أن تخبرينى؟

فقالت بعجلة وضيق:

ـ الهانم مريضة، ألا تريد أن تفهم؟!

٢٥

لدى رجوعها إلى البدروم فى مساء اليوم التالى أدرك عبد ربه أن الهانم كانت متوعكة توعكا خفيفا لا يقتضى البيات خارج المسكن. واجتاحه الغضب فقال:

ـ الهانم ليست فى حاجة إليك، فالدار ملأى بالجوارى..

فغضبت أيضا إذ كانت تتمنى الغضب بأى سبيل وتساءلت:

ـ أهذا جزاء الإحسان؟!

فقال بحزم:

ـ أخلاقك تسوء يوما بعد يوم وقد قررت ألا تعودى إلى الدار..

ـ يا للعار!

فصاح:

ـ ملعونة الدار وصاحبتها!

فصاحت بدورها:

ـ أنا لا أنكر الجميل..

فلطمها على وجهها وغادر البدروم.

جنت زهيرة بالغضب. انفجر الحنق المكتوم. صكت الحجرة بنظرة رفض نهائية. استغرقتها اللطمة فتضخمت واستفحلت وانداحت فى وجدانها حتى قتلت حواسها. وانهالت بقبضتها على الفراش دون مبالاة بصراخ جلال.

وغادرت البدروم قاذفة بالماضى فى أحضان الفناء.

٢٦

عجبت رئيفة هانم لعودة زهيرة السريعة عقب ذهابها بساعة واحدة، ولكن الفتاة سألتها:

ـ هل تتسع دارك يا ست هانم لإيوائى؟

ـ لم كفى الله الشر؟

فقالت بمسكنة:

ـ لن تطيب الحياة بعد الآن مع الرجل..

وهزت الهانم رأسها مستطلعة، فقالت زهيرة:

ـ يريد أن يمنعنى من خدمتك!

فقالت رئيفة بامتعاض:

ـ الناكر للجميل..

ـ وانهال علىّ ضربا..

ـ يا له من وحش لا يدرى أى كنز يحوز!

وتفكرت الهانم قليلا، ثم قالت:

ـ ولكنى لا أحب تخريب البيوت..

فقالت زهيرة بإصرار:

ـ إنى راضية عما أفعل..

فقالت رئيفة باسمة:

ـ الدار دارك يا زهيرة!

٢٧

تلعثم عبد ربه الفران بالخجل تحت نظرات رئيفة هانم. غمغم مستغفرا ولكنه ركز على هدفه بإصرار ورجولة. قال:

ـ ماذا تعنى لطمة؟ ليست بعاهة مستديمة!

فقالت الهانم باستياء :

ـ إنك مخطئ وجهول . .

فتمتم بأدب وتصميم :

ـ عليها أن ترجع معى الآن . .

فقالت رئيفة بحدة :

ـ عندما تعرف قيمتها لا قبل ذلك .

وانتزع قدميه من موقفه وقد احمرَّت الدنيا فى عينيه .

٢٨

جلس عبد ربه فى الخمارة يعب من القرعة ويجفف شاربه بكم جلبابه الأزرق ، لا حديث له إلا زهيرة . قال :

ـ هربت ومعها الولد .

فقال أحد السكارى :

ـ أنت خرع . .

فهتف محتجا :

ـ رئيفة هانم تشجعها !

فقال له الخمار سنقر الشمام :

ـ تصرف كرجل .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ طلقها !

فتقلص وجهه وقال :

ـ أحقر شعرة فى جسدى تستطيع أن تقتل امرأة .

فقهقه نوح الغراب الفتوة وصفعه على قفاه مداعبا وهو يقول :

ـ يا عنترة !

فباخ غضبه وقال بخشوع :

ـ من معلمى الأكبر تجىء المشورة . .

فقال نوح الغراب وقد احمرّت عيناه بالخمر والسطل :
ـ دسها بقدمك حتى تصير خرقة بالية . .
أما جبريل الفقى شيخ الحارة فقال :
ـ فى الطلاق راحة للبال .
فقال نوح الغراب :
ـ الطلاق فى مثل هذه الحال عجز .
وراح عبد ربه الفران يتساءل :
ـ من قال إن الزواج نصف الدين؟ ألا إنه نصف الكفر !

٢٩

مضى عبد ربه مترنحا فى الظلام حتى وقف تحت دار رئيفة هانم . جاش صدره بالخمار والغضب . تصارعت فى قلبه المحتقن تقاليد الرجولة وهمسات الحب المستبدة . وبصوت غليظ متحشرج صاح :
ـ انزلى يا بنت يا زهيرة . .
وجعل يخور وهو يترنح ، ثم يعاود الصياح :
ـ معى نار الفرن وشياطين القبو . .
وفتحت نافذة فأطل منها الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية وتساءل بغضب :
ـ من المجنون؟
ـ أنا عبد ربه الفران .
ـ انجر يا سكران يا رجيم .
ـ أريد زوجتى والشرع معى !
ـ كفاك عربدة وتهجما على دار الطيبين !
ـ من ينصفنى إذن إلا إبليس؟
فصاح به :
ـ عليك اللعنة . .
انقض على باب الدار وجعل يضربها بقبضته حتى لحق به جبريل الفص شيخ الحارة فشده من ذراعيه وهو يقول :
ـ اخرس يا مجنون ، سر معى ، سأكون شفيعك لدى الهانم !

٣٠

وجد جبريل الفص رئيفة هانم غاضبة ثائرة. أصبحت المعركة بينها وبين عبده الفران بعد أن كانت بين زهيرة وبينه. قالت بحدة:

ـ الفران الحقير!

فقال شيخ الحارة:

ـ ما هو إلا خادمك..

ـ ألم تشهد وقاحته؟ أأسلمها له لينتقم منها؟

ـ أعتقد أنه يحبها يا ست هانم!

ـ الحيوان لا يعرف الحب..

فتساءل جبريل الفص:

ـ وإذا طلبها لبيت الطاعة؟

فقالت بإصرار:

ـ لن تضيق بى الحيل!

٣١

استدعى نوح الغراب عبد ربه الفران إلى مجلسه بالمقهى. نظر إليه مليا ثم قال بنبرة آمرة:

ـ طلق المرأة!

فذهل عبده الفران. اجتاحه اليأس. أدرك أن رئيفة هانم عرفت كيف تنتقم.. واستثقل الفتوة صمته فهتف:

ـ فقدت النطق؟

فقال بخشوع:

ـ ألم تقل يا سيد الناس إن الطلاق فى مثل حالتى عجز؟

فقال بسخرية :

ـ وإنك لعاجز !

ـ الشرع معى يا سيد الناس !

فقال الفتوة بنبرة قاطعة :

ـ طلق يا عبد ربه .

٣٢

وقع الطلاق . سيق عبد ربه إليه كما يساق المحكوم عليه إلى المشنقة . انتهى الحلم وضاعت الجوهرة . . وثملت زهيرة بنشوة الانتصار وبهجة الحرية . فى الوقت نفسه وجدت نبضة أسى فى الأعماق أسفا على حرارة ستفقدها إلى الأبد . وضمت جلالا إلى صدرها فتبدى لها ثمرة لحب لا يستهان به . وسرعان ما طالبها طموحها بالتعويض الكامل . وتجلت لها شخصيتها فى صورة واضحة قاسية مجللة بالسمو والألم .

وقالت لها رئيفة هانم بمباهاة :

ـ هذه إرادتى إذا صممت !

أجل . إنها امرأة قوية رفيعة الشأن . غير أنها لم تنفذ مشيئتها إلا باللجوء إلى الفتوة . الفتونة حلم الخيال الأبدى . حسرة آل الناجى المهلكة ، ذروة الحياة المتلفعة بأضواء النجوم .

٣٣

وابتسمت مشجعة !

ها هو ذا محمد أنور تاجر البطارخ يقول لها :

ـ مباركة عليك الحرية والكرامة .

وينتهز فرصة ذهاب رئيفة هانم لشأن من شئونها فيهمس :

ـ إنى وقلبى فى الانتظار .

وتشع عيناه ببريق الرغبة فيواصل ابتهاله :

ـ على سنة الله ورسوله!

ترى بأى عين ينظر إليها؟ عين تاجر إلى خادمة؟ الحق أنه لم يملأ عينيها قط. طالما رأته هشا وذليلا. ولكنه قادر على أن يجعل منها هائما من نوع ما، هل يمكن أن تطمع فى خير منه؟

وابتسمت له مشجعة.

٣٤

سكر عبد ربه تماما حتى مادت به أرض البوظة الثابتة.. وسأل سنقر الشمام:

ـ هل يعيب الرجل أن يبكى؟

فضحك الخمار قائلا:

ـ إذا كان فى حجم البغل مثلك..

فحمل عبد ربه القرعة بين يديه وجعل يميل بها يمنة ويسرة كأنما يرقص وراح يقول:

ـ تلاش يا عبد ربه، اندفن فى الظلام، حتى تراب الحارة أقوى منك، هل جربت قوتك إلا مع العجين وأنت تدفع به داخل الفرن؟ الله يرحمك يا عبد ربه!

ـ ماذا جرى لعقلك؟

ـ طلق، طلقت، بكلمة انتهيت، حتى القملة تقاوم، يا فرحة العدا فيك يا عبد ربه..

فقال له سنقر محذرا:

ـ إطاعة الفتوة شرف!

فانذعر عبد ربه رغم سكره وتمتم:

ـ الحمد لله..

ثم وهو يتنهد:

ـ وقوة أخرى تطحننى!

ـ ما هى؟

ـ حب الملعونة بنت الملعونة!

فضحك سنقر وقال:

ـ هذا ما يعيب الرجل حقًّا!

فغنى عبد ربه بصوت مثل النهيق:

عجايب والله عجايب

فقال له سنقر الشمام :

ـ اشتغل بالغناء فالمغنون فيما يبدو خائبون مثلك فى الحب . .

٣٥

رجع عبد ربه يحمل الأرغفة إلى دار رئيفة هانم بعد أن تشفع له أكثر من رجل طيب . وذات مرة سألها بخشوع :

ـ لعلك عنى راضية؟

فقالت له ببرود :

ـ ما فات مات!

فتردد قليلا ثم قال بضراعة :

ـ دعينى أنفرد بها دقيقة .

فرمقته بحذر ثم قالت :

ـ كلا .

ـ أكلمها إذا أذنت فى حضرتك .

وتفكرت قليلا ثم نادت زهيرة فجاءت فى جلباب كحلى كوردة نضرة . ترامقا مليا فلم ترمش أو تغض بصرها . بدت غريبة بعيدة باردة . صورة متناقضة تماما مع صراع ناشب فى الأعماق . قال عبد ربه :

ـ قلبى أبيض ، لننس ما فات . .

فلم تنبس بكلمة فقال :

ـ ندمت على ما كان منى . .

فواصلت الصمت حتى قالت رئيفة هانم :

ـ تكلمى يا زهيرة .

فقال عبد ربه متشجعا :

ـ رغبتى أن أردك والعشرة لا تهون . .

فتمتمت زهيرة :

ـ لا . .

ـ العشرة لا تهون ولا تنسى ، وكانت لنا أيامنا الحلوة!

فغضت بصرها لأول مرة وقالت بحزم :

ـ لا أنت لى ولا أنا لك!

٣٦

تسلل محمد أنور إلى الدار فى غيبة الهانم . قابل زهيرة بلهفة وهو يقول :

ـ ليس من حقى الحضور . ولكنى أجازف من أجلك بكل شىء ، اتبعينى فى الحال لنعقد زواجنا!

فتساءلت فى كبرياء :

ـ من ضمن لك موافقتى؟

فقال بذل :

ـ إنى أحبك يا زهيرة .

ـ ولم تدعونى إلى الهرب كأنى لصة؟

فتنهد وهو يقول :

ـ لا فائدة ، لا تريد الهانم أن توافق أبدا!

فسألته بدهشة :

ـ فاتحتها فى الموضوع؟!

فحنى رأسه فى غم وقال :

ـ عنيدة ومتكبرة!

تلقت طعنة فى صميمها فقالت بزهو :

ـ إنى من آل الناجى!

ـ عنيدة ومتكبرة ، أمرتنى أن أنقطع عن زيارتها أنا الذى ولدت فى هذه الدار . .

واجتاحها الغضب فقالت له :

ـ سأتبعك فى الحال .

٣٧

زفت زهيرة إلى المعلم محمد أنور تاجر البطارخ. غضبت رئيفة ورمتها بالخيانة والخبث. دهشت الحارة وجعلت من الزيجة حديثها فتردد كثيرا ذكر الحظ السعيد وليلة القدر وعجائب الحب. وحملت معها جلالا فرحب به الرجل، وعد نفسه أسعد خلق الله.

وجدت زهيرة نفسها ـ لأول مرة ـ ست بيت. ها هى ذى تملك شقة متعددة الغرف، ثمينة الأثاث، فيها الحمام والمطبخ، وبها خزان يملؤه السقاء كل يوم. وملكت أيضا الفساتين والملاءات القريشة وعرائس البراقع الذهبية.

وباتت فى عنقها قلادة، فى أذنيها قرط، فى ساعديها أساور ذهبية، فى ساقها خلخال من فضة.

وحفلت سفرتها بالأطعمة اللذيذة، لا تكاد تقل نفاسة عن أطعمة دار عزيز أو دار رئيفة، وهى صاحبته كما هى طاهيته.

وما إن مضى الشهر الأول حتى قررت أن تحطم القضبان، فهى تخرج لزيارة أمها أو جارة أو زيارة الحسين. ورآها الناس فى زيها الجديد فهتفت أعماقهم سبحان الله الخلاق العظيم.

٣٨

سعد محمد أنور بزهيرة سعادة تفوق الخيال. لم يقتصد فى إعلان حبه وإعجابه وتعلقه الجنونى بها، وتدليله غير المحدود لها. ومن بادئ الأمر لم يرتح لخروجها وعرضها فتنتها الباهرة على الأعين. وأفضى إليها بملاحظاته فى رقة بالغة، ولكنه كدر صفوها، فسرعان ما تراجع وهو يبالغ فى ملاطفتها. اكتشف أنه يتحمل أى مكروه إلا أن يغضبها أو يحرم من رضاها ومرحها. وأدرك أنه ضعيف حيالها، مستهتر بالوصايا التقليدية، ولكنه استسلم لتيار لا قبل لقلبه بمقاومته. عرف نفسه تماما، عرف أنه أسير الحب ولعبته.

وثمة شعور عميق وضح له مثل صورة حيوان خرافى، وهو أنه لم يملك معبودته

بعد، لعله لا يستطيع أن يملكها، لعلها تستعصى على أن تمتلك، إنه شعور مهزوم ذو وجه أصفر، يتعلل بالعلل، ويستنجد بالأوهام، ويغطى مرارته بالعطايا وحلو الكلم. إنه عبد الحب لا نده ولا سيده، وزنه فى يده لا فى قلبه أو جسده، تستوى لديه حمرة الشروق وحمرة الشفق. إذن فليتوار وراء الرقة والعذوبة ليحظى ببسمة الثغر الوردى، ونظرة العين الساجية، ورشاقة الجيد وهو يتمايل فى رضا.

٣٩

وزارت يوما ولية نعمتها عزيزة هانم، فقبلت يدها وقالت:

ـ دفعت بى ظروف إلى دار أخرى ولكن قلبى لم يتحول.

وصفا قلب عزيزة بالكلمة الطيبة. لثمت خدها وأجلستها إلى جانبها فعاملتها كند لها. امتلأت بنفحة سعادة وخيلاء. شربا القرفة وأكلت طبق على لوز بالمكسرات. وسألتها عزيزة عن حالها وزوجها وجلال ابنها. وجاءت ألفت هانم فرحبت بها. وقالت لها عزيزة:

ـ هذا ما يستحقه جمالك والجمال سيد الأكوان.

فقالت زهيرة:

ـ بل دعاؤك وعطفك يا سيدة النساء.

٤٠

وعقب محمد أنور على الزيارة متسائلا:

ـ ورئيفة هانم ألا تزورينها أيضا؟

فقالت بغصة:

ـ المتكبرة! عليها اللعنة.

ـ سيجن جنونها!

ـ فليجن جنونها.

فساوره القلق وتمتم:

ـ لا حد لشرها!

فتساءلت وهى تسبل جفنها على نظرة ماكرة:

ـ ألست رجلا؟

فتقلص قلبه وصمت.

٤١

وذات أصيل شهدت الحارة منظراً لا ينسى.

كانت زهيرة سائرة تخطر فى ملاءتها الفاخرة عندما وقف دوكار رئيفة هانم على كثب منها. وأطل رأس الهانم، وسمع صوتها وهى تقول بنبرة عتاب لا تخلو من مسحة من مودة:

ـ زهيرة!

فالتفتت زهيرة مرتبكة فقالت الأخرى:

ـ يا خائنة!

لم تملك إلا أن تقترب مادة يدها على مرأى ومسمع من كثيرين بينهم جبريل الفص وخليل الدهشان وعبد ربه الفران. وقالت رئيفة:

ـ متى تزورينني؟

فأجابت زهيرة وهى تزداد ارتباكا:

ـ فى أقرب فرصة يا هانم، ما منعنى إلا..

وغمغمت فى حيرة فقالت رئيفة بنبرة عدوانية قاسية متحدية مباغتة:

ـ يسعدنى أن أرحب بخادمتى المخلصة..

وسرعان ما اشتعل الغضب بقلب زهيرة فهتفت:

ـ إنى هانم مثلك!

واندفعت فى طريقها، وقد أعماها الانفعال..

٤٢

وكان عبد ربه الفران يسكر فى البوظة ورياح أمشير تزمجر فى الخارج. وإذا به يقول:
ـ حلمت أمس حلما عجيبا . .
ولما لم يسأله أحد عما رأى واصل حديثه:
ـ رأيت الخماسين تهب فى غير أوانها . .
فقال الخمار سنقر الشمام ضاحكا:
ـ حلم من صنع الشيطان . .
ـ اقتلعت الأبواب، أمطرت التراب، طيرت عربات اليد، أطاحت بالعمم واللاثات . .
ـ وماذا صنعت بك أنت؟
ـ تركتنى أرقص فوق جواد أصيل . .
فقال له سنقر:
ـ أحكم الغطاء فوق دبرك قبل النوم!

٤٣

شعر محمد أنور بالخوف يزحف نحوه. أشباح الأخطار تتراقص فى أركان دنياه الضيقة. هل يحيق به مصير مثل الذى حاق بعبد ربه الفران؟ وجعل يختلس النظرات من وجه زهيرة ويستجمع همته. قال لها:
ـ إنك حبلى يا زهيرة فى الشهر الرابع فيحسن بك أن تستقرى فى بيتك . .
فقالت باستهانة:
ـ لم أشعر بالعجز بعد!
فراح يداعب جلالا بحنو ليخفف من وقع كلامه وقال:
ـ لقد تحديت قوة لا يستهان بها، فمن الحكمة أن ننطوى على أنفسنا . .
فقالت ببرود:
ـ كأنك خائف!

فقال مداريا استياءه :

ـ بل أرغب فى توفير السعادة لبيتنا!

ـ إنى أمارس حرية مشروعة .

فقال بوضوح أكثر :

ـ الحق أنى غير مرتاح لذلك .

فتفكرت قليلا ثم قالت :

ـ الحق أنى لا أطيق ما تدعوننى إليه .

فقال بإشفاق :

ـ ولكنى زوجك .

ـ أيعنى هذا أن تدوسنى بقدمك؟

ـ معاذ الله ، ولكنى ذو حق غير منكور .

فعبس وجهها حتى اكفهر جماله وقالت بحدة :

ـ لا . .

فتردد بين الصمت والعناد ، ثم آنس منها ازدراء أثاره ، فقال بغضب :

ـ إنى ذو حق . .

فقالت باستهانة :

ـ لا توجع رأسى بحقك . .

فغلبه الغضب أكثر وقال بحدة غير معهودة :

ـ لى حق الطاعة . .

فحدجته بدهشة ضاعفت من غضبه فعاد يقول :

ـ حق الطاعة الكاملة!

فطفح وجهها بالرفض والصلابة وفسد الجو أيما فساد .

٤٤

استمد محمد أنور من يأسه شجاعة . وكان فى صميمه مشفقا من فقدها .

لذلك ما كاد يراها ـ من دكانه ـ خارجة إلى طريقها حتى فقد رصانته فاعترض سبيلها وقال لها بحزم :

ـ ارجعى إلى البيت!

فذهلت وهمست له:

ـ لا تثر فضيحة..

فقال بعناد:

ـ ارجعى إلى البيت.

ولمحت الأعين تزحف نحوها مثل الأفاعى فاضطرت إلى الرجوع وهى تغلى.

٤٥

فى المساء، وعند ذهابه إلى بيته، وجد محمد أنور عاصفة فى انتظاره. كان يتوقعها تماما. وكان أبغض شىء إلى قلبه أن يتمادى فى الغضب، أن يفسد الجو، أن يطمس الجمال المعبود بالسخط. وأبدى استعداده لأى تنازلات تحت شرط الإذعان لرغبته المشروعة. قال لها:

ـ لا تتصورى أنى أسعد بإهانتك، ما أريد إلا المحافظة على سعادتنا..

ولكنها بدت مثل هبة من غبار. اصفرَّ الوجه وانقلبت السحنة وتطاير من العينين شرر.. تجسد الغيظ مقتا أسود، وطفرت الكبرياء حية متوثبة. وقال لنفسه: «أعوذ بالله من هذا الشر، أعوذ بالله من هذا القلب، ألا يشفع لى ما صنعت منك؟».

٤٦

ووجدت زهيرة نفسها فى سعير. إنها تأبى أن تنهزم. ولا تنسى موقفها الأليم بين يديه فى الحارة. وهى لا تحبه ولم تحبه قط. ولكن كيف تتصرف؟ وأين تذهب؟ فى مثل حالها تذهب الزوجة إلى أهلها وهى لا أهل لها. فإما سيدة فى ذلة وإما هائمة على وجهها.. تتربص بها الشماتة فى أكثر من دار وفى بدروم عبد ربه أيضا.

وتذكرت سيدها الأول المعلم عزيز سماحة الناجى، وجيه الحارة، وصديق زوجها. سيعلم الزوج أنها ليست مقطوعة من شجرة على الأقل.

وتسللت إلى محل الغلال ورذاذ يتساقط فبلَّ ملاءتها ووجنتيها. اقتحمت عليه

حجرة الإدارة. وجدته وحده، مجللا بوقاره الجميل وقد وخط المشيب ـ متعجلا بعض الشيء ـ شاربه. عرفها من أول نظرة. عرفها رغم البرقع. لم يكن فى حاجة إلى تذكر هاتين العينين الساحرتين المطلتين حول العروس الذهبية. خُيّل إليه أنه القدر يقتحم حصنه.

تهادت إلى أذنيه نبرتها الناعمة وهى تقول:

ـ لم أجد سواك ملجأ لحيرتى.

فتساءل وهو يضبط عواطفه المتضاربة:

ـ ما الحيرة كفى الله الشر؟

ـ زوجى!

ـ إنه رجل طيب فيما أعلم.

ـ ولكن معاملته ساءت جدّا فى الأيام الأخيرة..

ـ بلا سبب؟

ـ يرغب فى إذلالى.

وقصت عليه موقفه فى الحارة فتفكر عزيز قليلا، ثم قال:

ـ التصرف بعيد عن الحكمة، ولكن حقه المشروع لا جدال فيه.

فقالت بحرارة:

ـ لا يفرض السجن على امرأة فى حارتنا.

فتبسم المعلم عزيز وقال لها:

ـ سأتحدث عنك باعتبارك من آل الناجى ولكن عليك أن ترضى بالمعقول..

٤٧

شفاعة المعلم عزيز لم تحقق لها إلا ما هو دون القليل. لم يعد أمامها إلا الإذعان ولو إلى حين. إنها تذعن وتضمر السوء معا. غير أن لقاء المعلم عزيز أسفر عن أشياء لم تجر لها فى خاطر من قبل. أشياء مثيرة جنونية رائعة الجمال. أشياء قذفت بها إلى دنيا مغمورة بالأحلام. قالت لنفسها إن المعلم عزيز معجب بها. بل أكثر من ذلك. لقد أدلت عيناه باعترافات فاتنة فمتى بدأ ذلك؟ حقّا ما من رجل رآها إلا وفتن، ولكن هل المعلم عزيز مثل سائر الرجال؟ ثم إنه متزوج وهى متزوجة. وهو كهل أيضا ومثال للنبل وحسن

السمعة. مثله لا يمد الطرف إلى امرأة متزوجة. متزوجة من صديق. وما أزهدها هى فى علاقة غير مشروعة! ما فائدتها؟ إنها تطمح إلى اكتساب حق. فى سبيل ذلك وطئت قلبها بلا رحمة. فى سبيل ذلك تحس أحيانا بجيشان الجنون السامى فى قدح من الخمر المقدسة. وتراءى لها عزيز سماحة الناجى فى هالة حلم وردى لم تدر كيف يمكن أن يتجسد لها فى عالم الحقيقة. هل يمكن ذات يوم سحرى أن تصبح ضرة لألفت هانم، وشبه ابنة شرعية لعزيزة هانم؟ هل يمكن أن تتسلطن يوما فى دار فاخرة وتستقل بالدوكار ذى الجرس الرنان؟

وتضاءل محمد أنور حتى انقلب ذرة من سخام متطايرة فوق أديم طريق طويل ليس له نهاية.

٤٨

وعندما وفدت الفلاحات يبشرن بالفيضان ويبعن البلح كانت زهيرة تعانى ولادة عسيرة أنجبت فى أعقابها راضى الابن الثانى لها.

وسعد به محمد أنور سعادة خففت عنه ويلات الهموم والقلق، وأمل أن يكون فاتحة عهد جديد من زوجية حكيمة موفقة.

وكانت أم هشام الداية تعودها يوما بعد يوم حتى اجتازت العناء بالسلامة. وفى آخر زيارة همست فى أذنها:

ـ عندى لك رسالة..

فرمقتها زهيرة بنظرة متسائلة، فقالت العجوز:

ـ رسالة من السماء!

فجرى خاطرها إلى عزيز وتساءلت:

ـ ماذا عندك يا أم هشام؟

فقالت ووجهها يكتسى بقناع الإثم الشاحب:

ـ رسالة من نوح الغراب فتوة حارتنا..

دق قلبها بالمفاجأة. توقعت شهابا من الشرق فمرق شهاب من الغرب. تمالكت أعصابها وقالت:

ـ ألا ترين أنى زوجة وأم؟!

فقالت العجوز:

ـ ما يمر يوم إلا ونرى الشمس وهى تشرق ثم نراها وهى تغرب، وما على الرسول إلا البلاغ.

٤٩

سرعان ما تقهقر محمد أنور. تخلى عن صلابته الطارئة الزائفة فآوى إلى ضعفه الفطرى. لشد ما آمن بأن زهيرة جوهرة، بلا قلب، وأنها تفلت من قبضته مثل الهواء. غير أنه لم يتصور الحياة بدونها. هى روح الحياة وعادتها المسيطرة. وهى شديدة الخطورة لا يؤمن لها جانب. وهل ينسى ما حاق بعبد ربه الفران؟ لا ثقة له فيها، وكلما تزعزعت ثقته نزع أكثر إلى الالتصاق بها والاستحواذ عليها بأى ثمن. وفشله فى ذلك يعنى فشله فى الحياة كلها. فى الدنيا والآخرة معا. وسوف يظل الخصام بينها وبين رئيفة مصدر إزعاج له على طول المدى. إنه يعى تماما أنه أتعس الناس، وأن عليه ألا يضن بتضحية.

ها هو ذا مجلس المساء يضمهما معا. هى ترضع راضى فوق ديوان، هو يدخن البورى، جلال يلاعب قطة. الحق أنه لم يعد يطيق جلالا. طالما عطف عليه وأحبه فى الماضى، ولكن ما إن جاء راضى حتى مقته وتمنى زواله من الوجود، غير أن معاملته له لم تتغير، ظل يغمره بأبوة باسمة كاذبة، يضيف بها إلى أشجانه عناء جديدا.

وقال لزهيرة وهو يعتقد أنه يفعل المستحيل لاسترضائها وامتلاكها:

ـ عندى لك مفاجأة سارة.

فنظرت نحوه بفتور فقال:

ـ هدية السلامة!

فابتسمت فواصل:

ـ عقد شراء صورى تصبحين به مالكة لبيتى!

تورد وجهها وقالت بحبور:

ـ يا لك من رجل كريم!

إنه بيت من ثلاثة طوابق وأسفله دكان الفول. وسعد الرجل بفرحتها فاسترد بعض طمأنينته. وأسعدها حقّا أن تصبح مالكة. ومن أعماقها شكرته. وشكرته أيضا لاعترافه الضمنى بقوتها وندمه على تحديها. ولم يخل وجدانها من ازدراء له. ولم يوقف ذلك انشغالها الدائم بعزيز ونوح الغراب. عزيز الغنى ونوح القوى. وعزيز ذو قوة أيضا كما أن نوحا ذو ثروة تتزايد مع الأيام. عزيز له زوجة ونوح له أربع وقطيع من العيال. لا غنى

عن القوة، ولا غنى عن المال. المال يخلق القوة والقوة تخلق المال. ترى كيف تسير الأمور؟ إنها تؤمن بأنها لم تكد تبدأ بعد.. وهى تفكر فى ذلك كله وهى قريبة من أنفاس محمد المترددة.

٥٠

قرر محمد أنور أن يحصن سعادته بنوح الغراب. زاره فى داره وجلس بين يديه فى بهو الضيوف كما يجلس الغلام بين يدى شيخ الكُتَّاب. ودون أن ينبس قدم له صرة موحية، تناولها الفتوة، مضى يعد ما فيها، ثم قال:

ـ لقد أديت الإتاوة، فلم هذا القدر الجسيم؟

فقال محمد أنور:

ـ أريد أن أستظل بحمايتك.

ـ لك أعداء؟

ـ وقاية من القدر!

فأعاد إليه الصرة بلا اكتراث وابتسم. خفق قلب محمد بانزعاج غير متوقع فاتسعت عيناه فى ارتياب وجزع. وتمتم نوح الغراب:

ـ سبق القدر!

يا للويل!! هل لعبت رئيفة لعبتها؟ هكذا تصور لأنه لم يخطر له ببال أن نوح الغراب يعمل لحسابه الشخصى. وقال نوح الغراب:

ـ كنت على وشك أن أرسل فى طلبك..

فقال محمد أنور بريق جاف:

ـ ما الخبر يا معلم؟

فقال بهدوء مقيت:

ـ لأنصحك بتطليق زوجتك!

غاص قلبه فى صدره وشعر بالموت. تساءل مذهولا:

ـ أطلق؟ لا يوجد فى حياتى ما يتطلب ذلك!

فقال له بنبرة قاطعة:

ـ طلق زوجتك!

٥١

غادر محمد أنور دار نوح الغراب وهو فاقد لحواسه الخمس. هل جاء دوره ليعامل كما عومل عبد ربه الفران؟ هل كابد تاجر محترم معاملة مثل هذه من قبل؟ هل تهون عليه حياته وسعادته وكرامته كأنها لا شيء؟!

واجتاحه غضب يائس عصف بتردده ونثره فى الهواء.

جنَّ محمد أنور تماما:

أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فى الحارة.

٥٢

ذهب جبريل الفص شيخ الحارة إلى الفتوة نوح الغراب فى مجلسه بالقهوة فحيّاه وقال:

ـ حضرة فؤاد عبد التواب مأمور القسم يطلب مقابلتك.

عجب الفتوة وتساءل مقطبا:

ـ لماذا؟

ـ لا علم لى يا معلم، وما على الرسول إلا البلاغ.

فتساءل بتحد:

ـ وإذا رفضت؟

فقال شيخ الحارة بملاينة:

ـ لعله يريدك لتقديم خدمة للأمن العام يا معلم ولا موجب للتحدى بلا ضرورة!

فهز الفتوة منكبيه استهانة وصمت.

٥٣

استقبل المأمور فؤاد عبد التواب الفتوة نوح الغراب بترحيب. جلس الفتوة أمام مكتب المأمور متحليا بابتسامة لطيفة وروائح الجلد تفغم أنفه. قال:

ـ يسعدنى ورب الحسين أن أقابل المأمور.

ابتسم المأمور. كان بدينا، متوسط القامة، كث الشارب، حسن الملامح. قال:

ـ يسرنى أن أقابلك يا معلم، الفتوة فى الواقع من رجال الأمن!

ـ تشكر يا حضرة المأمور.

ـ والفتوة هو فارس الحارة وحاميها أيضا، هو المروءة والشهامة، يد الشرطة وعينها فى مجاله، هكذا تقدركم الداخلية..

فكرر وقلقه يتكاثف:

ـ تشكر يا حضرة المأمور.

فقال بحزم يتناقض مع مجاملاته:

ـ لذلك أتوقع أن يجد المعلم محمد أنور الأمن فى كنفك.

فاحمرَّ وجه الرجل وتساءل:

ـ هل شكانى إليك؟

ـ لى وسائلى فى معرفة الأخبار، وهبه لجأ إلىَّ فهذا من حقه، ومن واجبى أن أوفر له الأمن، ولكنى أقنع بمطالبتك بذلك!

وفصل بينهما صمت. أدرك أن المأمور يحذره وينذره بأسلوب لطيف. ولما طال الصمت سأله المأمور:

ـ ما قولك؟

فقال نوح الغراب بهدوء مريب:

ـ نحن أول من يحترم القانون.

فقال المأمور بحزم:

ـ أعتبرك مسئولا عنه!

٥٤

لم يحدث شيء كهذا من قبل فى الحارة. لم يكن يدخلها شرطى إلا عند الضرورة القصوى، وجرائم الفتوة كافة تنسب عادة إلى مجهول حيال تصميم شهود الزور. فهل يفعل المأمور فؤاد عبد التواب ما لم يفعله غيره إذا عثر على جثة محمد أنور تحت القبو أو فى الممر؟ وكيف واتت الجرأة محمد أنور على الاستغاثة بالمأمور؟ وكيف قبل المأمور أن يتحدى نوح الغراب بأسلوبه اللزج؟ وبدا لأول مرة أن مأمورا يضع نفسه فى كفة ميزان واحد مع فتوة مخاطرا بهيبته المزركشة!

ولكن ثمة جانبا مجهولا خفى على الناس هو شخصية فؤاد عبد التواب. كان رجلا شجاعا وعنيدا. وقد عرف فى ريف الصعيد قبل نقله إلى القاهرة بالسفاح! ولولا تقاليد الداخلية نفسها فى سياستها المرسومة مع الفتوات، لأقدم بدافع ذاته الجريئة على تصفية الفتونة من الحارات كلها.

لذلك ما كاد يبلغه أن محمد أنور لم يستشعر الأمان المنشود حتى قام بمظاهرة حاسمة ألجمت الألسنة وهزت جذور القلوب. ما تدرى الحارة ذات يوم إلا والمأمور يغزوها على رأس قوة مسلحة! ترامت نداءات عسكرية جاذبة للأسماع والأنظار، ثم تراءى جبريل الفص وهو يتقدم بين ثلة من المخبرين، يتبعه ضابط القسم، فالمأمور فى حلته الرسمية، وأخيرا طابور ضخم من الجنود المدججين بالسلاح. سار الموكب فى تؤدة وحزم حتى اخترق القبو إلى الساحة، وهناك قام بتكوينات عسكرية مدمدمة ثم رجع على مهل وقد اصطف الناس على الجانبين كأنهم فى يوم المحمل. لم يأبه المأمور بالنظر نحو الناس ولكن عينيه كانتا تتسللان أحيانا إلى النوافذ المكتظة بوجوه النساء. وعلى مبعدة يسيرة من السبيل اقترب شيخ الحارة من المأمور ولفت نظره إلى زهيرة فى نافذتها باعتبارها محور المعركة الدائرة. ولبث نوح الغراب فى مجلسه بالمقهى، أما محمد أنور فقد انقبض صدره فى دكانه وتوقع مزيدا من الشر لا الأمان، على حين راح عبد ربه الفران يتابع الموكب بذهول ويقول لمن حوله:

ـ سنشهد قريبا قيام القيامة!

٥٥

وأكثر من مرة لاحظت زهيرة أن المأمور فؤاد عبد التواب «يصادفها» فى السكة الجديدة وهى راجعة من زيارة الحسين. وأكثر من مرة لاحظت أنه يثقبها بنظرة حادة جامحة جائعة. وغمغمت لنفسها «حتى المأمور؟!». وبدا الميدان ساخرا وحافلا بالفتن. مثل جراب الحاوى الملىء بالفئران والقطط والثعابين. وهزها طرب الخيلاء. وتهيأ لها أنها تمتطى نسرا خرافيا ترف جناحاه بالقوة والإلهام والخلق. عزيز.. نوح الغراب.. فؤاد عبد التواب، السحر والحب وقمة المجد المكللة بالنجوم. وتتابع نبض قلبها، وعند كل نبضة تتشكل صورة براقة تخرق كل مألوف.

٥٦

واستدعى المأمور محمد أنور إلى مقابلة فى سرية مطلقة. أجلسه أمامه وقال:

ـ لقد رفعت راية القانون بقوة لم تعرفها حارة من قبل، فهل أتاك الأمان؟

فهزَّ محمد أنور رأسه فى حيرة وقال:

ـ لا أدرى.

فقال فؤاد عبد التواب بتسليم:

ـ صدقت، أنا مثلك، الحق أنى أخاف عليك..

فقال محمد أنور بقلق:

ـ لا تساوى الحياة مليما فى حارتنا!

ـ صدقت قد يقتلك أى وغد حقير، ماذا يفيدك بعد ذلك لو سحقنا الفتونة واقتلعنا جذورها؟

ـ أجل ماذا يفيدنى؟

فتساءل المأمور:

ـ هل تسمع نصيحة وإن بدت غريبة؟

ـ ما هى؟

ـ طلق زوجتك!

ذهل محمد أنور وتمتم :

ـ أنت تنصحنى بذلك؟

ـ إنه أشق على كرامتى مما هو على كرامتك، ولكنى أخاف على حياتك . .

ـ أكاد أجن يا حضرة المأمور . .

فقال المأمور بدهاء :

ـ ما هو إلا إجراء مؤقت حتى أسوى الحساب مع الطاغية . .

ـ إجراء مؤقت؟

ـ ثم يعود كل شىء إلى أصله!

تفكر محمد أنور مليا ثم قال :

ـ سأفكر فى الأمر بكل جدية .

٥٧

رجع محمد أنور إلى بيته وهو يتخبط فى اليأس . ومن جوف اليأس دهمه إلهام مباغت فقال لزهيرة :

ـ اجمعى ما خف وغلا ، سنهرب الليلة بعد أن تنام الحارة .

ذهلت زهيرة وتمتمت :

ـ نهرب؟!

ـ حتى المأمور نصحنى بأن أطلقك!

ـ المأمور؟!

ـ اعترف بعجزه عن حمايتى فلم يبق إلا الهرب . .

فطنت إلى ما وراء نصيحة المأمور ، ولكنها لم تدر كيف تتصرف مع زوجها . تساءلت بارتياع :

ـ أين نذهب؟

ـ بلاد الله واسعة ، معى مال لا بأس به ، سننشئ عملا جديدا . .

يا للشيطان! يريد أن يبدد أحلامها بضربة واحدة . كى تصبح طريدة ولكى ترتبط به

إلى الأبد، كى تئد القوة والوجود. كى تذوب فى عتمة الشقاء مثل سماحة. ومن يدرى فقد تضطر إلى العمل بيدها من جديد مثل المتسولات. ألا فليهرب الجبان وحده. فليختف من حياتها إلى الأبد.

ـ لا تضيعى الوقت . .

فقالت بفتور:

ـ بل فكر فى الأمر مرتين.

ـ فكرت مائة مرة فلم يبق إلا الهرب . .

ـ كلا . .

ـ كلا؟!

ـ إنه مستحيل . .

ـ إنه ممكن، ستعرفين ذلك قبل طلوع الفجر.

فقالت بعناد:

ـ كلا . .

فرمقها بذهول، فقالت:

ـ إنه التشرد والضياع . .

فقال بارتياب:

ـ لدى ما يكفينا . .

ـ كلا.

ـ ألا ترين أنى ها هنا مهدد بالقتل؟

ـ لقد أخطأت وأنت تعرف ذلك!

ـ ما من حيلة أخرى كانت بوسعى!

ـ وما ذنبى أنا؟

فقال بنبرة جنونية:

ـ على الزوجة أن تتبع زوجها.

فتبدت صلبة نافرة متحفزة للتملص والمقت ثم قالت:

ـ ليس فى وسعك أن تحمينى!

فضرب صدره بقبضته وهتف:

ـ أيتها الأفعى!

وبحركة غريزية تراجعت إلى النافذة فهتف:

ـ تريدين أن تلعبى لعبتك القديمة!

وقرأت الموت فى صفرة نظرته اليائسة وتكور قبضته وتصلب عوده فصرخت بأعلى صوتها مستغيثة من النافذة على حين وثب نحوها كالنمر.

٥٨

كسر الباب. تدفق إلى الداخل نوح الغراب، المعلم عزيز، وجبريل الفص شيخ الحارة. تراجع محمد أنور. سقطت زهيرة مغمى عليها. دوى صوتا جلال وراضى.

شغل الرجال بإعادتها إلى الوعى. أفاقت. اختفى محمد أنور تماما. نظر نوح الغراب إلى جبريل الفص نظرة ذات معنى، فقال شيخ الحارة بنبرة رسمية:

ـ جريمة شروع فى القتل وهرب!

فتمتم عزيز:

ـ يكفى أنه هرب..

فتساءل نوح الغراب:

ـ والجريمة؟

وقال جبريل الفص:

ـ الجريمة واضحة مثل الشمس ونحن شهودها!

وقال عزيز مخاطبا زهيرة:

ـ أدعوك إلى البيات عند أمى هذه الليلة!

٥٩

اختفى محمد أنور دون أن يطلقها. سرعان ما رجعت إلى شقتها. ثملت بادئ الأمر بشعور الحرية ثم آمنت بأنها ما زالت مشدودة إلى زوجها برباط الزوجية. رغبت بشدة فى الانطلاق، واجتاحتها نفثات الأحلام الذهبية. صممت على ألا تضيع دقيقة من حياتها. وزارت المعلم عزيز سماحة الناجى وقالت له:

ـ هرب وهو الآن يمارس انتقامه من بعيد..

أدرك عزيز ما تعنيه. وجد فيه عذوبة وسحرا. ثمل بالغبطة والأمل.

سألها:

ـ كيف تتيسر لك الحياة؟

ـ إيراد البيت يوفر لى عيشة الكفاف..

فقال برقة:

ـ لست وحيدة فثقى من ذلك..

فحنت رأسها امتنانا وقالت:

ـ الشكر لك، ولكنى أريد أن أؤمن حياة الطفلين.

فتساءل وقلبه يخفق:

ـ ماذا عندك من رأى؟

فقالت بجرأة:

ـ أطالب بالطلاق باعتباره مجرما هاربا.

هكذا انفتح أمامه باب المجهول عن مغامرة مزلزلة، فقال:

ـ علينا أن نفكر فى ذلك..

٦٠

وشغل المعلم عزيز بمتابعة محاكمة محمد أنور غيابيا وتوكيل محام للمطالبة بالطلاق، وظل قلقا معذبا بين رغبته وبين سمعته، بين قلبه وبين احترامه لألفت وصديقه محمد أنور، على حين تتابعت الأحداث من وراء ستار معلنة عن أهوائها الحارة الجنونية.

٦١

وجاء أول طارق فى الليل. فتحت الشراعة فرأت شبحا، وشمت رائحة مثيرة للحنان والتقزز. تساءلت بريبة:

ـ من فى هذه الساعة من الليل؟

فجاءها الصوت القديم قائلا:

ـ عبد ربه الفران . .

تحركت أعماقها بالرغبة والغضب معا . هربت من ضعفها متسائلة بحدة :

ـ ماذا تريد؟

فقال بنبرة مخمورة متوسلة :

ـ لنرجع إلى حياتنا .

ـ مجنون وسكران . .

ـ أنا زوجك الوحيد .

ـ اذهب وإلا ناديت الناس .

أغلقت الشراعة وهى تموج بالغضب والمقاومة . .

٦٢

تسلل إلى بابها فى نفس الليلة جبريل الفص شيخ الحارة . دخل متلفعا بالحذر والخوف ، وسرعان ما قال عقب جلوسه مباشرة :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولكن لا مفر من إبلاغ الرسالة . .

قالت وهى تخمن ما وراءه كما تخمن مخاوفه :

ـ هات ما عندك .

ـ حضرة المأمور يطلب يدك !

صدق التخمين . إنه يخشى فى الوقت نفسه أن يفطن نوح الغراب إلى دوره . ولكن ما المأمور؟ ماذا يستطيع أن يعطيها إلا اسما ومظهرا فارغين؟ ربما كان عزيز أفضل الثلاثة ولكن نوح الغراب قوة لا يمكن تجاهلها . وهو أيضا القوة الحقيقية والسيطرة غير المحدودة .

ـ ما قولك يا ست زهيرة؟

ـ هل يسكت نوح الغراب؟

ـ المأمور متكفل بأمره !

فقالت بمكر :

ـ لى طفلان ، دخلى محدود ، والمأمور متزوج وأب . .

ـ هو أدرى بطاقته . .

فترددت قليلا ثم قالت :

ـ وأنا أدرى بما أريد!

فتساءل جبريل الفص :

ـ تفضلين أن تكونى خليلة للغراب على أن تكونى حليلة لحضرة المأمور؟

فهتفت بحدة :

ـ إنى أشرف هانم فى الحارة!

٦٣

قبل أن يذهب جبريل الفص جاءت أم هشام الداية فأخفتها فى حجرة أخرى . ولما خلت إليها ، قالت العجوز :

ـ لا شىء يقف فى سبيلنا الآن . .

فقالت زهيرة :

ـ نوح الغراب على العين والرأس ولكنه متزوج من أربع!

ـ تحلين محل إحداهن!

فقالت بكبرياء حاد :

ـ زهيرة لا تكون ضرة لامرأة!

فتساءلت العجوز بدهشة :

ـ يطلق الأربع؟

فقالت بإصرار :

ـ هو حر فيما يفعل وما يشاء . .

٦٤

وطلق نوح الغراب زوجاته الأربع .

زلزلت الحارة بالخبر ، كما زلزلت به أسرات أربع ، وتردد اسم زهيرة على الألسنة كأنشودة للجبروت والقسوة . تلقى المأمور الخبر فعض على شفته ، وعلم به عزيز فذهل ولكنه انطوى على أساه فى صمت .

ومن المصادفات أن جاء خبر موت رمانة فى سجنه فى يوم الزفاف، وفى اليوم نفسه انتحرت رئيفة هانم حزنا على رمانة مشعلة النار فى نفسها!

وسارت زفة نوح الغراب فى موكب ضخم، وفى أمان من عهود الصداقة بينه وبين فتوات الحارات المجاورة. غير أنه حدثت مفاجأة فى الدراسة لم يتوقعها أحد إذ تحرش فتوة العطوف بالزفة خارقا العهد والذمة.

كيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث؟

على أى حال نشبت المعركة دامية. وسرعان ما ظهرت قوات من الشرطة كأنما كانت متربصة للحظة مناسبة.

عملت القوات على فض المعركة بلا هوادة.

وإذا برصاصة تصيب العريس فترديه قتيلا..

٦٥

اشتعلت الحارة بالخبر. شيعت فتوتها فى جنازة مهيبة. وفزعت زهيرة للخبر أيضا. فزعت أكثر مما حزنت. اغتمت لاقتران زفافها بالفجيعة. أسفت لأنها لم تستمتع بالفتونة إلا ساعات. تقوّل الحاسدون ـ وما أكثرهم ـ بأن زيجتها الجديدة صادفت مصيبتين وجرت ست مصائب. صادفت موت رمانة وانتحار رئيفة. وجرت القضاء على محمد أنور وتطليق أربع نساء ومصرع نوح الغراب. فأى شؤم يسير بين يدى هذه المرأة الجميلة التى لا يقف طموحها عند حد! اكتأبت لذلك ولكنها صرفته عن بالها بإرادة من حديد. وحسبت الثروة التى ستؤول إليها ببهجة عميقة استقرت تحت قشرة الحداد. سرعان ما أفاقت من الصدمة فغمرها الارتياح. ها هى ذى تتمتع ببعض جاه الفتونة دون أن تؤدى ثمنها لرجل لم تشعر نحوه بأى عاطفة طيبة قط. الأجدر أن تعترف بأنه قتل فى اللحظة المناسبة قبل أن ينتهك حرمة جسدها الجميل. وأنه لقى الجزاء الذى يستحقه كل طاغية قذر. وأى امتهان كان يلحق بالناجى العظيم إذا استسلمت حفيدته الرائعة لمجرم فاسد فى لباس فتوة. وقالت إنه لا ملامة عليها إلا إذا ليمت ريح أبية لاقتلاع شجرة خاوية نخرها السوس.

٦٦

وجرى همس متوتر بأن المأمور فؤاد عبد التواب يكمن وراء التدبير المحكم الذى انتهى بهلاك نوح الغراب. وأنه أزاحه من طريقه لا دفاعا عن الأمن ولكن طمعا فى الاستحواذ على زوجته الفاتنة زهيرة.

وضاعف من سوء الظن به تدخله العجيب لمنع اختيار فتوة جديد للحارة، فمضت الحياة فى الحارة بلا فتوة يضبطها لأول مرة فى حياتها الطويلة العريقة، وشعر الناس بمذلة لم يشعروا بمثلها من قبل.

وتساءل المتسائلون متى يحسر المأمور القناع ويتقدم للزواج من زهيرة؟!

٦٧

واستأذن شيخ الحارة فى مقابلتها. أدركت فى الحال ما وراء المقابلة. بدت فاترة حيال المأمور. إنها اليوم أغنى من المأمور وقسمه جميعا. عزيز سماحة الناجى لؤلؤة ثمينة صالحة لتتويج أحلامها. عيبه أنه سيد محترم نبيل ورث عن جده نبله دون قوته وجرأته. لقد عشق الجد ذات يوم امرأة يتنافس فيها ابناه فأدب الابنين وتزوج المرأة! أما عزيز فعاشق يكتم الحب، ينطوى عليه، يتجنب الخطأ، ويتوغل فى العمر. ربما كان بوسعها أن تسحره وتملكه ولكن ما جدوى ذلك وثمة رجل عنيد مجرم ـ المأمور ـ لا يرعوى عن أن يدبر لعزيز مثلما دبر لنوح الغراب؟!

آه يا نسمة الأمل المضىء الهائمة فوق السحاب!

٦٨

وقالت لجبريل الفص:

ـ ليكن معلوما أنى لا أرضى بضرة!

فقال شيخ الحارة:

ـ معروف أن زوجة المأمور تكبره مثل أم وهى غنية، فهل تسدين الفراغ؟

ـ ماذا يوجب على ذلك؟

فقال شيخ الحارة محذرا:

ـ إنه مصيبة من مصائب الزمان.

غضبت. كتمت غضبها تماما. نشط خيالها وتصلبت إرادتها. تظاهرت بالاستسلام وهى تقول:

ـ لينتظر العدة وعند الله التوفيق..

فتهلل وجه شيخ الحارة وتمتم:

ـ الحمد لله رب العالمين!

٦٩

لم تفرط فى دقيقة بلا عمل. اقتحمت حجرة المعلم عزيز مثل نسمة ثملة بالندى والعطر. أنيقة حزينة المظهر ذات نظرة فاتنة مبتهلة. لمحت تورد وجهه واختلاج عينيه وجيشانه بالانفعال، فقالت بنعومة مستغيثة مؤثرة:

ـ ما حيلتى وليس لى فى الضيق سواك؟

ها هو ذا يعترف بالحب كل شىء فيه إلا لسانه. قال:

ـ أهلا بك يا زهيرة هانم!

فانتشت بالأدب وتساءلت:

ـ ماذا أفعل؟ هل أستسلم للمأمور السفاح؟

فتساءل عزيز مستنكرا:

ـ طلب يدك؟

ـ بلا حياء.

قطب الرجل فقالت:

ـ أى خاتمة لامرأة سيئة الحظ لم تحظ مرة واحدة بحرية اختيار شريك حياتها..

فقال بتأثر واضح:

ـ لا ترضى بما تكرهين..

ـ أعترف لك بأنى أخشاه!

فقال بحدة :

ـ كلا .

ـ إنه مجرم كما يعلم الجميع ، هو الذى قتل نوح الغراب . .

ـ مجرم قتل مجرما!

فقالت بهدوء :

ـ أجل ، لو استجوبت الداخلية رجال العطوف لوقفت على الحقيقة . .

ونظرت إليه مليا ثم قالت :

ـ القضية تتطلب رجلا محترما يمكن أن تسمع كلمته فى الداخلية!

وانجابت سحابة الصيف عن وجه الشمس المنير . .

٧٠

صدر أمر مفاجئ بنقل المأمور فؤاد عبد التواب إلى الصعيد . خلت السماء من نذر العواصف المهلكة . وتربع صيف مزدهر بالبطيخ والشمام والعنب . سرعان ما وثب إلى الفتونة سمكة العلاج . أما زهيرة فقد أسكرتها الخيلاء ، فآمنت بأنها الفتوة الحقيقى وراء الأحداث . قالت : أنا العقل ، أنا الإرادة ، أنا الجمال ، أنا الفوز ، رمقت «جلال» و«راضى» بحنان وهمست :

ـ ليكن مجدكما فوق كل مجد!

٧١

وبادرت إلى زيارة المعلم عزيز الناجى لتشكره فقالت منشرحة الصدر :

ـ هكذا يكون الرجال وإلا فلا . . . . .

فابتسم الرجل المفتون وتمتم :

ـ يسعدنى أنك سعيدة . .

فقالت بدلال :

ـ نجوت من الوباء مثل جدنا العظيم . .

ثم بحزن :

ـ أما السعادة . .

فرنا إليها مستطلعا فقالت :

ـ ما هى السعادة حتى يحق لنا أن ندعيها؟

ـ لعلها تعرف بالفطرة!

ـ متى يمكن أن تصف امرأة مثلى بأنها سعيدة؟

فقال مخفيا اضطرابه :

ـ لا ينقصك اليوم شىء .

فقامت فى رشاقة . نظرت إليه طويلا حتى ذابت إرادته أو كادت . قالت وهى تمضى :

ـ ينقصنى أهم شىء فى حياة الإنسان!

٧٢

استسلم المعلم عزيز لقدره . أقر لضعفه بالقوة الخارقة . كأنه السور العتيق ، كأنه بوابة التكية . كما وقع لجده ذات ليلة فى الخمارة . وأغرب الجنون ما يصيب المرء فى كهولته . استرق النظر طويلا إلى أمه عزيزة طويلا وهو منفرد بها فى جناحها . تمتم :

ـ أمى . .

قالت وهى تشعر بغرابة الجو :

ـ هات ما عندك . .

فقال بهدوء :

ـ تشاء إرادة الله أن أتزوج مرة أخرى . .

ذهلت الهانم . رنت إليه طويلا . تساءلت :

ـ حقّا؟

ـ أجل .

ـ من؟

قال بعد تردد :

ـ زهيرة!

هتفت عزيزة محتجة :

ـ كلا . .

ـ هى الحقيقة . .

فهتفت :

ـ الأفعى !

فقال بتوسل :

ـ أمى ، لا تتسرعى فى الحكم . .

ـ الأفعى !

ـ طالما أحببتها يا أمى . .

ـ وطالما أحبتها ألفت ، ولكنها أفعى . .

ـ إنها امرأة سيئة الحظ . .

فابتسمت عزيزة فى حزن وتمتمت :

ـ رئيفة أخرى .

فقال بتوسل :

ـ لا تأخذى بالظواهر . .

ـ كيف سحرتك يا سيد العقلاء؟

ـ أمى ، إنى أدرى ما أفعل تماما . .

فتأوهت الأم وتساءلت :

ـ وألفت الأصيلة؟

فقال بتصميم :

ـ ستظل سيدة الدار وأم الأبناء . .

ـ ترى ألا زلت تحترم أمك؟

ـ كل الاحترام يا أمى .

ـ إذن فاعدل عن رأيك !

فقال بأسى :

ـ لا أستطيع . .

ـ سحرتك يا بنى . .

ـ من حقى عليك أن تسعدى لسعادتى . .

ـ أنسيت ما حصل لعبد ربه ومحمد أنور ونوح الغراب؟

فقال باستياء :

ـ ظلموها جميعا!

ـ كانت هى الظالمة، وإنك تهب نفسك للشقاء. .

فتمتم بهدوء:

ـ إنما الأعمال بالنيات. .

فقالت عزيزة بحنق:

ـ هذه الوضيعة الخسيسة. .

فقال محتجا:

ـ أصلنا واحد يا أماه.

ـ أصلكم الذى تفخرون به هو الخير لا الدم، ألم يكن رمانة قاتل أبيك من أصلكم؟ ألم يكن وحيد من أصلكم؟

فقال بهدوء:

ـ ما قدر كان. .

٧٣

زفت زهيرة إلى عزيز قرة الناجى. قاطعت عزيزة هانم الفرح، لم تعترف به، وعاشت فى الدار مع ألفت والأبناء فى كدر أبدى. وابتاع عزيز دار نوح الغراب من ورثته فأهداها إلى زهيرة. جدد أثاثها ورياشها وتحفها جاعلا منها عش حبه الخالد. وقد احترم حقوق ألفت هانم كاملة، لم يضن عليها وعلى أولادها بالرعاية المثالية والحب الوقور، غير أنه لم يعرف الحب الحقيقى إلا فى مغيب كهولته.

٧٤

ونعمت زهيرة بشعور رهيف خيالى مثل الإلهام المشرق، هو الفوز فى جلاله والحلم فى أبهته وكماله. الدار والثروة والجاه وسيد الوجهاء. لم تبتئس بغضب عزيزة ولا حزن ألفت، وإن كان ثمة كبرياء فهى سيدة الكبرياء وأحق الناس به بما وهبها الله من جمال وذكاء. آمنت بأنها فتوة فى إهاب امرأة وأن الحياة المقدسة لا تمتثل إلا للأقوياء. ولأول مرة تجد بين يديها زوجًا تحترمه وتعجب به ولا تفرط فيه، أما الحب فطالما قهرته

فى سبيل ما هو أعظم وأجل، وطالما قالت لنفسها «لست امرأة ضعيفة مثل غيرى من النساء».

واستمتعت بجاهها بكل سبيل. فعند الأصيل تتوسط الدوكار مجلسة جلال وراضى فى المقعدين أمامها، ويمضى الدوكار على مهل مجلجلا برنين جرسه الفضى، وهى متسلطنة كملكة، تومض عيناها الساحرتان من وراء الياشمك. والناس يتطلعون إليها فى إعجاب وحقد وذهول. تتذوق جمال اللحظة فى أناة واستيعاب، منتشية بإلهام سام مجنح يجعل من الدنيا ماسة فى أصبعها تعكس صورتها المليحة الفاتنة.

وتزور الحسين، وتسر بتجمهر الشحاذين حولها، وتهب العطايا والصدقات.

٧٥

وأنجبت لعزيز ذكرا أسماه شمس الدين فازدادت الدنيا جمالا وكرما. وعلى حين مضت هى تتألق جمالا وشبابا مضى المعلم عزيز ينحدر نحو شيخوخة مبكرة. وعاملت أسرتها بكرم فاق كل تصور فعاشت أمها وأخواتها حياة رغدة. وحيرها سؤال لحوح، ماذا عليها أن تفعل كى تخلق لنفسها سيرة فذة لم تحظ بها امرأة من قبل؟!

٧٦

وذات مرة غادرت جامع الحسين كالعادة وسط مظاهرة من الشحاذين والمجاذيب. أجلست جلال وراضى على مقعديهما وهمت بالصعود عندما سمعت صوتا قريبا يهمس:

ـ زهيرة..

نظرت نحو الصوت فرأت محمد أنور يطالعها بوجه الموت. انذعرت مندفعة نحو الدوكار ولكن الرجل رفع عصا غليظة وهوى بها بكل قوته على رأسها النبيل الجميل فتهاوت على الأرض صارخة. وظل يضرب الرأس بوحشية حتى هشمه تماما غير مبال ببكاء جلال وراضى.

لم يبق من وجه البهاء والجمال إلا عظام محطمة غارقة فى بركة من الدم.

جلال صاحب الجلالة
الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش

١

أصاب مصرع زهيرة المعلم عزيز بطعنة وحشية لا دواء لها. تراءى فى الجنازة والمأتم كشبح فقد النعمة والأمل، ونبذ تماما من جسد الحياة. تضاعف ألمه بقدر ما تماسك أمام الناس. تبدت له الدنيا عجوزاً ماكرة قاسية لا حد لمكرها ولا قسوتها، فأضمر نحو وعودها كافة الرفض والمقت.

وزارته أمه عزيزة هانم فاستقبلها بفتور وعتاب صامت ولكنها بكت وضمته إلى صدرها وهمست فى أذنه:

ـ لا يجوز أن نتخاصم تحت ضربات القدر..

ولثمت جبينه ثم واصلت متنهدة:

ـ كأنى ما خلقت إلا للحزن والأسى..

وانزلقت فوق قلبه كلمات العزاء فلم تترك أثرا..

٢

وعقب الوفاة بأشهر أصيب المعلم عزيز بالفالج، لم يمهله المرض إلا أسابيع ثم فاضت روحه. وحزنت عزيزة حزنا مهلكا. لم يجر لها فى خاطر أنها ستدفن وحيدها النبيل وأنها ستبقى بعده يوما واحدا تتنفس. عاودها الحزن كأشد مما كان على فقد قرة وكأنها مخلوق مهيب لا يتجلى جلاله إلا فى رحاب الحزن الكبير. عزيزة الجميلة النبيلة التى قطعت حياة معاندة تبذر الصبر وتحصد الألم.

واحتراما لوصية عزيز ضمت راضى إلى دارها مع شمس الدين، ورغم العناية البالغة بشمس الدين فإنه مات فى شهره الثامن، أما جلال فأخذه أبوه عبد ربه الفران.

٣

اهتزت الحارة لمصرع زهيرة. هزها صراع الحظ مع القدر. التمست العبرة فى ثنايا الأحداث وتقلبها. تساءلت لم يضحك الإنسان؟ لم يرقص بالفوز؟ لم يطمئن سادرا فوق العرش؟ ولم ينسى دوره الحقيقى فى اللعبة؟ ولم ينسى نهايته المحتومة؟ ولم تخل الحنايا من أسى ولكن سرعان ما غرق الأسى فى خضم الحقد والغضب. وانصبت اللعنات وقيل هذا جزاء الظالمين. وعزيز النبيل لم يحترم أحد حزنه، واتهم بخطف زهيرة من عبد ربه الفران، ولم يحزن أحد لموته الحزن الذى يستحقه. وقال الحرافيش إن أسرة الناجى أصبحت مسرح الحزن وأمثولة العبر جزاء خيانتها لعهد جدها العظيم صاحب الكرامات والبركات..

وفى ذلك الوقت تنكر الجو فى برمودة، فتلبدت السماء بالغيوم على غير ميعاد، وانهل مطر غريب، ثم تساقط وابل من البرد، فذهل الناس وعجبوا، ووجفت قلوبهم، ولكنهم غمغموا حيارى: «لعله خير يا رب العالمين!».

٤

لم يكتب على طفل ما كتب على جبين جلال بن زهيرة بن عبد ربه الفران من المعاناة والألم. منظر تهشيم رأس أمه الجميلة انغرز فى أعماقه. كابوس دائم يعذب يقظته ويكدر أحلامه. كيف تأتى لهذه القسوة أن توجد؟ كيف أمكن أن يلقى جمال نبيل تلك النهاية البشعة؟ لماذا وقع ذلك؟ لماذا صمتت أمه؟ لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتى يحرم من جمالها وحنانها وأبهة الحياة النابعة منها. لم لا ترجع الأيام إلى الوراء كما تتقدم إلى الأمام؟ لم نخسر ما نحب ونعانى ما نكره؟ لماذا تذعن الأشياء لأوامر صارمة؟ لماذا ينقل من الدار الفاخرة إلى مسكن عبد ربه الفران؟ ومن هو عبد ربه الفران؟ ولم يطالب بالاعتراف به أبا له؟ إنه ابن أمه بلا شريك، هى أمه ومبدعته ومهده وحبه. إنها روحه ودمه، صورتها مطبوعة على وجهه، صوتها يشدو فى أذنه، وأمل استرجاعها ذات يوم لا يخبو فى قلبه.

إن العظام المحطمة الغارقة فى بركة الدم لا تنسى إلى الأبد.

٥

تغيرت دنيا عبد ربه الفران أيضا. بفضل الثروة التى ورثها جلال انتقل من البدروم إلى شقة محترمة. ابتاع الفرن من صاحبه باسم ابنه وراح يديره إدارة سيئة لإدمانه الخمر. ارتدى الجلباب الأبيض والعباءة الملونة، توج رأسه باللاثة المزركشة، واختفت قدماه الغليظتان لأول مرة فى مركوب أحمر. وقال لنفسه بتشنج: «تمتع يا عبد ربه بجاه زهيرة». ولم يجد من يحاسبه على العبث بمال جلال الصغير. ورغم الخمر والأسى تعلق قلبه بجلال. رنا مبهورا إلى جمال زهيرة المطبوع على محياه. إنه يذكره بأسعد أيامه وأشقاها. ولا يألو جهدا فى استئناسه وطمأنته وكسب مودته. ذلك الصغير الجميل النافر..

٦

واستيقظ جلال ذات ليلة قبيل الفجر وهو يبكى، فأيقظ أباه المخمور. انزعج عبد ربه ومسح على شعره الأسود الناعم متسائلا:

ـ حلمت يا جلال؟

فسأله وهو يجهش:

ـ متى ترجع أمى؟

وضاق به من ثقل رأسه فقال له:

ـ ستذهب إليها بعد عمر طويل فلا تتعجل..

٧

وجاءت سيرة زهيرة ذات ليلة فى البوظة، فقال سمكة العلاج الفتوة:

ـ أول امرأة يقتل بسببها فتوة عظيم..

فتظاهر عبد ربه بالرجولة وقال :

ـ نالت جزاءها . .

فقال جبريل الفص شيخ الحارة :

ـ لا تدع الشفاء من الحب .

فقال عبد ربه متحديا :

ـ أخاف أن يكفر مصرعها عن شرها فتقسم لها الجنة !

فقال سنقر الشمام الخمار ضاحكا :

ـ إنك تتمنى لها النار لتضمن لنفسك لقاءها !

فتأوه وقال متخليا عن تظاهره :

ـ يا للأسف ، هل بات الجمال الفتان حقّا طعاما للدود !

ثم قال بصوت هادر :

ـ صدقونى ، أحبتنى لدرجة العبادة ، ولكنها كانت مجنونة . .

وراح يغنى بصوت كالنهيق :

يا بو الطاقية الشبيكة قل لى مين شغلها لك

شبكت قلبى إلهى ينشغل بالك

٨

ودخل جلال الكُتَّاب . ولد مليح ذكى فائق الحيوية قوى المبنى . ويوم طولب أن يحفظ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ سأل سيدنا :

ـ لماذا الموت؟

فأجابه الشيخ :

ـ حكمة الله خالق كل شىء . .

فتساءل جلال بعناد :

ـ و لكن لماذا؟

فغضب الشيخ . مده على الفلقة ثم ألهب ظهره بالجريدة . صرخ باكيا . لم يسكن غضبه طيلة اليوم . ما كان يقع له شىء من ذلك لو أن أمه ما زالت تتألق بالحياة ، والحياة تتألق بها . .

٩

وتعرض جلال فى الكُتَّاب والحارة لحملة صفراء قاسية. كل ولد يعيره هاتفا «ابن زهيرة». دائما ابن زهيرة. أهى سبة يا أشقياء! ويرجمونه بشظايا من سيرته المجهولة له: الغادرة، الخائنة، المزواجة، المتكبرة، القاسية، الخادمة، الهانم المزيفة.

ويهرع إلى أبيه فيسأله:

ـ لماذا يسبون أمى؟

فيلاطفه مواسيا فيقول:

ـ كانت أجمل من الملائكة..

فينصحه أبوه قائلا:

ـ أخرسهم بالصبر..

فيتوارى جماله خلف عبوسة ناقمة ويتساءل محتجا:

ـ الصبر؟!

فيرمقه أبوه بانزعاج.

١٠

وتتسلل إليه سيرة أمه كلمة من هنا وكلمة من هناك. إنه يرفض أن يصدق.

وإذا أرغم على التصديق رفض أن يعتبر الأمر مخزيا. ستظل أمه ملاكا مهما فعلت. وما العيب فى أن يتطلع الإنسان إلى هلال المئذنة؟ ولكن هل يجدى منطق مع أولاد شياطين؟!

هكذا اضطر جلال إلى أن يخوض معركة بعد معركة. الحق أنه كان يتمنى غير ذلك. طالما أحب الود، والتمس حسن العلاقة والصداقة. الأولاد يستهينون بذلك ويرومون المشاكسة.. وهو صلب عند التحدى. عنيد حيال المستحيل. ادرع بخشونة ليست من طبعه. رد على الكلمة بضربة. تكاثرت مشاجراته وتوكدت انتصاراته. انقلب غلاما مخيفا وعرف بالشيطنة. رفعته القوة وأخرست خصومه فثمل بها وعبدها.

١١

وفى الكتاب التقى من جديد بأخيه راضى. إنه ابن القاتل ولكنه ضحيته أيضا. وهو غلام رقيق مهذب وضعيف. ومثله يعير بابن زهيرة فيجهش فى البكاء. وتصدى للدفاع عنه حتى أسكت خصومه. وتعلق به الغلام وقال له:

ـ إنك أخى وإنى بك لفخور!

كان راضى دونه قوة وجمالا ولكنه كان بالغ التهذيب. وقال له مرة:

ـ أدعوك للغداء معى..

١٢

وذهب جلال إلى دار المرحوم عزيز الناجى. رأى عزيزة هانم العجوز النبيلة كما رأى ألفت هانم، قبَّل يديهما، فرحبا به. ودهشا لجماله وصحته. ورأى أيضا قمر صغرى بنات المعلم عزيز. بنت جميلة خفيفة الروح تصغره بعامين. بهره جمالها. نظر إليها طويلا فى أثناء الغداء وبعده. ولما انفرد براضى قال له:

ـ ألا ترى أن قمر جميلة مثلما كانت أمنا؟

فهزَّ راضى رأسه بلا اكتراث فقال جلال:

ـ يا لك من سعيد بمشاركتها دارا واحدة!

فقال راضى:

ـ لا يعجبنى إلا صوتها!

١٣

ناهز جلال المراهقة. أدرك أبعاد حياته خيرها وشرها. آمن بعناد أن أمه كانت أعظم امرأة عرفتها الحارة. وبأنه سليل الناجى العظيم الذى لم يعرف سر اختفائه حتى اليوم.

لم يكن فتوة مثل سمكة العلاج ولكنه كان وليا وصديقا للخضر. وحطم جلال فى الخيال رءوسا مليئة بالعناد والشر، وصادق ملائكة ذوات أجنحة ذهبية. وطرق باب التكية ففتح له على مصراعيه، وطارده قلق متلفع بظلمة الليل، وظلت قمر تومئ إليه من نافذة المشربية.

وتساءل بزهو:

ـ ما عيب أمى؟ كانت تبحث عن رجل مثلى فلم يسعدها به الحظ فى حياتها التعيسة القصيرة!

١٤

وأشركه عبد ربه الفران فى إدارة الفرن. وأثبت جدارة وذكاء وهمة عالية. وأعجب به الأب أيما إعجاب، ومضى يتخلى له عن مسئولياته، مسلما بكليته لقرعة البوظة. تدهور عبد ربه وزاده توافرالنقود بين يديه تدهورا. وبفخار وإعجاب مضى ينظر إلى ابنه جلال. يراه وهو يسيطر بقوة شخصيته على العمال ويستحق احترام العملاء رغم سمعة أمه السيئة. ويراه وهو يصلب عوده وتشتد أطرافه ويتعملق هيكله وتتدفق الحيوية فى بنيانه ويتألق بالجمال الفريد وجهه.

ولم يبق لجلال من ثروته إلا الفرن، ومن الماضى إلا ذكريات أليمة، حتى بسمات المجاملة فوق الشفاه لا تخدعه، فهو على يقين من أن وراءها تتلاطم همسات السوء عن أمه الجميلة، ولكن المستقبل يعد بخير كثير لمن كان فى مثل قوته وجماله، وصورة قمر بنت عزيز تعد أيضا بأعذب الآمال..

١٥

كان يجلس فى العصارى أمام الفرن يراهن على ديكه فى مصارعات الديوك، تلك كانت هوايته المفضلة. ويرنو أحيانا بهيام إلى قمر وهى جالسة إلى جانب ألفت هانم فى الدوكار، ويتذكر عهد صباه وتردده على دار عزيزة هانم وملاعبته لراضى وقمر، تلك الأيام السعيدة. ولكنها انقطعت بسرعة عندما آنس من عزيزة وألفت فتورا فى استقباله. لماذا احتضنتا راضى ونفرتا منه على حين أنهما معا ابنا زهيرة؟ لا سبب إلا احترام وصية

المعلم عزيز من ناحية، والشبه الملموس بين وجهه ووجه المرحومة أمه، فهو يذكر المرأتين بالراحلة المقيتة.

وتبقى بعد ذلك الهوة الفاصلة بين فران سيئ السمعة مثله وبين كريمة المعلم عزيز ذات الأصل والأبهة. ولكنه يحبها حبا ملك عليه حواسه وعقله، ويلمس فى نظرة عينيها المتألقتين استعدادا طيبا وميلا واضحا، فهل يتهيب حظه السعيد كالجبناء؟!

١٦

وأدرك ما فعله أبوه بثروته فعاتبه على ذلك معاتبة ساخنة. ومنعه من التدخل فى العمل وهو يقول:

ـ ستعيش راضيا مكرمًا.

ولكن أباه كان مصدر إزعاج لا ينتهى. إدمانه الخمر مهلك للصحة والكرامة. يسهر كل ليلة فى البوظة، ويتسلى ببث شكاته من ابنه، يقول:

ـ يعاملنى كما لو كنت أنا الابن وهو الأب، يحاسبنى حساب الملكين..

أو يتساءل وهو يقهقه:

ـ هل سمعتم عن ابن يزجر أباه لأنه يروح عن نفسه بقرعة أو قرعتين؟

وكان يتكلم بحب لا عن حقد، ويمضى فى التساؤل:

ـ هل نسى وصية ربنا بالوالدين؟

وعجز جلال عن أن يجعل من أبيه رجلا محترما. وقد أراد ذلك عن حب من ناحية، ورغبة فى محق عقبة من العقبات التى تعترض طريق حبه من ناحية أخرى. وحزن عبد ربه لإساءته غير المقصودة لابنه الجميل. قال له مرة كالمعتذر:

ـ أمك كانت السبب، انظر إلى نهايات من أحبوها من الرجال..

وقطب جلال محتجا، فقال عبد ربه:

ـ محمد أنور شنق، نوح الغراب قتل، المأمور نفى، عزيز مات غما، أما أنا فأسعدهم حظا..

فقال جلال متوسلا:

ـ تجنب ذكر أمى بسوء يا أبى..

فتمتم:

ـ لا تحزن ولكن فكر، تريد أن تتزوج من قمر، لا تظننى عقبة يا بنى، ذكرى المرحومة هى العقبة، كيف تصورت أن ألفت هانم تعطى كريمتها لابن زهيرة؟!

فهتف جلال :

ـ لا تعبث بجراحى . .

فقال له الرجل بحنان :

ـ أنصحك ألا تتزوج من امرأة تحبها، وألا تحب امرأة إذا تزوجتها. اقنع بالمعاشرة والمودة واحذر الحب فإنه مكيدة . .

١٧

وعلم جلال ذات ليلة أن أباه يعربد فى ساحة التكية. هرع إليه من فوره فوجده يحاكى الأناشيد بصوت منكر، فساقه إلى البيت من ذراعه وهو يقول له :

ـ الحارة تغفر أى شىء إلا هذا.

ولما نام الرجل وجد جلال من نفسه رغبة حارة للعودة إلى الساحة. لم يخل إلى نفسه أمام التكية من قبل. وكانت الليلة حالكة السواد. تتوارى النجوم فوق سحب شتوية كثيفة. وكان البرد قارسا فحبك العباءة حوله وطوق وجهه باللاثة. وغمرته الأناشيد مثل أمواج دافئة. تذكر رواد المكان من آل الناجى. الجد الأول الذى ذاب فيه مثل سر مكنون. وهمس له صوت إنما يمتاز الرجال بتحدى الصعاب وسرعان ما ملأ أعطافه إلهام سخى بالبشر والفوز.

عقد صداقة مع الظلمة، مع الصوت، مع البرد، مع الدنيا كلها. صمم على الطيران فوق العقبات مثل طائر خرافى . .

١٨

وفى أثناء ذلك. اشترى راضى محل الغلال بماله الموروث عن أمه وتزوج من نعيمة حفيدة نوح الغراب. تشجع جلال فقابل عزيزة هانم، وقال لها بثبات :

ـ يا ستنا النبيلة، أريد يد قمر حفيدتك . .

فنظرت إليه طويلا بعينيها الذابلتين، وقالت بصراحة العجائز :

ـ اقترحت يوما أن يتزوجها راضى ولكن ألفت رفضت!

فقال جلال بثقة :

ـ إنه جلال من يطلبها هذه المرة .

ـ ألا تعلم لما رفضت؟

فسكت مقطبا، فقالت بصراحتها السافرة :

ـ علما بأن راضى ذو مزايا ليست لك!

فقال بحدة :

ـ لست فقيرا، ثم إننى من آل الناجى . .

فقالت بضجر :

ـ قد قلت ما عندى .

فقال بإصرار وعناد :

ـ أبلغيها الطلب .

ـ لك هذا .

وغادرها وهو يغص بخيبة ترابية .

١٩

ولكن ثمة مفاجأة مزلزلة كانت تتربص بدار المرحوم عزيز . فقد رفضت ألفت هانم الدهشورى يد جلال، غير أن قمر انطوت على نفسها كالمتوعكة .

وسألتها جدتها عزيزة هانم :

ـ تريدينه زوجا لك؟

فأجابتها بشجاعة نادرة :

ـ نعم .

فهاجت ألفت هاتفة :

ـ إنه ابن زهيرة .

فهزت منكبيها استهانة . غير أن الأم تجاهلت رغبة ابنتها بعناد وحشى . ورحبت بخاطب من آل الدهشورى، ولكن قمر أعلنت رفضها له بلا تردد .

وانهالت ألفت على ابنتها باللوم والتقريع، ولكنها أصرت على رأيها حتى قالت:

ـ فلأبق بلا زواج..

فصاحت أمها:

ـ حلت بك روح زهيرة الشريرة..

فبكت قمر ولكن ألفت لم ترق لها وقالت بعناد:

ـ ابقى بلا زواج فهو عندى أفضل..

٢٠

وتدهورت صحة عزيزة هانم فجأة بحكم الشيخوخة والأحزان. ذبلت ذبولا شديدا وتغير لونها وسرعان ما عجزت عن الحركة فلزمت الفراش. لم تفارقها ألفت. جزعت للوحدة التى تتهددها فى الدار الكبيرة. غير أن عزيزة قالت لها:

ـ لا تخافى سيمنُّ الله علىَّ بالشفاء..

وصدقتها كما اعتادت أن تصدقها دائما، ولكن العجوز تمتمت بصوت كأنه صوت شخص آخر:

ـ إنها النهاية يا ألفت..

وضعف بصرها حتى لم تعد ترى. ورغم ذلك تطلعت إلى لا شىء وراحت تنادى قرة وعزيز فارتعدت ألفت وشعرت بأن الموت اقتحم المخدع وأنه ينتظر فى ركن وأنه أقوى الثلاثة حضورا. وتمتمت بنبرة باكية:

ـ ليرحمنا الله.

فقالت عزيزة:

ـ إنى المعذبة أم المعذبين. أملى الأخير فى ذى الجلال.

فهتفت ألفت:

ـ اللهم خفف عنها!

فقالت:

ـ أوصيك باثنتين!

فحملقت فيها باهتمام، فقالت العجوز:

ـ لا تعذبى حفيدة قرة.

وتنهدت بعمق ثم قالت :

ـ لا تعذبى ابنة عزيز .

وجاءها الاحتضار ، ثم فاضت روحها مجللة بالحب والنبل . .

٢١

مضت ستة أشهر من عام الحداد . تمنت ألفت الدهشورى ألا ينتهى هذا العام أبدا ، ولكنها أضمرت لوصية عزيزة كل إجلال . داعبها أمل فى أن تتغير قمر نفسها ولكنه أمل لم يتحقق .

واستدعى المعلم راضى أخاه جلال وقال له :

ـ أهنئك بالقبول . .

فاجتاحه تيار سماوى من الأفراح أخرسه .

واقترح راضى أن تعلن الخطوبة فورا على أن تؤجل الدخلة لما بعد الحداد .

ولم يعد فى الإمكان أن تقتلع هذه اللحظة من ذاكرة جلال إلى الأبد .

٢٢

وما كاد يمر شهران على الخطبة حتى طالب جلال بإلحاح بعقد القران بلا حفل على أن تؤجل الدخلة والحفل حتى ينتهى عام الحداد . وتم له ما أراد . كأنما أراد أن يستحوذ على الطمأنينة ويمحق الأوهام . وأن يبتدر حظه مغلقا الأبواب فى وجه القوى المجهولة . صار بذلك «الرجل السعيد» . وشهدت الأيام أقصى درجة من الثراء فى سجاياه الحميدة . حتى أبوه السكير لم يعد يحاسبه . ودلل عماله وذويهم . وترنم بالغناء ، وهو يعمل وهو يتابع مصارعة الديوك . ازدهر جماله وتضخمت قوته . وسهر الليالى بالساحة يستمع الغناء ويبتهل بالدعاء .

وتردد على عروسه محملا بالهدايا ، ومنها تلقى مسبحة من الكهرمان ينتظمها سلك من الذهب هدية معطرة . غدت حياته وأمله وسعادته ورؤيته الذهبية .

رآها أجمل خلق الله رغم أن كثيرين نوهوا بتفوق جماله الباهر ، ولكن عذوبتها فاقت كل الحدود .

وتراجعت ألفت هانم عن فتورها فأبدت الرضا والألفة، ونعتته بالابن الطيب، وشرعت ترسم للمستقبل صورة جديدة، مقترحة عليه مشاركة راضى فى محل الغلال مستعينا بمال قمر.

ومرة قال جلال لقمر:

ـ لقد تجلت عظمة آل الناجى فى أشياء وأشياء، ها هى ذى تتجلى اليوم فى الحب..

فابتسمت فى دلال فقال:

ـ الحب يصنع المعجزات..

فقالت بعذوبة:

ـ لا تنس دورى فى صنع المعجزة!

فضمها إلى صدره وهو يهيم من الوجد.

٢٣

وجاء بأبيه ليزور ألفت هانم وقمر. جاء الرجل مفيقا ولكنه بدا كالسكران بنظرته الثقيلة الغائمة ونبرته المترنحة ورأسه المتقلقل. أدرك أنه يمثل دور الوجيه وأنه غريب عن ذاته وأحواله. ونظر إلى ألفت هانم بتهيب، وشعر بأنه يتحول من شخص إلى مخلوق آخر، وعجب كيف أنه ملك ذات يوم جمالا يزرى بهذا الجمال كله. وقال لألفت هانم:

ـ إنى كما تعلمين يا هانم ولكن ابنى جوهرة..

فتمتمت ملاطفة:

ـ أنت رجل طيب يا معلم عبد ربه..

واهتزّ لذلك الاحترام الذى لم يحظ بمثله أبدا، و قال مشيراً إلى جلال:

ـ إنه يستحق السعادة جزاء بره بوالده...

وضحك ضحكة عالية بلا سبب، وسرعان ما ارتد إلى الوقار مرتبكا.

وعندما غادر الدار هو وجلال سأله ابنه:

ـ لِمَ لَمْ تقدم الهدية للعروس؟

تذكر الهدية التى أعطاه جلال إياها ليقدمها للعروس بيده فلم ينبس، فسأله جلال بضيق:

ـ نسيت؟

فقال برقة :

ـ إنها جوهرة ليس عروسك فى حاجة إليها على حين أننى فى أشد الحاجة إليها .

فقال جلال بعتاب :

ـ هل قصرت فى حقك؟

فربّت ظهره قائلا :

ـ أبدا ولكن مطالب الحياة كثيرة .

٢٤

وجاءت الأيام الأخيرة من عام الحداد فى خريف أبيض يتنفس فى عذوبة فائقة . وامتلأت السحب الشفافة بالأحلام . وألمت وعكة برد بقمر غير أنها لم تعطل الاستعدادات المتوثبة للزفاف . واندفعت الوعكة فى طريق مجهول فارتفعت الحرارة ، واضطربت الأنفاس ، واشتدت الآلام ، وتسلل الذبول إلى الوردة الناضرة مثل عدو ماكر خسيس خائن . ولزمت الفراش بلا حول فخبت نظرتها ، واصفرّ لونها ، ووهن صوتها . توارت تحت الأغطية الثقيلة ، متأوهة ، تتغذى بالكراوية والليمون ، وتعصب بمكمدات الخل . وسهدت ألفت هانم متشنجة الأفكار ، وقلق جلال فنفد صبره فى انتظار ساعة الشفاء .

وخيم على الدار شعور غامض لا يريد أن يفصح عن ذاته ، وطافت بخيال ألفت اللحظات الأخيرة من حياة عزيز وعزيزة ، وخُيّل إليها وهى تكاد تجن أن كائنا مجهولا قد حلَّ بالدار ، وأنه يكمن فى ركن من أركانها لا يريد أن يبرح .

وذات ليلة حلم جلال بأن والده يغنى بطريقته الهمجية الساخرة فى ساحة التكية . واستيقظ ثقيل القلب فتبين له أنه إنما استيقظ حقّا على صوت يدوى فى الخارج . صوت من نوع خاص لا علاقة له بالغناء ولا بالتكية . صوات فى جوف الليل يعلن صعود روح إلى مستقرها!

٢٥

شعر جلال بأن كائنا خرافيا يحل فى جسده. إنه يملك حواس جديدة ويرى عالما غريبا. عقله يفكر بقوانين غير مألوفة وها هى ذى الحقيقة تكشف له عن وجهها.

رنا إلى الجثة المسجاة طويلا. طوى الغطاء عن الوجه. إنه ذكرى لا حقيقة. موجود وغير موجود. ساكن بعيد منفصل عنه ببعد لا يمكن أن يقطع. غريب كل الغرابة، ينكر ببرود أى معرفة له. متعال متعلق بالغيب. غائص فى المجهول. مستحيل غامض مندفع فى السفر. خائن، ساخر، قاس، معذب، محير، مخيف، لا نهائى، وحيد. وغمغم بذهول وتحد:

ـ كلا.

يد غطت الوجه فأغلقت باب الأبدية. تهدمت الأركان تماما. لسان يلعب له هازئا. ثمة عدو يتحرك وسوف ينازله. لن يتأوه. لم يذرف دمعة واحدة. لم يقل شيئا. تحرك لسانه مرة أخرى مغمغما:

ـ كلا.

رأى رأس أمه المهشم. خيال تراءى واختفى قبل أن تطبع صورته فى وعيه. رأى الديك وهو يفقأ بمنقاره الوردى عين خصمه. رأى السماء تشتعل بالنيران. رأى بركة الدم الأحمر. ووعده المجهول بإدراك كل شىء إذا كشف الغطاء عن الوجه مرة أخرى. مد يده ولكن يدا أمسكت بيده وصوت قال:

ـ وحد الله!

رباه أيوجد معه آخرون؟ أيوجد آخرون فى الدنيا؟ من قال إذن إن الدنيا خالية؟ خالية من الحركة واللون والصوت. خالية من الحقيقة. خالية من الحزن والأسى والندم. إنه فى الواقع متحرر. لا حب ولا حزن. ذهب العذاب إلى الأبد. حل السلام. وثمة صداقة متوحشة مطروحة على القوى العاتية. هنيئا لمن يروم أن تكون النجوم خلانه، والسحب أقرانه، والهواء نديمه، والليل رفيقه.

وللمرة الثالثة يغمغم:

ـ كلا.

٢٦

تخلى جلال عن العمل لوكيله. وجد الراحة فى المشى. يتمشى فى الحارة، وفى الحى، بين البوابات والقلاع، يجلس فى القهوة وحده يدخن البورى.

وفى الليل وقف قبالة التكية. مرت به الأنغام. باستهانة طرق الباب. لم يتوقع ردا. عرف لِم لا يردون. إنهم الموت الخالد الذى يتعالى عن الرد.

تساءل:

ـ أليس للجار حق؟

وأنصت للغناء فانساب الصوت فى عذوبة:

صبحدم مرغ جمن بـا كـل نوخاسته كفت
نازكم كن كه درين باغ بى جون نو شكفت

٢٧

واعترض مسيرته ذات يوم الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية، فابتسم إليه برقة وقال:

ـ لا بأس من كلمة تقال..

فنظر إليه ببرود فقال الشيخ:

ـ إن الله يمتحن من عباده الصديقين.

فقال بازدراء:

ـ لا جديد، فهذا ما يقوله الديك عندما يصيح فى الفجر.

فقال الرجل:

ـ كلنا أموات أولاد أموات.

فقال بيقين:

ـ لا أحد يموت.

٢٨

وكان يمر أمام البوظة فى جوف الليل عندما رأى شبحًا مترنحا عرف فيه أباه عبد ربه. تأبط ذراعه فتساءل الرجل:

ـ من ؟

ـ جلال يا أبى . .

وصمت السكران قليلا ثم قال:

ـ إنى خجلان يا بنى . .

ـ لماذا؟

ـ كان الأجدر أن أذهب أنا لا هى . .

ـ لماذا؟

ـ هو العدل يا بنى .

فقال باستخفاف:

ـ يوجد شىء حقيقى واحد يا أبى هو الموت .

فقال عبد ربه معتذرا:

ـ ما كان يليق أن أشرب فى هذه الأيام ولكنى عاجز .

فقال له وهو يسنده:

ـ تمتع بحياتك يا أبى . .

٢٩

ومضى الخريف يولى ويقبل الشتاء بقسوته القاهرة. وراح الهواء البارد يسفع الجدران ويلسع العظام. وتطلع جلال إلى سحابة مظلمة فهام بالمستحيل. ورأى ذات مرة ألفت هانم وهى راجعة من القرافة فكرهها من صميم فؤاده وبصق فى خياله على صورتها المتورمة. قبلته كارهة ثم تخلصت منه بالموت. والموت عندها طقوس وفطائر. كلهم يقدسون الموت ويعبدونه فيشجعونه حتى صار حقيقة خالدة. لا شك فى أنها اغتاظت

عندما تسلم نصيبه من تركة قمر . لذلك أخذه كاملا . ثم وزعه على الفقراء خفية . وقال لنفسه «إن علامة الشفاء عنده أن يحطم رأس الهانم المتعجرفة» .

٣٠

وصادف فى طريقه جبريل الفص شيخ الحارة فحيَّاه الرجل وقال :

ـ لا ترى يا معلم جلال إلا ذاهبا أو آئبا ، عم تبحث؟

فأجابه بازدراء :

ـ أجد ما لا أبحث عنه وأبحث عما لا أجد .

٣١

وانفرد بنفسه تلك الليلة فى ساحة التكية . لا التماسا للبركة ولكن تحديا للظلمة والبرد . هنا خلوة عاشور . هنا اللاشىء . وقال إنه يعترف بأنه ليس عاشقا . لا حزن على حب ضائع . أنا لا أحب . أنا أكره . الكراهية والكراهية فقط . أكره قمر . هذه هى الحقيقة . هى الألم والجنون . هى الوهم . لو عاشت لانقلبت على مثال أمها . تحكم بالغباء وتضاحك التافه وتقلد الأمراء وهى حفنة من تراب . كيف هى الآن فى قبرها؟ قربة منتفخة تفوح منها روائح عفنة ، وتسبح فى سوائل سامة ترقص فيها الديدان . لا تحزن على مخلوق سرعان ما انهزم . لم يحفظ العهد . لم يحترم الحب . لم يتمسك بالحياة . فتح صدره للموت . إننا نعيش ونموت بإرادتنا . ما أقبح الضحايا! دعاة الهزيمة . الهاتفون بأن الموت نهاية كل حى . وبأنه الحق . إنه من صنع ضعفهم وأوهامهم . نحن خالدون ولا نموت إلا بالخيانة والضعف . عاشور حى . أشفق على الناس من مواجهة خلوده فاختفى . أنا خالد . وجدت ما أبحث عنه . وما يغلق الدراويش الأبواب إلا لأنهم خالدون . من شهد جنازة لهم؟ إنهم خالدون . يتغنون بالخلود ولكن لم يفهمهم أحد .

وثمل بشراب الليل المثلج .

مضى نحو القبر وهو يغمغم :

ـ آه يا قمر!

٣٢

وتجسدت الأفكار المحمومة فى صورة نسر محلق ذى صرير يدك الأبنية.

وسأله أبوه ذات صباح وهو يتثاءب:

ـ لم تأخرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلاج؟

فأجابه ببساطة وثقة:

ـ لا يفعل ذلك إلا الضعفاء الجبناء.

حملق الأب فى وجهه برعب وسأله:

ـ تتحدى الفتوة؟

فقال ببرود:

ـ أنا الفتوة يا أبى.

٣٣

وتعمد أن يمر أمام مجلس الفتوة بمجلسه فى المقهى فسرعان ما جاء صبى القهوة قائلا:

ـ المعلم سمكة يسأل عن الصحة؟

فقال بنبرة عالية:

ـ أخبره بأن الصحة طيبة تتحدى الجهلاء.

اقتحم الجواب الفتوة مثل لفحة نار. وسرعان ما اندفع معاونه خرطوشة ـ الوحيد من رجاله الذى تصادف وجوده معه ـ وبسرعة خاطفة رفع جلال مقعدا خشبيا وضربه به ضربة صادقة فانطرح على ظهره فاقد الوعى. وأخذ جلال نبوته ووقف ينتظر سمكة العلاج الذى أقبل مثل وحش ضار. وتدفق سيل المتفرجين، وتنادى رجال الفتوة من الأركان. وتبادل الرجلان ضربتين، ولكن حسمت المعركة فى ثوان. كان جلال قوة خارقة حقّا. تهاوى سمكة العلاج مثل ثور ذبيح.

٣٤

وقف جلال بجسمه العملاق فى هالة من لهيب التحدى والغضب . وغزا الخوف قلوب الرجال فلم يكن فى العصابة من هو جدير بخلافة سمكة إلا خرطوشة المنطرح إلى جانبه . وبعض الرجال ممن يضمرون الحقد للعصابة انهال على أفرادها بالطوب منضمين إلى جلال . وسرعان ما تقررت السيادة لمن يستحقها .

هكذا وثب جلال عبد ربه بن زهيرة إلى الفتونة بكل جدارة ، وهكذا رجعت الفتونة إلى آل الناجى . .

٣٥

قال له أبوه ووجهه يومض بالفرح :

ـ ما تصورت أن تكون فتوة رغم قوتك الهائلة . .

فقال جلال باسما :

ـ وما تصورت ذلك ولا جرى لى فى بال . .

فقال عبد ربه بفخار :

ـ كنت مثلك فى القوة ولكن الفتونة قلب وطموح !

ـ صدقت يا أبى ، كنت أعد نفسى للوجاهة ، ثم جاءنى ذلك فى جوف خاطر مباغت . .

فضحك الأب وقال :

ـ كأنك عاشور نفسه فى قوته فأسعد نفسك ، وأسعد أهل حارتك . .

فقال بتؤدة :

ـ فلنؤجل الحديث عن السعادة يا أبى . .

٣٦

أصبح يتحرك بإلهام القوة والخلود. رسم لنفسه طريقا. تحدى فتوات الحارات ليستثمر فائض قوته. تغلب على العطوف والدراسة وكفر الزغاوى والحسينية وبولاق. كل يوم كان المزمار يزف للحارة بشرى نصر جديد.

غدا فتوة الفتوات وتاج القوة والسيادة كما كان عاشور وكما كان شمس الدين.

وسعد الحرافيش مؤملين فيما عرف عنه من كرم وسجايا حميدة، كما انزعج الوجهاء وتوقعوا حياة موسومة بالكبح والعناء.

٣٧

وتاه عبد ربه عزة وكرامة، وراح يبشر فى البوظة بالعهد الجديد. إنه يستقبل الآن بالإجلال والإكبار، ويلتف حوله السكارى يتنسمون منه الأخبار فيقول:

ـ رجع عاشور الناجى.

ويفرغ القرعة فى جوفه ويواصل:

ـ فليسعد الحرافيش، ليسعد كل محب للعدل، سيتوافر الرزق لكل مسكين، سيعرف الوجهاء أن الله حق!

فيسأل سنقر الشمام الخمار:

ـ وعد بذلك المعلم جلال؟

فيقول بثقة وثبات:

ـ ما طمح إلى الفتونة إلا من أجل ذلك!

٣٨

دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمة قوة تتحداه ولا مشكلة تشغل باله.

يتمتع طيلة الوقت بالسيادة والجاه والمال. اكتنفه الفراغ وتسلل إليه التثاؤب. تركز

تفكيره فى ذاته. تجسدت له حياته فى صورة بارزة واضحة المعالم والألوان حتى النهاية الحادة العابثة. بدءا من رأس أمه المهشم، ومعاناة الحارة المهينة، وموت قمر الساخر، وقوته المهيمنة بلا حدود، وقبر شمس الدين الذى ينتظر الركب راحلا فى إثر راحل. ما جدوى الحزن؟ ما فائدة السرور؟ ما مغزى القوة؟ ما معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل؟

٣٩

وسأله أبوه ذات صباح:

ـ الناس يتساءلون متى يتحقق العدل؟

فابتسم جلال بامتعاض وتمتم متسائلا:

ـ ما أهمية ذلك؟

فقال عبد ربه بدهشة:

ـ إنه كل شىء يا بنى..

فقال بازدراء:

ـ إنهم يموتون كل يوم وهم مع ذلك راضون!

ـ الموت علينا حق، أما الفقر والذل فبيدك محقهما!

فصاح جلال:

ـ اللعنة على الغباء.

فتساءل عبد ربه بأسى:

ـ ألا تريد أن تحتذى مثال عاشور الناجى؟

ـ أين عاشور الناجى؟

ـ فى أعلى عليين يا بنى.

فقال بازدراء:

ـ لا أهمية لذلك..

ـ أعوذ بالله من الكفر..

فقال بوحشية:

ـ أعوذ بالله من اللاشىء!

ـ لا أتصور أن يمضى ابنى كما مضى سمكة العلاج . .

ـ لقد انتهى سمكة العلاج كما انتهى عاشور .

ـ كلا ، جاء كل من طريق مختلف وذهب إلى طريق مختلف . .

فنهض محتدا وقال :

ـ لا تزد من همى يا أبى ، لا تطالبنى بشىء ، لا يغرنك ما بلغت واعلم أن ابنك رجل غير سعيد . .

٤٠

يئس عبد ربه وكف عن الحديث عن الفردوس المعهود . وقال وهو فى غاية من السكر :

ـ إرادة الله فوق كل إرادة وما علينا إلا الرضا .

ويئس الحرافيش وتساءلوا :

ـ لم لا نشك فى الماضى ليرتاح بالنا؟!

واستنام الوجهاء إلى الطمأنينة ، أدوا الإتاوات ، وقدموا الهدايا بلا حساب .

ومضى جلال بقلب أجوف تتلاطم فيه رياح الكآبة والقلق ، وبظاهر متألق ينضح بالقوة والسيادة والنهم . بدا أول ما بدا أنه وقع أسيرا لعشق المال والتملك . شارك أخاه راضى فى محل الغلال ، كما شارك الخشاب والبنان والعطار وغيرهم . لا شبع من ناحيته . وترحيب حار من ناحيتهم ليثبتوه فى أرض الوجاهة والسؤدد . غدا أكبر فتوة وأكبر تاجر وأغنى غنى ، وفى الوقت نفسه لم يتهاون فى جمع الإتاوات وتقبل الهدايا ، ولم ينعم بخيره إلا رجال عصابته حتى عبدوه عبادة . وشيد عمارات كثيرة ، كما شيد إلى يمين السبيل دارا خيالية ، سميت بحق بالقلعة لجلالها وكبرها ، وفرشها بفاخر الأثاث ، وحلاها بالتحف ، كأنه حلم الخالدين . ورفل فى الثياب الغالية ، وتنقل بالدوكار والكارتة ، وتوهج الذهب فى أسنانه وأصابعه .

ولم يكترث لحال الحرافيش ولا عهد الناجى ، لا عن أنانية أو ضعف أمام مغريات الحياة ، ولكن ازدراء لهمومهم ، واستهانة بمشكلاتهم . والعجيب أنه كان بطبعه أميل إلى الزهد ، واحتقار مطالب البدن ، وكان ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوة عمياء مجهولة ، جوهرها القلق والخوف ، كأنما كان يتحصن ضد الموت ، أو يوثق علاقته بالأرض حذرا من غدره . لقد غرق فى خضم الدنيا ولكنه لم يغفل قط عن خداعها ، لم

تخدره ابتسامتها، لم يطربه عذب حديثها، كان حاد الشعور بلعبتها المرسومة، وغايتها المقصودة. لم يأنس للخمر ولا المخدر ولا الهوى ولا التكية، وكان إذا خلا إلى نفسه تأوه قائلا:

ـ ما أشد عذابك أيها القلب!

٤١

ويوما سأله أخوه راضى ولعله كان صديقه الوحيد:

ـ لم لا تتزوج يا أخى؟

فضحك جلال ولم يجب فراح راضى يقول:

ـ الأعزب موضع تساؤل دائما.

فسأله ساخرا:

ـ لم الزواج يا راضى؟

ـ إنه المتعة والأبوة والخلد.

فضحك جلال عاليا وقال:

ـ ما أكثر الأكاذيب يا أخى!

فتساءل راضى:

ـ لمن تجمع هذه الأموال؟

يا له من سؤال! أليس الأجدر بمثله أن يحيا حياة الدراويش؟ ها هو ذا الموت يطارده دائما. ها هو ذا رأس زهيرة ووجه قمر يتجسدان من جديد. لن تنفعه القلعة ولا النبوت. سيذوى بهاء هذا الجمال المتألق. ستتقوض أعمدة هذه القوة الشامخة. سيرث المال قوم آخرون وهم يغمزونه بالسخريات. ستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية.

٤٢

على أريكة الفتونة يتربع فى المقهى. تمثال من الجمال والقوة يبهر الأنظار ويهز القلوب. تتكاثف الظلمات فى جمجمته لا يدرى بها أحد. يتسلل شعاع إلى الظلمات

فى صورة بسمة متألقة بالتحية والإغراء. بسمة تترك أثرا فى الظلام. من هذه المرأة؟ امرأة من بنات الهوى، تقيم فى شقة صغيرة فوق بنك الرهونات، يعشقها الوجهاء. تحييه كلما مرت التحية اللائقة بسيد الأحياء.

لا يرفض التحية ولا يستجيب لها. ولا ينكر أثرها الملطف لعذاباته، متوسطة التكوين، ريانة الجسد. جذابة الملامح. زينات. ولأنها تصبغ شعرها بلون الذهب دعيت بزينات الشقراء. لا ينكر أثرها الملطف لعذاباته ولكنه لا يريد أن يستجيب لها. طالما كبحت شهواته تحت ضغط انهماكه فى القتال، والبناء، وجمع المال، ومعانقة الملل.

٤٣

وذات مساء استأذنت زينات الشقراء فى مقابلته. استقبلها فى بهو الضيوف. تركها تنبهر بالأثاث، بالتحف، بالقناديل المزركشة. تجردت من ملاءتها وبرقعها، جلست على ديوان قطعة من الفتنة المسلحة . وتساءلت برشاقة:

ـ ترى كيف أعلل حضورى؟ أأقول مثلا إننى أريد تأجير شقة فى عمارتك الجديدة؟

فوجد نفسه يجاملها قائلا:

ـ لن يطالبك أحد بتعليل. .

فضحكت راضية وقالت بصراحة:

ـ قلت لنفسى فلنزره ما دام يبخل علينا بالزيارة. .

شعر بأنه هبط أولى درجات الإغراء ولكنه لم يحفل بذلك وقال:

ـ حللت أهلا وسهلا!

ـ شجعنى لطفك الذى تقابلنى به كل أصيل. .

ابتسم. وتردد سؤال خلف الابتسامة: إلام آل حال قمر فى قبرها اليوم؟ وسألته بجرأة عجيبة:

ـ ألم أعجبك؟

فقال بصدق:

ـ إنك تحفة. .

ـ وهل مثلك يشعر ولا يفعل؟!

فتمتم فى حيرة:

ـ غابت عنك أشياء . .

ـ إنك أقوى الرجال فكيف تنام كما ينام الفقراء؟

فقال ساخرا :

ـ الفقراء ينامون نوما عميقا!

ـ وكيف تنام أنت؟

ـ لعلى لا أنام!

فضحكت بعذوبة وقالت :

ـ سمعت من أهل العلم أنك ما شربت فى حياتك قرعة ولا دخنت نفسا ولا مسست امرأة، أهذا صحيح؟

لم يدر بماذا يجيب ولكنه شعر بأنها ستحقق ما تريد. أما زينات فواصلت :

ـ أقول لك إن الحياة ليست إلا الحب والطرب .

فتساءل متظاهرا بالدهشة :

ـ حقّا؟

ـ ما عدا ذلك فإننا نتركه وراءنا للغير!

فقال بامتعاض :

ـ ونترك أيضا الحب والطرب!

ـ كلا، إنهما يمتصان بالجسد والروح ولا يرثهما أحد!

ـ يا لها من لعبة سخيفة!

فقالت بحرارة :

ـ لا عشت يوما بلا حب أو طرب . .

ـ إنك امرأة مدهشة . .

ـ امرأة وكفى!

ـ لا يهمك الموت؟!

ـ إنه علينا حق ولكنى لا أحب سيرته . .

حق؟ حق! وسألها :

ـ أتعرفين شيئا من سيرة شمس الدين الناجى؟

فقالت بفخار :

ـ طبعا، من حارب متحديا الكبر . .

ـ تحدى الكبر بعناد.

فقالت بنعومة:

ـ السعداء حقّا من ينعمون بشيخوخة هادئة!

فقال بتحد:

ـ السعداء حقّا من لا يعرفون الشيخوخة!

فانقبضت لتغيره وقالت بإغراء:

ـ أنت لا تملك إلا هذه الساعة..

فقال ضاحكا:

ـ موعظة مناسبة لمقدم الليل..

فأغمضت عينيها مرهفة السمع حتى وضح زفيف الريح وسمع هطول الأمطار فوق النوافذ المغلقة.

٤٤

وسرعان ما صارت زينات الشقراء عشيقة لجلال عبد ربه الناجى. دهش الناس ولكنهم قالوا هو خير على أى حال من سيئ الذكر وحيد. وتجنبها عشاقها القدامى فأصبحت له وحده. علمته كل شىء. انضمت إلى تحف الدار قرعة مذهبة وجوزة مدندشة. لم يأسف على شىء، وقال إن للحياة مذاقا لا بأس به. وأحبته زينات حبا ملك عليها نفسها، وداعبها حلم غريب أن تصبح حليلة له ذات يوم. ومن عجب أن حبه القديم لقمر بعث أيضا كذكرى خالدة مفعمة بالعذوبة. أدرك أنه لم يهجره أبدا. لا شىء يزول. ولا حب أمه. سيظل مدينا لرأس أمه ووجه قمر بمعرفة مأساة الحياة، ولحن الحزن الخافت المتردد تحت سطح الأنوار الباهرة والانتصارات المتألقة. ولم يعرف لزينات عمرا، لعلها تماثله فى عمره أو تكبره، وسيظل ذلك سرا، وقد تعلق بها، أهو حب جديد؟ وتعلق بالقرعة والجوزة. إنه مدين لها أيضا بمفاتن جوهرية مثيرة للفرح والقلق، ولا يرى بأسا من التسليم للتيار.

٤٥

ورأى أباه «المعلم» عبد ربه يخلو إليه باهتمام، ويسأله :

ـ لم لا تتزوج؟ أليس الحلال أفضل من الحرام؟

فلم يحر جوابا فقال عبد ربه :

ـ ولتكن زينات كما فعل عاشور . .

فهزَّ رأسه منكرا فقال الأب :

ـ على أى حال لقد صدقت عزيمتى أنا على الزواج!

فقال جلال بذهول :

ـ إنك يا أبى فى الستين!

ـ لم لا؟!

وضحك عبد ربه ثم قال :

ـ صحتى حسنة بالرغم من كل شىء، واعتمادى بعد الله على المعلم عبد الخالق العطار . .

ـ ومن العروس؟

فقال بمباهاة :

ـ بنت زويلة الفسخانى، بنت حلال فى العشرين من عمرها . .

فسأله باسما :

ـ أليس الأفضل أن تختار سيدة تقاربك فى السن؟

ـ كلا، لا يرجع الشباب إلا الشباب . .

فتمتم جلال :

ـ فليسعدك الله يا أبى . .

وجعل عبد ربه ينوه بالعطار وسحره، وقدرته على رد الإنسان إلى شبابه . .

٤٦

زفت فريدة الفسخانى إلى المعلم عبد ربه. وأقاما فى جناح بالقلعة دار جلال الفخيمة. وطيلة الوقت كان جلال يفكر فى سحر المعلم عبد الخالق العطار.

ودعاه ذات ليلة إلى داره فانسطلا معا، وتسليا بتناول الفاكهة والحلوى. وقال له جلال بجدية:

ـ ما يدور بيننا فهو سر..

فوعد المعلم عبدالخالق بذلك سعيداً بالمنزلة الجديدة التى أنزله الفتوة فيها وسأله جلال:

ـ علمت أنك ترد الكهول إلى الشباب؟

وبابتسامة ثقة أجاب العطار:

ـ بعون الله تعالى.

فقال جلال باهتمام:

ـ لعله أيسر لك أن تحافظ على الشباب؟

ـ هذا مسلم به.

فتنور وجه جلال بالارتياح وتمتم:

ـ لعلك أدركت ما تعنيه دعوتى لك يا معلم عبد الخالق.

فتفكر العطار مليا متهيبا ثقل الأمانة وقال:

ـ ولكن العطارة ليست بكل شىء. لابد أن تسبقها وتسايرها إرادة عاقلة..

ـ ماذا تعنى؟

فقال عبد الخالق بحذر:

ـ لا بد من المصارحة فهل تشعر بأى ضعف من أى نوع كان؟

ـ إنى فى تمام العافية!

ـ عظيم، عليك أن تتبع نظاما دقيقا لحد التقديس..

ـ تكلم ولا تلغز!

ـ الطعام ضرورى ولكن المغالاة ضارة.

فقال جلال بارتياح :

ـ هذا ما تتطلبه تقاليد الفتونة الرشيدة . .

ـ الشرب قليله منشط وكثيره ضار .

ـ معقول .

ـ الجنس يجب أن تتم ممارسته فى نطاق الطاقة بلا تحمل . .

ـ لا بأس .

ـ الإيمان عظيم الفائدة .

ـ جميل .

فقال المعلم عبد الخالق :

ـ عندما يتوافر ذلك كله تجىء وصفة العطار بالمعجزات . .

ـ أهى مجربة؟

ـ بشهادة كثيرين من الوجهاء ! بعضهم يحافظ على شبابه حتى يرعب من حوله !

فلمعت عينا جلال بضوء بهيج ، فقال عبد الخالق :

ـ بنصيحتى وبإذن الله يجب أن يعمر الإنسان حتى المائة ، وليس ما يمنع من أن يعيش بعد ذلك حتى يتمنى قدوم الأجل !

فابتسم جلال بشىء من الوجوم ثم تساءل :

ـ وبعد ذلك؟

فقال العطار باستسلام :

ـ الموت علينا حق . .

ولعن جلال فى سره الشيطان وقال إنهم متفقون أجمعون على تقديس الموت . .

٤٧

وذات ليلة سألته زينات الشقراء وهما فى غاية من الانسجام والانبساط :

ـ لم لا تحقق آمال الحرافيش؟

فرمقها بدهشة وسألها :

ـ ماذا يهمك من ذلك؟

فقبلته وقالت بإخلاص :

ـ كى تطارد الحسد فالحسد قتال !

فهزَّ منكبيه استهانة وقال :

ـ أصارحك بأننى أحتقر الناس . .

ـ ولكنهم مساكين !

ـ لذلك أحتقرهم !

وتقلص وجهه الجميل تقززا ثم قال :

ـ لا تشغلهم إلا لقمة العيش . .

فقالت بإشفاق :

ـ أفكارك تخيفنى . .

ـ لم لا يسلمون للجوع كما يسلمون للموت؟ !

اجتاحتها ذكريات صباها مثل عاصفة ترابية خانقة فقالت :

ـ الجوع أفظع من الموت . .

ابتسم مسبلا جفنيه على نظرة احتقار باردة .

٤٨

مضت الأيام وجلال يزداد قوة وجمالا وبهاء . يمشى الزمن على أديمه غير تارك أثرا كأنه الماء يمشى على مرآة مصقولة . زينات نفسها تتغير كما يتغير كل شىء من حولها ، رغم عنايتها الكبيرة بجمالها . وأدرك جلال أنه يخوض بعناد المعركة المصيرية الحقيقية المقدسة . وقال لنفسه : «إنه من المؤسف حقّا أن الختام حتم ، قد يؤجل بعض الوقت ولكن أين منه المفر؟» .

٤٩

وتوثقت الصداقة بينه وبين المعلم عبد الخالق العطار . وكان من رأى المعلم عبد الخالق أنه لولا فداحة تكاليف الوصفة لصارت حارتهم حارة المعمرين .

وفكر جلال أكثر من مرة فى أن يشرك زينات فى الوصفة السحرية ولكنه كان يتراجع عن فكره دائما. لعله بدأ يخشى سيطرتها وسحرها فكره تحصينها ضد الزمن الجبار. كان يحبها أكثرالوقت ولكن تمر لحظات يود أن ينتقم منها ويبصقها فى أقرب مزبلة. لم تكن علاقته بها بسيطة وواضحة. كانت تنداح فى شبكة معقدة من العلاقات فتتداخل مع ذكرى أمه، ذكرى قمر، عداوته للموت، كرامته، وتعلقه الآسر بها وكان ما يحنقه أكثر من سواه ما يبدو عليها أحيانا من طمأنينة راسخة وثقة بالنفس لا حدود لها، ها هى ذى ترهق بالشراب والسهر، ويلتهب جلدها بالمساحيق، فهل تلحظه خفية بالحسد؟

٥٠

وسأل مرة المعلم عبد الخالق:

ـ سمعت ولا شك عن حكاية عاشور الناجى؟

ـ حكاية محفوظة يا معلم..

فقال جلال بعد تردد:

ـ إنى أعتقد أنه مازال حيا!

فذهل عبدالخالق ولم يدر بماذا يجيب. كان يعلم أن عاشور ولىّ عند قوم ولص لقيط عند آخرين، ولكنهم يسلمون جميعا بموته. وواصل جلال قائلا:

ـ وإنه لم يمت!

وقال عبد الخالق:

ـ كان عاشور رجلا صالحا والموت لا يخطئ الصالحين..

فتساءل جلال محتجا:

ـ أينبغى أن يكون الإنسان شريرا كى يخلد؟

ـ الموت حق، ولكن لا يتطلع إلى الخلود مؤمن!

ـ أعلى يقين أنت من ذلك؟

فخاف عبد الخالق وقال:

ـ هكذا يقولون والله أعلم..

ـ لم؟

ـ أعتقد أن الخلود لا يتاح لإنسان إلا بمؤاخاة الجن..

فاشتعل جلال باهتمام داهم حاد وقال :

ـ حدثنى عن ذلك . .

ـ مؤاخاة الجان ، الخلود واللعنة الأبدية ، التحام الإنسان بالشيطان إلى الأبد . .

فتساءل جلال وهو يتمادى فى الاهتمام :

ـ حقيقة هذا أم هذيان؟

فتردد عبدالخالق ثم قال :

ـ لعله حقيقة!

ـ زدنا تفسيرا . .

ـ لماذا؟ أتفكر حقّا فى تلك المغامرة؟

فضحك جلال ضحكة عصبية وقال :

ـ ليس إلا أنى أحب أن أعرف كل شىء . .

فقال عبد الخالق ببطء :

ـ يقال . إن . . شاور . .

فتساءل جلال :

ـ ذلك الشيخ المجهول الذى يدعى قراءة المستقبل؟

ذلك عمله الظاهر ، ولكنه ينطوى على أسرار مرعبة . .

ـ لم أسمع عن شىء من ذلك . .

ـ إنه يخاف المؤمنين . .

ـ وهل تصدق ذلك؟

ـ لا أدرى يا معلم ولكنه أمر لعين . .

ـ الخلود؟

ـ مؤاخاة الجن!

ـ إنك تخاف الخلود!

ـ يحق لى ذلك ، تصور أن أبقى حتى أشهد زوال دنياى . يذهب الناس رجالا ونساء ، وأبقى غريبا وسط غرباء ، أفر من مكان إلى مكان ، أبيت مطاردا أبديا ، أجن ، أتمنى الموت . .

ـ وتحافظ على شبابك إلى الأبد؟

ـ وتنجب أبناء وتفر منهم ، وكل جيل تعد نفسك لحياة جديدة ، وكل جيل تبكى

الزوجة والأبناء، وتتجنس بجنسية الغربة الأبدية، لا يربطك بأحد اهتمام أو فكر أو عاطفة..

وهتف جلال:

ـ كفى..

وضحك الرجلان طويلا، وتمتم جلال:

ـ يا له من حلم!

٥١

كان شاور يقيم فى بدروم كبير يقع أمام حوض الدواب مباشرة. متعدد الحجرات، وبه للنساء قاعة استقبال، وللرجال قاعة. وهو شخصية خفية لم تقع عليها عين. يستقبل مريديه فى حجرة مظلمة فى الليل، فيسمع صوته ولا يرى له أثر. أكثر زبائنه من النساء ولكن الملمات قد تدفع ببعض الرجال إلى حجرته المظلمة. يسأل ويجيب ويقدم الحلوان عادة إلى جارية حبشية تدعى حواء.

أرسل جلال فى طلبه ولكن طلبه قُوبل بالرفض، وقيل له إنه يفقد خواصه الساحرة خارج حجرته. كان على جلال إذن أن يتستر، يتسلل بليل إلى مقامه، متأخرا حتى يضمن خلو المكان.

مضت به حواء إلى الحجرة. أجلسته على شلتة طرية وذهبت. وجد نفسه فى ظلام حالك. حملق فلم ير شيئا كأنما فقد الزمان والمكان والبصر. وقد نبه عليه أن يلوذ بالصمت، ألا يبدأ بالكلام، أن يجيب على قدر السؤال. مضى الوقت ثقيلا خانقا. كأنه نسى تماما. أى سخرية؟! لم يلق مهانة كهذه منذ تبوأ عرش الفتونة. أين جلال الجبار؟ حتام يصبر وينتظر؟ الويل للإنس والجن إذا تمخضت مغامرته عن لا شىء..

٥٢

انطلق من الظلام صوت عميق مؤثر هادئ يسأل:

ـ اسمك؟

تنهد في ارتياح وأجاب :

ـ جلال الفتوة .

ـ أجب على قدر السؤال ، اسمك؟

فوسع صدره وأجاب :

ـ جلال عبد ربه الناجي .

ـ على قدر السؤال اسمك؟

فأجاب بحدة :

ـ جلال .

ـ اسم أمك؟

غلى دمه بسرعة مخيفة . رأى رغم الظلمة ألوانا جهنمية .

سأل الصوت بآلية وتحد :

ـ اسم أمك؟

أجاب كاظما :

ـ زهيرة .

ـ ماذا تريد؟

تردد قليلا ولكن الصوت لم يمهله فتساءل :

ـ ماذا تريد؟

ـ أن أعرف ما يقال عن مؤاخاة الجن .

ـ ماذا تريد؟

ـ لقد قلت .

ـ ماذا تريد؟

فاجتاحه الغضب وتساءل منذرا :

ـ ألم تعرف من أكون؟

ـ جلال بن زهيرة .

ـ أستطيع أن أطحنك بضربة واحدة .

ـ كلا .

قيلت بكل ثقة وطمأنينة فهتف جلال :

ـ تريد أن تجرب؟

فتساءل الصوت ببرود ولا مبالاة :

ـ ماذا تريد؟

لم يجب . لم يقدم على فعل . عاد الصوت :

ـ ماذا تريد؟

أجاب متنازلا عن كل شىء :

ـ الخلود .

ـ لماذا؟

ـ هذا شأنى .

ـ المؤمن لا يتحدى إرادة الله .

ـ أريد ذلك وأنا مؤمن .

ـ إن ما تطلب خطير .

ـ فليكن .

ـ ستتمنى الموت ولن تناله .

فقال بقلب خفاق :

ـ ليكن .

سكت الصوت . هل ذهب؟ وقع مرة أخرى فى الضياع . تلهف عليه بأعصاب ممزقة . حملق بقوة ولكنه لم ير شيئا .

٥٣

ورجع الصوت بعد عذاب . تساءل :

ـ أأنت على استعداد لتقديم ما يطلب منك؟

أجاب بلا تردد :

ـ أجل .

ـ أن توقف على جاريتى حواء كبرى عماراتك للتكفير بريعها عن ذنبى .

تفكر قليلا ثم قال :

ـ أوافق .

ـ أن تشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق.

ـ فى الزاوية؟

ـ كلا.

ـ زاوية جديدة؟

ـ كلا مئذنة مستقلة . .

ـ ولكن . .

ـ دون مناقشة.

ـ أوافق.

ـ عش عاما كاملا فى جناحك، لا ترى أحدا، لا يراك إلا خادمك تجنب ما يذهلك عن نفسك . .

فانقبض قلبه ولكنه قال:

ـ أوافق.

ـ فى اليوم الأخير يتم الالتحام بينك وبين الجنى ثم لا تذوق الموت أبدا.

٥٤

أوقف جلال عبد ربه الناجى كبرى عماراته على حواء الجارية الحبشية. اتفق مع مقاول على تشييد المئذنة العملاقة فى إحدى الخرابات، وقد امتثل الرجل لما يطلب منه؛ طمعا فى المال، وخوفا من البطش. وعهد بالعصابة إلى وكيله مؤنس العال مزودا إياه بكافة الإرشادات. أعلن عن عام اعتزاله معتلا بأنه يوفى بنذر نذره. وقبع فى جناحه يسجل الأيام كما فعل سماحة فى مهجره، متجنبا القرعة والجوزة وزينات الشقراء. ومنى نفسه بالفوز فى أكبر معركة خاضها بشر.

٥٥

تلقت زينات الشقراء قراره كأنه ضربة قاتلة. قطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد، وبلا سبب مقنع. إنها المرارة والخوف واليأس. ألم يكونا كالزبدة والعسل حلاوة وامتزاجا؟ وآمنت بأنها ملكته إلى الأبد. ها هو ذا يغلق الباب مثل دراويش التكية هاجرا أحبابه فى

الحيرة والعذاب. بكت طويلا والخدم يصدونها عن الجناح. زارت أخاه المعلم راضى فوجدته فى حيرة مماثلة.

جالست أباه عبد ربه فى جناحه. لقد تغير العجوز فلم يعد يزور البوظة إلا فيما ندر. استقام وخشع. وهو مثلها فى حيرة من أمر ابنه. قال:

ـ لا أستطيع رؤيته رغم أننا فى دار واحدة..

عانت زينات حياة معذبة. لم يكن المال ينقصها ولكنها فقدت تاج الحياة، تزعزعت ثقتها بنفسها، وتجهمها المستقبل الغامض.

٥٦

وجزعت العصابة واضطربت. لم يملأ مؤنس العال عين أحد ولكنهم التزموا بطاعته. وتساءلوا أى نذر نذره، ولم يعهد بالفتونة لآخر، وتجارته وأملاكه لأخيه راضى؟

وتسرب النبأ الخطير إلى الحوارى المتنافسة، وبمرور الزمن أعلن الفتوات التحدى من جديد. وتلقى مؤنس العال أولى هزائمه على يد فتوة العطوف، ثم تتابعت الهزائم أمام كفر الزغاوى والحسينية وغيرهما، حتى اضطر مؤنس العال لشراء أمن الحارة وسلامتها بالإتاوات. وأراد رجاله إبلاغه بما آل الحال إليه ولكن حيل بينهم وبين ذلك، وكأنه الموت قد انتزع فتوتهم منهم ودفنه فى جناح محكم الإغلاق.

٥٧

وتابع الناس بذهول بناء المئذنة الغريبة، وتواصل ارتفاعها إلى ما لا نهاية، من أصل ثابت فى الأرض بلا جامع أو زاوية، لا يعرف لها هدف أو وظيفة، حتى الذى يقوم بتشييدها لا يعرف شيئا عنها. وتساءل قوم:

ـ هل مسه جنون؟

أما الحرافيش فقد قالوا إنها اللعنة حلت به جزاء خيانته لعهد جده العظيم، وتجاهله لرجاله الحقيقيين، وجشعه الذى لا يقنع بشىء.

٥٨

ومرت الأيام وهو مستغرق فى عزلته. يقتلع كل يوم من قلبه جذور العالم الخارجى، الفتونة والمال والمرأة المحبة الجميلة. يستسلم للصمت والوعى والصبر. يسلبه الأمل والفوز الذى لم يطمح إليه إنسان من قبل. عاشر الزمن وجها لوجه بلا شريك. بلا ملهاة ولا مخدر. واجهه فى جموده وتوقفه وثقله.

إنه شىء عنيد ثابت كثيف وهو الذى يتحرك فى ثناياه كما يتحرك النائم فى كابوس. إنه جدار غليظ مرهق متجهم. غير محتمل إذا انفرد بمنعزل عن الناس والعمل. كأننا لا نعمل ولا نصادق ولا نحب ولا نلهو إلا فراراً من الزمن.

الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقفه. عندما يدركه الخلود سيجرب آلاف الأعمال بلا خوف وبلا كسل. سيخوض المعارك بلا تدبر. سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة. سيتقلد ذات يوم عمادة الأسرة البشرية. أما اليوم وهو يزحف فوق الثوانى فهو يبسط راحتيه سائلا الرحمة. . ويتساءل: متى يجىء الجان؟ وكيف يؤاخيه؟ هل يراه رؤية العين؟ هل يسمع صوته؟ أم أنه يلتحم به مثل الهواء الذى يتنفسه. إنه مرهق ضجر، لكنه لن يلين للخور. لن يخسر المعركة. ليتألم وليبك إذا شاء. إنه مؤمن بما يفعل. لن يتراجع. لن يخشى الخلود. لن يعرف الموت. سيظل الكون خاضعا لتقلبات الفصول الأربعة، أما هو فربيع دائم. سيكون طليعة كون جديد. أول مستكشف للحياة بلا موت، أول رافض للحياة الأبدية. القوة الظاهرة الخفية. إنما يخشى الحياة الضعفاء. أما معاشرة الزمن وجها لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال. .

٥٩

وقف جلال عاريا أمام نافذة مفتوحة فى آخر يوم من العام المكتوب. استقبل شعاع شمس مغسولا برطوبة الشتاء، وتلقى نفحات باردة من ريح متأنية. آن للمتصبر أن يجنى ثمرة تصبره. آن لليل الضنى والإرهاق والوحدة أن ينتهى. لم يعد جلال عبد ربه الإنسان الفانى. إنه ثمل بروح جديدة تملأ أعطافه، تسكره بالإلهام، تنفحه بالقوة والثقة. بوسعه أن يحدث نفسه فيحدث الآخر فى آن، وأن يثق كل الثقة بما يهمس فى

ضميره. انتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجها لوجه بلا رفيق. لا خوف منه بعد اليوم.

فليهدد غيره بجريانه المنحوس. لن يبتلى بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن. لن تخونه الروح، لن يحمله نعش، لن يضمه قبر. لن يتحلل هذا الجسد الصلب، لن يتحول إلى تراب. لن يذوق حسرة الوداع.

تجول عاريا فى الحجرة وهو يقول بطمأنينة:

ـ مباركة هذه الحياة الأبدية..

٦٠

فتح الباب بعصبية واقتحمت الحجرة زينات الشقراء. طارت نحوه مجنونة بالأشواق فذابا فى عناق حار طويل. انتحبت باكية. سألته بعتاب حار:

ـ ماذا فعلت؟

قبَّل خديها وشفتيها فعادت تتساءل:

ـ كيف هنت عليك؟

اجتاحه الحنين إليها. شيء ثمين جميل عابر. يراها شابة جميلة وعجوزا دميمة. كذبة عذبة. كأن الإخلاص أصبح مستحيلا. قال لها:

ـ لننس ما فات..

ـ ولكنى أريد أن أعرف..

ـ كأنه مرض وانتهى..

ـ يا لك من خائن!

ـ يا لك من امرأة مليحة!

ـ أتدرى ماذا حصل للدنيا فى غيابك؟

ـ فلنؤجل الحديث عن ذلك..

فتراجع رأسها وقالت بانبهار:

ـ ما أجمل منظرك!

فانقبض قلبه وتمتم وهو يرمقها برثاء:

ـ آسف على ما عانيت..

فقالت بعناد :

ـ سأسترد صحتى بعد ساعات . . . ولكن ما سرك؟

فقال بعد تردد :

ـ كنت مريضا وشفيت . .

ـ كان ينبغى أن ألزم جانبك . .

ـ كان العلاج هو الوحدة!

وضمته إلى صدرها وهى تقول بشغف :

ـ دعنى أرى إن كان الحب ما زال هو الحب . . ، أما آلامى وأحزانى فسأحدثك عنها فيما بعد . .

٦١

جلس فى بهو الضيوف فاستقبل المعلم عبد ربه والمعلم راضى فى عناق صادق . وسرعان ما جاء مؤنس العال ورجال العصابة . قبلوه باحترام وقال له مؤنس محزونا :

ـ ضاع كل شىء لم يكن باليد حيلة . .

وفى موكب من رجاله خرج إلى الحارة ، ومضى إلى المقهى . اجتمعت الحارة كلها فى الطريق تحييه فاختلط المحب بالكاره ، والمعجب بالحاسد . ومال نحو مؤنس العال فسأله :

ـ ألم يظن بى أحد الجنون؟

فهتف الرجل :

ـ أعوذ بالله يا معلم . .

فقال له وهو يرمق الجمهور بازدراء :

ـ فليذهبوا إلى أعمالهم مشكورين . .

ثم غمغم :

ـ ما أكثر الكره وما أقل الحب!

٦٢

وزار المئذنة وبصحبته عبد ربه راضى. رسخت قاعدتها وسط خرابة، وأزيل الحصى والقاذورات مما حولها. قاعدة مربعة فى مساحة بهو ذات باب خشبى مقوس مصقول. ويواصل جسمها المتين ارتفاعه، لا ترى له قمة، لا يعلوه بناء، ويعلو أضعافا فوق كل شىء، توحى أضلاعه بالقوة، ولونه الأحمر بالغرابة والرعب.

وتساءل عبد ربه:

ـ لو سلمنا بأنها مئذنة فأين الجامع؟

فلم يجب، فقال راضى:

ـ كلفتنا مبلغا طائلا..

وعاد الأب يسأل:

ـ ما معنى هذا يا بنى؟

فضحك جلال وقال:

ـ الله أعلم..

ـ منذ تم بناؤه ولا حديث للناس سواه..

فقال جلال بازدراء:

ـ لا تهتم بالناس، إنه من النذر يا أبى، وقد يرتكب الإنسان حماقات كثيرة ليبلغ فى النهاية حكمة فريدة..

وهمَّ الأب بمعاودة السؤال ولكنه سبقه بنبرة قاطعة:

ـ انظر، ها هى ذى المئذنة، سيفنى كل شىء فى الحارة وتبقى هى، اطرح عليها أسئلتك وسوف تجيبك إذا شاءت..

٦٣

وانفرد المعلم عبد الخالق العطار وسأله بجدية مخيفة:

ـ ماذا ظننت باعتزالى؟

فقال الرجل بصدق وقلبه يخفق بالخوف :

ـ رددت قولك بلا زيادة .

ـ وماذا ظننت بالمئذنة؟

فقال الرجل بعد تردد :

ـ لعلها من النذر يا معلم . .

فسأله متجهما :

ـ ألست رجلا حكيما يا عبد الخالق؟

فبادر الرجل يقول :

ـ إن تفشت همسة واحدة فاعتبرنى المذنب!

٦٤

فى جوف الليل تسلل إلى المئذنة . رقى سلمها درجة درجة حتى انتهى إلى شرفتها العليا . تحدى جو الشتاء القارص فى تسلطه الشامل على الوجود . تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم الساهرة المنتشرة فوقه كمظلة . آلاف الأعين تومض فوقه ، وكل شىء تحته غارق فى الظلام . لعله لم يصعد ولكن قامته طالت كما ينبغى لها . عليه ، أن يرتفع ، أن يرتفع دائما ، فلا سبيل إلى النقاء إلا بالارتفاع . وفوق القمة تسمع لغة الكواكب ، وهمسات الفضاء ، وأمانى القوة والخلود ، بعيدا عن أنات الشكوى والخور وروائح العفن . الآن تشدو ألحان التكية بأغنيات الخلود ، وتعرض الحقيقة العشرات من وجوهها الخفية ، وينكشف الغيب عن شتى المصائر . من هذه الشرفة يستطيع أن يتابع الأجيال فى تعاقبها ، وأن يؤدى لكل جيل دورا ، وأن ينضم بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام السماوية . .

٦٥

وقاد رجاله ليؤدب أعداءه وليعيد إلى حارته مكانتها السابقة . فى فترة قصيرة أحرز انتصارات باهرة على العطوف والحسينية وبولاق وكفر الزغاوى والدراسة . كان يرمى بنفسه على خصومه فيتطايرون أمامه تسحقهم الهزيمة والذل . عرف بأنه القوة التى لا تقاوم ، التى لا تجدى معها قوة أو شجاعة . .

٦٦

وتغير أسلوبه فى الحياة. أصبح يأكل فيفرط فى الأكل، ويشرب فيفرط فى الشرب، ويدخن فيفرط فى التدخين. وكلما غازلته غانية استجاب لها مستعينا بالسرية والستر. وسرعان ما تحرر من سطوة زينات فلم تعد إلا وردة جميلة فى حديقة ملأى بالورد. وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشتعل بجوانحها جنون الغيرة والخسران، ورأت وجهها فى مرآة المستقبل متلاشيا فى ظلمة النسيان والضياع. طالما وجدت فيه الطفل البرىء ذا المذاهب الخارقة. وفتحت لها براءته أبواب الأمل البعيد، فضمنت الحب وطمحت إلى الزواج. ولعل السلو عن الحياة نفسها أهون من السلو عنه وقد تجسدت فيه القوة والجمال والشباب والعظمة غير المحدودة. ولكنه خرج من عزلته مخلوقا آخر، مخلوقا يبهر بالقوة والجمال، ويرعب بالتقلب والجنون والحنكة والاستهانة. وشعرت بأنها تدق وتنحل وتتضاءل، بل وتتلاشى أمام سيادته المرعبة المجهولة. ولم تجد ما تتذرع به حياله إلا الضعف والابتهال والهزيمة، ولكنه اعترضها بنعومة متكبرة، معتزة بشموخها، متعطفة بحنان بارد متحصنة بتعال لا متناه وقال لها:

ـ اقنعى بمنزلة تحسدين عليها..

ورأت أنها تذبل بقدر ما يزدهر، وأنهما ينطلقان فى طريقين متضادين فاحتقن قلبها بالحب والتعاسة..

٦٧

ورزق عبد ربه الأب بذكر سماه خالد. وسرعان ما تاب وأقلع عن البوظة بصفة نهائية، ووجد سروره فى الصلاة والعبادة، فاتخذ من الشيخ خليل الدهشان نجيه وصديقه..

وداخله قلق مرعب من ناحية جلال وقلق أشد من ناحية المئذنة المخيفة خُيّل إليه أن علاقة الأبوة تتهتك، وأن ابنه أصبح غريبا لا يمت إليه بصلة، بل أصبح غريبا بين الناس غرابة المئذنة بين الأبنية. إنه مثلها قوى وجميل وعقيم وغامض. وقال له:

ـ لن يطمئن قلبى حتى تتزوج وتنجب..

فقال جلال :

ـ فى الوقت متسع يا أبى . .

فقال بتوسل :

ـ وحتى تبعث عهد الناجى العظيم . .

فابتسم ولم يجب ، فقال الأب :

ـ وحتى تتوب عن المنكر وتتبع سبيل الله . .

وتذكر ماضى أبيه القريب والبعيد فقهقه بصوت كالطبل .

٦٨

مرت الأيام لا يخشى من مرورها . وتتابعت الفصول بلا جزع . وارتفعت الإرادة الصلبة فوق قوى الطبيعة المتصارعة . ولم يعد الغيب يضمر ما يخيف .

وفى هاوية اليأس والحزن تلقت زينات الشقراء دعوة للحب . طالما انتظرتها ، طالما تلهفت عليها ، طالما تهيأ لها قلبها المكلوم .

ها هو ذا يجود بليلة من لياليه ، ها هى ذى تمضى إلى داره ينطق ظاهرها بالرضا والقناعة . وفتحت النوافذ وانجابت الستائر لتوسع لنسائم بشنس . لقيته بالبشر والمرح وكتمت فى الأعناق أحزانها . تعلمت أن تعامله بحذر الخائف ، فراحت تعد الشراب والأقداح ، وتهمس فى أذنه :

ـ اشرب يا حبيبى . .

فيقول لها وهو يعب من الخمر عبا .

ـ ما ألطفك !

وقالت لنفسها إنه فقد قلبه كما فقد براءته ، وإنه يتباهى وهو لا يدرى بقسوته مثل الشتاء ، وقالت لنفسها أيضا إنها تنتحر بوعى وإرادة . .

ورمقها وهو يتوغل فى السكر ، وتمتم :

ـ إن صح نظرى فلست كالعهد بك . .

فقالت بعذوبة :

ـ إنه وقار الحب . .

فضحك قائلا :

ـ لا وقار لشىء . .

وعابث خصلة من شعرها الذهبى وقال :

ـ ما زلت فى أعز مكانة ، ولكنك امرأة طموحة . .

فاندفعت قائلة :

ـ ما أنا إلا امرأة حزينة . .

ـ تذكرى نصائحك الغالية عن قصر الحياة . .

ـ كان ذلك فى زمان الحب . .

ـ ها أنا ذا أعمل بها فشكرا لك . .

وقالت لنفسها : «إنه لا يدرى ما يعنيه كلامه ، وإنها تعلم الغيب أكثر منه بقيراط ، وإن الشر يرفع الإنسان على رغمه إلى مرتبة الملائكة» . ورنت إليه طويلا بشغف وهى تقاوم رغبة فى البكاء . واستنامت إلى نسائم بشنس وقالت لنفسها : «إنه شهر غدار ، سرعان ما تدهمه الخماسين فينقلب شيطانا مغيرا يفتك بالربيع» . واحتواها بين ذراعيه فضمته إلى صدرها بقوة جنونية . .

٦٩

تخلص من ذراعيها ومضى ينزع عنه ملابسه حتى بدا كتمثال من نور . ونهض قائما . راح يتمشى فى المخدع ، وسرعان ما ترنح حتى ضحك .

قالت :

ـ شربت بحرا . .

ـ مازلت ظمآن . .

فغمغمت كأنما تخاطب نفسها :

ـ ذهب زمان الحب . .

وترنح متطوحا حتى تهاوى فوق ديوان . وضحك عاليا . قالت :

ـ إنه السكر . .

فقال متجهما :

ـ كلا ، شىء أثقل ، كأنه النوم . .

حاول القيام ولكنه استسلم متمتما :

ـ إنه النوم يجيء بلا دعوة . .

عضت على شفتها. هكذا سينتهى العالم ذات يوم. وأتعس الناس من ينشد النصر فى الهزيمة.

وقالت له بصوت مبحوح :

ـ حاول أن تنهض .

فقال بتراخ وقور :

ـ لا داعى لهذا . .

ـ ألا تستطيع يا حبيبى؟

ـ بلى، إنها نار الجحيم والنوم . .

فانتفضت قائمة. تراجعت إلى مركز المخدع وهى تنظر إليه بوحشية حلت محل العذوبة الحزينة. أصبحت قطعة من التحفز المشرب بالمرارة والحزن. نظر نحوها بعينين غائمتين، حول بصره إلى لا شيء. قال بنفس ثقيل :

ـ ما بال النوم يزحف؟!

فقالت بنبرة اعتراف مقدسة :

ـ ليس النوم يا حبيبى . .

ـ لعله الثور الذى يحمل الدنيا على قرنه؟

ـ ولا هو الثور يا حبيبى . .

ـ إنك مضحكة يا زينات، لماذا؟

ـ بل إنى أنتحر . .

ـ هه؟

ـ إنه الموت يا حبيبى!

ـ الموت؟!

ـ لقد جرعت من السم ما يكفى لقتل فيل . .

ـ أنت؟!

ـ أنت يا حبيبى . .

وضحك، ولكنه سرعان ما كف عن الضحك فى إعياء، فقالت وهى تبكى :

ـ قتلتك لأقتل حياة العذاب!

حاول الضحك مرة أخرى وتمتم :

ـ جلال لا يموت . .

ـ الموت يطل من عينيك الجميلتين . .

ـ الموت مات يا جاهلة . .

واستجمع كل قوته حتى وقف ممتدا فى فضاء الحجرة . تراجعت إلى الوراء فى رعب، ثم اندفعت هاربة مجنونة . .

٧٠

كأنه يحمل المئذنة المرعبة فوق كاهله . الموت ينطحه كما ينطح أى حيوان أعمى صخرة صلدة . وهتف بلا خوف :

ـ ما أشد الألم !

سار مترنحا نحو الخارج وهو عار تماما . تمتم وهو يغادر الدار إلى ظلام الحارة :

ـ جلال يتألم، ولكنه لا يموت . .

تقدم ببطء شديد يخوض الظلمة الحالكة مغمغما بصوت غير مسموع :

ـ النار . . أريد ماء . .

وجعل يتحرك فى الظلام ببطء شديد، يغمغم متشكيا وهو يعتقد أنه يملأ الدنيا صياحا . وتساءل : أين الناس؟ أين الأتباع؟ أين الماء؟ أين زينات المجرمة؟ وقال إنه الكابوس فى ثقله وسماجته ولكنه ليس الموت . القوى المجهولة تعمل الآن بكل طاقتها لترده إلى الحياة والسخرية . . ولكن ما أشد الألم ! ما أفظع الظمأ !

وعثر فى تخبطه بجسم بارد . آه إنه حوض الدواب ! اجتاحته فرحة النجاة . انحنى فوق حافة الحوض . فتهاوى إلى أسفل . مد ذراعيه فغرقتا فى الماء . لامست شفتاه الماء المشبع بالعلف . شرب بنهم . شرب بجنون . صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم . غاص نصفه الأعلى فى الماء العكر، تقوض نصفه الأسفل فوق أرض مغطاة بالروث، كفنته الظلمة الحالكة فى تلك الليلة المثيرة المفزعة من ليالى الربيع . .

الأشــباح
الحكاية الثامنة من ملحمة الحرافيش

١

دهر طويل كان ينبغى أن يمر قبل أن تنسى الحارة منظر جثة جلال المنطرحة على حافة حوض الدواب. جثة عملاقة بيضاء ملقاة بين العلف والروث. هيكلها العظيم يوحى بالخلود، سلبيتها المتهافتة تشهد بالفناء وفوقها يتشبع الجو على ضوء المشاعل بالسخرية المرعبة.

انتهى القوى الشامخ فى عنفوان شبابه. تلاشى ظله ذو المائة عين والألف قبضة. حمله أبوه عبد ربه وأخوه راضى إلى داره العظيمة. شيع فى جنازة مهيبة إلى قبر شمس الدين الناجى. خلد ذكراه فى سجل الفتوات العظام بالرغم من صفاته الشيطانية.

يذهب الإنسان بخيره وشره ولكن تبقى الأساطير.

٢

تولى الفتونة بعده مؤنس العال. ورغم ما خلفه موت جلال من ارتياح عام إلا أن الحارة فقدت توازنها وداهمتها مخاوف جديدة. وسرعان ما نزلت عن مكانتها المرموقة فمضت فى ركب الحى حارة من الحارات، وتلاشت فتونة فتوة الفتوات، وراح مؤنس العال يهادن ويصادق، أو يخوض معارك خاسرة، ويضطر أحيانا لشراء السلامة بالإتاوة والهدايا، أما داخل الحارة فلم يتصور أحد أن يخلص مؤنس العال للعهد الذى خانه جلال حفيد الناجى ومعجزة القوة والنصر.

٣

وورث التركة الضخمة رجلان، الأب عبد ربه، والأخ راضى. وعلل موت جلال بإفراطه فى الخمر والمخدرات. أما انطراحه بين العلف والروث عاريا فاعتبر جزاء إلهيا

لصلفه وشموخه وتعاليه على البشر . وبقيت المئذنة بلا وريث ، متمادية فى الضخامة والارتفاع والعقم ، آية على الغطرسة والجنون .

٤

وبعد حين فتح المعلم عبد الخالق العطار فاه . همس بالمغامرة العجيبة ، بمؤاخاة الجان ، بدور الرجل الغامض شاور . هكذا ذاع السر وتناقله الناس ، وأكدت زينات الشقراء الظنون بما روت عنه من اعتقاده بأنه لا يموت . واختفى شاور وجاريته هربا من غضب الخلق . واقترح كثيرون هدم المئذنة ولكن الأغلبية خافت أن يكون الجنى قد سكنها حقّا ، فيخشى على الحارة من هدمها أن يلحقها من الأذى ما لا يدريه بشر . هكذا تركت ، يتجنبها القوم ، يلعنها الرائح والغادى ، تمتلئ جوانحها بالحيات و الخفافيش والعفاريت .

٥

وقال الحرافيش إن ما حل بجلال هو الجزاء العادل لمن يخون عهد الناجى العظيم . من ينسى دعاءه الخالد بأن يهبه الله القوة ليجعلها فى خدمة الناس . وعندما يخون حفدة الناجى عهده تحل بهم اللعنة ويفتك بهم الجنون . حتى المعلم عبد ربه ناله من ازدراء الحرافيش ما ناله ، وكذلك المعلم راضى ، ولم يغن عنهما مالهما الغزير .

٦

وعاشت زينات الشقراء فترة من الرعب والترقب ولكن أحدا لم يشر إليها باتهام . حتى من ساوره شك فى دورها تغاضى عن ظنونه حامدا لها فعلها المجهول . ولم تنعم المرأة بانتقامها ، فعاشت وحيدة زاهدة بلا قلب ولا راحة . واكتشفت عقب موت جلال بفترة من الزمن أن حبهما قد خلق فى بطنها ثمرة فحرصت عليها بقوة حبها الخالد ، وملكها شعور بالفخار رغم أنها ثمرة غير مشروعة . وأنجبت ذكرا فسمته جلال بكل جراءة وصراحة متحدية به التقاليد .

٧

ووهبته حبين، حب الأمومة، وحب العاشقة الخالدة لأبيه الراحل. ونشأ جلال فى أحضان أمه حياة متواضعة، آثرتها أمه على العودة إلى حياة الغانيات، ولم تنس قط أنه الوريث الحقيقى لتركة جلال الخيالية. وسعت إلى المعلم عبد ربه، ثم إلى المعلم راضى، لينزلا للصغير عن شىء من ماله ولكنهما قاطعاها بحدة دلت على أنهما يتهمانها بدور فاصل فى مصرع جلال. وقال المعلم راضى:

ـ امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أبا لابنها؟!

٨

وترعرع جلال كابن من أبناء الحارة، مجهول النسب، يشار إليه بوصفه ابن حرام، كما كان يشار إلى أبيه بوصفه ابن زهيرة. ولكن نموه المطرد أثبت لكل ذى عينين أنه ابن جلال دون غيره. أجل لم يكن له قوته ولا جماله ولا عملقته ولكن لا يخطئ أحد فى ربط الصورة المتواضعة بالأصل البائد.

٩

ودخل جلال الكُتَّاب عامين، ثم عمل سواقا عند «الجدع» صاحب العربات الكارو. وكانت زينات قد أنفقت مدخرها فلم تستطع أن توفر لجلال عملا أفضل، وكانت فخورا بابنها كما كانت فخورا بصبرها واستمساكها بالحياة الشريفة. ورغم تجاوزها للأربعين كانت ما تزال على قدر من الجمال جعل المعلم الجدع يطمع فى ضمها إلى حريمه. لم ترحب زينات برغبة المعلم وخافت فى الوقت نفسه أن يسىء معاملة ابنها، ولكن الرجل نبذ رغبته عندما قال له مجاهد إبراهيم شيخ الحارة الذى خلف خليل الفص بعد وفاته، قال:

ـ كيف تركن لامرأة قتلت ذات يوم رجلها؟!

وعرف جلال ـ مع الأيام ـ أنه ابن جلال صاحب المئذنة وحفيد زهيرة، وأن عبد ربه جده، والوجيه راضى عمه. عرف تاريخه الحزين كما عرف تاريخ الناجى، ولبسه لقب ابن الحرام كقدر لا مفر منه ولا تكذيب له. وقال له المعلم الجدع ذات يوم:

ـ إياك أن تعمد إلى العنف، اصبر وما صبرك إلا باللّه، وإلا فابحث عن رزقك فى مكان آخر..

وقال له الشيخ سيد عثمان شيخ الزاوية (خليفة المرحوم الشيخ خليل الدهشان):

ـ مؤنس العال يرقبك باهتمام بوصفك من حفدة الناجى، حذار أن تستغل قوتك فتهلك..

فصبر جلال مؤثرا السلامة، واستحق باجتهاده وأمانته تقدير الجدع..

١٠

وتمر الأيام وتنبت من جديد آمال. تشجعت زينات بعطف الجدع على جلال وراحت تخطب له عفيفة ابنة المعلم. وكان الرجل فظا صريحا عندما أجاب قائلا:

ـ جلال ولد طيب ولكنى لا أزوج ابنتى من ابن حرام..

وبكت زينات منفعلة أما جلال فقد تحمل الطعنة صابراً..

١١

ومات الجدع عقب تناوله صينية فول بالخلطة وصينية كنافة بالقشدة، وقد تجاوز السبعين من عمره. وانتظرت زينات عام الحداد، ثم طلبت عفيفة من أمها فوافقت المرأة بناء على ما آنست من ميل ابنتها للفتى..

هكذا زفت عفيفة الجدع إلى جلال عبد اللّه.

١٢

وبالزواج ترقى جلال عبد اللّه من سواق كارو إلى صاحب كارو وإن لم تكن عفيفة هى المالكة الحقيقية. أحسن الإدارة وتحسنت أحواله المعيشية ثم توج حظه بالأبوة. وتتابعت أيام مريحة أنجب فيها بنات، ثم رزق بذكر سرعان ما أسماه شمس الدين جلال الناجى. أعلن بالتسمية عن كبريائه الدفين مثل النار فى الصوان. وسلم الجميع بصدق التسمية غير أن آل الناجى الأكابر ـ مثل الوجيه راضى ـ امتعضوا لها. أما الحرافيش وسائر الناس فلم ينسوا أن جلال الأب ابن غير شرعى للمجنون صاحب المئذنة الشيطانية. وقال عنبة الفوال صاحب البوظة وخليفة المرحوم سنقر الشمام:

ـ ما أكثر الذين يسمون بعاشور وشمس الدين فى حارتنا!

أجل لم يبق من تراث الناجى الخالد إلا الأسماء. أما العهود والأفعال فتعيش فى الخيال مع الأساطير والمعجزات المسربلة بالحسرات.

١٣

وتمر أيام رتيبة ومريحة فى حياة جلال عبد اللّه وأسرته ويعرف الرجل بالطيبة والأمانة وحسن الخلق والورع. ويتوافر له الرزق، ويعشق العبادة، ويصبح من أقرب المقربين للشيخ سيد عثمان شيخ الزاوية، وتتوثق علاقته بزوجته عفيفة.

ويقنع بمعاشرتها، ويحسن تنشئة شمس الدين، ويظل الابن البار لأمه زينات رغم ما أورثته من سوء سمعة وألم. وتدل البشائر على أن هذه الأسرة ستشق طريقها فى يسر وبلا تاريخ..

١٤

عندما بلغ المعلم جلال عبد اللّه الخمسين من عمره انقلب حاله ودهمته العجائب من زوايا المجهول. فى البدء كانت وفاة أمه. ماتت زينات فجأة عن ثمانين عاما. ومن

عجب أن جلال ـ رغم كهولته ورغم شيخوخة أمه ـ قد صدم صدمة عنيفة زعزعت توازنه. رئى فى الجنازة وهو يبكى وينتحب، ثم غشيته كآبة ثقيلة خنقته ثلاثة أشهر حتى ظن به التدهور. ولم يفهم حزنه وسخر منه كثيرون. وهو نفسه كان يقول إنه طالما أحبها حبا جما، ولكنه ما كان يتصور أن يفعل به موتها ما فعل. أما الأعجب من ذلك فهو ما حصل له عقب انقشاع الكآبة. لقد ولد شخص جديد مجهول الأصل. كأنما قذفه قبو مسكون بالعفاريت. تبدى له حبه لأمه عاطفة غريبة مضللة كأنها سحر أسود. تبخرت فى الهواء مخلفة حجرا باردا شديد القسوة. أصبح يثور لذكراها ويلعنها. لم يبق فى قلبه أثر لحزن أو بر أو وفاء. وثمة صوت يهمس له فى ذهوله بأنها كانت ينبوع العداوة والمقت فى حياته. وأنه ضحيتها الأبدية. وتساءل ذات يوم:

ـ هل حزنت لموتها حقّا؟ . . يا لها من نزوة جنونية أمام الموت!

ومرة كان يجالس مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال له:

ـ كانت أمى ذات صفات كريهة وسمعة سيئة ونوايا خبيثة . .

فدهش شيخ الحارة وقال له:

ـ لا أكاد أصدق أذنى . .

ـ أومن الآن بأنها حقّا قتلت أبى. وقد كانت عربيدة مدمنة للمخدرات. إنى أتقزز من ذكراها . .

ـ اذكروا حسنات موتاكم . .

فهتف بحقد لم يعرف عنه:

ـ لا حسنة واحدة لها!

ثم بغيظ أشد:

ـ لقد تمتعت بعمر طويل مريح لا تستحقه . .

١٥

وتغير سلوكه فيما يشبه الانهيار.

كف عن الصلاة، هجر الزاوية، ماج بانفعالات عنيفة. وإذا به يقتحم البوظة لأول مرة فى حياته. كان هناك الفتوة مؤنس العال وبعض رجاله. فلما رآه صاح ساخرا:

ـ أخيراً عرف الحمار الضال حظيرته . .

وضجَّ الحاضرون بالضحك. أما جلال فابتسم فى شىء من الارتباك ثم رفع القرعة إلى فيه الظمآن.

وسأله مؤنس العال:

ـ ماذا أغراك بتقليد الرجال؟

فقال بسرور:

ـ الاقتداء بالرجال شرف يا معلم..

ولما انصرف الفتوة راح جلال يغنى:

على باب حارتنا حسن القهوجى

وسكر وانبسط وراح يقول:

ـ حلمت أمس بأننى تسللت إلى مئذنة أبى، وأن شخصا جميلا صعد بى إلى شرفتها العليا، ثم دعانى إلى ملاعبته الحجلة فرحت أحجل حتى اختل توازنى فسقطت من الفتحة العالية. ولكننى لم أصب بأدنى أذى..

فقال له عنبة الفوال الخمار:

ـ خير ما تفعل أن تجرب ذلك فى يقظتك..

فراح يغنى من جديد:

باسمع نغم بالليل عشق البنات البكارى

هد منى الحيل

١٦

وجد عفيفة مستيقظة تنتظر. لم يسبق له مثل هذا السهر. وتطايرت إلى أنفها رائحة البوظة فضربت صدرها براحتها هاتفة:

ـ سكران؟!

فراح يرقص ويقول:

ـ أنا جدع يا بنت الجدع.

١٧

وذاعت أخباره، فعجب الناس وقالوا «مجنون ابن مجنون». واعترضه الشيخ سيد عثمان ذات يوم وسأله:

ـ ماذا قطعك عنا؟

فلم يجبه فسأله بأسى:

ـ أحق ما يقال عنك؟

فهجره ماضيا فى سبيله.

١٨

وكان إذا سكر وفقد الوعى تقتحمه مغريات جديدة كأنما تتفجر عنها غرائز رجل آخر. كان ينجذب إلى البنات المراهقات أو من دونهن بقليل، بقوة غشوم، فيعاكسهن ويغازلهن. وإذا خلا إلى إحداهن انبثق من إهابه وحش نهم. لذلك كان يتحاشى السكر فى النهار خشية العواقب، ويتسلل ليلاً إلى الخرابات مثل ذئب جائع..

وقادته قدماه ذات ليلة إلى مسكن «دلال» الغانية، وانفرط منه الزمام..

١٩

غدا رجل الانحلال والفضائح. أوتى قوة كبيرة على الاستهانة بكل شىء. ولعل ما ربطه بدلال أنها كانت صغيرة السن وذات وجه مطبوع بطابع الطفولة، وأنها كانت تتسامح فى نزواته الغريبة فتوفرها له بدلا من أن تقصيه عنها أو تعنفه بسببها. وقالت له مرة بصراحة:

ـ إنى أحب الجنون فلا يهمك ما يقال!

فهتف جلال:

ـ أخيراً عثرت على امرأة عظيمة مثل جدتى زهيرة!

وانطرح على ظهره فى تراخ وارتياح وراح يعترف لها قائلاً :

ـ استيقظت ذات صباح فوجدتنى سكران بلا خمر ، كان يخفق بصدرى قلب جديد ، كرهت حاضرى وذكرياتى ، حتى التجارة والربح . ومشاكل البنات المتزوجات . وكرهت امتثال ابنى شمس الدين الذى يعمل سواقا عندى وكأنه حمار يسوق حمارا ، وكرهت أمه التى يمضى محصنا ببركاتها ، ورأيتها تستنزفنى بلا وجه حق ، كما استنزفتنى أمى من قبل بطريقة أخرى . وثار القلب والعقل والكبد وأعضاء التناسل وهتفت بشرى للشياطين . .

فقالت دلال ضاحكة :

ـ إنك ألذ رجل فى العالم . .

فقال بثقة :

ـ سمعت أن الرجال يولدون من جديد فى سن الخمسين . .

فقالت بيقين :

ـ ومرة أخرى فى الستين . . والسبعين . .

فتأوه قائلا :

ـ لولا غيرة امرأة شريرة لخلد أبى وحطم كأس المنون . .

فقالت له دلال :

ـ لولا أنك معجزة ما أحببتك قط . .

٢٠

تتابعت الضربات وانهالت بعنف على رأس عفيفة . تقوضت دنياها ، تبدد حلمها ، تبخرت سعادتها ، اعتقدت أن «عملا» عمل لزوجها فطافت بأضرحة الأولياء وقراء الغيب ، التزمت بكل نصيحة نصحت بها ، ولكن جلال توغل فى ضلاله بلا هوادة . لقد أهمل عمله أو كاد ، واظب على السكر والعربدة ، التصق بدلال ، استباح كرامته فى مغازلة البنات .

لولا الخوف من العواقب لفكرت فى أن تشكوه إلى مؤنس العال . ولم تجد فى حزنها ووحدتها إلا ابنها شمس الدين فبثته حزنها ومأساتها ، وقالت له :

ـ حدثه يا شمس فربما لان لك .

وكان بين عفيفة وشمس الدين علاقة حميمة فاقت كل تصور ، فحزن الفتى لأمه ،

حزنه على سمعته وكرامته. وتشجع فصارح أباه بأحزانه، ولكن الرجل غضب، وهزَّه بعنف، قائلا:

ـ أتريد أن تربينى يا ولد؟!

فانطوى الفتى على أحزانه. كان يماثل أباه فى قوته وملاحته وأخلاقه المأثورة التى تقوضت فجأة. ولم يدر ماذا يفعل، وراح يعانى ثورة من عواطفه تتحدى بنوته وبره ودماثته. ولم تكف أمه عن شكواها، فتلقى منها نفحات متواصلة من المرارة والحنق. وطالما حذرته:

ـ سيبدد كل شىء، سيتركك متسولا..

وبدا له أن أسرته تعانى من لعنة أبدية. تستعين بالجنون والدعارة والموت. وتقلص قلبه فأخذ يجف من الوفاء والحب، ويتحدى المجهول بالقوة والقهر وعجب متسائلا:

ـ لم قبلت أمى الزواج من مثل هذا الرجل؟!

٢١

وجعلت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ كعقود نهار الصيف الماضية نحو الظهيرة المتلظية. وأخذ قلب شمس الدين يتلون بالسواد ويتشرب بالرفض والحنق. وترامى إليه وهو جالس فى القهوة أن أباه يرقص فى البوظة شبه عار. وجنَّ الفتى فانطلق من فوره إلى البوظة بقلب محزون وإرادة مصممة. رأى أباه وهو يرقص وليس عليه إلا سرواله. والسكارى يصفقون ويغنون:

عومى على الميه

لم ينتبه المعلم جلال لمقدم ابنه فواصل الرقص فى غاية من الانسجام ورأى بعض السكارى شمس الدين فكفوا عن التصفيق والغناء داعين الآخرين إلى ذلك وقال أحدهم بإغراء شرير:

ـ فلنشهد منظرا طريفا!

وبتوقف التصفيق والغناء توقف المعلم جلال عن الرقص محتجا. وعند ذاك انتبه إلى وجود ابنه، كما فطن إلى غضبه وتحديه فغضب بدوره وصاح به متسائلا:

ـ ماذا جاء بك يا غلام؟

فقال شمس بأدب:

ـ تفضل يا أبى بارتداء ملابسك . .

فصاح المخمور :

ـ ماذا جاء بك يا وقح؟!

فقال بإصرار :

ـ أتوسل إليك أن ترتدى ملابسك .

فانقض عليه مترنحا ولطمه لطمة شديدة صفقت فى البوظة الصامتة، وصاح أكثر من صوت فى تحريض وسرور :

ـ عفارم!

وانهال الرجل على ابنه لطما حتى خارت قواه من شدة السكر فتهاوى على الأرض فاقد الوعى . .

وندت ضحكة ثم ساد الصمت وقال صوت :

ـ قتلت أباك يا شمس الدين . .

وقال آخر :

ـ حتى الشهادة لم ينطق بها!

وانكب شمس الدين على أبيه يلبسه ثيابه، ثم حمله بين يديه، ومضى به مشيعا بقهقهات غليظة ساخرة .

٢٢

أفاق المعلم جلال بعد قليل فوق فراشه بمسكنه الشرعى . جالت عيناه الحمراوان فيما حوله فرأى عفيفة وشمس الدين ومعالم الحجرة الكريهة . سرعان ما تذكر كل شىء . إنه الليل وكان ينبغى أن يكون فى فراش دلال . وهذا الفتى قد جعل منه سخرية السكارى وأعدم هيبة الأبوة . جلس فى الفراش وهو ينفخ . وثب إلى الأرض . انقض على شمس الدين وراح يكيل له الضربات . رمت عفيفة نفسها بينهما باكية . تحول جلال إليها فاقد الرشد . قبض على عنقها وشد بوحشية . عبثا حاولت المرأة التخلص من قبضتيه . تجلت فى وجهها اليائس معالم الاختناق والموت . . صاح شمس الدين :

ـ دعها . . إنك تقتلها . .

لم يحفل به منتشيا بوحشية الجريمة . فزع شمس الدين إلى مقعد خشبى فرفعه وهوى به على رأسه بقوة جنونية . .

٢٣

حل هدوء ثقيل محل الصراخ والانفعال الأحمر. استلقى المعلم جلال فوق فراشه مضرجًا فى دمه. اقتحم المسكن جيران وجاء أيضًا مجاهد إبراهيم شيخ الحارة. وقدم الحلاق لتقديم الإسعافات الضرورية وإيقاف الدم السائل، على حين انزوى شمس الدين فى زاوية مستسلمًا للأقدار..

وغاب الزمن تمامًا. وانداحت لحظة ساخرة مفعمة بالاحتمالات كافة. لحظة عشوائية أقوى من جميع وسائل التفكير والتدبير كافة.. وأدركت عفيفة كما أدرك شمس الدين أن الحاضر يدفع الماضى ويعدمه ويدفنه.. وتمتم مجاهد إبراهيم:

ـ أى قدر يعبث بأب ووحيده..

فولولت عفيفة هاتفة:

ـ إنه الشيطان..

وخيم صمت فوق جلال مثل جبل. ما زال صدره يعلو وينخفض. هتف مجاهد إبراهيم:

ـ يا معلم جلال!

وهتفت عفيفة:

ـ لتشملنا رحمة اللّه القدير.

وسأل شيخ الحارة الحلاق:

ـ ماذا تجد؟

فأجاب الحلاق وهو لا يكف عن عمله:

ـ العمر بيد اللّه وحده..

ـ ولكن لك خبرتك أيضًا؟

فاقترب منه وهمس فى أذنه:

ـ لا نجاة من تلك الضربة..

٢٤

فتح جلال عبد اللّه عينيه المظلمتين . لم يكد يعرف أحدا . طال صمته حتى حطم أعصاب من حوله ولكنه أخذ يستعيد قبسات من إدراكه . تمتم :

ـ إنى راحل !

فتأوهت عفيفة قائلة :

ـ بعد الشر عنك . .

فعاد يتمتم :

ـ إنى لا أخشى الظلام . .

ـ إنك بخير .

ـ لتكن إرادة اللّه . .

اقترب مجاهد إبراهيم من الفراش وقال :

ـ يا معلم جلال ، أنا مجاهد إبراهيم ، تكلم أمام هؤلاء الشهود . .

فتساءل جلال بصوت ضعيف :

ـ أين شمس الدين ؟

فدعاه مجاهد إبراهيم إلى الاقتراب فاقترب وقال شيخ الحارة :

ـ ها هو ذا ابنك . .

ـ إنى راحل . .

فسأله شيخ الحارة :

ـ ماذا حصل ؟

ـ قضاء اللّه . .

ـ من الذى ضربك ؟

وسكت الرجل ، فألح مجاهد إبراهيم قائلا :

ـ تكلم يا معلم جلال .

ـ إنى راحل . .

ـ من الذى ضربك ؟

فقال متنهدا :

ـ أبى!

ـ الأموات لا يضربون، يجب أن تتكلم . .

فتنهد مرة أخرى وقال:

ـ لا أدرى . .

ـ كيف؟

ـ الحارة مظلمة .

ـ هل اعتدى عليك فى الحارة؟

ـ أو فى مدخل البيت . .

ـ لا شك فى أنك عرفت الجانى .

ـ كلا . . أخفاه الظلام والغدر . .

ـ لك أعداء؟

ـ لا أعرف . .

ـ هل تشك فى أحد؟

ـ كلا . .

ـ أنت لا تعرف الجانى ولا تشك فى أحد؟

ـ بلى، استغثت بابنى، فجاء ليحملنى ثم غبت عن الوجود . .

سكت مجاهد إبراهيم . حدقت الأعين بجلال وكان يحتضر . .

٢٥

ذهل شمس الدين وهو يصغى إلى صوت أبيه قبل أن ينقطع . خانته الشجاعة فلم ينبس بكلمة . تلقى حنان أبيه المحتضر بخشوع وجبن وندم . زاغ من نظرات مجاهد إبراهيم فدفن وجهه فى يديه وبكى . وطيلة يوم الجنازة وأيام المأتم لم يغمض له جفن . تحرك بين الناس شبحًا تطارده أشباح الجحيم . لقد جن جده وجنت جدة أبيه وارتكب نفر من السلالة أبشع الانحرافات، ولكنه أول من يقتل أباه من آل الناجى الملعونين .

ولما خلا إلى أمه قالت تشجعه:

ـ إنك لم تقتل أباك ولكنك دفعت إلى الدفاع عن أمك . .

وأيضا تساءلت:

ـ أليس اللّٰه بعالم كل شىء؟!

ثم قالت بحرارة :

ـ إن الشهادة التى حماك بها خليقة بالتكفير عن ذنوبه جميعا ، وسوف يلقى ربه بريئا طاهرا مثل طفل وليد . .

وأغرق شمس الدين فى البكاء وتمتم :

ـ لقد قتلت أبى !

٢٦

ودعاه المعلم عبد ربه للقائه فى «القلعة» دار جلال صاحب المئذنة . كان يعلم أنه والد جده جلال وأنه فى المائة من عمره . وجده هرما لا يفارق داره ، ولا حجرته ، ولكنه كان بالقياس إلى عمره موفور الصحة والنشاط ، وقورا ، يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويعى الأمور . عجب شمس الدين لتعمير الرجل بعد وفاة ابنه وحفيده ، ولم يحمل له ذرة من حب أو احترام ، ولا ينسى مقاطعته لأبيه . .

تفحصه طويلا وهو يقربه من وجهه ثم قال :

ـ البقية فى حياتك . .

فرد عليه ببرود ، فقال عبد ربه :

ـ فى وجهك شبه من جلال بن زهيرة . .

فقال ببروده :

ـ لقد قاطعت أبى . .

فقال بهدوء :

ـ كانت الأمور معقدة . .

فقال بتحد :

ـ بل الطمع فى التركة !

ـ كل تركة عدا عهد عاشور فهى لعنة . .

ـ ولكنك تتمتع بها لآخر لحظة فى حياتك . .

فقال العجوز بنبرة مضطربة :

ـ دعوتك لأعزيك ، خذ نصيبك من التركة إذا شئت . .

فقال شمس الدين وكأنه يكفر عن جريمته :

ـ إنى أرفض كرمك . .

ـ إنك عنيد يا بنى . .

ـ إنى أنكر من أنكر أبى . . .

عند ذاك أغمض العجوز عينيه، فغادر شمس الدين المكان .

٢٧

لم يجد شمس الدين بدا من مواجهة الحياة . انطبع وجهه بجدية تكبره بنصف قرن . أخذ نفسه بالتقوى والاستقامة . حل محل أبيه فى إدارة العربات فهرب من ذاته بالإغراق فى العمل . عرف فى الحارة بقاتل أبيه . اعتبر لعنة متحركة فى مقابل المئذنة تلك اللعنة الثابتة . ويتساءل أناس ماذا تتوقعون من شاب أبوه ابن حرام وجده صاحب المئذنة؟ صمم شمس الدين على تحدى اللعنة بوجهه الصارم وإرادته الصلبة وقلبه المترع بالندم . أخلص لدينه، تصدق على الفقراء، عامل زبائنه بالحسنى، مضى فى الحياة منفيا ملعونا . استقرت فى عينيه نظرة كئيبة، كره الفاكهة، تجنب الغناء والطرب، حذر من البوظة والغرزة . لفحته مشاعر الناس فكره الناس ولكنه تمسك بالحياة . .

٢٨

ولم تجد عفيفة الجدع من دواء لحال شمس الدين خيرا من أن تزوجه . أعجبتها صادقة بنت بياع الفول فخطبتها له مزكية إياه بعمله وأصله ولكن الأسرة أبت أن تزوج ابنتها من قاتل أبيه . ولم يكن شمس الدين يهتم كثيرا بالزواج . ولكن الرفض عمق جراحه فصمم على الزواج بأى ثمن . .

وكانت هناك توجد راقصة تدعى نور الصباح العجمى، مجهولة الأصل متهتكة . أعجبه منظرها فزارها متسترا بالظلام، لا ليعاشرها كما توقعت ولكن ليخطبها! ودهشت البنت . وظنته يرسم لاستغلالها ولكنه قال لها بصدق :

ـ بل أريدك ست بيت بكل معنى الكلمة . .

فأضاء وجهها بالفرح وقالت :

ـ إنك شاب نبيل وإنى أستحق ذلك!

٢٩

وحزنت عفيفة فقالت محتجة :

ـ إنها بنت داعرة .

فقال شمس الدين بكآبة :

ـ مثل جدتى زينات !

ثم متمتما بسخرية :

ـ ما أكثر الداعرات فى أسرتنا المجيدة !

ـ لا تيأس بسرعة يا بنى . .

فقال بامتعاض :

ـ إنها الوحيدة التى تقبلنى بلا امتعاض . .

٣٠

وزفت نور الصباح العجمى إلى شمس الدين جلال الناجى . وهتك شمس الدين ستار الانكماش فأقام حفلا شهده عماله وأهل أمه ، وتجاهل من يتجاهلونه . وسخرت الحارة من الزيجة فجرى على الألسنة ذكر زينات وزهيرة ، وذكريات الأسرة التى هبطت من السماء لتتمرغ أخيرا فى الوحل . بكل قحة قال عنبة الفوال الخمار :

ـ ألم يكن عاشور نفسه لقيطا ؟ ! . . ألم تكن أم الأسرة الأولى عاملة فى هذه البوظة ؟ !

٣١

وقيض للزواج أن ينجح . تحولت نور الصباح العجمى إلى ست بيت . سعد بها شمس الدين فاستقر جانب من جوانبه القلقة . ولم ينغص صفو البيت من آن لآن إلا المشاحنات بين عفيفة ونور الصباح . وبقدر ما كانت عفيفة صارمة غير متسامحة كانت

نور الصباح حادة سليطة اللسان. ولكن المعاشرة لم تتحطم، وأنجبت صباح من البنات ثلاثا، وأخيرا جادت بسماحة شمس الدين الناجى.

٣٢

وبتقدم الزمن تناسى شمس الدين همومه وذنبه ما أمكن، ولكن الكآبة كانت قد صارت له طبعا. ونشأ سماحة وليس له جمال أبيه أو جده ولكنه يبشر ببنيان أشد. وولعت به أمه وجدته فحافظا عليه ككنز غال. ولم يحقق نجاحا فى الكُتَّاب. وتشاجر ذات يوم مع قرين فضربه باللوح فكاد يفقده عينه وأوقع أباه فى مشكلة لم يخلص منها إلا بتعويض لا يستهان به. وقسا عليه فضربه حتى أحزن أمه وجدته. وجره إلى العمل فى الحظيرة قبل الأوان وهو يقول له:

ـ تعلم أدب الحياة بين الحمير..

ونما سماحة تحت رعاية أبيه الكئيب وسرعان ما شارف المراهقة..

٣٣

ورغم أن الفتى لم يكن يغيب عن عينى أبيه من الصباح حتى النوم فإنه لم يطمئن إلى أحواله تماما، فآنس منه جموحا وتوقع منه المتاعب.

وذات يوم جاءه مجاهد إبراهيم شيخ الحارة وقال له:

ـ أول ما شطح نطح!

شعر بأنه يعنى ابنه سماحة ولكنه لم يصدق لشدة إحكام قبضته حول الفتى. وتساءل عما هنالك فقال شيخ الحارة:

ـ هل تصدق أن ابنك مرافق كريمة العنابى؟

فذهل شمس الدين. متى يفعل ذلك؟ قال:

ـ إنه لا يغيب عن ناظرى حتى أودعه فراشه!

فضحك مجاهد إبراهيم وقال:

ـ ثم يتسلل من البيت وأنت نائم..

وذهل شمس الدين مرة أخرى لأن كريمة العنابى أرملة تقترب من الستين من عمرها وابنه مراهق ليس إلا. وقال له مجاهد إبراهيم:

ـ احذر أن يعتاد الولد البرمجة!

٣٤

وتربص شمس الدين فى الظلام أمام باب دار كريمة العنابى. جاء بعد أن تأكد من أن الولد قد غادر فراشه وها هو ذا ينتظر. وقبيل الفجر بساعة فتح الباب وتسلل منه شبح. سقط فى يد أبيه، فزع أول الأمر، همَّ بضربه لولا أن عرف صوته فانقهر.

ـ أيها الخنزير..

وشده بعنف فشم رائحته فصاح:

ـ وسكران أيضا؟!

ولطمه لطمة طيرت الخمر من رأسه. وفى البيت عنفه وضربه حتى استيقظت نور الصباح وعفيفة، ومضت الحقيقة تتكشف لهما من خلال اللطمات والكلمات. وقال سماحة:

ـ كفى يا أبى وجهى يتحطم.

ـ إنك تستحق القتل، تخدعنى؟

ـ تبت وأنا فى عرضك!

وقالت عفيفة:

ـ إنها أكبر منى المجرمة..

فصاح شمس الدين وهو يشير إلى سماحة:

ـ هو المذنب ولا أحد سواه!

٣٥

وقال شمس الدين لنفسه إن المقدمات تنذر بأوخم العواقب. وإن من يبدأ بعشق امرأة فى سن جدته فكيف ينتهى؟ وقد رأى كريمة هانم العنابى فى بعض مشاويرها فهاله

تصابيها وزواقها وبدانتها المفرطة، وآمن بأن أسوأ ما ينشأ عليه مراهق أن يألف أن تنفق عليه امرأة.

وفى ذلك الوقت توفى مؤنس العال فخلفه فى الفتونة سمعة الكلبشى فازدادت أحوال الحارة حطة وإظلاما. وتلقى الحرافيش البلوى كقدر مكتوب لا مفر منه، فلم تعد الفتونة - بصرف النظر عن هوية الفتوة - إلا بلوى قائمة.

٣٦

وتُوفى الجد عبد ربه فشُيِّع فى جنازة كبيرة لم يشترك فيها شمس الدين ولا سماحة. وعرف بعد ذلك أنه أوصى للفتى سماحة بخمسمائة جنيه. وطالب سماحة بميراثه، ولكن أباه أبى أن يسلمه إياها إلا أن يبلغ رشده. وشدد الرقابة عليه حتى عانى الفتى حياة مريرة. وذات مرة حانت من شمس الدين نظرة إلى الفتى وهما يعملان فى الحظيرة فضبط فى عينيه نظرة جدباء انقبض لها صدره فقال لنفسه:

- الولد لا يحبنى!

وتنهد مغتما وقال:

- لا يدرك الأحمق أننى أعمل لما فيه خيره..

٣٧

وتدافعت الأحداث مثل زبد النهر الأغبر. ولاحظ شمس الدين ذات صباح وهو يحتسى قهوته فى بيته قلقا أسود يلف عفيفة ونور الصباح فخفق قلبه وتساءل:

- سماحة؟!

فتلقى صمتا مريبا ضاعف من أحزانه فسأل بحدة:

- ما الجديد من متاعبه؟

بكت نور الصباح وقالت عفيفة بنبرة متشنجة:

- ليس فى البيت..

- رجع إلى التسلل؟

- بل غادرنا!

ـ هرب؟!

ومضى مشحونا بسوء الظن إلى السحارة فاكتشف اختفاء الميراث فصاح:

ـ لص أيضا..

فقالت أمه:

ـ حلمك يا بنى، إنه ماله...

فقال بإصرار:

ـ لص هارب!

ونقل عينيه بارتياب بين المرأتين وتساءل:

ـ ماذا يحدث وراء ظهرى؟!

٣٨

تصور أنه لائذ بدار كريمة العنابى. أفضى بظنونه إلى شيخ الحارة مجاهد إبراهيم. وقام الرجل بتحرياته ثم قال له:

ـ لا أثر لسماحة فى حارتنا!

وأيقن أن الله يعاقبه على جريمته. عليه أن يكفر عن جريمته كما كفر عن جرائم الآخرين. ولا يبعد أن يقتله الفتى ذات يوم. لم لا؟.. إنه لا يحسن بهذه الدنيا ظنا. وألقى على المئذنة نظرة وحشية وتساءل:

ـ لم يبقون على هذه اللعنة قائمة؟!

٣٩

لم يعثر على أثر لسماحة رغم أن شمس الدين أوصى جميع السواقين عنده باليقظة والتحرى. ها هو ذا الفتى يمضى فى أثر المختفين من رجال الأسرة ونسائها.

وتتلاحق الأعوام. أما عفيفة فقد ماتت فى أعقاب مرض طويل، وأما نور الصباح فقد أمرّت الأيام ما كان منها حلوا. ومضى شمس الدين يحمل أثقاله، ويغمغم كلما حز به ألم «أمرك يا رب».

٤٠

ولكن غيبة سماحة لم تدم كما دامت من قبل غيبة عاشور أو قرة. رجع إلى الحارة ذات يوم وقد بلغ رشده. بلغ رشده ولكنه فقد أشياء ثمينة لا تعوض. امتلأ جسده بالقوة والشراسة. اختفى جماله وراء غلالة من التجهم ونسيج متقطع من الكدمات والعاهات المستديمة. أكان يعاشر قطاع الطرق؟ حتى أبوه لم يعرفه لأول وهلة. ولما اكتشف حقيقته واجتاحته موجة من السرور والأسى.. اضطرب بين الشكر والحنق. تمزق بين الحب والسخط. وتبادلا النظر طويلا فى الحظيرة بين السواقين والحمير. وتنحى به جانبا وسأله بإشفاق:

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

وجعل يرددها والآخر صامت مستغنيا بمنظره عن أى بيان. وسأله:

ـ بددت النقود؟

فحنى رأسه. آه! البعض يستثمر والبعض يبدد. وتنهد من الأعماق وتمتم:

ـ لعل الحياة قد لقنتك درسا مفيدا..

ولما ضاق بصمته قال له:

ـ اذهب إلى أمك..

٤١

وسرعان ما انطفأ الأمل الضعيف الذى ساور شمس الدين. أفاق من عاطفة الأبوة الملتاعة التى اجتاحته. رأى العناد والاعوجاج والسفه فى صورة جديدة من قوة شرسة متحجرة. ومع ذلك لم يستسلم لليأس فقال له برقة:

ـ إلى العمل يا بنى، درب نفسك على إدارة ما ستكون صاحبه غدا.

وشجعته نور الصباح بحنانها وتوسلاتها. أما سماحة فقد أبى العمل كسواق فأبقاه أبوه معه فى الحظيرة مشركا إياه فى صميم عمله. غير أنه تململ وغالى فى طلب النقود. ولم يعد فى وسع الأب أن يعامله كغلام فراح يسهر فى البوظة والغرزة وبيوت الدعارة متجاهلاً صاحبته الأولى كريمة العنابى.

وقال له شمس الدين بحضور أمه:

ـ خير ما تفعل أن تتزوج . .

فقال ساخرا :

ـ لا توجد بنت جديرة حقّا بحفيد الناجى العظيم !

فسأله أبوه :

ـ هل تدرك ما يعنيه اسم الناجى ؟

فقال بقحة ما بعدها قحة :

ـ معناه التفرد بالمعجزات مثل بناء مئذنة العفاريت !

فهتف شمس الدين مغيظا محنقا :

ـ إنك لمجنون !

ومضى الأب لحاله وهو يقول لنفسه :

ـ إنه يكرهنى ما فى ذلك من شك . .

وتهرب من هاجسه حينا غير أنه قال بوجوم :

ـ سيقتلنى ذات يوم . .

٤٢

واكتشف المعلم شمس الدين سرقة قدر من مال العمل لا يستهان به . عرف فى الحال ما يعنيه ذلك . وأدرك أنه قد يفلس يوما من جراء حماقة كهذه . ولم يتردد فذهب من توه إلى البوظة . وجد سماحة يجالس سمعة الكلبشى ورجاله كأنه واحد منهم . أشار إليه أن يتبعه ولكن الفتى لم يستجب . تاه فى سكره وطالع أباه بنظرة متحدية . وكظم الأب غيظه وقال له :

ـ أنت تعلم بما دفعنى إليك . .

فقال ببرود :

ـ إنها نقودى كما هى نقودك ، وإنى أنفقها على خير وجه . .

فقال سمعة الكلبشى :

ـ أحسنت . .

فقال شمس الدين لسماحة :

ـ إنك تعرضنى للخراب . .

فقال سماحة بلسان ملتو :

ـ أنفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب . .

فقال سمعة الكلبشى :

ـ هذا الولد حكيم !

واقترب عنبة الفوال من شمس الدين وهمس فى أذنه محذرا :

ـ وحد اللّه !

ولكن الغضب اجتاحه فصاح :

ـ اشهدوا جميعا على أننى أطرد هذا الابن العاق من بيتى ، وأننى أتبرأ منه إلى يوم القيامة . .

٤٣

وتلقت نور الصباح الخبر كمصيبة دهماء فصرخت :

ـ لن أفرط فى ابنى أبدا . .

فكرهها شمس الدين فى تلك اللحظة بكل قوة حنقه وغيظه وصاح :

ـ لن يدخل هذا البيت ما حييت . .

ـ ابنى . . لن أفرط فيه . .

فقال بلا وعى :

ـ إنه ينضح بأصلك القذر . .

فأجابته فاقدة الوعى أيضا من اليأس والغضب :

ـ ليس فى أصلى دعارة أو جنون . .

فلطمها لطمة أسقطتها على أرض الحجرة فجنت من الغضب وبصقت على وجهه . عند ذاك صرخ :

ـ اذهبى فأنت طالق بالثلاثة !

٤٤

أقامت نور الصباح وسماحة فى شقة واحدة . انخرط الفتى فى عصابة سمعة الكلبشى ولكنه لشدة إسرافه لم يذق الرضا قط . ولم يخف كراهيته لأبيه عن أحد ، وخاض فى معايب آل الناجى بكل قحة كأنه أكبر أعدائهم .

وعاش شمس الدين وحيدا . ولم يعد ينعم بالأمان أو الطمأنينة . وتوقع لنفسه نهاية مثل نهاية أبيه أو أفظع . وتوثب للدفاع عن نفسه بكل وسيلة . كان يغدق على عماله ليربح قلوبهم ، ويحكم إغلاق شقته بابا ونوافذ . وبذل العطاء لسمعة الكلبشى وتودد إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٤٥

وزاره يوما شيخ الحارة مجاهد إبراهيم وقال له :

ـ أنصحك بالحكمة يا معلم شمس الدين . .

فسأله بوجوم :

ـ ماذا تعنى؟

ـ خفف من العداوة ، أجر عليه بعض المال . .

فلاذ شمس الدين بالصمت ، فقال شيخ الحارة :

ـ سمعته أمس فى البوظة يمنى الندماء بسهرات خلابة عندما . .

وتوقف الرجل فقال شمس الدين بكآبة :

ـ عندما أموت أو أقتل !

ـ لم يجر للقتل ذكر ، ولكن ليس هناك أبشع من أن يتمنى الابن موت أبيه أو يتمنى الأب موت ابنه . .

ـ ولكنى لا أتمنى موته . .

فقال مجاهد إبراهيم بوضوح :

ـ نحن بشر يا معلم!

٤٦

شعر شمس الدين بطائر الخوف يحلق فوقه . وذات يوم مضى إلى دار سمعة الكلبشى طاويا جوانحه على مغامرة فريدة . حيَّاه بإجلال وقال :

ـ أريد أن أتشرف بيد كريمتكم .

فتفحصه الفتوة مليا ثم قال :

ـ من ناحية السن فليس ثمة ما يمنع من أن تتزوج بنت السادسة عشرة من رجل فى الأربعين . .

فحنى شمس الدين رأسه فى خشوع ، فقال سمعة الكلبشى :

ـ أصلك كريم ومالك وفير !

فواصل شمس الدين خشوعه ورضاه فسأله الفتوة :

ـ كم تدفع مهرا؟

فقال شمس الدين بقلق دفين :

ـ ما تأمر به يا معلم . .

ـ خمسمائة جنيه . .

فقال بحكمة :

ـ إنه مبلغ جسيم ولكن المطلوب أغلى وأعز . .

فمد له يده قائلا :

ـ لنقرأ الفاتحة . .

٤٧

زفت سنبلة سمعة الكلبشى إلى شمس الدين جلال الناجى .

احتفلت الحارة كلها بالزفاف . صار شمس الدين فى أعز وآمن مكان . لم تكن سنبلة جميلة ولكنها كانت غضة الشباب كما كانت ابنة الفتوة .

٤٨

وتولى الذعر نور الصباح وابنها سماحة . وقال سماحة :

ـ تبدد حلم الميراث . . .

فقالت عفيفة وهى لا تصدق نفسها :

ـ ولكن حقك لا يمس . .

فقال سماحة :

ـ هل تتصورين أن الكلبشى سيترك الأمور للشرع ؟ !

فقالت نور الصباح محذرة :

ـ الحياة أغلى من المال . .

فقال بغضب :

ـ إن أعين رجاله ترقبنى ليل نهار ، كالمتبع مع المخيفين من آل الناجى ، وها هو ذا ظرف جديد يدفعه إلى المزيد من الحذر !

فتأوهت نور الصباح وقالت :

ـ الحذر يا بنى ، لعنة اللّه على أبيك ، وليحفظك اللّه .

٤٩

اقتنع سماحة بأن حياته باتت مهددة ليخلص الميراث لسنبلة وحدها ، وليأمن الفتوة جانبه على فتونته بصفة نهائية .

والعجيب أن شمس الدين نفسه لم يستنم طويلا إلى سبات الطمأنينة العذب . ماذا يحول بين سماحة وبين الانتقام منه وهو أدرى الناس بطبعه المستهتر؟ وهل يوجد سيد للموقف اليوم أقوى من سمعة الكلبشى؟ لقد وضعه الخوف من الموت بين فكى الموت نفسه ، ولن يستكن الفتوة حتى ينتزع منه ماله إلى آخر مليم . وهو لم يمل حقّا لسنبلة ، وعاوده حنينه إلى نور الصباح ، ولكن كان عليه أن يحمل ثقل تلك المعاشرة مع أثقال حياته الأخرى . وثمة حقيقة تنشب أظافرها فى لحمه وهى أن الأمس لا يمكن أن يرجع أبدا . .

٥٠

وزاره سمعة الكلبشى ذات ليلة . أشار إلى ابنته فغادرت الحجرة فتوقع أمرا لا يسر . ما معنى زيارة ليلية؟ كره منظر وجهه الشبيه بكرة كثيرة الندوب ، كما كره ثقته الموحية بأنه يجلس فى بيته وبين أهله . وراح يتكلم عن عجائب المصادفات ونوادر الدهر والقوى الخفية المسيطرة على مصائر البشر ، وشمس الدين فى حيرة من تأملاته ، حتى قال الفتوة :

ـ انظر مثلا كيف أن وجود شخص معين غير مريح لكلينا!

أدرك من أول وهلة ما يعنيه. تجسدت لعينيه صورة ابنه سماحة. انذعر لموافقة الرأى لأمانيه الخفية أكثر من انذعاره إشفاقا على وحيده. وتساءل متجاهلاً ومتغابيا:

ـ أى شخص تعنى يا معلم؟

فقال الكلبشى بازدراء:

ـ لا.. لا..، لا تستغفل الكلبشى يا أبا سماحة!

فتساءل بارتياع:

ـ تقصد سماحة؟

ـ هو ما تقصده أنت!

ـ إنه ابنى.

ـ كما كنت ابن أبيك!

فقطب متألما وقال:

ـ إنك قوة لا يجوز عليها أن تخشى أحدا..

ـ دعك من هذا الكلام الفارغ، ثم إنك لم تفهم غرضى!

فقال شمس الدين بامتعاض:

ـ زدنى إيضاحا!

ـ بع أملاكك بيعا صوريا لزوجتك. ييأس سماحة ثم يرحل!

فغاص قلبه فى صدره وقال كالمستغيث بأى شىء:

ـ أو يحفزه ذلك على الانتقام منى!

ـ لن يمسك سوء ما دمت حيا!

رأى الشرك فاغراً فاه. رأى الصائد مكشرا عن أنيابه. الفقر أو الموت أو الاثنان معا. محال أن يقبل ومحال أن يرفض. قال بتوسل:

ـ أعطنى مهلة للتفكير..

فعبس الفتوة محنقا وقال:

ـ ما سمعت مثل ذلك من قبل..

فقال بضراعة:

ـ مهلة قصيرة..

فنهض الرجل وهو يقول:

ـ صباح الغد. عندك الليل بطوله..

٥١

لم يغمض لشمس الدين جفن. ترك سنبلة فى زينتها تنتظر حتى غلبها النوم. أطفأ المصباح، تدثر بعباءته اتقاء للبرد، رأى فى الظلمة الأشباح. أشباح الماضى كلها. ما هذا التدهور بعد الصمود؟ ألم يحمل أثقاله ويمضى بها؟ ألم يكفر عنها بالصبر والألم؟ ألم يلتزم بالجدية والاستقامة والجلد؟ كيف جاء التدهور ليرث نضاله كله بلا دفاع؟ لقد حدث ذلك بسبب سقوطه فى هاوية الخوف. الخوف أصل البلاء. خاف ابنه فطرده ثم طلق أمه، ثم مضى بقدميه إلى وكر الشيطان. بلا تفكير سليم مضى. وكيف يتهيأ التفكير السليم لمذعر؟ عندما صرع الخوف واجه الحياة بكبرياء. لم تقض عليه نوائب السمعة السيئة والجريمة البشعة واحتقار الحارة. واجه الحياة بكبرياء. طوع اليأس لخدمته، بنى على أساس داعر أسرة كريمة، نجح فى العمل، حاز القوة والثراء، عندما صرع الخوف. اليوم يطالب بالنزول عن ثروته، غدا يقتله سماحة، بعد غد يؤخذ سماحة بجريمته، يفوز الكلبشى بالمال والأمان. يقول شبح فى الظلام: لا تقتل ابنك، لا تحمل ابنك على قتلك، لا تذعن للطاغية، لا تستسلم للخوف، طوع اليأس لخدمتك، ابحث فى الموت عن عزاء كريم إذا تعذرت الحياة. .

وعصفت ريح الشتاء فى الخارج كالنواح فتخيل ـ مأخوذا بنشوة الخيال ـ أن عاشور أصغى لها ذات ليلة فى بدرومه الخالد. . .

٥٢

فى الصباح سقط رذاذ مشبع بروح أمشير النقية المتقلبة الثائرة، ونفذت البرودة إلى نخاع العظام. مضى شمس الدين فوق الأرض الزلقة متوكئا على عصاه الغليظة. رحب به سمعة الكلبشى وهو متربع فوق أريكته بالقهوة:

ـ أهلا بالمعلم شمس الدين. .

دعاه إلى جانبه فجلس ثم سأله هامسا:

ـ نشرع فى إجراءات البيع؟

فأجاب شمس الدين بهدوء مريب:

ـ كلا . .

ـ كلا؟!

ـ لا بيع ولا شراء .

فاصفرّ وجه الفتوة وتمتم :

ـ يا له من قرار جنونى !

ـ بل هو عين الصواب . .

ارتسمت فى أساريره صورة كالحة للشر وقال :

ـ تعتمد على مصاهرتى ؟

فقال شمس الدين بهدوئه المصمم :

ـ أعتمد بعد اللّه على نفسى !

ـ تتحدانى ؟!

ـ بل أصارحك برأيى ليس إلا . .

اجتاح الغضب سمعة فلطمه بقسوة . جنّ جنون الآخر فرد اللطمة بأشد منها . وثب الرجلان فى لحظة واحدة شاهرين نبوتيهما . وسرعان ما التحما فى معركة قاسية . كان شمس الدين قويا وأصغر من سمعة بعشر سنوات ولكنه لم يمارس المعارك . وجاء رجال الفتوة من جميع الأنحاء وبسرعة مذهلة ، وبينهم سماحة . أحاطوا بالمتعاركين دون تدخل من جانبهم احتراما للتقاليد المرعية . وتمكن سمعة الكلبشى من خصمه واستجمع قوته ليوجه إليه ضربة قاضية . فى تلك اللحظة وثب سماحة وثبة مفاجئة فهوى بنبوته على رأس الفتوة فتقوض بنيانه وانطرح أرضا . وقع ذلك بسرعة خاطفة . صرخ الرجال وانقضوا على شمس الدين وسماحة ، ولكن ثمة مفاجأة أخرى كانت متربصة ، انضم نفر من الرجال إلى سماحة وشمس الدين ! هتفت أصوات :

ـ خيانة وضيعة !

والتحم الفريقان بضراوة ووحشية . تصادمت النبابيت ، تلاطمت الأجساد ، فرقعت الصكات ، تطايرت اللعنات تحت الرذاذ ، سالت الدماء ، استحرت الأحقاد ، أغلقت الدكاكين ، هرولت العربات ، تجمع الناس فى طرفى الحارة ، اكتظت النوافذ والمشربيات . علا الصريخ والعويل . .

٥٣

حمل شمس الدين إلى بيته محطما . استطاع سماحة أن يرجع إلى مسكنه بجهد شديد ثم رقد وهو بين الحياة والموت . أما سمعة الكلبشى فقد أصابه العجز وتلاشت أسطورته ، وانهزم رجاله .

٥٤

وتكشفت حقائق فى اليوم نفسه . عرف أن سماحة طمح إلى الفتونة ، وأنه نجح فى ضم بعض الرجال إليه سرا . وأنه كان يرسم للقضاء على الفتوة والسيطرة على أبيه ، فلما بوغت بالمعركة بين الفتوة وأبيه انقض فى اللحظة المناسبة لحماية شمس الدين وإعلان ثورته ، ونجح مشروعه ولكنه رقد بين الحياة والموت . .

٥٥

تواصل سقوط الرذاذ طيلة النهار . تشرب الجو بظلال كستنائية ونعاس . نقش أديم الأرض الزلقة بحوافر الدواب . أما المعلم شمس الدين فقد انطرح فوق فراشه يحتضر فى رعاية جاره بعد أن هجرته سنبلة . لم يفتح عينا ، لم ينبس بكلمة ، ندت عنه حركات مبهمة ، تبدى متخليا عن كل شىء ، وعند جثوم الليل أسلم الروح . .

سارق النغمة
الحكاية التاسعة من ملحمة الحرافيش

١

كتبت لسماحة شمس الدين جلال الناجى النجاة من الموت. استعاد صحته رويدا ثم استرد قوته. وأضافت المعركة الأخيرة إلى وجهه تشوهات جديدة فانقلب ذا وجه قبيح ينذر بالشر والإرهاب. وتبوأ الفتونة دون منازع فبشرت فتونته بسيطرة غير محدودة. وسرت نور الصباح العجمى أمه بحظها، وبانتصارها الحاسم على ضرتها سنبلة بنت الفتوة السابق سمعة الكلبشى. ورجعت سنبلة إلى أبيها العاجز حيث أنجبت وليدها ابن شمس الدين الذى أسمته فتح الباب باسم جدها لأمها. واقتسمت ثروة شمس الدين بين ابنيه سماحة وفتح الباب وأرملته سنبلة. وصار سماحة وصيا على أخيه بحكم القرابة، ولم ينازعه أحد فى ذلك خوفا من بطشه، هكذا عاد جل ثروة أبيه إلى قبضته الحديدية. وقال سماحة لسنبلة:

ـ لقد هجرت أبى، تركته يحتضر وحيدا، وإنه لظلم أن ترثى بعض ماله، فلا تنتظرى مليما من مستحقات فتح الباب. اعتبرى بعضه إتاوة والبعض الآخر عقوبة لك..

٢

وخلق سماحة أسطورة حول ذاته. أذاع أنه ما خاض المعركة ضد الكلبشى إلا دفاعا عن أبيه رغم ما كان بينهما من خلاف وعداوة، وأن انضمام من انضم إليه من رجال العصابة كان بدافع الشهامة وحدها. ولكن ذلك لم يجز على أحد. كان قد عرف ما عرف عن ائتماره على فتوته وإغرائه بعض الرجال للانضمام إليه، وأنه انتهز فرصة نشوب المعركة بين أبيه والكلبشى لينفذ مؤامرته دفاعا عن أبيه. بل لقد اتهم من بعض كارهيه بأنه لم يدافع عن أبيه شمس الدين كما يجب، وأنه سُرَّ لوفاته. غير أن شيئا من همساتهم لم يبلغه، وظل مزهوا بالأسطورة التى خلقها.. وانداحت فتونته على الحارة كجبل شاهق، ولكنه أدب فتوات الحارات فرفع منزلتها فى الحى جميعه وأرجع إليها

الهيبة والجلال. وأنشأ بماله ومال أخيه فتح الباب دارا جميلة أقامت بها نور الصباح العجمى أمه، أما هو فكان يتنقل ما بين البوظة والغرزة وبيوت العاهرات. .

٣

ومات سمعة الكلبشى، فورثت سنبلة عنه ثروة لا بأس بها، كان لها من الأخوات عشر. وما لبثت أن تزوجت من كاتب فى بنك الرهونات. ولم يلق فتح الباب ترحيبا من زوج أمه، وضاق به أكثر عندما أنجبت له سنبلة بنين وبنات. نشأ الغلام فى جو حزين، فكان يلوذ بأمه ويتجنب رب البيت، وضاعفت حساسيته من ألمه ووحدته، ولم يشفع له تفوقه فى الكُتَّاب ولاحسن خلقه ووداعته. لذلك ما إن بلغ التاسعة حتى مضت به سنبلة إلى الفتوة سماحة وقالت له:

ـ هذا أخوك فتح الباب وقد آن له أن يعيش تحت جناحك. .

وتفحصه سماحة فوجده جميلا رقيقا حزينا ولكن قلبه لم يرق له، وقال:

ـ ماله يبدو جائعا؟!

فقالت سنبلة:

ـ كلا، لكنه غلام رقيق.

ـ لا يصدق من يراه أنه ولد من صلب فتوات من ناحيتى أمه وأبيه!

ـ هكذا هو!

فقال محاولا التخلص منه:

ـ لك أن تحتفظى به. .

فاغرورقت عيناها وقالت:

ـ لا يوفر بيتى له السعادة. .

واضطر سماحة إلى احتضانه ومضى به إلى أمه نور الصباح ولكنها كرهت إيواءه وقالت لابنها:

ـ لم تعد لى طاقة على رعاية الأطفال. .

الحق أنها أبت تربية ابن ضرتها سنبلة. وحار سماحة ماذا يفعل، وتجرع الغلام الذل والأسى بصبر. وعند ذاك تطوعت عجوز من صديقات نور الصباح باحتضانه. تلك كانت سحر الداية. أرملة بلا ذرية، ومن سلالة الناجى. وكانت تقيم فى بدروم من

حجرتين بإحدى عمارات جلال صاحب المئذنة، وكانت طيبة القلب ومعتزة بأصلها فلقى فتح الباب فى رحابها أول حياة دافئة خالية من الكدر، وأعانه ذلك على تحمل فراق أمه سنبلة . . .

٤

ورأى سماحة الفتوة ذات يوم فتاة جميلة وصغيرة فأعجبته. لم تكن فى متناول اليد كغيرها من نسائه. رآها فى دوكار وعرف الدار. وآنس من وجهها الحسن ألفة تنم عن تقارب روحى خفى ما لبث أن كشف أسبابه. تبين له أنها فردوس حفيدة المرحوم المعلم راضى محمد أنور من زهيرة، أخى جلال صاحب المئذنة. وكان إعجابه شهوة ورغبة فى الامتلاك ولكنهما كانتا من القوة بحيث جعلاه يفكر فى الزواج جادا لأول مرة فى حياته البهيمية. وأغراه بها إلى ذلك ملكيتها لمحل الغلال وانتماؤها مثله لآل الناجى. وقد دهشت أمه عندما طلب إليها أن تخطبها له، ولكنها سرت لذلك سرورا لا مزيد عليه. وقال لها سماحة وهو يقهقه:

ـ حسبى وحسبها أننا ننتمى إلى زهيرة الجميلة المجنونة قتالة الرجال!

وكان قبحه وسلوكه جديرين برفضه ولكن منذا الذى يرفض يد فتوة؟!

٥

زفت فردوس إلى سماحة. التحم ذو الوجه القبيح بذات الوجه العذب. وقد كان جميلا ذات يوم، ولكن النبابيت أعادت خلق وجهه. أما اعتزازه بأصله وفحولته فلا حدود له. فرغم كل شىء نجح الزواج وجاد بسعادة ساخنة. وبفضله أصبح سماحة مديرا لمحل الغلال ومالكه الفعلى. ومن حجرة الإدارة استلت إرادة من صوان تتصرف فى شئون المال والمعارك معا. ووهبه الزواج عطايا من العذوبة والنضارة، ورغدا من حياة القصور وأساليب المعيشة الرفيعة، وإطارا ثريا من الرياش والتحف ومباهج الترف. ولم ينقطع عن العربدة ولكنه وفرها لعشه الشرعى، فانتقلت إلى القائمة المذهبة الجوزة والقرعة. وعلمه محل الغلال وأبهة الإدارة حب المال وجمعه فقرر أن يعيد سيرة جده جلال صاحب الخوارق المجنونة، وأن يفرض سيطرته ـ بعد الناس ـ على الأشياء الثمينة.

٦

وأثبتت فردوس أنها ذكية بقدر ما هى حسنة الحظ. لقد أحبت زوجها. ومضت تنجب له ذرية من خلق الحب ودفئه. فلم تأل جهداً فى تهذيبه وامتلاكه بتسلل عذب لا تحدى فيه ولا كبرياء. لم تكن تحترم الفتونة ولكنها لم تنكر مزاياها. وكسائر آل الناجى كانت تنوه بذكريات الفتونة الأسطورية القديمة، بعدالتها ونقائها، ولكنها فى الوقت نفسه بحكم انتمائها إلى الوجاهة تنفر من تلك الفتونة النقية التى تؤثر الفقر والبطولة وتشكم السادة والوجهاء. وإذن فلتبق الذكرى موضعا للتبرك والفخر، ولتبق فتونة اليوم واقعا يحقق القوة والسيادة والثراء. وما من بأس على سماحة أن يفعل ما يشاء تحت شرط أن يفعله فى دارها، وفى غشاء من خيوطها الذهبية المحكمة.

وتمر الأيام وهى سعيدة بحياتها، والأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا..

٧

واصل فتح الباب تعلمه فى الكُتَّاب وحفظ ما تيسر من القرآن. طابت نفسه بجو الحنان فى مقامه الجديد فانزاح غطاء الخوف من نفسه عن كنوز من عواطف غنية وخيال بديع. غلام قمحى اللون أسود العينين رائق البشرة، فى ذقنه ثغرة، وفى قده رشاقة، ينضح بالعذوبة والفطنة. تناسى أمه كما تناسته وتعلق بسحر الداية قلبه. أحبها وقدسها، وتلقى منها أنوارا لم تخطر له على بال.

كانت تقول له فى ليالى السمر:

ـ نحن من أصل واحد مبارك هو عاشور الناجى..

طالما تحدثت بيقين عن ماض غابر كأنما كانت حقّا تتنفس فيه.

ـ أنبل الأصول كان أصله، وخاف عليه أبوه من غضب فتوة ظالم، وجاءه فى المنام من أمره بأن يترك وليده فى الممر فى رعاية التكية، وما تردد أن فعل..

ولعن فتح الباب من تقولوا على جده بأنه كان لقيطا، فقالت سحر:

ـ من أنبل الأصول كان أصله، وقد ترعرع فى أحضان رجل خير، ونما شابا قويا، وذات مرة أمره ملاك فى المنام أن يهجر الحارة اتقاء للوباء ودعا الناس إلى الهجرة

ولكنهم سخروا منه فمضى محزونا بزوجه وولده، ولما رجع أنقذ الحارة من العذاب والذل كما أنقذه اللّه من الموت . .

وراحت تحكى له قصة عاشور، عودته، مقامه فى دار البنان، فتونته، عهده، حتى امتلأت عينا الصبى بالوجد والدموع، فقالت سحر :

ـ وقد اختفى ذات يوم، وطال اختفاؤه حتى آمن الناس بموته، أما الحقيقة التى لا شك فيها، فهى أنه لم يمت . .

فسألها فتح الباب بدهشة وأمل :

ـ حتى الآن يا جدتى؟

ـ وحتى الغد!

ـ ولم لا يرجع؟

ـ علم ذلك عند اللّه وحده . .

ـ قد يرجع فجأة؟

ـ لم لا؟!

ـ هل علم بما فعل أخى سماحة؟

ـ طبعا يا بنى .

ـ ولم سكت عنه؟

ـ من يدرى يا بنى؟

ـ هل يرضيه الظلم يا جدتى؟

ـ كلا يا بنى .

ـ لم يسكت عنه؟

ـ من يدرى يا بنى، ربما لسخطه على تهاون الناس مع الظالم . .

وسكت فتح الباب مليا ثم عاد يسأل :

ـ كل ذلك حقيقى يا جدتى؟

ـ هل كذبت جدتك قط؟!

٨

ويذهب فتح الباب إلى الكُتَّاب ويجىء . يرى جده عاشور فى كل مكان . إنه ينبض فى قلبه وخياله . ويشتعل فى أشواقه وآماله . يراه فى الزاوية والسبيل والحوض . يراه فى

الممر وفى الساحة أمام التكية. طالما نظرت عيناه إلى هذا السور العتيق، إلى هذا الباب المغلق، إلى أشجار التوت الفارغة، كما ينظر هو إليها الآن. ما زال الجو مخضلا بأنفاسه ونجواه. ورغائبه وأحلامه. وسره مطوى فى الغيب لا تكشفه هذه الأشعة السائلة. حتما سيجىء ذات يوم. هكذا تكلمت جدته الصادقة. سيلوح بعصاه العجراء فيتلاشى سماحة ذو الوجه القبيح. يتلاشى بظلمه الأسود وجشعه الأحمر وماله المكتنز. ويهلل الحرافيش ليوم الخلاص ويسبحون فى بحر النور. وتتقوض مئذنة الجنون فتتراكم أنقاضها فوق الغدر والخيانة والسفه. أم أنه يتجاهلنا لتهاونا مع الظالم حقّا؟ إنه يحب جده. يود أن يحظى برضاه. ولكن من أين له القوة وقد خلق رقيقا كالخيال؟ من أين له القوة؟!

٩

ولما ناهز فتح الباب المراهقة فكرت سحر بمستقبله. وشاورت عم مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال لها:

ـ اختارى له حرفة.

فقالت باعتزاز:

ـ إنه من خيرة من تعلم فى الكُتَّاب.

فسألها الرجل:

ـ ألست داية فردوس هانم؟

فأجابت بالإيجاب فقال لها:

ـ حدثيها بشأنه، ومن ناحيتى سأمهد له عند المعلم سماحة..

١٠

وقالت سحر لفردوس هانم:

ـ فتح الباب ولد ممتاز، وهو من دمكم، وأولى الناس بالعمل فى محل أخيه..

ورحبت الهانم بذلك ووعدت بإقناع زوجها.

١١

وتفحص سماحة أخاه فتح الباب بعناية وتمتم بازدراء :

ـ رقيق مثل فتاة . .

فقالت سحر :

ـ هكذا خلق ولكل شيء نفعه . .

فتساءل ببرود :

ـ وما نفعه؟

ـ يحفظ القرآن ، يكتب ويعرف الحساب . .

فتحول نحو الفتى وسأله متهكما :

ـ أأمين أنت أم طويل اليد مثل بقية الأسرة المجيدة؟

فقال فتح الباب بحرارة :

ـ إنى أخاف اللّه وأحب جدى . .

ـ جدك جلال صاحب المئذنة؟

ـ جدى عاشور الناجى!

قطب سماحة وتغير وجهه فبادرت سحر تقول :

ـ إنه طفل برىء . .

فقال سماحة بوحشية :

ـ جدك عاشور أول من علمنا السرقة!

ذهل فتح الباب وتألم . خافت سحر أن ينبس بكلمة تسد طريقه فقالت :

ـ إنى أضمن أمانته وجده واللّه شهيد . .

هكذا ألحق فتح الباب بالمخزن مساعدا لأمينه . .

١٢

تفانى فتح الباب فى عمله . كان المخزن يشغل بدروما متراميا يماثل فى اتساعه مساحة المحل كله . ترمى فيه أجولة الغلال على الأرفف والأرض ، ولكنها تتعرض لحركة يومية

بين المجيء والذهاب، فلم يكن الميزان يكف عن العمل ولا يده تكف عن التسجيل. وبحكم عمله كان يحظى بمقابلة أخيه سماحة مرة على الأقل كل صباح ليطلعه على حركة الوارد والصادر. وارتاح الفتوة إلى نشاطه ويقظته ووجد فيه عينا تلقائية على أمين المخزن. وقال له بأسلوبه:

ـ إنى أشجع المجتهد وأبطش بالكسول. .

١٣

وعملا بنصيحة سحر زار نور الصباح العجمى أم معلمه ليقدم لها فروض الطاعة. لم يكن قد بقى من جمالها شيء، وقد رحبت به بفتور دلَّ على أنها لا يمكن أن تنسى إساءة. وإذا بها تسأله:

ـ كيف حال سنبلة أمك؟

وأجاب بذل:

ـ لم أرها منذ فارقتها لكراهية زوجها لى!

فقالت بحنق:

ـ لا عذر لها سوى أنها بلا قلب. .

وغادرها مضمرا ألا يراها مرة أخرى.

١٤

وبتوجيه جدته أيضا زار فردوس هانم. وقد عطفت عليه فبهره جمالها وأناقتها. قالت:

ـ سمعت عن نشاطك ما يسر الخاطر.

ولكنه لاحظ أنها لم تعرفه إلى أبنائها. لعلها أبت أن تقدم عاملا بسيطا مثله بصفته عمهم. وآلمه ذلك ولكنه صمم على تجاهله وتناسيه. وغادرها معطرا بشذا جمالها وأناقتها. ومضمرا فى الوقت نفسه ألا يزورها مرة أخرى. .

١٥

وبالعمل اكتسب ثقة وعزة. مضى يتشبه بالرجال فربى شاربه، وطوق رأسه باللاثة. وعرف طريقه إلى الزاوية فتوثقت صلته بالشيخ سيد عثمان.

وكان يجلس فى القهوة ساعة من الليل فيشرب القرفة ويدخن البورى، ثم لا يرجع إلى جدته حتى يطوف بالساحة، فقد أدركه عشق الأناشيد.

١٦

واضطرمت أعصابه بألم مجهول. وفاض قلبه بالحنين وتلظى بلهب خفى. مناظر النساء سحرته، أصواتهن أرعشت قلبه. ومن أقرانه تلقى سيلا من دعوات الإغراء للتعرف إلى البوظة والغرزة وبيوت الدعارة ولكن الماضى كان يصرخ فى أذنيه محذرا. الماضى المرهق بذكريات المئذنة والانحرافات والشهوات التى قضت على أصالة أسرته. وكأن جدته كانت تقرأ أفكاره فقالت له ذات يوم:

ـ آن لك أن تتزوج..

وطرب للفكرة ووجد فيها الخلاص المنشود..

ولكن سرعان ما اكفهر الأفق وأنذر بعواصف لم تخطر على البال..

١٧

جاءت الهمسات من خارج الحارة حاملة نذرا من نوع غريب. قالت إن فيضان ذلك العام شحيح أو أنه لن يأتى. ما معنى ذلك يا ترى؟ قالت إنه الويلات تتلاحق حتى لا تبقى على شىء. حقّا؟ سيندر الطعام، وربما اختفى تماما، والعاقل من يخزن اليوم ما يتبلغ به غدا. وعمل بالحكمة القادرون، وترامق الحرافيش وهم يضحكون، ولم يصدقوا أنهم سيحرمون من اللقمة التى ينتزعونها بالعرق أو يتصدق بها عليهم المتصدقون..

وامتلأ الجو بالطنين، واصطبغ بصفرة منفرة، فزحفت أشباح القلق بالليل والنهار..

١٨

واندفعت عجلة البلاء بلا تدرج . ارتفعت الأسعار ساعة بعد ساعة . تلبد الأفق بسحب سوداء . عملت حوانيت الغذاء نصف يوم لندرة الأطعمة . تلاطمت الشكاوى والأنات . وتكونت أمام محال الدقيق والفول مظاهرات . لم يعد للناس من حديث إلا الطعام . لهجوا به فى البوظة والغرزة والقهوة . اندلع الشرر فاشتعل نارا . حتى الوجهاء جهروا بالشكوى ولكن لم يصدقهم أحد وفضحتهم وجوههم الريانة الموردة . وقال عنبة الخمار :

ـ إنه الوباء!

وتمادت الأسعار فى الارتفاع ، وبخاصة الغلال . وراح سماحة يصيح :

ـ لم يعد يبقى ما يكفى العصافير . .

غير أن فتح الباب قال لجدته ليلا :

ـ ما أكذبه يا جدتى! المخزن ملآن . .

وقال لها أيضًا :

ـ ما الأسعار التى يفرضها إلا إتاوة جديدة . .

فقالت له بإشفاق :

ـ احفظ لسانك يا بنى . .

فقال متألما :

ـ إنه وحش لا تعرف الرحمة قلبه . .

١٩

وازداد الجو عبوسة ودمامة . وامتطت الأسعار الجنون . ندر الفول والعدس والشاى والبن ، واختفى الأرز والسكر ، وتدلل الرغيف . وندت عن الأعصاب المرهقة بوادر استهانة ، فتعددت السرقات ، وتعاقب خطف الدجاج والأرانب ، وبعض السائرين ليلا نهبوا أمام بيوتهم ، وانبرى رجال العصابة ينذرون ويهددون ، ويدعون إلى الأخلاق والتضامن بحناجر قوية وبطون مكتنزة .

وكشفت الأيام عن أنيابها الحادة القاسية، وتضخم شبح الجوع كالمئذنة المجنونة، فشاع أن الناس يأكلون الخيل والحمير والكلاب والقطط، وأنهم عما قليل سيأكل بعضهم بعضا..

٢٠

وفى ذلك الوقت البارد الأصفر تصدى يوم غريب كأنما هبط من كون آخر. فقد زفت إحسان بنت الفتوة سماحة إلى ابن صاحب وكالة الخشب. أقيم حفل خيالى لم تشهد له الحارة مثيلا، تحدى الزمن والجوع. وأعلنت فردوس هانم أنها ستطعم جميع الحرافيش. وتجمهر الجياع فى ساحة العرس. وما إن ظهرت الصوانى على رأس الخدم حتى هجم الحرافيش كالوحوش الضارية. تخاطفوا الطعام وتخالطوا مثل ذرات الغبار فى يوم عاصف. وانتشر الشد والجذب والخطف، ثم التلاحم والشجار حتى امتزج الدم بالمرق. وثمل الناس بالفوضى والشغب، واندفعت موجة منهم إلى البوظة فاكتسحتها، التهمت المزة وعبت من براميل البوظة، ثم انطلقوا فى الحارة مهللين، وقذفوا بالطوب أشباح الخرابات. وخضعت الحارة للعربدة الهوجاء حتى مطلع الفجر..

٢١

فى اليوم التالى تعرضت الحارة لحملة تأديب وإرهاب. انتشر فيها رجال سماحة، ومضى الفتوة يقطعها من القبو حتى مشارف الميدان ذهابا وإيابا. ولم ينج حرفوش من علقة أو إهانة، وتفشى الذعر فخلت الحارة من السابلة وأغلقت الدكاكين وهجرت القهوة والغرز حتى الزاوية لم يقصدها عابد فى ذلك النهار.

٢٢

وجلس فتح الباب إلى جدته كئيبا محزونا، وجعل يقول:

ـ جدى عاشور لن يرجع!

فرمقته العجوز بنظرة حزينة فقال:

ـ ما زال غاضبا علينا!

فتمتمت سحر:

ـ أيام أشد من أيام الوباء..

ـ وفى التكية ما زالوا ينشدون للطرب!

ـ لعلها دعوات يا بنى!

فتساءل فتح الباب بقلق:

ـ ألا يجدر بهم أن يجودوا على الناس ببعض ما عندهم؟

فقالت سحر بحرارة:

ـ لا يجوز عتابهم..

ـ عندهم التوت والأرض مزروعة بالخضر..

فلوحت بيدها محذرة، فقال متنهدا:

ـ أما أخى سماحة فهو الشيطان نفسه..

٢٣

فى الظلام مرقت ذرة نور، فى الصمت اندست همسة حنان. ولم يجاوز السر خرابات الحرافيش. حرصوا على الكتمان ووجدوا فى الكتمان حياتهم فثمة صرة حاوية لطعام تدس فى يد أحدهم، تعقبها همسة تقول «من عاشور الناجى» وسرعان ما يذوب شبح فى الظلام. حدثت ذلك أول مرة فى القبو، ومرة ثانية وقع فى الممر، وتكرر فى الخرابات. وتهامس به الحرافيش. عرفوا بالفطرة أن السر يسعى وراءهم وأنهم المقصودون بالاتصال. تلقوا من الغيب لقمة. أدركوا أن معجزة تتخلق فى ظلام الليل. أن نافذة للرحمة قد فتحت. أن عاشور الناجى أو روحه تضرب فيما بينهم. أن الكون الصلد المصمت تتشقق جدرانه ويطل منها المجهول. وجرت الدماء فى عروقهم، ونبضت قلوبهم بالحياة من جديد.

صرة الرحمة وهمسة عاشور الناجى..

٢٤

وبعثت نشوة الفرح حياة فى الألسنة فرقصت على أنغام أمانيها. تردد اسم عاشور حتى تجسد. لم يذكر شيء عن الصرة ولكن انتشر أن عاشور يبعث فى ظلام الليل. وسخر رجال سماحة من الخرافة. قالوا إنهم يسهرون الليل فلا يلقون أحدا. ودعا سماحة الشيخ سيد عثمان شيخ الزاوية وقال له:

ـ جنَّ الناس من الجوع..

فحنى الشيخ رأسه فسأله:

ـ هل بلغك ما يقال عن عودة عاشور؟

فحنى الشيخ رأسه بالإيجاب فسأله:

ـ ما رأيك فيه؟

ـ لا يصدق..

ـ لكنه كفر أيضا!

فقال الشيخ بإشفاق:

ـ إنه لكفر..

فقال سماحة بنبرة حاسمة:

ـ قم بواجبك..

وراح الشيخ يخطب الناس محذرا إياهم من الخرافة والكفر، وقال الرجل «لو بعث عاشور حقّا لجاءكم بالطعام» فسخر منه الحرافيش وازدادوا إيمانا.

٢٥

انقلب الظلام قناة سحرية للاتصال بين الأرواح. ثمل الفضاء بالهمسات السحرية. فى غفلة من الرقباء تدفقت النجوى مفعمة بالحرارة. ويتساءل الرجل:

ـ أأنت عاشور الناجى؟

ولكن الهامس سرعان ما يذوب فى الظلام مثل روح شارد.

همسة تدعو النائم أن يستيقظ. همسة توكد أن المخازن مليئة بالخير. همسة تلعن الجشع، الجشع عدو الإنسان لا القحط. همسة تتساءل أليست المغامرة أفضل من الموت جوعا؟ وهمسة تنبه إلى أنه توجد ساعة ينام فيها رجل العصابة فتتخلى عنهم قوتهم. وهمسة تسأل ماذا يمكن أن يقف فى وجه الكثرة إذا اندفعت؟ وهمسة تتحدى، كيف تترددون ومعكم عاشور الناجى؟!

انقلب الظلام قناة سحرية للاتصال بين الأرواح. ثمل الفضاء بالهمسات السحرية. شحن الغيب بالقوى المجهولة..

٢٦

وكانت ثمة قوة أخرى تعمل بلا هوادة حتى وقفت على سر الطعام والمجهول. وكشف سماحة عن الخزى فى صميم محله. وسرعان ما صرخ ضامر الحسنى أمين مخزن الفتوة من الرعب وقال بحرارة:

- إنى برىء يا معلم وليشهد اللّه..

فقال سماحة بوحشية:

- سرق من المخزن أكثر من نصفه.

- إنى برىء يا معلم..

- إنك مجرم حتى تثبت براءتك.

- لا تخسر رجلا وهبك حياته لخدمتك!

- معك أنت المفاتيح.

- أسلمها لك كل مساء..

- ولكنى أجدها مكانها كل صباح وأعيدها إليك..

- ممكن أن تؤخذ فيما بين ذلك وتعاد!

- وأنا لا أدرى؟

فقال ضامر الحسنى بابتهال:

- إذا كان السارق ممن يترددون على حجرتك بلا إذن!

استقرت فى عينى سماحة نظرة صلبة محتقنة بالنار كأنما تنادى الشياطين من أوكارها، وتمتم ووجهه ينضح بالدمامة والغل:

- إن تكن كاذبا فقد هلكت، والويل للمجرم..

٢٧

من وراء السبيل، فى ظلمة كثيفة، تسلل فتح الباب إلى باب المخزن. أدار المفتاح بحذر ودفع الباب برقة. ورد الباب وتقدم خطوات مستهديا بنور الذاكرة.

اشتعل مصباح فجأة فألقى على المكان ضوءا فاضحا. انذعر فتح الباب وتسمر فى موضعه. برزت من الظلمة على ضوء المصباح وجوه مخيفة قاسية، وجه سماحة، وجه ضامر الحسنى، وجوه نفر من أشداء العصابة. تلاطمت النظرات فى ارتطام عنيف. انغرز الصمت فى النفوس وأز فى الآذان مثل فحيح الأفاعى. احترق الجو بأنفاس حارة منطلقة من غرائز بدائية وحشية. وملأته نظرة أخيه. نفذت إلى أعماقه فاقتلعت أعضاءه من جذورها. شعر بالسم يسرى فى جوارحه، وبالهزيمة المطلقة، بالضياع فى غياهب الفناء. انجلت عنه هموم الأمل فغاص فى اليأس، وانتظر كلمة القضاء كأنها تخص شخصا آخر.

وجاءه الصوت يسأل باردا ساخرا حانقا:

ـ ماذا جاء بك فى هذه الساعة من الليل؟

لم يبق له إلا الاعتراف والشجاعة والتوكل على اللّه. أجاب بهدوء غير متوقع:

ـ لقد علمت كل شىء..

ـ ماذا جاء بك فى هذه الساعة من الليل؟

فقال بشجاعة أكثر:

ـ جئت لأنقذ أرواحًا من الموت..

ـ أهذا جزاء من يحسن إليك؟

فقال بهدوء:

ـ هذا ما ينبغى فعله..

ـ إذن فأنت عاشور الناجى؟!

فلاذ بالصمت. فقال سماحة بغل:

ـ ستعلق من قدميك فى السقف يا معلم عاشور حتى تصفى روحك نقطة بعد نقطة..

٢٨

ووقعت الواقعة. رسبت الهمسات فى أعماق الحرافيش فتحولت إلى قوة مدمرة. اجتاح الحارة طوفان لم تعرفه من قبل. هكذا قسم الحرافيش أنفسهم إلى جماعات، وتسللت كل جماعة إلى مسكن رجل من رجال العصابة. تم ذلك قبيل الفجر فى ساعة النوم العميق. هوجم الرجال فى أسرتهم، دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزموا، نهبت دورهم، زالت عنهم غشاوة السحر مخلفة وراءها عاهات مستديمة. ولم يسمع أذان الفجر من صياحهم. خرجوا من دور العصابة كالسيل، غمروا الحارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كل مخزون بها، دمروها تدميرا. وأول هدف لهم كان مخزن سماحة الفتوة. بل لم يترك قائم فى المحل كله. نهب الغلال حتى آخر حبة. ورئى فتح الباب معلقا فى عرق من عروق السقف، مدلى الذراعين، مغمى عليه أو ميتا، ففك وثاقه وطرح على الأرض بين الحياة والموت. سيطروا على الحارة تماما حتى شعشع أول ضوء للنهار. ذعر الناس فى النوافذ والمشربيات وارتفع الصراخ، عند ذاك فتح باب الفتوة سماحة، وتجلى الرجل مثل وحش قابضا على نبوته..

٢٩

تطلعت إليه الأبصار. تسمروا فى حقد وتصميم ولكن استبقوا إلى السكوت والتوقع. ها هو ذا الوحش المخيف ولكنهم سكارى بالنصر لا يخافون، وفى الوقت نفسه يترددون. لعله انتظر أن ينضم إليه رجاله فلم يعرف بعد ما حاق بهم. لا شك فى أنه سيفطن إلى ما وقع إن لم يكن قد فطن إليه بالفعل. إنه وحده يواجه الحرافيش، هو وقوته ونبوته وسحره الخرافى. وتساءل بصوت فاجر:

ـ ما معنى هذا؟

فلم يجبه أحد، ومن النوافذ هبطت إليه استغاثات، وأنباء النهب والسلب. تساءل مرة أخرى:

ـ ماذا فعلتم يا أولاد الزوانى؟

لم ينبسوا، لم ينخذلوا ولم يتشجعوا، فتساءل بوحشية:

ـ ماذا فعلتم يا أبناء الزوانى؟

فانطلق صوت كالحجر صائحا:

ـ جدك كان ابن الزانية . .

وارتفع هدير من القهقهات فوثب سماحة وثبة قوية ملوحا بنبوته وصاح:

ـ اثبتوا إن كان فى أسمالكم رجل!

فانحط الصمت عليهم كصخرة ولكن لم يتراجع أحد. وتهيأ سماحة للانقضاض. عند ذاك ظهر فتح الباب شاحبا مخلخل القدمين وهتف وهو يستند إلى جدار:

ـ اقذفوه بالطوب . .

سرعان ما انفجر الحرافيش وانهال الطوب على الرجل. توقف هجومه تماما تحت المطر. استبقت الدماء من جراحه حتى تخضب بها وجهه والثياب. ترنح متراجعا وهو يخور. أفلت النبوت من يده. تقوض بنيانه فوق عتبة الدار . .

وانقض الجميع على الدار. فرَّ عنها أهلها من السطح إلى الأسطح المجاورة. نهبت ودمرت ثم تركت خرابة مسورة . .

٣٠

سرعان ما عرف دور فتح الباب فى المعركة. تجسد أسطورة ونودى به فتوة للحارة. وقد ارتبك الفتى وتحير. لم يغره النصر، ولم يضل فى تقدير ذاته، فهو لم يقبض فى حياته على نبوت، وجسمه الهش لا يصمد لضربة يد. وقال لمحبيه:

ـ نختار فتوة ونأخذ عليه عهدا بأن يحكم كما حكم عاشور . .

ولكنهم وقعوا فى أسر الانفعال فصاحوا:

ـ أنت أنت الفتوة ولا فتوة غيرك!

هكذا وجد فتح الباب شمس الدين جلال الناجى نفسه فتوة دون منازع . .

٣١

وبفضل رجلين فى العصابة ـ دنقل وحميدة ـ حافظت الفتونة على هيبتها سواء فى الحارة أم فى الحارات المجاورة. وكان دنقل وحميدة من رجال العصابة السابقين،

وكذلك كان غالبية رجالهما، ولكن فتح الباب سيطر سيطرة مطلقة بسحره الخاص وقوة الحرافيش المتمثلة فى كثرتهم المنتشية بالنصر والثورة.

وفى تلك الأيام ماتت نور الصباح العجمى، وآوت فردوس هانم وأبناؤها إلى دار أسرتها من آل راضى بعد أن فقدت جل ثروتها فهبطت من طبقة إلى طبقة.

٣٢

وتطلع الناس إلى العدل. عمرت قلوب الحرافيش بالأمل وامتلأت أنفس الوجهاء بالمخاوف. واقتنع فتح الباب بأن العدل لا يجوز أن يتأخر يوما واحدا.

وقال لمعاونيه:

ـ علينا أن نحيى عهد عاشور الناجى..

ونشط الرجلان فى توزيع الخيرات والوعود والآمال، ومضت الجراح تندمل. ولاحظ فتح الباب أن الرجلين ينوبان عنه فى جمع الإتاوات وتوزيعها، كما لاحظ أن رجال العصابة ما زالوا يتمتعون بامتيازاتهم، يستولون على أنصبة من الإتاوة ويعيشون عيشة البطالة والبلطجة. ساورته المخاوف، وأشفق من أن ترجع الأمور رويدا إلى مجراها القديم. واجتمع برجاله وقال لهم:

ـ أين العدل؟ أين عهد عاشور؟

فقال له دنقل:

ـ تغير الوضع ولكن علينا أن نسير بعد ذلك خطوة خطوة..

فقال فتح الباب بامتعاض:

ـ العدل لا يقبل التأجيل..

عند ذاك قال دنقل بجرأة جديدة:

ـ لايمكن أن يرضى رجالك بحياة بسيطة مثل بقية الناس!

فهتف بحرارة:

ـ إذا لم نبدأ بأنفسنا فلن يتحقق خير..

ـ إذا بدأنا بأنفسنا تزعزعت أركان الفتونة..

ـ ألم يكن عاشور يتعيش من عرق جبينه؟

فقال حميدة:

ـ تلك أيام لا يمكن أن ترجع . .

ـ لا يمكن؟!

فقال دنقل بفتور :

ـ خطوة . . خطوة . .

ولو كان فتوة حقّا لحسم الأمر بكلمة واحدة . . وساءل نفسه محزونا :

ـ ما الفائدة ما دمت لا أملك قوة جدى عاشور؟

والحرافيش ترى هل نسوا قوتهم المدمرة؟!

٣٣

وفى لحظة يأس وغضب معا صارح فتح الباب دنقل وحميدة بأنه سيعلن تخليه عن الفتونة . وجزع الرجلان واستمهلاه واعدين إياه بتحقيق مطالبه . واجتمع الرجلان بصديقهما مجاهد إبراهيم شيخ الحارة ، وقال له دنقل :

ـ فتوتنا ناقم ، لا وفاق بيننا وبينه ، فما رأيك؟

فأجاب العجوز بحنق :

ـ يريد أن يرجع عهد الناجى ، أليس كذلك؟

ـ نعم .

ـ أن يسود الحرافيش ويستذل الوجهاء ويجعلنا أضحوكة بين الحوارى!

فقال له دنقل بكآبة :

ـ لقد هدد بالتخلى عن الفتونة . .

فهتف مجاهد إبراهيم :

ـ ليس الآن ، ليبق الصورة والأمل حتى نطمئن تماما إلى أن الحرافيش لم يعودوا إلا الحرافيش فقط ، وأنهم نسوا تماما هبتهم الجنونية ، حققوا له نصف مطالبه . .

فقال حميدة ساخطا :

ـ الكل أو لا شىء ، ذلك مطلبه!

فتفكر مجاهد إبراهيم مكفهرا ثم قال بإصرار :

ـ فليبق فتوة فترة أخرى ولو بالقوة والقهر!

٣٤

وزار دنقل وحميدة فتح الباب فى مسكنه المتواضع . انفردا به وقال له دنقل :

ـ نحن نبذل الجهد ولكننا نلقى عقبات كالجبال ، ورجال العصابة غاضبون ، يتوعدون بالشر والدم . .

فتمتم فتح الباب بذهول :

ـ ولكنكما أقوى الرجال . .

ـ هم الكثرة وهم الغدر . .

فقال بإصرار :

ـ سأتخلى عن الفتونة !

فقال حميدة :

ـ لا نضمن لك الحياة إن فعلت . .

وقال دنقل :

ـ لا تغادر مسكنك ، أبدا ، ستلقى لدى أول خطوة خارجه مصرعك !

٣٥

أدرك فتح الباب موقفه عاريا . قال لجدته سحر :

ـ ما أنا إلا أسير محاصر !

فتأوهت العجوز وقالت :

ـ ما باليد حيلة ، اقنع بنصف الأمل . .

فهتف بأسى عميق :

ـ علىَّ اللعنة إن خنت جدى لحظة واحدة !

ـ وكيف تتحدى القوة ؟

فتفكر متحيرا وهو يغمغم :

ـ الحرافيش !

فقال بإشفاق :

ـ سيقتلونك قبل أن تتصل بأحد منهم !

٣٦

لبث فتح الباب فى الأسر ، لا يدرى أحد ما سر انزوائه ، ويؤول بالزهد تارة أو بالمرض . كانت الأعين ترصده نهارا وليلا ، وحتى جدته حيل بينها وبين الخروج . وكان يعلم علم اليقين بأن حياته رهن بتحمس الحرافيش ، وأنه سيتلاشى يوم تتلاشى أسطورتهم ويركبهم الهوان . واشتد الحذر بالعصابة ، ولم يتوانوا عن مراقبة الحرافيش وممارسة الإرهاب والعنف .

وذات يوم وثب حميدة على دنقل فبطش به واستأثر لنفسه بالمركز الأول فى العصابة . وعندما اطمأن جانبه من ناحية الحرافيش أعلن نفسه فتوة على الحارة . .

وظن فتح الباب أن أسره قد انتهى ولم يعد له مبرر أو معنى . قال للفتوة الجديد :

ـ ما مضى قد مضى ، دعنى أمارس حياتى العادية وأرتزق من عمل مثل بقية خلق اللَّه . .

ولكن حميدة رفض مطلبه وقال له :

ـ إنك غير مأمون الجانب ، فابق حيث أنت ، وسيجيئك رزقك بلا تعب !

٣٧

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده . مثل صحوة قصيرة مشرقة فى يوم طويل ملبد بالغيوم . وذات صباح عثر عليه ، جثة مهشمة فى أسفل المئذنة المجنونة . خفقت قلوب كثيرة فى أسى وفرحت قلوب . وقيل فى تفسير ذلك إنه جن حزنا على ضياع الفتونة من بين يديه ، فتسلل ليلا إلى مئذنة جده المجنون ، فرقى فيها إلى أعلى شرفة ، ثم رمى بنفسه للهلاك والكفر . .

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده . .

التوت والنبوت
الحكاية العاشرة من ملحمة الحرافيش

١

بموت فتح الباب صحت الحارة من حلمها الوردى، ارتطمت بصخرة الواقع، انطوت على أحزانها، تكاثف ظل حميدة السفاح حتى حجب نور الشمس.

لم يبق من صفوة ذرية الناجى إلا بنات فردوس أرملة سماحة ذى الوجه القبيح وبكريها ربيع سماحة الناجى. أما البنات فقد ذبن فى عامة أهل الحارة، وأما ربيع فقد نشأ فقيرا، ولم تكن أمه تملك مالا يذكر، فعمل كاتبا فى محل البنان، ومارس حياة غاية فى البساطة. رغم ذلك كان يعد خير آل الناجى. لم يستدر ذلك رحمة أحد. فعلا تعلق الحرافيش بسير عاشور وشمس الدين وفتح الباب، فقد أضمروا الاحتقار والمقت لسائر آل الناجى لخيانتهم لعهد جدهم العظيم، ولانخراطهم فى سلك المجرمين والبلطجية.

وقد أراد ربيع أن يتزوج من أسرة كريمة، ولكن طلبه رفض فأدرك أن أصله لا يغنى عن فقره وتفاهة عمله، وأن الفقر يفضح معايب يسترها الثراء عادة، مثل انتمائه إلى سماحة ذى الوجه القبيح وجلال المجنون وزهيرة السفاحة، وزينات الشقراء الداعرة ونور الصباح العجمى الغانية. سلسلة صدئة من الدعارة والإجرام والجنون. لذلك غشيته كآبة ثقيلة ممتدة. فقرر أن يمضى حياته أعزب متسربلا بالوحدة والكبرياء. وماتت فردوس هانم بعد أن جاوز الخمسين، فاضطر إلى أن يقيم فى شقة صغيرة من حجرتين وحيدا. ولم يطق الوحدة المطلقة وضاق بإهمال بيته الصغير فبحث عمن يقوم بخدمته فجاءه أولاد الحلال بأرملة فى الثلاثين من آل الناجى تدعى حليمة البركة. وجدها جادة وأمينة مقبولة الصورة، قوية الشخصية رغم فقرها، فكانت تنظف البيت وتعد الطعام ثم تذهب للمبيت فى بدرومها. ومع الأيام مالت نفسه إليها فرغب أن يتخذ منها خليلة، ولكن المرأة أبت ذلك فى حزم وقالت له:

ـ سأذهب يا سيدى ولكنى لن أعود..

وجد نفسه وحيدا بائسا كما كان أو أشد بأسا، ولم يعد فى وسعه أن يحتمل الوحدة والحرمان العاطفى، إلى خوف من المرض والموت وحنين إلى الذرية، فعرض على المرأة الزواج وسرعان ما قبلت وهى سعيدة. هكذا تزوج ربيع سماحة الناجى من حليمة البركة

بعد أن عبر الخمسين بثلاث سنوات . وسعد بحياته الزوجية ، ووجد فى شريكته سيدة بيت حازمة ، ورعة متدينة ، فخورا بانتمائها إلى الناجى ، مسحورة بأمجاد الأسرة الأصيلة ، وأنجب منها ثلاثة ، فائز وضياء وعاشور . ومات ربيع وبكريه فائز فى العاشرة وضياء فى الثامنة وعاشور فى السادسة ، مات دون أن يترك لأسرته مليما واحدا . .

٢

تركت حليمة البركة لتواجه الحياة وحيدة . كان أهلها من الحرافيش فقررت أن تعتمد على نفسها ، مستعينة بالعزيمة لا بالدموع . انتقلت إلى بدروم مكون من حجرة ودهليز ، باعت فائض الأثاث البسيط ، استغلت مواهبها فى بيع المخلل والمفتقة والخدمة كبلانة ودلالة . لم تولع بترديد الشكوى والحسرة على الماضى ، وواجهت زبائنها بوجه مشرق كأنه سعيد ، ولم تخل من أحلام عذبة عن مستقبل مجهول .

أدخلت أبناءها الكُتَّاب ، وعند السن المناسبة عمل فائز سواق كارو ، وضياء شيالا فى محل النحاس . وهانت شدة الحياة قليلا ، ولكن لم تزل تطالب حليمة بالعمل وقد بلغت الخمسين .

وكان فائز أول من واجه الحياة من أسرته . وجدها معادية معاندة ، وأنه يؤاخذ فيها على جرائم أجداد وجدات لم يعرفهم . كان طويلا ، نحيلا ، بارز الأنف ، ضيق العينين ، قوى الشدقين ، وكان يزدرد السخريات ويكبت مشاعره ويمضى فى عمله . عرف عن أمه جانبا مضيئا من تاريخ الأسرة ولكنه عرف جانبها المظلم فى الحارة بين الناس . فى البيت تلقن معانى الزاوية والسبيل والكتاب والحوض ، وفى الخارج دهمه مغزى المئذنة العملاقة المجنونة . وهذه الدور الرائعة التى كانت مقاما لأجداده ثم أصبحت مساكن للتجار والوجهاء الأغراب . كم يتأملها بغرابة ويحلم ، كم يتخيل تلك الأيام الخوالى ، ولا يخلو دماغه منها حتى وهو ينخز الحمار لينطلق بالكارو فى أرجاء الحى العتيق . إذن فهذه هى الدنيا ، ولكن كيف ينبغى أن نتعامل معها؟

٣

وأعلن سخطه على مسمع من أمه وأخويه فقالت له حليمة :

ـ كان جدك عاشور وليا!

فقال فائز بحدة :

ـ مضى زمن المعجزات أما الدور فهى فى قبضة الآخرين . .

فقالت الأم بحرارة :

ـ من الحرام جاءت وفى سبيل الحرام هلكت . .

فهتف بتذمر كالمحتج :

ـ الحرام؟!

ـ اقنع بنصيبك ، ماذا تريد؟

ـ ما أنا إلا خادم حمار وما أنت إلا خادمة أوغاد . .

فقالت باعتزاز :

ـ نحن نعمل ونحن شرفاء . .

فقهقه . وكان قد طاف بالبوظة قبل رجوعه وشرب قرعتين .

٤

واشتغل عاشور الابن الأصغر صبيا لغنام يدعى أمين الراعى ، تعهد إليه الأسر بما تملك من ماعز فيسرح بها فى الخلاء لتمرح وتنعم بالشمس والهواء والأعشاب ، وذلك نظير أجر معلوم . بذلك ارتاح بال حليمة البركة فقد أصبح أبناؤها الثلاثة عمالا يرزقون ، ووهبتها الحياة بسمة صافية . ومضت الحياة بمسراتها الصغيرة وأحزانها المألوفة حتى بلغ فائز العشرين من عمره . وسألته أمه فى ساعة صفاء :

ـ متى تكمل دينك يا بنى؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ صبرك يا أمى وما صبرك إلا باللّه . .

٥

ولم يرجع فائز من مشاويره فى ميعاده المألوف . مضى أكثر الليل ولم يرجع . ذهب عاشور إلى البوظة يبحث عنه ، وتشمم ضياء أخباره فى الغرز ، ولكن لم يعثر له على

أثر . وفى الصباح مضت حليمة البركة إلى المعلم موسى الأعور صاحب الكارو مستطلعة عن خبر ابنها فوجدته قلقا ساخطا، وقال لها :

ـ لا خبر عنه . .

فانزعجت الأم وقالت :

ـ نذهب إلى القسم؟

فقال المعلم :

ـ ولا خبر عنه فى القسم . .

ثم تمتم بحنق :

ـ فلننتظر واللّه المستعان!

ومضى يوم فى قفا يوم، القلوب مشتعلة وفائز لا يعود .

وصاح المعلم موسى الأعور :

ـ سرقه ورب الكعبة، سرق الكارو واختفى، ولكن له الويل . .

وهتفت بركة فى جزع :

ـ ألم تجرب أمانته طوال تلك الأعوام؟

فقال بغضب :

ـ إنه مؤذ كثعبان . .

٦

وبكت حليمة طويلا كما بكى ضياء وعاشور . . وتعاقبت الأيام والأسابيع والأشهر . لم يعد أحد يشك فى الهارب وجريمته . وقال حسونة السبع الفتوة الجديد ساخرا :

ـ كانوا يسرقون الدور الفخيمة فأصبحوا يسرقون الكارو !

ولجأ موسى الأعور إلى الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية وعم يونس السايس شيخ الحارة فأفتيا بأن على ست حليمة وابنيها ـ ضياء وعاشور ـ أن يؤدوا ثمن العربة والحمار إلى موسى الأعور . وأدت الأسرة الثمن مقسطا وهى حزينة وصابرة .

٧

وقعت حادثة لا تعتبر غريبة بمقاييس ما يقع فى الحارة ولكنها هزت قلوب الأسرة هزا. كانت حليمة تقدم الخدمات كافة لدار الفتوة حسونة السبع بلا مقابل، بلا كلمة شكر. حتى هنا لا غرابة ولا تعجب، فقد كان حسونة من أفظع الفتوات الذين سيطروا على الحارة وأذلوها. كان يستغل حتى أفقر الفقراء. وكان يجادل بيده وقدمه لا بلسانه وينشر الرعب مع الهواء. وكان على شراسته وقوته حذرا كثعلب. هو الذى أوجب على جميع أتباعه بأن يستأثروا لأنفسهم بزقاق لا يقيم فيه أحد غيرهم ليتجنبوا مؤامرة كالتى دبرت للفتوات أيام فتح الباب. وهو نفسه شيد داره فى نهاية الزقاق.

وقد حدث أن تأخرت حليمة فى صنع صفيحة مفتقة بسبب وعكة طارئة، ولما ذهبت بها إلى الدار لعنها بعنف وصفعها! ورجعت المرأة دامعة العينين ولكنها أخفت الخبر عن ابنيها ـ ضياء وعاشور. غير أن ضياء كان يتردد أحيانا على البوظة، وفى مرة سأله زين علباية الخمار:

ـ ألم تعلم بما حدث للست الوالدة؟

هكذا تلقى ضياء الإهانة ثم قذف بها دامية فى قلب عاشور. وتلظى ضياء بالغضب، ولكن شرره لم يجاوز جدران البدروم، أما عاشور فغاص فى الحزن حتى قمة هامته. كان قويا ومهذبا. غطى تهذيبه على قوته فواراها عن الأعين. وكان نبيل الرأس، غليظ القسمات، غامق السمرة، وفى وجنتيه بروز وفى فكيه صلابة. ولم يطق البقاء فى البدروم مع أحزانه فخرج إلى الظلام، مسوقا بقوة خفية نحو ساحة التكية، نحو خلود جده عاشور. جلس القرفصاء دافنا رأسه بين ركبتيه فى جو جامد لا يتنفس تسبح فيه الأناشيد وحدها. أصغى طويلا وغمغم:

ـ ما أشد ألمى يا جدى!

وناجته الأناشيد بلغتها الغامضة:

بـى مهر رخت روز مرا نور نماندست

وزعمر مرا جز شب ديجور نماندست

٨

واستقرت الإهانة فى الأعماق، فهى لا تهضم ولا إلى الخارج تُقذف. وكان عاشور ينمو نموا فذا كشجرة توت، يذكر هيكله المتمادى فى العملقة وملامحه الغليظة الجذابة بما قيل فى وصف جده عاشور. أصبح منظر راعى الغنم جديرا بلفت الأنظار. وخافت حليمة أن تثير قوته هواجس الوحش حسونة السبع فحذرته قائلة:

ـ تناس قوتك، تظاهر بالجبن فهو أرحم، ليتنى ما سميتك بعاشور!

ولكن الفتى كان فطنا، مستغنيا بفطنته عن التحذير. وكان يمضى طيلة نهاره فى الخلاء بين الماعز بصحبة معلمه أمين الراعى. لم يظهر قط فى البوظة أو الغرزة أو القهوة. لم يستعمل قوته قط إلا فى المثابرة والصبر. أجل مزقته الإهانة. غضب حتى تخيل أركان الحارة وهى تهدم ويبعث من فى القبور، ولكنه لم يتهور، ضبط نفسه، لم يتجاهل القوة الغشوم المتربصة الحذرة القاسية ونبابيتها المتأهبة. وكلما ضاق صدره مضى إلى ساحة التكية، يؤاخى الظلام، ويذوب فى الأناشيد. وتساءل مرة فى حيرة:

ـ ترى أيدعون لنا أم يصبون علينا اللعنات؟

وتساءل مرة أخرى فى أسى:

ـ منذا يحل لنا هذه الألغاز؟

وتنهد طويلا ثم استطرد:

ـ إنهم يغلقون الأبواب لأننا غير أهل لأن تفتح فى وجوهنا الأبواب!

وكان يجد ضياء فى البدروم، صاخبا بالغضب. ومرة قال ضياء:

ـ لولا أننا صرنا حرافيش ما تعرضت أمنا للإهانة..

فقال له عاشور:

ـ حرافيش أم وجهاء لا يهم، ستدرك الإهانة دائما من يتقبلها!

ـ ماذا علينا أن نفعل؟

فصمت عاشور مليا ثم تمتم:

ـ لا أدرى يا أخى!

٩

خافت حليمة عواقب الأفكار المحتدمة، فقالت ببساطة وصراحة:

ـ ما أصابنى لا يعد إهانة فى حارتنا!

وصممت على أن تجتاز بهما تلك المحنة، ففكرت جادة فى تزويجهما. لقد فقدت فائز وها هو ذا الزمن يمضى مسرعا بلا أمل. سيبعث الزواج وثبات جديدة فى هذه الحياة الراكدة. سيجعل منهما رجلين أكثر تعقلا، وأشد حذرا، وأبعد عن المغامرات الفاتكة. وسألتهما:

ـ ما رأيكما فى بنت الحلال؟

ورحبا بارتياح. كانا فقيرين مكبوتين فرحبا. وقالت حليمة:

ـ ننتقل إلى بدروم أكبر يسعنا جميعا فهو للمعيشة أوفر. .

ووقع اختيار المرأة على فتحية وشكرية ابنتى محمد العجل العلاف بحظيرة المعلم موسى الأعور. ولم يكن أحد منهما قد رأى فتاته، ولكنهما كانا يغليان بوقدة الشباب، ويتوثب خيالهما الجامح لمعانقة أى أنثى.

هكذا قرئت الفاتحة.

١٠

وجاء إلى الحارة فتى غريب. نطق وجهه بالعافية، رفل فى عباءة بنية، انتعل مركوبا أحمر، طوق رأسه بلاثة من الشاهى المنمنم، فى يده مسبحة من الكهرمان. أول من رآه كان زين علباية الخمار. لم يعرفه إلا حين ابتسم فهتف الخمار:

ـ من؟ . . فائز بن ربيع الناجى . .

وتطلعت إليه الأعين غير أنه مضى من توه إلى القهوة، إلى أريكة حسونة السبع، انحنى فوق يده فلثمها ثم وقف ممتثلا. قال حسونة وهو يتفحصه:

ـ ما شاء اللّه ها قد رجع الهارب!

فقال فائز:

ـ مصير الحى إلى أصله!

فقال حسونة السبع بلهجة ذات مغزى :

ـ آثار الشطارة بادية عليك . . .

فقال فائز بخشوع :

ـ هذا من فضل ربى . .

ودخل القهوة عند ذاك موسى الأعور ، وفى أعقابه دخل شيخ الحارة يونس السايس ، وهتف موسى :

ـ فى ساحة فتوتنا يتحقق العدل .

فنهره الفتوة قائلا :

ـ لا تنهق كالحمار . .

فقال الرجل :

ـ باع العربة والحمار ثم تاجر بمالى !

فسأل الفتوة فائز :

ـ ماذا فعلت بماله؟

فقال فائز :

ـ ورأس الحسين لقد سرقت الكارو وأنا نائم ، لذلك هربت . .

فقال موسى :

ـ كذاب ! . . من أين لك هذا الجاه؟

ـ العمل والحظ وفضل ربى . .

فتمتم يونس السايس :

ـ قضية طريفة حقّا . .

فقال فائز :

ـ إنه مالى ، لو كنت لصا ما رجعت ، وما أرجعنى إلا حرصى على تسديد ديونى . .

وقدم للفتوة صرة وهو يقول :

ـ عامان مضيا بلا إتاوة .

تناولها الفتوة . ابتسم لأول مرة . قال فائز :

ـ من أجلك يا معلم جئت أولا ، ولأرى أهلى أخيرًا !

قال حسونة السبع :

ـ لص؟ . . لا يهم ، ولكنك فهلوى ، إنى أصدقك !

فتساءل موسى الأعور:

ـ وأنا يا معلم؟

فقال يونس السايس:

ـ لقد قبضت ثمن الكارو والحمار من ست حليمة البركة..

فقال موسى الأعور:

ـ ماله فى الواقع هو مالى أنا..

فقال حسونة السبع:

ـ من حق موسى صرة مثل صرتى.

فلم يتردد فائز فقدم للفتوة صرة أخرى. فطرب الرجال بالحكم العادل فهتفوا معا:

ـ اسم اللّه عليه.. اسم اللّه عليه..

ولكن حسونة السبع أبقى الصرة الجديدة فى قبضته على حين تجلت فى عينى موسى الأعور نظرة يائسة. قال الفتوة يخاطب فائز:

ـ آن لك أن تذهب إلى أهلك.

١١

أمام البدروم وجد حليمة فى انتظاره. لدى بلوغ الخبر إليها خرجت إلى الطريق. كأنه حلم أو خرافة أو معجزة ولكنه على أى حال سعادة تفوق الاحتمال. ضمته إلى صدرها وأجهشت فى البكاء وظلت تردد:

ـ الشكر لك يا رب.. الشكر لك يا رب.

واجتمع شمل الأسرة عقب عودة ضياء وعاشور. امتزجت الدهشة بالسعادة مرة أخرى. لبث فائز بينهم فى الحجرة الصغيرة كألماسة فى كوم من الهشيم. يشع منها نور، ويسيل أمل يتجلى المستقبل على ضوئه فى صورة خلابة لم يحلم بها أحد. تغيرت أحاسيس الأسرة، خلقت خلقا جديدا. مضى فائز يقول:

ـ الناجح محسود، ستفتعل حولى الأقوال، ولكنى برىء واللّه شهيد.. فقالت حليمة بحرارة:

ـ قلبى يصدقك..

ـ ما الحكاية؟.. بكل إيجاز لقد سرقت الكارو وأنا نائم، تحيرت، قررت الهرب، لعله كان قرارا خاطئا ولكنه ما حصل..

تركزت عليه الأبصار بقلوب مرحة مستعدة للتصديق. قال:

ـ همت على وجهى أياما بلا عمل حتى انتشلنى خواجا، الحكاية طويلة، عملت عنده خادما وسواقا، حميته من تحرش بعض الأراذل، تعلمت على يديه سر العمل، ثم جاءنى الحظ ببسمته العذبة، لا بد من الحظ، ربحت ورقة نصيب، قررت أن أعمل لحسابى، صادفنى نجاح فاق كل تقدير..

وسأله عاشور باهتمام:

ـ ما عملك بالضبط يا أخى؟

ـ ليس من اليسير شرحه، هل سمعت شيئا عن السمسرة والمضاربة؟ حسن، لا دكان لى ولا محل، نعقد الصفقات فى الطريق فى المقاهى، إنها أمور معقدة، سنعود إليها بتفصيل أكثر، ولكننى لن أشرككما فيها، لقد رسمت للمستقبل صورة محدودة ومتنوعة ومضمونة..

فتوردت الوجوه من البهجة وعذوبة الحلم ولاذت بالصمت والابتهال فمضى يقول:

ـ إرادة اللّٰه العلى القدير أن يعود آل الناجى إلى مركزهم المرموق!

فتساءل عاشور هامسا:

ـ تعنى الفتونة يا أخى؟

فضحك قائلا:

ـ لا.. لا.. أعنى الوجاهة والأبهة!

فقال ضياء بإشراق:

ـ ما أجمل هذا!

ـ يجب أن تتغير هذه الحياة الضحلة، لن نكون بعد اليوم من الحرافيش، لا راعى غنم ولا شيال، هى إرادة اللّٰه العلى القدير..

فهتفت أمه:

ـ إنك ثمرة حبى ودعائى..

فقال بجدية بالغة:

ـ علينا أن نفكر فيما ينبغى عمله بلا تردد، فإن نشاطى يتطلب منى رحلات بلا نهاية!

١٢

وحلت تغيرات حاسمة مثل تغيرات الفصول الأربعة. ما بين يوم وليلة تحولت حليمة البركة إلى ست بيت فلا خدمة ولا بيع. استقال ضياء من محل النحاس كما استقال عاشور من رعى الأغنام. انتقلت الأسرة إلى شقة مؤقتة مكونة من أربع حجرات، والأهم أنه شرع فى تشييد دار للأسرة فى خرابة أمام بنك الرهونات واشترى فائز وكالة الفحم تاركا إدارتها لأخويه، فجلس ضياء وعاشور فى حجرة الإدارة، رافلين فى العباءة الفضفاضة، ناشرين من أعطافها شذا المسك والعنبر.

تداخل الحلم فى الحقيقة وتداخلت الحقيقة فى الحلم وانبهرت الأعين وشخصت الأبصار. عند استبدال الثياب الفاخرة بالأسمال البالية شعر الأخوان بذهول ورهبة ثم بسعادة مسكرة. خرجا إلى الطريق كأنهما يخوضان معركة. شد منظرهما الأبصار، أحدق بهما أناس من الحرافيش والصغار. انهال عليهما طوفان متضارب من السخريات والبركات والعبث والجد والغمز والتهنئات. وما إن ارتفع الضحى حتى فاز الجاه بامتيازاته واستقر فى مركزه وسلم الجميع بقضاء المقادر. وكم من قلوب أحرقها الحسد، وكم من قلوب دوخها الانبهار، وكم من قلوب ثملت بآمال مجهولة.

ووقف جليل العالم شيخ الزاوية ويونس السايس شيخ الحارة يتناجيان. قال يونس وهو يرمق عاشور:

ـ يقال إن هذا الفتى يشابه جده الأول.

فقال جليل:

ـ ثمة فرق هو ما بين الذهب الخالص والنحاس المطلى بالذهب!

١٣

واعترضت الطريق المنبسط عقبة كالحة، هى قراءة فاتحة شكرية وفتحية! فرضت نفسها عليهم من أول يوم. وقال ضياء لأمه معاتبا:

ـ لم تسرعت يا أمى؟

فلم تدر حليمة بم تجيب. لم تعد سعيدة بالخطوبة ولا متحمسة لها، ولكنها تكره عادة أن تفعل ما تخجل منه، كما أن تقوى اللّٰه تملأ قلبها. وتمتمت:

ـ قسمة ونصيب!

فسألها بحدة:

ـ ماذا؟

فقالت باستسلام:

ـ يقول المثل «خذوهن فقيرات يغنكم اللّه».

ـ ولكن اللّه قد أغنانا من قبل أن نأخذهن!

ـ ألم يكونا قدم السعد؟

فتمتم ضياء فى ضيق:

ـ إنه لعبث!

ولبث عاشور صامتا متجهما. إنه لم يعد سعيدا بالخطوبة، ولكنه يكره عادة أن يفعل ما يخجل منه ـ مثل أمه ـ تملأ التقوى قلبه. سألته حليمة:

ـ وأنت يا عاشور؟

فأجاب مغلوبا:

ـ لقد قرأنا الفاتحة..

فهتف ضياء:

ـ كلا، إنه قرار مؤسف لا يسر، ولكن كلا ثم كلا..

فقالت حليمة بحزم:

ـ افعل ما تشاء، بنفسك، ولا تعتمد علىّ..

١٤

وقابل ضياء ربيع الناجى عم يونس السايس شيخ الحارة فرجاه أن يحمل اعتذاره إلى محمد العجل. وتأمل شيخ الحارة وجه ضياء الصغير وقسماته الدقيقة ووسامته الشاحبة بلا معنى، وقال فى نفسه إنه وغد حقّا بالصورة والمضمون ولكنه قال له مداهنا:

ـ إنه لعدل ما تفعل ولن يلومك عليه إلا حاسد أو حاقد.

فقال ضياء مداريا خجله:

ـ ما باليد حيلة.

ـ وعاشور، ماذا عنه؟

فقال ضياء بحنق:

ـ إنه طيب أحمق!

فضحك يونس السايس وقال:

ـ ستمتدحه ألسنة وهى تسخر من سذاجته!

١٥

وأثار فسخ خطوبة ضياء عاصفة من السخط والتهكم أسهم فيها الطيبون بطيبتهم. والحاقدون بحقدهم وحسدهم. وغطت نذالة ضياء على شهامة عاشور فسرعان ما تجوهلت وانصبت اللعنات على الأسرة الخائنة التى تتجسد قسوتها وأنانيتها فى أمثلة حية، وتذوب قداستها فى أساطير غابرة لم يشهدها أحد.

وكان المعلم عاشور ربيع الناجى ماضيا إلى وكالة الفحم عندما ترامى إليه صوت غليظ ينادى بنبرة آمرة:

ـ عاشور!

رأى الفتوة حسونة السبع متربعا فوق أريكته وسط نفر من أتباعه فمضى إليه بلا تردد وأدى التحية اللائقة. ولم يدعه الفتوة للجلوس وقال له متحديا:

ـ إنكم أنذال يا آل الناجى..

أدرك عاشور ما وراء ذلك من سبب. وعجب لم لَم يوجه سبه إلى أخيه. أدرك أنه يمتحن رجل الأسرة العملاق القوى. سرعان ما لاَذ بنصيحة أمه ودهائه الفطرى فقال بأدب:

ـ ليغفر اللّٰه الذنوب!

ـ بسرعة تنسون أصلكم، تنسون الجنون والدعارة، أليس محمد العجل أشرف منكم؟

فقال عاشور كاظما انفعالاته:

ـ إنه رجل شريف، وعما قريب سأنضم إلى أسرته..

ـ كلا..

ـ ولكنه الحق..

ـ رفض الرجل النبيل أن تسعد إحدى ابنتيه على حساب الأخرى . .

ـ ولكن خطوبتى لم تفسخ !

ـ بل فسخت من ناحيته، وهأنذا أبلغك بقراره . .

فصمت عاشور متجهما فقال الفتوة :

ـ عليكم أن تعوضوه عما أصابه .

ـ نفعل ما يراه فتوتنا صوابا .

١٦

وانقشعت السحابة المثقلة بالحقد والمرارة والندم . ومضت الأيام مترقرقة بالسعد والإقبال . غدت وجاهة ضياء وعاشور عادة يومية مألوفة . واستقرت الدار الفاخرة أمام بنك الرهونات . وحمل الدوكار حليمة البركة إلى مشاويرها . أما فائز ربيع الناجى صاحب الجاه وباعثه فكان يزور أهله ويتفقد ملكه على فترات متباعدة .

١٧

وعشقت الأسرة الجاه واستنامت إليه . عاشور نفسه فرح فى أعماقه بفسخ خطوبته وبخاصة أن فسخها لم يحمله إثما . وسعد بحياة النعيم فاعتبر أخاه فائز معجزة من معجزات الأسرة وعبقرية من عبقرياتها . وكان يتطلع بشغف إلى أقمار الأسر فى العربات، إذا كان يحب الجمال كما يحب التكية وكما يحب مجد أسرته الحقيقى الذى عبق الماضى بشذاه الطيب النقى . وكان يغدق بلا حساب على الفتوة وشيخ الحارة، وجدد الزاوية والسبيل والحوض والكُتَّاب، وتصدق على الحرافيش . وفيما يتعلق بالحرافيش قالت له أمه :

ـ لا تثر مخاوف حسونة السبع، دعهم لى فإنى أستطيع أن أوزع الصدقات فى الخفاء !

ووافق عاشور إذ كان يعلم أن ثورة الحرافيش لا تمحى من ذاكرة الفتوات !

ولعل ضياء كان أسعد الجميع . عشق الجاه بشغف وشراهة . نعم بالكبرياء فى حجرة الإدارة، بالترف فى دار الناجى الفاخرة . بالكارتة والدوكار، هام بالثياب الأنيقة والأطعمة الفريدة، اقتنى أجود أنواع البوظة والحشيش والأفيون والمنزول . عبد فى

أعماقه أخاه فائز، كما عبد رجال الأسرة الأخيار منهم والأشرار على السواء، وكان يقول متباهيا:

ـ المهم أن تخرق المألوف!

ولعل حليمة كانت أقرب الأسرة إلى القصد ولكنها أيضًا نعمت بالعز والجاه. وفى المواسم كانت تهرب الصدقات إلى الحرافيش، وغمرت أم فتحية وشكرية بخيرها حتى نسيت المرأة الإساءة وصارت من أقرب المقربات إليها.

١٨

وظل نداء خفى يدعو عاشور إلى ساحة التكية ليطرب مع الأناشيد، كما كان يدعوه أحيانا إلى الخلاء حيث كان يرعى الأغنام. وكانت سعادته سماء تظهر فى جنباتها قطع السحاب، وأحيانا تركض حتى تخفى وجه الشمس. وقد يدهمه فى أعذب اللحظات قلق غامض فيفتر حماسه ويتساءل عما يعنيه ذلك.

ولاحظت حليمة ذلك فقالت له مرة:

ـ ما أضيع الرجل بلا زوجة يسكن إليها!

فقال بارتياح خفى:

ـ هو ذلك، ولكنه ليس كل شىء!

فسأله ضياء:

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟

فقبّل يده ظهرا وبطنا. ولكنه قال لنفسه إن إهانة الفتوة تستكن فى جوفه مثل خنجر، وإنه لا يدرى بأى وجه يلقى جده عاشور؟ وإن سعادته ينقصها شىء جوهرى. تساءل:

ـ لم يساور القلق إنسانا وهبه اللّه النعمة والكمال؟

فأجابت أمه بلا تردد:

ـ إنه الشيطان يا بنى!

حقّا إنه الشيطان، ولكن أى شيطان؟!

١٩

وأعجب الشقيقان ضياء وعاشور بفتاتين من أعرق الأسر، فخطب ضياء سلمى الخشاب كريمة صاحب وكالة الخشب، كما خطب عاشور عزيزة العطار كريمة أكبر عطار فى الحارة. وتبدى فائز فى حفل الخطوبة فى أبهة ملك الملوك..

ومضت الأيام مترقرقة بالسعد والإقبال.

٢٠

وفى ذات ليلة جاء فائز فى غير ميعاده..

كانت الأسرة مجتمعة فى قاعة الجلوس، وثمة مدفأة كبيرة من النحاس تشتعل جمراتها. كانت الأم تسبح، وعاشور يدخن البورى، وضياء ينسطل، على حين عزفت فى الخارج ريح باردة منذرة بالمطر.

جاء فائز فى غير ميعاده إذ كان يجىء عادة - إذا جاء - فى الضحى مستعرضا أبهته ودوكاره. هبَّ الجميع لاستقباله. وسرعان ما لاحظوا أن معجزة الأسرة فاتر النظرة، متجهم الوجه. جلس على ديوان، أزاح العباءة عن منكبيه رغم شدة البرد. تساءلت بقلق:

- مالك؟

فتمتم فى خمول:

- لا شىء..

- بل يوجد شىء يا بنى!

فقال بلا مبالاة:

- وعكة..

وصمت وهو محط الأنظار فتجلى وجهه بالتصلب الذى كان يطالعهم به قديما قبل أن ينتصر على الحياة. قامت حليمة وهى تقول:

- أغلى لك كراوية..

وتمتم ضياء :

ـ وتنام!

وأسبل جفنيه مليا ثم قال :

ـ لا مفر فى بعض الأحيان من أن يحن الإنسان إلى بيته . .

فقال عاشور :

ـ شتاء هذا العام لعين . .

ـ ألعن مما تتصورون . .

ـ وأنت تعمل بطاقة تفوق احتمال البشر . .

فردد بغموض :

ـ احتمال البشر . .

فقال ضياء :

ـ للإنسان حق فى الراحة . .

فقال بتسليم :

ـ قررت أن أحظى براحة عميقة .

وساد الصمت . ثم ما لبث أن نهض قائلا :

ـ سآوى إلى فراشى . .

ومضى إلى مخدعه . .

وجاءت حليمة بقدح الكراوية فمضت فى إثره . .

كان الشمعدان يضىء المخدع ، وكان فائز راقدا فوق الفراش بملابسه .

قالت حليمة :

ـ لِم لَم تغير ملابسك؟

وسرعان ما سقط القدح من يدها ، وصرخة ممزقة انطلقت من فيها . .

٢١

وقفوا يحدقون بأعين تطفح بالذهول والجنون .

فائز شاخص البصر ، ملقى الوجه بلا حول ، كأنه متجمد منذ ألف عام . يسراه مدلاة من حافة الفراش الوثير ، تتكون تحتها بحيرة من دم فوق السجادة الشيرازى ، وثمة خنجر

منطرح فوق القفطان الكموني ذو مقبض ذهبي . جرى ضياء يفتش تحت الديوان والفراش والصوان في الحجرة المغلقة النوافذ وهو يصيح :

ـ مستحيل . . ما معنى هذا؟

وهتفت حليمة بصوت مبحوح :

ـ ليدركنا سيد الرسل!

وصرخ عاشور :

ـ الحلاق!

وغادر الحجرة بسرعة جنونية . وراحت حليمة تصوت فصاح بها ضياء :

ـ إنه حي!

فصرخت :

ـ انتهى ، لم فعلت بنفسك هذا يا بني؟!

سرعان ما جاء الحلاق ، تبعه يونس السايس والشيخ جليل العالم ، ثم رجال ونساء من آل الخشاب وآل العطار .

وتراجع الحلاق وهو يتمتم :

ـ سبحان من له الدوام .

اجتاحت الدار الأنيقة عاصفة من الجنون .

٢٢

قبيل منتصف الليل جاء رجال السلطة ، فباشروا التحقيق مع الأهل والخدم ، وتفحصوا الأمكنة بدقة وعناية بالغة . .

سأل المأمور :

ـ ما تفسير ذلك في تقديركم؟

فقالت حليمة :

ـ حتى أمس كان أسعد خلق اللّه .

ـ أتعرفون أعداء له؟

ـ كلا .

ـ ماذا كان يعمل؟

ـ كان رجل أعمال وسمسرة ومضاربات . .

ـ أين مكان عمله؟

ـ لا مكان محددا له ، له دار فى الدراسة عند مشارف الجبل . .

ـ ماذا تعرفون عن شركائه وعملائه؟

ـ لا شىء ألبتة!

ـ كيف كان ذلك؟

ـ هو الحق بلا زيادة ولا نقصان!

٢٣

أعلن أن فائز ربيع الناجى قد انتحر لأسباب لم يكشف التحقيق عنها بعد. ورغم انتحاره فقد شيع فى جنازة جليلة ودفن إلى جوار شمس الدين.

ومضت أيام المأتم الثلاثة والأسرة فى ذهول لا تدرى شيئا عن كارثتها الكبرى . .

٢٤

لماذا انتحر فائز ربيع الناجى؟

ظل التساؤل يشد قلوب الأسرة، يقرع وعيهم المترع بالحزن والذهول.

وها هى ذى السلطة ـ كما يؤكد يونس السايس شيخ الحارة ـ جادة فى البحث والتحرى، ولكن كيف خيم عليهم الجهل حتى اللحظة الأخيرة؟ كيف أصابهم العمى فلم يروا شعاعا واحدا من النور؟ كان يغيب طويلا، ويحتفظ بكافة أسرار عمله لنفسه، ولكن زياراته المتقطعة المتباعدة كانت تملأ الدار بهجة وسرورا وأملا متواصلا فى الحاضر والمستقبل. حتى آخر زيارة كان شخصا آخر، ماذا غيره، كيف صار الموت بغيته وملاذه؟!

وولولت حليمة قائلة:

ـ لقد حلت بنا اللعنة . .

وتساءل ضياء:

ـ ما السر؟ . . أكاد أن أجن؟!

فقال عاشور :

ـ لن يكشف السر عما يسر ، فالناس لا ينتحرون بلا سبب . .

٢٥

وتلاقت أفكار الشقيقين على تفقد دار الراحل كقراءة أولى لأسراره ومعاملاته ومصادر أمواله . وتم الاتفاق بينهما وبين السلطة على ذلك . كانت دارا ضخمة ذات فناء مترام من ناحية الجبل . وجذب الأنظار كثرة المخادع الوثيرة ، ومخازن الخمور والمخدرات ، وغزارة التحف والرياش . ولما فتحت الخزائن وجدت خالية تماما . لا عقد ولا خطاب ولا دفتر ولا مليم واحد . وتبادل الشقيقان نظرات حائرة . تساءل عاشور :

ـ ما معنى هذا؟

وتساءل ضياء :

ـ أين ثروة المرحوم؟

وسأل عاشور المحقق :

ـ هل عرفتم جديدا من الأمر؟

فأجاب الرجل :

ـ لن يفلت منا خيط من الحقيقة . .

٢٦

رجع ضياء وعاشور من رحلتهما الاستكشافية الخائبة مذهولين . اشتد اللغز غموضا واكتنفته سحب دكناء فتوزعت القلوب الهواجس . حقّا لقد أمن لهما شقيقهما الحياة قبل أن يذهب ، فهما وأمهما الوارثون لوكالة الفحم ولدارين رائعتين ، ولكن ماذا عن ثروة فائز ، وماذا عن حياته المبهمة؟!

وتفكر ضياء ثم قال :

ـ لعله فقد ثروته فانتحر . .

فقال عاشور معترضا :

ـ ولم ينتحر وهو ما زال مالك الوكالة والدارين؟

فهزَّ ضياء رأسه فى حيرة وتمتم :
ـ ترى لم ينتحر المنتحرون؟!

٢٧

واستأثر انتحار فائز باهتمام السكارى فى البوظة. تساءل زين علباية الخمار :
ـ لم ينتحر رجل مثل فائز؟
فقال يونس السايس شيخ الحارة :
ـ ليس بسبب الإفلاس، فقد ترك ثروة تجعله من كبار أغنياء الحارة . .
فقال له زين علباية بلهجة تحريض :
ـ لا شك فى أن عندك معلومات بوصفك من رجال السلطة . .
وعز على يونس أن يعلن إفلاسه فقال بنبرة الحذر :
ـ إنهم يكتشفون جميع من كانت لهم صلة بالرجل .
عند ذاك قال حسونة السبع الفتوة متهكما :
ـ هناك سبب أقوى من الإفلاس . .
واتجهت إليه الرءوس بكل إجلال فقهقه قائلا :
ـ الجنون! . . فى دمائهم جنون موروث عن رجال ونساء، حتى كبيرهم الأول المقدس، ألم يكن لقيطا ولصا؟!

٢٨

ومضت حياة آل الناجى ثقيلة كئيبة. أجل الزفاف بطبيعة الحال، وواصل ضياء وعاشور حياتهما اليومية وقد انطفأت فى نفسيهما جذوة الإبداع والسعادة. أما حليمة البركة فقد اعتزلت فى جناحها، تجتر الأحزان وتتعزى بالعبادة . .

٢٩

وذات مساء ـ وكان الشتاء ما زال يسفع الحارة بسياطه ـ جاء عم يونس السايس إلى الدار، يسير بين يدى مأمور القسم وقوة من المخبرين. اجتمع المأمور وشيخ الحارة بالأسرة فى قاعة الاستقبال، وسرعان ما سأل المأمور:

ـ لمن وكالة الفحم والداران؟

فأجاب ضياء:

ـ كانت ملك المرحوم، وعنه ورثناها.

ـ إلىّ بوثائق الملكية.

ذهب ضياء ثم رجع بصندوق فضى متوسط الحجم، فمضى المأمور يطالع الوثائق، ثم ردد عينيه بين حليمة وابنيها وقال:

ـ كل شىء ملك للغير..

لم يفقه أحد معنى لقوله، ولم تعكس وجوههم أى أثر، فقال يونس السايس:

ـ جميع ما فى حوزتكم من تجارة وعقار ملك للغير، لم يكن ملكا لفائز، وبالتالى لا حق لكم فيه..

صرخ ضياء:

ـ ما معنى ذلك؟

فقال شيخ الحارة:

ـ الأمر للّه. عليكم أن تسلموا الدار والوكالة فى الحال..

ـ فى الأمر خطأ ولا شك!

ـ لقد باع فائز كل شىء، وقدم المالك الجديد المبايعة وهى صحيحة لا شك فيها!

تساءل عاشور بذهول:

ـ أحقًا ما تقول؟

فقال المأمور بهدوء وحزم معا:

ـ لم نأت فى هذه الساعة للمزاح..

ـ إنه فوق ما يتصور العقل!

ـ ولكنه الواقع الذى لا شك فيه..

فتساءل ضياء بفزع :

ـ إذن فأين ثمن البيع ؟

ـ علم ذلك عند اللّه والمنتحر . .

وسكت المأمور لحظات ثم استدرك :

ـ لعله كان بيعا صوريا ، ولعله تم خلال مقامرة جنونية . التحقيق ماض فى سبيله القذر !

وقال ضياء :

ـ فوق ما يتصور العقل !

وقال عاشور :

ـ إنها جريمة تسمى السرقة !

فتساءل المأمور :

ـ لم انتحر بدل أن يبلغ عن السرقة؟

ـ فى الأمر جريمة يا حضرة المأمور .

ـ بل سلسلة من الجرائم ! . . ولكن لا بد أولا من التفتيش !

٣٠

لبثت الأسرة تنتظر مهيضة تحت حكم الإعدام . رجع المأمور وهو يقول :

ـ سلسلة من الجرائم ، الجرائم البشعة . . ، هلموا معنا . .

تساءلت حليمة بصوت متهدج :

ـ إلى أين ؟

ـ إلى القسم . .

وقال يونس السايس ملاطفا :

ـ لا بد من استكمال التحقيق . .

تساءل عاشور :

ـ أنحن متهمون؟

فقال المأمور بحزم :

ـ صبرك ، وما صبرك إلا باللّه . .

٣١

جرى التحقيق طويلا مرهقا. وعلى ذمته حجزت الأسرة فى سجن القسم أسبوعا. ولكن ثبت بالدليل وشهادة الشهود أنه لم توجد علاقة بينهم وبين عمل فائز السرى الخارجى، فثبتت براءتهم وأطلق سراحهم فرجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزى والعار لا مأوى لهم.

٣٢

وكانت الحقائق قد سبقتهم إلى الحارة مثل رائحة عفنة. عرف الكبير والصغير، الصديق والعدو أن فائز بدأ مغامرته ببيع الكارو. أنه استثمر ماله فى الدعارة والقمار والبرمجة والمخدرات. وكان يقامر بثروات خيالية، وفى حال الخسران كان يستدرج الغريم مستعينا بالنساء والمخدرات فيقتله ويستولى على النقود ثم يواريه فى فناء داره. وفى آخر مقامرة خسر أمواله جميعا، ثم اضطر إلى المقامرة بأملاكه فى شكل عقد بيع صورى فخسرها أيضا، ولم يتمكن من قتل غريمه الذى فر بروحه وماله. ولما خسر كل شىء، وأصبح سره مهددا بالانفضاح انتحر. وقد تلقى رجال الأمن رسالة من مجهول ـ لعله كان شريكا ـ وهى التى دلت السلطة على سر الجرائم ومدافن الضحايا. هكذا كشف الغطاء عن سر فائز المفزع، نجاحه وانتحاره!

٣٣

رجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزى والعار لا مأوى لهم. غدت حكايتهم نادرة الشامتين ومفزع المتخيلين. وأضرم نارها السبع وعلباية والعجل. وبقوة الحقد أمطرتهم الأفواه بصقا والأكف صفعا حتى هرولوا نحو القبو، ومنه تسللوا إلى الممر، ثم استقروا فى القرافة..

وأراد الشيخ جليل شيخ الزاوية أن يتشفع لهم فقال:

ـ لا تزر وازرة وزر أخرى . .

فصاح به حسونة السبع :

ـ اسكت يا كافر وإلا شنقتك بشال عمتك !

وكان آل الخشاب وآل العطار فى مقدمة من تبرأ منهم . .

٣٤

أقامت الأسرة المطاردة فى حجرة الرحمة بمدفن شمس الدين . فى الجيوب قروش معدودة، وفى القلوب أسى جديد أنساهم أحزان الموت والإفلاس . تحجرت الأعين، حتى عينا حليمة البركة، جلسوا متقاربين، ينشدون النجاة من تلاصقهم، ويستدفئون بنبضات قلوبهم الشامل، وريح الشتاء تزمجر بين شواهد القبور . وإذا بضياء يصيح :

ـ الكلاب !

فقالت حليمة برجاء :

ـ فلنفكر بحالنا . .

فقال ضياء بمرارة وسخرية :

ـ لم يبق أمامنا إلا أن نعمل ترابية . .

فقالت الأم :

ـ معاشرة الجثث أطيب . .

وتساءل عاشور بذهول :

ـ أقضى علينا حقًا بهجر حارتنا؟

فقال له أخوه :

ـ ارجع لتغسل وجهك مرة أخرى ببصاقهم !

فقال عاشور بتحد :

ـ سنعيش حياتنا على أى حال . .

ـ لنرجع إلى التسول . .

وكانت الريح تزمجر فى الخارج بين شواهد القبور . .

٣٥

وفى اليوم التالى دخلوا فى حال جديدة من الحزن امتازت بالهدوء والركود. قالت حليمة البركة:

ـ لا وقت لدينا نضيعه..

فعلق ضياء على قولها بأنه لا وقت لديهم ولا مال ولا صديق ولا شىء، فتساءلت:

ـ أين يجدر بنا أن نذهب؟

فأجاب ضياء:

ـ بلاد اللّه لا حدود لها..

أما عاشور فقال:

ـ لنبق فى المدفن غير بعيدين عن حارتنا حتى يتاح لنا الرجوع..

تمتم ضياء بازدراء:

ـ الرجوع؟!

ـ أجل، لا بد من الرجوع ذات يوم، وأكثر من ذلك، لا حياة لنا إلا فى حارتنا..

فحسمت حليمة الخلاف قائلة:

ـ لنبق هنا بعض الوقت على الأقل..

عند ذاك قال ضياء:

ـ لم أنم ليلة أمس، فكرت حتى سمع الأموات نبضات فكرى، صدقت عزيمتى على قرار..

ـ ما هو؟

ـ ألا أبقى هنا..

فتجاهلته أمه وقالت:

ـ عن نفسى أعود إلى ممارسة مهنتى السابقة فى أطراف الحى البعيدة..

فقال عاشور:

ـ سأسرح بفاكهة..

تضايق ضياء من تجاهلهما رأيه فراح يؤكده قائلا:

ـ سأذهب ولو اضطررت إلى الانفصال عنكما . .

فسألته أمه :

ـ أين؟ وماذا تفعل؟

فقال مواصلا انفعاله :

ـ لا أدرى ، سأتحدى الحظ والقدر . .

فتساءلت بحزن :

ـ كما فعل الآخر؟

فصاح بإصرار :

ـ كلا . . توجد سبل أخرى . .

ـ أعطنى مثلا . . ؟

ـ لست نبيا . .

وقال له عاشور برقة :

ـ ابق معنا فما أحوج بعضنا إلى البعض .

فقال بإصرار نهائى :

ـ كلا ، لقد قضى الأمر . .

٣٦

ودع ضياء أمه وأخاه وذهب . دمعت عينا حليمة وهى تودعه ولكن لم يكن ثمة متسع للحزن . واستقبلت هى وعاشور حياة معاناة شاقة . سرحت بالمفتقة والمخلل كالمتسولات ، وسرح عاشور بالفاكهة ، عملاقا يحمل مقطفا . كأنما قد تعاهدا على الصبر وتجنب الشكوى وعدم نبش ذكرى ما مضى . ولكن الماضى لم يقتلع من أعماقهما . ذكرى الدار ذات الأجنحة ، والعيش الرغيد ، وأبهة الدوكار وحجرة الإدارة . ذكرى العباءة الفضفاضة والمسبحة الكهرمانية وروائح المسك والعنبر والكلمات الطيبة . وعزيزة العطار باليشمك والابتسامة الهانئة . وإقبال يونس السايس مداهنا وقوله المأثور فى الصباح «صبحك اللّه بالسعادة يا من يشرق النور من جبهته» . آه يا فائز ماذا فعلت بنفسك وبنا؟! حتى جلال المجنون لم يقتل ويدفن الجثث . ما هذه اللعنة التى تطارد ذرية صاحب الولاية والمعجزة؟

ودأب على قضاء وقت راحته فى الخلاء حيث رعى الغنم. حيث لجأ عاشور صاحب العهد وتلقى النعم. ذلك الجد الذى أحبه وآمن بعهده. وعبد خيره وقوته. أليس هو مثله حبا فى الخير وامتلاكا للقوة؟ ولكن ماذا فعل كلاهما بخيره وقوته؟ أما الجد فقد حدثت على يديه المعجزة، وأما هو فيسرح بالخيار والقثاء والرطب.

وفى الليل دأب على التسلل إلى ساحة التكية. يتلفع بالظلام ويستضىء بضوء النجوم. يردد البصر بين أشباح التوت والسور العتيق. يقتعد مكان الناجى ويصغى إلى رقصات الأناشيد. ألا يبالى رجال اللّه بما يقع لخلق اللّه؟ متى إذن يفتحون الباب أو يهدمون الأسوار؟ يريد أن يسألهم لماذا ارتكب فائز جرائمه. حتى متى تشقى حارتنا وتمتهن؟ لم ينعم الأنانيون والمجرمون؟ لم يجهض الطيبون والمحبون؟ لم يغط فى النوم الحرافيش؟

هذا والجو يمتلئ بالأناشيد..

ديدى كه بار جز جور وستم نداشت
بشكست عهد وز غم ماهيج غم نداشت

٣٧

وقالت حليمة لنفسها إنه يبدو دائما منشغل البال، شارد اللب، فيم يحلم يا ترى؟ هل يمكن أن تمضى الحياة فى معاناة متصلة بلا نسمة ترطبها؟ وسألته بحنان:

ـ ماذا يشغلك يا عاشور؟

فلم يجب، فتساءلت:

ـ ألا يحسن بنا أن نجد لك زوجة تؤنس وحشتك؟

فقال باسما:

ـ ما نجد اللقمة إلا بشق الأنفس...

ـ إذن فهناك ما يكدر صفوك..؟

فقال بصدق:

ـ كلا يا أمى..

فلتصدقه ولكن ماذا يشغله؟.. فى باطنه حياة كاملة مجهولة. لذلك تشعر بالغيرة كما تشعر بالخوف..

٣٨

وضاق بأسراره ذات ليلة. كان الوقت ربيعا وقد طاب الجلوس فى مكان غير مسقوف من المدفن. وانبسطت السماء متبرجة بما لا يحصى من نجومها. كانا يتناولان عشاء من المش والخيار. وقال عاشور:

ـ أتساءل أحيانا عما يفعل ضياء..

فتنهدت حليمة وتمتمت:

ـ إنه نسينا تماما..

وغرق عاشور فى الصمت فلم يسمع إلا صوت تمطقه ونباح الكلاب عند مشارف القرافة. ثم عاد يقول:

ـ أخاف أن يفعل كما فعل فائز من قبل..

فقالت الأم محتجة:

ـ لقد ضرب لنا المرحوم مثلا لا يمكن أن ينسى..

ـ ولكننا ننسى دائما يا أمى..

ـ أهذا ما يشغلك يا عاشور؟

فحنى رأسه بالإيجاب فى ضوء هلال شاحب. مضى يتساءل:

ـ لم سقط فائز؟ لِمَ جن جدنا جلال؟ لِم يفترسنا حسونة السبع؟

ـ أليس عندنا من الهم ما يكفى؟

ـ إنه هم واحد متصل الحلقات..

فاستعاذت حليمة بالله وقالت:

ـ اسمه الشيطان..

ـ أجل، ولكن لم يغرر بنا بلا عناء؟

ـ إنه ينهزم أمام المؤمنين...

ورجع للصمت وقد فرغ من العشاء وراح يدخن جوزة من المعسل ونباح الكلاب فى اشتداد حتى انقلب فى بعض خيوطه إلى عواء. وقال بغتة:

ـ إليك رأيى يا أمى. الشيطان ينتصر بالتسلل من نقاط الضعف فينا.. فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم فواصل عاشور قائلا:

ـ إليك رأيى أيضا، حبان يشكلان أضعف ما فينا، حب المال وحب السيطرة على العباد. . .

فتمتمت حليمة :

ـ لعلهما شىء واحد . .

ـ ربما، المال والسيطرة . .

ـ حتى عهد جدك انتكس . .

فردد بغموض :

ـ جدى !

فحدجته بنظرة متسائلة، فتساءل بدوره :

ـ ماذا كان ينقصه؟

ـ ينقصه؟ !

ـ أعنى لماذا انتكس؟

ـ لم يكن الذنب ذنبه . .

فتمتم بعجلة :

ـ طبعا . .

ولكنه تساءل فى سره عما كان ينقصه، عما أفشل سعيه النبيل عقب وفاته أو عقب وفاة شمس الدين. ما دام يوجد خطأ فلا بد أن يوجد صواب. وإذا وجد الصواب مرة فيمكن أن يوجد مرة أخرى، وإذا كان قد انتكس بعد وجوده فيمكن أن نضمن له حياة لا تعرف الانتكاسة.

وعادت حليمة تتساءل :

ـ أليس لديك من الهم ما يكفيك وزيادة؟ !

٣٩

كلا، لم يقنع بما لديه من هم. وكيف يقنع من أدمن الوجود كل يوم ساعة فى الخلاء وساعة أو ساعتين فى ساحة التكية؟ ! كيف يقنع من ينطوى صدره على جذوة دائمة الاشتعال؟ كيف يقنع من تؤرقه الأحلام الملونة؟ كيف يقنع من بات يعتقد بألا جد له إلا عاشور الناجى؟

ورسم فوق رمال الخلاء طريقا. وتخيله على ضوء النجوم فى ساحة التكية. وناجاه فى تجواله ومنامه. حتى تجسد له كالسور العتيق قوة وصلابة وجلالا.

٤٠

وتلكأ طويلا فى سوق الدراسة. فى سوق الدراسة يتصعلك كثيرون من حرافيش الحارة. لقد كان يتجنبه لذلك السبب، ومن أجل ذلك يتلكأ اليوم فى جنباته. ومر أمام تجمعاتهم وهو ينادى مترنما بالخيار. سرعان ما عرفه بعضهم هتف هاتفهم:

ـ المعلم عاشور!

وسخر صوت قائلا:

ـ أخو السفاح يسرح بالخيار..

وأقبل عاشور نحوهم يحمل البشاشة فى قسماته الغليظة. مد يده وهو يقول:

ـ أترفضون هذه اليد مثل الآخرين؟

فصافحوه بحرارة وقال أحدهم:

ـ عليهم اللعنة..

وقال ثان:

ـ ما وجدنا منك إلا الخير.

ـ وأمك الطيبة كيف حالها؟

فقال عاشور:

ـ برؤياكم رجعت روحى الشاردة إلى وطنها..

وقضى بينهم ساعة سعيدة مترعة بالحنين والبهجة. ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع قط عن سوق الدراسة.

٤١

بلقاء الحرافيش اشتعلت النار فى كيانه كله. تجمعت قواه الحيوية كلها ودقت جدران قلبه تريد أن تنطلق. لا يمكن أن ينام من تضطرب جوانحه بهذه القوة كلها. إنه يتحدى المجهول كما تحداه فائز من قبل وكما يتحداه ضياء اليوم، ولكنه يشق طريقا آخر، ويتطلع

إلى آفاق أبعد. إنه يواجه المجهول ويصافحه ويرمى بنفسه فى خضمه. كأنما كتبت عليه المغامرة والمقامرة وركوب المستحيل. إنه يحمل سرا عجيبا، ينبذ الأمن والسلامة، ويعشق الموت وما وراءه. ولقد رأى فى منامه من اعتقد أنه عاشور الناجى ورغم أنه كان يبتسم فقد سأله بنبرة عتاب واضحة :

ـ بيدى أم بيدك؟

وكررها مرتين فوجد عاشور نفسه يجيبه وكأنما أدرك ما يسأل عنه :

ـ بيدى !

فظل الناجى باسما ولكنه توارى كالغاضب مخلفا وراءه الخلاء.

وتساءل عاشور لدى استيقاظه عما عناه جده بسؤاله، وعما عناه هو بجوابه، وتحير طويلا ولكن قلبه امتلأ بإلهام التفاؤل والإقدام.

٤٢

وذات يوم طرح هذا السؤال على الحرافيش فى سوق الدراسة :

ـ ماذا يرجع حارتنا إلى عهدها السعيد؟

وأجاب أكثر من صوت :

ـ أن يرجع عاشور الناجى.

فتساءل باسما :

ـ هل يرجع الموتى؟

فأجاب أحدهم مقهقها :

ـ نعم.

قال بثبات :

ـ لا يحيا إلا الأحياء.

ـ نحن أحياء ولكن لا حياة لنا . .

فسأل :

ـ ماذا ينقصكم؟

ـ الرغيف . .

فقال عاشور :

ـ بل القوة!

ـ الرغيف أسهل منالا . .

ـ كلا!

فسأله صوت :

ـ إنك قوى عملاق، فهل تطمح إلى الفتونة؟

وقال آخر :

ـ ثم تنقلب كما انقلب وحيد وجلال وسماحة؟!

وقال ثالث :

ـ أو تُقتل كما قُتل فتح الباب . . .

فقال عاشور :

ـ حتى لو صرت فتوة صالحا فما يجدى ذلك؟

ـ نسعد فى ظلك!

قال آخر :

ـ لن تكون صالحا أكثر من ساعة!

فتساءل عاشور :

ـ حتى لو سعدتم فى ظلى، فماذا بعدى؟

ـ ترجع ريمة لعادتها القديمة . .

وقال رجل :

ـ لا ثقة لنا فى أحد، ولا فيك أنت!

فابتسم عاشور قائلا :

ـ قول حكيم .

وقهقه الحرافيش فعاد عاشور يتساءل :

ـ ولكنكم تثقون فى أنفسكم!

ـ وما قيمة أنفسنا؟!

فتساءل عاشور باهتمام :

ـ أتحفظون السر؟

ـ نحفظه من أجل عيونك!

فقال عاشور بجدية :

ـ لقد رأيت حلما عجيبا، رأيتكم تحملون النبابيت . .

وقهقهوا طويلا، ثم قال رجل مشيرا إلى عاشور:

ـ هذا الرجل مجنون ولا شك، لذلك فإنى أحبه . .

٤٣

طرق طارق باب حجرة الرحمة. كان عاشور يجالس أمه عقب العشاء متدثرين ببطانيتين اتقاء برد الشتاء القارس. وفتح عاشور الباب فرأى على ضوء المصباح وجها يعرفه، وسرعان ما هتف:

ـ أخى ضياء!

وثبت حليمة البركة وضمته إلى صدرها. ذابوا دقائق فى حرارة ثم أفاقوا فجلسوا على الشلت يتبادلون النظرات. تجلى ضياء بعباءته الغامقة ومركوبه الأخضر ولاثته المنمنمة. تجلى بادى الصحة والسعادة. وانقبض قلب عاشور وثارت هواجسه. وختمت حليمة على ظنونها بابتسامة وحنان. وخرج ضياء من الصمت القصير قائلا:

ـ ما أطول الأيام!

ثم وهو يضحك:

ـ وما أقصر الأيام!

وتمتمت حليمة البركة وقد اغرورقت عيناها:

ـ نسيتنا تماما يا ضياء . .

فقال ضياء بلهجة جمعت بين التشكى فى ظاهرها والظفر فى أعماقها:

ـ كانت الحياة شاقة فوق ما يتصور العقل . .

وآن أوان التحدث عن «الحاضر» ولكن حليمة وعاشور أحجما بادئ الأمر عن الخوض فيه. ذكرهما المنظر بمنظر سابق لا يمحى من الذاكرة واستحوذ عليهما قلق خفى. وقرأ ضياء أفكارهما فقال:

ـ أخيرًا أخذ اللّه بيدنا!

فتمتمت حليمة تملصا من حرج الصمت:

ـ الحمد للّه.

وطالعته بوجه مستطلع فقال بهدوء:

ـ إنى اليوم مدير أكبر فندق ببولاق . . !

ونظر نحو عاشور متسائلا فى مرح :

ـ وما رأيك؟

فقال عاشور بصوت لا حياة فيه :

ـ عظيم!

ـ إنى أقرأ ما يدور بخاطرك!

فتساءل عاشور :

ـ أليس الأمر مثيرا؟

ـ ولكنه عادى جدّا ، ومختلف جدّا عن مأساة المرحوم . .

ـ ذلك ما أتوقعه .

ـ لقد عملت فى الفندق خادما ، ثم عملت كاتبا لمعرفتى القراءة والكتابة ، ثم حصل استلطاف بينى وبين كريمة صاحب الفندق . .

سكت مليا ليغرز أقواله إلى عمق معقول ثم واصل :

ـ خفت أن أطلب يدها من أبيها فأخسر كل شىء . ولكن وافاه الأجل ، تزوجنا ، أصبحت مدير الفندق وصاحبه الفعلى . .

وتمتمت الأم :

ـ ليكتب اللّٰه لك التوفيق . .

فرنا إلى عاشور مليا ثم تساءل :

ـ أخالجك شك فى أقوالى؟

فقال عاشور بعجلة :

ـ كلا . .

ـ إن مأساة فائز لا تريد أن تمحى من ذاكرتك . .

ـ لا يمكن أن تمحى أبدا .

ـ لقد سلكت طريقا آخر .

ـ الحمد للّٰه . .

ـ تصدقنى؟

ـ نعم .

فقال باعتزاز :

ـ لدى إقبال الدنيا سرعان ما تذكرت أمى وأخى . .

فقالت حليمة البركة :

ـ ليحفظك اللّه .

ـ ذلك أننى لم أتخل عن حلم قديم .

فتساءل عاشور :

ـ حلم قديم؟

ـ أن نرجع إلى حارتنا ، أن نسترد جاهنا ، أن نتلقى تحيات من بصقوا فى وجوهنا . .

فقال عاشور بحزم :

ـ تخل عن حلمك يا أخى .

ـ حقّا؟ ماذا تخاف؟ إن سحر النقود يصنع المعجزات .

ـ لقد فقدنا الاحترام الحقيقى حتى ونحن أغنياء .

فتساءل باستياء :

ـ ما الاحترام الحقيقى؟

هل يفضى إليه بحلمه أيضًا؟ ولكنه لم يجد فيه أى ثقة . يمكن التفاهم مع الحرافيش أما هذا الشخص الناجح المتهور فلا تفاهم معه . أجاب بأسى :

ـ هو ما فقدناه من قديم .

رفع ضياء منكبيه استهانة وقال بضيق :

ـ على أى حال آن لكما أن تودعا هذه الحياة مع الأموات .

فقال عاشور بحزم :

ـ كلا .

ـ كلا ! . . ترفض معونتى؟

ـ نعم .

ـ إنه الجنون بعينه .

ـ المال مال زوجتك ولا شأن لنا به .

ـ إنك تجرحنى .

ـ معذرة يا ضياء ، دعنا فيما نحن فيه .

ـ ما زلت تسىء بى الظن !

ـ كلا ، أعتقد أنى واضح تماما .

فقال باستياء باد :

ـ لن أترك أمى .

فقالت حليمة بعجلة :

ـ إنك ابن طيب ولكننى لن أهجر أخاك .

ـ أنت أيضًا تسيئين بى الظن !

ـ معاذ اللّه ، ولكنى لن أهجره ، دع الأمور للزمن . .

ـ حتى متى تقيمين فى مدفن بين الأموات ؟ !

ـ لم نعد كما كنا فقراء دقة ، حالنا تتحسن يوما بعد يوم . .

فقال بقوة :

ـ بوسعى الآن أن أرجعكما مكرمين إلى حارتنا . .

فقالت حليمة متوسلة بحرارة :

ـ دع الأمور للزمن . .

حنى ضياء رأسه متمتما :

ـ يا لها من خيبة أمل !

٤٤

وعقب انصراف ضياء قالت حليمة :

ـ صددناه بعنف يا عاشور .

فقال بإصرار :

ـ لم يكن من الأمر بد .

ـ ألم تثق بأقواله ؟

ـ نعم ، لم أثق .

ـ إنى أصدقه .

ـ إنى على يقين من انحرافه .

ـ منذا الذى لا يتعظ بعد مأساة فائز ؟

ـ نحن ، ما تاريخ أسرتنا إلا سلسلة من الانحرافات والمآسى والدروس الضائعة . .

ـ ولكنى أصدقه .

ـ كما تشائين . .

وتفكرت قليلا ثم قالت :

ـ حتى أسرارك لم تأتمنه عليها؟

فقال عاشور بأسف :

ـ نعم، إنه لا يؤمن بما أؤمن به . .

ـ ألم يكن من المحتمل أن ينضم إليكم؟

فقال عاشور بهدوء :

ـ إنه لا يؤمن بما أؤمن به .

حقّا لقد جاء ضياء فى وقت غير مناسب إذ كان عاشور يتوثب ـ بعد عناء طويل ـ للخطوة الحاسمة . .

٤٥

وذات يوم عجيب، والحارة تعانى حياتها اليومية المألوفة الكئيبة، والشتاء يولى مودعا، انحدر من تحت القبو رجل. عملاق الهيكل، يرفل فى جلباب أزرق وطاقية بنية وبيده نبوت. سار بهدوء وثقة كأنه راجع من غيبة ساعة لا بضع سنين. رآه أول من رآه محمد العجل فمد إليه عينيه بذهول وتمتم :

ـ من؟ . . عاشور!

فقال له عاشور بهدوء :

ـ سلام اللّه عليك يا عم محمد . .

سرعان ما شخصت إليه الأبصار بدهشة، من الدكاكين والنوافذ وأرجاء الحارة شخصت إليه. لم يلق بالا إلى أحد وشق طريقه إلى المقهى وكان حسونة السبع متربعا فوق أريكته، وفى حاشيته جلس يونس السايس شيخ الحارة والشيخ جليل العالم شيخ الزاوية. دخل عاشور المقهى فاتجهت نحوه الأعين فى ذهول. أما هو فمضى إلى ركن وهو يقول :

ـ السلام عليكم .

لم يسمع ردا. وواضح أن الفتوة انتظر منه تحية خاصة مشفوعة باستعطاف، ولكنه مضى إلى مقعد بلا مبالاة وجلس. سرعان ما توقع الناس أحداثا. ولم يطق السبع صبرا فسأله بخشونة :

ـ ماذا أرجعك يا ولد؟

فأجاب بهدوء:

ـ لا بد يوما أن يعود الإنسان إلى حارته.

فصاح به:

ـ ولكنك طردت منها منبوذا ملعونا.

فقال عاشور بهدوئه المطمئن:

ـ كان ظلما ولا بد للظلم من نهاية.

فتدخل الشيخ جليل قائلا:

ـ تقدم إلى فتوتنا واسأله العفو.

فقال عاشور ببرود:

ـ لم أجئ لطلب العفو.

فهتف يونس السايس:

ـ ما عرفناك مغرورا ولا وقحا.

فقال بسخرية:

ـ بالصدق نطقت.

عند ذاك نتر حسونة السبع ساقيه [illegible] الأرض وسأله منذرا:

ـ علام تعتمد فى رجوعك إن لم يكن على [illegible]؟

فقال بصوت جهورى:

ـ اعتمادى على اللَّه جل شأنه.

فصاح السبع:

ـ اذهب على قدميك وإلا ذهبت على نقالة.

فوقف عاشور وشد على نبوته. اندفع صبى القهوة خارجا مناديا رجال العصابة. هرع الآخرون إلى الحارة خوفا. انقض السبع بنبوته، وانقض عاشور بنبوته، فارتطم النبوتان بعنف جدار متهدم، ونشبت معركة غاية فى الشدة والقسوة.

وجاء رجال العصابة من شتى الأنحاء فاختفى الناس من الحارة وأغلقت الدكاكين، وامتلأت النوافذ والمشربيات.

وإذا بمفاجأة تدهم الحارة كزلزال. مفاجأة لم يتوقعها أحد. تدفق الحرافيش من الخرابات والأزقة، صائحين، ملوحين بما صادفته أيديهم من طوب وأخشاب ومقاعد

وعصى. تدفقوا كسيل فاجتاحوا رجال السبع الذين أخذوا، وبسرعة انقلبوا من الهجوم إلى الدفاع. وأصاب عاشور ساعد السبع فأفلت منه النبوت، عند ذاك هجم عليه وطوقه بذراعين، عصره حتى طقطق عظامه. ثم رفعه إلى ما فوق رأسه ورمى به فى الحارة فتهاوى فاقد الوعى والكرامة.

أحاط الحرافيش بالعصابة، انهالوا عليهم ضربا بالعصى والطوب فكان السعيد من هرب وفيما دون الساعة لم يبق فى الحارة إلا جموع الحرافيش وعاشور.

٤٦

كانت معركة لم تسبق بمثيل من حيث عدد من اشترك فيها. فالحرافيش أكثرية ساحقة. وفجأة تجمعت الأكثرية واستولت على النبابيت فاندفعت فى البيوت والدور والوكالات رجفة مزلزلة. تمزق الخيط الذى ينتظم الأشياء وأصبح كل شيء ممكنا. غير أن الفتونة رجعت إلى آل الناجى، إلى عملاق خطير، تشكل عصابته لأول مرة أكثرية أهل الحارة. ولم تقع الفوضى المتوقعة، التف الحرافيش حول فتوتهم فى تفان وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحى نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

٤٧

واجتمع بعاشور ليلا يونس السايس وجليل العالم. كانا واضحى القلق، وقال شيخ الحارة:

ـ المأمول ألا يقع ما يقتضى تدخل الشرطة..

فقال عاشور فى استياء:

ـ كم من جرائم ارتكبت تحت بصرك وكانت تقتضى تدخل الشرطة..

فقال الرجل بلهفة:

ـ معذرة، إنك أدرى الناس بظروفنا، أود أن أذكرك أنك انتصرت بهم ولكنك غدا ستقع تحت رحمتهم!

فقال عاشور بثقة:

ـ لن يقع أحد تحت رحمة أحد..

فقال الشيخ جليل العالم بإشفاق :

ـ لم يكبحهم فى الماضى إلا التفرق والضعف . .

فقال عاشور بثقة أشد :

ـ إنى أعرفهم خيرا منك ، عاشرتهم فى الخلاء طويلا ، والعدل خير دواء . .

فتردد يونس السايس قليلا ثم تساءل :

ـ والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟

فقال عاشور بقوة ووضوح :

ـ إنى أحب العدل أكثر مما أحب الحرافيش وأكثر مما أكره الأعيان . .

٤٨

ولم يتوان عاشور ربيع الناجى ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلم الذى جذب به الحرافيش إلى ساحته ، ولقنهم تأويله فى الخلاء ، وحولهم به من صعاليك ونشالين ومتسولين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة .

سرعان ما ساوى فى المعاملة بين الوجهاء والحرافيش ، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوة ولا فتونة . وحتم عاشور على الحرافيش أمرين . أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يوما فيتسلط عليهم وغد أو مغامر ، وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات . وبدأ بنفسه فعمل فى بيع الفاكهة ، وأقام فى شقة صغيرة مع أمه . . وهكذا بعث عهد الفتوة البالغ أقصى درجات القوة وأنقى درجات النقاء . ولم يجد الشيخ جليل العالم بدا من الثناء عليه ، والجهر بالتنويه بعدالته ، وكذلك يونس السايس فعل ، ولكنه ارتاب فى ضميرهما ، ولم يشك فى أنهما يتحسران على الهبات التى كانت تتسرب إليهما من الأعيان ، وعند توزيع الإتاوات بين أفراد العصابة الهاربة .

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحارة ، فعين مكانه الشيخ أحمد بركات . ولما كان يونس السايس معينا من قبل السلطة فقد تعذر عليه هجرها ، وكان يغمغم وهو منفرد بنفسه فى دكانه :

ـ لم تبق فى الحارة إلا الزبالة!

وكان يفضى بذات نفسه إلى زين علباية الخمار فيتساءل الرجل فى قلق :

ـ حتى متى تدوم هذه الحال؟

فيقول يونس السايس :

ـ لا أمل مع بقاء الوحش على قيد الحياة . .

ثم يتنهد مواصلا :

ـ لا شك فى أن أناسا مثلنا تناجوا بما نتناجى به الآن على عهد جده الأول ، فاصبر وما صبرك إلا باللَّه . .

٤٩

وجدد عاشور الزاوية والسبيل والحوض والكُتَّاب ، وأنشأ كُتَّابا جديدا ليتسع لأبناء الحرافيش ، ثم أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فاتفق مع مقاول على هدم مئذنة جلال . وقد كان يصد السابقين عن ذلك خوفهم من إغضاب العفاريت التى تسكنها ولكن الفتوة الجديد لم يخف العفاريت . وقام وهو فى الحارة عملاقًا كالمئذنة ولكنه فى الوقت نفسه مستقر للعدل والنقاء والطمأنينة . ولم يبدأ بتحدى أحد من فتوات الحارات ولكنه كان يؤدب من يتحداه ويجعل منه عظة للآخرين فتهيأت له السيادة بلا معارك .

٥٠

واعتقدت حليمة البركة أنه آن له أن يفكر فى ذاته . وجاءه ضياء أخوه سعيدا ، وفى نيته أن يستعيد وكالة الفحم ، وأن يصير كبير الأعيان فى كنف أخيه الفتوة ، ولكنه لم يلق منه تشجيعا ، فاضطر إلى الاستقرار فى فندقه ، واقترحت حليمة عليه أن يتزوج قائلة :

ـ ما زال فى حارتنا نفر من الأعيان الطيبين الذين لم يفرطوا فيها . .

فتذكر عاشور موقف أسرتى الخشاب والعطار بامتعاض شديد وقال لأمه :

ـ أشعر يا أمى أنك تطمحين إلى حياة أفضل مما نحن فيه . .

فقالت المرأة بصدق :

ـ ليس العدل أن تظلم نفسك !

فقال بقوة محتجا ورافضا :

ـ لا . .

قالها بقوة . . ليست قوة الرفض الحقيقى . بل قوة يدارى بها ضعفا يحس به أحيانا فى أعماق خواطره . فكم يحن أحيانا إلى رغد العيش والجمال . كما يحلم بحياة الدور والمرأة الناعمة . لذلك قال لا بعنف وقوة . وقال لها :

ـ لن أهدم بيدى أعظم ما شيدت من بناء شامخ . .

وأصر على أن يجىء الرفض من ذاته لا حذرا من الحرافيش . إنه يريد أن يتفوق على جده نفسه . لقد اعتمد جده على نفسه على حين خلق هو من الحرافيش قوة لا تقهر ، ولقد مال مرة جده مع هواه وسوف يصمد هو مثل السور العتيق . ومرة أخرى قال بقوة :

ـ لا . .

٥١

وتم له أعظم نصر ، وهو نصره على نفسه . وتزوج من بهية بنت عدلات الماشطة بعد مشاهدة واستقراء من جانبه . وعندما اقتلعت مئذنة جلال من جذورها أحيت الحارة ليلة رقص وطرب . وعقب منتصف الليل ذهب إلى ساحة التكية لينفرد بنفسه فى ضوء النجوم ورحاب الأناشيد . تربع فوق الأرض مستنيما إلى الرضا ولطافة الجو . لحظة من لحظات الحياة النادرة التى تسفر فيها عن نور صاف . لا شكوى من عضو أو خاطرة أو زمان أو مكان . كأن الأناشيد الغامضة تفصح عن أسرارها بألف لسان . وكأنما أدرك لم ترنموا طويلا بالأعجمية وأغلقوا الأبواب .

* * *

وسبح فى الظلام صرير فرنا إلى الباب الضخم بذهول . رأى هيكله وهو ينفتح بنعومة وثبات . ومنه قدم شبح درويش كقطعة متجسدة من أنفاس الليل . مال نحوه وهمس :

ـ استعدوا بالمزامير والطبول ، غدا سيخرج الشيخ من خلوته ، ويشق الحارة بنوره ، وسيهب كل فتى نبوتا من الخيزران وثمرة من التوت ، استعدوا بالمزامير والطبول . .

* * *

عاد إلى دنيا النجوم والأناشيد والليل والسور العتيق . قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته فى أمواج الظلام الجليل . وانتفض ناهضا ثملا بالإلهام والقدرة ، فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة . .

وهتفت الحناجر شادية :

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دارند

واندر آن ظلمت شب آب حياتم دارند

نجيب محفوظ

١ ـ مصر القديمة	ترجمـــة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيـــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ ـ الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ ـ الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ ـ دنيـا اللـه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ ميـرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ١٧٥١١/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 0 - 1785 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227